مذكرات

سيمون دي بوفوار

قوّة العمر

ترجمة: محمد فطومي

مكتبة

قوّة العمر

مذكرات

Author: **Simone de Beauvoir** | اسم المؤلف: سيمون دي بوفوار

Title: **La Force de l'age** | عنوان الكتاب: قوّة العمر

Translated by: **Muhammed Fatumi** | ترجمة: محمد فطومي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2021** | الطبعة الأولى: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Editions Gallimard,
Paris, 1960

telegram @soramnqraa
12 3 2023

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289 | ص.ب: 8272

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أية مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

سيمون دي بوفوار

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

قوّة العمر

ترجمة : محمد فطومي

إلى جون پول سارتر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدّمة

رميتُ بنفسي في مغامرة محفوفة بالمخاطر عندما بدأتُ بالحديث عن نفسي: نبدأ ولا ننتهي. مضى عهد طويل وأنا أتمنّى سرد وقائع عشريني الأولى على نفسي؛ لم أنسَ قط النداءات التي كنتُ أبعث بها للمرأة التي ستستولي عليَّ بالكامل، جسماً وروحاً: لم يبق منّي شيء، ولا حتّى قبضة رماد؛ ناشدتُها أن تنتزعني من هذا العدم الذي قذفت بي فيه. ربّما لم أكتب كتبي سوى لألبّي هذا النّداء، هذه الصّلاة القديمة. في الخمسين، قرّرتُ أنّ الوقت قد حان؛ أعرتُ مداركي لطفلة، لشابة مُهمَلَة في عمق الوقت الضّائع، وتائهة معه. جعلتها توجد بالأبيض والأسود على الورق.

لم أبتعد كثيراً في مشروعي. كبيرةً، كففتُ عن الانشغال بالمُستقبل؛ عندما أنهيتُ *مُذكّراتي* ما من صوتٍ رجع صداه من ماضٍ كي يُشجّعني على مواصلته. كنتُ قد قرّرتُ البدء بشيء آخر. ثمّ هأنذي أفشل. غيرَ مرئيّة، خلف آخر خطّ، ارتسمت نقطة استفهام لم أنجح في مخاتلة تفكيري حتّى لا ينتبه إليها. الحرّية: لماذا؟ كلّ هذا الهرج، هذه المعركة، هذا الهرب، هذا الانتصار، أيّ معنى قد تضفي عليها مُجتمعة حياتي المتبقّية؟ أوّل عمل هو الانزواء خلف كتبي؛ لكن، لا، إنّها لا تمنحني أيَّ إجابة: كانت هي أسئلة بحدّ ذاتها. قرّرتُ الكتابة، وكتبتُ، حسناً: لكن ماذا؟ لمَ هذه الكُتب، هذه فقط، فقط هذه بالذات؟ هل أردتُ أكثر أم أقلّ؟ لا شيء مُشتركاً بين الأمل الفارغ اللانهائي لعشريني والعمل المُنجَز. أردتُ في الآن نفسه أكثر بكثير وأقلّ بكثير. رُويداً، اقتنعتُ أنّ الجزء الأوّل من ذكرياتي يتطلّب في نظري تتِمّة: لا طائل من رواية قصّة عن مهنة الكاتب إن لم أذكر كيف تجسّدتْ.

ثمّ، بعد تفكير عميق، شغلني هذا المشروع بحدّ ذاته. لم تنتهِ حياتي، لكنّها تملك معنى لن يقدر المُستقبل على تغييره. أيّ معنى؟ لأسباب، أوضحتها خلال هذا التّحقيق، تجنّبتُ طرح هذا السّؤال. آن الأوان لتعلّمه.

ربّما قيل لي إنّ هذا الهمّ لا يعني غيري؛ لا؛ أنّي لستُ سوى نسخة استثنائيّة ورديئة عن جان جاك روسو، لو عرض المرء نفسه صفحة مقروءة أمام غيره بكلّ نزاهة، فإنّ الجميع تقريباً سيجدون أنفسهم متورّطين في لعبته. يستحيل تسليط الضّوء على حياتك دون تسليط الضّوء هنا وهناك على حياة غيرك. ثمّ إنّ الكتّاب تلاحقهم الأسئلة: لماذا تكتب؟ كيفَ تُقضّي أيّامك؟ بعيداً عن النّكات والأقاويل، يبدو لي أنّ أناساً كثيرين يتمنّون فهم نمط العيش الذي تفرضه الكتابة. دراسة مثال حيّ أفضل بكثير من الأجوبة المُجرّدة والعامّة: هذا ما يُشجّعني على اختبار مثالي الخاص. ربّما ساعدت هذه الأطروحة على تبديد سوء التفاهم الذي يفصل دائماً بين الكُتّاب والجمهور، الأمر الذي لم أنجُ تماماً من إكراهاته؛ لا يكتسب الكتاب قيمته الحقيقيّة إلّا إذا عرفنا أيّ وضع حفّ به، أيّ تصوّر رافقه ومن كتبه: أردتُ شرح ظروف كتبي وأنا أتحدّث مع القرّاء وجهاً لوجه.

مع ذلك، حريّ بي لفت انتباههم إلى أنّي لا أعتزم قول *كلّ شيء*. رويتُ طفولتي وفترة شبابي دون حذف أيّ تفصيل؛ لكن، إن كنتُ دون قلق، ودون تحفّظ، تعرية ماضِيَّ البعيد، فإنّي لا أكنّ لعمري وقد كبرتُ نفس الحرص ولا أملك نفس الحرّية. ليست القضيّة هنا، نميمة عن شخصي أو عن أصدقائي؛ لا أحبّذ الثّرثرة. تركتُ أشياء كثيرة في الظلّ.

من جهة أخرى، ارتبطت حياتي بحياة جون پول سارتر؛ لكنّ قصّته، ينوي روايتها بنفسه، وأفسح له المجال ليفعل كما لا يفعل أحد أفضلَ منه. لن أبحث في أفكاره، أعماله ولن أتحدّث عنه سوى في حدود تقاطعه مع وجودي.

نقّاد، اعتقدوا أنّي أردتُ في *مُذكّراتي* تلقين الفتيات دروساً؛ أردتُ خصوصاً، التخلّص من دَيْن. على أيّ حال، سيكون هذا التقرير مُجرّداً من كلّ مواعظ. سأكتفي برواية ما كانت عليه حياتي. لن أحكم على شيء، إلّا إذا كان في الحقيقة فائدة. لماذا، ولمن قد تصلُح الحقيقة التي حاولتُ تضمينها هذه

الصّفحات؟ أجهل ذلك. أتمنّى أن نخوض غمارها معاً بأكبر قدر من البراءة (عمدتُ في هذا الكتاب إلى القيام بحذف بعض المقاطع: لكن لم أجنح قط إلى الكذب. لكن ثمّة احتمال أنّ ذاكرتي في علاقة ببعض الأشياء قد خانتني؛ الأخطاء الصغيرة التي قد ينتبه إليها القارئ لا تقوّض الحقيقة في مُجمَلِها).

المؤلّفة

الجزء الأوّل

فصل أوّل

كان أوّل أمرٍ أثملني، عندما عدتُ إلى باريس في سبتمبر 1929، هي حرّيتي. حلمتُ بها منذ طفولتي وأنا ألعب مع أختي لعبة «الفتاة الكبيرة». قلتُ سابقاً أيّ شغف دعوتُها به حين صرتُ طالبة. فجأة، تحقّق لي ذلك؛ كنتُ في كلّ حركة من حركاتي، أشعر بخفّة مُدهشة. صباحاً، أنهض وأبتهج منذ اللّحظة التي أفتح فيها عينَيَّ. في حدود الثّانية عشرة، عانيتُ من غياب ركن يخصّني. تأمّلتُ بحنين تلك الصّورة التي تُجسّد غرفة تلميذة المعهد الإنجليزيّة وأنا أقرأ قصّتها في دفتري : منضدة، أريكة، رفوف مليئة بالكتب؛ كانت تعمل، تقرأ وتحتسي الشّاي دون شهود بين جدران غرفتها ذات الألوان الحارّة: كم كنتُ أغبطها! تصوّرتُ للمرّة الأولى حياة أفضل من حياتي. أخيراً ها أنا أيضاً في بيتي! تخلّصت جدّتي من كلّ الأرائك والرّفوف والتّحف في صالونها. اشتريتُ أثاثاً من الخشب الأبيض، ساعدتني أختي في دهنه بطلاء بُنّي. كان لديّ طاولة، كرسيّان، صندوق كبير، أستخدمه كمقعد وحقيبة أحفظ فيها كلّ شيء، رفوف لوضع الكُتب، أريكة متناسقة مع الورق البرتقالي اللّاصق الذي اخترتُه للجدران. من شرفتي في الطّابق الخامس، كنتُ أرى أشجار الكستناء في شارع «دنفر روشرو Denfert-Rochereau» وأسد «بلفور». كنتُ أتدفّأ على موقد يعمل بالبترول الأحمر تفوح منه رائحة كريهة للغاية؛ يبدو لي أنّ هذه الرّائحة تحفظ لي عزلتي وكنتُ أحبّها. أيّ سعادة في أن أغلق بابي وأن أمضي أيّامي في منأى عن الأنظار! لبثتُ طويلاً غير مكترثة بالدّيكور الذي أعيش فيه؛ ربّما بسبب الصّورة في دفتري أنّي ظللتُ أفضّل الغرف ذات الأرائك، والرّفوف؛ لكنّي كنتُ قانعة بما في حوزتي: يكفي أن أغلق بابي كي أشعر بالامتلاء.

كنتُ أدفع الإيجار لجدّتي وكانت تعاملني بتكتّم أكثر من المُقيمين الآخرين؛ لا أحد يراقب دخولي وخروجي. يمكنني العودة عند الفجر أو أن أقرأ في سريري طوال اللّيل، أن أنام في الظّهر، أن أظلّ في حجر طوعي أربعاً وعشرين ساعة متواصلة، أن أنزل إلى الشّارع فجأة. كنتُ أتناول غداءً مطبوخاً لدى «دومينيك»، وأتناول العشاء في مطعم «كوپول Coupole» كوب شوكولاتة. كنتُ أحبّ الشوكولاتة، أكل الطّبخ، القيلولة الطّويلة واللّيالي التي لا يزورني فيها النّوم، لكنّي أحبّ نزواتي أكثر. لا شيء يُضايقها تقريباً. اكتشفتُ أن «الحياة الجادّة» التي طرق بها الكبار أُذُنَيَّ لم تكن في الحقيقة سوى أشياء لا تساوي الكثير. لم أكن أمزح باختباراتي: شقيتُ كثيراً، كنتُ أخاف الإخفاق، كنتُ أرتطم بعراقيل مُتعبة. لا أجد الآن مُقاومة في أيّ شيء من حولي، ولديَّ شعور بأنّي في عطلة دائمة. كانت بعض الدّروس الخصوصيّة، وبعض السّاعات في معهد «ڤيكتور-دوراي» تضمن لي رغيفي اليومي؛ لم تكن تلك الأعباء تُضايقني لإحساسي بأنّي أخوض لعبة جديدة: إنّي ألعب دور الإنسان الكبير. كنتُ أستمتع بالقيام بالمُشتريات، والتحدّث مع المُدرّسات وأولياء التّلاميذ وإعداد جدول لحساباتي، والإقراض وسداد الدّين وضبط الحساب، لأنّي كنتُ أقوم بها للمرّة الأولى. أذكر حجم سعادتي وأنا أتسلّم صكّي الأوّل. كان لديّ انطباع بأنّي خدعتُ أحدهم.

لم أعبأ بغرفة الحمّام قط؛ لكنّي كنتُ أجد متعة كبيرة في ارتداء الملابس حسب ذوقي؛ كنتُ لا أزالُ في حداد على أبي، ولم يكن من المناسب أن أصدم أحداً؛ اشتريتُ معطفاً، قبّعة وحذاءً رماديّاً؛ وفصّلتُ فستاناً منسجماً معه، وأخرى بالأبيض والأسود؛ وكردّة فعل إزاء الأقمشة اللّيمونيّة اللّون والأخرى القطنيّة، التي كُرّست لي دائماً، اخترتُ الأقمشة الحريريّة: شرائط صينيّة وألبسة سيّئة للغاية كانت موضة شتاء ذلك العام، ومُخملاً ناعماً. كنتُ كلّ صباح أخضّب وجهي بشكل صارخ مثل الشّيطان: لطخة حمراء على كلّ وجنة، الكثير من المساحيق، وأحمر الشّفاه. وجدتُ الأمر غريباً أن يتزيّن المرء على نحو مُكلف يوم الأحد مقارنة ببقيّة الأيّام؛ بالنّسبة إليَّ، ومن هنا فصاعداً، سيمثّل كلّ يوم عيداً وسأتزيّن بنفس الطّريقة في كلّ الظّروف. اكتشفتُ أنّ الشّريط الصّيني والمخمل النّاعم يبدوان غير متناغِمَيْن في أروقة المعهد، وأنّ

حذائي كان سيبلى بشكل أقلّ لو أنّي خففتُ من تجوالي منذ الصّباح وحتّى المساء في شوارع باريس، لكنّي لم أكن أبالي. لم أكن آخذ هيئتي مأخذ الجدّ.

استقررتُ، لبستُ، استقبلتُ الأصدقاء، خرجت؛ لكنّ لا شيء من ذلك كان ضمن أولويّاتي. بدأت حياتي الجديدة فعلاً عندما عاد سارتر إلى باريس في أواسط أكتوبر.

جاء سارتر لرؤيتي في «ليموزان»؛ نزل في فندق «الكرة الذّهبيّة»، الواقع في شارع «سان-جرمان-لي-بال»؛ ولتجنّب التّعاليق الثّرثارة، كنّا نلتقي على مسافة من الضّاحية، في الرّيف. كانت سعادتي لا توصف وأنا أتدحرج على عشب المتنزّه، صباحاً، أقفز وأجوب البراري النديّة، حيثُ كنتُ باستمرار، وأحياناً بمرارة ألوك وحدتي! كنّا نجلس على العشب ونتحدّث. لم أتخيّل، خلال اليوم الأوّل، أنّ انشغالاً كهذا قد يكفينا، بعيداً عن باريس وعن أصدقائنا. «سنحمل معنا كتباً ونقرأ»، طلبتُ. عبّر سارتر عن غضبه؛ ألغى كلّ جولاتي؛ كان يعاني حساسيّة ضدّ الكلوروفيل، كانت المراعي الخضراء تُزعجه، ولم يكن يقبل بها إلّا بشرط أن يتناساها. ليكن. لم يكن الكلام يرهبني، شرط أن أجد التّشجيع الكافي؛ استعدنا أحاديثنا التي انقطعت في باريس، وسرعان ما اكتشفتُ أنّ الوقت كان قصيراً جدّاً أمام حواراتنا التي يمكن أن تستمرّ حتّى نهاية العالم. ما إن طلع نهار جديد حتّى رنّ جرس الفطور. كان سارتر يأكل خبز البهارات أو الجُبن التي كانت ابنة عمّي مادلين وبشكل مُثير للغرابة تضعه في بيت حمام مهجور، بالقرب من المنزل الذي في «الأسفل»: كانت تُحبّ المشاهد الرّوائيّة. ما إن تفتّحت الظّهيرة حتّى ذبلت، حلّ اللّيل؛ عاد سارتر إلى الفندق؛ تناول عشاءه مع مُفوّضين مُسافرين. أخبرتُ عائلتي أنّنا بصدد العمل على كتاب ينقد الماركسيّة. كانت نيّتي أن أتملّقهم بإرضاء حقدهم على الشّيوعيّة، لكنّي لم أنجح قط في إقناعهم. بعد أربعة أيّام لمحتهم على تخوم المرج الذي نزلنا فيه؛ اقتربوا؛ كان أبي عازماً، ومتضايقاً قليلاً تحت قبّعته الصّفراء؛ كان شرر المعركة يتطاير من عيْنَيْ سارتر المتأهّب، الذي كان يرتدي يومها قميصاً ورديّاً عدائيّاً. طلب منه أبي بكياسة مغادرة البلاد: بدأ

النّاس يتجاسرون في الكلام وبدا أنّ سلوكي الظاهري غير اللائق يُفسد سمعة ابنة عمّي التي كانوا يبحثون لها عن زوج. اعترض سارتر لكن دون انفعال، فقد كان مُصمّماً على عدم تقديم رحيله ساعة واحدة. اكتفينا بمواعيد سرّية في غابات كستناء بعيدة. لم يعد أبي إلى ذلك العبء وظلّ سارتر في «الكرة الذهبيّة» أسبوعاً آخر. ثمّ أصبحنا نتراسل يوميّاً. عندما التقيتُ به في أكتوبر، كنتُ قد سوّيتُ ماضِيَّ بالكامل (رويتُ قصّة هذه التسوية في *مُذكّرات فتاة مُلتزمة*)؛ انخرطتُ في قصّتنا دون تحفّظ. كان على سارتر الالتحاق بالخدمة العسكريّة قريباً؛ في انتظار ذلك، كان في عطلة. أقام في شارع «سان–جاك» في بيت جدّه آل «شويتزر» وكنّا نلتقي صباحاً، في اللكسومبورغ الرمادي والذهبي، تحت الأنظار البيضاء للملكات الحجريّات؛ لم نكن نفترق سوى في ساعة متأخّرة من اللّيل. كنّا نجوب باريس سيراً على الأقدام. متابعين حديثنا الطّويل؛ حولنا، حول علاقتنا، حياتنا والكتب التي سننجزها لاحقاً، كنّا نضع نقطة بداية. اليوم، ما يبدو لي الأهمّ في تلك الحوارات، هي تلك الأشياء التي نقولها والتي كنّا نعتقد أنّها مُتاحة: لم تكن كذلك؛ كنّا على خطأ، في كلّ شيء تقريباً. وكي نرسم لأنفسنا خطّاً، كان علينا السّقوط في تلك الأخطاء لأنّها تُجسّد حقيقة ما: وضعنا.

قلتُها سابقاً: يعيش سارتر ليكتب؛ كان يرى أنّ من واجبه أن يشهد على كلّ شيء وأن يعيد صياغته تحت ضوء الحاجة؛ أمّا بالنّسبة إليَّ، فكان ما يحثّني على الكتابة هو أن أعير وعيي لمباهج الحياة التي عليَّ انتشالها من الزّمن والعدم. فُرضت علينا تلك المهامّ بصورة أكيدة ستلعب دور الضامن لإنجازها؛ وانحزنا دون اتّفاق مُسبَق إلى التفاؤل الكانطي: من واجبك، إذاً فأنت قادر؛ ثمّ فعلاً، كيف تكون الإرادة محلّ شكّ، حين تمرّ إلى القرار واليقين؟ إنّه كلٌّ لا يتجزّأ أن تريد وتؤمن بما أردتَ؛ لكن لا شيء كئيباً في هذا التنافر: إنّه يدلّ على تفاؤل قويّ. على الإنسان أن يُعيدَ خلقَه، وسيكون هذا المنجز من إبداعنا. لم تلُح لنا وسيلة أخرى خلاف الكُتب: كانت الأعمال العامّة تُضجرنا؛ لكنّنا توقّعنا أنّ مجريات الأحداث ستكون بحسب رغباتنا دون تدخّل من جانبنا؛ حول هذه النّقطة، كنّا في خريف سنة 1929 نتقاسم حماس اليسار الفرنسي برُمّته. كان واضحاً أنّ السّلم سيسود؛ وما ازدهار

الحزب النازي في فرنسا سوى ظاهرة لا تُشكّل خطورة. سيتبدّد الاستعمار في وقت وجيز: حملة غاندي في الهند، والاضطرابات الشيوعيّة في الإندوشين كلّها تشي بذلك. وكانت ضراوة الأزمة التي تجتاح العالم الرأسمالي، تسمحُ بالتنبّؤ بأنّ هذا المجتمع لن يصمد طويلاً. بدا لنا أنّنا نشهدُ العصر الذهبي الذي يُمثّل في عيوننا الحقيقة الخفيّة للتاريخ التي ستنجلي دون شكّ.

كنّا نجهل وزن الحقيقة على جميع المُستويات. كنّا نتفاخرُ بحرّية جذريّة. آمنّا بهذه الكلمة طويلاً وبشراسة حتّى إنّ عليَّ إعادة النّظر إليها عن قرب كي أفهم ما حمّلناها إيّاه.

كانت الحرّية تشمل تجربة شخصيّة. وكانت تتجسّد في كلّ نشاط، خصوصاً النّشاط الفكري لأنّها لم تكن تقبل التكرار؛ اشتغلنا كثيراً؛ كان علينا أن نفهم ونبتكر الجديد، دون هدنة؛ كان لدينا إزاء الحريّة حدس عمليّ، مُطلَقَة؛ أخطأنا في عدم تأطيرها داخل حدود دقيقة؛ أخذتنا صورة حمامة كانط: لم يكن الهواء العكسي يُعرقلها بل يُساعدها على التّحليق. بدا لنا المُعطى مادّة نفيسة لجهودنا لا شرطاً لها: فكّرنا في عدم الارتباط بشيء. تماماً مثل العمى السياسي الذي كان مُخيّماً علينا، فإنّ غرورنا الروحاني يُفسّرُ أولاً بعنف مشاريعنا. الكتابة والخلق: لم يكن مُتاحاً أن نخوض هذه المغامرة لو لم يتخيّل كلانا أنّه سيّد نفسه، سيّد نهاياته وأدواته. لم تكن جسارتنا في معزل عن الأوهام التي تدعمها والظّروف التي ساعدت على ظهورها. ما من عائق خارجي أجبرنا على المُضيِّ عكس التيّار إزاء أنفسنا؛ كنّا نودُّ أن نعرف، وأن نُعبّر: وجدنا أنفسنا موغلين في هذا الطّريق حتّى النّخاع. كان وجودنا يُلبّي آمالنا بدقّة، حتّى بدا لنا أنّنا اخترناه: واعتقدنا أنّ المُجريات ستُذعن دائماً لمشيئتنا. أخفى عنّا الحظّ الذي مُنحناهُ مآسي العالم. لم نكن من ناحية أخرى نشعر في أعماقنا بانتماءات. حافظتُ على علاقات جيّدة مع والِدَيَّ، لكنّهما فقدا كلَّ سيطرة عليَّ؛ لم يعرف سارتر أباه قط؛ لم تُجسّد أمّه ولا أجدادُه النّفوذ في نظره؛ في أحد المعاني، كنتُ وإيّاه دون عائلة ولقد اخترنا هذا الوضع عن مبادئ. شجّعتنا على ذلك الواقعيّة الدّيكارتيّة، التي مرّرها إلينا «آلان Alain»، والتي تبنّيناها بصدق لأنّها كانت تلائمنا. لا ندم أو احترام أو تقيّد فعلي يمنعنا

من اتّخاذ قراراتنا في ضوء العقل والرّغبة؛ لم نلحظ في أنفسنا عتمة أو تعكّراً: تصوّرنا أنّنا أنقياء الضّمير والإرادة. تمتّن هذا الاقتناع بحماسنا إزاء المراهنة على المُستقبل؛ لم ننحز إلى أيّ مصلحة مُعيّنة ما دام علينا دائماً أن نتجاوز الماضي والحاضر. لم نتردّد في معارضة كلّ شيء وذواتنا في كلّ مرّة تُتاح لنا فرصة القيام بذلك؛ كنّا ننقد بعضنا ونحاكم بعضنا بأريحيّة لأنّ كلّ تغيّر يعني التقدّم. وبما أنّ جهلنا كان يُخفي عنّا أغلب المشاكل التي قد تُقلقنا، فقد كنّا نقنعُ بتلك المراجعات وكنّا نحسب أنّنا نتمتّع بالجسارة.

رسمنا طريقنا دون إكراهات أو عوائق أو إزعاج أو خوف؛ لكن كيف يُعقَل ألّا نرتطم على الأقلّ ببعض الحواجز؟ أخيراً، لأنّ لدينا جيوباً مُسطّحة؛ كنتُ أكسب عيشي بشكل زهيد، وكان سارتر يُدير إرثاً هزيلاً عن جدّته لأبيه: كانت المحال تعجّ بأشياء ممنوعة عنّا؛ وكانت الأماكن الباذخة موصدة دوننا. كنّا نقابل تلك الموانع باللّامبالاة والتّحقير أيضاً. لم نكن نُسّاكاً، كنّا أبعد من ذلك بكثير؛ لكن، اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى -وكان سارتر يُشبهني في ذلك- وحدها الأشياء التي في متناول يدي، خصوصاً منها تلك التي يمكنني لمسُها، ما يُساوي وزنها حقيقة؛ كنتُ منقادة كلّياً إلى رغباتي وملذّاتي، حتّى لم يبقَ منّي شيء أبذّره في مسرّات عبثيّة. لم كان علينا أن نأسف على عدم ركوب السيّارة في حين أنّنا كنّا نقوم بكمّ من الاكتشافات المُدهشة ونحن نتجوّل سيراً على الأقدام على طول قناة «سان-مارتان» أو على طول ميناء «بيرسي»؟ كنّا عندما نأكل في غرفتي الخبز وكبد الإوزّ من عند «ماري»، أو عندما نتناول العشاء في مطعم «ديموري» الذي كان سارتر يحبّ لديه رائحة الجعة الثّقيلة والمُخلّلات، لم نكن نشعر بأنّنا محرومان من شيء. مساءً، مساءً كنّا نذهب إلى مطعم «كولاج إين Collège Inn» أو «فولستاف Falstaff» لنحتسي، بانتقاء، كوكتيل «برونكس»، «السايدكار»، والروم (باكاردي)، «ألكساندرا»، والمرتيني؛ أعشق كوكتيل الخمور بالعسل التي كان يُقدّمها الفايكينغ، وكوكتيل المشمش الذي كان اختصاص حانة «باك دي غاز Bec de Gaz»، في شارع مونبارناس: ماذا كان بار «ريتز» يقدّم لنا أفضل؟ كانت لدينا حفلاتنا. ذات مساء، كنّا في مطعم الفايكينغ، أكلتُ دجاجة التوت البرّي بينما كانت أوركيسترا على المنصّة تعزف لحنا منتشراً آنذاك. كنتُ على دراية

بأنّ تلك الحفلة لم تكن لتعجبني لو لم تكن استثنائيّة. كان تواضع مواردنا هو مصدر سعادتنا.

ثمّ ألسنا نبحثُ في الأشياء الثّمينة عن النّشوة الفوريّة التي تمنحها: إنّها تصلُح وسيلة للتأمّل مع الآخرين؛ أطرافٌ مُرفَّهة هي التي تمنحها أبّهتها. وبسبب تربيتنا المُحافظة وصرامة التزامنا الفكري فإنّ المُعتادين على القصور والرّجال المتأنّقين ونساء الفرو والأمراء والأثرياء أصحاب الملايين، لا يُغروننا: وحتّى وإن كانوا منتهزين لنظام نُدينه، فنحن نعتبر هذا العالم الجميل خمر الأرض. أشعر ناحيتهم بشفقة ساخرة؛ أقول في نفسي وأنا أراهم مقطوعين عن الحشود، في حجر داخل بذخهم وغرورهم، عندما أمرّ أمام منازل آل «فوكيتس Fouket's» أو «ماكسمس Maxim's»، إنّهم هم المقصيّون. عموماً، لا وجود لتميّزهم في نظرهم؛ ولا أرى أنّ كياستهم تنقصني إلّا كما كان إغريق القرن الخامس تنقصهم السّينما والرّاديو. كان جبل الأموال حاجزاً أمام فضولنا؛ لكنّنا لم نكن حانقين لأنّ النّاس الفاخرين كانوا يفتقدون إلى القدرة على تعليمنا أيَّ شيء؛ لم يكن إهدارهم الاحتفالي ليملأ أيّ فراغ.

لا شيء يحدّنا إذاً، ولا شيء يُعرِّفُنا، ولا شيء نخضعُ إليه؛ كنّا نحنُ من يخلق الصّلة بالعالم؛ كانت الحرّية مادّتنا. كنّا نمارسها يوماً بيوم عن طريق أنشطة تساوي الكثير في حياتنا: اللّعب. أزواجٌ كثيرون كانوا يعوّضون فقرهم المُشترك باللّعب والقصص: لجأنا إلى ذلك بحماس تُمليه طبيعتنا النّشطة ولأنّنا نعيش مُعطّلين مُؤقّتاً. كوميديا، تمجيد، كان لابتكاراتنا دور مُحدّد: إنّها تحمينا من الطّبع الجاد الذي كُنّا نرفضه على غرار نيتشه، ولأسباب مُشابهة؛ إنّها تُمدّد العالم بإحالته على الخيال وتُبقينا على مسافة منه.

بيننا نحنُ الاثنيْن، كان سارتر أكثر انسياباً وتشبّعاً بواقعنا. كان يكتب أغاني دراميّة، أغاني للأطفال، حِكَماً ساخرة، مقاطع غزليّة، قصصاً سريعة، كلّ أنواع قصائد الومضة، وكان أحياناً يُغنّيها بألحان من تأليفه؛ لم يكن يكره لا لعبة التّجنيس ولا «البين بين»؛ كان يتسلّى بالسّجع والجِناس؛ كانت تلك

طريقته في التعرّف على الكلمات، اكتشافها، وتجريدها من وقعها المألوف. استعار من «جون ميلينغتون سينغ Synge»[1] أسطورة «بالادان Baladin»، المتسكّع الأبدي الذي كان يُخفي رداءة الحياة خلف حكايات جميلة كاذبة؛ منحنا *المرجل الذّهبي* لجيمس ستيفنس قصّة «ليپريكورن Lépricone»: قزم محنيٌّ تحت أغصان الأشجار، يتحدّى الألم، والسّأم والشكّ بصنع أحذية صغيرة. كان كلاهما، المُغامر والمُستقِر يعلّمان الدّرس نفسه: الأدب قبل كلّ شيء؛ لكنّ هذه القيمة تفقد بواسطتهما طبيعتها الجازمة؛ كنّا نقف على مسافة إزاء الكتب التي سنكتُبها والتي كنّا مُتشبّثين بإنجازها بكلّ قوّة، وكُنّا نُسمّيها «أحذيتنا الصّغيرة».

كان لكلّ منّا صحّة حصان واستعداد ضاحك. لكنّي لم أكن أتحمّل الاستياء كثيراً؛ كانت ملامحي تتغيّر، وأنغلق وأتوقّف عن القيام بأيّ شيء. وهبني سارتر شخصيّة ثانية؛ كنتُ في العادة الـ «كاستور»[2]؛ لكن كان هذا الحيوان أحياناً يترك مكانه لامرأة شابّة مُزعجة: الآنسة دو بوفوار؛ نسج سارتر حول هذا المجال أشياء مُختلفة تنتهي بإدخال البهجة عليَّ. أمّا بالنّسبة إليه، يحدث باستمرار – عندما تأبى الغيوم مغادرة رأسِه، أو حين تؤدّي به الظّروف إلى السّلبيّة – أن يشتدَّ عليه الطّارئ؛ فينطوي على نفسه كما لو كان يقلّص من فرص الاستسلام إليه. فبات، إذاً، يُشبه فيل البحر المتألّم في حديقة حيوان «ڤانسان» الذي أذاب قلبَيْنا. دلق حارسٌ دلو سمك في فمه، ثمّ قفز على بطنه؛ مُستباحاً بهذه الوليمة، رفع فيل البحر إلى السّماء عينيْن صغيرتين وضائعتيْن: بدا كأنّ هذه الكتلة الضّخمة من اللّحم قد اختُزِلَت في تلك الفتحة، محاولة الاستجداء؛ لكن حتّى تلك اللّغة الضّعيفة كانت مُحجَّرة عليه. تثاءب الوحش، وسالت دموع على جلده الدّهني، حرّك رأسه، وانحدر مهزوماً. عندما يتمكّن الحزن من وجه سارتر، نقول إنّ روح أسد البحر الوحيد قد انتقلت إليه. ويتابع عمليّة التحوّل: يرفع عينيه صوب السّماء، يتثاءب ويتوسّل دون كلمات؛ يوقظ

1– جون ميلينغتون سينغ Synge: شاعر وكاتب دراما إيرلندي (1871–1909). يُعَدُّ سانج أحد أبرز أدباء إيرلندا.

2– كاستور: كناية كان يُطلِقُها سارتر على سيمون دي بوفوار، ومعنى الكلمة حيوان القُندُس، الذي يُعرَفُ بتفانيه في بناء السدود المائيّة دون كلل.

ذلك التّجسيد الصّامت روحه الجذلى. هكذا يبدو لنا مزاجنا لا كحتميّة تُفرزها أجسادُنا، بل قناع نلبسه من باب التّحريف، يمكننا نزعه متى شئنا. خلال شبابنا، وحتّى بعد ذلك، كنّا ننتقل بين موجز نفسي وآخر، وكان علينا في كلّ مرة أن نجابه أوضاعاً سيّئة أو صعبة: ننقلها، وندفع بها إلى أقصاها، أو أنّنا نهزأ منها؛ نخوض فيها طولاً وعرضاً وكان ذلك يُساعدنا كثيراً في التّغلّب عليها.

قبلنا وضعنا المادي، بنفس الطّريقة. في لقائنا بباريس، وقبل أن نمنح علاقتنا تعريفاً، سمّيناها فوراً: «إنّه زواج محظيّات.» كانت علاقتنا الثنائيّة تملك هويّتين. في العادة، كنّا السيّد، والسيّدة. عُضويّين، مُوظّفيْن، ليسا غنيّين تماماً، دون طموح وراضيين قليلاً. كنتُ أحياناً أتزيّن، وكنّا نذهب إلى السّينما في الـ «شان-إيليزي» أو إلى مرقص «لا كوبول La coupole» وكنّا أثرياء أمريكان من أصحاب المليارات، السيّد والسيّدة «هاتيك Hattick». لم تكن بالمرّة كوميديا هستيريّة، مُعدَّة لإقناعنا بأنّنا سنتذوّق خلال بعض الساعات ملذّات مسروقة، لكن نوعاً من المحاكاة الهزليّة التي ستُساعدنا على ازدراء الحياة الباذخة؛ كانت حفلاتنا الصّغيرة تملأنا غبطة، لم تكن الثّروة تملك شيئاً لتمنحنا إيّاه: كنّا نتبنّى ظروفنا. لكن، كنّا في الآن نفسه نزعم الهرب منها؛ لم نكن نحنُ حقيقة البورجوازيّين الصّغيرين، السيّد والسيّدة العُضويّين: كنّا نختلف عنهما بإخضاع أنفسنا إلى لعب دورَيْهما.

لاحظنا كيف أنّي أسخر من مشاغلي اليوميّة ومن بينها مهنتي في التّعليم. انتهت لعبة تشويه حياتنا من محتواها، بإقناعنا بأنّها لا تُعجِبُنا. لم نكن ننتمي إلى أيّ مكان بعيْنه، أو بلد أو طبقة أو مهنة، أو جيل. كانت حقيقتنا بعيدة عن كلّ ذلك كلّ البعد. إنّها تجد أبعادها في الأبديّة ووحده المُستقبل كفيل بإظهارها: كنّا كُتّاباً. كان كلّ تعريف آخر خاطئاً أو مُزوّراً على الأقلّ. كنّا نسعى بهدف متابعة مذهب «زيفون Zefon» الصّارم الذي راهن مُفكّروه على الحرّية وحدَها؛ مُلتزِمَيْن تماماً جسداً وروحاً بالمُنجز الذي يرتبط بنا، تحرّرنا من كلّ الأشياء التي لا تساعدنا على تحقيقه؛ لن نبتعد في ذلك إلى درجة الحرمان، كنّا راغِبَيْن في كلّ شيء، لكن وضعنا ذلك بين قوسَيْن. كان من المُجدي المساواة بين هذا التجرّد، عدم الانشغال، والاستعداد الذي منحته إيّانا الظّروف، وبين

الحرّية السياديّة. وكي نُحطّم هذه الخدعة، كان علينا أن نتقهقر مسافة من أنفسنا: لم تكن لدينا الوسائل ولا الرّغبة.

مذهبان كانا قادرَيْن على إضاءة الطّريق أمامنا: الماركسيّة والتّحليل النّفسي. لم نكن نعرفهما سوى في نواحيهما الفظّة. أذكر خصومة حادّة في «بالزار» بين سارتر و«پوليتزر»، الذي افترض أنّ سارتر يُمكن اختزالُه في صورة «البورجوازي الصّغير». لم يطعن سارتر في قصر النّظر ذاك؛ لكنّه أصرّ على أنّه لا يكفي لكي يُعرّف بمبادئه؛ لقد طرح المسألة الشّائكة للمُثقّف، المنحدر من البورجوازيّة، القادر، حسب ماركس نفسه، على تجاوز وجهة نظر طبقته: شرط ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ احترق شعر پوليتز الجميل، وتحدّث بإسهاب؛ لكنّه لم يتمكّن من إقناع سارتر. على أيّ حال، واصل سارتر السعي إلى الحرّية من موقعه، بما أنّه يؤمن بها إلى اليوم. لكنّ تحليلاً جادّاً كان سيقلّص الفكرة التي تشكّلت لدينا. كان عدم اكتراثنا بالأموال ترفاً يمكننا أن نحظى به لأنّنا نملك منها ما يكفي حتّى لا تُحاصرنا الأشغال الشاقة الثّقيلة. كنّا ندين بانفتاح عقولنا لثقافة ما ولمشاريع فكريّة لا تُتاح إلّا لمن هم في طبقتنا. كان وضعنا بوصفنا شباباً من البورجوازيّة الصّغيرة ما حفّزنا على الاعتقاد بأنّنا لا نرتبط بشرط.

لِمَ هذا التّرف دون غيره؟ لِمَ الإصرار على اليقظة بدل البقاء في سبات داخل القناعات؟ يقترح التّحليل النفسي بعض الأجوبة، لو عهدنا إليها بالمسألة. كانت قد بدأت في الانتشار في فرنسا وشدّ اهتمامنا بعضُ مظاهرها. في علم الأمراض النفسيّة، بدت لنا «وحدانيّة الغُدد الصمّاء (هكذا اعتمدنا على نظام شرحه، وإن كان يزعم الانحياز إلى الثنائيّة الديكارتيّة.)» لجورج دوما – مثل جلّ رفاقنا – غير مقبولة. وتبنّينا بحماس أنّ لفكرة الوسواس، والعُصاب وأعراضه معنى وأنّها تُحيل على طفولة الشّخص. لكنّنا توقّفنا هناك؛ اعترضنا على التّحليل النّفسي بوصفه طريقة لتفسير الإنسان العادي. لم نقرأ لفرويد غير كتبه حول *تفسير الأحلام* و*علم نفس الحياة اليوميّة*. فهمنا اللّفظ ولم نفهم الأفكار؛ لقد أصابنا بالسّأم من خلال الرمزيّة العقائديّة ومن خلال التأويل الجماعي الذي شوّه المسألة. بدا لنا مذهب فرويد للتّحليل انطلاقاً من الغريزة الجنسيّة خادشاً لنقائنا. خصوصاً من خلال الدّور الذي

يمنحه للّاوعي، بطريقة آليّة مُتصلّبة. كانت الفرويديّة كما نراها مُدمّرة للحرّية الإنسانيّة: لا أحد كان قادراً على أن يُشير إلينا ببديل فيه العزاء ولم يكن في وسعنا اكتشافه بمفردنا. لبثنا متجمّدين في مبدئنا العقلاني والطّوعي؛ فكّرنا في أنّ الحريّة تنتصر، لدى شخص متبصّر، على الصدمات والعقد والذكريات والمؤثّرات الخارجيّة. بقينا فترة طويلة، وقد انتُزِعنا من طفولتنا عاطِفيّاً، نجهل أنّ هذه اللّامبالاة تُفَسَّرُ أصلاً من خلال طفولتنا ذاتها.

إن كانت الماركسيّة والتحليل النفسي لا يعنيان لنا الكثير، فيما انتسب إليها عدد كبير من الأشخاص في مُقتبل العمر، فليس لأنّنا لم نكن نملك سوى بعض المفاهيم البدائيّة: لم نكن نرغب في رؤية أنفسنا بأعين غريبة. كان ما يهمّنا أوّلاً هو أن نتقاطع مع أنفسنا. بدل أن نُعيّن حدوداً نظريّة لحُرّيتنا، انشغلنا عمليّاً بالحفاظ عليها؛ لأنّها كانت في خطر.

عند هذه النّقطة، ثمّة فرق كبير بيني وبين سارتر. بدا لي مُعجزةً أن أنتزع نفسي من ماضِيَّ، أن أحقّق اكتفائي بنفسي، أن أقرّر شأني؛ دخلتُ مرحلة التعويل الكامل على الذّات: لا شيء في وسعه انتزاعه منّي. بالنّسبة إلى سارتر، فقد كان بصدد بلوغ مرحلة من وجود الإنسان توقّعها منذ زمن، باشمئزاز؛ كان بصدد خسران انعدام مسؤوليّة الشّباب؛ دخل عالم الكبار المُقرف. أحسّ بأنّ عدم ارتباطه بالآخرين مُهدّد. كان عليه في البداية أن يقضّي ثمانية عشر شهراً شاقّاً في العسكريّة؛ ليجد أنّ الأستاذيّة تتربّص به. عثر على فرصة للعرض؛ طُلب في اليابان قارئ فرنسي وقدّم ترشّحه لأكتوبر 1931؛ خطّط للبقاء سنتَيْن هناك، وأمل أن يجد هجرات أخرى. على الكاتب، راوي القصص، حسب رأيه، أن يُشبه «بالادان» شخصيّة «سينج Synge»؛ لا يجدر به أن يتوقّف في أيّ محطّة. ولا بالقرب من أحد. لم تكن لدى سارتر النّزعة الاستعراضيّة؛ كان يحسّ بالرّضا برفقة النّساء لأنّه يجدهم أقلّ هزلاً من الرّجال؛ لم يكن في الثالثة والعشرين من عمره على استعداد للتّضحية بغواية تعدّدهنّ. «بيننا، فسّر لي مُستخدماً مُصطلحاً عزيزاً عليه، إنّه الحبّ الضّروري: يحتمل أن نعرف حبّاً عرضيّاً.» كنّا من نفس الطّينة ودام انسجامُنا عدد الأيّام التي نعيشها: لم يكن أمام اتّفاقنا سوى أن يكتمل بلقاءات مُختلفة أخرى؛ كيف كنّا سنتّفق على

تجاهل الدّهشة، والأسف والذّكريات والملذّات التي كنّا قادرين أيضاً على بلوغها؟فكّرنا حول هذا الموضوع طويلاً خلال نُزهاتنا. ذات ظهيرة، كنّا مع آل «نيزان» لمشاهدة *عاصفة على آسيا* في الشان-إيليزي، ثمّ بعد أن افترقنا عنهم نزلنا سيراً على الأقدام حتّى حدائق «كاروسال». جلسنا على مقعد صخري، قرب أحد أجنحة اللّوڤر؛ كان هناك مسند في شكل حاجز معزول عن الجدار بواسطة فضاء ضيّق: كان في ذلك القفص قطّ يموء؛ كيف دخل إلى هناك؟ كان أكبر من أن يخرج. حلّ المساء، واقتربت امرأة، وفي يدها كيس ورقيّ: أخرجت من الكيس فضلات وأطعمت القطّ وهي تداعبه بحنان. في تلك اللّحظة اقترح سارتر: «لنُمضِ عقداً مدّته سنتان.» أستطيع أن أدبّر أمري كي أبقى في باريس سنتَيْن وسنقضّيها في حميميّة ضيّقة ما أمكننا. ثمّ اقترح عليَّ أن أجد عملاً في الخارج أنا أيضاً. نفترق سنتَيْن أو ثلاثاً، ثمّ نلتقي في مكان ما من الأرض، في أثينا مثلاً، كي نستأنف فترة طالت أو قصرت، حياة مُشتركة. لن يجد أحدنا الآخر غريباً، لا أحد سينادي الآخر عبثاً ولا شيء سيسيء إلى هذا الارتباط؛ لكن ليس عليه الانحدار أبداً إلى الشّروط ولا إلى العادة: سيتوجّب علينا أن نحميه من هذا التعفّن مهما كلّف الأمر. وافقت. لم يمرّ اقتراح الفراق دون أن يُفزعني؛ لكنّ قلقي توقّف بعيداً، ووضعتُ لنفسي قاعدة بألّا أفزع مُبكّراً من أشياء لا أعرفها؛ ولأنّ الخوف اعتراني فعلاً، اعتبرتُه ضعفاً وقاومتُ كي أقلّص من حجمه؛ ما ساعدني هو أنّي وصلتُ إلى قسوة كلمات سارتر بيني وبين نفسي. معه، لم يكن المشروع مُجرّد ثرثرة يساورها الشكّ، بل آونة حقيقية. لو أنّه قال لي يوماً: «لنتواعد بعد اثنين وعشرين شهراً، على السّاعة الخامسة مساءً، بالأكروپول. كنتُ بصورة عامّة سأعلم أنّه لن يأتيني أذى من جهته أبداً، إلّا إذا مات قبلي خلال تلك الفترة.

لم يكن مُتاحاً خلال سنتَيْ العقد أن نستنزف الحرّيات التي منحناها بعضنا لبعض؛ اتّفقنا حول مسألة اقتسام الحياة في هذه القصّة الجديدة دون تقاعس أو تلكّؤ. خلصنا إلى معاهدة أخرى: ليس ألّا يكذب أحدنا على الآخر فقط، لكن ألّا يُخفي عنه شيئاً أيضاً. كان على الرّفاق الصّغار أن يُواجهوا اشمئزازاً كبيراً نُسمّيه «الحياة الداخليّة»؛ في هذه الحدائق حيثُ الأرواحُ الجيّدة تصنع أسراراً رقيقة، كانوا هم يرون فيها مراعي مُزرية؛ هناك تحديداً كانت تُطبخُ

صفقات النوايا السيّئة، وهناك بالذّات كانت تُشتَمّ روائح النّرجسيّة العفنة. لتبديد تلك الظّلال المُعتمة والهواء المُلوّث، اعتادوا عرض حياتهم، أفكارهم، ومشاعرهم في وضح النّهار. كان انعدام الفضول لديهم هو ما يحدّد نزعة الدّعاية لديهم: إنّه الإفراط في الحديث عن الأنا. لقد أزعج الجميعُ الجميعَ. بيني وبين سارتر لم تكن توجد قيود: كان لابدّ إذاً من أن يخبر كلانا الآخر بكلّ شيء. كنتُ قد اعتدتُ على الصّمت، وضايقتني تلك القاعدة في البداية. لكنّي سرعان ما تدبّرتُ معانيها؛ لم يعد عليَّ أن أقلق بشأن نفسي: نظرة متبصّرة، وأكثر حياداً من نظرتي لنفسي، تحيلُ كلَّ حركة من حركاتي إلى صورة أعتبرها موضوعيّة؛ يحميني هذا الإشراف من مخاوفي، وآمالي الخاطئة، وشكوكي العابثة، وأوهامي ومن الجنون الذي يُنسَجُ بسهولة في الوحدة. لا يهمّني كثيراً إن توقّفت كلّ هذه الأشياء: بالعكس، كنتُ سعيدة لأنّي استطعتُ مراوغتها. كان سارتر شفّافاً إزائي أكثر من نفسي: يا لها من طمأنينة! يحدثُ أن يُستَنزف ذلك؛ بما أنّه لم يكن يُخفي عنّي شيئاً، اعتقدتُ أنّه من غير الضّروري طرح أسئلة حوله: اكتشفتُ لاحقاً في مناسبَتيْن أو ثلاث أنّه حلّ خامل. لكن، وإن كنتُ أعاتب نفسي على غياب التثبّت في بعض الأحيان، فأنا لا أُجرّمُ الوضع الذي اخترناه والذي لن نحيد عنه أبداً: لم يكن ليلائمنا أيُّ وضعٍ غيره.

هذا لا يعني أنّي أرى النّزاهة، في كلّ الأحوال، ولدى الجميع قانون بمثابة التّرياق الشّامل؛ حدث في مناسبات كثيرة لاحقة أن فكّرت في مزايا ومساوئ ذلك. أشرتُ إلى بعض مخاطره في مشهد من روايتي الأخيرة *المُثقّفون*. نصحت «آن Anne» التي توخّت الحذر في ذلك المقطع، ابنتها «نادين» ألّا تبوح للشاب الذي يُحبّها بأيّ خيانة من جهتها؛ نادين، بدورها لم تكن لها نيّة إخبار الشابّ بشيء لتضيء الأمور أمام عينيْه: كانت ترغب في إثارة غيرته. يحدث ألّا يكون البوح للإخبار فحسب، بل للانتقال إلى الفعل؛ نغشّ، لو أنّنا ونحنُ نبخل بالقيام ببعض الضّغط على الآخر، فنسقط بالتالي في أن نلقِيَ إليه بحقيقة شخصيّة. لا يمنع هذا التّشويش في اللّغة إمكانيّة ممارسة الصّراحة؛ إنّها فقط تُجبرُ على أخذ بعض الاحتياطات. يكفي أن يمرّ الوقت حتّى تفقد بعض الكلمات جدواها؛ نستطيعُ بالتّقهقر مسافة، اكتشاف الأحاسيس التي يتطلّب البوح بها سلوكاً أو تدخّلاً.

خاض معي سارتر باستمرار في هذا الشّأن، وطرحَه هو أيضاً في «سنّ العقل». في الفصل الأوّل، بات مارسال وماتيو، لشدّ تظاهرهما بـ «قول كلّ شيء» يجتنبان التحدّث حول أشياء عاديّة. لا يُجسّد الكلام أحياناً، سوى طريقة أكثر نجاعة من الصّمت كي يسكت المرء. حتّى في الحالات التي تُعلمُ فيها الكلمات، فإنّها تفتقر إلى القدرة على الإلغاء، التّجاوز، نزع أسلحة الحقيقة: فتكون أداة لمُواجهتها. لو أنّ متحاوِرَيْن أرادا إقناع بعضهما بعضاً بهيمنتهما على الأحداث وعلى النّاس الذين يتبادلان الأسرار بشأنهم، تحت غطاء النّزاهة، فإنّهما يخدعان بعضهما. ثمّة شكل من أشكال النّزاهة التي لاحظتها والتي اتّضح أنّها نفاقٌ مفضوح؛ في حدود الجنس، لم تكن تسعى إلى خلق تفاهم حميمي بين الرّجل والمرأة، لكن أن تمنح أحدهما – الرّجالَ عادة – حجّة مُريحة: يُطمئنهم الوهم بأنّهم وهم يعترفون بعدم وفائهم، فهم يمحونه، فيما في الواقع يُسلّطون على الشّريك عنفاً مُضاعَفاً.

أخيراً، ما من حكمة عابرة للزّمن قد تفرض على الأزواج شفافيّة مثاليّة: إنّ على المعنيّين بهذا الشّأن تقرير نوع الاتّفاق الذي يتمنّون بلوغه؛ لا حقّ لهم ولا واجب عليهم مبدئيّاً. صرّحتُ بالعكس خلال طفولتي: كان لديَّ نزوع كبير للتّفكير بأنّ ما يساوي بالنّسبة إلي يُساوي أيضاً بالنّسبة إلى الآخرين.

إلّا أنّي اليوم، صرتُ أغضب كثيراً حين يعترف المقرّبون منّي أو يُوبّخون العلاقة التي بنيناها معاً دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيّة التي تُفسّرها وتُشرّعها: تلك العلامات المتشابهة على جبهتَيْنا. إنّ التّوأمة التي تُوحّد حياتنا تجعل من الارتباط الذي كان في وسعنا صقله، أمراً عرضيّاً وسطحيّاً. لِمَ، مثلاً، قد نعيش تحت سقف واحد حين يكون العالم ملكاً مُشتركاً لنا؟ ولِمَ قد نخشى وضع مسافات لا يُمكنها الفصل بيننا أبداً؟ مشروع واحدٌ يُحفّزنا: مسْح كلِّ شيء بعقولنا، وأن نكون شاهدَيْن على كلّ شيء؛ نصحونا، بالمناسبة، باتّباع طرقٍ مُتفرّقة، دون أن يسلب أحدنا أصغر اكتشافات الآخر؛ معاً، عكفنا على متطلّبات المشروع، حتّى إنّنا في اللّحظة التي تنقسم فيه آراؤنا، فإنّ إرادتنا تتّحد. إنّ ما يربطنا هو ما يفصلنا؛ ومن خلال هذا الاختلاف، فإنّنا نجد أنفسنا مُرتَبِطَيْن في العمق.

أتحدّث هنا عن *الرّموز*؛ في *مُذكّراتي*، قلتُ إنّ سارتر يسعى مثلي، إلى بلوغ *الخلاص*. إن كنتُ قد استخدمتُ هذا المُصطلح، فلأنّنا كنّا روحانِيّيْن. كان لدى سارتر إيمان غير مشروط بالجمال إلى حدّ يجعله لا يُفرّق بينه وبين الفنّ، وأنا أضع الحياة في المنزلة العليا. لم تكن أهدافنا مُنصهرة تماماً. أشرتُ إلى هذا في دفتري الذي أسجّل فيه من بعيد إلى بعيد بعض ما يشغلني؛ كتبتُ يوماً: «ما كنتُ لأحبّ الفنّ كالحفاظ على حياتي. ما كنتُ لأصبح كاتبة قبل كلّ شيء مثل سارتر.» وعلى الرّغم من ابتهاجه المتألّق، فقد أعلن سارتر أنّه لا يولي أهمّية كبيرة للسّعادة؛ كتب في أحلك الظّروف. أعرفه جيّداً على نحو لا يساورني معه الشكّ في عناده. لم أكن من نفس الفصيلة. لو أنّ مُصيبة كبيرة حلّت بي، فسأقتل نفسي، قرّرت. في نظري، فإنّ سارتر يتجاوزني بصرامة سلوكه تجاه دوره؛ أنا مُعجَبَة بكونه قد صبغ مصيره بيديْه؛ لكن بعيداً عن أيّ انزعاج، أرى من المُريح أن أُكنّ له الإعجاب أكثر من تقديري لنفسي.

أن تعرف مع أحدهم الإحساس الجذري بالتفاهم، هو أمر غاية في التميّز؛ إنّها في نظري قيمة نفيسة. تومض في أعماق ذاكرتي بعذوبة لا شيء يُعادلها، تلك السّاعات التي ألجأ فيها مع زازا إلى مكتب السيّد «مابي»، لنتحدّث. حظيتُ، أيضاً بمسرّات مُؤثّرة عندما كان أبي يبتسم لي وكنتُ أقول في نفسي بطريقة مُعيّنة، هذا الرّجل الأسمى من كلّ الرّجال هو أبي. تعكس أحلام المراهقة على المُستقبل تلك الأوقات القُصوى من طفولتي؛ لم تكن تصوّرات فارغة، إنّها تكتسي في داخلي حقيقة لذلك لا يبدو لي تجسّدها مُعجزة. مُؤكّد أنّ الظّروف قد خدمتني؛ كان من الممكن ألّا أعثر على التّفاهم مع أحد؛ لكن حين عُرِضت عليَّ فرصتي، إن انتهزتُها بانسجام وصمود، فلأنّها تستجيب إلى نداء قديم. لم يكن سارتر يفوقني سوى بثلاث سنوات؛ كان قريناً، مثل زازا؛ معاً، انطلقنا لاكتشاف العالم. كنتُ أراهن على الثقة التي يمنحني إيّاها، مثل أبَوَيَّ، مثل الله، حماية لا متناهية. في اللّحظة التي قذفتُ نفسي في عالم الحرّية، وجدتُ فوق رأسي سماء غير متصدّعة؛ فررتُ من كلّ الضّغوط، مع أنّ كلَّ لحظة من حياتي شكّلت ضرورة بحدّ ذاتها. أُشبِعَت كلُّ أمنياتي البعيدة والعميقة؛ لم يبق لي شيء آمله، عدا ألّا تزيغ سعادة الانتصار أبداً. لقد جرفت قُوّتها كلّ شيء؛ حتّى موت زازا غرق. بكيتُ، طبعاً، تمزّقتُ وتذمّرتُ؛ لكن

لاحقاً، وبشكل غادر، وجد الحزن طريقه إليَّ. في ذلك الخريف، كان ماضيَّ في سُبات؛ كنتُ ملكاً للحاضر بكلّ جوارحي.

السّعادة مقصد يصعب تخيّله بصورة مُشتركة. أعتقد أنّ فرويد كان مُحقّاً تماماً بربط إشباع الرّغبات الطّفوليّة بالسّعادة؛ عادة، إلّا إذا كان الطّفل مغموراً بالحُمق، فإنّه يضجّ بالشّهوات: لا يعادل ما يقبض عليه بيديْه حجم الهيجان الذي يعتمل في داخله والذي يُحاول جميعُ من حوله إخماده! لابدّ من توازن عاطفي يتيح له الاهتمام بما بين يديْه، بما ليس بين يديْه. لاحظتُ ذلك باستمرار: النّاس الذين دمّرهم البؤس المُفرط أو الإهانة والخوف أو – خصوصاً -النّقمة، خلال سنواتهم الأولى، غير قادرين، في سنّ الرّشد، إلّا على إرضاء رغبات مُجرّدة: المال («إن كان المالُ في حدّ ذاته لا يهب السّعادة، قال فرويد، فلأنّ الطّفلَ لا يرغب فيه.»)، المجد، الشّهرة، النّفوذ، الاحترام. مُبكّراً، ضحيّة الآخرين وضحيّة أنفسهم، أشاحوا عن عالم لن يعكس لهم لاحقاً سوى لا مبالاتهم القديمة (يبدو لي ابن عمّي جاك الذي تحدّثت عنه في *المُذكّرات*، مثالاً نموذجيّاً على عجز المرء أمام السّعادة: إنّها، بالطّبع، نتيجة للأوضاع التي عاشها في طفولته). من جهة أخرى، وإن كانت ثقيلة، فأيّ امتلاء بالبهجة قادرة هي على منحه الأشياء راهنّا فيها على المُطلَق! لم أكن طفلة مُدلّلة بشكل خاص؛ لكنّ الظّروف ساعدت على أن تتفتّح في داخلي رغبات عديدة؛ دراستي، التي أجبرتني حياتي العائليّة على كبحها؛ لم تنفجر رغباتي سوى بعنف متزايد ولم يكن يبدو شيء أكثر إلحاحاً من تهدئتها. كانت مؤسّسة ذات نفس طويل، على امتداد سنوات، أسلمتُ لها نفسي دون هوادة. لم أصادف في حياتي بأسرها أحداً ينذر نفسه للسّعادة مثلي، لا أحد أيضاً عكف على تحقيقها بصورة دؤوبة مثلي. ما إن أمسك بها حتّى تتحوّل إلى هاجسي الوحيد. لو عُرِض علَيَّ المجد، شرط أن يكون مأتم سعادتي المتوهّجة، لكنتُ رفضت. لم تكن مُجرّد غليان في قلبي: إنّها تكشف لي، فيما أتصوّر، عن حقيقة وجودي في العالم. أحرص، بشغف على عدم امتلاكها؛ آن الأوان لمواجهة الأشياء لحماً وعظماً بالصّور والأحلام والكلمات التي ساعدتني على استباق حضورها؛ لم أكن لأرغب في مواصلة هذا العمل في ظروف غير التي مُنحت لي. بدت لي باريس مركز الأرض؛ كنتُ ضاجّة

بالصحّة، لديّ طموحات سفر عديدة؛ والتقيتُ رفيق الرّحلة التي كان يسير في نفس الطّريق بخطوات أكثر ثقة من خطواتي؛ يمكنني أن أطمع، بفضل هذا الرّاهن، أن أجعل من حياتي تجربة مثاليّة ينعكس عليها العالم بأسره. هذا الرّاهن الذي سيضمن تفاهمي معه. آمنتُ سنة 1929، قلت هذا قبل الآن، في التقدّم والسّلام، في الغد الغنّاء. كان على حكايتي الشخصيّة أن تساهم في هذا التّناغم الكوني؛ لشدّة حزني، شعرتُ أنّي في المنفى: لقد تسلّلت الحقيقة من بين يدَيَّ.

بداية نوفمبر، التحق سارتر بالخدمة العسكريّة. اختار مجال الرّصد الجوّي بعد نصيحة جاءت من رايمون آرون؛ التحق بحصن «سان-سير Saint-Cyr» حيثُ درّبه آرون - وكان حينها رقيباً مُكوّناً - على استخدام آلات القيس. أذكر أنّي ذهبتُ لرؤية «غروك» في المساء الذي غادر فيه، وأنّي لم أجده مُسلياً البتّة. عاش سارتر خمسة عشر يوماً في الحصن في حجر تامّ، ولم أتمكّن من رؤيته باستثناء زيارة واحدة قصيرة جدّاً؛ تمّ اللّقاء في قاعة استقبال مليئة بالجنود والعائلات. لم يُذعن للحُمق العسكري، ولم يكن مُستعدّاً لخسارة ثمانية عشر شهراً؛ كان سخطه مكتوماً؛ أنا أيضاً، تجعلني الشّروط أثور وبما أنّنا كنّا مناهضين للتسلّح، لم نبذل مجهوداً كي نتحمّل هذه المحنة برحابة صدر. كان اللّقاء الأوّل غامضاً: زيّ أزرق داكن، قبّعة، لفافات السّاق، بدت لي بذلة مُعتَقلين. ثمّ استطاع سارتر الخروج بحرّية. ثلاث أو أربع مرّات في الأسبوع، كنتُ أجده في «سان سير» بعد الظّهر؛ كان ينتظرني في المحطّة وكنّا نتناول العشاء في مطعم «الشّمس الذهبيّة». تبعُد القلعة عن المدينة أربعة كيلومترات؛ أرافق سارتر نصف الطّريق وأعود مُسرعة كي ألتحق بآخر قطار ينطلق عند السّاعة التاسعة و12 دقيقة؛ فاتني مرّة، واضطررتُ للمشي على الأقدام حتّى فرسايْ. يمنحني السّير بمفردي تحت المطر والرّيح، على طريق أسود، وأنا ألمح من بعيد، بين السّكك، أضواءً رائعة، انطباعاً مُنعشاً بالمغامرة. كان سارتر يأتي إلى باريس بين الحين والآخر مساءً؛ تُقلّه شاحنة إلى ساحة النّجمة بصحبة بعض الرّفاق؛ لم يكن يمكث سوى ساعتَيْن؛ نجلس في مقهى بشارع

«واغرام» أو نتجوّل على طول شارع «تيرن»، كنّا نأكل بدل العشاء كعكاً محشُوّاً بالمعجون، وكنّا نُسمّيه «زميل الجوع». كانت الآحاد أيّام راحة بالكامل. تمّ تحويلُه في جانفي إلى «سان–سامفوريان» قريباً من «تور Tours»؛ كان يشغل، مع رئيس القسم وثلاثة مُساعدين، ڤيلا مُجهّزة في المرصد الجوّي. يترك الرّئيس – وكان مدنيّاً – العسكريّين يرتّبون شؤونهم حسب مشيئتهم؛ وضع لفائدتهم نظام عمل بالتداول يمنح كلّاً منهم، عدا رُخص الخروج، أسبوع راحة في الشّهر. لبثت باريس، إذاً، مركز حياتنا المُشتركة.

كنّا نُمضي وقتاً طويلاً معاً بمُفردنا، لكن، كنّا أيضاً نخرج برفقة الأصدقاء. فقدتُ كلّ أقاربي تقريباً. ماتت زازا، تزوّج جاك، غادرت ليزا إلى «سينيون»، لم يعد «ريسمان» يهمّني أمره، وتدهورت علاقتي بـ«پراديل». تشوّشت صلتي بسوزان بواغ؛ حاولت تزويج أختي برجل في الثّمانين، أكّدت أنّ مكانته عالية، كانت رقبته الفولاذيّة وجدّيته ترعبان «پوپات». أخبرتني سوزان برفضها الشّديد؛ تلقّيتُ، بعد فترة، رسالة مُغتاظة: صوتٌ مجهول نعتها بالغبيّة في مكالمة هاتفيّة؛ اتّهمتني بأنّي وراء هذه المكيدة. نفيتُ في ردّي دون محاولة إقناعها. من بين الناس الذين يعنون لي في حياتي، لم أطلع سارتر سوى على أختي، جيجي، ستيفا، وفرناند، كان يتّفق بسهولة مع النّساء، ووجد فرناند لطيفاً؛ لكنّ الأخير استقرّ في مدريك بصحبة ستيفا. فيما شغل «هيربو» منصباً في «كوتانس»؛ كان يُدرّس ويستعدّ لدخول المناظرات؛ ما زلتُ متمسّكة بعلاقتي به، لكنّه لم يكن يظهر في باريس إلّا نادراً. وهكذا لم يعد يربطني بماضيً سوى علاقات قليلة. من جهة أخرى تآلفتُ مع أصدقاء سارتر. كنّا نلتقي باستمرار رايمون آرون الذي أنهى خدمته العسكريّة في «سان سير»؛ شعرتُ بحياء شديد يوم رافقته وحدي، في السيّارة إلى «تراپ» لجلب صندوق اقتراع متخلّفاً؛ كانت لديه سيّارة صغيرة وكان يأخذنا أحياناً من «سان سير» لتناول العشاء في فرسايْ. كان مُنخرطاً في الحزب الاشتراكي، الذي كنّا نكنّ له التّقدير، أوّلاً لأنّه معادٍ للبورجوازيّة ثمّ لأنّ المسار التقدّمي يستجيب لنزعتنا الفكريّة: لم تكن مؤسّسة الدّولة قادرة على القيام بالتّغيير سوى من بابه الشّمولي، دفعة واحدة، وبحُمّى عنيفة. لكنّنا لم نكن نتحدّث مع آرون في السّياسة قط. عادة، كان هو وسارتر يناقشان المسائل الفلسفيّة باحتدام.

لم أكن أحشر نفسي في حواراتهما، لم أكن أفكّر بتلك السّرعة؛ إلّا أنّي أنحاز أكثر إلى صفّ آرون: كنتُ أميل إلى المثاليّة مثله تماماً. وكي أضمن للعقل تبصّره، اتّجهتُ نحو إعادة تشكيل العالم بالصّورة الأكثر سطحيّة. تكمن أصالة سارتر وجديدُه في أنّه يولي الواقع وزنه كاملاً، مانحاً الضّمير استقلاليّة سامية؛ فمنهجُه الذّهني ينساق إلى المعرفة بسلاسة كاملة آخذاً بعين الاعتبار كيانه غير القابل للانتقاص؛ لم يكن يقبل تنافراً بين النّظر والشّيء المتأمَّل، ما يجعله في مواجهة مآزق شائكة: لكن، لم تكن المصاعب قط تُحبِطُ قناعاته. هل تُعزى هذه الواقعيّة العنيدة إلى الاعتزاز بالنّفس أم للحبّ؟ كان يرفُض أن يُؤخَذَ الإنسان رهينة المظاهر؛ وكان مُتعلّقاً بشغف بالأرض كي يختزلها في وهم؛ تُلهمه حيويّته تفاؤلاً يتأكّد معه، بنفس الألق، الشيء والموضوع. يستحيل الإيمان بالألوان وباهتزاز «الإيثير» éther، عاب على العلم: كان يمشي على خطى ورثة منهج نقد المثاليّة؛ لكن باختلاف مُذهل، كان يركل مبدأ وجود فكرة كونيّة؛ لم تكن القوانين، المفاهيم، وكلّ الأفكار المُجرّدة، تُخلّف غير الرّيح؛ اتّفق النّاسُ ضمنياً على قطفها بعضهم من بين أيدي بعض، لأنّها تحجب عنهم حقيقة تُزعجهم مواجهتها؛ كان هو يريد أن يقبض عليها حيّة؛ كان يدين التحاليل التي لا تُشرّح سوى الجثث؛ كان يسعى وراء ذكاء شامل يُعنى بالملموس، أي بالفردي، إذ لا وجود لغير الفرد. من بين الأفكار الميتافيزيقيّة، لم يكن يقبل سوى تلك التي تعتبر الكون (الكوس–موس cos–mos) كُلّية مُركّبة: فلسفة سبينوزا والفلسفة الرواقيّة. فيما يجد آرون غايته في التّحليل النّقدي وعمِلَ على تجزئة نتائج سارتر المُتهوّرة؛ كان فنّاناً في مُحاصرة محاوره داخل المُعضلات، وحين يُمسك به، فإنّه يذرّ في عيونه الرّماد. «من بين أمريْن، هناك واحد صائب، رفيقي الصّغير»، كان يقول بابتسامة شاحبة من عينَيْه الزّرقاوَيْن، المُحبَطَتيْن والذكيّتيْن جدّاً. يقاوم سارتر حتّى لا يقع في أسر كلماته، لكن وبما أن تفكيره كان خلاّقاً أكثر من كونه منطقيّاً، فقد كان دائماً ينجح في الإفلات. لا أذكُر أنّه أقنع آرون يوماً، ولا أن يكون الأخيرُ قد نجح في إعجازه.

قام نيزان بالخدمة العسكريّة في باريس لأنّه كان مُتزوّجاً وربّ عائلة. كان أصهارُه يملكون في «سان–جرمان–أون لاي» منزلاً مُشيّداً ومُجهّزاً على

الطّراز الحديث؛ أمضينا يوم أحد في تصوير فِيلمٍ في الشّرفة: كان شقيق ريرات نيزان مساعد مُخرج وكان يملك كاميرا. لعب نيزان دور الكاهن وسارتر دور شاب متديّن تربّى مع القساوسة؛ راحت فتيات تتملّقنه، لكن عندما نزعن عنه قميصه لمع في صدره صليب ضخم وتجسّد المسيح؛ تحدّث معه رجلاً لرجل: «هل تُدخّن.» سأل، وبدل الولاّعة أخرج قلبه المُقدّس من صدره وسلّمه إيّاه. في الواقع، كان هذا الجزء من السيناريو صعبَ الإنجاز، وصرفنا عنه النّظر. واكتفينا بمعجزة أضعف: مصعوقات لدى رؤية التّعويذات، سقطت الفتيات جاثيات على ركبهنّ مُخلصات للربّ. كنّ متجسّدات في ريرات، وأنا ومن قِبَل امرأة شابّة فاتنة، متزوّجة بإيمانويل بيرل، الذي أدهشنا بخفّة حركته وهو ينزع عنه الثّوب الأخضر اللَّوْزي الأنيق ليظهر للشّمس في ملابس داخليّة لامرأة حمراء محفوفة بدانتيل أسود. بعد ذلك، خرجنا للنّزهة على طول المسالك الرّيفيّة. كان روب الكاهن مُلصقاً بسيزان الذي ضمّ زوجته من خصرها: جحظت عيون المارّة. أخذنا في الرّبيع الموالي إلى حفلة بـ «غارش Garches»؛ تبارَيْنا بتبادل رمي كرات من الخِرَق، مع موظّفي بنوك وجنرالات وقدّمنا لـ «دوريو Doriot»[3]: صافح الأخير بأخويّة وحرارة عاملًا مُسنّاً، ما جعل سارتر يتفاعل بإيجابيّة مع الحركة.

لم نكن نتحاور مع نيزان قط؛ لم يكن يخوض في المواضيع الجادّة وجهاً لوجه؛ كان يروي طرائف منتقاة بعناية مُتجنّباً أن تُفضي إلى خلاصة؛ كان وهو يقضم أظفاره يتلفّظ بتنبّؤات وتهديدات غامضة. مرّ، إذاً، تنافر طرقاتنا في صمت. من ناحية أخرى، مثلما هو الحال بالنّسبة إلى المُثقّفين الشّيوعيّين في تلك الفترة، كان نيزان متمرّداً لا ثائراً، لكن كان بيننا تشارك مُعيّن حول بعض النّقاط: بينها ما يرتكز على سوء تفاهم، حاولنا تركه في الظلّ. كنّا، معاً، نمزّق البورجوازيّة بما أوتينا من شراسة. لدى سارتر ولديَّ أيضاً، ظلّت هذه الجرأة مسألة ذاتيّة، أي بورجوازيّة: لم تكن تختلف عن تلك التي ألصقها

3- دوريو Doriot: جاك دوريو (26 سبتمبر 1898-22 فبراير 1945) سياسي وصحافيّ فرنسي قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية. بدأ شيوعياً ثمَّ تحول إلى الفاشيّة والتعاوُن مع الألمان.

فلوبير بالبقّالين الصّغار و«باريس Barrès»[4] بالهَمَج؛ ليس من قبيل الصّدفة أن يُمثّل المُهندس الخصم المميَّز بالنّسبة إلينا كما بالنّسبة إلى باريس؛ إنّه يحبس الحياة في الإسمنت والحديد؛ إنّه يمضي مباشرة إلى الأمام، أعمى، دون إحساس، واثقاً من نفسه إلى درجة تُصبح معه معادلاته وسائل تؤدّي به إلى نهايات معلومة؛ باسم الفنّ والثّقافة والحرّية، نحنُ ندين فيه الإنسان الكوني. لكنّنا غير متمسّكَيْن بجماليّة باريس: البورجوازيّة كطبقة، هي عدُوّنا الذي نشتهي تصفيته. نكنّ تعاطفاً مبدئيّاً مع العُمّال لأنّهم خارجون عن القبح البورجوازي؛ عبر حاجاتهم المُلحّة، عبر مواجهة المادّة بأجسادهم، نرى أنّهم يواجهون الوضع الإنساني في حقيقته. تقاسمنا، إذاً، أمل نيزان وثورة بروليتاريا: لكنّها لم تعنينا على الإطلاق من جانبها السّلبي. كانت نيران أكتوبر في الاتّحاد السوفيتي قد خمدت منذ زمن، وما يحدث بالتالي هناك، هي «حضارة المُهندسين»، قال سارتر. لن نشعر بالرّاحة أبداً، فكّرنا، في عالم مُجتَمَعي؛ يظلّ الفنّان والكاتب غريبَيْن في كلّ مجتمع؛ والمُجتمع الذي يزعم أنّه الأكثر سخاءً في احتضانهما، سيبدو لنا أنّه الأشنع بالنّسبة إليهما.

الرّفيق الذي يبادله سارتر حميميّة كبيرة هو «پيار پانييز»، متخرّج من المدرسة العليا للمُعلّمين، من نفس فوجه، والذي اجتاز أخيراً مناظرة التّبريز في الآداب. خلال دروس القيس الجوّي، أزعجا آرون معاً بإلقاء الأسهم الورقيّة عليه حين كان يُلقي الدّروس. أحياناً، كان پانييز يتناول العشاء معنا في مطعم الشّمس الذهبيّة. كان محظوظاً بتعيينه في باريس. كان سارتر يلتقي به في كلّ مرّة يعود فيها. كان من أصول مسيحيّة، مُبدياً مثل كلّ المسيحيين الپروتستانت تواضعا حادّاً، مكتوماً، ونزعة تهكّميّة. كان يُعجَبُ بأشياء قليلة، لكنّه مُهتَمّ بأشياء كثيرة. كان مُرتبطاً بأصوله الريفيّة. كان يقول ضاحكاً إنّه رجعي: كان مؤمناً بالعصر البورجوازي الذهبي، في بعض قيمه، من جانب الصّناعات الحرفيّة على الأقل. كان يحترم ستاندال وپروست والرّوايات

4- باريس Barrès: ولد في سنة 1862 بشارم إقليم فوج وتوفي في 4 ديسمبر 1923 (في نويي–سور–سين) مرتفعات السين، وهو كاتب وسياسي فرنسي، ويُعدُّ رئيساً صورياً للقومية الفرنسية.

الإنجليزيّة، والثّقافة الكلاسيكيّة والطّبيعة والسّفر والحوارات والصّداقة والخمور المُعتّقة والمطابخ الجيّدة. كان يدفع عن نفسه كلّ طموح؛ لم يكن يعتقد أنه من الضّروري الكتابة لتبرير الوجود؛ بل بدا له كافياً أن يتذوّق بذكاء هذا العالم وأن يعبُره بسعادة. في بعض الأحيان، كان يقول - لدى رؤية منظر طبيعي أو حين يمرّ به مزاج ما - أشعر بضرورة القيام بذلك. «أنا لا أنظّر»، كان يقول بمرح. تُضحِكُه نظريّات سارتر كثيراً، لا لأنّه يراها مغلوطة أكثر من غيرها، لكن لاعتقاده أنّ الحياة تمرّ دائماً من خلال الأفكار، وكانت الحياة ما يُهمّه في النّهاية.

كان سارتر مُهتمّاً بالحياة وبأفكاره الخاصّة. تُضجره أفكار الآخرين؛ كان يكره نزعة آرون المنطقيّة، ومن جماليّة «إيربو Herbaud»، وماركسيّة نيزان. كان مُعجَباً بحرص پانييز على تقبّل التّجربة برُمّتها دون أن يُسلّط عليها خلفيّات فكريّة؛ كان يعترف له بـ«حاسّة الألوان» التي كانت تُصحّح تيّاراته الخاصّة: إنّها من الأسباب الجوهريّة التي تجعله يستمتع بالحوار معه. كنّا متَّفِقَيْن مع پانييز حول نقاط عديدة. كنّا أيضاً نحترم كادحي المهن الصّغرى: كان عملهم يبدو لنا ابتكاراً حُرّاً يُفضي إلى مُنجَز فريد. لم يكن لدينا رأي ندلي به فيما يتعلّق بالحرفيّين، كنّا نصدّق ما يقوله لنا پانييز في شأنهم. كان قابلاً بالنّظام الرّأسمالي وكنّا نرفُضه قطعاً ونُدينه. كان من جانب آخر، يلوم الطّبقة الحاكمة وانحطاطها وكان في التّفاصيل يدينها بعزم مثلنا تماماً؛ من جهتنا، ظلّ استهجاننا نظريّاً؛ كنّا نعيش حياة البورجوازيّة الصّغيرة التي نشأنا عليها؛ في الواقع، لم تكن أذواقنا وميولنا تختلف عنه. شغف مُشترك يُقرّب سارتر من پانييز: فهم النّاس. كان في وسعهما إلقاء محاضرة تدوم ساعات محورها حركة أو نبرة صوت مُحرّفَة. كانا منحازَيْن أحدهما للآخر، تُوحّدهما الخصوصيّات المُشتركة. حتّى إنّ پانييز ابتعد بالقول إنّ سارتر كان له جمالُه انطلاقاً من أنفِه المنحوت وفمه المُشَكَّلِ بسخاء. وتصرّف سارتر مع پانييز بسلوك إنسانيّ كان سيُغضبه لو ندّ عن أحد غيره.

ثمّة ارتباط آخر بينهما: صداقة الإعجاب التي كان يُكنّها كلاهما للسيّدة «لومير Le Maire» حدّثني عنها إيربو، السّنة الماضية بعبارات أيقظت

فضولي. كنتُ متشوّقة لما سأكتشفه لدى دخولي إلى بيتها للمرّة الأولى، أسفل شارع «راسْپاي». أربعون سنة: كان في نظري سنّاً مُتقدّمة، لكن حالمة. وُلدت في الأرجنتين، من والِدَين فرنسيّيْن. عندما ماتت أمّها تولّى تربيتها مع أخت أكبر منها سنّاً، وسط صمت ضيعة من ضيعات أمريكا اللاّتينيّة الشّاسعة (estancia)، أبٌ طبيب ومُفكّر حرّ؛ منحهما، بمساعدة العديد من الخادمات، تعليماً ثريّاً وحازماً؛ تعلّمتا اللاّتينيّة والرياضيّات والخرافات الرّهيبة وقيم التّحليل العقلاني الجيّد؛ كانتا تركبان الجياد في الفيافي ولا تُخالطان أحداً. في سنّ الثامنة عشرة، أرسلهما أبوهما إلى باريس؛ تكفّلت بهما عمّة، زوجة كولونيل ومُتديّنة، صحبتهما معها في جولة حول الصّالونات. تساءلت الفتاتان بشرود؛ ثمّة من هو مجنون، لكن من يكون: بقيّة العالم أم هما؟ قرّرت السيّدة لومار أن تتزوّج؛ ارتبطت بطبيب ميسور كفاية كي تسخّر وقتها للبحث؛ نحت أختُها نحوها لكن من دون سعادة، وماتت مريضة عاجزة. لم تجد السيّدة لومار من يُشاركها اندهاشها الذي ألقته في نفسها العادات والأفكار المنتشرة في المجتمع؛ ذُهلت بشكل خاصّ من الأهميّة التي يوليها الناس للحياة الجنسيّة التي كانت تعتبرها تهريجاً. أنجبت طفلَيْن. سنة 1914 غادر السيّد الدكتور لومار مخبره وفئرانه، قاصداً الجبهة، حيثُ كان يقوم بالعمليّات في ظروف مزرية، لبعض الجرحى. لدى عودته لزم الفراش ولم ينهض قط. كان يعيش في غرفة تُثير الذّعر، مُدَمَّرا بآلام خياليّة، ولا يتلقّى سوى زيارات نادرة. في الصّيف، نُقل إلى ڤيلا «خوان-دي-بان» التي ورثتها السيّدة لومار عن والِدِها، أو إلى منزله في الرّيف قريباً من «آنجي Angers». سخّرت السيّدة لومار نفسها لخدمته، ورعاية طفلَيْها، وقريبتين مُسنّتيْن، ولأنواع مُختلفة أخرى من الحُطام، وصرفت النّظر عن العيش لحسابها الخاص. أخفق ابنُها في اجتياز الباكالوريا، وانتدبت للعُطلة شاباً مُتخرّجاً من المدرسة العليا للمُعلّمين ورافقهم إلى «أنجو Anjou»: كان پانييز. كانت تُحبّ القنص، هو أيضاً؛ في سبتمبر، زارا معاً الحقول والمقاطعات وانطلقا في الحوار: لم ينقطعا عن ذلك قط. بالنّسبة إلى السيّدة لومار، كان من البديهي أن تظلّ العلاقة أفلاطونيّة عفيفة. وبما أنّ پانييز كان متأثّراً بعفّة بيئته، أعتقد أنّ فكرة الحفاظ على مسافة لم تفاجئه. لكن تولّدت بينهما حميميّة شجّعها السيّد لومار: كانت لديه الثّقة بزوجته وسرعان

ما كسب پانييز احترامه. استُقبِل الابن لومار في أكتوبر وساعده سارتر الذي قدّمه پانييز، على الاستعداد لامتحان بكالوريا الفلسفة؛ أصبح وجوده مألوفاً في البيت. كان پانييز يُمضي أغلب أوقات فراغه في غرفته بشارع «راسپايْ»؛ يحدث أحياناً أن ينام سارتر هناك، حتّى نيزان حدث أن نام هناك ليلة. غضبت بنات عمّي المتصلّبات، اللاتي تسكنَّ نفس العمارة، جرّاء تلك العادات المضيافة وبلّغت السيّدة لومار بأنّ هناك فجوراً غامضاً يحدث.

كانت امرأة قصيرة القامة، ممتلئة قليلاً، وترتدي بتهذيب، لكن بكثير من الحشمة. بيّنت الصّور الفوتوغرافيّة التي وصلتني عنها أنّها كانت جميلة بشكل لافت؛ فقدت ألقها لكن لم تفقد جاذبيّتها. كان وجهها مُستديراً، تحت خصلة غزيرة سوداء، فم صغير، أنف مثاليّ وعينان لا تُفاجئان لا بلونهما ولا باتّساعهما، لكن بحضورهما: كم كانتا متوهّجَتَيْن! كانت حيّة من رأسها حتّى قدميها؛ نظرات، ابتسامات، حركات، كان كلّ شيء فيها يتكّ دون أن تبدو مُضطربة. كان ذهنُها أيضاً مُتوثّباً؛ فضوليّة، مُنتبهة، وتسحرك بقدرتها على انتزاع اعترافات منك: تعرف الكثير عن كلّ من تودّ الاقتراب منه؛ مع ذلك كانت تترك إزاءهم مسافة اندهاش فتاة الثّامنة عشرة؛ كانت تتحدّث بطلاقة وبلغة مسرورة عن التاريخ العرقي؛ لكن كانت تزيغ؛ فتندّ عنها كلمات غير متوقّعة عن السّخط الذي تخلّفه لديها العقلانيّة المُشوّهة: سحرَني الحوارُ معها. أعجبتني أيضاً لسبب آخر: ظلّت امرأة نزيهة حتّى وهي تسخَرُ ممّا يُقال. كانت فكرة الزّواج تُضايقني، وأرى أنّ على الحبّ أن يكون كاملاً؛ لكنّي لم أكن قد تحرّرتُ من كلّ التابوهات الجنسيّة بعد؛ تصدمني المرأة السّهلة والأخرى المتحرّرة للغاية. ثمّ إنّي مُعجَبَة بكلّ ما يحسم في مسألة السّذاجة الرّائجة. بدت لي علاقات السيّدة لومار مع پانييز مُختلفة وأرقى من كلّ ارتباط.

يحتلُّ سارتر في حياة السيّدة لومار مكانة أقلّ أهمّية من پانييز، لكنّها تُحبّه كثيراً. عنادُه في الكتابة، قناعاته التي لا يتزحزح عنها أبداً تلقي في أعماقها إعجاباً جميلاً. كانت تجده مُضحكاً جدّاً، حين يُقرّر تسليَتَها، وأكثر في عدد من المواقف التي لا ينوي فيها ذلك. قبل سنتَيْن، كان قد كتب رواية عنوانها

هزيمة - رفضتها دار غاليمار بحكمة - مُستوحاة من حبّ نيتشه وكوزيما ڤاغنر. استمتعت السيّدة لومار كثيراً بالبطل فريديريك وبإرادة پانييز العنيفة.

سمّيا سارتر «فريديريك البائس»؛ كذلك كانت السيّدة لومار تدعوه عندما كان يقترح عليها أفكاراً، أو يُملي عليها سلوكاً، خصوصاً حين يكون مُتعلّقاً بتعليم ابنها. «اسمعني، إذاً، فريديريك البائس!» كانت تقول ضاحكة: كان سارتر يضحك أيضاً. كان يعاتبها في شأن طيبتها إزاء «كلابها المُبَلَّلَة»؛ اتّهمَتْهُ ببذر نصائح خطيرة عشوائيّاً؛ وبأنّه يسخَرُ من الأخلاق والتّقاليد، وبأنّه يُحرّض الناس على اتّباع عقولهم واندفاعهم فحسب: كان ذلك نقصاً في التّمييز المتبصّر؛ الحرّية، أهو مُستنير كفاية كي يُوظّفها التّوظيف الأمثل، قالت بوقاحة، لكنّ المُشترك بين الفانين لا نور له، من الأفضل عدم تحييد مساره. كانا يستمتعان كثيراً بهذه الخصومات. لم تكن السيّدة لومار تُصوّت لأحدٍ عبثاً؛ سرعان ما حزتُ استلطاف پانييز، لكنّ خطابها كان يكتسي أحياناً تهكّماً يُحيّرني. كلاهما يُخيفني. كانا يوليان قيمة كبيرة للتحفّظ والتكتّم وفنّ العيش؛ أنا كنتُ معبّرة، شغوفة أكثر من كوني بارعة، أخطئ بسبب الإفراط في الشّهامة، أسير في طريقي ببراعة إلى درجة تجعلني عرضة لتزلّ قدمي. لا أؤوّل ذلك إيجابيّاً؛ لكن أحياناً، في حضور السيّدة لومار، أشعر أنّي عرجاء وصبيانيّة للغاية؛ هي وپانييز كانا يُصدران عليَّ الأحكام، أعرف ذلك. لا أصنع من الأمر جبلاً لأنّي لا أتخيّل أنّ نقدهما يحوم حول شيء ذي قيمة؛ وحده رأيُ سارتر يمكن أن يصيبني حتّى النّخاع. بل، ورغم تردّدهما، كانا يعاملانني بلطف وحدها كفاءتي بالذّات ما يجعلني أكتفي به.

يولي سارتر والسيّدة وپانييز أهمّية قصوى للفوارق التي تحكم علاقاتهم فيما بينهم. حين أدخل مع سارتر إلى مطعم، حيثُ هي وپانييز يتناولان العشاء، كانت السيّدة لومار تقول: «لكلّ طاولتُه!» أحياناً، كنّا نخرج من دونها مع پانييز، أحياناً كنّا نحتسي الشّاي من دونه في شارع راسپايْ؛ يحدث أن أترك سارتر يرى أصدقاءه بمفرده؛ باستمرار أيضاً، كان يجلس إلى پانييز بمفردهما تماماً. تُدهشني تلك العلاقات وأؤيّدها. الصّداقة هي بناية حسّاسة؛ قد تتأقلم مع التّشارك لكنّها تحتكر بعض الأشياء. كلّ واحد من بين الاحتمالات التي

نُشكّلها – اثنين، ثلاثة، أربعة – له جسده ورُخَصُه: يجب ألّا تتمّ التضحية بذلك التنوّع.

مع ذلك، كنّا نلتقي باستمرار نحنُ الأربعة. أيّ أمسيات رائعة كنّا نُمضي معاً! أحياناً، كنّا نتناول العشاء في مطبخ السيّدة لومار، على فطيرة وبيضتيْن في صحن. وأحياناً، كنّا نخرج إلى شارع إيطاليا، عند بيار؛ كنتُ أزدرد دون مضغ شرائح اللّحم، والسمك بالمرق، وحساء الأرنب البرّي والكعك الناضج؛ بالكاد أصدّق ذاكرتي، لكن من عادتي أن أكون مُقتصدة حتّى إنّي حين أجد الفرصة فإنّي أبتلع الطّعام ابتلاعاً. ليلة رأس السّنة، جاءت ابنة السيّدة لومار ، جاكلين، وابنُها، الذي يدعونه «تاپير Tapir»، لتناول الحساء معنا في شارع راسپايْ. كان لديهما نفسُ عمري تقريباً. تألّقت الطّاولة بالزّهور والكريستال والدانتيل. جلب پانييز معه كبد الإوزّ الأفضل من لندن، وجد أيضاً قنصاً إفريقيّا، مطهُوّا بشكل لذيذ للغاية؛ كانت هناك أطباق عديدة، حلوى، ونبيذ؛ دارت رؤوسنا وأصبحنا مُفعمين بالبهجة وشعرنا بالودّ بعضنا تجاه بعض. عندما يأتي الرّبيع، كنّا نذهب إلى ضفاف الـ «مارن»، بسيّارة السيّدة لومار التي كان پانييز يقودها؛ كنّا نأكل البطاطا المقليّة تحت شدو الطّيور، أو نتنزّه في غابات سان–جرمان، في غابات «فوس–بيل»: كان ذلك جديداً بالنّسبة إليَّ، كم كنتُ أجدها جميلة تلك الفسحة الضوئيّة التي تحدثها أضواء السيّارة في الأدغال! قبل العودة، كنّا دائماً تقريباً، نحتسي كوكتيلاً أو اثنيْن في مونبارناس. يحدث أن نشاهد معاً فِيلْماً جديداً؛ نذهب لسماع موسيقى جاك هيلتون وفرقته؛ لكن خصوصاً، كنّا نتحاور. كنّا نتحدّث حول كلّ المواضيع، مُستمتعين بتصرّف المُحيطين بنا، طرقهم في العيش، تحليلهم، أخطائهم، أوضاعهم النّفسيّة. تتوخّى السيّدة لومار الحذر؛ أنا وسارتر كنّا نوصي أنفسنا بالحلول الأكثر جرأة من غيرها، يقترح پانييز عادة الوسطيّة في كلّ شيء. يتصرّف المعنيّون كما يشاؤون وكنّا نخوض في شأنهم بوخز في الضّمير كم لو أنّ مصائرهم بين أيدينا.

أيّام الأحد التي يظلّ فيها سارتر بـ «تورز»، أذهب إليه في القطار الأوّل؛ كان يصعد التلّ بدرّاجة هوائيّة، التلّ الذي تنتصب في قمّته ڤيلا پاولووينيا ونلتقي في المحطّة، قبل منتصف النّهار بقليل. أكتشف المباهج الضيّقة، لكن

غير المسبوقة بالنّسبة إليَّ، أيّام أحد في الرّيف. كان هناك حانة كبيرة حيثُ تعزف فرقة نسائيّة، بعض المطاعم، مرقص مُهلهل، ومتنزّه رثّ وغير نظيف حيثُ يختبئ العُشّاق، نزهات على ضفاف «لا لوار La Loire» حيث تجتمع العائلات، وعدد كبير من الطرقات القديمة الصّامتة. كان ذلك كافياً ليشغلنا؛ في ذلك الوقت، كان كلّ شيء يُشبه المناديل الصّغيرة حيثُ يستطيعُ السّاحر أن يُخرج منها دفقاً من الشّرائط والمناديل والرّايات والأعلام. كان كوب قهوة عبارة عن مشكالِ ضوء حيثُ كنّا بواسطته قادِرَيْن على تغيير انعكاس ألقٍ أو سقف. ابتدعنا لعازفة الكمان ماضياً، ومُستقبلاً مُختلفاً عن مُستقبل عازفة البيانو. حصلت أشياء عديدة من لقاء إلى آخر؛ لا شيء يبدو في نظرنا بلا معنى، لم نكن نترك شيئاً يمرّ في صمت. أعرف كلّ التفاصيل عن مُساعد سارتر؛ ولم يكن يجهل إيماءة واحدة عن أصدقائنا ورفاقنا بباريس. لا يتوقّف العالم عن سرد القصص لنا التي لم نكن نملّ سماعها.

لم تكن لنا، طبعاً، نفسُ الطّريقة في تذوّقها. كنتُ أغرق في الإعجاب والسّعادة: «ها إنّ الكاستور دخل في نشوة!» كان سارتر يقول؛ كان هو يحتفظ ببرودة دمه مُحاولاً ترجمة ما يراه شفويّاً. ذات ظهيرة، كنّا نشاهد قمماً في سانت-كلود، منظراً رائعاً من الأشجار والماء؛ أحسستُ بالإثارة وعاتبت سارتر على عدم اكتراثه: كان قادراً على الحديث عن النّهر والغابة أفضل منّي لكنّه لم يشعر بشيء. دافع عن نفسه. ما معنى أن يحسّ المرء؟ لم يكن ميّالاً لخفقان القلب، والارتجاف والغثيان، وكلّ تلك اللّغة الجسديّة التي تشلّ اللغة: سينطفئون ولن يبقى، إذاً، شيء مُطلقاً؛ كان يولي قيمة أكبر لما يُسمّيه «الأحاسيس المُجرّدة»؛ تعبيراً على الوجه، لمشهد لافت، في شكل جسد منفصل عن روحه، ويلبث مُتجرّداً هكذا مُحاولاً تحديد الجُمل المناسبة لترسيخ اللّحظة. شرح لي عديد المرّات أنّ الكاتب لا يملك اختياراً آخر؛ من لا يشعر بشيء لا يكتب شيئاً؛ لكن حين تخنقنا الفرحة أو الفزع فإنّها تسيطر علينا ولن نجد الكلمات للتّعبير. أُنصفُه أحياناً؛ لكن، أحياناً، أقول لنفسي إنّ الكلمات لا تقبض على الحقيقة إلّا عندما تقتلها؛ إنّها تدع أهمّ ما فيها يتسرّب: حضورها. قادتني أفكاري إلى التساؤل عمّا يوائم بينهما، ما الذي يُسلّيهما؛ هذا ما يجعلني معنيّة مباشرة بأفكار ڤيرجينيا وولف باللّغة عموماً والرّواية بشكل

خاص. كانت تتوقّع ابتكار تقنيات جديدة تساعد على تقليص الهوّة بين الكُتُب والحياة بعد اكتشافها ذلك؛ وددتُ تصديقها. لكن لا! لم يُقدّم مُؤلّفُها الأخير *السيّدة دالاوي* حلولاً تُذكَرُ للمأزق الذي تطرحُه. يفترض سارتر أنّ الخطأ يكمن في البداية، في مُعطى السّؤال من الأساس. يرى هو أيضاً أنّ كلَّ قصّة تُقحِمُ في الواقع نظاماً مُخادِعاً (شرح ذلك في كتابه *الغثيان*.)؛ حتّى لو عمد السّارد إلى أسلوب عدم الانسجام، فإنّك تراه يبذل جهداً للإمساك بالتّجربة «طازجة»، في تشتّتها وطارئيّتها، لن يُنتج سوى تقليد تُحتّمه الضّرورة. ويرى سارتر أنّه من عدم المُجدي إنكار درجة الانحراف بين الكلمة والشّيء، بين العمل الفنّي المُبتَكَر والعالمِ المُعطى: بل إنّه يرى في ذلك شرك الأدب وسبب وجوده؛ على الكاتب أن يلعب في هذا النّطاق لا أن يحلم بتقويضه: إنّ نجاحاته تكمن أصلاً في هذا الإخفاق المُعترَف به.

ليكن؛ تأقلمتُ بصعوبة مع هذا الطّلاق؛ أردتُ أن أنجز كُتُباً، من دون الإحجام عن «غفوتي اللّذيذة»: كنتُ فعلاً مُمَزّقة. لعلّي بسبب هذا الصّراع بالذّات، ثابرتُ في خوض مفهوم الفنّ الذي توقّفتُ عنده قبل التعرّف على سارتر، الذي ابتعد عنّي في هذا التصوّر. الخلق، فكّر، هو أن تنسب للعالم ضرورة تردُّه إلى مُهمّته: حسب رأيي، أعتقد أنّه من الحتمي الإشاحة عنه. أحترسُ ليس من الواقعيّة فقط، بل من التراجيديّة، وإثارة الشّفقة وكلّ الأحاسيس. أضع باخ في منزلة أعلى من بيتهوڤن: فيما يُفضّل سارتر بيتهوڤن، من بعيد.أُحبّ القصائد المُغلقة، والأفلام الخياليّة، واللّوحات المُجرّدة، والزّخارف القديمة، والنّسيج العتيق والأقنعة السّوداء. لديَّ نهم واسع النّطاق لتذوّق عروض مسرح العرائس؛ لم تعجِبْني عروض «پودريكا»، لأنّها كانت واقعيّة، لكنّي شاهدتُ من بينها البعض، الذي فتنني مع ذلك بسذاجته المُفرَطة. يُفَسَّر هذا التّفضيل في جزء منه بالمؤثّرات التي تلقّيتُها في شبابي. تخلّيتُ عن اللّاهوتي، لا عمّا هو خارق. طبعاً، كنتُ أعلم أنّ عملاً فنّياً أُنجِزَ على الأرض لا يمكن أن يتكلّم سوى لغة أرضيّة؛ لكن بدا لي أنّ بعضها خرج عن سيطرة الكاتب راكمت في داخلها المعنى الذي أراد أن يشحنها به؛ استطاعت الوقوف دون مساندة من أحد، خرساء، مُلغزة، شبيهة بطواطم مُهمَلة: في تلك الأعمال دون غيرها، كنتُ أجد شيئاً من الضّرورة والمُطلَق في آن. قد يبدو متناقضاً أن

أستمرّ في دعوة الفنّ لتجسيد الصّفاء اللاّ إنساني فيما أحبّ الحياة بشدّة؛ لكنّ ثمّة منطقاً في صلب هذا العناد: لا يستطيع الفنّ أن يكتمل إلّا حين أنكر الحياة بما أنّها تحيد بي عنه.

كنتُ أقلّ هوساً بالأدب من سارتر، لكن مُتعطّشة للمعرفة مثله؛ وكان هو يكرّس قدراً كبيراً من الحماس للسّعي وراء الحقيقة. حاولتُ في *الجنس الثّاني*، الإجابة عن السّبب الذي يمنع المرأة إلى اليوم من مهاجمة العالم من جذوره؛ أتمنّى أن أعرف، وأعبّر عمّا توصّلتُ إليه، لكنّي لم أفكّر قط في انتزاع هذه الحقيقة بقوّة العقل من صميم أسرارها. بالإضافة إلى ذلك، كانت تجاربي الجديدة تستوعبني تلك السّنة، كي أضحّي بكلّ ذلك من أجل الفلسفة. اكتفيتُ بمناقشة أفكار سارتر. حالما نلتقي على رصيف محطّة «تورس»، أو محطّة «أوسترليتز» كان يأخذني من يدي: «لديَّ نظريّة جديدة.» أسمعه بتركيز، ليس من دون ذرّة توجّس. يزعم پانييز أنّ بنايات صديقه تجد دعاماتها في السّفسطائيّة المُبطّنة؛ عندما كانت تعجبني فكرة من أفكار سارتر، فإنّي أهرع فوراً للبحث عن «السّفسطائيّة من الأساس»؛ وجدتُها أكثر من مرّة؛ هكذا ركّبتُ بعض القطع من «نظريّة المهزلة» التي لم يكن سارتر يُعلّق عليها اهتماماً كبيراً. في حالات أخرى، كان يتحمّسُ لها؛ إلى حدّ، أنّي حين أطاردُه، فإنّه لا يتردّد في التخلّي عن المعنى الصّحيح. كان متمسّكاً، كما قلتُ، بإنقاذ الواقع من العالم؛ أكّد أنّها تتوحّد تماماً مع المعرفة التي يملكها الإنسان إزاءها، لو نسب للعالم أدوات هذه المعرفة، لكان موقفه أكثر صلابة، لكنّه يرفض الإيمان بالعلوم حتّى إنّي حاصرتُه يوماً بالقول إنّ الكائنات اللاّمرئيّة للعين المُجرّدة كالسّوس، مثلاً، هي ببساطة كائنات لا توجَد. كان ذلك غريباً، يعلمُ جيّداً، لكنّه لا يأبى أن يعضّ يده، لأنّه كان على يقين، أنّنا حين نتّخذ حقيقة لا اختلاف حولها، غير قادرين على إثباتها، عندها يجب مقاومة الرّيح والمدّ والعقل نفسه. فهمتُ مُنذ ذلك الحين أنّه من أجل القيام باكتشافات فإنّ المُهم ليس التقاط لُمَعٍ هنا وهناك وإن كانت خفيّة ويصعب الانتباه إليها، بل أن نقتحمها دون اكتراث بالبقيّة؛ لذلك كنتُ أتّهم سارتر أحياناً بالطّيش، لكنّي سرعان ما أدرك أنّ في مبالغاته خصوبة ليست في شكوكي.

يبني سارتر بعض نظريّاته انطلاقاً من بعض المواقف التي تُعرَضُ أمامنا فنواجهها بعناد. بتعلّقنا بالحرّية، معارضتنا للنّظام القائم، ذاتيّتنا، احترامنا للحِرَف الحُرّة، كنّا أقرب إلى الفوضويّين. لكن، في الواقع، كان نفورنا من القوالب قادراً على تحدّي السّائد. مناهِضَيْن للرّأسماليّة دون أن نكون ماركسيَّيْن، نُشيد بقدرات الإدراك المحض والحرّية، ورغم ذلك فنحنُ ضدّ الرّوحانيّة؛ نؤكّد على مادّية الإنسان والوجود، متجاهِلَيْن العلوم والتّكنولوجيا. لم تكن هذه التناقضات تُزعج سارتر، بل إنّه يرفُض الإشارة إليها أساساً: «لا نُفكّر، كان يقول لي، حين نُفكّر انطلاقاً من مأزق.» كان على العكس ينتقل من قناعة إلى أخرى.

ما يُهمّه قبل كلّ شيء، هم النّاس. أن يُقابل *الفهم* الملموس، أي النّتيجة، بالتّحليل النّفسي المُعبّر الذي كان يُـدَرَّسُ في السوربون. صادف هذا المفهوم عند جاسپر الذي تُرجِمَت دراسَتُه *علم الأمراض النفسيّة* المكتوب سنة 1913؛ صحّح مع نيزان تجارب النصّ الفرنسي. قابل جاسپر التفسير السَّببي المُستَخدَم في العلوم، بنوع آخر من التّفكير الذي لا يرتكز على أيّ مبدأ كوني، لكن يستخلص علاقات متفرّدة، عبر الحدس، العاطفي أكثر من كونه موضوعيّاً وبوضوح لا يقبل الشكّ؛ كان يُعرّف أفكاره ويُبرّرها انطلاقاً من علم الظّواهر. يجهل سارتر كلّ شيء عن هذه الفلسفة، لكنّه لم يُقرَّ بعد فهمها وحاول العمل بها. كان مؤمناً بعلم خطّ اليد وأكثر بقراءة الأفكار؛ انكبّ يدرُسُ ملامحَ وجهي ووجه أختي وجميع أصدقائنا ويُخضعها إلى اختبارات وتأويلات اعتبرها جادّة. عرفنا لماذا لم يكن يثق بالتّحليل النّفسي، إلّا أنّه كان يسعى وراء إيجاد أصنافٍ أخرى من الملخّصات، وقرأ بنهم النصوص الأولى لتسطيح *«نظريات جستالت Gestalttheory»*.

إن كان الفردُ وحدة مُركّبة وغير قابلة للتّجزئة، عندها لا يُمكن الحكم على سلوكه إلّا بصورة شموليّة. على المُستوى الأخلاقي أيضاً، رفضنا الموقف التحليلي. ما كان يُسمّى كلاسيكيّاً بالأدبيّات، لم نكن نقبل لا هذا ولا ذاك. تبنّى سارتر في مدرسة المُعلّمين شعاراً جديداً: «العلوم هي جلدُ الرّصاص. الأخلاقُ هي ثقوب الرّصاص.» تنحّينا، أنا بدافع ميل للمُطلق، وسارتر بدافع رفض للكوني، لا فقط عن المفاهيم السّائدة في مُجتمعنا، لكن عن أيّ أقوال

مأثورة تزعم احتواء كلّ شيء. الواجب والفضيلة يعنيان آليّاً خدمة الإنسان للقوانين الخارجة عنه: أنكرنا ذلك؛ قابلنا المفاهيم العبثيّة بالحقيقة النابضة بالحياة: الحكمة. يبني الحكيم بينه وبين الكون توازناً متفرّداً وشاملاً في آن؛ الحكمة لا تُجزّأ، وهي لا تسمحُ بتقطيعها، ولا تُحصّلُ من خلال تراكم للاستحقاقات: إمّا أن تكون حكيماً أو لا؛ ومن يمتلك الحكمة لا تجده مُهتَمّاً بتفاصيل سلوكه: يمكنه أن يتقلّب ثلاث مرّات. هكذا، يجد بعض أبطال ستندال أنفسهم مُمَيَّزين بصفح، يُرفض منحُه للهمجي، الأمر الذي يُفسّرهم بالكامل. نحنُ منحازون إلى صفّ هؤلاء المنتَخَبين، وهذه الفلسفة الدينيّة ترضي عنادنا تاركة لنا المجال للمُضيّ في إرادتنا. الحرّية هي قاعدتنا الوحيدة. دافعنا عن مبدأ ممارسة الأدوار، والحقوق والانغماس في عرض الذّات. تحدّثنا طويلاً عن مساوئ الانعكاسيّة، بمناسبة قراءة كتاب كوميدّيو *التّراجيديا* لـ «ميريديت Meredith»[5]. لم نفكّر قط في أنّ الحبّ الطّاهر (بالمعنى الذي قدّمَه روشفوكو) يقطع كلّ السّلوكيّات البشريّة، لكن ما إن يتسلّل إليها فإنّه ينخرها بالكامل. لم نكن نُبدي سوى الأحاسيس العفويّة التي تسبّبت فيها الأشياء، السلوكيّات المُرتبطة بوضع مُعيّن. ونقيس قيمة الإنسان بما يُنجزُه: أفعاله وأعماله الفنّية. تُؤتي هذه الواقعيّة أكُلها. لكنّ خطأنا يكمن في اعتقادنا أنّ حرّية الاختيار والإنجاز يلتقيان لدى الجميع بنفس الطّريقة؛ من هذه الزّاوية، يُمكن القول إنّ أدبيّاتنا ظلّت مثاليّة وبورجوازيّة؛ تخيّلنا أنّنا أحطنا بالإنسان في أنفسنا عموماً: هكذا نكون، إزاء أنفسنا، قد عبّرنا عن انتمائنا إلى هذه الطّبقة التي اعتقدنا أنّنا تنازلنا عنها.

لا يُدهشني هذا الغموض. تهنا في عالم مُعَقّد بشكل يتجاوزنا. ولا نملك للسيّر في دروبه سوى أدوات بدائيّة. تحمّسنا، على الأقلّ، لتمهيد طرقات نسلكُها؛ مع كلّ خطوة تنشأ صراعات جديدة، تقذف بنا إلى الأمام، نحو مصاعب جديدة؛ على ذلك النّحو، وجدنا أنفسنا، خلال السّنوات التي تلت، بعيدَين جدّاً عن بداياتنا.

5- جورج ميريديت شاعر ومُفكّر بريطاني 1828–1909 ألّف كتاب كوميديّوا التراجيديا سنة 1880.

شرع سارتر في الكتابة في سان–سير، وبما أنّه لم يكن قادراً على خوض مُؤلّف يتطلّب طول نفس، فقد بدأ ببعض القصائد. إحداها عنوانها: *الشّجرة*؛ كما في *الغثيان*، لاحقاً، ستُشير الشّجرة من خلال الازدهار إلى الإصرار؛ أعاد قراءتها دون حماس، وشرع في كتابة قصيدة أخرى أذكر منها:

رقّت المرآة الفولاذيّة أمام تضحية البنفسج

فراحت تترك انطباعاً بنفسجيّاً في العيون.

قطع عنه پانييز إلهامَه بضحكة مُجلجلة. ولم يكن أيضاً مُتسامحاً مع أوّل فصل من رواية عكس فيه سارتر حكاية موت زازا؛ ذات صباح، كان البطلُ يجول ببصره فوق البحر عند «تقهقر الشّمس»؛ لقيت الشّمسُ المُنسحبة مصير البنفسج الذي تمّت التّضحية به، ولم يُلحَّ سارتر في المعنى. كان يتقبّل النّقد بتواضع شجاع: من عمق المُستقبل الذي قطع منه شوطاً مُهمّاً، كان يرى الماضي القريب أمراً بعيداً جدّاً! لكن حين يُعجِبُه غرض أو هدف، فإنّه يمضي فيه إلى الآخر: مثلما هو الحالُ بالنّسبة إلى *أسطورة الحقيقة* التي كتبها في سانت–سامفوريان.

هذه المرّة أيضاً، بثّ أفكاره في شكل حكاية؛ لم يكن في مُستطاعه قط أن يعرضها دون موازاة: رافضاً اتّخاذ قرارات كونيّة ثابتة، متنازلاً عن حقّه في رفض النّمط الكوني الجامع؛ وبدل القول، كان عليه أن يُشير. كان مُعجباً بالأساطير التي ابتكرها أفلاطون لنفس الأسباب ولم يكن يجد غضاضة في تقليدها. لكنّ هذه الطّرق القديمة فرضت على أفكاره المُقاتلة شروطاً لم يكن مُتحمّساً لخدمتها، فانعكست على بشاعة أسلوبه. فيما استطاعت اختيارات جدية ثقب الحديد المسبوك؛ ففي *أسطورة الحقيقة*، بدت نظريّات سارتر الجديدة؛ بل لقد نسب مُختَلَف طُرق التّفكير إلى فِرَقٍ بشريّة مُعيَّنَة. «تقوم الحقيقة على التّجارة»، كتب؛ وربط التّجارة بالديمقراطيّة؛ حين يعتبر المواطنون أنفُسهم بضاعة للمُقايضة التبادليّة، يُجبرون أنفُسهم على إطلاق أحكام مُتشابهة، والعلمُ يُثبتُ تناغمهم الذّهني. تتجاهل النّخبة هذا البعد الكوني؛ إنّها تُشكّل لمصلحتها الخاصّة تلك الأفكار المُسمّاة الأفكار العامّة، التي نادراً ما تتقاطع مع الاحتمالات. كان سارتر يكره تفكير المعابد كما يكره

توحّد العلماء. كان يُخصُّ بالتعاطف صانعي المُعجزات المنفيّين من مُدُنهم ومن المنطق والرياضيّات، الذين يتسكّعون في البراري، ولمعرفة الأشياء، فهم لا يُصدّقون غير أعيُنِهم. هكذا فإنّه يمنح امتيازاً القبض على الحقيقة فقط للكُتّاب والفنّانين والفلاسفة، أي لمن كان يُسمّيهم «الرّجالَ الوحيدين». تلائمني هذه النظريّة وأتبنّاها بحماس لأسباب سأعود إلى تفصيلها.

استقرّ بي المقام، في أوت، في نزل صغير بـ«سانت-رادغوند»، على ضفاف «لا لوار La Loire»، على بعد عشر دقائق من ڤيلا «پولونيا». حصل هذا إذاً: أنا أمضي عطلتي بعيداً عن ميرينياك! كم أفزعني هذا المنفى فيما مضى! لم يعد ذلك صحيحاً اليوم؛ على العكس، لقد وجدتُ نفسي مُتشبّثة به بقوّة، أخيراً، في قلب حياتي الحقيقيّة. كان البلد بشعاً جدّاً، لكن لا أهمّية لذلك. صباحاً، أجلسُ مع كتاب في نوع من الجُزُر المُغطّاة بالأحراش يمكن بلوغها دون أن تتبلّل أرجلنا، لأنّ النهر كان جافّا تقريباً. أتناول إفطاراً عبارة عن زبدة وشوكولاتة؛ ثمّ أصعد للالتحاق بسارتر على بعد خطوات من مركز الرّصد؛ كان عليه القيام بعملية رصد كلّ ساعَتَيْن، ورأيتُه يهتَزّ من أعلى برج كبرج إيفل مُصغّر. تناولنا العشاء في سانت- رادغوند تحت تعريشة. عادة، يكون الطقس حارّاً طوال اليوم؛ فننشغل بإهدار إرثه. تركنا الحانة الريفيّة من أجل مطعم أكثر بذخاً. أكلنا النقانق تحت أضواء المصابيح أو على جسر «سيسي Cissé»، على ضفاف لا لوار، واحتسينا النّبيذ. أو نذهب إلى سانت-فلورنتان على ضفاف «شير Cher» وسط «خدمات فندقيّة» تستقطب أغنياء الـ«توران Tourangeaux»[6]. يصطاد سارتر سيّارات التاكسي مرّتين أو ثلاثاً بداية الظّهيرة؛ زُرنا قصور «أمبواز»، «لانجي»، تجوّلنا حول «ڤوڤري Vouvray» على أطراف مزارع العنب الطباشيريّة المأهولة بسُكّان الكهوف. لم يكن لتلك الأيّام الهزيلة غد جيّد. لم نكن قد أكلنا منذ أوّل من أمس – ما عدا قطعة تورتة البرقوق في بوفي «تورس» – عندما نزلنا في محطّة أورليتز، أحد صباحات سبتمبر، عند السّادسة صباحاً. ما من قطعة نقديّة واحدة في جيوبنا، واقتُلِعَت مسامير نعال حذائي الأيمن؛ مشيتُ على ساق واحدة تقريباً

6- توران Tourangeaux: سُكّانُ توران القديمة وهي مُقاطعة فرنسيّة زالت سنة 1790.

من خلال متاهة حديقة النّباتات. قريباً، مقهانا المُفضّل، مروج اللّيلك، فتح أبوابه، جلسنا في الشّرفة، أمام أكواب من الشوكولاتة والفطائر. هل يجب دفعُ ثمنها. تركني سارتر رهناً؛ أخذ تاكسي، ولم يعد قبل ساعة: كان كلّ أصدقائنا في عطلة. لا أدري نحنُ مدينون لمن بخلاصنا. كنّا نقترض كثيراً. وكي يُسدّد كان سارتر يُفرغ ميراثه؛ بعتُ كُتبي وكلّ مجوهراتي حين كنتُ شابّة، أمام سخط عارم من قِبَل والِدَيَّ.

قرأنا بشكل مهول. أيام الأحد كنتُ أجلب معي لسارتر أكواماً من الكتب المُستَعارة، بصورة مشروعة وغير مشروعة، من عند أدريين موني. وبما أنّه كان يُحبّ سلسلة *پردیان، فنتوماس، شيري-بيبي*، فقد كان سارتر يطلب بإلحاح «روايات رديئة مُمتعة». قد أجد له من السيئ جبالاً، لكن مُسلّية، فلم يكن هذا حالها قط؛ خيّب ذلك أمله فسمح لي أن أدسَّ له بين الكُتب روايات قد يتّضح أنّها جيّدة. في فرنسا، لم تكن تصدر مؤلّفات فارقة. رغم النّفور الذي يُسبّبه لنا «كلوديل»، فإننا مُعجبان بـ *«أحذية الساتان»*. شدّتنا *رحلة اللّيل* لسانت-إيغزوبيري؛ تتركنا العلوم والتقنيات المُتطوّرة على الحياد؛ ارتقاء البروفيسور پيكار إلى الغلاف الجوّي، لم يُلامس شغفنا؛ لكنّ تطوّر الطّيران، مُقرّباً القارات بعضها من بعض سيُغيّر علاقة البشر فيما بينهم: تابعنا بانتباه إنجازات «كوست Costes»[7] و«بيونت Bellonte»، و«ميرموز Mermoz»؛ قرّرنا مشاهدة الأرض من السّماء، ذات يوم. كنّا متَعَطِّشَيْن للسّفر والقيام بالتقارير حول العالم: حاولنا تخيّل نيويورك، كما رواها «پول موراند»، والهند، حسب *الهند في مواجهة الإنجليز* لـ «أندريه ڤيوليس».

نتعلّم كلَّ شيء عن أيّ بلد أجنبي، من خلال أدبه؛ البلد الذي كان يهُمُّنا ويُحرّك شوقنا لمعرفته أكثر من غيره هو الاتّحاد السوفيتي، قرأنا كلَّ المؤلّفين الشُبّان الذين تمّت ترجمتهم إلى الفرنسيّة. نصحنا نيزان بشدّة بالاطّلاع على رواية استباقيّة لـ «زامياتين Zamiatine»، *نحنُ الآخرون*؛ في ناحية ما، يُثبتُ هذا العمل السّاخر أنّ الذّاتيّة تعيش في الاتّحاد السوفيتي بسلام، بما أنّ كتاباً كهذا قد أُلِّفَ وطُبع هناك؛ لكنّه دليل مُلتبس، لأنّ النّبرة والخاتمة لا تتركان شيئاً

7- «كوست Costes»: فُندُق باريس فخم.

للأمل. لقد لاح لزامياتين دون شكّ أحد الأمرَيْن، إمّا الموت أو الاستقالة. لم أنسَ مدينة الزّجاج، الشفّافة والقاسية، التي شيّدها تحت سماء نزقة مُستقرّة. مشّطت رواية *الخيّالة الحُمر* لـ «بابل Babel» آلام الحرب وعبثها في لوحات صغيرة مُؤثّرة. *طيور كاسرة* لإرينبرغ، *الڤولغا يسقط في البلطيق* لـپيلنياك جعلتنا نفهم البناء الاشتراكي، ثمّ السوفييت والمدّ الكهربائي، تجربة إنسانيّة شاقّة. بلد يُنتج هذا الأدب وفي السّينما روائع مثل «*المُدَرّعة پوتمكين*» و«*عاصفة على آسيا*» لا يمكن بحال اختصارُه في «حضارة مُهندسين». صحيح أنّ روايات وأفلاماً أخرى كانت تمنح دور البطولة للإسمنت والجرّارات. تراوح فضولنا بين الإعجاب والتوجّس.

لم تنعكس ألمانيا إلّا بقدر ضئيل في *قضيّة مورتزيوس* لـواسرمان، في *برلين ألكسندر–پلاتز* لـدوبلن. وقدّمت لنا أمريكا صوراً تخطف الأبصار والمُهَجَ على الشّاشة أفضل من الورق. بدا لنا آخر نجاح تجاري أمريكي، *بابيت*، مُسطّحاً بعناية؛ أفضّل السُّمك المُضطرب للرّوايات القديمة لـ «دريزر Dreizer». أمّا الكُتّاب الإنجليز، فكنّا نتطرّق إليهم من زاوية أخرى؛ إنّهم ينتمون إلى مُجتمع رصين، لم يكونوا من النّوع الذي يفتح أمامنا الأفق: نحنُ مُعجَبون بفنّهم. نُشرت روايات د. ه. لورنس في فرنسا؛ اكتشفنا موهبته؛ لكنّ كوسمولوجيّته «القضيبيّة» أذهلتنا؛ قرّرنا أنّ استعراضه الإيروتيكي متحذلق وطفوليّ. مع ذلك لفتت شخصيّته انتباهنا: قرأنا مُذكّرات مابيل دودج، بريت Brett، وفريدا Freida؛ اطّلعنا على خصوماتهم، ولاح لنا أنّنا نعرفهم (تُرجِمت العديد من الكتب الإنجليزية خلال الفترة الأخيرة: *أعالي الرّياح*، *حكايا امرأة طيّبة* لـبينيت، *سارن دي ماري واب*، *طباق* لهكسلي، *زوبعة في الجمايك* لـريتشارد هوغيز.)

على أرض الإيديولوجيا، والفلسفة، لم نكن نجد الكثير لنلتهمه. تجاهلنا هذيان «كيسرلينغ»، الذي تمّ التداول على ترجمته. لم نهتمّ كثيراً بـ*مُذكّرات زير نساء* لـ «كركيغارد». لم أحترم مؤلّفاً غير روائيّ خلال السّنتَيْن الماضيتَيْن أكثر من *حياتي* لـ «تروتسكي»، وترجمة جديدة لـ*أمبيدوكليس*، لـ هولدرلين، و*مأساة الوعي* لـ «جون وول» الذي تابعناه بمثابرة على صفحات المجلّة

الفرنسيّة الجديدة N.R.F، *وأوروبا*، *والأخبار الأدبيّة*. وطالعنا عدداً كبيراً جدّاً من الروايات البوليسيّة، التي كانت موضتها آخذة بالرّواج. ظهرت سلسلة «البصمة»، وخُصِّصَت الكثير من المقالات النقدية الجادة لـ إيدغار والاس، وكروفت، وأوپنهايم.

ثمّة وسيلة تعبير كان سارتر يُنزلها مكانة أعلى من الأدب: السّينما. أُلهِمَ فكرة ضرورة الفنّ واكتشف على النّقيض التعنّت المُروّع للأشياء المُعطاة. في مُجمَل ذوقه، كان سارتر كلاسيكيّاً، إلّا أنّه نسّب هذا التّفضيل إلى جدوى المُعاصَرة؛ ما زال آباؤنا، وقسمٌ كبير من البورجوازيّة يرون السّينما وسيلة «ترفيه عن الخادمات»؛ انتمى سارتر ورفاقه في المدرسة العليا للمُعلّمين، عن وعي، إلى طليعة ناقشت بجدّية كلَّ الأفلام التي أحبّوها. كنتُ أقلّ ميلاً إلى ذلك، لكنّي تابعتُ اجتماعاتهم في القاعات وصالونات الحيّ حيثُ نظّموا برامج مُغرية؛ لم نكن نذهب للتّسلية فحسب؛ كنّا نولي تلك الحوارات الأهمّية التي يدخل بها شبّان اليوم الواعظين إلى نوادي السّينما.

رويتُ كيف أنّ سارتر حوّل اهتمامي عن «الأفلام الفنّية» كيف يُدرّبني على مشاهدة مُمتطي الأحصنة رعاة البقر والقصص البوليسيّة. أخذني معه يوماً إلى أستوديو 28 لرؤية وليام بويد في واحد من كلاسيكيّات السّينما الهوليووديّة: شرطي نزيه ونبيل يكتشف أنّ صهره مُجرم. مأساة ضمير. وجدنا أنفسنا في عرض لِفيلم يحبس الأنفاس من الصّور الأولى: *الكلب الأندلسيّ* لـ «بونويل Buñuel» و«دالي Dali» الذي كنّا نجهل عناوين أعماله. وجدنا مشقّة بعد ذلك في الاهتمام بعذابات وليام بويد. كانت هناك أفلام كبيرة أخرى، خلال سنتَيْن: *عاصفة على آسيا*، *سيمفونية زفاف*، *فتيات في زيّ مُوحَّد*، *أضواء المدينة*. تأمّلنا بفضول شديد بدايات السّينما الناطقة: *أنشودة برودواي*، *الوميض الأخضر*. في فِيلمِ *المُغنّي المجنون*، غنّى جونسون بإحساس عميق مُؤثّر، حتّى إنّي باغتُّ لدى عودة الأضواء، دموعاً في عَيْنَيْ سارتر: كان يبكي في السّينما بعفَويّة يُؤسفني أنّي منعتُ نفسي منها. أضحكنا *المليون*، وفتننا حقّاً؛ كان نجاحاً كاملاً، لكنّنا اعتبرناه استثنائيّاً ولم نُؤيّد جون بريڤوست عندما كتب بجرأة: «أؤمن بالاحتمالات وبالمُستقبل الفنّي للفِيلمِ النّاطق.» فيما كان شريطُ

هاليلويا أقلّ تأثيراً من دون أناشيد المُمثّلين السّود ومن دون جمال التّرانيم الرّوحانيّة، ونعيب البوم وحفيف الأشجار وسط الصّمت المأساوي للمُطاردة القاتلة التي انتهى عليها الفِيلم. وماذا سيبقى من *الملاك الأزرق* لو حذفنا منه صوتَ مارلين ديتريش؟ كان ذلك صارخاً. غيرَ أنّ سارتر أحبّ الأفلام الصّامتة كي يُظهر، بقليل من الضّيق، أنّ غياب النّطق لا يُبطِلُ الفنّ؛ لكن ينبغي في كلّ الأحوال، تخليص الفِيلمِ من الأخطاء التقنيّة، والعمل بحرص على تناغم الأصوات مع المسافات والحركات؛ مع ذلك، كان سارتر يرى أنّ لغة الصّور كلّية تكفي الفِيلم؛ سيُتخَمُ لو وُضعت فوقه لغة أخرى؛ بدا له الخطابُ غير منسجم مع تلك السّرياليّة - الكوميديّة، الملحميّة، الشّعريّة - التي تجعله متعلّقاً بالسّينما.

نفّرتنا الرّداءة من المسرح ولم نكن نرتاده باستمرار. دشّن «باتي Baty» مسرح مونبارناس في أكتوبر 1930، بعرض *أوبرا الأربعة سنتات*. كنّا نجهلُ كلَّ شيء عن بريخت، إلّا أنّه فتننا بطريقته في عرض مغامرات «ماكي Macky»: تحرّكت فجأة صُوَرٌ فاقعة الألوان. بدا لنا أنّ العرض يعكس الفوضويّة البحتة في أعمق تجلّياتها: صفّقنا بحرارة على مارغريت جاموا، ولوسيان نات. كان سارتر يحفظ أغاني كورت ويل وكنّا أحياناً نردّد شعار: «شرائح اللّحم أوّلاً، ثمّ الأخلاق.» ارتدنا العروض الموسيقيّة. غنّت جوزيفين باكِر في كازينو باريس الأغاني والرّقصات التي دفعت بها قبل سنوات إلى عالم الشّهرة: حقّقت المجد من جديد. استمعنا، في «بوبينو Bobino» إلى الهَرِم «جيورجيوس Georgius» والنّجمة الصّاعدة ماري دوباس، التي أثارت الضّحك والمرح بين صفوف الجمهور؛ كانت مُضحكة للغاية وهي تُغنّي أغاني 1900 - أذكر من بينها واحدة اسمُها: *أرنست ابتعد* - ورأينا في تلك المُحاكاة سخرية من البورجوازيّة؛ كان، أيضاً في جُعبَتِها أغانٍ شعبيّة رائعة، لاحت لنا قسوتُها تحدّياً للطّبقات البوليسيّة: اعتبرناها هي ذاتها امرأة فوضويّة. ولمّا قرّرنا ألّا نتعلّق إلّا بأشياء وبأناس يتماشَوْنَ مع ميولنا، فرضنا التّفاهم بين كلّ ما نحبّ.

تساوي الكتُبُ والعروض الكثير بالنّسبة إلينا؛ من جهة أخرى، لم تكن الأحداثُ الجمهوريّة لتُثير اهتمامنا إلّا بقدر ضئيل. تغيير الوزارات ونزاعات

المُجتمع الدّولي. بدت لنا تافهة كتلك الخصومات الدّوريّة التي كان يُسبّبها «باعة الصّحف». لم تكن الفضائح الاقتصاديّة تعني لنا شيئاً، بما أنّ الرّأسماليّة هي أساساً مرادفة للفساد. كان «أوستريك Oustric»[8] أقلَّ حظّاً من غيره، هذا كلّ ما في الأمر. كانت الحوادثُ أقلَّ قيمة من أن تُحفّز شهيّتنا للبحث؛ إنّها خصوصاً، عمليّات عنف موجّهة لسُوّاق التاكسي: تتحدّث الصّحف عن اثنيْن أو ثلاثة في الأسبوع. ليس ثمّة سوى مصّاص دمى «دوسلدورف» من يجعلنا نحلم، فقد كنّا على يقين أنّ الأمثلة القصوى هي التي تمنح فرصة لفهم الإنسان. إجمالاً، لم يكن العالم من حولنا سوى قُماشٍ خلفيّ يُظهر حياتنا الخاصّة.

لا شيء مهمّاً أكثر من الوقت الذي أقضّيه مع سارتر؛ لكن، عمليّاً، ثمّة أيّام عديدة كنتُ أعيشها من دونه. أشغل قسماً كبيراً منها في قراءات لا تخضع إلى نظام مُعيّن، عشوائيّاً بحسب نصائح سارتر ونزواتي الخاصّة. أعود إلى المكتبة الوطنيّة من وقت إلى آخر؛ أستعير على حسابي كتباً من أدريان موني؛ اشتركتُ في المكتبة الأنجلو-أمريكيّة التي كانت تتعهّدها سيلڤيا بيتش. في ركن قبالة مدفأتي شتاءً، وفي شرفتي صيفاً، أدخّن بصفاقة سجائر إنجليزيّة، كنتُ أستكمل ثقافتي. بالإضافة إلى الكتب التي كنتُ أقرؤها مع سارتر، التهمتُ أعمالَ ويتمان، بلاك، ياتس، سانج، سين أوكازي، ڤيرجينيا وولف بالكامل، أطناناً من أعمال هنري جيمس، جورج موور، سينبورن، سوينرتون، ريبيكا ويست، سانكلير لويس، دريزر، شيروود، أندرسون، جميع التّرجمات الصّادرة عن سلسلة «النّيران المُتقاطعة Les feux croisés»، وحتّى، بالإنجليزيّة، الرّواية التي لا تنتهي لريتشاردسون الذي نجح على امتداد اثني عشر جزءاً في ألّا يرويَ شيئاً على الإطلاق. قرأتُ ألكسندر دوما، وأعمال نيپوميسان لومرسيي، وباوور لورميان، روايات وبينو، جميع ما كتب رستيف دي لابروتون، رسائل ديدرو لصوفيا ڤولان، وأوفمان أيضاً، سودرمان، كيليرمان، پيو پاروخا،

8- «أوستريك Oustric»: مُستثمر بنكي مشهور وُلِدَ في مدينة كاركاسون الفرنسية سنة 1887 وتُوُفّيَ في تولوز سنة 1971.

بانابيت إيستراتي. اهتمّ سارتر بفلسفة الغموض، واستغرقتُ في أعمال كاترين إيميريتش، سانت أنجس لدي فولينيو. أردتُ التعرّف على ماركس وإنجلز، وباشرتُ قراءة *رأس المال*، في المكتبة الوطنيّة. لم أجده مُريحاً؛ لم أكن أفرّق كثيراً بين الماركسيّة والفلسفة التي أعتنقها، وإن كانت الماركسيّة قد بدت لي سهلة التعلّم جدّاً، وأنّي لن أفهم منها شيئاً، لا شيء تقريباً. مع ذلك، مثّلت نظريّة مكاسب الرّأسماليّة اكتشافاً نفيساً، يعادل في قدرته على الإبهار الكوجيتو الديكارتي، ونقد كانط للمكان والزّمان. كنتُ أدين الاستغلال من كلّ قلبي وأجد في نفسي رضاً كبيراً وأنا أعرّي آليّاته. أشرق نهار جديد على العالم وأرى في العمل مصدراً لذلك ومادّة القِيَم. لا شيء سيجعلني أنكر هذه الحقيقة، لا النّقد الذي حفّزته في داخلي خاتمة *رأس المال*، ولا التي أجدها في الكتب، أو في المذاهب الخفيّة الاقتصاديّة الحديثة.

كي أكسب عيشي، كنتُ أقدّم دروساً وألقي محاضرات حول اللاّتينيّة في معهد ڤيكتور دوروي. درّستُ علم النّفس لطالبات معهد نويي Neuilly المُهذّبات المُتعقّلات: استنزفني قسم السّادسة. كانت مبادئ اللاّتينيّة كئيبة بالنّسبة إلى فتيات في سنّ العاشرة؛ ظننتُ أنّه كان بمقدوري تبديد تلك الكآبة بالابتسامات؛ كانت تلميذاتي يبتسمن أيضاً؛ كنّ يرتقين منبر الأستاذ كي يتأمّلن طوقي وأقراطي عن قرب، ويلمَسْنَ ياقتي؛ خلال الفترة الأولى، كنّ يلزمن الهدوء عندما كنتُ أدعوهنّ إلى أماكنهنّ، لكن فيما بعد لم تنفكّ ثرثرتهنّ وتحرّكاتهنّ تتزايد. حاولتُ تشديد صوتي، أن أرسم في عينَيَّ وميض البرق: واصلن مشاكستي والقيام بالتهريج. حاولتُ أن أقسو، ووضعتُ علامة سيّئة لأكثرهنّ إثارة للشّغب؛ خرجتْ مُسرعة، مُشيحة بوجهها نحو الجدار صارخة: «سيضربني أبي!» وردّدت البقيّة بصوت مُعاتب: «سيضربها والِدُها!» كيف أرسِلُها إلى هذا الجلّاد؟ لكن لو صرفتُ عنها العقاب، كيف أسيطر على بقيّة زميلاتها؟ لم أجد سوى حلّ واحد: أن يطغى صوتي على ضجيجهن؛ إجمالاً، ستسمعني اللاّتي ترغبن في سماعي وأظنّ أنّ جناحي يُعلّم اللاّتينيّة أفضل من أيّ جناح آخر. لكن تمّ استدعائي أكثر من مرّة من قِبَلِ المُديرة الغاضبة ولم يتمّ تجديد عقدي.

من حيثُ المبدأ، من خلال وقف التّنفيذ هذا الذي أصدرتُه في حقّ نفسي، والذي دام عامَيْن، يجب أن أحظى بوظيفة، لكنّي نفرتُ من مغادرة باريس. حاولتُ إيجاد طريقة أثبُتُ بها هنا. قدّمني ابن عمّي الثريّ، الذي ساعد أبي فيما مضى، إلى إحدى مُديرات *أوروبا الجديدة*، *السّيّدة پواتيي*، التي وضعت أمامه جملة من الشّروط؛ كانت مُتزوّجة من ناظر مدرسة، ويقطنان مسكناً شاسعاً ومليئاً بالأثاث والسجّاد الشّرقي في أحد المعاهد؛ كي تشرعي في القيام بمهنة الصّحافة، عليكِ أن تأتي بأفكار جديدة: هل كان لديَّ ما يكفي منها. لا. نصحوني إذاً بالبقاء في التعليم. اهتمّ الزّوج بي؛ كان ستّينياً طويل القامة، أصلع، وذا عيْنَيْن حزينتَيْن؛ كان يدعوني لاحتساء الشاي معه في پري-كاتلان؛ وعدني بتعريفي بأناس مُهمّين، وكان يُحدّثني عن الحياة؛ تطرّق إلى ناحيتها الشّهوانيّة؛ كان يرمق مباشرة عيْنَيَّ، وبجدّية كان صوته يتّخذ تدريجيّاً نبرة علميّة. دعاني إلى كوكتيل: كانت تلك أوّل مرّة أخرج فيها إلى العالم الجميل؛ لم أنبغ كثيراً. كنتُ أرتدي فستاناً قطنيّاً أحمر، منديل عنق أبيض، متواضعاً جدّاً مقارنة بتلك الظّروف. كانت جميعُ سيّدات *أوروبا الجديدة*، يلبسن من تصميم الحائكين؛ لويز واس بالساتان الأسود، كانت تتحدّث وسط حلقة من المُعجَبين. كلّفوا أحد الضّيوف بالاهتمام بي؛ تحرّك قليلاً ليُقدّمني لسيّدة عجوز شاحبة، كانت، كما قال لي عارضة أزياء لمصلحة مجلّة *الآنسة داكس الصّغيرة*، لكنّ الحوار أخذ فيما بعدُ مُنعَرَجا بائساً. أدركتُ أنّي لن أنجح في التّفاهم مع هؤلاء الناس، وقرّرتُ التّدريس في الرّيف.

في انتظار ذلك، أردتُ أن أمتلئ بباريس. صرفتُ النّظر عن كلّ الضّغوط التي تُزعجني: عمّات، خالات، أبناءهم، أقارب، أصدقاء طفولة. كنتُ أتناول الغداء باستمرار في بيت والِدَيَّ: وبما أنّنا كنّا نتجنّب الدّخول في خصومة فلم يكن لنا الكثير من المواضيع لنخوض فيها؛ كانا يجهلان كلّ شيء عن حياتي. كان أبي حانقاً لأنّي لم أحصل على عمل؛ عندما كان بعض الأصدقاء يسألونه عن أخباري، كان يُجيب بامتعاض: «إنّها في شهر عسل بباريس.» صحيح أنّي أستمتع قدر الإمكان. كنتُ أتناول العشاء أحياناً عند السيّدة لومار، مع پانييز، وكانا يأخذانني إلى السّينما. كنّا نذهب إلى «القمر الأحمر» بصحبة ريريت، نيزان، وننهي السّهرة في احتساء الكوكتيل في حانة الـ «ڤايكينغز». عدتُ إلى

«جوكي»، و«لا جانغل La jungle» بصحبة أختي وجيجي؛ قبلتُ المواعيد، خرجتُ مع أيّ شخص، أو تقريباً. أخذني فرناند إلى اجتماعات تجري مساءً، في مقهى يُشكّل زاوية التقاء شارع راسپاي وشارع إيدغار-كيني: كنتُ أذهب إلى هناك باستمرار. كان يرتادُ المقهى الرسّام روبرت ديلوناي وزوجته سونيا التي كانت تنجر رسوماً صغيرة على القماش، كوسيو الذي لم يكن يرسم سوى القوارب الصّغيرة، الموسيقار الطّليعي ڤاريس، الشّاعر الشيلي ڤانسون هويدوبرو؛ أحياناً كان بليز سندرار يظهر: كان الجميع يتعجّب حالما يفتح فمه. تمضي الأمسيات في تقريع الحمق البشري، وتعفّن المُجتمع، وفنّ الموضة وأدبها. أحدهم اقترح استئجار برج إيفل كي يُكتَب عليه بأحرف مُضيئة «سُحقاً!» آخر تمنّى إغراق الأرض بالبترول وإضرام النار فيها. لم أكن أحشر نفسي في هذا الشرّ، لكنّي أحبّ الدّخان وقرع الكؤوس بعضها ببعض، همس الأصوات المُنتشية فيما يُخيّم الصّمت على باريس. ذات ليلة، لمّا أغلق المقهى، انسحبت مجموعتي صوب حانة «سفانكس» وتبعتُهم. لطالما تخيّلتُ المواخير أماكن ذات شعريّة عالية، ربّما بسبب فان غوخ وتولوز-لوتريك: لم يخب ظنّي. الدّيكور الصّاخب بشكل يفوق كورال الأناشيد الدينيّة، الأضواء، النساء نصفُ العاريات في ستراتهنّ الشفّافة والمُلوّنة، إنّها تُشبه من بعيد تلك الرّسوم الحمقاء والعزيزة على رامبو التي تُجسّد الأكواخ السوقيّة البذيئة.

كان فرناند وباندي (الهنغاري المُغرم بستيفا، الذي تعرّفتُ عليه في المكتبة الوطنيّة) يبعثان لي من مدريد، بودابست، بفنّانين وأدباء: كنتُ خلال اللّيل، أتجوّل بهم في باريس، وكانوا يُحدّثونني عن مُدُن كبيرة مجهولة. كنتُ أحياناً أيضاً أخرج مع بائعة تعمل لدى بورما، صديقة تاپير، كنتُ أجدها لطيفة للغاية: أطلق عليها سارتر اسم السيّدة ليستومار، مثل إحدى بطلات بالزاك. كنّا نذهب للرّقص في حفلات بشارع لاپ؛ كنّا نطلي وجوهنا بالطّحين الأبيض وشفاهنا بالدّم وكنّا ننجح كثيراً. كان راقصي المُفضّل شابّاً جزّاراً، أصرّ يوماً تحت تأثير كرز مُغمّس في النّبيذ، على أن يأخذني إلى بيته. «لديَّ صديق، قلتُ – ماذا بعد؟ تحبّين العجل: لن يمنعك ذلك من أكل قطعة جومبون من وقت إلى آخر؟» خيّبتُ أمله كثيراً حين لم أقبل تغيير نمطي الغذائي.

كنتُ نادراً ما أنام قبل الثانية صباحاً؛ لهذا السّبب ينتهي نهاري بسرعة: كنتُ أنام فيه كثيراً. يوم الإثنين بصفة خاصّة، لأنّي أعود إلى تورز Tours الخامسة والنصف صباحاً؛ كانت أقسام الدّرجة الثالثة مليئة وكان هناك دائماً جارٌ أو شخصٌ مقابل عنيد كي يدخل معي في دور مناكفة بالرّكبة، لم أكن أغمض عينَيَّ؛ كنتُ أذهب إلى معهد دوروي Duruy عند الثامنة والنّصف: يحدث، بعد منتصف النّهار، خلال دروس الإغريقيّة، أن أفقد الوعي دقيقَتَيْن أو ثلاثاً بينما كان تلاميذي يبحثون عن معنى النصّ. كنتُ أحبّ تعبي، أحبّ الإفراط؛ لم أكن أسكَرُ قط، مع ذلك لم تكن معدتي قويّة، يكفي كأسان أو ثلاثة كي تسوء حالَتُها.

لستُ في حاجة إلى كحول كي أثمل؛ كنتُ أتنقّل من مفاجأة إلى دهشة ومن متعة إلى حفلة. كان كلُّ شيء قادراً على إمتاعي وإثراء حياتي. كان أمامي الكثير لأتعلّمه إلى درجة أنّ أيّ شيء كان مصدر معرفة بالنّسبة إليَّ. ذات أحد أقلّني تاپير إلى تورز في سيّارته الصّغيرة؛ رافقتنا السيّدة ليستومير. غادَرْنا سارتر متأخّراً، كان منتصف اللّيل عندما حدث عطب في السيّارة بمنطقة بلوا Blois: لم أكن أعرف أنّ جميع الأرياف كئيبة في اللّيل. كان علينا الانتظار ربع ساعة كي نتمكّن من إيقاظ صاحبة النّزل؛ وضعت المرأتيْن في سرير واحد والسيّد في غرفة المُوظّفين؛ أردنا التحدّث: سحب وسادته إلى أرضيّتنا ونام هناك. أيّ جلبة في اليوم الموالي! ظننا أنّ المالكة ستشكونا لشرطة الأخلاق. سُعدتُ بتلك الحادثة الصّغيرة كما لو كانت مغامرة.

حصل معي أمر آخر، أعجبني. عند نهاية السّنة الدراسيّة، بقيتُ يوم أحد لقضاء اللّيلة في تورز. لكن يوم 15 أوت، مع تمام الواحدة صباحاً، امتلأ النّزل الذي أبيتُ فيه. جرّبتُ اثنين ثلاثة دون جدوى. عرض عليَّ السّائق النّوم في المُستودع داخل السيّارة وقبلتُ. ثمّ استدرك، لابدّ أنّ زوجته ستسمحُ لي بقضاء اللّيلة في غرفة بناتها اللاتي ذهبن للمصيف. تبعتُه، ليس من باب الطّيش، بل من باب الثّقة. وفعلاً، كانت هناك امرأة في مُقتبل العمر في انتظاره، في سرير كبير، مُبتسمة، مُتزيّنة، كأنّها تستعدّ لحفلة. قدّما لي قهوة بالحليب صباح اليوم الموالي ولم يقبلا فلساً واحداً. أثّر فيَّ لطفهما أكثر من كوني خرجتُ من مكان

لا نشعر فيه بالخجل لأنّنا لم ندفع شيئاً مقابل لا شيء يُطلبُ منّا. أكّدت لي بسلوك تبنّيتُه فطريّاً، وما كنتُ لأهجره: وسط الشكّ، يجب أن يكون المرء رابحاً لا خاسراً، يجب أن يُقرض المرء الناسَ بدلَ أن يمنع نفسه عنهم.

متعة رائعة أحبّذها، هي التّنزّه بالسيّارة. رافقني ڥانييز مرّتَيْن أو ثلاثاً إلى تورز. جعلني أكتشف كاتدرائيّة «شارتر Chartres»، قصر شومون. كان قد أنهى خدمته العسكريّة قبل سارتر بأسبوعَيْن أو ثلاثة. كان يرغب في القيام بجولة في فرنسا لزيارة الأصدقاء والأقارب. أعارته السيّدة لومار سيّارتها. عرضَ عليَّ الذّهاب معه. رحلة في السيّارة، رحلة حقيقيّة، أوّل رحلة لي في حياتي! دخلتُ في حالة من الانتشاء منذ تلك اللّحظة. كنتُ سعيدة بقضاء عشرة أيّام بمفردنا أنا وڥانييز! كنتُ أحبّ التحدّث إليه، حضوره وتأمّل الأشياء بصحبته.

شاءت الصّدفة، يوميْن قبل السّفر، أن يُكلّمني هيربو ليُخبرني أنّه في باريس وأنّه سيمكث أسبوعيْن من دون زوجته: سيكون هناك وقت لرؤيتي. لطالما تركّزت علاقتنا على التّفاهم: كان حريصاً على ألّا يعرف ماذا يُمثّل سارتر بالنّسبة إليَّ، ولا أتمسّك بإطلاعه على ذلك؛ قبل شهريْن وجد في غرفتي رسالة أضاءت حيرته؛ ضحك، لكنّه كان غاضباً، وإن كان لم يُخفِ عنّي اهتماماً كان يوليه لامرأة من «كوتانس Coutances». وضعني أمام تحدٍّ: إن رحلتُ مع ڥانييز بدلَ الاستمتاع بقضاء الوقت معه، فلن يراني مُجدّداً أبداً. اعترضتُ، إذ لم يكن مُلائماً أن أخلف اتّفاقي مع ڥانييز. «يُمكنك، قال هيربو. - لا يُمكنني»، أجبتُ. ليكن: قطع معي إذاً. ذهبنا إلى السّينما وكنتُ أبكي دون انقطاع مُردّدة: «لقد قطعتُ وعداً.» أغاضه إصراري، أسرّ لسارتر لاحقاً، وكان يُفضّل اعترافاً صريحاً: «كانت لديَّ رغبة في رؤية البلاد.» في الواقع، كنتُ صادقة؛ فكّرتُ دائماً أنّ ترك المشاريع المُشتركة، باستثناء ظروف قاهرة، هو نوع من الإساءة للصّداقة وكنتُ أتمنّى تأكيد صداقتي بڥانييز؛ هنا يكمن جوهر القضيّة: حاليّاً، أنا أفضّلها على علاقتي بهيربو؛ كان ڥانييز قريباً من سارتر جدّاً وقريباً منّي أيضاً؛كانت الظّروف، وقد تبدّد التكلّف بيننا، أمراً واعداً ومُثرياً بلا نهاية؛ على عكسه وهو يعلم ذلك، لم يكن لهيبرو أيّ دور يلعبه في حياتي.

كان ينتمي إلى الماضي وأضحّي به من أجل القادم عن طواعية. ودّعتُه باكية. أغضبه ذلك أيضاً وأتفهّمُه، لأنّ يأسي السخيّ، قد حوّل إلى حتميّةٍ اختيارًا أنا من قرّره.

كان المطر يهطل في «مورڤان» لكن كافياً لأردّد بسعادة: سنرحل، ها قد رحلنا! جعلني غداؤنا في «أفايون» أشعر بالدّوار. في اليوم الموالي، زرنا كنيسة «دي برو De Brou»؛ امتلأت بالمشاعر لدى رؤية المُجسّمات المرمريّة والفضائل المُدوّنة على شاهدات القبور؛ لا أحد أجبرني من قبل على الإعجاب بالـ «شفّاف» السيّئ الإنجاز كما فعلت حجارة سان-ماكلو. في ليون، راح پانييز لرؤية أصدقاء، ونزلتُ لرؤية ابنة عمّي الكبرى سيرميون، التي تزوّجت طالباً في كلّية الطبّ؛ تناول معنا الغداء اثنان أو ثلاثة من إخوتها؛ خدمت اليتيمة الحمقاء الطّاولة، ما زالوا يُعذّبونها. أدهشوني أكثر من وقت طفولتي. اعتقدوا، لأنّي أسافر مع رجل، أنّي على استعداد لسماع جميع الأشياء الخبيثة، وأثار مزاحُهم الثّقيل غضبي؛ قدّموا لي بعد الغداء ما يُسمّونه «بندق غرونوبل» : كانت صدفة جوز بداخلها واقٍ ذكري؛ كانوا فخورين جدّاً، لأنّهم جنّبوني مشقّة البحث عنه. ثمّ قمنا بجولة كبيرة في ليون، وأطلعني ابن عمّي جاك على معملِه لصنع دواية اللّمبات الكهربائيّة. كان ذلك هو لقائي الأوّل بالعمل، وصُعِقتُ حقّاً. في قلب النّهار كان اللّيل مُخيّماً في الورشة، والهواء الذي يتنفّسه العمّالُ كان مشحوناً بالغبار المعدني. نساءٌ جالسات أمام لوحات دوّارة، مثقوبة بانتظام؛ ومن صندوق موضوع على الأرض، كنّ يتناولن أسطوانات من النّحاس ويُركّزنَها في ثقب تُبديه اللّوحة؛ كم ساعة كان ذراع العاملة يتنقّل بين الصّندوق واللّوحة بذلك الشّكل المتواصل، وبالإيقاع السّريع؟ مدّة ثماني ساعات، وسط تلك الحرارة وتلك الرّائحة، تحت وطأة تلك الحركة الرّهيبة والرّتيبة والدّائريّة، دون توقّف. ثماني ساعات كلّ يوم. «شربتِ كثيراً أثناء الغداء»، قال لي ابن عمّي بمرح وهو يلحظ دموعاً تجمّعت في مُقلَتَيّ.

اكتشفتُ آفاقاً ثلجيّة مترامية الأطراف على سلسلة الجبال الوُسطى. ذهب پانييز إلى «تول Tulle»: أنزلني في «أوزيرش Uzerche». استرجعتُ ماضِيّ

دون شكّ. نمتُ في فندق «ليونارد»، أحد الأماكن التي اعتقدتُ فيما مضى أنّها غير قابلة للسّكن، إلّا إذا كنّا ننتمي إلى فئة المُسافرين في الأرض: ريفيّون، كتّاب رحّالة. أحسستُ بالرّاحة. جاء پانييز لأخذي وتذكّرتُ انبهار بروست في جولاته الأولى بالسيّارة «من جانب آل غيرمانت» و«من جانب آل سوان». خلال ظهيرة واحدة، زرنا أماكن كنتُ أظنّ أنّها مُتنافرة ومتناقضة: قصر تورين، كنيسة بوليو وروكامادور التي كانوا قد حدّثوني عن سحرها عندما كنتُ طفلة، دون أن يأخذوني إليها. امتلأتُ بمشاهدة المناظر الطبيعيّة. لقد اكتشفتُ شيئاً عظيماً: الرّيف. حرّك فضولي ما قيل لي في طفولتي عن «ميدي Midi». كيف تكون جميلة دون أشجار؟ سألتُ. لم تكن على تخوم «أوزيس Uzès» أشجار، وحول جسر «غارد Gard»، لكنّ المنظر كان بديعاً. أحبّ الجفاف ورائحة البراح؛ أحبّ عراء المحميّات عندما كنّا ننزل صوب سانت-ماري. حرّكت «إيغ-مورت. البحيرات الميّتة Aigues-Mortes» مشاعري كما فعل وصفُ «باريس Barrès» لها وأطلنا المكوث أسفل أسوار الحصن، مُنتبهين للّيل ولصمته. نمتُ تحت ناموسيّة للمرّة الأولى في حياتي. وعندما عرّجنا ناحية «آرل Arles»، رأيتُ أشجار السّرو مائلة بسبب الرّيح الباردة، وعرفتُ اللّون الحقيقي لأشجار الزّيتون. كانت الرّياح تهبّ للمرّة الأولى على منطقة «بو Baux» ، عندما وصلنا ليلاً؛ كانت على السّهول، نيران تُطقطق؛ نارٌ تُطقطق في موقد الملكة جان، حيث كنّا الزّبائن الوحيدين؛ تناولنا العشاء حول طاولة صغيرة قريباً من المدفأة، احتسينا نبيذاً أذكر أنّ اسمه: «مزرعة السيّدة». وللمرّة الأولى تجوّلتُ في «أڤينيون»: أفطرنا فواكه وحلويات في حديقة تُشرف على نهر «الرون Rhône»، تحت الشّمسِ والسّماء المهيبة. أمطرت في باريس خلال اليوم الموالي؛ بعث لي هيبرو برسالة قبيحة، قطع فيها علاقته بي نهائيّاً. تساءلت السيّدة لومار إن كنتُ قد أحسنتُ عملاً برفض عرضه؛ غضب سارتر من العسكريّين الذين أخلوا سبيله بعد انتهاء مدّة خدمته. كم كان أمراً غريباً، أن أجد، بعد عشرة أيّام من الشّراكة، أنّ المسافة بيني وبين پانييز هائلة! حتّى السّعادة لها حراشف حادّة، ثقوبها وظلالها أحياناً؛ كان هناك أسف: إنّه درسُ العودة.

في سنّ التاسعة عشرة، ورغم العثرات، أردتُ من كلّ قلبي أن أكتُب؛ أحسستُ بأنّي في المنفى وكان ملجئي الوحيد ضدّ العزلة هو أن أظهر. في الوقت الحالي، لا أبدي الرّغبة في التّعبير أبداً. كتب، هو من ناحية أو أخرى نداء: من أنادي وماذا أقول؟ كنتُ ممتلئة. كانت عاطفتي وسعادتي وملذّاتي تتعجّل دفعي نحو المُستقبل دون توقّف، حتّى إنّ شدّتها كانت تغمرني بالكامل. في مواجهة الأشياء والنّاس، كانت تنقصني المسافة التي ستسمحُ لي بتكوين وجهة نظر أو بالحديث عنهم؛ لم أكن قادرة على القيام بأيّ تضحية، ما يعني عدم القدرة على القيام باختيار، تُهتُ في غليان مُضطرب وفوضوي لذيذ. صحيح أنّي كنتُ قد اتّخذتُ خطوة إلى الخلف إزاء ماضِيَّ: ربّما كانت خطوة عملاقة. لم يكن يحرّكُ في داخلي ذلك الحنين الذي سيجعلني أستدعيه لأجسّده من حين إلى آخر، ولا إحساساً بالنّقمة وتصفية الحسابات؛ فقط الصّمت كان في انسجام مع لا مبالاتي.

إلّا أنّي كنتُ أذكُر قراراتي القديمة ولم يترك لي سارتر المجال لأنساها؛ قرّرتُ الشّروع في كتابة رواية. جلستُ على كرسيّ برتقالي، كنتُ أستنشق رائحة المدفأة النّفطيّة متأمّلة بعين قلقة ورقتي العذراء: لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أروي. أن تُنجِزَ عملاً، هو أن تعرضَ العالم للقراءة؛ بالنّسبة إليَّ، كان حضوره طاغياً وساحقاً، ولم أرَ شيئاً واضحاً: ليس لديَّ ما أبيّنه. لم يكن أماميّ غير نسخ الصّور الأدبيّة التي حقّقها كتّاب آخرون من قبلي؛ حاكَيْتُ دون أن أعترف أمام نفسي بذلك. كان ذلك مؤسفاً دائماً. لِمَ عليَّ أن أعقّد من الأزمة باختيار نموذج *مولن الكبيرة*، و*غبار*؟ أحببتُ هذيْن الكتابَيْن. أطالب بابتعاد الأدب عن الإنساني: أمتعاني لأنّهما قذفا بي في عالم سحري. تحمّس هيبرو لدهشتي أمام هذا النّوع من الأدب، لأنّه كان يمارس هواية قراءة الأدب الخيالي. أمّا سارتر فقد كان رافضاً لكلّ خدعة؛ غير أنّه كان يجد متعة كبيرة في الخوض معي في مسائل خياليّة، وكان للأساطير والخرافات حيّز ودور كبير في أعماله. على أيّ حال، عبثاً حاول استمالتي للواقعي: لم تكن في مفهومي سوى طريقة واحدة كي يكون المرء نزيهاً مع واقعه، أن أصمت. شرعتُ، إذاً، في نسج حكاية تستعير من آلان فورنيي وروزاموند ليمان سحريّتهما. كان هناك قصر قديم، متنزّه كبير، فتاة صغيرة تعيش إلى جانب أب حزين وصموت؛

ذات يوم، تقاطعت سبيلها مع سبيل ثلاثة شبّان متحرّرين جاؤوا لقضاء العطلة في عزبة محاذية. قرّرت أنّها في الثامنة عشرة من عمرها؛ قادتها رغبتها في اكتشاف العالم إلى التّرحال في الطّرقات بكلّ حرّية. نجحت في الوصول إلى باريس؛ التقت امرأة تُشبه ستيفا، وامرأة أكبر سنّاً تُشبه السيّدة لومار؛ ستعيش مغامرات شاعريّة، لكن لا أدري أيَّ مغامرات على وجه التحديد: توقّفتُ في الفصل الثّالث. أدركتُ أنّ السّحري لا ينسجم مع مزاجي. لم يمنعني ذلك من العناد وقتاً طويلاً. بقيَتْ أعمالُ «ديلي Delly» تُلقي بظلالها قليلاً على مُسوّدات رواياتي الأولى.

كنتُ أشتغل دون قناعة مُعيّنة؛ ينطبع لديَّ أحياناً أنّي أقضّي عقوبة وأحياناً أنّي أنخرط في كتابة مهزلة. لا شيء يستعجلني على أيّ حال. كنتُ سعيدة في الوقت الحاضر، وهذا كافٍ. لكن لا، هذا لا يكفي. ألم أكن أتوقّع من نفسي شيئاً آخر؟ لم يكن لديَّ دفتر يوميّات، لكنّي كنتُ أكتب بعض الكلمات من حين إلى آخر: «لا يمكنني الاستقالة من الحياة مع أنّها لا تعني شيئاً كثيراً»، كتبتُ، بداية ربيع سنة 1930؛ ولاحقاً في شهر جوان: «فقدتُ كبريائي، هذا يعني أنّي خسرتُ كلَّ شيء» يحدث أن أدخل في نزاع مع مُحيطي، لكن أبداً مع نفسي؛ أتعلّم، خلال الثّمانية عشر شهراً، أنّه من الممكن ألّا نرغب في ما نريدُه وأيّ قلق قد ينجرّ عن هذا التّناقض. لم أكفّ عن اقتحام مسرّات العالم باندفاع؛ مع أنّ ذلك يُبعدني عن رسالتي: كنتُ بصدد خيانة نفسي وإهدار حياتي. تعاملتُ مع هذا الصّراع على أنّه مأساة، أحياناً على الأقلّ. أعتقد اليوم، أنّه لا فائدة من جلد نفسي قطّ؛ لكنّي كنتُ دائماً مُستعدّة لجلدِ اثنيْ عشر قطّاً بدل قطّ واحد.

ما الذي أعيبُه على نفسي إذاً؟ أوّلاً، حياتي السّهلة جدّاً؛ كانت في البداية تُشعرني بالإثارة، لكن سُرعان ما أصبحتُ أشعر بنوعٍ من الاشمئزاز. تلميذة نجيبة في داخلي نفد صبرُها من المدرسة الطُّلاّبيّة. لم تكن قراءاتي المُشوّشة سوى نوع من التّسلية، لم تكن تأخذني إلى أيّ مكان. كان عملي الوحيد الكتابة: نذرتُ وقتي للرّيشة، وخصوصاً لأنّ سارتر كان يحثّني على ذلك. عدد كبير من الأولاد والبنات ممّن انكبّوا على الدّراسة ببسالة وطموح رغم

قسوة الدّروس وصعوبتها، وذاقوا بعد ذلك طعم الخيبة؛ الجهد، الاكتشاف، تجاوز يوميّ لا يُعَوَّض ويمنح الرضا عن النّفس؛ لو أقمنا مقارنة صغيرة فإنّنا سنخلص إلى أنّ ملذّات الخمول السلبيّة ستبدو مُملّة وأنه لا معنى للسّاعات الأكثر إشراقاً وامتلاءً.

ثمّ إنّي لم أنهض بعدُ من صدمة مواجهة بعض الرّفاق؛ وكي أستعيد القليل من الاعتزاز، كان لابدّ أن أقوم بشيء ما؛ غير أنّي سرعان ما أكسَل. كانت بلادتي تؤكّد شعوري بالرّداءة. تخلّيتُ عن المشروع. ربّما ليس مُتاحاً للمرء التعايش مع شخص آخر؛ لم أقدر على ذلك قط. إمّا أن أسود أو أن أتلف نفسي. سقطتُ في العار لأنّي كنتُ مُستعبَدة من قِبَل زازا؛ الحكاية نفسُها تتكرّر، مع فرق واحد هو أنّي سقطتُ من عُلُوّ شاهق وتهشّمت ثقتي بنفسي بعنف أكبر. حافظتُ على سلامي الدّاخلي في كلتا الحالتَيْن؛ كنتُ منبهرة بالآخر إلى درجة انعدام فرضيّة أن أقول في نفسي: أنا لا شيء. غير أنّ ذلك الصّوت أخذ يستيقظ؛ عندها، لاحظتُ أنّي توقّفتُ عن الوجود لمصلحتي الخاصة، وأنّي أعيش طُفيلِيّة. عندما كنتُ أختلف مع هيبرو، كان يتّهمني بخيانة الذاتيّة التي احترمني من أجلها، وكان لابدّ أن أجده مُحقّاً. لكن ما أثّر فيَّ حقّاً هو أنّ سارتر قلق: «لكن، كاستور، كنتِ تتمتّعين بأفكار حول العديد من المسائل»، قال لي مندهشاً. «احذري ألّا تكوني امرأة من الدّاخل»، قال لي أيضاً. لم أكن مُهدّدة بالتحوّل إلى ربّة بيت، لكنّه قارنني ببطلات ميريديت Meredith اللاتي انتهى بهنّ الأمر إلى الاكتفاء بلعب دور الرّفيقة للرّجل بعد نضال طويل لأجل نيل استقلالهنّ. ألوم نفسي لأنّي خيّبتُ انتظاراته. نعم، لقد وضعتُ تحدّياً ببلوغ السّعادة، لكنّ ذلك كان مُجرّد عنوان. مهما كان الوجه فهو يقودني مباشرة نحو الاستسلام. عندما التقيتُ بسارتر، ظننتُ أنّ كلّ القضايا التي أحملها ستكون رابحة؛ بجانبه لم أكن قادرة على عدم الإنجاز؛ أقول الآن، إنّ المُضيَّ برفقة أيّ كائن خلافَه، هو الدّرب الأقصر نحو الهزيمة.

لكن عموماً، لِمَ كلُّ هذا النّدم والخوف؟ لم أكن يوماً مناضلة نسويّة، لم تكن لديَّ النظريّات التي تلامس واجبات النّساء وحقوقهنّ؛ إضافة إلى أنّي أرفض تصنيفي على أنّي «طِفلَة»، لا أفكّر الآن أنّي «امرأة»: أنا نفسي. من هذه النّاحية كنتُ أشعر بالنّقص. راودتني وطالما عاشت في أعماقي فكرة

الخلاص منذ اختفاء الربّ، وكانت أوّل قناعة لي هي أن يؤمّن الإنسانُ إلهه في داخله. لم يكن التّناقُض الذي أعيشه من النّوع الاجتماعي، لكن أخلاقي بل دينيّ تقريباً. أن تقبل العيش بصفتك كائناً ثانويّاً، كائناً «نسبيّاً»، هو أن أنحطّ ككائن بشري؛ ماضِيَّ بأسره ثار على هذا التدهور (طبعاً، لم تكن الإشكاليّة لتُطرَح عليَّ بهذا الشّكل إلّا لكوني امرأة. لكنّي حاولتُ تجاوُزَه بصفتي فرداً. لم يكن للنّسويّة ولصراع الجنسَيْن معنى بالنّسبة إليَّ.)

كنتُ سأتلقّى الأمر بأقلّ حدّة لو أتلقّى أخرى أكثر قسوة لا صلة لها بالآخر، بل بتناقضاتي الخاصّة. توقّفتُ عن حماسي لأكون عقلاً محضاً؛ عندما يتّحد القلب والرّأس واللّحم معاً، يكون العيش في البدن حفلة كبيرة. لم أكن أعرف غير الغبطة في البداية: كان ذلك منسجماً مع تفاؤلي، ومتناغماً مع غروري. لكن سرعان ما أخضعتني الظّروف لاكتشاف أعرفُه، تراءى لي في العشرين من عمري كحدس قلق: الحاجة. كنتُ أجهل ما هي: لم أعرف الجوع أو العطش أو الحاجة إلى النّوم؛ فجأة، صرتُ فريسة لها. كنتُ أمضي أيّاماً وأسابيع بعيداً عن سارتر؛ في تورز، كنّا خجولَيْن للغاية من الصّعود إلى غرفة في فندق في قلب النّهار؛ كنتُ دائماً أرفض أنّ يتّخذ الحبّ شكل المؤسّسة المُنظّمة: أريد أن يكون الحبّ حرّاً، لا متحرّراً. لا أقبل الانصياع إلى الرّغبة عكس مشيئته ولا أن نرتّب متعتنا بدم بارد. على السعادة الغراميّة أن تكون قاتلة وغير متوقّعة مثل أمواج البحر، وتفتّح أزهار شجرة خوخ. لم يكن في وسعي شرح السّبب لكن كانت تُفزعني فكرة إقامة مسافة بين أحاسيس جسدي وبين قراراتي. لقد وقع الطّلاقُ بينهما فعلاً. كان لجسدي أمزجته التي أعجز عن احتوائها؛ إنّ عنفها يأتي على دفاعاتي. اكتشفتُ أنّ الأسف، حين يغزو اللّحم، فلن يعود مُجرّد حنين، بل ألماً؛ إنّه ينسج رداءً مسموماً من شعر رأسي إلى أخمص أصابعي. أكرهُ أن أتعذّب؛ أكره تحالفي مع المُعاناة التي تنشأ من دمي ويتقدّم بي الحالُ إلى حدّ كره اضطراب دمي في عروقي. أتأمّل الناس في الميترو، الضاجّ صباحاً، وأتساءلُ: «هل يعرفون هذا التّعذيب؟ كيف يُعقَلُ ألّا يشرح لي أيّ كتاب هذه الفظاعة؟» راح النّسيج يزول رويداً؛ استعدتُ عذوبة الهواء لدى ملامسته أهدابي. لكنّ الهوس يستيقظ مساءً، فتجري مئات النّملات فوق شَفَتَيَّ؛ أطفحُ صحّة أمام المرآة وشرٌّ ما يُعفّن عظامي.

شرٌّ مُخجِل. لقد خلخلتُ تربيتي النقيّة كفاية كي أتمكّن من الاستمتاع بجسدي دون عواقب، لكن ليس كفاية كي أُسلّم بأنّه يُفسد تناغمي مع ذاتي؛ كان ينفُر منّي، جائعاً، شحّاذاً، وشاكياً. كنتُ أمام ضرورة مواجهة حقيقة أحاول حجبها منذ سنّ المراهقة: تلك الشّهوات تغمر إرادتي. أتعرّف في تلك الحُمّى والحركات والوقائع التي تربطني برجُل مُعيَّن، على حركات قلبي وعلى حرّيتي؛ إلّا أنّ فترات وحدتي، فإنّها تهمّ أيّاً كان؛ ليلاً، في قطار تورز–باريس، يدٌ مجهولة توضع على ساقي قد توقظ على طولها أحاسيسَ مُرتبكة. أُخرسُ هذا الخزي؛ الآن وقد قادتني الأحداث للاعتراف بكلّ شيء، أقول إنّ هذا الصّمت على غاية من الخطورة: لو لم أبح بما وراءه فهذا يعني أنّه لا يُقال. ومن خلال الصّمت الذي يفرضه جسدي، فقد تحوّل من همزة وصل إلى عائق، ما جعلني أكنّ له ضغينة حارقة. رغم أنّي كنتُ أحظى بلعبة أخلاقيّة تُشجّعني على القبول بالجانب الجنسي بابتهاج: كذّبتها تجربتي. كنتُ مادّية جدّاً على غرار آلان Alain وتلاميذه، في فصل الجسد عن الرّوح، وإلزام كلّ منهما بدوره: حسب رأيي لا يُمكن تجريد الجسد من الرّوح. إنّ جسدي وحدة تستوعبني بالكامل. أبدي ميلاً لأفكار پول كلوديل في شأن علاقة الجسد بالرّوح، وخصوصاً تفاؤل الطّبيعيّين الذي يزعم تصالح العقل مع الحيوانيّة لدى الإنسان؛ المُعضلة هي أنّ هذا التصالح لا يجد له مكاناً من جهتي، لم يكن عقلي يحتمل فكرة الحاجة والاضطهاد. اكتشفتُ بلحمي أنّ الإنسانيّة لا تستقرّ فوق النّور المُطمئنّ للخير؛ إنّها تعرف المتاعب المكتومة، الفائضة عن الحاجة، القاسية لحيوانات لا تملك وسائل دفاع عن أنفسها. يجب أن يكون للأرض وجه جهنّميّ حتّى تعبرني مثل هذه الومضات السّوداء.

رأيتُ لمحة من هذا الجحيم، خارج نفسي فأرعبني لأنّي لم أكن مُدرّبة عليه. كنتُ أقرأ على ضفاف جزيرة مهجورة كنتُ قد تحدّثتُ عنها، بسانت–رادغوند، ذات ظهيرة من شهر أوت؛ عندما سمعتُ خلفي صوتاً غريباً: حفيف أغصان، حيواناً تُشبه أنفاسه المتسارعة الحشرجة؛ استدرتُ: رجل، مُتشرّد ينامُ في الأحراش، ثبّت عينَيْه عليَّ بسكينة. هربتُ مذعورة. يا للبؤس الكامن في مسرّة العزلة! ظلّت ذكرى لا تُحتمل فترة طويلة.

لم تكن فكرة أنّي أتقاسمُ مصيراً واحداً مع جميع البشر لتُواسيني قط؛ يجرح كبريائي أن أجد نفسي في حميميّة دمي، مُجبَرَة على الإذعان غيرَ قادرة على التحكّم في شيء. بين كلّ الشكاوى التي ما انفكّت تتغذّى على روحي، أجد صعوبة في تحديد أيّها الأكثر خطورة: إنّها، دون شكّ تُقوّي بعضها بعضاً. كنتُ سأقبل عدم انضباط جسدي أمام مشيئتي لو أنّي في المجمل راضية عن حياتي؛ وكانت ستُسبّب لي طفيليّتي الفكريّة أقلّ قدر من القلق إن لم أشعر بأنّ حرّيتي تنحاز إلى لحمي. لكنّ هواجسي الحارقة، تفاهة مشاغلي، استقالتي، كانت جميعها تتضافرُ كي تبعث في داخلي شعوراً بالانحطاط والذّنب. كان لجسدي ما يكفي من العمق حتّى أتمكّن بسهولة من التخلّص منه على نحو مُتصنّع. لم تكن لديَّ نيّة غشّ أحاسيسي، أن أتظاهر من خلال الكلمات والتصرّفات بحرّية لا أمتلكها. لن أعلّق أملاً على تحوّل مفاجئ. إنّنا لا نستعيد الثّقة بأنفسنا، ولا ننعش طموحاتنا الغافية، ولا نحقّق استقلاليّة أصليّة بمُجرّد إرادة ذلك، أعلم هذا. تُطالب أخلاقي بأن أظلّ في مركز حياتي لكن، عفويّاً، كنتُ أفضّل أن يكون لي وجود آخر غير هذا الوجود: لابدّ من العمل طويلاً كي أعثر على توازني دون غشّ.

سرعان ما وجدتُني مُضطَرّة لخوض تجربة الالتزام، طمأنني هذا التصوّر. كانت السعادة التي أسعى إليها هشّة، بما أنّ سارتر كان يستعدّ للسّفر إلى اليابان. فكّرتُ في الهجرة أيضاً. كتبتُ لفرناند أسأله إن كان قادراً على العثور لي على عمل: لا. لكنّ السيّد پواتيي، النّاظر، كان قد حدّثني عن معهد قيد الإنشاء في المغرب وعرضَ عليَّ «باندي Bandi» مكاناً في جامعة بودابيست. أيّ منفى! أيّ قطيعة! كنتُ مُضطرّة حينئذ إلى استعادة السّيطرة على حياتي. لا خوفَ عليَّ من السّبات النهائي في الشّعور بالأمان. إنّها مسؤوليّتي لو لم أقتنص الفرص التي يُخبّئها غدي والتي كانت ستضيع. حمل إليَّ المُستقبل تفسيراً، إذاً: لكنّي دفعتُ الثّمن باهظاً. كنتُ صغيرة وغير قادرة على إقامة الفرق بين عامَيْن والدّهر؛ أفزعتني تلك الفجوة في الأفق أكثر من الموت، ولم أكن أجرؤ على مواجهتها. تساءلتُ، ما السّبب الحقيقي وراء شعوريَ بالبؤس: هل كنتُ لأندب نفسي التي تعلّقتْ بالسّعادة لو لم يُساورني الشّعور بالخوف من أن تُنتزَعَ منّي؟ عموماً، لقد هجمت عليَّ الحسرة والخوف معاً،

ودون هوادة. استسلمتُ لإيقاعٍ نظّم حياتي منذ طفولتي الأولى. مرّت بي أسابيع انتشاء قصوى؛ ثمّ خلالَ ساعات كان يجتاحني إعصار، يعصف بكلّ شيء. وكي أستأهل يأسي، كنتُ أجوب مهالك الموت، واللاّنهاية، والعدم. لم أعرف متى تعود السّماء إلى هدوئها، إن كنتُ أستيقظ من كابوس أم أنّي أسقطُ في حلم أزرق طويل.

كنتُ نادراً ما أمرّ بتلك النّوبات؛ عادة ما أتقوقع على نفسي: البقيّة يشغلونني. لوّن قلقي عدداً كبيراً من تجاربي. خصوصاً، أُتيحت لي الفرصة لأتعلّم أيّ إحساس ملتبس قد يُلهمُ الآخر حين نشكُّ في أنفسنا.

كان سارتر، من حين إلى آخر، يرى امرأة تعني له الكثير، سمّيناها كاميي Camille. كان دائماً يولي الناس والأشياء التي يتحدّث عنها ألواناً بديعة واللّوحة التي رسمها لي عنها كانت مرموقة جدّاً. كان هيربو يعرفها وقال إنّها شخصيّة مُذهلة. لم يكن پانييز يُحبّها، لكنّها نجحت في إدهاشه. كانت تفوقني بأربع أو خمس سنوات وأعتقد أنّها كانت تتفوّق عليَّ في نقاط كثيرة. ساءني ذلك تماماً.

كان لها توهّج شخصيّة روائيّة بالنّسبة إليَّ بالنّظر إلى المسافة التي كانت بيننا. كانت فاتنة: شعر أشقر طويل، كعبان ومعصمان مثالِيّان. عينان زرقاوان، البشرة الأرقّ، والجسد المُغري. كان والدها يملك صيدليّة في تولوز. كانت ابنته الوحيدة، لكن، خلال طفولتها، تبنّت أمّها بنتاً غجريّة؛ فائقة الجمال؛ أصبحت زينا أخت كاميي، شريكتها بل إنّها تجد متعة في القول إنّها عبد لديها. تابعت كاميي في المعهد دروسها بمكر وألحقتها بسنَتَيْن أو ثلاث في الجامعة؛ لكنّها كانت تقرأ. جعلها والدها مُحبّة لميشلي، جورج ساند، بلزاك، ديكنز، ومُهتمّة بتاريخ تولوز، شعب الكاتار المُتديّن Les Cathares[9]، غاستون فويبوس. معبدها الصّغير الخاص الذي يرتكز على أعمدة هي التالية:

9- شعب الكاتار المُتديّن Les Cathares: طائفة مسيحيّة شديدة الورع، أسّست تيّاراً دينيّاً في القرون الوُسطى لقِيَ معارضة عنيفة من قبل الكنيسة الرومانيّة في ذلك الوقت.

الشّيطان، صاحب اللّحية الزّرقاء، پيير المُجرم، سيزار بورغيا، لويس الحادي عشر؛ لكن شخصيّتها الأسطوريّة قبل كلّ شيء. كان يأسرها الجمعُ بين الجمال والذّكاء وأن تكون كلتا الخصلَتَيْن في أعلى الدّرجات. كانت مؤمنة بمصير استثنائي. اتّجهت في البداية نحو اللّباقة. أفقدها أحد أصدقاء العائلة عذريتها في سنّ الطّفولة. في الثامنة عشرة، راحت ترتاد بيوتاً راقية لتأمين المواعيد؛ كانت تغافل أمّها التي تحبّها كثيراً، تتظاهر بالذّهاب إلى النّوم ثمّ تتسلّل بصحبة زينا. كان للأخيرة بدايات عويصة؛ كانت عذريّتها المتعنّتة تُخيف الهواة الذين كانوا سادة جيّدين؛ كامي هي التي حرّرتها من عذريتها. كانتا تتصرّفان كفريق واحد، لكن زينا الأقلّ دهاءً من كامي، كانت تخالط أماكن أكثر تواضعاً في بعض الأحيان. كانت كامي تتميّز بحسّ إخراج عالٍ جدّاً؛ كانت وهي تنتظر زبوناً في الصالون المُخصّص لها، واقفة أمام الموقد، عارية، تاركة شعرها منسدلاً على جسدها، تقرأ ميشلي، ثمّ نيتشه بعد ذلك. كانت ثقافتها، وأسرارها الغامضة، وجمالُها، تفتن المُحامين وكبار المُوظّفين، إلى درجة البكاء على وسادتها لشدّة الإعجاب بها. كان بعضهم يقيم علاقة معها، يُغرقها بالهدايا، ويأخذها في رحلات. كانت تلبسُ بأناقة عالية، مُستلهمة مظهرها من اللّوحات التي كانت تُحبّها؛ كانت غرفتها تُشبه ديكور الأوبرا. كانت تُقيم حفلات في القبو الذي كانت تُحوّله حسب الظّروف إلى قصر من عصر النّهضة أو من العصور الوسطى. هيربز أحياناً يرتدي لباساً مُضحكاً ويستسلم لحفلات جنس رومانيّة؛ كانت كامي تترأس المأدبة، في زيّ أرستقراطيّة مُنحَطّة، نصف مُمَدّدة على كنبة، وزينا جالسة عند قدميْها. كانتا تبتكران كمّاً من الألعاب؛ تُخفيان شعرَيْهما تحت الباروكة، ترتديان الخِرَق وتخرجان للتسوّل حول الكاتدرائيّة. غير أنّ كامي كانت مُعجَبَة بالهيجان النّاجم عن الشّغف وتزعم أنّها كانت تعيشُه. أحبّت «كونراد ڤايت»، ثمّ من بعده «شارل دولان» عندما شاهدته يُجسّد دور لويس الحادي عشر في فِلمِ معجزة *الذّئاب*. كانت أحياناً تُغرَمُ بوجه من لحم ودم، أو بيدَيْن طويلتَيْن شاحبَتَيْن؛ لم تكن تُبدي شيئاً؛ ليلاً كانت تتأمّل نوافذ حبيبها المُنتَخب، وتلمس قضبان منزله بأنامل مُرتجفة: لكن، عليه ألّا يتدخّل. كانت تعتبر شغف الحبّ تمريناً فرديّاً للغاية.

كان لديها اثنان وعشرون عاماً وسارتر تسعة عشر، عندما التقيا في دفن قريبة مُشتركة ببلدة في منطقة «پيريغور Périgord». كان سارتر قاتماً في بذلة سوداء مُعتمراً قُبّعة زوج أمّه التي تنزل إلى مُستوى رِمْشَيْه؛ انطفأ وجهه لشدّة السّأم وبدا دميماً بشكل واضح. ما حدث لكامي شبيه بالوقوع في الحبّ من النّظرة الأولى: «إنّه ميرابو»، قالت لنفسها؛ أمّا هي فقد كان جمالُها مجنوناً قليلاً ولم يكن من الصّعب أن يجلب انتباهه. لم يفارقها سوى بعد أربعة أيّام، حين بدأت العائلات تقلق بشأنهما. كانت كامي تحت عناية ابن أحد الأغنياء من تُجار لوازم التّسخين وكان في نيّتها الزّواج به؛ لكنّها لم تكن ترغب في التحوّل إلى بورجوازيّة ساقطة وأهون من ذلك أن تظلّ مومساً. أقنعها سارتر أنّه الوحيد القادر على إنقاذها من الرّداءة الريفيّة؛ شجّعها على التّعويل على ذكائها، على الثّقافة والكتابة: ساعدها على شقّ طريقها. تمسّكت بتلك الفرصة بكلّ ما أوتيت من قوّة. تبادلا الرّسائل وكانت تُوقّعها باسم «راستينياك Rastignac» وهو «ڤوتران Vautrin»؛ أرسلت له أولى محاولاتها الأدبيّة ونقدها موازناً ببراعة بين الحقيقة والإطراء. عرَض عليها أفكاره في الحياة ونصحها بقراءة ستندال، دوستويفسكي ونيتشه. فيما جمع مبلغاً فلساً بعد فلس، وأمكنه السّفر إلى تولوز؛ عاد إليها في مناسبات أخرى على امتداد سنَتَيْن. كانت إقامتها قصيرة بسبب قلّة الأموال وجرت الحياةُ بينهما وفقَ طقوس جامدة تقريباً. كان يتسمّر على الرّصيف أمام الصّيدليّة حواليْ منتصف اللّيل، في انتظار أن تُضاء إحدى النّوافذ؛ هذا يعني أنّ كامي قد غافلت أمّها وقبّلتها، عندها تنزل زينا لتفتَح له الباب. كان يُغادر غرفة كامي مع طلوع النّهار. كان من عادتها المكوث في الفراش حتّى الظّهيرة؛ تتفرّغ لمشاغلها ولا يراها سوى في المساء. لم يكن مُعتاداً على النّوم في النّهار، وأحياناً، لأسباب مادّية، لم يكن يستأجر غرفة في فندق؛ كان ينامُ في مقاعد الحدائق العامّة، أو في السّينما؛ يسقط مغشيّاً عليه من التّعب بعد اللّيلة الثّالثة أو الرّابعة: «حسناً، نَمْ، سأقرأ نيتشه»، كانت كامي تقول برُقيّ كبير؛ وعندما يفتَحُ عينَيْه، تسرد عليه بصوت عالٍ مقطعاً من زارادشت، يتحدّث فيه عن طغيان الجسد على الإرادة. كان بينها العديد من المواضيع والخصومات، إذ لم تُغيّر كامي من طريقة عيشها شيئاً في انتظار أن تُصبح جورج ستاند. حتّى

إنّها كانت بارعة جدّاً في اختلاق الشّجار؛ ما تنتظره من الحبّ، عذاب كبير ينتهي بمُصالحة متحمّسة.

خلال السّنة الثّانية من علاقتهما، أمضت خمسة عشر يوماً في باريس وأثارت ضجّة كبيرة في احتفال مدرسة المُعلّمين العليا. كان على سارتر كي يستقبلها أن يقترض الأموال يميناً وشمالاً، لكنّ موارده كانت مع ذلك ضئيلة للغاية؛ خيّبتها الفنادق الرّديئة والمطاعم الرّخيصة والملاهي السيّئة التي كان يأخذها إليها. بل إنّ باريس لم تُعجبها أساساً. تصرّف كي يجد لها عملاً في مكتبة؛ لكن لم تكن راغبة بتاتاً في بيع البطاقات البريديّة. عادت إلى تولوز. توقّفت علاقتهما بداية الصّيف، لأسباب غامضة.

بعد ثمانية عشر شهراً، بداية 1929، تلقّى منها بعض الكلمات، حيثُ اقترحت عليه لقاء ووافق على الموعد. كانت قد سافرت إلى باريس السّنة الماضية، مع أحد الأثرياء كانت تُطلق عليه اسم «الهاوي المُستنير» بسبب ميلِه للفنون الجميلة. ولأنّ دولان كان بطلها المُفضّل منذ لعبه الدّور في معجزة *الذّئاب*، فقد راحت لرؤيته في ورشة العمل خلال التمرّن على مسرحيّة *الطّيور*. كانت ترتدي أبهى فساتينها السّاخنة، وتجلس في الصفّ الأوّل مُلتهمة إيّاه بعَيْنَيْها على نحوٍ علني؛ كرّرت هذا السِّركَ خلال أمسيات عديدة وانتهى بها الأمر لتحظى بلقاء معه. لم ينجح دولان في الوقوف على الحياد إزاء إعجابها به، وفعلاً، خصّص لها بيتاً مع زينا في الطّابق السّفلي بشارع غابريال؛ كانت من بعيد لبعيد تُمضي أسبوعَيْن في تولوز مع «الهاوي المُستنير»، الذي كان يشتري عمره المتقدّم من خلال سخاء كبير؛ كانت تتحجّج بأهلها. لم يكن دولان يلاحظ أشياء كثيرة لأنّه كان من ناحيته يعيش مع زوجته. لم يُرضِ ذلك الوضعُ كامي وأحسّت بالملل في باريس؛ أرادت أن تُضفي الشّغف على حياتها وعندما تذكّرت حواراتها وخصوماتها مع سارتر، استدعته من جديد. وجد أنّها تغيّرت، نضجت، وتخلّصت من فظاظتها البدويّة. شكّلها دولان وجعلها تحتكّ بباريس الحقيقيّة وبدا أنّها أصبحت سيّدة راقية. كانت تتلقّى دروساً في مدرسة الورشة وكانت تُجسّد بعض الأدوار في العروض؛ لكنّها لم تشعر يوماً بميل نحو التّمثيل؛ رفضت دائماً لعب الأدوار التي لا تتعرّف فيها على نفسها: أغريبين

ربّما، لكن جوني أبداً. ثمّ إنّ التّجسيد أمر تافه، تريد أن تخلق. اختارت حلاًّ طموحاً: ستكتُب مسرحيّات وستخلق شخصيّات تتناسب مع ذوقها. في انتظار ذلك، كانت على أهبة الانطلاق في كتابة رواية وحبّرت فعلاً بعض القصص التي أطلقت عليها اسم: «حكايات شيطانيّة.» كانت بالفعل تمدح فيها الشّيطان وتُطالبه باستعادة دوره في الكون. كانت تبدي له ولاءها من خلال سلوك مثير للغرابة. كانت تشرب كثيراً. ذات يوم، دخلت العرض ثملة حتّى آخر قطرة من دمها وانتزعت باروكة المُمثّل الرئيسي ضاحكة بجنون؛ مرّة أخرى، غادرت الرّكح على أربعة، بتنّورة مرفوعة. وجّه إليها دولان توبيخا عُلّق أمام الجميع. أمضت لياليَ تتسكّع في مونمارتر بصحبة زينا، وحدث ذات مرّة أن خرجا مع قوّادين في شارع غابريال، سرقوا ملابسهما وجميعَ ما يملكان وطرداهما ركلاً بالأقدام. رغم هذه المُغامرات، كانت كامي تجد أنّ حياتها مُسطّحة؛ لم تلتقِ أحداً في مُستواها؛ الوحيدون الذين يُعادلون عظمتها كانوا أمواتاً: نيتشه، دورر الذي كانت تُشبهه كثيراً – كما وصفت نفسها – وإميلي برونت التي اكتشفتها حديثاً. كانت تضرب لهم مواعيد ليليّة، كانت تُحدّثهم وكانوا يُجيبون بطريقة ما. حين حدّثت سارتر عن حوارات ما بعد القبر، كان سارتر يستمع إليها ببرود. في المقابل، كانت تُسلّيه بكلامها عن الحبكة المسرحيّة، أو وهي تُقلّد لينورماند وستيڤ باسور؛ عرضت عليه أفكار دولان حول الإخراج وتفاخرت أمامه بمسرحيّات إسبانيّة لا يعرفها. أخذته إلى الورشة لمشاهدة *ڤولپون Volpone*، وشرحت له أنّه عندما يقول: «ها هو كنزي!» فإنّ دولان يلتفت ناحيتها. لكن وإن كان سارتر يستمتع بتلك اللّقاءات، من جهة الشّغف فلم تكن له الرّغبة في الارتباط بها ثانية. خيّب أملها، وانقطعت الصّلة بينهما سريعاً. لم يكن بينها وبين سارتر سوى صداقة محدودة حين كان يُؤدّي الخدمة العسكريّة.

هذه الحكاية التي لم أروِ منها سوى الخطوط العريضة تطفَحُ وقائع حادّة؛ ثمّ اكتشفتُ منذ ذلك الوقت أنّ الحكاية تحتوي على عثرات وأنّ كامي قد شوّهت الحقيقة في عديد المواضع. لا يهم: ما دامت قد أثارت فضولي. لم أجد مفهوم الواقعي الذي أعرفه في استخدامي القديم له، ولم أجد مشقّة في التأقلم مع مواصفاته الجديدة. كنتُ أفتقر إلى الحسّ النقدي. كنتُ أصدّق أوّلاً، وعادة ما أتشبّثُ بما صدّقتُه.

قبلتُ كامي إذاً، كما بدت لي من خلال سارتر. كانت تعني له شيئاً ولابدّ أنّه انساق نوعاً ما لتجميل ماضيه كجُلّ أبناء جيله من الشّباب: كان يُحدّثني عنها بحرارة تُشبه الإعجاب. أحياناً، كي يهزّني من كسلي، كان يضرب لي مثلها: كانت تُقضّي لياليها في الكتابة، إنّها تجتهد لأجل أن تصنع من حياتها أمراً جيّداً، وستنجح. أقول لنفسي إنّها تحظى منه باهتمام أكثر منّي، بما أنّها، هي أيضاً، تراهن على مشروع للمُستقبل؛ ربّما - بسبب الحميميّة والتفاهم الذي بيننا - كان يحترمها أكثر منّي، لعلّها أكثر جدارة بالتّقدير منّي. لم أكن لأضطرب في شأنها لو لم تكن الغيرة تخنقني.

كنتُ منزعجة ما يجعلني عاجزة على الحكم عليها. تصدمني طريقتها في استنزاف جسدها؛ لكن هل عليَّ تأنيب سفاهتها. أو نزعة النّقاء التي ما زلتُ أدافعُ عنها؟ تلقائيّا، دانها قلبي وجسدي؛ ثمّة دافع طعن في هذا القرار: ربّما عليَّ أن أؤوّل شأنها كدليل على ضعفي. آه! كم هو مُرعب أن يشكّ المرء في صدقه مع نقاء سريرته! سأكون مُتّهمة بإحصاء أخطائها، منذ اللّحظة التي أضعها فيها في قفص الاتّهام. احترتُ وسط كلّ هذا التردّد، غير قادرة على إدانتها صراحةً، أو تبرئتها، ولا تهنئة نفسي على عفّتي، ولا التجرّد منها.

كانت هناك مساوئ صارخة في نظري. أن تضطجع مع رجل لا تُحبّه، إنّها تجربة قاتمة وغريبة بالنّسبة إليَّ؛ لكنّي أعرف ماذا يعني ذلك، أن يبتسم المرء لأناس يكرههم؛ قاومتُ بشراسة حتّى لا أقع في مثل هذا النّوع من الدّعارة. كانت كامي وزينا تسخران من سارتر ومن كلّ الذيْن تُسمّيهم «*التيوتوتشيني* *Les Tiotocini*»، لكنّها كانت تُثني عليهم، وتُغويهم، وتُحدّثهم. كي تنسجم مع هذا الإذلال وخصوصاً مع هذا الضّجر، يجب أن تكون أقلّ صلابة وأكثر إذعاناً ممّا ترويه أسطورتها.

نعم، حول هذه النّقطة، يجدر القول إنّي فُزتُ، لكن بحياء: إن كانت راضية بعبوديّة عرفتُ دائماً كيف أُبعدها عن نفسي، فإنّها في المقابل، وهذا هو المُهمّ، حافظت على اكتفاء طالما عاتبتُ نفسي على التّضحية به. لم أدع لها الفرصة كي تفوز بهذا الامتياز دون نقاش؛ لم تتجنّب السّقوط في الارتباط بالغير إلّا برفض الحبّ وأرى أنّ عدم القدرة على الحبّ إعاقة. ومهما كانت كامي

متألّقة، فلا أشكّ لحظة في أنّ سارتر أفضل منها؛ حسب منطقي الخاصّ، كان عليها أن تُفضّله على الرّفاهيّة، وعلى ملذّاتها وعلى نفسها. لاح لي ضعفٌ في القوّة التي تستمدّها من قسوة العاطفة. رغم جميع تلك المؤاخذات، كنتُ أجد صعوبة في إلغائها. لقد استطاعت هذه المرأة المليئة بالحيويّة والمُشبعة بالتّجربة أن تشقّ لنفسها طريقاً في المسرح، والأدب والفنون، لقد بدأت مسيرة الكاتبة: سحقتني حظوظها واستحقاقاتها. أويتُ إلى المُستقبل وأديّتُ قسماً: أنا أيضاً، سأكتُب، سأنجز شيئاً، أحتاج فقط إلى بعض الوقت. بدا لي أنّ الوقت حليفي. لكن، حاليّاً، ودون شكّ، إنّه ملكٌ لها.

أردتُ رؤيتها. ظهرتْ في العرض الجديد للورشة، *باتشولي Patchouli*، مسرحيّة شابّ غير معروف، يُسمّى سالاكرو؛ في المشهد الثاني، كانت مومساً في حانة، في الثّالث مُمثّلة في مسرح. عندما رُفِع السّتار مرّة ثانية، طرفتُ بعيْنَيَّ؛ كُنّ ثلاثاً جاثمات على مقاعد خشبيّة، سمراء وشقراويْن إحداهنّ جذّابة إلى حدّ ما، قاسية ومُتكبّرة؛ استمعتُ إلى المسرحيّة بشكل سيئ، مُنشغلة بترديد حكاية كامي مُستبدلة ملامحها المُفتعلة بالخطوط التي ارتسمت لديَّ عنها. كانت العمليّة قد انتهت تقريباً حين بلغنا الفاصل: تلبّست كامي وجهاً. رُفِعَ السّتار مُجدّداً؛ كانت النّساء هناك، يرتدين فساتين منتفخة، شقراوات، وعُيِّنت كامي «المُمثّلة الأولى»: تلك التي تتكلّم أوّلاً. صُدِمتُ: لم تكن المُمثّلة ذات السحنة القاسية كامي؛ أخفتها عنّي باروكتها الدّاكنة. الآن، أراها: شعرها الرّائع، عينيها الزّرقاوَين، بشرتها، معصميها؛ ولم تكن تُشبه البتّة ما أعرفه عنها. كان وجهها الدّائريّ بأقراطه العنقوديّة الشّاحبة، طفوليّاً تقريباً. كان لصوتها الحادّ والشّادي انعطاف نحو الطّفولة. لا، لم يكن في وسعي التّعاطي مع هذه الدّمية الخزفيّة الكبيرة وبشكل أقلّ لأنّي لاحظتُ صورة أخرى: ردّدتُ بغضب أنّ على كامي التناغم مع ذاتها، فرأسها لا يتماشى مع حضورها. كيف السّبيل لأتصالح مع غرورها، طموحها، عنادها، ضحكاتها الشّيطانيّة المُذهلة، جاذبيّتها، زيفها الذي بتُّ أعرفُه؟ لقد حوصرتُ، لا أدري من قِبَلِ من لذلك عاتبتُ الجميع.

كي أوضّح المسألة، لم يكن أمامي سوى وسيلة واحدة: الاقتراب من

كامي أكثر ما يُمكن. كان سارتر قد حدّثها عنّي، وكان لديها فضول لمعرفتي، فدعتني. طرقتُ بابها في شارع غابريال ذات ظهيرة؛ فتحتْ؛ كانت ترتدي فستاناً طويلاً، من الحرير القرمزي، مفتوحاً على سترة بيضاء، ومُجوهرات في كلّ مكان: مُجوهرات قديمة، غريبة، ثقيلة ورنّانة؛ لوَتْ شعرها فوق رأسها في شكل حلزوني تاركة خصلات منه مُنسدلة على كتفها على طريقة القرون الوسطى. تعرّفتُ على صوتها الحادّ المُتصنّع، لكنّ وجهها كان أكثر غموضاً منه على الرّكح. كان وجهها يُشبه وجه «دورر» من الجانب، العينان الزرقاوان الكبيرَتَان، السّاذجتَان قليلاً، يجعلانه ضعيفاً، لكنّه يُشرق بشكل مُدهش حين تبتسم، كان رأسها مائلاً إلى الخلف ما يجعل فُتْحَتَيْ أنفيها تومضان قليلاً.

أدخلتني إلى صالون صغير، مُؤنّث إجمالاً، لكن مُريح؛ كانت هناك كُتُبٌ وطاولة للكتابة وعلى الجِدار عُلِّقَت صُورٌ لنيتشه، دورر، إيميلي برونتي، وعلى الكراسي كانت تجلسُ دُمى كبيرة تلبَسُ مآزر تلاميذ: كانت تُطلق عليها اسمَيْ فريدريش وألبرخت، وكانت كامي تتحدّث عنهما كما لو أنّهما طفلان من لحم ودم. حاورتني بأريحيّة كبيرة. وصفت لي عروض الـ «نو No» اليابانيّة التي حضرتها قبل أيّام وروت لي الكوميديا التراجيديّة «سيليستين La Célestine»، التي كانت ترغب في العمل عليها وإخراجها بنفسها. أثارت اهتمامي؛ كانت تقوم بإيماءات وحركات تُؤيّد بها كلامها، ووجدتُ أنّها جذّابة للغاية؛ لكنّها مع ذلك أزعجتني. أكّدت لي أنّ المرأة لا تجد مشقّة أبداً في الالتفاف حول الرّجل بشبكتها: القليل من الكوميديا، التأنّق، الإطراء، المهارة والذّوق، وانتهت اللّعبة. لا أقبل أن يُقتحَم الحبّ بالحيلة: پانييز، مثلاً، فشلت كامي في الانقضاض عليه. ربّما، أذعنت بكبرياء؛ لكن لابدّ أنّ الصّبر والعظمة قد خاناها. كانت تعبث بسوارها وهي تتحدّث، تلمسُ قرطها وتلقي على المرآة نظرات رقيقة. بدت لي نرجسيّتها مُبتذلة، ولا أخفي أنّ ذلك ضايقني. كان من المُستحيل أن أبتسم وسط هذا الكمّ الهائل من الخمول. لكنّ كامي انتصرت؛ لم تنجح سُخريتي في النّيل من إعجابها بنفسها؛ كلمة مفاجئة منّي، أعادت توازن الأشياء.

مشيتُ طويلاً في شوارع مونمارتر، طفتُ بالورشة، فريسة أحاسيس

مُزعجة وحدها كلمة الرّغبة قد تُعبّر عنها بدقّة. لم تترك كامي فرصة لينشأ بيننا تفاهم مُتبادل؛ ضمّتني إلى عالمها وجعلت لي فيه حيّزاً ضئيلاً؛ لم يكن لديَّ ما يكفي من الكبرياء كي أثأر بعمليّة إلحاق مُضادّة؛ وإمّا أن أقرّر بأنّها ليست أكثر من مُخادعة: حرّم عليَّ ذلك حكم سارتر وموافقتي الخاصّة. ثمّة حلٌّ آخر يتمثّل في الاعتراف بتفوّقها وأن أنسى أن أهمل نفسي وسط الإعجاب بها دون تحفّظ؛ كنتُ قادرة على ذلك، لكن ليس في شأن كامي. كنتُ ضحيّة نوع من الظّلم مُثير للحنق حتّى إنّي كنتُ على استعداد لتبريره، بما أنّي لم أكن قد تخلّصتُ من صورتها فيما كانت هي قد نسِيَتني دون شكّ. بينما كنتُ أصعد وأنزل سلالم الهضبة، مهووسة بوجودها، كنتُ قد أضفيتُ عليها واقعاً أكثر ممّا أفعل إزاء نفسي وتمرّدتُ على هذه الهيمنة التي منحتُها إيّاها: إنّه ذلك التّناقُض ما يجعلُ من الرّغبة شرّاً مؤلماً. عانيتُ منذ ساعات طويلة.

ثمّ بعد ذلك هدأتُ؛ لكنّي لبثتُ فترة طويلة فريسة التّناقض: كنتُ في الآن نفسه أراها بعينَيْها وبعَيْنَيَّ. ذات يوم، استقبَلَتني مع سارتر ووصفت لي الرّقصة التي ستُؤدّيها في العرض القادم بالورشة؛ ستُجسّد غجريّة وخطر لها أن تجعل على عينَيْها عصابة لاصقة: برّرت ابتكارها بأسرار خفيّة عن الغجر، الرّقص، جماليّة المسرح؛ كان ذلك مُقنعاً للغاية. بدت لي زينتها وهيئتها وعصابتها اللاصقة فجّة عندما صعدت إلى الرّكح؛ كانت برفقتي أختي وأحد أصدقائها: انطووا على بطونهم من شدّة الضّحك. ذات ظهيرة دعوتُ كامي، بصحبة پوپات وفرناند اللّذين كانا مارَّيْن بباريس. كانت تعتمر قبّعة مُخمليّة، تضعها على شعرها الحلزوني؛ كان فُستانها الأسود المحفوف بالأزرار البيضاء مفتوحاً على سترة ذات أكمام منتفخة: كانت تُشبه من بعيد لوحة من عصر النّهضة. كانت تتحدّث كثيراً وببراعة. بعد رحيلها مجّدتُ جمالها وفنّ خلق الأجواء الذي تتمتّع به. «أنتِ من خلق الأجواء»، قال لي فرناند بلطف يبعث على الازدراء. تفاجأتُ كثيراً، وفكّرتُ أنّ كامي تستمدّ طاقتها العجيبة منّي. انتهى الأمر بأن أصبحت مألوفة لدَيَّ؛ تجاوزتُ عيوبها وسحرها. كنتُ كلّما استعدتُ ثقتي بنفسي، كنتُ أتخلّص من الانبهار الذي سلّطته عليَّ.

كان حدثا مُهماً، بداية ربيع 1931، أن قرّرتُ مصيري فوراً. ذات أحد من شهر فيفري، تلقّى سارتر رسالة تُعلمه أنّه قد تمّ تعيين قارئ آخر للذّهاب إلى اليابان للعمل. أُصيب بخيبة عميقة. من جهة أخرى طلبت منه الجامعة تعويض أستاذ الفلسفة في «هافر Havre» خلال الثّلاثي الثّالث لتعرّضه لنوبة اكتئاب عصبيّة: حافظ على مركزه طوال السّنة الموالية، إن كان لابدّ من البقاء في فرنسا فقد كان يرجو المكوث قريباً من باريس. وافق. هكذا تجنّبتُ الفراق الكبير الذي طالما خشيتُه! حمل ثقيل سقط عن قلبي. لكنّ الدّافع الذي بنيتُ عليه مُستقبلي انهار في الآن نفسه: لا شيء سيحميني ضدّ النّدم. في مقهى «دوپون» شارع «روشوارت»، ذات مساءٍ شربتُ فيه أكثر من العادة، عثرتُ على ورقة مُمزّقة من دفتر: «هأنذا. مُجدّداً لن أفكّر في شيء. كمّ من الانتحارات الصّغيرة السّعيدة (*كريك كراك* ستُمثّل جدائل القنّب المُحترق في حكاية أندرسن؛ والأطفال الصّغار يُلوّحون بأيديهم صارخين: انتهى، انتهى!»). ربّما لا جدوى من العيش على أيّ حال. العيش من أجل الرّاحة والجمال!... يجدر بي تعلّم الوحدة من جديد: مضى وقتٌ طويل لم أنعم فيه بالوحدة!»

لا تُطلق عبارات التّوبة هذه إلّا بشكل مُتقطّع، قلتُ؛ في الحقيقة، أنا أخافُ الوحدة أكثر ممّا أتمنّاها. آن الأوان كي أحصل على عمل: عرضوا عليَّ مرسيليا، ونزلتُ فيها. توقّعتُ منافي أكثر قسوة لكن دون تصديق ذلك؛ فجأة، بات الأمر حقيقة: يوم 2 أكتوبر، وجدتُني ثماني مائة كيلومتر بعيداً عن باريس. أمام ارتباكي، اقترح سارتر إعادة النّظر في مُخطّطنا: لو تزوّجنا فسنحظى بعمل مُزدوج وعلى العموم لن يُؤثّر هذا الإجراء الشّكلي على طريقة عيشنا. جرّدتني المبادرة من إبداء الرّأي. كنّا حتّى ذلك الحين، لم نطرح فيما بيننا مسائل متعلّقة بعادات مُشتركة: لم نكن، إذاً، قد تطرّقنا إلى فكرة الزّواج. كان الزّواج يصدمنا من حيثُ المبدأ. كنّا نتردّد بشأن بعض النّقاط، لكنّ بشأن حرّيتنا كنّا صارمين كمُتحرّرين قديمَين؛ إنّه يحثّنا على رفض تدخّل المجتمع في شؤوننا الشّخصيّة. كنّا دائماً مُعادين للمؤسّسات لأنّ الحريّة تضيع داخلها، ومُعادين للبورجوازيّة التي تنبع منها: يبدو لنا طبيعيّا أن يتناغم السّلوك مع القناعات. العزوبيّة أمر بديهيّ بالنّسبة إلينا. وحدها الظّروف القاهرة في وسعها أن تجعلنا نتّخذ قراراً بالحياد قليلاً عن قناعاتنا التي نؤمن بها.

وها قد ظهر لنا ظرف من بين التي كنتُ أتحدّث عنها لأنّ فكرة الذّهاب إلى مرساي سبّبت لي الكآبة؛ في هذه الحالة، قال سارتر، إنّه لمن الغباء التّضحية بالنّفس من أجل المبدأ. يجدر القول إنّي لم أمضِ في اقتراحه. إنّ الزّواج يُضاعف الواجبات العائليّة وكلّ المتاعب الاجتماعيّة. ونحنُ نغيّر علاقتنا بالآخر، فمن الحتمي أن تتأثّر الصّلة بيننا. لم يكن همّ الإبقاء على استقلاليّتي ذا وزن؛ بدا لي مُتصنّعاً أن أعثر على حرّيتي في الغياب، حرّية لن أجدها فعلاً إلّا في عقلي وقلبي. لكنّي أرى جيّداً ما قد يُكلّف سارتر التوقّف عن السّفر وفقدانه لحرّيته وشبابه كي يُصبح أستاذاً في الرّيف، وطبعاً إنساناً كبيراً؛ وأن ينضمّ إلى قافلة الرّجال المُتزوّجين، تنازل آخر يُضاف إلى كلّ ذلك. أعرف أنّه غير قادر على جعلي أشعر بالضّغينة تجاهه، لكنّي أعرف أكثر كم أنا عرضة للنّدم وكم أكرهه. نزعة الحذر المتأصّلة في داخلي تمنعني من اختيار مُستقبل قد يُسمّمه شعوري بالنّدم. لم أفكّر، لم أتردّد، لم أحسُب، اتُّخذَ قراري من دوني.

جانب واحد له من الوزن الكثير في إقناعنا بالرّضوخ إلى علاقة تُسمّى شرعيّة: الرّغبة في إنجاب الأطفال؛ لا نشعر بها. حول هذا الموضوع، طُرحت عليَّ أسئلة كثيرة وأريد أن أشرح. لم يكن لديّ وليس لديَّ احتراز على الأمومة؛ لم تُخالجني الرّغبة يوماً في الحصول على أطفال، لكن، كبيرة، أشعر أحياناً أنّ الأطفال كائنات ساحرة، بل دائماً؛ كنتُ أنوي الحصول على أطفال حين كنتُ أفكّر في الزّواج بابن عمّي جاك. إن كنتُ حاليّاً قد أحجمتُ عن المشروع، فأوّلاً لأنّ سعادتي مضغوطة حتّى لا أشتهي خوض غمار كلّ جديد. طفلٌ لم يكن ليُعمّق العلاقة بيني وبين سارتر؛ لا أريد أن ينعكس وجود سارتر ويمتدّ في كائن آخر: كان مُكتفياً وكافياً بالنّسبة إليَّ. وكنتُ مُكتفية بنفسي: لا أحلم بأن أجد نفسي يوماً في جسد منبثق منّي. ثمّ إنّي لا أشعر بالكثير من العاطفة إزاء والِدَيَّ إلى حدّ يجعل أبنائي أو بناتي في المُستقبل يبدون غرباء عنّي؛ أتوقّع منهم إمّا اللامبالاة أو العدائيّة بالقدر الذي أكنّ فيه نفوراً من الحياة العائليّة. ليس ثمّة إذاً حماسٌ من جهتي ناحية الأمومة. ومن جهة أخرى، إنّها لا تبدو لي ملائمة للنّهج الذي رسمته لنفسي والتزمتُ بخوضه: أدرك أنّي في حاجة إلى الكثير من الوقت والحرّية للكتابة. لا أبغض تحدّي المصاعب؛

لكنّ المسألة ليست لعبة تحدٍّ: القيمة، معنى حياتي ذاتُه كان في الميزان. كي أوفّق بينهما، توجّب على الطّفل أن يُمثّل في نظري اكتمالاً جوهريّاً كما هو الشّأن بالنّسبة إلى مُنجَز أدبي: ليس هذا حالي. رويتُ كيف أنّ زازا عاتبتني كثيراً في سنّ الخامسة عشرة، مؤكّدة أنّ الحصول على أطفال أمر أسمى من تأليف الكتب: ما زلتُ لا أرى نقاط تقاطع بين المصيريْن. فكّرتُ أنّنا نبرّر حركة العالم بالأدب، في نقاء الخيالي، وفي آن واحد، نحنُ ننقذ وجوده؛ إنجاب الأطفال، هو الزّيادة في عدد البشر على سطح الأرض، دون مُبرّر. ولا غرابة من مُتديّنة نذرت حياتها لتستغفر للبشر جميعاً، عزوفها عن صنع المزيد منهم. لا تُعاني رسالتي الهادفة من عراقيل قد تحول بيني وبين مقاومة كلّ مقصد غريب عن أطواري. وهكذا فإنّ مشروعي التّأسيسي يفرض عليَّ سلوكاً مُعيّناً، ما من زخم سيكون قادراً على دحضه، سلوكاً لا رجعة عنه. ليس لديَّ انطباع بأنّي أرفض الأمومة؛ لم تكن يوماً مُشكلة مطروحة أمامي؛ أُنجِزُ دوري الطّبيعي، دون أطفال.

مع ذلك، راجعنا العهد الذي بيننا، وصرفنا النّظر عن فكرة «العقد» الصّوري. بات تفاهمنا أكثر ضيقاً وتطلّباً منه في البداية؛ قد يحدث انفصال قصير في كلّ مرّة، لكن أبداً حياة مُنفَصلة فرديّة بالكامل. لم نتّفق على وفاء أبدي؛ لكنّنا ألقينا على كاهل الثّلاثين من العمر تبدّداً مُحتَمَلاً للعلاقة.

استعدتُ إحساسي بالسّلام. كانت مرساي مدينة كبيرة، وجميلة جدّاً كما أكّدوا لي. لا تدوم السّنة الدّراسيّة سوى تسعة أشهر، القطارات تسير بسرعة: عطلة بيومَيْن، زكام مفاجئ وأعود إلى باريس. رحتُ إذاً أستغلّ الثّلاثيّة الأخيرة دون تفكير مُتشنّج. هاڤر لم تُعجب سارتر ورافقته إلى هناك مرّات عديدة. عشتُ أشياء جديدة: ميناء ومراكب، أحواضُه، جسوره المُتحرّكة؛ مُنحدرات صخريّة هائلة، وبحر هارب. كان سارتر أيضاً يُمضي أغلب أوقاته في باريس. ورغم قناعاتنا المناهضة للاستعمار، ذهبنا لزيارة معرض الاستعمار؛ كانت فرصة رائعة أمام سارتر ليُمارس «جماليّة المُعارضة»: كمّ هائل من البشاعة! وكم كان تافهاً معبد «أنكور» المُشيّد بعجين الورق! لكنّنا أحببنا صخب الحشود.

كان سارتر قد انتهى من كتابة *أسطورة الحقيقة* التي تكفّل نيزان بتشجيع منشورات أوروبا على نشرها. ظهر مقطع من المخطوط في مجلّة «بيفور Bifur» التي كان يُديرُها ريبمونت-ديسانْيْ؛ ويهتمّ بها نيزان؛ كان يُقدّم المُساهمين في كلّ عدد؛ خصّص سطراً لصديقه الصّغير: «فيلسوف شاب. يعمل على مشروع فلسفيّ مُدمّر.» حدّثني باندي خلال تواجده في باريس عن النصّ بكثير من الحماس. صدر في نفس العدد نصّ لهديغير عن الميتافيزيقا: لم نجد له أيّ داعٍ لأنّنا لم نفهم منه شيئاً. كان نيزان من جهته قد نشر للتوّ كتابه الأوّل، *عدن العربيّة*. أحببنا خاصّة بدايته العنيفة: «كان عمري عشرين سنة. لن أسمَح لأحد بالقول إنّه أجمل عمر في الحياة.» إجمالاً أعجبنا الكتاب لكنّه بدا متألّقاً أكثر من كونه عميقاً لأنّنا ننكر عليه الصّدق لمعرفتنا بصاحبه. مع التعنّت المتهوّر للشّباب، وبدلَ أن يُراجع من خلال الكُتيب فكرته التي كوّنها عن نيزان، فضّل التصوّر بأنّ صديقه الصّغير قد وهب نفسه قرباناً للأدب. لقد أحبّ حياة الطّالب في دار المُعلّمين العليا: لم يُعر الكثير من الجدّية لتصريحات صديقه المسعورة ضدّ المدرسة؛ لم يُحدّث نفسه بأنّ ارتباك نيزان لابدّ أن يكون عميقاً جدّاً حتّى يقذف نفسه في مغامرة عدن. تمرّد نيزان في *عدن العربيّة* على مبادئ آلان التي وسمت جيلنا: أن تقول لا؛ كان يريد أن يقول نعم لشيء ما، وهكذا لدى عودته من المملكة العربيّة، انخرط في الحزب الشّيوعي. وبالنّظر إلى صداقته المتينة بنيزان، كان من السّهل على سارتر أن يمتصّ هذا الافتراق على أن يجابهه بكامل وزنه. بهذا الشّكل أمكننا أن نتذوّق براعة نيزان دون أن نولي اهتماماً كبيراً لما يقول.

نزل فرناند وستيفا في باريس مع حلول شهر جوان؛ كانا مُبتهجيْن لأنّ الجمهوريّة قد انتصرت في إسبانيا بعد الكثير من الاضطرابات والمقاومة والاضطهاد. كانت ستيفا حاملاً؛ دخلت مركز الأمومة في تارنيي، شارع أساس، ذات صباح من شهر جويلية. دعا فرناند أصدقاءه لشرفة مقهى مروج اللّيلك. كان يذهب على رأس كلّ ساعة إلى المصحّة ويعود مُطرقاً. «لا شيء إلى الآن!» طمأنه الأصدقاء، شدّوا من أزره، أحسّ بالسّرور. ولدت ستيفا ولداً في المساء. احتفل بالمناسبة رسّامون وكتّاب وصحافيّون من جنسيّات مُختلفة حتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. ظلّت في باريس مع الطّفل فيما عاد إلى مدريد.

كان عليه أن يقبل هناك بوضع غير مُرضٍ؛ كان يبيعُ أجهزة الرّاديو ولا يجد الوقت للرّسم؛ مع ذلك كان مُجتهداً؛ ما زالت لوحاته المتأثّرة بسوتين خرقاء، لكنّه أحرز تطوّراً مقارنة برسومه الأولى.

انتهت السّنة الدّراسيّة وبدأتُ أستعدّ للذهاب مع سارتر في عطلة. ثمّ بعد ذلك نفترق. لكنّي جهّزتُ نفسي. قلتُ في نفسي إنّ للوحدة بجرعات عاديّة، سحرها وفضائلها بطبيعة الحال. آمل أن تُساعدني على طرد الفكرة التي ما انفكّت تُراودني منذ عامَيْن: التخلّي. يجب أن أحافظ طوال حياتي على ذكرى قلقة جرّاء هذه الفترة التي أخشى أن تخون شبابي. في نقدها لكتاب *المُثقّفون* لاحظت فرنسواز دوبون، أنّ جميع الكُتّاب لديهم «رأس الميّت» وأن رأسي -المُجسّد في إليزابيت، دينيس وپول- هو المرأة التي تُضحّي باستقلالها من أجل الحبّ. أتساءل اليوم، إلى أيّ مدى كان الخطر مطروحاً. لو أنّ رجلاً مليئاً بالرّداءة والأنانيّة ادّعى تقليصي، كنتُ سأؤنّبه وأصدر في حقّه حكماً وأشيح عنه. لم أكن لأكرّس نفسي سوى لشخص يفعل ما في وسعه كي يمنع ذلك. لكن في تلك الفترة كنتُ عرضة لخطر حقيقي، ولو قبلت بالذّهاب إلى مرساي فهذا يعني أنّي بدأتُ أُبدّدُه.

telegram @soramnqraa

الفصل 2

السّفر: كان دائماً إحدى مسرّاتي المُلتهبة. بأيّ حنين، استمعتُ فيما مضى لزازا العائدة من إيطاليا! بين الحواسّ الخمس، ثمّة حاسّة، أنزلها مكانة أسمى من البقيّة: النّظر. رغم استمتاعي بالحوار، اندهشتُ لمعرفة أنّ الصُمّ أكثر تعاسة من العميان؛ وكنتُ دائماً أرى أنّ الكفّ عن الحديث أهون من انعدام البصر، وإن كان لابدّ من الاختيار فمن المؤكّد أن أختار وجهاً ذي عَيْنَيْن. استمتعتُ بالتجوّل والتأمّل ستّة أسابيع. مع ذلك كنتُ متعقّلة؛ إيطاليا، إسبانيا، اليونان، سأزورها لاحقاً؛ في ذلك الصّيف فكّرنا أخذاً بنصيحة نيزان في زيارة لابروتانَيْ. لم أصدّق أُذُنَيَّ لمّا دعانا فرناند إلى مدريد؛ سنُقيم في بيته. كان سعرُ العُملة متدنّياً إلى درجة أنّ الرّحلة لم تكن لتُكلّفنا شيئاً تقريباً. لم نتجاوز الحدود من قبل وعندما لاح لنا في مرفأ «پور–بو Port–Bou» القرنان المزخرفان في مركز الجمارك، أحسسنا بأنّنا في قلب السّحر. لن أنسى أمسيتنا الأولى في «فيغوراس»؛ حجزنا غرفة وتناولنا العشاء في حانة صغيرة؛ جبنا المدينة، ليلاً وقُلنا: «إنّها إسبانيا!»

حوّل سارتر بقيّة إرثه إلى پيسيتا: لم يكن مبلغاً كبيراً؛ وبنصيحة من فرناند اقتنينا بطاقات *كيلومتريكوس* (بطاقات افتراضيّة صالحة لألفين أو ثلاثة آلاف كيلومتر.) من الدّرجة الأولى، وإلّا ما كنّا قادِرَيْن على ركوب القطارات والباصات؛ بقي لنا بالكاد ما يسمح لنا بالتنقّل بين الضفّتَيْن، مع عيش مُتقشّف؛ لا يهمّني: لا يوجد ترف بالنّسبة إليَّ، حتّى في الخيال، وكي نتنقّل حسب الدّليل، أفضّل الباص على وسائل النّقل السياحيّة الأخرى. ترك لي سارتر مُهمّة ضبط الوقت، وتنسيق المسالك؛ رتّبتُ الزّمن والمكان حسب

مشيئتي: استمتعتُ بهذا النّوع الجديد من الحرّية. تذكّرتُ طفولتي: كانت حكاية أن أتنقّل بين باريس وأوزرش Uzerche! كنّا نتعب في إعداد الحقائب، حملها، تسجيلها، حراستها؛ كانت أمّي حذرة إزاء موظّفي المحطّة، كان أبي يكيل الشّتائم للمُسافرين معنا في نفس الحجرة، وكان كلاهما يتخاصمان دون توقّف؛ كان هناك دائماً أوقات مُملّة للانتظار، الكثير من الضّوضاء والضّجر. آه! لقد قطعتُ عهداً مع نفسي على أن تكون حياتي مُختلفة! لم تكن أغراضنا ثقيلة، كنّا قادرين على ملئها وإفراغها بسهولة؛ كم كان مُسلّياً الوصول إلى مدينة نجهلها، أن نختار فُندُقاً! لقد طردتُ كلّ ملل أو همّ.

إلّا أنّي رغم ذلك، دخلتُ برشلونة قلقة بعض الشّيء. كانت المدينة ضاجّة حولنا، كانت تجهلنا، ولم نكن نفهم لغتها: كيف السّبيل لجعلها تدخل حياتنا؟ كان تحدّياً سُررتُ بصعوبته. نزلنا بمحاذاة الكاتدرائيّة، في واحد من أسوأ الفنادق، لكنّ غرفتنا أعجبتني؛ خلال قيلولة الظّهيرة، كانت الشّمسُ تبعث بأضواء حمراء من خلال ستائر إدرنة Andrinople، وكانت إسبانيا ما يحرق جلدي. بأيّ همّة تابعنا! وككلّ سيّاح عصرنا، تخيّلنا أنّ كلّ مكان، كلّ مدينة لها سرّ، روح، جوهر أبدي وأنّ مُهمّة المُسافر هي اكتشافُها، مع ذلك أحسسنا أنّنا مُعاصرَان أكثر من «باريس Barrès» لأنّ مفاتيح توليدو أو فينيسيا، نحنُ نعرف أنّه من الخطأ البحث عنها في المتحف والآثار والماضي، بل في الحاضر من خلال الظّلال والأضواء، الحشود والرّوائح والأطعمة: هذا ما علّمنا إيّاه ڤاليري لاربو، أندريه جيد، موران، دريو لا روشال. حسب دوهامال، فإنّ سرّ ألمانيا يكمن في الرّوائح التي تطفو في الشّوارع والطّرقات والتي لا يُشبهها شيء؛ احتساء كوب شوكولاتة إسبانيّة، هو أن تقبض على إسبانيا بفمك، قال جيد في *الذّرائع*؛ كنتُ كلّ صباح ملتزمة بازدراد صحاف من الصلصة السّوداء، مُثقلة بالقرفة؛ أكلتُ قطع حلوى العسل الإسبانيّة ولفائف المعجون، والكعك الذي كان يتفتّت تحت أسناني بطعم الغبار القديم. انضممنا إلى المتنزّهين في «رامبلاس»؛ استنشقتُ الرّائحة النديّة للطّرقات حيثُ مشينا: طرقات لا تطالها الشّمس حيثُ الشّبابيك الخضراء والملابس المُعلّقة بين البنايات تمنحُ بهجة مُزيّفة للمكان. كنّا مقتنعين من خلال قراءاتنا أنّ حقيقة المدن تكمن في قاعها، أمضينا أمسياتنا في «باريو شينو Barrio Chino»؛ كانت نساء بدينات ورشيقات

يرقصن ويغنين، على منصات في الهواء الطّلق؛ شاهدناهنّ، لكنّنا راقبنا بفضول أكبر الجمهور الذي يتفرّج عليهن: اتّحدنا معه بفضل العرض الذي كنّا نراه معاً. مع ذلك، حرصتُ على لعب دور السّائح. صعدنا إلى «تيبيدابو»، وللمرّة الأولى رأيتُ تحت أقدامي، المدينة المتوسّطيّة تتلألأ كقطعة كوارتز مكسورة. وللمرّة الأولى غامرتُ بركوب عربة تليفيريك ارتفعت بنا بين قمم مرتفعات «مونسيرات Monserrat». تجوّلنا مع أختي التي التحقت بنا في إقامة قصيرة في بيت فرناند بمدريد، والتي كان عليها أن تُمضي ثلاثة أيّام في برشلونة. لدى عودتنا مساءً، كان في شارع رامبلاس اضطرابات غريبة، لم نولها اهتماماً. في اليوم الموالي، تنقّلنا نحن الثّلاثة لرؤية كنيسة توجد في حيّ شعبي؛ لم يكن التراماواي يصل إليه؛ بعض الشّوارع كانت مُقفرة تقريباً. سألنا عمّا يحدث بطريقة ليّنة، فقد كنّا مشغولين بتحديد مكان الكنيسة، التي راحت تزوغ عنّا أكثر فأكثر. خضنا شارعاً ضاجّا بالنّاس والصّخب: كان أناسٌ متكئون على الجدران، يتناقشون بحركات وأصوات عالية؛ تقدّم شرطيّان من الجادّة، طوّقا رجلاً ووضعا له القيد؛ رأينا من بعيد سيّارة شرطة. لم نكن نعرف كلمة واحدة من الإسبانيّة، لم نفهم ما كان يقوله النّاس: كانت وجوههم مُتجهّمة. بعناد، اقتربنا من الحشد ونطقنا اسم الكنيسة بنبرة استفهام، اسم الكنيسة التي كنّا نبحث عنها؛ ابتسم لنا رجل وبطيبة رسم لنا الطّريق في الفضاء؛ ما إن شكرناه حتّى عاد إلى النّقاش. نسيتُ كلَّ شيء عن تلك الكنيسة؛ لكنّي أذكر أنّنا حين عدنا من جولتنا اقتنينا صحيفة وأمكننا بمشقّة أن نفكّ شفرتها. دخلت النّقابات في إضراب عام ضدّ حكومة الرّيف. في الشّارع الذي سألنا فيه عن الطّريق، تمّ إيقاف مناضلين نقابيّين: كان الرّجل الذي ألقى البوليس القبض عليه أحدهم؛ واجتمعت الحشود على الجادّة للنّظر فيما إذا كانوا قادرين على تحرير صديقهم. ختمت الصّحيفة بأنّ النّظام قد عاد إلى طوره الطّبيعي. أحسسنا بالضّيق: كنّا موجودين، ولم نر شيئاً. واسينا أنفسنا بالتّفكير في ستندال ومعركته بواترلو.

بعد مغادرة برشلونة، راجعتُ الدّليل الأزرق بحماس؛ أردتُ رؤية كلّ شيء. لكنّ سارتر رفض قطعاً أن نتوقّف في «ليريدا Lerida» لرؤية جبل من الملح. «جمال الطّبيعة، ليكن، قال، لكن بالنّسبة إلى فضول الطّبيعي، فلا!»

توقّفنا يوماً واحداً في ساراغوسا، ومنها اتّجهنا إلى مدريد. كان فرناند في انتظارنا بالمحطّة؛ أخذنا إلى بيته، الواقع أسفل مقاطعة ألكالا وصحبنا إلى المدينة. بدت لي قاسية وعنيدة حتّى إنّي ذرفتُ الدّموع عند نهاية الظّهيرة. أعتقد أنّي، رغم الودّ الذي أكنّه لفرناند، تحسّرتُ على لقاءاتي المُنفردة مع سارتر في برشلونة. في الحقيقة، كانت، بفضل فرناند، فرصة للهروب من الوضع المُشوَّش للسُيّاح وأدركتُ ذلك في تلك اللّيلة بالذّات، بينما كنّا نتناول جراد البحر المقلي والمُثلّجات. سرعان ما اكتشفتُ سحر مدريد. ما زالت الجمهوريّة مُندهشة من انتصارها وبدا أنّها تحتفل به كلّ يوم. في المقاهي العميقة القاتمة، كان رجالٌ يرتدون البذلات رغم الحرّ، يشكّلون إسبانيا الجديدة بالجمل الحماسيّة؛ لقد انتصرت على القساوسة والأثرياء وستتركّز في كامل الحرّية، وتجنح إلى العدالة؛ كان أصدقاء فرديناند سيتمكّنون من الحكم وسيؤسّسون الاشتراكيّة. كان الدّيمقراطيّون والشيوعيّون سعداء، كانوا جميعاً يظنّون أنّ المُستقبل بات بين أيديهم. سمعنا همسهم ونحنُ نحتسي النّبيذ الأندلسي المانزانيلا، ونطارد حبّات الزّيتون الأسود وجراد البحر الكبير. في إحدى الشّرفات، كان المجدُ لـلرّائع «ڤال إنكلان»، الملتحي، ذي الذّراع الواحدة. مساءً، كنّا تناولنا العشاء في مطاعم شعبيّة، أعجبتنا لأنّ أيّاً من السُيّاح لم يكن يطأها؛ أذكر قبواً، مليئاً بجرار النّبيذ، كانت رائحة الكحول تضوع في المكان؛ تلا النّدّال قائمة الوجبات بصوت عالٍ. كانت الحشود المدريديّة تتسكّع في الطّرقات حتّى الثّالثة صباحاً، كنّا جالسين في إحدى الشّرفات نستمتع بانتعاش اللّيل.

ستستهجن الجمهوريّة مصارعة الثّيران من حيث المبدأ: لكنّ الجمهوريّين يُحبّونه. كنّا نذهبُ إليه كلّ يوم أحد. ما يُعجبني على وجه الخصوص الحفلة التي تضجّ في المدارج؛ كنتُ أرى بملء عينَيَّ الحشود الثّائرة في كامل زينتها وهي تصعد وتنزل في الممرّات المخروطيّة الشّكل؛ كنتُ أسمعُ تحت لهيب الشّمس، حفيف المراوح والقبّعات الورقيّة. لكن وكأغلب المُتفرّجين الهواة، وجدتُ أنّ الثّور ينقادُ مخدوعاً نحو حتفه الآلي الذي لن يجد فيه الرّجل صعوبة تُذكَر. لا أفهم مُبرّر التّصفيق وهتاف الجماهير. كان المُصارعان المشهوران في تلك الدّورة هما مارسيال لالندا وأورتيغا؛ كما كان المدريديّون يحترمون

كثيراً مُصارعاً شابّاً يُطلقون عليه اسم التّلميذ، الذي كان مُمَيّزاً بجرأته. رأيت ثلاثتهم وأدركتُ أنّ الثّور كان أبعد من أن ينجو من ألاعيبهم: كان المُصارع يخاطر بحياته مُمَزّقاً بين انتظارات الجمهور ونزوات الحيوان الغاضب؛ إنّ هذا الخطر هو مادّة عمله الخام: كان يصنعه، ويُعدّله بذكاء وشجاعة؛ وكان في الآن نفسه يناور متجنّباً إيّاه بحركات فنّية واثقة. كلّ مباراة هي خلق؛ رويداً فسّرتُ المعنى من وراء اللعبة، وجمالها أحياناً. غابت عنّي أشياء كثيرة، يؤسفني ذلك. سارتر أيضاً.

صحبنا فرناند حول الپرادو وعدنا إليه باستمرار. لم نكن قد رأينا الكثير من اللّوحات في حياتنا. تجوّلتُ في اللوڤر عديد المرّات مع سارتر، ولاحظتُ أنّي بفضل ابن عمّي جاك، أفهم الرّسم أكثر منه: اللّوحة بالنّسبة إليّ هي مساحة مُغطّاة بالألوان، فيما يتعاطى سارتر معها من ناحية تعبير الشّخصيّات، إلى درجة أنّه كان مُعجَباً بلوحات ڤيدو ريني. هاجمتُه بشراسة، وتراجع. عليَّ القولُ أيضاً إنّه كان يُحبّ بتأثّر، لاپييتا لأڤينيون، والصّلب لغرونوالد. لم أكن قد حوّلتُ وجهته إلى الرّسم التّجريدي، لكنّه اعترف بأنّ أهمّية المشهد، والتعبير على الوجوه لا يُمكن فصلُهما عن الأسلوب والتقنية والفنّ المعروض. أثّر فيَّ بشكل عكسي، لأنّي كنتُ مأخوذة بالفنون الصافية عموماً والرّسوم النقيّة بشكل خاص، ولا أرى ضرورة لتحرّي المعنى من وراء المناظر الطّبيعيّة أو الوجوه المُجَسَّدة. التقت أفكارنا تقريباً، عندما زُرنا متحَفَ الپرادو، لكن كنّا لا نزالُ هاويين متعثِّرَيْن وسط المعاني. حسب باريس Barrès، لقد تجاوز غريكو كلّ ما نتوقّعه منه: أوليناه المنزلة الأولى ضمن الأشياء التي أعجبتنا. صُدمنا أمام فظاعة بعض رسوم غويا الشّخصيّة والجنون الأسود الذي أنجز به لوحاته الأخيرة؛ لكن عموماً، عاتبنا فرناند، لأسباب معقولة، على سوء تقدير غويا. رأى أنّنا نستمتع بجيروم بوش بشكل مبالغ فيه؛ في الواقع، لم ننته قط من التيه بين معانيه ووحوشه؛ كان يُخلخل مُخيلاتنا بعنف يجعلنا نتغاضى عن جودة رسومه. إلّا أنّ براعة التقنية أذهلتني ولبثتُ مشدوهة أمام لوحات تيتيان Titien. هنا، كان سارتر حاسماً: أشاح عنها بازدراء. قلتُ له إنّه يبالغ، وأن اللّوحات جيّدة إلى حدّ كبير. «ماذا بعد؟» أجاب؛ وأضاف: «تيتيان هو الأوبرا.» في ردّة فعل إزاء غيدو ريني، لم يعد يقبل قط أن تذهب اللّوحة

ضحيّة حركة أو تعبير. بعد ذلك خفّف من حكمه على تيتيان، لكنّه لم يُنكر عليه الجانب الفنّي.

من مدريد، قُمنا برحلات قصيرة. إيسكوريال، سيغوڤي، أڤيلا، توليدو: لاحقاً ستبدو لي بعض تلك الأماكن أجمل من ذي قبل، لكن لم يكن لنضارة جمالها شبيه قط.

كان فضول سارتر أكبر من فضولي، لكنّه كان أقلّ شراهة. في توليدو، بعد صباح دؤوب، كان يجد متعة في تدخين غليونه في ساحة «زوكودوڤر Zocodover». أمّا أنا فكان النّملُ يأكُلُ ساقَيَّ. لا أتخيّل، كذي قبل في ليموزين، أنّ الأشياء في حاجة إلى حضوري؛ لكنّي عزمتُ على معرفة كلّ شيء عن العالم وكان وقتي مضبوطاً، ولم أكن راغبة في تبذير لحظة واحدة. ما سهّل مُهمّتي هو أنّ هناك في نظري فنّانين وأساليب، وحقبات لا توجد بالنّسبة إليَّ كان سارتر يلاحق بحقد واضح كلَّ الفنّانين الذين يُذكّرونه بغيدو ريني، وخلصتُ بانزعاج أنّه يُحوّل تجربة موريلو وريبيرا وآخرين إلى رماد؛ لم يُحبط تقلّص العالم شهيّتي وقرّرتُ القيام بجرد كامل لمشاريعي القادمة. لم أكن أعترف بنصف الإجراء؛ لم أرتّب حسب الأهمّية الأماكن التي لم نستبعد التعرّف عليها؛ كنتُ أنتظر كلَّ شيء من أيّ شيء: كيف أقبل إضاعة أمر ما؟ لوحة غريكو في عمق غرفة المُقدّسات تلك، يجوز أن تكون المفتاح الذي سيفتح لي جميع أعماله، التي من دونها – من يدري؟ – سيظلّ الرّسم برُمّته موصداً أمامي إلى الأبد. تواعدنا على العودة إلى إسبانيا؛ لكنّ الصّبر لم يكن نقطة قوّتي: لا أظنّ أنّ شيئاً سيختلف خلال سنة. ما حدث هو أنّ السّعادة التي أصبتُها كانت في مستوى نهمي: كانت الحقيقة تُدهشني في كلّ لقاء.

كانت أحياناً تنتزعني من نفسي. «لِمَ السّفر؟ ما دمنا لا نبرح أنفسنا»، قال لي أحدهم. سأغادر نفسي؛ لن أصير امرأة أخرى، لكنّي سأختفي. ربّما هذا هو امتياز النّاس – النّاشطين أو الطّموحين جدّاً – الباحثين على الدّوام عن مشاريع، بدل الهدنة التي يتوقّف فيها الزّمن فجأة، ويتّحد فيها الوجود مع الامتلاء بالأشياء: أيّ راحة! أيّ مكافأة! صباحاً، في أڤيلا، فتحتُ ستائر غرفتي؛ رأيتُ في أفق السّماء الزّرقاء أبراجاً منتصبة بشكل مُذهل؛ الماضي،

المُستقبل، لقد تبدّد كلّ شيء؛ ليس ثمّة الآن سوى حاضر مجيد: حاضري مثل هذه الأسوار يتحدّى الزّمن. باستمرار، أثناء رحلاتي الأولى، غمرتني مسرّات مماثلة.

سنغادر مدريد أواخر سبتمبر. رأينا سانتيان، جواميس ألتاميرا، كاتدرائيّة بورغوس، پامپيلون، سان-سيباستيان؛ أحببتُ قسوة الهضاب الكستلانيّة، لكن كم سُعدتُ في التلال الباسكيّة لمّا وجدتُ خريفاً حيثُ تضوع رائحة السّرخس البرّي. في هنداي Hendaye، اتّخذنا معا القطار نحو باريس: نزلتُ في بايون في انتظار قطار بوردو-مرساي.

ليس ثمّة في حياتي لحظة قد أسميها بالمصيريّة؛ لكن بينها المشحونة بمعنى ثقيل ينبع من ماضيً حافلاً بأحداث كبيرة. أذكر مجيئي إلى مرساي، كما لو أنّه طبع في تاريخي منعرجاً جديداً.

تركتُ حقيبتي في الأمانة وتسمّرتُ أعلى السُلّم. «مرساي»، قلتُ. الأسطح المُشمسة تحت السّماء الزّرقاء، ثقوب من الظّلال، أشجار جمّيز في لون الخريف؛ من بعيد لاحت التلال والبحر؛ صخب يصعد من المدينة ممتزجاً برائحة العشب المحروق، أناس يروحون ويغدون في فجوات الأزقّة السّوداء. مرساي. أنا هنا، وحدي، فارغة اليديْن، منفصلة عن ماضِيً وعن كلّ ما أحبّ ورحتُ أتأمّل المدينة المجهولة حيثُ، دون أمل في النّجاة، سيكون عليَّ أن أنسج حياتي يوماً بيومٍ. حتّى الآن، كانت حياتي مُرتبطة بالآخر؛ فُرضت عليَّ دائماً أطُرٌ وأهداف؛ ثمّ فجأة مُنحتُ سعادة كبيرة. هنا، أنا لا أوجد من أجل أحد؛ في مكان ما، تحت أحد هذه الأسقف، سيكون عليَّ أن أعطي أربع عشرة ساعة من الدّروس: لا شيء أُعِدَّ لي ولا حتّى السّرير الذي سأنام عليه؛ اهتماماتي، عاداتي، مُتعي الخاصّة، سيتوجّب عليَّ صنعها بنفسي. نزلتُ السُلّم؛ كنتُ أتوقّف في كلّ درجة، متأثّرة بالمنازل، الأشجار، المياه، الصّخور، هذا الرّصيف الذي يقترب منّي شيئاً فشيئاً والذي سينتهي به الأمر ليجعلني أكتشف نفسي.

كان هناك مطاعم وشرفات ذات نوافذ زجاجيّة عالية على يمين ويسار

شارع المحطّة. لمحتُ كتابة على إحدى الواجهات: «غرفة للتأجير.» لم تكن غرفة حسب حدسي: سرير واسع، كراس وخزانة؛ لكن فكّرتُ أنّ الطّاولة الكبيرة ستكون أكثر ملاءمة للعمل، واقترحت المُدبّرة إيجاراً معقولاً يتماشى مع إمكاناتي. رحتُ أجلب حقيبتي، وضعتُها في مطعم «أميروتي Amirauté». بعد ساعتين جمعني لقاء بمديرة المعهد، كان جدول أوقاتي قد حُدِّدَ؛ دون معرفة مرساي هأنذي أسكُنها. خرجتُ لاكتشافها.

ذُهلتُ. صعدتُ كلَّ الصّخور، وتسكّعتُ في كلّ الطّرقات، استنشقتُ رائحة القطران وقنفذ البحر في الميناء القديم، انضممتُ إلى حشد شارع كانبيار Canebière، جلستُ في حدائق وممرّات، على ضفاف جداول هادئة، حيثُ الرّائحة البرّية للأوراق الميتة طغت على رائحة الهواء البحري. أحبّ الترامواي، حيثُ عناقيد بشريّة، والأسماء المُدوّنة على جبهته، لامدراغ، لي شارترو، روكاس-بلان. يوم الخميس صباحاً أتّخذ الأوتوبيس «ماتيي Mattéi» حيثُ محطّته الأخيرة قريبة من بيتي تماماً. أتخطّى منحدرات نُحاسيّة على الأقدام من كاسيس إلى سيوتات؛ كنتُ أنتقل بين وسائل النّقل، حتّى إنّي، مساءً وأنا أصعدُ إلى غرفتي ليس ثمّة في رأسي فكرة سوى: العودة من جديد. لازمني الشّغف عشرين سنة، وحده العمر تعب؛ أنقذني شغفي تلك السّنة من الضّجر والتحسّر، ومن كلّ الأحزان واستبدَل المنفى بحفلة.

لا شيء أصيل. برّية وسهلة، توفّر الطّبيعة في مرساي للمشّاء المتواضع أسراراً حافلة بالألق. الرّحلات هي الرّياضة الأثيرة لسُكّان مرساي؛ يُؤسّس هواتها نواديَ، ويطبعون نشريّات تبيّن الدّروب ببراعة، ويرسمون بالأسهم المقاصد الحيويّة لنزهة رائعة. عدد كبير من زملائي في العمل يخرجون كلَّ يوم أحد، في جماعات، لتسلّق أجمة مرساي أو قمم سانت-بوم. ما أتفرّد به هو أنّي لا أنتمي إلى أيّ فريق وكي أشغل وقتي أقوم بواجباتي الأكيدة. لم أتساءل يوماً عن جدول يوم الخميس أو الأحد من 2 أكتوبر إلى 14 جويلية؛ كان مألوفاً لديَّ أن أخرج منذ الفجر حتّى حلول اللّيل شتاء وصيفاً. لم أكن أركّز على التّحضيرات؛ لم أكن أولي اهتماماً لاقتناء العدّة الكلاسيكيّة: حقيبة الظّهر، حذاءً خفيفاً؛ كنتُ أرتدي فستاناً قديماً، حذاءً رياضيّاً، وأحمل في حقيبة

عاديّة بعض الموز والكعك: أكثر من مرّة ابتسم لي زملائي برُقيّ عندما كنّا نتقاطع عند قمّة. إلّا أنّي كنتُ أسطّر دروبي الخاصّة مُستعينة بخريطة ميشلان والنّشريّة والدّليل الأزرق. في البداية كنتُ أكتفي بخمس أو ستّ ساعات من المشي؛ ثمّ صرتُ أخرج في نزهات بتسع إلى عشر ساعات؛ يحدث أن أمشي أربعين كيلومتراً. عرفتُ المنطقة جيّداً. صعدتُ كلَّ القمم: الغردبان، جبل أوريليان، سان-ڤيكتور، «رأس الملك»؛ نزلتُ شارم، واكتشفتُ المزارع، المعابر، والممرّات. بين كلّ الحجارة التي لا يبدو أنّ هناك مسالك تؤدّي إليها، اتّبعتُ الأسهم - زرقاء، خضراء، حمراء، صفراء - التي كانت تقودني إلى حيثُ لا أدري؛ كنتُ أحياناً أفقدها، أبحث عنها، في حلقة مُفرغة، متجاوزة الغابات ذات العطور الحادّة، تسلخني نباتات ما زلتُ حديثة عهد بها: العرعر، السنديان الأخضر، الزنبق الأصفر والأبيض. سلكتُ على ضفاف البحر الدّروب الجمركيّة؛ على سفوح المنحدرات، على طول الشّواطئ البائسة، لم يكن للمُتوسِّطِ مذاقُه الحُلوُ الذي كان أيضاً يقرفني في أماكن أخرى بعض الأحيان. في الصّباحات المُشرقة يخطر لي أنّي لو غمستُ أصابعي في البياض لابتلّت. كانت جميلة أيضاً حين أنظر إليها من أعلى المزارع، حين تكسر عذوبتها الخادعة وصرامتها المائيّة اندفاع الزّياتين. ذات يوم ربيعي، للمرّة الأولى من فوق مرتفع ڤالونسول، اكتشفتُ أشجار اللّوز مُزهرة. مشيتُ في طرقات حمراء ورمليّة اللّون، وسط سهول «أيكس Aix» حيثُ أمكنني التعرّف على لوحات «سيزان Cézanne». زرتُ مُدناً، بلدات، قرى، أديرة، وقصوراً. مثلما حدث معي في إسبانيا لم يترك لي الفضول المجال لأرتاح. كنتُ أقوم باكتشاف من خلال كلّ زاوية وكلِّ وادٍ صغير، وكان دائماً جمالُ الطّبيعة يفوق ذكرياتي وانتظاري. أجد من الأصالة انتزاع الأشياء من ليلها. كنتُ أسير وحدي وسط الضّباب فوق قمّة سانت-ڤيكتور، في سلسلة رأس الملك، في مواجهة عنف الرّياح التي ترمي بقبّعتي في المروج؛ وحدي تُهتُ في أخاديد لوبيرون Lubéron: تلك الأوقات، في نورها، ورقّتها، وهروبها، لم تكن ملكاً لأحد غيري. وحدي مُخَدَّرة بالنّعاس، عبرتُ المدينة فأجد نفسي حيثُ انتهى اللّيل تاركاً مكانه لفجر جديد في عزبة مجهولة! نمتُ عند منتصف النّهار وسط أشجار الصّنوبر؛ تسلّقتُ التّلال، وتسلّلتُ عبر المزارع،

فاعترضتني غير المتوقّعة التي أريدها: لم أشعر قط بالسّأم من رؤية أيّ نقطة أو خطّ مرسوم في الخريطة، أو ثلاثة أسطر طُبعت في الدّليل، فتحوّلت إلى حجارة وأشجار وسماء وماء.

في كلّ مرّة أرى فيها بروڤنس من جديد، أدرك الأسباب التي جعلتني أحبّها؛ إنّها لا تُبرّر الهوس الذي تُعاودني فيه ذكرى، بل الكثافة بذهول. جاءت أختي إلى مرساي نهاية شهر نوفمبر؛ درّبتُها على مُتَعي الجديدة كما فعلتُ مع ألعابنا في الطّفولة؛ تحت السّماء الشّاسعة، رأينا قناة المياه، روكفاڤور، وتنزّهنا منتعلتين أحذية رياضيّة في الثّلج حول تولون؛ كانت تعوزها التّمارين، كانت أحياناً تشعر بالألم، لكنّها لم تكن تشكو وكانت تسير حسب خطوتي. أصابتها الحُمّى يوم خميس ونحنُ عائدَتان من سانت-بوم ذات ظهيرة، قلتُ لها أن ترتاح في مصحّة تمريض، وأن تشرب القليل من الخمر السّاخن ريثما تأتي الحافلة إلى مرساي بعد ساعات، لأكمل رحلتي وحدي. مساءً لازمت الفراش، مريضة بالزّكام وشعرتُ بالنّدم. اليوم، بالكاد أفهم كيف أمكنني تركها ترتجف، في مطعم بائس. عموماً، أنا أهتمّ بالآخرين، لكن أبداً بأختي. «أنتِ مُصابة بالفصام»، كان سارتر يقول لي باستمرار: بدل تحويل مشاريعي إلى حقيقة، كنتُ ألاحقها إزاء وضدّ كلّ شيء، متّخذة من الحقيقة مجرّد إكسسوار؛ فعلاً، في سانت-بوم، أنكرتُ وجود أختي على أن أحيد على برنامجي الذي سطّرتُه لنفسي: كانت دائماً تخدم مصالحي، إلى حدّ جعلني لا أقبل عدم قيامها بذلك هذه المرّة أيضاً. هذا «الفصام» بدا لي دائماً شكلاً متطرّفاً وشاذّاً من تفاؤلي؛ كنتُ أرفض مثل العشرين، أن «يكون لحياتي إرادة فوق إرادتي».

كان لإرادتي التي تأكّدت من خلال تجوالي المُتعصّب جذوراً قديمة. فيما مضى، في ليموزين، على امتداد الطّرقات الجوفاء، قطعتُ مع نفسي عهداً بأن أجوب فرنسا، وربّما العالم، دون أن أخلف حقلاً أو غابة؛ لم أصدّق ذلك كثيراً؛ وفي إسبانيا حين عزمتُ على رؤية *كلّ* شيء، فقد أعطيتُ في الواقع معنى عامّاً للعبارة. هنا، في المنطقة، حيثُ عملي ومواردي يُؤويانني، لا يبدو التحدّي مُستحيلاً. أردتُ اكتشاف پروفنسا بالتّمام وبرشاقة لم يسبقني إليها جوّالٌ متمرّس من قبل. لم أمارس الرّياضة من قبلُ

قط؛ وجدتُ متعة كبيرة في استخدام جسدي، حتّى حدود قوّته، وبالبراعة الممكنة؛ في طريقي إلى بيتي كنتُ أوقف سيارات وشاحنات؛ في الجبل، وأنا أتسلّق الصّخور وأنزل المنحدرات، كنتُ أحرص دائماً على شقّ طرق مُختصرة: كلُّ رحلة استكشاف هي قطعة فنّية بحدّ ذاتها. وعدتُ نفسي بأن أحافظ، إلى الأبد، على ذكرى كبيرة، وفي الآن الذي كنتُ أحقّقه فيها، يجب أن أهنّئ نفسي على إنجازي؛ تُلزمني كبريائي التي أخرج بها في كلّ مرّة على تجديد المغامرة: كيف سأقبل بالتردّي؟ لو تخلّيتُ عن قضيّة من باب اللامبالاة أو الاستسلام لنزوة، لو قلتُ مرّة: «ما الفائدة؟» فسأكون قد قوّضتُ كلّ المنظومة التي أنشأتُ سعادتي عليها وأكون قد ركنتُها من جانب الواجب المُقدّس. في الحياة، ألجأ إلى هذا المنهج: أن أضفي ضرورة على نشاطي، كي ينتهي بي الأمر ضحيّة أو مُغفّلة: هكذا نجوتُ في الثامنة عشرة من الملل والهيجان. مؤكّد، في مرساي أنّني لم أكن لأنجح في الإبقاء على سعار المهووسين بجمع الأشياء لو أنّها كانت ثمرة تعليمات مُجرّدة: لكنّي تحدّثتُ عن المسرّات التي حُرمتُ منها (هذا الوصفُ لا ينسحب على مثالي الخاص فحسب، لكن عموماً على كلّ المهووسين. يعيش المهووس في عالم استبدادي، مُشيّد وفق قواعد، ومعاهدات، وقيم يعتبرها عليا؛ لذلك هو لا يقبل أقلّ خرق: إنّه يُلوّحُ له بإمكانيّة الهرب من منظومته، فالانتقاص، إذاً، يطعنُ في ضرورة قيامه بواجبه تجاه نفسه ومن ثمَّ انهيار الصّرح. لا يُبَرَّرُ الهوس سوى بتأكيد مُستمرّ نابع من صميمه.)

قليلة هي المُغامرات التي تحدث لي؛ مع ذلك أحسستُ بالخوف مرّتَيْن أو ثلاثاً. أصرّ كلبٌ على اتّباعي من قمّة أوبانْيْ إلى قمّة غاردابان، اقتسمتُ معه الكعك، لكن كانت لديَّ عادة الانقطاع عن شرب الماء، هو لا؛ في طريق العودة، ظننتُه قد جُنَّ، والجنون لدى الحيوان، يبدو لي مُرعباً: حين وصلنا إلى القرية، ركض نحو السّيل وهو يعوي. ذات ظهيرة، تسلّقتُ ممرّات متعرّجة ينبغي أن تفضي إلى منصّة صخريّة؛ تزايدت الصّعوبات، وأحسستُ أنّي لن أنجح في نزول ما صعدتُه، وذهبت؛ أوقفني جدار بشكل كلّي، وكان عليّ العودة أدراجي، من حوض إلى آخر. وصلتُ إلى صدع لم أجرؤ على القفز من فوقه؛ زحفت ثعابين من بين الحجارة القاسية الجافّة، ما من صوتٍ آخر؛

لا أحد يمرّ من هنا أبداً؛ لو كُسرت لي ساق أو التوى كاحلي، فماذا سيكون مصيري؟ ناديتُ: ما من مُجيب. ناديتُ ربع ساعة. يا له من سكون! استجمعتُ شجاعتي وهبطتُ سليمة.

ثمّة خطر نبّهني إليه زملائي بجدّية؛ تحدّت نزهاتي الفرديّة كلَّ قاعدة وراحت تُردّد بنبرة حادّة: «ستُغتصبين يوماً!» سخرتُ من هواجس الفتيات المُسنّات. لن أنتظر حتّى تنغّص المحاذير حياتي؛ ثمّ إنّ بعض الأشياء – حادث، مرض خطير، اغتصاب – ببساطة لا يُمكنها أن تحدث لي. كانت لي مواجهات مع بعض سائقي الشّاحنات، مع سُوّاق شحن أرادوا إقناعي بالتوغّل معهم في الخندق وأنزلوني في قلب الطّريق: لم أحجم عن السّفر بهذه الطّريقة. ذات ظهيرة، كنتُ أسير نحو تاراسكون، تحت شمس حارّة، في طريق مُغبرّة بالأبيض، عندما تجاوزتني سيّارة ثمّ توقّفت؛ دعاني شابّان إلى الرّكوب معهما: أقلّاني إلى المدينة. خُضنا الطّريق الكبير وبدل الانعطاف يميناً مالا يساراً. «سنقوم بجولة»، شرحا لي. لم يعد هناك مجال للشكّ؛ غادرا الطّريق وكان عليهما التّخفيض من السرعة لاجتياز مفترق؛ فتحتُ الباب وهدّدتُ بإلقاء نفسي: توقّفا وتركاني أنزل، مُحرَجين. بعيداً عن إلقاء المواعظ على نفسي، متّنت هذه الحكاية من فرضيّتي: مع القليل من الانتباه والحسم يمكن الخروج من أيّ موقف. لم أندم لأنّي لبثتُ فترة طويلة أغذّي هذا الوهم، لأنّي أستلهمها من جرأة تُسهّل عليَّ الحياة.

أجد متعة كبيرة في إلقاء الدّروس؛ إنّها لا تتطلّب إعداداً، لأنّ معلوماتي كانت جديدة وكنتُ أتحدّث بطلاقة. مع تلميذات كبيرات نسبيّاً لا تُطرحُ مسألة الانضباط. بين جميع المواضيع التي أقدّمها ليس ثمّة تعليم سبقني إليها، كان عليَّ تلقينهم كلَّ شيء: كان ذلك قاسياً. بدا لي من الضّروري تخليصهنّ من بعض الأحكام المُسبقة، أن نجعلهنّ يحذرن المطبّ المُسمّى المعنى المُشترك، أن نقرّب إليهنّ تذوّق الحقيقة. كانت جميلة رؤيتهنّ يتخبّطن في الغموض الذي ألقيتهنّ فيه في البداية؛ رويداً ترتّبت دروسي في رؤوسهنّ وكنتُ سعيدة بتطوّرهنّ كما لو أنّي أنا التي تطوّرت. لم أكن أبدو أكبر سنّاً منهنّ: في البداية ظنّ القيّمون في المعهد أنّي تلميذة. أعتقد أنّهنّ كنّ متأثّرات

باللّطف الذي عاملتهنّ به: بدا أنّهنّ يبادلنني المودّة. دعوتُ النّجيبات بينهنّ إلى بيتي مرّتيْن أو ثلاثاً. همّة المبتدئين تلك، جعلت زملائي يتهكّمون عليَّ لكنّي كنتُ أحبّ التحدّث إلى فتيات كبيرات متردّدات على أن أحدّث نساءً ناضجات، متجمّدات في تجاربهنّ.

تعكّرت الأمور منتصفَ السّنة عندما تطرّقنا إلى الأخلاق. حول العمل، الاقتصاد، العدالة، الاستعمار، كنتُ أقول ما أفكّر فيه بحميّة. وكانت أغلبهنّ متمرّدات؛ في الفصل أو في أوراق الامتحان كنّ يلقين إليَّ بما في رؤوسهنّ من قرائن صقلها آباؤهنّ بعناية وكنتُ أعدمها فوراً. غادرت إحدى التّلميذات المكان المُخصّص لها في الصفّ الأوّل لتحتلّ طاولة في الصفّ الأخير، مكتوفة اليدين، كانت ترفض تدوين الملاحظات في كرّاسها وكانت تنظر إلي بغضب شديد. فيما بقي، كنتُ أضاعف من الاستفزاز. خصّصتُ ساعات الأدب لبروست، جيد، ما كان يُعتبر في ذلك الوقت في معهد ريفي للبنات جسارة كبيرة. قمتُ بما هو أكبر. فبحركة طائشة وضعتُ بين أيدي المراهقات النصّ الكامل لـ «*ديناتورا ريروم* *De natura rerum*»[10] وحول الألم مراجع من نصّ دوما Dumas يتحدّث عن اللذّة. اشتكى بعض الأولياء ودعتني المديرة إلى مكتبها؛ سوّينا الأمر فيما بيننا ولم يتخطّ القضيّة بابها.

إجمالاً، كان موظفو المعهد ينظرون إليَّ بريبة. كان فريق العمل مؤلّفاً من مُتقدّمات في العمر مأخوذات بالشّمس والمشي، وتعتزمن إنهاء حياتهنّ في مرساي؛ كنتُ محلّ اشتباه *مبدئي* لأنّي باريسيّة ترغب في العودة إلى باريس. زادت رحلاتي المنفردة من خطورة وضعي. أعترف أنّي لم أكن متأدّبة قط. حافظتُ منذ مراهقتي على ازدراء الابتسامات المُتكلّفة، والتملّق المدروس. كنتُ أدخل قاعة الأساتذة دون توزيع التّحيات، أرتّب أغراضي في خزانتي وأجلس في زاوية. اكتسبتُ بعض العادات؛ كنتُ آتي إلى المعهد مرتدية تنورة وسترة؛ في الرّبيع كنتُ ألعب التنس، كنتُ أصل إلى المعهد أحياناً دون تغيير ملابسي، في فستان أبيض: باغتُّ نظرات استهجان. جمعتني علاقات جيّدة

10- *ديناتورا ريروم* *De natura rerum*: قصيدة طويلة من تأليف لوكريشيا الشاعر والفيلسوف اللاتيني الذي عاش خلال القرن الأوّل قبل الميلاد.

بزميلَتيْن أو ثلاث أجد راحة في التعامل مع عفويّتهنّ. توطّدت صداقة بيني وبين إحداهنّ.

كانت السيّدة توملان في الخامسة والثّلاثين؛ كانت تُدرّس الإنجليزيّة وتُشبه امرأة إنجليزيّة: شعر بُنّي، بشرة نضرة ووورديّة، شفتان مُسطّحتان، نظّارتان مُرصّعتان بالحراشف؛ فستان بُنّي يحتوي جسدها الممتلئ. كان زوجها ضابطاً وكان يُعالج رئتيه في بريانسون؛ كانت تذهب لرؤيته خلال العطل وكان يأتي إلى مرساي أحياناً. كانت تسكن شقّة جميلة، مُطلّة على شاطئ الـ «پرادو Prado». دعتني ذات ظهيرة لتناول المُثلّجات في الـ «پوسان بلو» وحدّثتني بحماس عن كاترين مانسفيلد. أثناء إقامة أختي عندي خرجنا للنزهة ثلاثتنا وكانت طافحة باللّطف. رتّبت غرفة الخادمة في شكل شقّة صغيرة واقترحت عليَّ استئجارها؛ كانت صغيرة، لكن مناسبة لذوقي: كنبة، رفوف للكتب، وطاولة عمل. من الشّرفة، أطلّ على شواطئ پرادو وأسطحها. رائحة مصنع الصّابون تصعد إلى غرفتي، عذبة، مُلحّة، لتوقظني في الصّباح، لكنّ الشّمس تغرق الجدران وأجد نفسي في أفضل حال.

أخرج أحياناً برفقة السيّدة تورملان. نذهب للرقص في تيريزينا، وفي ساخاروف؛ عرّفتني بأصدقائها. نتناول الغداء معاً باستمرار، في ساحة الولاية، بمطعم صغير وردي، وكانت تستمتع برؤية وجه صاحبة المحلّ وبأقراطها الكبيرة السّوداء. كانت تعشق الأشياء الجميلة، الطّبيعة، الغرابة، الشّعر... الأمر الذي يمنعها من إبداء حيائها: يُرعبها جيد؛ كانت تستنكر لديه الإفراط في التحرّر، المكر والفوضى. لم أكن أجد ذوقاً في الاستماع إلى حماسها الطّائش ولم أكن أعتزم مناقشة أحكامها المُسبقة، خشية أن يُفضي بنا الحديث إلى الاختلاف. قبلتُ برحابة صدر أن ترافقني ذات عطلة نهاية أسبوع إلى أحواز «آرل». زُرنا دير مونماجور وفي المساء، في غرفتنا الكبيرة المُزخرفة اندهشتُ من عدم حرجها من التعرّي وإظهار لحمها السّمين الغضّ. مع ذلك، كان لطفها يلامس قلبي؛ قالت إنّها صبغت خصلات شعرها البيضاء كي تُثير إعجابي؛ اشترت سترة ورديّة تكشف عن ذراعيها. ذات ظهيرة ونحنُ نحتسي الشاي في صالون بيتها، استرسلت تروي لي أسرارها؛ قالت

لي، بعنف مباغت، أيّ تقزّز تشعر به حيال الحبّ الجسدي، تلك الرّطوبة المقرفة على بطنها، حين ينسحب زوجها بعد معاشرتها. حلمت قليلاً. ما تجده جديراً بأن يُعاش هو «اللّهيب» الذي عرفته حين كانت طالبة والذي كانت تجيزه حدّ القبلة على الشّفاه، أضافت مبتسمة. بدافع تكتّم ولامبالاة لم أعلّق على رأيها. طبعاً كانت تُسبّب لي الملل، وعندما كان زوجها يأتي إلى مرساي، أشعر براحة لأنّي لن أراها خمسة عشر يوماً. لكنّها لا ترى الأشياء على ذلك النّحو. أخبرتني أنّها ستخرج في نزهة معي، يوم الخميس القادم، ولم أجد وسيلة لأثنيها. أرادت أن تفرض عليَّ الهيئة الكلاسيكيّة لمتسلّقي جبال الألپ بحقيبتها على الظّهر وحذائها المربوط في قدميها: كانت منتظمة بطيئة؛ لكنّنا لم نكن في الألپ وسرتُ على خطوتي. كانت تتنفّس بصعوبة خلفي وكان ذلك ممتعاً بالنّسبة إليَّ. ما يجعل تلك الرّحلات ذات قيمة، هو عزلتي مع طبيعة مقفرة، وحرّيتي المُتّقدة: تُفسِد السيّدة تورملان مناظر الطّبيعة وجميع مسرّاتي؛ رحتُ أحثّ الخطى مأخوذة بالكراهية؛ كنتُ أرتاح من وقت إلى آخر تحت ظلّ شجرة أو صخرة، وما إن تظهر حتّى أستأنف. وصلنا إلى ممرّات صخريّة؛ كان علينا سلك مضيق زلق بضعة أمتار، حيثُ ما من درب مرسوم سلفاً، لكن من السّهل خلقها؛ رأت الماء السّاخن المتدفّق وقالت إنّها لن تعبر من هناك: عبرتُ؛ قرّرت العودة أدراجها من خلال الغابة؛ وجدنا أنفسنا في قرية يجب أن تمر بها حافلة مرساي نهاية الظّهيرة. تابعتُ نزهتي في غبطة؛ وصلتُ مبكّرة إلى موعدنا وجلستُ مُحمّلة بالصّحف في مقهى الساحة الكبرى. يغادر الباص الأخير في تمام الخامسة والنصف؛ اتّخذتُ مقعداً عند الخامسة و32 دقيقة، لمحتُ السيّدة تورملان، مُسرعة، مُوجّهة للسّائق إشارات مجنونة ليتوقّف. جلست بجواري ولم تفه بكلمة حتّى وصلنا إلى مرساي؛ قالت لي لدى وصولنا أنّها تاهت. لزمت الفراش ستّة أيّام. منعها الطّبيب من مرافقتي خلال نزهاتي.

لم تكنّ لي الضّغينة. غادر زوجها، واستأنفنا لقاءاتنا. سيستقرّ معها نهائيّاً في «پينتكوت Pentecôte». قبل ذلك بيومين دعتني لعشاء في مطعم باسكال المشهور. احتسينا الكثير من النّبيذ ونحن نأكل لحم الذّئب المشوي، وفي طريق العودة كنّا مبتهجتَيْن للغاية؛ تحدّثنا الإنجليزيّة واستهجَنَتْ لكنَتي

الرّديئة. نسيتُ محفظة في بيتها ودخلتُ لأخذها. سرعان ما أخذتني من ذراعي. «آه! لنُلقي بأقنعتنا!» قالت، وقبّلتني بعنف. وبصوت مرتبك أخبرتني أنّها أحبّتني منذ النّظرة الأولى، وأنّ الأوان قد حان للانتهاء من كلّ هذا النفاق وترجّتني أن أبيت معها اللّيلة. ذُهلتُ باعترافها الطّائش، تلعثمتُ في الكلام: «فكّري في صباح يوم غد: أيّ هيئة ستكون لنا؟ - هل عليَّ أن أجثو على ركبتي أمامك؟ سألت بصوت ضائع. - لا، لا!» قلتُ لها. هربتُ تملؤني الهواجس من هذه الفكرة: «لم تُصدّقي ما قلتُ في الأمس؟ هل فهمتِ أنّي أمزح؟ - طبعاً!» أجبتُ. لكنّ وجهها كان غائماً. همست ونحن في طريقنا إلى المعهد على طول البرادو: «لديَّ انطباع أنّي أمشي في موكب دفني!» وصل زوجها في اليوم الموالي. لكنّي سافرتُ إلى باريس؛ لدى عودتي لم يكن لنا لقاء منفرد قط وقريباً ستنتهي السنة الدراسيّة.

لم أحسّ بالاندهاش مثل ذلك الذي أحسستُ به في الرّدهة حيثُ ألقت السيّدة تورملان الأقنعة. إلّا أنّ هناك إشارات دالّة منذ البداية. تحت توقيع في بطاقة بريديّة أرسلتها إليَّ، رسمت سلسلة من حرف x وأضافت: «آمل أن أقول لك يوماً معنى هذه الـ x»؛ إنّها تُمثّل القبل بالطّبع، حسب رمزيّة استلهمتها من شبابي؛ كان شعرها المصبوغ، سترتها الورديّة، تأنّقها. لكنّي قلتُ إنّي ساذجة؛ أقنعتني الاعترافات الطّائشة للسيدة تورملان بفضيلتها. بسبب الصفاء الذي أخضعني إليه تعلّمي، لم تكن نظرتي للبشر تحتمل الجانب الجنسي؛ ثمّ - وسأعود إلى هذا فيما بعد - لقد كانت أخلاقيّة أكثر مما هي نفسيّة؛ أستنكره، أؤيده، أقرّر حسب ما يجب أن يكون، بدل البحث عن كيفيّة تأويل ما يدفع الناس للتصرّف بهذا الشّكل أو ذاك.

بفضل السيّدة تورملان، جمعتني علاقة بطبيب مرسيلي، مهمّة في حدّ ذاتها، لكن، ومن ناحية أخرى، جعلت خيالي يعمل. عالج الدكتور أ... أختي عندما كانت مريضة بالزّكام، ثمّ بعد ذلك، لعبتُ معه التنس، صباحاً أو اثنين في الأسبوع، في حديقة بوريلي. دعتني زوجته مرّات إلى بيتها. كانت أخته متزوّجة بطبيب توليد أخرق، يسكن نفس البناية التي كان يقيم فيها؛ كانت مريضة بالسلّ ولم تكن تغادر الفراش؛ كانت ترتدي ملابس خفيفة ذات

ألوان رقيقة؛ يكشف شعرها الأسود المُسرّح إلى الخلف جبهة عريضة بيضاء، تُهيمن على وجه نحيف ذي عينيْن حادّتيْن؛ كانت معجبة بجو بوسكي ودينيس سورا؛ أصدرت كتاباً شعريّاً؛ أذكر أحد الأبيات: «قلبي قطعة خبز قديمة.» كانت تحدّثني عن آراء روحانيّة.

أخت أخرى للدكتور أ... كانت زوجة الدكتور بوغرات، بطل حادثة مشهورة: عُثر على رجل مقتول في خزانته وأدلت ضدّه زوجته بشهادة قادته إلى السجن المؤبّد. نفى دائماً صلته بالجريمة. هرب وفي فنزويلا أخذ يعالج مريضة بائسة بتفانٍ مثالي. كان زميل الدّكتور أ... أيّام الدّراسة وحدّثني عنه كرجل استثنائي بذكائه وشخصيّته. أحسستُ بالفخر لأنّي صديقة عائلة سجين مشهور. جميلة، صاخبة، وذات مزاج متقلّب، تزوّجت السيّدة بورغات-سابقاً رجلاً آخر وأعلنت عن عدم شرعيّة ابنها. وجدتُ إثارة في التخيّل بأنّها كذبت كي تُفلس زوجها الأوّل؛ وجدت في السيّد بورغات مُغامراً لطيفاً، راح ضحيّة مؤامرة بورجوازيّة، وتشكّل لديّ بشكل ضبابي، مشروع استخدام الحكاية في كتاب.

جاء والِدَاي لقضاء أسبوع معي؛ دعانا أبي على حساء السّمك لدى إيزنار - أفضل مطعم في المدينة - وصحبتُ أمّي إلى سانت-بوم. مرّ ابن عمّي شارل سيرموان مرساي برفقة زوجته وزُرنا عبّارة أطلسيّة.

تاپير وصديقته توقّفا مدّة يوميْن؛ أخذاني معهما في السيّارة إلى نافورة ڤوكلوس Vaucluse. كانت تسلية بائسة. استقررتُ في الوحدة. شغلتُ أوقات التّرفيه الخاصّة بي بما في مستطاعي. كنتُ أرتاد الحفلات من حين إلى آخر؛ استمعتُ إلى واندا لاندوسكا؛ وفي الأوبرا استمعتُ إلى *أورفي في الجحيم* بل حضرتُ *المُفضّلة*. في قاعة سينما، كنتُ أعيش حبوراً حقيقيّاً عندما شاهدتُ *العصر الذهبي* الذي أحرج باريس. أجد صعوبة في شراء الكتب. لكن كانت هناك مكتبة تعير الأساتذة، إلّا أنّها لم تكن ثريّة؛ استعرتُ *مُذكّرات* جول رونار، ومُذكّرات ستندال، مراسلاته والمراجع التي سخّرها له أربيلي. وجدتُ كتباً حول تاريخ الفنون، كان لها وقع كبير عليَّ.

لم أكن أسأم قط: لم ترهقني مرساي. كنتُ أتبع رصيف المرفأ الذي نال

منه الماء والرّيح، أراقب الصيّادين، واقفين بين الصّخور العملاقة حيثُ تتكسّر الأمواج، باحثين في أعماق المياه على مراعٍ مجهولة؛ تُهتُ في كآبة الموانئ؛ أحوم حول «إيكس Aix»، في أحياء حيثُ الرّجالُ السّمرُ يبيعون ويشترون أحذية قديمة مُزرية. حسب أسطورتي، على شارع بوتري أن يُعجِبَني؛ أرى نساءً في كامل زينتهنّ، وعلى الأبواب المُشرعة، لافتات كبيرة مُلوّنة فوق أسرّة الحديد: إنّها أكثر شاعريّة من فسيفساء أبي الهول. كانت هناك دائماً حياة جديدة تملأ عينيَّ وأذنيَّ في السلالم العتيقة والأزقّة القديمة وأسواق السّمك وجلبة المرفأ القديم.

كنتُ سعيدة بما وصلتُ إليه؛ كنتُ أؤدّي جيّداً المُهمّة التي عهدتُ بها إلى نفسي من أعلى السلّم الأثري: سأصنعُ سعادتي بنفسي يوماً بعد يوم. كانت هناك أمسيات حزينة قليلاً، أمّا حين أخرج من المعهد فكنتُ أقتني للعشاء أطباقاً جاهزة، لأعود بعد الغسق إلى غرفتي التي لا شيء ينتظرني فيها: لكنّي أجد عذوبة في هذا الحنين الذي لم أعرفه في ضجيج باريس. استعدتُ سلام جسدي: هذا الفراق الحاسم يُخضعه إلى اختبار أقلّ قسوة من ذهاب وإيّاب متواتر بين غياب وحضور لا ينتهيان. ثمّ لقد قلتُها، كلّ شيء مترابط: حين يكون هناك شوق بنفاد صبر، فإنّي أتحمّله دون مشقّة منذ أصبحتُ لا أحقد على نفسي. بل لقد صرتُ مُعجبة بذاتي. كنتُ أحياناً أزيغ عن المبادئ التي تبنّيتُها مع سارتر، تلك المبادئ الأصول التي تطعن في كلِّ نرجسيّة: كنتُ أؤثّث حياتي وأنا نفسي أتحرّك في الحياة. أحببتُ كاترين مانسفيلد، قصصها، مُذكّراتها ورسائلها؛ رحتُ أبحث عن ذكرياتها بين مزارع الزّيتون في بندول Bandol وبدت لي شخصيّة روائيّة هذه المرأة الوحيدة. كنتُ أقول إنّي أيضاً أجسّدها عندما أتناول فطوري في شارع كانبيير Canebière بالطابق الأوّل من معمل أوسنترال للجعة، حين أتناول العشاء في حانة شارلي، قاتمة، باردة، مُزيّنة بصور فوتوغرافيّة لملاكمين؛ أشعر بأنّي «امرأة وحيدة»، فيما أحتسي قهوة في ساحة الولاية، تحت أشجار الجميز أو بمحاذاة إحدى نوافذ سنترا بالميناء القديم. أفضّل هذا المكان؛ على يساري، في الظّلمة التي تلمع من خلالها البراميل المُطوّقة بالنّحاس، كنتُ أسمع وشوشة خافتة؛ على اليسار التراموي يجوب المدينة؛ تصرخ الأصوات المُضطربة مُطالبة بالمحار وقنفذ

البحر؛ آخرون يُعلنون عن رحلات إلى قصر «إيف If»، «إستاك»، و«شارم». أنظر إلى السّماء، المارّة، الجسر المُتحرّك؛ ثمّ أخفض عيْنَيَّ صوب الامتحانات التي كنتُ أصلحها، صوب الكتاب الذي أقرؤه. كان ذلك مُمتعاً.

أملك الكثير من الوقت كي لا أعمل. بدأت رواية جديدة. نقدتُ نفسي بقسوة أكثر من السّنة التي مضت؛ لم تكن الجمل التي كنتُ أخطّها بمشقّة على الورق تُعجبني. قرّرتُ القيام بتمارين كتابة. اتّخذتُ مكاناً قريباً من الولاية، في مقهى وحانة حيثُ يُقدّم مرق الأحشاء على الطّريقة المرسيليّة؛ كانت الجدران مُزخرفة ومُزيّنة بشرائط احتفاليّة والكعوب العالية، السّابحة في ضوء أصفر؛ جاهدتُ نفسي كي أكتب كلَّ شيء. سرعان ما أدركتُ أنّ ذلك كان غريباً. عدتُ إلى كتابي وعزمتُ بإصرار على إنهائه.

كان أقلّ اعتباطاً من الذي سبقه. منذ ذلك الحين، مُخطئة كنتُ أم مُحقّة، أحسستُ أنّي في خطر، أخذتُ مسافة من حياتي: حكمتُ عليها، في خوفها وحسرتها. عاتبتُ نفسي حيال سارتر، مثلما فعلتُ مع زازا فيما مضى، ألّا أكون في مستوى حقيقة علاقتنا وكوني خاطرتُ بالتخلّي عن حرّيتي. بدا لي أنّي أتطهّر من تلك الخطيئة بل لعلّي أعيد شراء نفسي لو أنّي نجحتُ في نقلها إلى رواية: تكوّن لديّ شيء لأقوله. وهكذا تطرّقتُ إلى مسألة سترافقني في كلّ قصّة أنجزها (في روايتي الأولى المنشورة *المدعُوّة*، احتلّ الموضوع حيّزاً مُهمّاً.)، سراب الفجر. لا أريد أن يتمّ الخلط بين هذا الانبهار وحكاية حبّ عاديّة واتّخذتُ امرأتين بطلتين للقصّة: فكّرتُ - بسذاجة - أنّي بذلك الشّكل سأحافظ على علاقة جنسيّة مريبة بينهما. وزّعتُ ميولي بينهما: تشبّثي بالحياة، ورغبتي في إنجاز عمل أدبي. مائلة أكثر إلى الأولى، منحتُ الثانية قيمة أكبر وزوّدتُ السيّدة دي پريليان بكلّ الإغواء الذي أمثّله. كان لها نفس عمر السيّدة لومار، أناقتها، ذوقها في الحياة، كياستها، تكتّمها، خصوصيّتها، صمتها، تشاؤمها المُحبّب والمبالغ فيه أحياناً؛ كانت تعيش بين عدد كبير من الأصدقاء، لكن وحدها، دون أن ترتبط بأحد. أسندتُ إليها النزعة الفنّية لكامي، حبّها للعمل الخلاّق. من؟ ترددتُ. من الصّعب دائماً، يستحيل عليَّ أن أجعل كاتباً أو رسّاماً كبيراً ينشأ؛ من جهة أخرى بدا أنّ السيّدة دي پريليان

ستكون تافهة لو أنّ هناك مسافة كبيرة بين طموحاتها ونجاحاتها؛ أفضّل أن تنتصر في مجال متواضع: كانت تدير مسرح عرائس؛ تصنع الدّمى وتلبسها، تكتب بنفسها الكوميديا التي ستجعلها تؤدّيها. قلتُ أيَّ متعة أجدها في عروض مماثلة؛ إنّ صفاءها غير البشري يتماشى مع وجه السيّدة دي پريليان. صمّمتُها بعناية فائقة، لكنّ اهتمامي انصبّ على الجاذبيّة التي يفرضها حضورها. لم أنشغل بمادّتها، بعلاقتها بالأشياء، بنفسها. ها أنا أصنع السّحري مرّة أخرى.

كانت هناك حقيقة أكبر في شخصيّة جينڤياف، التي منحتُها، بعض خصالي المبالغ فيها. كانت في العشرين، لا بشعة ولا غبيّة، بل تملك ذكاءً جامحاً ودون فائدة، كانت أكثر ميولاً للأحاسيس الكبرى منها إلى الانطباعات الغامضة. كانت تعيش لحظتها، بعنف، ولأنّها كانت تأبى التراجع فلم تكن تعرف كيف تفكّر، ولا ماذا عليها أن تشعر أو ماذا تريد دون أن ترى نفسها في الآخرين. خصّصت للسيّدة دي پريليان أسطورة شغف. لم تكن حكاية خيبة أمل بل تعلّم: اكتشفت خلف الشخصيّة التي تعتبرها مثلاً أعلى إنساناً من لحم ودم. ورغم ظاهرها غير المبالي فإنّ السيّدة دي پريليان أحبّت رجلاً حالت بينها وبينه الأقدار، تألّمت، كانت امرأة وضعيفة؛ لم تكن غير جديرة بالاحترام والصّداقة ولم يخب ظنّ جينڤياف؛ غير أنّها فهمت أنّ أحداً لن يُجنّبها تحمّل ثقل الحياة بنفسها وتصالحت مع حرّيتها.

تكنّ السيّدة دي پريليان ودّاً متضايقاً إزاء الشابّة المُعجَبَة بكبريائها؛ لم يكن ذلك كافياً لبناء حبكة. فكّرتُ، كي أشير إلى سُمك العالم، أن أنسج حكايات صغيرة أخرى. اقترح ماضِيَّ حكاية تبدو لي تراجيديّة ما يكفي لتصلح في رواية: موت زازا. شرعتُ في روايتها.

سأزوّج زازا التي سمّيتُها آن، لبورجوازي متّزن؛ في الفصل الأوّل ستستقبل في بيتها الريفي، بليموزين، صديقتها جينڤياف؛ حاولتُ استحضار طقس لوبَردان، المنزل، الجدّة، معجون الفواكه. تلتقي آن مع السيّدة دي پريليان لاحقاً في باريس، وتنشأ بينهما علاقة صداقة. كانت آن تُحبّ زوجها وتقضي حياتها في بيئة الحجر التي وضعها فيها زوجها؛ بدأت تتفتّح كزهرة يوم التقت السيّدة دي پريليان التي شجّعتها على صقل موهبتها الموسيقيّة. منعها زوجها

من مخالطتها. ماتت ممزّقة بين حبّها وحسّ الواجب وقناعاتها الدينيّة وبين رغبتها في الهرب من جهة أخرى. حضرت السيّدة دي پريليان وجينڤياف دفنها في أوزرش؛ نامت جينڤياف في قطار العودة بسبب إنهاكها الشّديد؛ كانت السيّدة دي پريليان تنظر إلى وجهها المُتعب بنوع من الشّهوة؛ مساءً في باريس، حدّثتها بطلاقة أنّها لم تفعلها من قبل قط؛ الحوار وقسوة آلامها قادا جينڤياف إلى الوحدة والحقيقة. مشهد القطار كان في مصلحة جينڤياف: كنتُ أشعر بالودّ ناحيتها، رغم أنّي لم أثنِ عليها. أتمنّى في الأربعين أن أكون مثل السيّدة دي پريليان: سيّدة نفسي، متبرّمة، غير قادرة على سكب دموع كبيرة؛ لكنّي لم أقبل ودون ندم فكرة التضحية بسلوكي، ودوختي إزاء هذا الانفصال.

العيب الرّئيس لروايتي، هو أنّ حكاية آن غيرُ متماسكة. كي نفهم قصّة زازا علينا العودة إلى طفولتها، إلى التركيبة العائليّة التي تنتمي إليها، إخلاصها لوالدتها الذي لم يكن في وسع الحبّ أن يحلّ محلّه. أمّ عزيزة ومُوَقَّرة منذ المهد يمكنها أن تحافظ على طفلها، حتّى لو أخذنا بعين الاعتبار ضيق ومحدوديّة تفكيرها ونزعتها السُّلطويّة؛ محكوماً، وملوماً على الدّوام، لن يكون في مُستطاع الزّوج أن يفرض الاحترام، وزوج آن لم يكن يحكم قبضته عليها جسديّاً، بما أنّي أبسط صراعاً أخلاقيّاً. كيف أمكن لآن أن تموت مُمَزّقة بين التفاني للبورجوازي النموذجي كما عرفتُه ولصداقتها الخفيفة التي تجمعها بالسيّدة دي پريليان؟ يصعب تصديق ذلك.

يكمن خطئي في أنّي علّقتُ على الدّراما وقائع تمنحها حقيقتها. أحافظ من جهة على المعنى النظري - الصّراع بين التزمّت البورجوازي والرّغبة في الحياة - من جهة أخرى، الحدث في شكله الخام - موت زازا. كان خطأً مُزدوجاً؛ حيثُ، إن كان فنّ الرّواية يُحتّم الإحالة، فإنّ الغاية هي تجاوز السطحيّة الكامنة في النّكتة وتسليط الضّوء على دلالة ليست مُجرّدة بل ملتزمة حيال الوجود (في هذا المضمار، تبنّيتُ أفكاراً طوّرها سارتر وبلونشو؛ يُثبتها فشلي بشكل صارخ.)

تسقط روايتي في بعض النّقاط الأخرى. كانت البيئة الفنّية التي تُحيط السيّدة دي پريليان مُصطنعة حتّى إنّها هي ذاتها والعرائس التي عهدتُ لها بها

تضفي عليها كمّاً من البهرجة المُزيّفة. ثمّ إنّي كنتُ محدودة التّجربة فيما يتعلّق بتحريك ثلاث شخصيّات في آن واحد: أحاول وصف اجتماع صاخب، فتأتي النّتيجة مُفزعة. أهتمّ بعلاقات الناس فيما بينهم؛ لم أشأ خوض «المُذكّرات الشّخصيّة» مُكتفية بالحديث عن نفسي: لسوء الحظّ، لم أكن قادرة على تجنّب ذلك، وسريعاً ما أنزلق في المألوف.

الجيّد في تلك البدايات، هي الطّريقة التي بواسطتها وزّعتُ الإيضاحات. آن رأت جينڤياف، ما يُضفي القليل من الغموض على البساطة؛ نرى السيّدة دي پريليان وآن من خلال عَيْنَيْ جينڤياف، وتشعر الأخيرة أنّها لا تفهمهما تماماً؛ في منأى عن هذا القصور، كان القارئ، إذاً، مدعُوّاً لتخمين حقيقة حُجبت عنه بشكل أخرق. السّوء، رغم التقديم الجيّد، هو أنّ بطلاتي يفتقرن إلى التماسك.

في تلك السّنة على الأقلّ، لم أنظر إلى عملي كعلامة فكريّة جادّة. جلستُ قرب نافذة في سنترا، أتأمّل وأستنشق رائحة الميناء القديم وأتساءل كيف يجب أن يُفكّر، ويشعر ويتألّم شخص في الأربعين: أحسد وأهاب هذه المرأة التي سأزدردها شيئاً فشيئاً والتي أسارع في رسم شخصيّتها على الورق. لن أنسى ظهيرة الخريف التي تجوّلتُ خلالها حول بُحيرة بير Berre، وأنا أسرد على نفسي نهاية كتابي. في ظلمة الصّالون، كانت جينڤياف تراقب أنوار الشّارع تُضاء وجبينها على الزّجاج، فيما الضجّة تتفاقم في قلبها، إنّها تغوص في أعماق ذاتها؛ عرائس ترقد على الأريكة. بدا لي وأنا أشير إلى هذا العالم الوهمي، أنّي أسمو على نفسي وأنّي أدخل لحماً ودماً في عالم اللّوحات، والتماثيل، وأبطال الرّواية. رفعتُ لمجدي هذا القصب ذا الرائحة الملحيّة ووشوشة الرّيح؛ كانت البحيرة حقيقيّة. ما من نصّ أو تقرير منحني هذا النّوع من السّعادة؛ إنّها تنبعث في كلّ مرّة أنساق فيها إلى الخيال.

ذهبتُ إلى باريس بمناسبة عيد توسان Toussaint؛ كنتُ أعود إلى باريس كلّما صادفت عطلة بيومَيْن؛ عطلة عيد الميلاد مثلاً؛ بالإضافة إلى ذلك، يحدث أن أفتعل أنفلونزا أو نوبة كبد، وأن أمنح نفسي إجازة غير شرعيّة. غادرتُ بيت جدّتي ونزلتُ في فندق صغير بشارع غاي-لوساك. كنتُ وسارتر نتراسل،

وكانت أوراقنا طافحة بالمواضيع. قبل كلّ شيء، نتحدّث عن عملي وعمله. في أكتوبر، تمّ رفض نشر *أسطورة الحقيقة* من قبل روبرتفرانس الذي كان يُدير منشورات أوروبا؛ وضعها سارتر في دُرجه: بعد تفكير طويل، لم يكن يتصوّر ما هو جيّد؛ لقد عبّر عن أفكار مُبتكَرة لكن بأسلوب كلاسيكي متجمّد ومتأنّق. لقد تكهّن بـ «واقع الطّوارئ» الذي افتتح به «*الغثيان*».

في إحدى رسائله، من شهر أكتوبر، روى لي عن لقائه بالشّجرة التي سيكون لها حيّز مُهمّ:

«رحتُ لرؤية شجرة. من أجل ذلك، يكفي أن أدفع بوّابة حديديّة لمتنزّه بشارع فوش Foch، وأن أختار ضحيّتي والمقعد. ثم أتأمّل. ليس بعيداً عنّي، زوجة ضابط شابّة تلقّن جدّتك دروساً حول متاعب مهنة البحريّة؛ حرّكت جدّتكِ العجوز رقبتها لتقول: «هذا منّا نحنُ.» ورمقتُ الشّجرة. كان جميلاً جدّاً، ولا أجد غضاضة في إدراج معلومات ثمينة تخصّ سيرتي: في بورغوس فقط، فهمتُ ماذا تعني كاتدرائيّة، وفي هافر ماذا تعني شجرة. ستقولين: أنت تعرف، تلك الألعاب التي تدور في مواجهة الريح -حين تخضعها لحركة أماميّة سريعة؛ كان لديها أغصان صغيرة خضراء في كلّ مكان، تنبت في كلّ غصن ستّ أو سبع أوراق. ستجدين مرفقاً رسماً وأنتظر إجابتك (كانت شجرة كستناء) وفي غضون عشرين دقيقة، وقد استنزفتُ أسطول المقارنات المُعدّ ليجعل من هذه الشّجرة، كما تقول السيّدة وولف، شيئاً آخر غير ما هو حقيقي، غادرتُ مُطمئنّاً...»

كان يُطلعني في كلّ لقاء لنا عمّا كتبه خلال رحلتي الأخيرة. في نسخته الأولى كان *بيان الطّوارئ* يُشبه *أسطورة الحقيقة* إلى حدّ بعيد؛ كان تأمّلاً طويلاً ومجرّداً متعلّقاً بالطّوارئ. ألححتُ على سارتر كي يُضفي أبعاداً روائيّة على بيانه الفلسفي وعلى شخصيّته روكنتان Roquentin، كي يُدخل على كتابته القليل من *التّشويق* الذي يُعجبنا في القصص البوليسيّة. وافق. أعرف نواياه جيّداً، ويمكنني أفضل منه أن أتقمّص شخصيّة قارئ كي أحكم إن كان قد أصاب أم أخطأ، وكان دائماً يتّبع نصائحي. كنتُ أنقده بصرامة معقولة وعاتبتُه على استخدامه المفرط للمصادر المُشتقّة والمقارنات. مع ذلك كنتُ متأكّدة أن تسديدته هذه ستكون مُوفّقة؛ ألّف الكتاب الذي طالما اضطرب في البحث عنه ونجح.

لمّا كانت إقامتي في باريس قصيرة في كلِّ مرّة، فلم أكن أرى سوى سارتر وأختي؛ كان سيسُرّني لقاء الأصدقاء لو كان لديّ متّسع من الوقت. كان نيزان يُدرّس في بورغ. حفّز في الجرائد المحلّية على تحرّكات عنيفة بتأسيسه رابطة العاطلين عن العمل نسبها إلى الكنفدراليّة العامّة للشغّالين الوحدويّين؛ احتقنت اللجنة البلديّة لأنّه أطلق عليها اسم «عُصبة الأمّيين الاجتماعيّين»، فرفعوا أمره للمتفقّد العام للأكاديميّة الذي وضعه أمام اختياريْن، إمّا أن يواصل مهنة الأستاذ أو أن يلعب دور المُحرّض السّياسي. لم ينقطع عن عقد الاجتماعات ورشّح نفسه في الانتخابات؛ رافقته ريرات على امتداد حملته، لابسة قُفّازَيْن حمراويْن: لم يجمع سوى ثمانين صوتاً! كان پانييز أستاذاً في ريمس Reims؛ كان يحمل للسيّدة لومار صناديق من الشمبانيا وأفرغنا بصحبته أكثر من قارورة؛ كان يُقضّي أغلب أوقاته في باريس مثل سارتر. كانت كامبي تتقدّم بثقة نحو المجد: بل اعتقدتُ أنّها وصلت إليه.

كان دولان يُنظّم جملة من العروض للتّعريف بالكُتّاب في تلك الفترة وسجّل ضمن برنامجه عمل كامبي: *الظّلّ*. تجري الحبكة في القرون الوسطى، بتولوز. امرأة جميلة للغاية، استثنائيّة من جميع النّواحي، كانت مُتزوّجة بصيدلي لا تُحبّه طبعاً؛ لم تُحبّ قط. ذات يوم، تعرّفت على رجل وقور، غاستون فيبوس، واكتشف كلاهما أنّ لديهما نفس الوجه، أنّهما يُفكّران في الارتباط، لتقاطعهما عند عديد من النّقاط. أُغرمت المرأة الشابة بهذا التّوأم. لكنّ الظّروف حالت دون اكتمال هذا الحبّ الرائع؛ كي تقاوم هذا الحرمان، سمّمت البطلة حبيبها وماتت بجانبه. تلعب كامبي دور الصيدليّة الجميلة. أخذتني إلى البروفة؛ اكتفى دولان بالاهتمام بتفاصيل الإخراج، لكنّ كامبي لم تبدُ أقلّ هيبَة، وهي تجوب الأستوديو؛ أزعجني الموضوع النّرجسي في مسرحيّتها، لكنّ دولان قرّر أنّها جديرة بأن يُقدّمها إلى الجمهور، ستُجسّد كامبي بنفسها الشّخصيّة الرّئيسة: نجحت! مساء العرض الافتتاحي كنتُ في مرساي، وسارتر في هافر. حضرت السيّدة لومار وپانييز. كان الدّيكور والملابس جيّدَيْن. كان الحبيبان يحملان نفس ملابس المُخمل الأزرق الملكي ويعتمران قبّعتين بُنّيتين مُتشابهتين. تألّقت كامبي وهي تُدافع عن دورها باقتناع يفرض الاحترام والتعاطف؛ غير أنّها حين تدحرجت على

الأرض صارخة: «أردتُ أن أعضّ لحم الحياة اللّمفاوي بملء أسناني!» انفجر الجمهور ضاحكاً؛ أخيراً نزل السّتار في قلب الهستيريا. أسرعت السيّدة دولان في الكواليس قائلة: «شرف الورشة في الوحل!» وحده، أنطونين أرتو صافح كامي بحرارة متحدّثاً عن عمل عملاق. في اليوم بعد الموالي مرّ سارتر بشارع غابريال؛ كان جرس الباب مقطوعاً؛ لا أحد يُجيب. عاد إلى بيت كامي لاحقاً بعد ثلاثة أيّام، وهذه المرّة فتحت؛ كانت أرضيّة غرفتها مُغطّاة بقصاصات الجرائد: «سأريهم هؤلاء الحمقى!»، قالت كامي بصوت شرس. أمضت يوميْن وثلاث ليالٍ تستغيث بالشّيطان وتركل الأثاث متضرّعة كي يمنحها فرصة للثّأر.

لم يكن لديَّ مفهوم واضح حول النّجاح، وكنتُ مُعجبة بشغف كامي بعملها، كما حدّثني سارتر. مع ذلك لم يبدُ لي فشلها مُفيداً؛ أعاتب عجزها عن الاستماع إلى النّقد. كنتُ وأنا أفكّر فيها بين أمرَيْن: الدّهشة ونفاد الصّبر.

كنتُ متعطّشة لرؤية البلدان، حتّى إنّي أخذتُ معي سارتر في رحلة إلى بروتانْي خلال عيد الفصح. كانت تُمطر؛ انتصب جبل سان-ميشال وحيداً بين لون السّماء الرّمادي ولون البحر الرّمادي. في رواية جنّية *الإضرابات* لپول فيڤال، قرأتُ مشهداً يصف سباقاً بين المدّ وحصان يركض؛ ظلّت كلمة *الإضرابات* الجميلة مرسومة في مُخيّلتي وقلبي. بدت انسيابيّتها الباهتة غامضة في نظري. أحبّ سانت-مالو، طرقاتها الريفيّة حيثُ وشوشة البحر أيقظت القراصنة قديماً. أمواج كقهوة الحليب، تضرب جزيرة لوغران-بي Le Grand Bé، كان ذاك جميلاً؛ لكن بدا لنا قبر شاتوبريان مُفَخّما في حفرته البسيطة التي بال عليها سارتر ليُعبّر عن كرهه له. يُعجبنا مورلي Morlaix، وخصوصاً لوكرانون Locranon، وساحته الغرانيت، النّزل المليء بالخردة حيثُ أكلنا الفطائر وشربنا عصير التفّاح. مع ذلك، خيّبت الحقيقة آمالي مرّة أخرى؛ لاحقاً أحببتُ لابروتانيْ؛ لكن في تلك السّنة كان النّقلُ مُزرياً، بسبب الأمطار الغزيرة. كي نرى الجزيرة، فرضتُ على سارتر أربعين كيلومتراً من المشي بمحاذاة تلّ «سان-ميشال داري»، تسلّقناها: وجدتُها ضئيلة (بعد

عشرين سنة، صعدناها بالسيّارة، يلاحقنا إعصار عنيف، تحت سماء بائسة، وأذهلتنا بجمالها البرّي ورحابتها.) أمطرت في بريست، حيثُ أوغلنا في «الأحياء السيّئة» رغم تحذيرات مالك الفندق؛ أمطرت في كاماري. أصابنا الحماس والدّوار ونحنُ نقوم باللفّ حول قمّة راز Raz وقضّينا يوماً مُشمساً في دوارنينيز Douarnenez، وسط رائحة السّردين. رأيتُ نزراً من الصيّادين بسراويلهم الورديّة، جالسين على الدّرابزين، أعلى الرّصيف؛ زوارق خفيفة، مُلوّنة بمرح، مُجهّزة لاصطياد جراد البحر الوردي بعيداً في عمق البحر. في النهاية طردنا الطّقس الرّديء من كامپر Quimper وعُدنا إلى باريس، يوميْن قبل الموعد المُحدّد: كان خارقاً للعادة أن أنتقص من مُخطّطي؛ هزمتني الأمطار. إنّه خلال تلك الرّحلة أن وقع اسمٌ غريب تحت أعيننا. جئنا لرؤيته دون فائدة، إنّها أجراس الكنيسة المثقوبة بسانت-پول-دي-ليون وجلسنا في الرّيف المُجاور. كان سارتر يتصفّح عدداً من المجلّة الفرنسيّة الجديدة La N.R.F. قرأ لي ضاحكاً جملة تتحدّث عن أكبر روائيّي القرن الثّلاثة: پروست، جويس، كافكا. كافكا؟ يجعلني هذا الاسم الباروكي أبتسم أنا أيضاً: إن كان كافكا أحد أكبر روائيّي القرن، لم نكن لنجهل ذلك...

تابعنا التّنقيب في كلّ ما يظهر؛ كانت سنة هزيلة أدبيّاً. في المقابل وجدنا ما يُشبع نهمنا في السّينما. كنّا في ذلك الوقت قد قرّرنا الاهتمام بالأدب المنطوق؛ *دوبلين*، فقط أثار حفيظتنا؛ أيّدنا ميشال دوران حين دعا الجمهور جهاراً إلى مقاطعة الأفلام المُستنسَخة. لكن تقريباً لم يكن ذلك ذا أهمّية، بما أنّ السّينما الكبيرة كانت تعرض أمامنا النّسخ الأصليّة. لا شيء يحول بيننا وبين تذوّق النّوع الجديد الآتي من أمريكا: الهزلي. آخر ما أنجز بوستر كيتون وهارولد لويد، أوّل أعمال إيدي كانتور، كانت، بسحر خاصّ، امتداداً للعادات الكوميديّة القديمة؛ لكنّ أفلاماً مثل *لو كنتُ أملك مليوناً*، *سيقان المليون دولار*، الذي أحالنا على وليام كلود فيلدز، كان يُمثّل تحدّياً للعقل أكثر صرامة من كوميديا ماك سونيت، وبأكثر قسوة. كان نجاحاً يُحسب للإخوة ماركس: ما من مُهرّج من قبل فكّك الواقع والمنطق كما فعلوا؛ وجّه لهم أنطونين أرتو نقداً لاذعاً في المجلة الفرنسيّة الجديدة: قال إنّ خبلهم قد بلغ معهم إلى قاع الهذيان المُنحطّ. أحببتُ الأعمال حيثُ قتل السرياليون الرّسم والأدب؛ استمتعتُ

بقتل السّينما، من قِبَل الإخوة ماركس. لم يُحطّموا فقط الرّوتين الاجتماعي بجنون، التّفكير المُنظّم، واللغة فحسب، بل معنى الأشياء ذاته أيضاً، ومن هذا المُنطلق أعادوا بناءه: برهنوا باقتدار، وهم يقضمون الأواني الخزفيّة بشراهة، أنّ الصّحن لا يُختَصَرُ في كونه وعاءً. كان هذا النّوعُ من الاعتراض يُعجِبُ سارتر، الذي كان، في شوارع هاڤر، يرى بعيْنَيْ أنطوان روكتان التحوّلات المُقلقة التي طرأت على حمّالة بنطلون وعلى مقعد بتراموای. تقويض وشعر: البرنامج الجميل! مُجرّداً من طقمه البشري، اكتشف العالم فوضاه العارمة.

ثمّة أقلّ ضراوة وامتداداً في التشوّهات والفنتازيا التي تُقدّمها الرّسوم المتحرّكة، التي بدأت تحتلّ حيّزاً أكبر من حيثُ الانتشار؛ بعد ميكي ماوس، ظهرت اللّذيذة بيتي بوپ التي بدا سحرها طاغياً في عيون المُحكّمين بنيويورك فأعدموها؛ وجدنا مواساة فيما يرويه لنا فليشر، من إنجازات پوپي البحّار الباهرة (عُرض في باريس في تلك السّنة أيضاً *الدكتور جيكيل* لروبن ماموليان، وفرتز لانغ، *لنا الحرية*، *أوبرا الأربعة سنتات*.)

خلال تلك السّنة، أيضاً، لم نهتمّ كثيراً بما يحدث في العالم. كان من بين الحوادث الكبيرة، اختطاف الرّضيع ابن لندبرغ، انتحار كروغر، إيقاف السيّدة هانو، كارثة جورج فيليپار: لم نهتمّ. وحدها محاكمة غورغولوف هزّتنا، لأسباب سأعود إليها. كان لدينا تعاطف مع الشقّ الشّيوعي؛ خلال انتخابات ماي، فقدوا ثلاث مائة صوت؛ لم يُصوّت سارتر: لا شيء يمكن أن يُبعدنا عن حيادنا السياسي. آل الفوز لصفوف اليسار، أي للمسالمين: حتّى الاشتراكيّون الراديكاليّون كانوا يعملون على نزع السّلاح والتصالح مع ألمانيا. أدان اليمين بشدّة النطاق الذي ما انفكّ يحتلّه الهتلريّون: بدا لنا واضحاً أنّهم يمنحون أنفسهم أهمّية بما أنّ هيدنبرغ قد فاز على هتلر كرئيس للرايخ، وتمّ اختيار ڤون پاپن مُستشاراً. لاح المُستقبل هادئاً.

تحرّر سارتر من مناهج الباكالوريا وجاء إلى مرساي حيثُ استقرّ خمسة عشر يوماً؛ كان دوري في أن أجعله يستفيد من تجربتي؛ لمّا لاحظتُ أنّه أحبّ الأماكن التي أحببتُها – مطاعم الميناء القديم، مقاهي كانبيير، قصر إيف، إيكس، كاسيس، مارتيغ – فقد أحسستُ بسعادة مماثلة لاكتشافي إيّاها أوّل

مرّة. عرفتُ أنّه قد تمّ تعييني في رووان Rouen، استعددنا للذّهاب إلى إسبانيا، وأرسلوني إلى نيس لأجرِيَ اختبارات تلاميذ الباكالوريا. تلألأتُ.

في نيس، وجدتُ غرفة فسيحة في ساحة ماسينا Massena، مُجهّزة بشُرفة كبيرة ولا تُساوي سوى عشرة فرنكات في اليوم: أعلّق أهمّية كبيرة على هذه الهبات، لأنّ سفري إلى باريس ورحلاتي كانت تضعني على مشارف الإفلاس آخر الشّهر. كانت مالكة الغرفة خمسينيّة أنيقة في كامل زينتها، مُغطّاة بالحرير والجواهر وتُقضي ليلها في الكازينو؛ كانت تزعم أنّها تحقّق أرباحاً بفضل أنظمة متقدّمة وبارعة؛ بدا لي أنّها تروي مغامرة حقيقيّة. كانت توقظني قبل أن تخلد إلى النوم، كلَّ صباحٍ عند السادسة تماماً. أسرع نحو محطّة الحافلات، أذهب إمّا إلى الشّاطئ أو الجبل، لأمشي؛ كانت المناظر أقلّ خصوصيّة لكن أكثر جمالاً من ضواحي مرساي؛ رأيتُ موناكو، منتون، لا توربي؛ وجدتُ في سان ريمو مذاق إيطاليا بشكل مُبكّر. أعود مساءً عند السّابعة، أجلس في مقهى؛ كنتُ أصلح جبلاً من الاختبارات وأنا أتناول عشائي المُتمثّل في سندوتش، ثمّ أرتمي في فراشي.

لم أغادر نيس أثناء الاختبارات الشّفويّة، لكنّي تسلّيتُ كثيراً. يدخل المُترشّحون – وكنتُ أقلّدهم – قاعة الامتحان مُعتمرين قبّعات قشّ كبيرة، لكن بسواعد مكشوفة، وأقدام عارية داخل الصّنادل؛ كان الأولاد يبرزون عضلات مفتولة برونزيّة، كما لو كانوا قادمين للتوّ من اختبارات رياضة؛ لا أحد يبدو مُصدّقا أنّها مسألة جادّة. مؤكّد أنّي كنتُ أشعر بالخجل؛ ذات يوم، قلب أحد الصّحافيّين المحلّيين أدوارنا وهو يراني جالسة أمام نزر من الشبّان الشّجعان من ذوي الأعمار المُتقدّمة: ظنّ المُمتَحِن هو المُمتَحَن. مساءً أجوب المقاهي، وملاهي الشّاطئ الصّغيرة؛ كنتُ أتيح لمجهولين فرصة الجلوس إلى طاولتي والتحدّث معي؛ لا أحد ولا شيء في مُستطاعه التحرّش بي ما دُمتُ مأخوذة بالعذوبة، والنّور وأمواج اللّيل. كنتُ أقطعُ مرساي في المساء الذي سبق توزيع الجوائز ، ووقّعتُ في سجلّ الحضور: أعفوني من الحضور إلى الحفلة. رجتني السيّدة تورملان كي أؤجّل رحيلي يوماً أو اثنين، لكنّي لم أصغِ إليها. أمضى سارتر أسبوعاً مع عائلته، وكان عليّ اللّحاق به في

ناربون؛ شحنتُ حقيبتي، واتّخذتُ الطّريق بحقيبة ظهر مُنتعلة حذاءً رياضيّاً. قمتُ بنزهات منفردة وطويلة، لكن أبداً رحلة كاملة: كم كان مُمتعاً أن أجهل صباحاً أين سأنام في المساء! لم يهدأ فضولي، بالعكس: الآن وقد عرفتُ بوّابة كنيسة آرل، كان عليَّ أن أقارن بينها وبين كنيسة سانت-جيل؛ كنتُ رقيقة الإحساس إزاء التفاصيل الهندسيّة التي فاتتني معرفتها فيما مضى؛ كلّما أصبح العالم أكثر ثراءً، تضاعفت مهمّتي في اكتشافه. توقّفتُ على حافّة بحيرة تو Thau، في ماغلون، تجوّلتُ في سيت Sète وفي «مقبرة البحّار»؛ رأيتُ سان-غيلهام-الصّحراء، مونپوليي، مينارڤ، حطاماً، أراضي جرفتها المياه قديماً، ممرّات، نزلتُ في «مغارة الآنسات». ركبتُ القطارات والحافلات ومشيتُ. لخّصتُ سنتي التي مضت، وأنا أتجاوز الأراضي البنفسجيّة في هيرولت، وفي الدّروب الصّغيرة والطّرقات الكبيرة. لم أقرأ كثيراً، روايتي لم تكن تساوي شيئاً؛ لكنّي مارستُ مهنتي دون سأم، وشحذتُ نفسي بهمّة جديدة؛ خرجتُ منتصرة من الاختبار الذي خضتُه: الغياب، الوحدة لم تؤثّر في سعادتي. بدا لي أنّ في وسعي التّعويل على نفسي.

عرض علينا پانييز والسيّدة لومار زيارة جنوب إسبانيا على متن السيّارة. في انتظار ذلك، قمنا بجولة في باليارِس، ثمّ في المغرب الإسبانيّة؛ اكتشفتُ في تتوان جلبة الأسواق المغربيّة، ظلالها، أضواءها، ألوانها الحارّة، رائحة الجلد والبهارات، ورنين النّحاس. كنّا نعتبر الحِرَف الشّكل النموذجي للنّشاط البشري، هكذا كرّسنا أنفسنا دون حدود لهذا العمل الشيّق. لفت انتباهي جمود الباعة الطّويل واقفين بجانب بضائعهم. «فيمَ يُفكّرون؟ تساءلتُ – في لا شيء، قال لي سارتر؛ حين لا يكون لدينا ما نفكّر لأجله فإنّنا لا نفكّر.» لقد ركّز العدم في داخلهم، كانوا في أفضل الأحوال يحلمون: يُزعجني قليلاً ذلك الصّبر النباتي. لكنّي أحبّ مراقبة الأيدي الحاذقة السّريعة تخيط النّعال وتعقد خيوط السجّاد. في غسووين Xauen، رأيتُ للمرّة الأولى الغار الوردي ينمو في قاع سيل متدفّق؛ غسّالات، ترتدين العمامة والفساتين المُبرقشة، بوجوه مكشوفة، تضربن الملابس بالهراوات.

صعدنا نحو إشبيلية. عندما وصل پانييز والسيّدة لومار، ليلاً، إلى ردهة

نزل سيمون حيث كنّا في انتظارهما، احتضنّا بعضنا بعضاً. كانت ترتدي فستاناً أخضر، وقبّعة متناسقة معه، لم تبدُ لي أكثر شباباً من تلك المرّة؛ كان پانيِيز يُوزّع أجمل ابتساماته: أحسسنا أنّ في وسعه صنع البهجة بكلّ ما يقع بين يديْه.

إضافة إلى سحرها المُدَوّي، الذي كان كافياً لإثارة إعجابنا، منحتنا إشبيلية غداة وصولنا متعة وقوع انقلاب دولة. كانت هناك جلبة تحت نوافذنا؛ رأينا سيّارات وعساكر يمرّون. كانت السيّدة لومار تتكلّم الإسبانيّة وأخبرتها عاملة الغرف بما يجري: الرّجل الجالس بين جُنديَّيْن في السيّارة السّوداء، كان رئيس بلديّة إشبيلية؛ أرسل الجنرال سانجورجو Sanjurjo[11] لإيقافه؛ عند الفجر، كانت الفرق قد احتلّت الأماكن الإستراتيجيّة. في مكتب الفندق كان الحديث جارياً عن مؤامرة واسعة النّطاق لإسقاط الجمهوريّة. كانت فراشة مُلصَقة قريباً من المدخل، تدعو الأهالي للهدوء: لقد أُنذِرَ المُشاغبون، قال سانجورجو. كان هناك عدد كبير من الجنود في الشّارع؛ على الرّصيف نُشرت البنادق في صفّ واحد؛ لكنّ كلَّ شيء كان رائقاً؛ كانت المتاحف والمقاهي تستقبل السيّاح بشكل عادي. قيل لنا صبيحة اليوم الموالي أنّ الجنرال سانجورجو قد أخلى المكان خلال اللّيل: عوّل على دعم مدريد فخذلته. حشد كبير من النّاس راحوا يركضون في الشّوارع مُنشدين وصارخين. تبعناهم؛ في شارع سيارِيس، مُحتمين بواقيات المطاعم، رأينا بعض الدّوائر الأرستقراطيّة تشتعل. هتف النّاس في أعوان المطافئ الذين لم يكونوا متعجّلين على أيّ حال: «لا تُطفئوا! – لا تخافوا! قال أعوان المطافئ، لسنا متعجّلين.» انشغلوا بإعداد الخراطيم في انتظار أن تأتي النّيران على الأثاث. فجأة عمّت الفوضى دون أن نفهم ما يحصل؛ هرب الجميع، متدافعين بعنف. «هذا حمق»، قالت السيّدة لومار؛ توقّفت ودعت النّاس لبرودة الدم؛ أخذها پانيِيز وركضنا مع البقيّة. بعد الظّهر صعدنا إلى جيرالدا؛ ركض الحشد يتبعهم طلق ناري، ومن جديد تشتّت المتظاهرون في كلّ الاتّجاهات. سُررنا بهذا الحراك. توقّف في اليوم التالي؛ لكنّ شيئاً ما ظلّ يحوم في هواء إشبيلية. دخلتُ مكتب بريد بصحبة السيّدة لومار؛ نظروا إليّ بتعجّب؛ بصق رجل على الأرض متمتماً: «لا

11- سانجورجو Sanjurjo: جوزي سانجورجو قائد عسكري إسباني (1872– 1936).

نريد هؤلاء هنا!» اندهشتُ. بعد ذلك، ذهبنا إلى محلّ كوك لنعرف الأخبار، وهناك أيضاً سمعنا الوشوشة. بأدب أشار عامل إلى منديل رأس: مربّع بخلفيّة حمراء، مُزيّنة بالحبر الأصفر يوحي بزهور السّوسن: «هل ترتدين هذه الألوان عن قصد؟» سألني. حين لاحظ اندهاشي استدرك: كانت هذه ألوان الدّكتاتوريّين؛ أسرعتُ بانتزاع الهيئة المشبوهة. بعد الظّهر تنزّهنا دون قصص في ضواحي تريانا. مساءً خرجتُ مع سارتر بالقرب من ألاميدا، وقصدنا علبة ليليّة شعبيّة حيثُ نساء بدينات يرقصن على إيقاع التام تام؛ كان الأطفال في الشّوارع يبيعون زهور النردين Nard التي كانت النّساء ترشقنها في شعورهنّ: تحنّط اللّيل.

لم أتخيّل ببراءتي، أنّ رحلة تجمع أربعة أصدقاء يؤلّف التفاهم بينهم، قادرة على أن تكون أمراً بالغ الحساسيّة. كنّا متّفقين حول أشياء عديدة. كنّا جميعاً نكره البورجوازيّين الإسبان والكهنة المُداهنين؛ في مؤسّسة بسيطة كصورة عن إيپينال Epinal[12]، كنّا نبدي تعاطفنا مع الضّعفاء ضدّ ضخام الجثّة. مع ذلك كان هناك فرق كبير بين پانييز وسارتر؛ كان پانييز متذبذباً أمّا سارتر فكان حاسماً. في كاديكس، رفض إضاعة الوقت في مشاهدة لوحات موريلو Murillo، التي كانت تزيّن عدداً من الكنائس. وافقت السيّدة لومار من باب اللياقة. جعلنا پانييز نقوم بجولة حول الأسوار بغضب مكتوم. فجأة توقّف أمام أحد المتاحف وقال إنّ موريلو يهمّه. رافقته السيّدة لومار، فيما بقيت مع سارتر نراقب البحر. ظلّ پانييز مُحتقناً حتّى المساء.

في غرناطة، لبثنا أربعة أيّام في فندق الحمراء: تصرّف كلّ منّا في وقته حسب مشيئته ما جنّبنا الخلافات. لكنّ الاختلافات تعمّقت حيثُ لم يعد پانييز والسيّدة لومار ينزلان إلى المدينة إلّا لرؤية الكاتدرائيّة. كنتُ أنا وسارتر نهتمّ بالحاضر أكثر من اهتمامنا بالماضي. تجوّلنا ساعات في قصر الحمراء؛ لكنّنا أيضاً قضّينا يوماً حارّا ومُغبرّا في الشّوارع، في السّاحة التي يعيش فيها إسبان اليوم. بدت روندا لسارتر بلدة ميّتة، ودون جمال حقيقي؛ كانت البيوت أنيقة لكن بشكل رديء، وأصابته المكتبات والمباني والباحات بالملل. «كلّ

12- إيپينال Epinal: مُقاطَعَة واقعة شرق فرنسا.

هذه بيوت أرستقراطيّين دون قيمة، أعلن. - أمر بديهي ألّا تكون بيوت بروليتاريا!» قال پانييز مازحاً.

بدأت تُضايقه مواقف سارتر التي اعتبرها متطرّفة؛ وقبلها على مضض ما دامت لم تتعدّ الاندفاع اللّغوي؛ لكن حين يُحفّزان معاً أحاسيس سارتر، أفكاره، مبادئه، فإنّهما في الواقع يحفران خندقاً بين رفيقيْن. كان پانييز يجنح إلى الاستهزاء والمزاح وهو يعلن أفكاره لعلمه أنّ سارتر في إمكانه تكذيبها بسهولة؛ كان يُسافر كبورجوازي مُترَف ولم يكن يشكُ ذلك؛ أيّ حقيقة تنطوي عليها نظرته لطبقة لا ينتمي إليها؟ كان پانييز منسجماً مع مبادئه، فقد كان منضوياً تحت البورجوازيّة اللّيبراليّة؛ فيما لم يجد سارتر وسيلة يُجسّد بها عن تعاطفه مع الكادحين؛ كان إذاً، موقفه هو الأضعف. لم يحبّ پانييز أن يعارض يسار سارتر قناعاته البورجوازيّة والمسيحيّة. من جهته قدّم أمام سارتر صورة الإنساني المُثقّف الذي يرفض الأخير أن يكونه والذي لن يتعرّف على نفسه فيه. اكتشف كلاهما الصّورة التي تبعث على القلق. هذه الفرقة التي لا تزال في المهد، بدأت تكشف عن أهمّيتها وكانت دون شكّ سبب خصوماتهما الدّائمة.

كان من الواضح يوماً بعد آخر، أنّ علاقتنا كانت تُزعج پانييز؛ لم يسبق أن سافر مع السيّدة لومار في رحلة طويلة بهذا الشّكل وكان يُفضّل لو أنّهما كانا منفردَيْن. كان هو من يقود: كان مُتعباً في المساء، بالنّظر إلى الحرارة وحالة الطّرقات؛ كان عليه أيضاً العناية بالسيّارة، والذّهاب إلى ورشة الصّيانة؛ عاتبنا لاحقاً لكوننا لم نقتسم معه المتاعب، وأعتقد فعلاً، أنّنا جعلنا من عدم درايتنا ذريعة تهرّب. غاص في الكآبة تدريجيّاً. فيما أطلق سارتر العنان لغضبه. «أنتَ تُشبه مُهندساً»، حين يتجهّم وجهه. كان يبتسم تحت تأثير الشّتيمة، لكن ليس دائماً. في كوردو Cordoue، وسط حرارة بلغت 42، كان الرّفيقان على وشك القطيعة.

مع ذلك عشنا أوقاتاً سعيدة جدّاً. أحببنا معاً من القلب البلدات الأندلسيّة البيضاء، السّنديان العاري حتّى الجذع، الشّواطئ المباغتة، نزول الغسق على جبال سييرّا Sierra. رغم جمال المنظر الذي يلفّنا، بعيداً في الضفّة الأخرى، من الجانب الإفريقي، أحسسنا بكآبة تاريفا Tarifa؛ تناولنا هناك سمكاً مقليّاً

في زيت رهيب وحدّثنا طفل في الثانية عشرة من عمره. «أنتم محظوظون، قال بنبرة تذيب القلوب، أنتم تسافرون: أنا، لن أغادر هذا المكان.» فكّرنا أنّه بالفعل سيشيخ في هذا المكان المعزول من الأرض، دون أن يحدث شيء في حياته. بعد أربع سنوات ستحصل أشياء بالتّأكيد: لكن ما هي؟

لدى عودتنا، فيما اتّجه أصدقاؤنا إلى باريس، توقّفنا في تولوز. خلال يومَيْن، أطلعتنا كامي على المدينة التي لا يعرفها سارتر جيّداً، والتي لم أزرها من قبل؛ كانت تعرف كمّاً من الحكايات على كلّ حجر، وكانت ترويها جيّداً. كانت مُستعدّة بالمناسبة لتنسى أساطيرها وشخصيّتها كي تهتمّ بالعالم كما هو: بدا الواقعي ملائماً لها؛ في مطعم بالهواء الطّلق، تناولنا العشاء، وتسلّينا معها كثيراً، تحدّثنا عن البورجوازيّة في تولوز، بيوت التّواعد، الزّبائن، «الهاوي المُستنير» وعن عائلتها. تساءلنا كيف أمكنها أن تُضيّع وقتها في كتابة *الظلّ*. ربّما حالفها الحظّ في روايتها التي شرعت في كتابتها والتي سمّتها *اللبلاب*. المُستلهمة من تجربتها خلال فترة الشّباب؛ كانت تكتبها كلّ ليلة من منتصف اللّيل إلى السّادسة صباحاً، قالت لنا. «هكذا يجدر بنا أن نعمل؛ ست ساعات في اليوم!» قال سارتر الذي تأسّف تلك السّنة لأنّه لم يتقدّم كثيراً في كتابه. لم تعد كامي تبعث فيّ الغيرة ولا الرّغبة: المنافسة فحسب. وعدتُ بأن أقلّد عزيمتها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 3

قبل الالتحاق بمراكزنا، كان لنا حوارٌ قيّم للغاية بيني وبين سارتر وأحد الأصدقاء الذين لم يسبق أن تحدّثتُ معهم. كان اسمُه ماروكو؛ تعرّف عليه سارتر في الحيّ الجامعي عندما كان يستعدّ لاجتياز شهادة التّبريز في الأدب؛ وُلد في بون Bône، وكان وسيماً جدّاً: أسمر، ذا عيْنَيْن مُتّقدتين، وكان وجهه يوحي في الآن نفسه بالتماثيل الإغريقيّة وبلوحات غريكو. اللافت حقّاً في هذا الشابّ هو صوته الذي يستخدمه بتدفق ومغالاة؛ كان يأخذ دروساً عند أفضل الأساتذة ولا يشكّ في أنّه سيضاهي يوماً شاليابين Chaliapine[13]. من علياء مجده القادم كره رداءة وضعه، وكلّ ما يرتبط به: سارتر، پانييز، أنا نفسي. كنّا في نظره نماذج عن الفرنسيّين الأصليّين وأنّ مجرّد النّظر إلينا كان كافياً لينفجر ضاحكاً. مع ذلك حرص على الحفاظ على علاقة جيّدة بأصدقائه؛ عدّد الاهتمامات، المحاذير، مجالات الإطراء؛ لم ننسق إلى لعبته لكن تعاملنا معه بطيبة. كان يُسلّينا حبّه للحبك والفضيحة والوقائع الغريبة. كان يُبدي تعنّتاً إزاء العادات. جمعته علاقة بشابّة من طلبة دار المُعلّمين العليا، لكن سرعان ما ركّز بينه وبينها علاقات أخوّة. حسب رأيه، فإنّ تجارة الجنس تُعتم على الذّكاء والحساسيّة: كان يدّعي معرفة إن كان أحد أصدقائه قد حاد عن العفّة أم لا، بنظرة واحدة. كان يجرّ وراءه قافلة من المعجبين في الحيّ. أحدهم دخل غرفته ليلاً، وحطّم ماركو مصباحاً على رأسه؛ تلك الحكاية التي طالما ضايقته

13- شاليابين Chaliapine: (1873–1938) من أشهر فناني الأوبرا الروس في العالم في القرن العشرين شارك بعروض الأوبرا في مسارح روسيا، وباريس وبرلين ولندن ونيويورك.

كثيراً، بدت لسارتر وپانييز مريبة. لم يكن يخفِ تجاهله ولا مبالاته بالنّساء؛ حين كان يتحدّث بـ «حماس» عن «كائن رائع»، فالمقصود دائماً شاب وسيم؛ لكنّه يؤكّد أنّ علاقاته مع أصدقائه المنتقين بعناية لا تعدو أن تكون علاقات أفلاطونيّة، وكان الجميعُ يتظاهر بتصديقه.

في تلك الظّهيرة، كنّا جالسين في شرفة مقهى مروج اللّيلك. مسح ماروكو ببصره الزّبائن في المقهى والمارّة، قبل أن يرمقنا بغضب: «جميعُ هؤلاء البورجوازيّين السّفلة! كيف يمكنهم الاكتفاء بهذه الحياة!» كان الطّقسُ جميلاً، وكان الخريف يضوع بروائحَ لطيفة، كنّا سعداء بالتّأكيد. «يوماً ما، قال، ستكون لي سيّارة ضخمة، بيضاء بالكامل؛ سأتعمّد سحق الرّصيف وقتل كلّ من فيه.» همّ سارتر بأن يشرح له لا جدوى هذا النوع من المتعة فانفجر ماركو ضاحكاً: «اعذُرني... حين أفكّر في عنف نزواتي وأسمع تحليلكم... لا أستطيع منع نفسي من الضّحك!» أضحكنا أيضاً. كرّر سارتر أنّه لا يرغب في أن تكون له حياة تينيسون Tennyson؛ نعرف أنّ أشياء ستحدث لنا: لكن ليس نوع الأشياء التي تُشترى بالأموال والجلبة. لم يَخْبُ الألق الذي يبعثه في داخلنا كبار هذا العالم. تمنّينا أن نكون ميسورين أكثر مما نحنُ عليه الآن وأن نحظى بالتعيين في باريس في أقرب وقت ممكن. لكنّ طموحنا كان شيئاً آخر تماماً؛ لم نكن نراهن على الثّروة، لكن على أنفسنا، كي نحقّقها.

اتّجهنا إلى الرّيف، إذاً بمزاج جيّد. كان سارتر يحبّ هاڤر قليلاً. أنا لم أكن في وضع يسمح لي بأن أحلم بمركز أفضل من رووان، على بعد ساعة من هاڤر، وعلى بعد ساعة ونصف عن باريس. حرصتُ أوّلاً على الحصول على اشتراك تنقّل بالقطار. درّستُ هناك أربع سنوات. كان قلب المدينة بالنّسبة إليَّ هو المحطّة. كان المعهد قريباً منها. عندما ذهبتُ لرؤية المُديرة، استقبلتني بحفاوة وأعطتني عنوان امرأة عجوز نصحتني بتأجير غرفة لديها. رننتُ جرسَ فندق جميل وأرشدتني عاملة غرف إلى غرفة مؤثّثة بعناية فائقة، حيثُ نافذتها تفتح على صمت حديقة كبيرة. هربتُ واستقرّ رأيي على الإقامة في نزل روشفوكولد، حيثُ كنتُ أسمع على الدّوام صافرة القطار المُطمئنة. كنتُ أشتري صحفي من ردهة المحطّة؛ في السّاحة المُحاذية كان هناك مقهى

أحمر، الحاضرة، حيثُ كنتُ أحتسي قهوتي الصّباحيّة. كان لديّ انطباع أنّي في باريس وأنّي أقطن ضاحية بعيدة.

في رووان كنتُ في حجر تام مدّة أيّام عديدة، وباستمرار، كنّا نُقضّي فيها أنا وسارتر يوم الخميس. كنتُ أسرع إذاً، للتزوّد بالنّبيذ. حدّثني نيزان بحرارة عن زميلة له التقى بها مرّة أو مرّتين: سمراء، شابّة وشيوعيّة، قال لي؛ كان اسمها كوليت أودري. تحدّثتُ معها. كان وجهها فاتناً، بعيْنين مُتّقدتين، وشعر قصير جدّاً؛ كانت تلبس بطيش ذكوري جاكيت من الجلد المدبوغ وقبّعة. كانت تسكن قريباً من المحطّة، غرفة أثّثتها هي أيضاً بأناقة: سجّاد مُزَخْرَف بضفائر جميلة على الأرضيّة، وأخرى من الألياف النّباتيّة على الجدران، مكتب مُغطّى بالأوراق، كنبة، مجموعة من الكتب، بينها مؤلّفات ماركس وروزا لكسمبرغ. كانت حواراتنا الأولى مرتبكة نوعاً ما، لكن كنّا متفقتيْن. عرّفتها بسارتر واستلطف كلاهما الآخر. لم تكن شيوعيّة؛ كانت تنتمي إلى خليّة معارضة تروتسكيّة؛ كانت تعرف إيمي پاتري، سيمون وايل، سوڤارين؛ قدّمت لي ميشال كوليني، الذي كان يُدرّس الرياضيّات في معهد الأولاد والذي كان قد أدمجه ضمن الفريق. كان حاسماً، أنا أيضاً؛ أشاد بـ«واتسون» Watson، بعلم النّفس السّلوكي، وعارضتُه بحدّة. كان يرى جاك بريڤير من بعيد لبعيد، ومرّة لمح أندريه جيد لكنّه كان متقوقعاً على نفسه ولا يروي شيئاً، عدا أنّ جيد بارع في لعبة اليو–يو فحسب: كانت لعبة رائجة، بل كان الأفضل. كان الناس يتجوّلون في الشّوارع مع ألعابهم في أيديهم. كان سارتر يمارسها منذ الصّباح حتّى المساء بهمّة غريبة.

كان زملائي في مرساي أقل إثارة للملل أكثر مما في مرساي وتجنّبتهم؛ أمّا متعة التنزّه فقد صرفتُ عنها النّظر مُسبقاً: كانت نورماندي ممطرة ومملّة وعصريّة وغير مُلهمة. لكنّ المدينة لها سحرها: أحياء قديمة، أسواق عتيقة، مرافئ حزينة. سرعان ما اكتسبتُ فيها بعض العادات. العادة هي الرّفيق تقريباً من زاوية أنّ الرّفقة ليست سوى عادة. أعمل، أصلح الاختبارات، أتناول الغداء في معمل پول للجعة، شارع الجسر الكبير. كان ممرّاً طويلاً، ذا جدران مُغطّاة بالمرايا المُزخرفة؛ المقاعد المنجّدة من فراء الحيوانات، تلقي بشعر

الحصان؛ في العمق تتسّع القاعة، حيثُ الرّجال يلعبون البلياردو والبريدج. كان الشّباب يرتدون ملابس كما في الزّمن الماضي، بالأسود، ومآزر بيضاء، وكانوا جميعاً مُسنّين جدّاً؛ كان هناك عدد قليل من الزّبائن لأنّهم يأكلون بشكل سيّئ. الصّمت، البرود في الخدمات، الضّوء الأصفر العتيق كلّها أشياء تجذبني بقوّة لهذا المكان. في مواجهة الأسى الذي يطغى على الرّيف عادة، من الجيّد أن يعتنق المرء ما نُسمّيه عن استعارة من مُصارعي الثّيران، *الركن الآمن querencia*: مكاناً نشعر فيه أنّنا في مأمن من كلّ شيء. تملأ هذه الحانة دورها باقتدار. أنا أحبّذها على غرفتي، إنّها غرفة ملائمة جدّاً لمُسافر دائم التّجوال، نظيفة وعارية، أتأقلم معها بسرعة. آتي إليها بعد انتهائي من العمل في المعهد، عند الرابعة أو الخامسة، وأكتب. للعشاء أطهو الأرزّ بالحليب أو كوب شوكولاتة؛ أقرأ قليلاً وأنام. دون شكّ، كان مارك سيجد هذه الحياة منكمشة. لكنّي كنتُ سأقول إنّه مخطئ. ذات صباح كنتُ أتأمّل من نافذتي المُطلّة على الكنيسة المقابلة، المُريدين يخرجون من الصّلاة، المُتسولين تحت الحائط، أضاءت ذهني فكرة: «ليس ثمّة وضعٌ مميّز!» كلّ المواضع متكافئة، بما أنّها حقيقيّة. كانت فكرة متسرّعة؛ لحسن الحظّ أنّي لا أرتكب خطأ استخدامها كي أبرّر مصير المُعدَمين. لم أفكّر في سوايَ وأنا أصوغ فكرتي: بدا لي بصورة مؤكّدة أنّي لم أُحرَم من أيّ فرصة. من هذه الزّاوية أظنّ أنّي مُحقّة. ألّا تكون أحداً، التسكّع عبر العالم، التجوّل داخل النّفس وخارجها دون تعليمات أو شروط، الاستمتاع بكمّ من وسائل التّرفيه، أن ينعم المرء بالوحدة التي نُسخّرها للانتباه إلى الأشياء، أن نهتمّ بأصغر تفاصيل السّماء وألوانها وإلى قلبها الخاصّ، مراوغة الملل وإبطال تأثيره: لا أتخيّل وضعاً أجمل، حين نملك جسارة الشّباب.

طبعاً، ما يُساعدني على تحمّل الانسحاب، هو أنّ سارتر يأتي باستمرار؛ أو أنّي أذهب إلى هاڤر؛ وكنّا نمضي وقتاً طويلاً في باريس. كنّا نفعل بفضل كامي، معرفتنا بدولان التي تبعث في داخلنا الأمان؛ كان يُحسن رواية القصص وكانت متعة حقيقيّة أن نستمع إليه يسرد بداياته في ليون، في باريس، أيّام *الأرنب الرّشيق Le Lapin Agile (كاباريه في باريس)*، في الزّمن الذي كان يقرأ فيه قصائد ڤيون Villon، وتجري المشاجرات الدّامية: ذات صباح، وهي تكنس

بقايا القوارير المُهشّمة، كنست عاملة التنظيف عيناً بشريّة. مع ذلك، حين كنّا نطرح عليه أسئلة عن موقفه من المسرح فإنّ دولان يناور؛ يرتسم التهرّب على وجهه ويرفع عينيه نحو السّقف بسحنة المتضايق. فهمتُ مصدر مبادئه؛ كان يدين الواقعيّة؛ كان يرفض ملء شبابيك التذاكر عمر اللُّمَع المُغرية، والبهرج السّهل الذي كان يعتبه على جورج باتاي. لكنّه لم يكن ينطلق من أيّ مبدأ مُسبقاً وهو يشتغل على مسرحيّة؛ كان يُحاول فقط خلق تناغم بين الإخراج الفنّي مع خصوصيّة المؤلّف؛ لم يكن يتعاطى مع شكسبير مثل پيراندلّو. لذلك لم يكن مناسباً أن نسأله من فراغ بل أن نراقبه يعمَل. سمح لنا بحضور بروفات *ريتشارد الثالث*، وأذهلنا. حين يقول نصّاً فإنّه يمنح انطباعاً بأنّه يخلقه من جديد. تكمن الصّعوبة في أن يقنع المُمَثّلين بالنّبرة والإيقاع والصّوت الجديد الذي أبدعه؛ لم يكن يشرح؛ كان يُطالب ويُنوّم. رويداً يتحوّل المُمثّل الذي يستغلّ موارده ببراعة إلى شخصيّة. لا يحدث هذا التحوّل دون مشقّة. وبما أنّ دولان كان يهتمّ بالمواضع، والخدع، والإضاءة ويدرس دوره الخاصّ، يحدث أن يفقد السّيطرة على أعصابه كلّياً. عندها ينفجر. بتعليق لشكسبير ودون تغيير السّياق، يطلق سلسلة من الشّتائم الشرّيرة أو الغاضبة: «أوه! هذا آخر شيء! لا فائدة من الاستمرار.» كان يلقي بكلماته الكبيرة ثمّ يسترسل في شكوى تذيب القلوب؛ يتنازل عن متابعة البروفة والبلوغ بريتشارد الثالث إلى المسرح، إلى العرض الافتتاحي. تتجمّد الحصّة وسط استياء مُفعم بالاحترام، وإن كان لا أحد يُصدّق غضب دولان المشهور الذي لم يكن هو نفسه يأخذه مأخذ الجدّ. فجأة يعود ريتشارد الثالث من جديد. كان يملك قدرة كبيرة على الإغواء، وكان من السّهل على وجهه – منخران متحرّكان، وفم منحنٍ، العينان ماكرتان – تقليد الوحشيّة. أدّى سوكولوف، بفضل جسده ولهجته، شخصيّة بوكينغهام مختلفة تماماً، لكن منحه كمّاً هائلاً من الحياة والقوّة، ما يجعله أخّاذاً. خلال تلك الحصص تعرّفتُ على الحسناء ماري إيلين داستي التي ورثت عن والدها جاك كوپو، جبهة ناعمة كبيرة وعينين صافيتين كبيرتين؛ كانت تلعب دور ليدي آن الذي لم يكن يناسبها قط. ابتكر دولان شيئاً عبقريّاً: شبكة ذات حلقة كبيرة، تشطر الرّكح نصفيْن؛ حسب الإضاءة، يمكن وضع اللّوحات في الأمام، قريباً من الجمهور، أو إعطاء انطباع بالمسافة عندما يُؤَدّى المشهد خلف الشّبكة.

بدا لي مُهمّاً ومدعاة للفخر أن أعرف بعض أسرار صنع العروض؛ غمرتني كوليت أودري بسعادة كبيرة حين دعتني إلى حضور تصوير فيلمٍ حيثُ تعمل أختها في السكريپت؛ كان عنوان الفيلم *إيتيان Etienne*، وهو مُقتبس من مسرحيّة لجاك دوڤال. كان الأستوديو ضاجّاً بالنّاس ومُسخّناً أكثر مما يجب. بدت لي جاكلين جميلة جدّاً وأنيقة؛ مع ذلك كان هناك نساء أكثر أناقة منها، من بينهن ممثّلة بدت لي رتيبة لكنّها كانت ترتدي بذلة مُخمليّة رماديّة أبهرتني. ممثّلون مجسّدون يجلسون مكتئبين في الزّوايا. صوّر جاك بومير اللّقطة الأولى من مشهد؛ يدعوه مُديره ويجب أن يقول: «أمرك، سيدّي المُدير!» مُحرّكاً لسانه بطريقة مُعيّنة. لم يكن المنفّذ راضياً عن الإضاءة والإطار: أعاد بومير العبارة ثلاث عشرة مرّة دون أن يُغيّر قسماته أو نبرته. سأحافظ طويلاً على ذكرى مُرعبة.

خيّمت علينا الكآبة قليلاً في محطّة سان-لازار عند الثّامنة، ونحنُ نصعد القطار المُؤدّي إلى رووان، وإلى هاڤر. سافرنا في الدّرجة الثّانية إذ لم يكن هناك درجة ثالثة في القطار السّريع. كان الجوّ حارّاً دائماً في الحجرات الزّرقاء المُزيّنة بالصّور الفوتوغرافيّة التي تعرض أجمل أماكن النورماندي والبروتانيْ: دير جومياج، كنيسة كودبيك، بركة كريكبوف، التي لم أنجح في رؤيتها إلّا بعد عشرين سنة. دخلنا عوالم ڤان دين الرّوائيّة، في الحكايات الدامية لويتفيلد، داشيال هاميت الذي حيّا النُّقّاد لديه ريادة «الرواية الجديدة». كانت المدينة نائمة عندما خرجتُ من المحطّة؛ أكلتُ الكرواسان في الحاضرة، التي كانت تستعدّ للإغلاق، وعدتُ إلى غرفتي.

في باريس، هاڤر، رووان، كان الموضوع الأساسي لحواراتنا هم الناس الذين عرفناهم؛ لقد شغلونا إلى حدّ أنّي لو منعتُ نفسي من الحديث عن حياتهم أكون قد صببتُ الضّجر على ما أرسمه لحياتنا من صورة: أسباب معقولة عديدة تمسك دفّة القيادة في حياتنا بصمت. لكنّ واقع هذا الاحتدام، غير المتوقّع دائماً، المُدهش عادة، لوجود الغرباء بيننا، يؤثّث أيّامنا وينقذها من الرّتابة. تُطرحُ أسئلة باستمرار. تزوّجت جيجي أحد أساتذتها القدامى في

الرّسم؛ كانت منزعجة من عائلة زوجها، المحافظة والمتديّنة؛ كانت تندلع بينها وبين زوجها مشاجرات يوميّة تقريباً؛ كانت تكنّ له ضغينة كبيرة لكنّها تراه جذّاباً: كيف كانت تجمع بين هذيْن المتناقضين؟ كانت دائماً مرتبطة بأختها، غير أنّ كلاًّ منهما نضجت بطريقتها: كان لصداقتهما تعقيداتها أيضاً. جاكلين لومار تتهيأ للخطبة: لمَ مع هذا الشاب بدل آخر من بين عُشّاقها؟ ما سبب المشاحنات التي جدّت بالأمس بين تايير والسيّدة ليستومار؟ حين نلتقي بوجوه جديدة، فنحنُ نقلّبهم على كلّ الاتّجاهات ونُحسّن من مظهرهم، نحنُ نتمّم ما رسمناه لهم. حدث لنا ذلك مع زملائنا. اهتممنا خاصّة بكوليت أودري؛ تساءلنا حول صلتها بالسّياسة، والحبّ، وأختها، ومع ذاتها. حدّثني سارتر عن أحد تلاميذه، كان ذكيّاً جدّاً وأعجبه تهكّمه العملي؛ وُجّه في البداية إلى المدرسة الاستعماريّة، فأعاده سارتر إلى الفلسفة. كان يُسمّيه ليونيل دي رولي. أبواه مُطلّقان، ويعيش في هاڤر مع أمّ تمارس الفلك والشّعوذة: كانت تُفسّر طبيعة ابنها وتبسط نفوذها على مصيره انطلاقاً من معلومات تستقيها من هذا المعدن أو ذاك. روى المراهق لسارتر تفاصيل عن طفولة صعبة. كان سارتر يدعوه بـ «تلميذي» وكان يُحبّه كثيراً.

أولي أهمّية كبيرة مثل سارتر فيما يتعلّق بالأشخاص على انفراد؛ لم أكن أقلّ تعجّلاً منه في تحليل شخصيّاتهم، وإعادة تركيبهم، وتشكيل صورهم؛ مع ذلك كنتُ أسيء تفحّصهم كما يجب: برهنت حكايتي مع السيّدة تورملان ضعفي من هذه الناحية. أفضّل الحكم عليهم على فهمهم. تعود هذه النزعة الأخلاقيّة إلى ماضٍ بعيد. حين كنتُ طفلة، كان التسامي الذي تُمارسه عائلتي يُشجّعني على التعجرف؛ لاحقاً سبّبت لي الوحدة مأزق غرور عنيفاً. كانت كلّ الظّروف تأخذني إلى منحى الصّرامة. مثل جميع فرق الأصدقاء، الجماعة الصّغيرة الأكثر تفاهماً هي التي تصدر الحكم بالجيّد والسيئ؛ ما إن دخلتُ أنا أيضاً حتّى أدنتُ الذين حادوا عن القوانين؛ كنتُ أكثر طائفيّة من سارتر وپانيز: حتّى وإن كانوا يحاكمون الناس بوحشيّة فهم يحاولون تفسيرهم. كانا يضحكان بين رفيقيْن من افتقاري إلى التحليل النفسي. لِمَ لا أحاول معالجة الأمر؟ كنتُ أيضاً أحافظ من شبابي على طعم الصّمت والغرابة؛ لامستني السّرياليّة بشكل خاصّ لأنّي وجدتُ فيها نوعاً من الحرق للطّبيعة: في مواجهة الآخر، كنتُ

أفسح المجال للأشياء كي تبهرني، أتسلّى وأنساق للتّشويق الذي تنطوي عليه المظاهر دون التعمّق فيما كانت تُخفيه. لكن، كان بمقدوري التخلّص من هذه الجماليّة المفرطة؛ إن كنتُ قد عاندتُ فمن أجل أسباب متينة: ظلّ حضور الآخر بالنّسبة إليَّ خطراً لم أقرّر بعدُ مواجهته بدقة. كان عليَّ أن أقاوم بشجاعة السّحر الذي ادّعى قدرته على تحويلي إلى وحش: لبثتُ مدافعة فحسب. سوّيتُ مسائلي مع سارتر وأنا أعلن: «نحنُ واحد.» نصّبتُ الثّنائي الواحد في قلب العالم؛ طافت حولنا شخصيّات مقيتة، ساذجة أو مُضحكة، لا تملك عيوناً قادرة على رؤيتي: كنتُ النّظرة الوحيدة. هكذا سخرتُ من الرأي: غالباً ما أزعج سارتر غياب الاحترام الإنساني لديَّ الذي كان عالياً آنذاك. اختلفنا يوما لأنّي أردتُ احتساء كأس في «فراسكاتي Frascati»، القصر الكبير في هاڤر المُفضي إلى البحر، والذي لابدّ أنّ الإطلالة منه كانت رائعة؛ لكن كان لديّ ثقب كبير في جوربي؛ رفض بقوّة. في مناسبة أخرى كنّا في باريس، ولم يكن في حوزتنا فلس واحد، ولا أحد قد يُقرضنا؛ اقترحتُ أن يحدّث مُدير نزل «بلوا Blois»، حيثُ كنّا ننزل كلّ أسبوع؛ احتَجّ: كان ذلك الرّجل يكرهه. تناقشنا أكثر من ساعة ونحن نتخطّى شارع مونبارناس. «ما دام يكرهك، ما ضرّكَ ما يعتمل في رأسه؟» أجاب سارتر إنّ الأفكار التي تُشنّ ضدّه هجوم.

يجوز أن يعيش المرء خطأ جذريّاً. كانت حواراتي تُفضي مباشرة إلى تفاهم متبادل. بسبب القيمة التي يمنحها سارتر لنقد السيّدة لومار وپانييز وبرفض تسلّطهما الشّخصي أيضاً، فإنّها تلامس أعماقي. يحدث أيضاً أن تربكني ثقة كامي بنفسها. كانت كوليت أودري تحدّثني أحياناً عن سيمون وايل ورغم أنّ الودّ لم يستقرّ بيننا بشكل كبير فإنّ حضورها يُفرَضُ عليَّ. كانت أستاذة في پوي Puy؛ يُروى أنّها تسكن في فندق بحّارة وأنّها كانت تضع مداخيلها كلّ شهر تحت تصرّف المجموعة: كان في وسع الجميع الاستفادة. اشتغلت في السّكك الحديد مع العمّال كي يتسنّى لها إدارة منظّمة للعاطلين عن العمل وتقديم مطالبهم: تسبّب لها ذلك في عداوة مع رئيس البلديّة وأولياء التلاميذ، كادت تُطرَدُ من الجامعة فيما مضى. كان ذكاؤها وتزهّدها وتطرّفها وشجاعتها، تخلّف لديَّ إعجاباً ناحيتها ولا يسعني إلّا أن أكون ممتنّة لها، لم تكن تشعر بذلك تجاهي. لم أكن قادرة على ضمّها لعالمي وأحسستُ أنّني مُهدّدة بشيء

ما غامض. كنّا نعيش على مسافة بعيدة بعضنا من بعض حتّى إنّي لا أشغل بالي بها كثيراً. كنتُ يوماً بعد يوم أزداد عجزاً عن التخلّص من حذري؛ أتجنّب التفكير في أنّ الآخر قد يكون موضوعاً ووعياً مثل حالي؛ أرفض أن أضع نفسي مكانه: لذا كنتُ أمارس السّخرية. أحالني موقفي الطّائش في أكثر من مناسبة إلى القسوة والسّوء وارتكاب الأخطاء.

لم يمنعني ذلك من أن أناقش طويلاً مع سارتر وضع هذا أو ذاك؛ بالعكس: كانوا يتلقّون من جانبنا فحصاً طوعيّاً؛ تأكّدت سيادته. كنتُ أرى بشكل ضبابي، لكن خلال الحوارات التي اجتهدنا فيها كي نفهم الناس، كنتُ أتمسّك برأيي. كان علينا توحيد جهودنا لأنّنا لم نكن نملك حتّى ذلك الوقت أدوات تسمح لنا بالشّرح. كنّا نكره البسيكولوجيا الفرنسيّة الكلاسيكيّة، ولم نكن نؤمن بالتحليل السّلوكي، ولم نكن نولي التحليل النفسي سوى قيمة محدودة. كان لي حول هذا الموضوع حوارات مع كوليت أودري. كان الشيوعيّون ينكرون جدوى التحليل النفسي؛ عرّفه پوليتز في كتابه *المجموعة* على أنّه نشاط طاقَوي، أي تنظير لا ينسجم مع الماركسيّة. على عكس التروتسكيّين ومعارضين آخرين ممّن رحّبوا به. كانت كوليت وأصدقاؤها يؤوّلون أحاسيسهم، وسلوكهم، وتصرّفاتهم الناقصة حسب خرائط فرويديّة أو ألدريّة (نسبة إلى ألدير Alder).

كتاب ألدير حول *المزاج العصبي* يقنعنا أكثر من كتب فرويد لأنّه يولي الجنس حيّزاً أضيق. لكنّنا في المقابل لا نقبل فكرة أنّ «عقدة النّقص» يمكن استخدامها جزافاً في أيّ وضع ومع أيّ فرد. نعتب على المحلّلين النفسيّين نزوعهم إلى تفكيك الإنسان بدل محاولة فهمه. تطبيقهم الآلي لـ «مفاتيحهم» سمحت لهم بتعميم باطل لتجاربهم التي كان عليها أن تُجرى بشكل منفرد ومخصوص. في الواقع، عتابنا كان قويماً من جانب ما فقط. لكنّنا لم نكن نفرّق بين باحثين جادّين – فرويد نفسه وبعض تلاميذه وخصومه – وبين الهواة الذين كانوا يطبّقون نظريّاتهم بطائفيّة بدائيّة. هؤلاء استحقّوا أن يكونوا مُزعجين بالنّسبة إلينا. ما ضايقنا أكثر هو أنّ بعض رفاق كوليت كانوا يستشيرون مُحلّلين نفسيّين حول أهدافهم في الحياة. كان بينهم من تردّد في اختيار امرأة من بين اثنَتَيْن؛ راح ليسأل الدكتور... – اشتهر بمعالجة عدد

كبير من السّرياليّين - أيّاً منهما عليه أن يختار. «يجب ترك المشاعر تنفصل بعضها عن بعض كأوراق ميّتة»، أجاب الطّبيب. حين روت لنا كوليت الحكاية غضبنا: كنّا نرفض أن تتحوّل الحياة إلى مرض، عندما يطرأ طارئ، بدل أن يُتّخذ القرار بشكل فردي، يُطلب من الدّكتور وصفة.

لكن، في هذا المجال كما في مجالات أخرى، إن كنّا نعرف الخطأ الذي يُحاصرنا، فإنّنا نجهل الحقيقة التي علينا استخدامها. لم نجد في أفكار جاسپير Jaspers، حول «الفهم» سوى مبادرة غامضة؛ كي نفهم الأشخاص على حدة، يجب استخدام خرائط لم نكن نملكها. انصبّ جهدُنا خلال سنوات على توليدها وابتكارها؛ كان عملنا اليومي وأعتقد أنّه يُثري تجاربنا أكثر من أيّ قراءة أو صلة مع الخارج. اشتغل سارتر على مبدأ سوء النيّة، الذي كان حسب رأيه، وراء الظّواهر التي يُلقى بها على عاتق اللاوعي. عمدنا إلى اختباره من كلّ جوانبه: الغشّ اللّغوي، مُغالطات الذّاكرة، الهروب، التّعويض، التّصعيد. سرّنا في كلّ مرّة أنّنا كنّا نعثر على جداول جديدة، أشكال جديدة. إحدى زميلاتي الشابات كانت تبدي آراءها وأهواءها القصوى بحسم وبثقة في قاعة الأساتذة؛ لكن حين أحاول التحدّث إليها، فإنّي أغوص في الرّمال المتحرّكة؛ هذا التناقض يربكني؛ ذات يوم قدحت فكرة في ذهني: «فهمتُ، قلتُ لسارتر، جينات لوميار، ظاهر مُجرّد!» منذ ذلك الحين، صرنا نُطلق العبارة على أناسٍ يُقلّدون قناعات وأحاسيس لا صدى لها في أعماقهم: اكتشفنا، تحت مُسمى مُختلف، فكرة *الدّور*. اهتمّ سارتر خصوصاً بهذا الجانب من الفراغ الذي يضمّ السّلوك البشري وحتّى الامتلاء الظّاهر وما سمّيناه بالحساسيّات. ثمّة مغص كلوي حادّ يضايق الطّبيب كثيراً، حين يقابله تصريح عدم الإحساس بالألم: بدا له الشعور بالألم ذاته شيئاً أجوف، لا يُستَشعَرُ تقريباً، رغم أنّه يسمّره في فراشه. مسألة أخرى تشغلنا هي العلاقة بين الوعي والجسد، حيالنا وحيال الآخر، ورحنا نبحث عمّا يتعلّق بحتميّة جسديّة محضة وما يتعلّق باستسلام حرّ. آخذتُ سارتر لأنّه يعتبر جسده سلسلة عضلات مُضلّعة، وكونه جرّده من جهازه التعاطُفي؛ إن كنّا نذرف الدّمع أو نُصاب بنوبة عصبيّة أو دوار البحر، فلأنّنا، كما قال، نضفي نوعاً من المداولة على الوقائع. أزعم أنّ المعدة، الغدد الدّمعيّة والرّأس نفسه تستجيب أحياناً لقوى لا يُمكن إيقافها.

استنكرنا الحقل الضيّق الذي حَبَسْنا أنفسنا داخله، ونحنُ نبتكر خلال هذه التجارب أدواتنا الخاصّة. كان لدينا عدد قليل من الأصدقاء، ما من علاقات وطيدة تقريباً. من جانب مُعيّن، كنّا نتدارك هذا الإملاق الشّديد بإيلاء الحوادث أهمّية قصوى. كنتُ باستمرار أشتري مجلّة *التحرّي*، التي كانت تهاجم البوليس والعقلانيّين. تجذبنا الأوضاع القصوى، تماماً مثل المُصابين بالذّهان أو الاضطراب النّفسي: كنّا نرى مبالغة ونقاء وحدّة في سلوك وعواطف من يُسمَّون الأناسَ العاديّين. إنّهم يؤثّرون فينا بطريقة أخرى. كلّ اضطراب كان يُرضي استبدادنا؛ ذاك أنّنا كنّا نطعن في اللاوعي؛ مع ذلك أقنعَنا جيد، والسّرياليّون، وفرويد نفسُه رغم تصدّينا له، أنّه في كلّ إنسان «نواة ليل لا يُمكن تحطيمها (أندريه بروطون)»: شيء ما لا يُمكنه تفسير الروتين الاجتماعي ولا النطاق المُشترك في اللغة لكنّه ينفجر أحياناً، بصورة كارثيّة. أولينا اهتماماً خاصّاً لكلّ حرجٍ يُعرّي القوالب والانتهازيّة البورجوازيّة، مُحطّماً واجهاتها التي تتخفّى وراءها البيوت والقلوب. كانت الجرائم والمحاكمات تلفت انتباهنا وتُشوّقنا؛ الأشياء الحزينة هي التي تعالج مسألة علاقة الإنسان بالمُجتمع. وأغلب الأحكام الصّادرة كانت مُثيرة للحنق، لأنّ المُجتمع يُفجّر فيها أحقاده وأمراضه الطّبقيّة وخصوصاً قتامته.

طبعاً، لم تكن تهمّنا سوى القضايا التي نجد فيها بعداً بسيكولوجيّاً أو اجتماعيّاً. أجّجت محاكمة فالكو Falcou في رووان مظاهرات ضمّت خمسة عشر ألف شخص احتجوا أمام قصر العدالة؛ كان فالكو مُتّهماً بحرق عشيقته حيّة، لكنّه كان يحظى بشعبيّة كبيرة في مدينته: حين أُخلِيَ سبيله حُمل على الأعناق. بقيتُ على الحياد أمام هذه الجلبة. في المقابل، تساءلتُ طويلاً مع سارتر حول حكاية أثارت القليلِ فقط من الضجّة؛ مهندس كيميائي شاب وزوجته، متزوّجان منذ ثلاث سنوات وهما سعيدان جدّاً، صحبا معهما يوماً زوجيْن مجهوليْن، تعرّفا عليهما في كاباريه؛ أيّ حفلة جنسيّة كانت؟ صباحاً، انتحر الزّوجان. أقيس من خلال هذه الذّكرى كم أنّ أفكارنا تنقصها الجرأة. يُدهشنا أن تُدمّر نزوة عابرة ثلاث سنوات من الحبّ والسّعادة؛ كنّا مُحِقَّيْن: عرفنا من مُختصّين في علم النّفس أنّه من المستحيل على اضطراب نفسي أن يخلق أزمة جادّة دون أن تكون هناك ظروف حفّت بالشّخص. لكن ما كان

علينا أن نستسلم للحيرة؛ كان علينا أن نحيّد مقالات الصّحف وأن ننطلق من الانتحار المُزدوج للزّوجيْن كي نحاول تخيّل العلاقة الحقيقيّة التي جمعت بينهما: لم يكن الجنس الجماعي حادثاً بسيطاً. لم تكن لنا نيّة الانسياق وراء المظاهر.

مع ذلك، كنّا ننبش في الأسرار الغريبة كلّما كان هناك نظام اجتماعي مُحكَم. بدت لنا مأساة الأخوات پاپان Papin واضحة من خلال الخطوط العريضة للقضيّة. في رووان ومان، وربّما ثمّة من بين أمّهات تلاميذي، من تخصم ثمن صحن مكسور من راتب الخادمة، من ترتدي قفّازات بيضاء كي تكشف آثار غبار منسيّة على الأثاث: في نظرنا، إنّهنّ يستأهلن الموت مائة مرّة. بعد الشّعر المموّج ومناديل الرّقبة البيضاء التي جعلت كريستين وليّا تبدوان عاقلتيْن، في الصّورة القديمة التي نشرتها بعض الصّحف! كيف أصبحتا مُجرمتين مسعورَتَيْن كما قُدّمت للقصاص الشّعبي صورهما بعد المأساة؟ يجب أن تُدان دار الأيتام، العبوديّة، كلّ تلك المنظومة المُرعبة التي ما تنفكّ تصنع المجانين والقتلة والوحوش التي عادة يُعتبر القائمون عليها أناساً طيّبين. لن تُحاكم الماكينة الطّاحنة بعدل: جسّدت الأختان الأداة والضحيّة لعدالة غامضة. تُحدّثنا الصّحف أنّهما تحبّان بعضهما بعضاً بهوس، ونحلم بلياليهما الحافلة بالمداعبات والحقد تحت سقيفتهما. غير أنّنا نشعر بالاختلال ونحن نقرأ التقارير العدليّة؛ كانت الكبرى مُصابة بجنون الاضطهاد، والثانية بالوهم. أخطأنا إذاً حين قرّرنا أنّ الجريمة ارتُكبت بسبب دفاع عن الحريّة؛ لقد ضربتا كما اتّفق تقريباً، من خلال أحاسيس مُشوّشة بالخوف؛ أنكرنا صدق التفسير واستمررنا في الإعجاب بهما. لم يمنعنا ذلك من أن نثور غضباً ضدّ المُختصّين النفسيّين الذين أعلنوا صحّة مداركهما العقليّة. رأينا في سبتمبر 1933، بمجلة *التحرّي*، وجوه مُزارعين ضخام الجثّة، تُجاراً مأساويين، واثقين من أخلاقهم وصحّتهم، يقرّرون مصير «النّعاج المسعورة»؛ حكموا على الأكبر بالموت؛ ويومان بعد إصدار الحكم كان عليه أن يلبس بذلة الأشغال الشاقّة المؤبدة ويُنفى. كان ذلك غريباً. إن كان مرض كريستين قد أفضى بها إلى ارتكاب جريمة فإنّ عدم نزاهة القضاء كانت مُضاعفة. أرسل حكم مماثل بغورغولوف إلى المقصلة، تحت أنظار الجميع، رغم علمهم بجنونه؛ ربّما

كانوا سيُجنّبونه مصير الموت لو أنّه قتل إنساناً عاديّاً. اكتشفنا أنّ مجتمعنا لم يكن مُستنيراً أكثر من تلك المُسمّاة بالـ«مُجتمعات البدائيّة»؛ لو أنّها وضعت بين المُجرم والجريمة علاقة سببيّة، لكانت انتهت إلى عدم مسؤوليّة غورغولوف والأخوات پاپان؛ بل إنّها في الواقع، تقيم صلة «تشاركيّة» بين الجريمة وسياقها: فيما يخصّ رئيس جمهوريّة يُقتل، بورجوازيّيْن يُقطّعان إرباً، يجب أن تكون هناك عقوبة دمويّة؛ لم يُحاكم القاتل: إنّه كبش الفداء. كان سارتر يُحصي بعناية الأفكار المنطقيّة التي يعجّ بها عالمنا المتحضّر. إن كان يستنكر عقلانيّة المُهندسين، فمن أجل شكل آخر من أشكال الذّكاء؛ لكن وهي تجمع بين الرّياضيّات والمنطق وبين الاستمرار في التفكير بشكل سحري، فإنّ المُجتمع يُعبّر بوضوح عن كراهيته للحقيقة.

أما مذبحة مان، فبدت أغلب الجرائم دون معنى. علّقنا مثل الجميع على الأحداث التي فاقت الخيال بتوقيع هياسانت دانس، «حكيم بولاي»، الذي جلب إلى «خلوته» التي تحوّلت بعد ذلك إلى متحف رعب، فجوراً غريباً، قبل أن يلقي فيها جثتي عشيقته وأمّها ثمّ راح ليقتل أحد أساتذته القدامى. مقتل أوسكار دوفران من طرف أحد البحّارة المجهولين كان جريمة كلاسيكيّة. انصبّ اهتمامنا على قضيّة فتاة الثامنة عشرة ڤيوليت نوزيار التي سمّمت والدها. كانت قضيّة الأخوات پاپان جارية وكان هناك صحافيّ قارب ما بين الحادثَتَيْن: طالب بعدم الرّحمة إزاء هذا «الجيل الضّائع». منذ بداية الجلسة، بدت لنا «قاتلة أبيها» ضحيّة هي الأخرى أكثر مما هي جانية. موقف أمّها الصّارخة: «اقتُلي نفسك، ڤيوليت»، من جانب أنّها تُمثّل الجانب المدني شوّش الرأي العام. مع ذلك حاول كلّ الشّهود والصّحافة إخفاء الحقيقة؛ كانت أقوال الفتاة مُبرهنة بإشارات عديدة، تعارض فكرة براءة الأب.

كنّا، ونحنُ نقرأ الجرائد ونتحدّث مع أصدقائنا، على أهبة الاهتمام بالمُحاولات التي تجعلنا نفهم طبيعة الإنسان ونسعى للدفاع عن حرّيته. أسّس الدّكتور هيرشفيلد في برلين «معهد علوم الجنس»؛ طالب بالدفع باحترام حقوق الفرد إلى حدّ السّماح له بممارسة الشّذوذ؛ واستطاع انتزاع اعتراف من القانون الألماني بأنّ التشوّه ليس جنحة. في شهر سبتمبر، قبل العودة،

انعقد مؤتمر عالمي لـ«تعديل قانون الحياة الجنسيّة»، طُرحت خلاله مشاكل المفاهيم المُوجّهة، العقم الإرادي، تحديد النّسل عموماً. أيّدنا هذه الجهود لتحرير الإنسان من سُلطة المُجتمع وفكّ قيوده الطبيعيّة بمنحه سيادة على جسده: على الإنجاب، على وجه الخصوص ألّا يكون مفروضاً بل اختياراً. من جانب فكري آخر، علمنا وأيّدنا مُدرّس السانت-پول-دي-ڤانس، «فرينيت Freinet»، الذي ابتكر أساليب جديدة للتّعليم؛ بدل أن يفرض على تلاميذه طاعة عمياء، اشتغل على صداقتهم ومبادرتهم؛ تحصّل من تلاميذ السابعة على نصوص حيّة وأصليّة كرسوم الأطفال في ذلك السنّ، حين تُحترم إيحاءاتهم؛ نشرها في مجلّة صغيرة، *الباقة*. ألّب عليه الكاهن قسماً كبيراً من الأهالي فأمطروا المدرسة بالحجارة؛ لكنّه صمد. تناغم نجاحه مع قناعتنا الأكثر شغفاً بالتغيير: الحرية معين لا ينضب من الابتكارات، وكلّما اتّجهنا نحو الازدهار أثرينا العالم.

لا يبدو لنا أنّ التطوّر التكنولوجي يساهم في تكريس الانعتاق؛ تنبّأ اقتصاديّون أمريكان أنّ التكنولوجيا ستحكم العالم قريباً: تمّ إطلاق كلمة تكنوقراط. نحنُ نُورّث النواة الأولى. «النّظر من بعيد» كانت على أهبة التحقّق. ضاعف البروفيسور پيكارد وأقرانُه جولاتهم في الغلاف الجوّي. حطّم ميرموز، كودوس وروسي الرّقم القياسي تلو الآخر: كان في مغامراتهم جزء مُؤثّر بالنّسبة إلينا. لكنّ جميع المُستجدّات الميكانيكيّة التي كانت الصّحافة تتغنّى بها لم تعنِ لنا شيئاً. لم يكن ثمّة سوى طريقة واحدة لإلغاء التبعيّة: القضاء على الطّبقة المُهيمنة. كنتُ عاجزة عن تحمّل كذبهم، حمقهم، تعصّبهم، فضائلهم المُزيّفة. رحتُ إلى حفلة ذات مساء في رووان؛ غمرني التوتّر حالما رأيتُ من حولي مجلس أبّهة يستعدّ لتذوّق نصيبه من الجمال. كم كان عددهم كبيراً، كم كانوا أقوياء! هل سنصل يوماً لهدفنا؟ كم من الوقت سنسمحُ لهم بالتصديق بأنّهم يُجسّدون أعلى القيَم البشريّة، وأن يُشكّلوا أطفالهم حسب أهوائهم كي يخلقوا منهم نسخاً عنهم؟ كانت بعض تلميذاتي لطيفات للغاية، وانقبض قلبي عند خروجي من المعهد لفكرة أنّهنّ سيعدن إلى فضاء مُغلق، كئيب كالذي اختنقتُ فيه حين كنتُ في سنّهنّ.

لحسن الحظّ، فإنّ انكماش الرّأسماليّة يتسارع يوماً بعد يوم. لم تزد أزمة 1929 سوى تأكيد ذلك، وأخذت أشكالها الوحشيّة تصدم المُخيّلات الأكثر عناداً. كان هناك ملايين العاطلين عن العمل (تتحدّث الإحصائيّات عن أربعة ملايين) في ألمانيا وإنجلترا والولايات المُتّحدة؛ وحوش بشريّة داست على واشنطن؛ مع ذلك كانت مؤن القهوة والقمح تُرمى في البحر؛ جنوب أمريكا طُمر القطن تحت التراب؛ في هولندا أُهلكت الأبقار وقدّمت أعلافاً للخنازير فيما أعدم الدنماركيّون مائة ألف خنزير حليب. إفلاس، فضائح، وانتحارات بالجملة لرجال أعمال تملأ أعمدة الجرائد. سيتحرّك العالم. تساءل سارتر ما إذا كان علينا أن نتضامن مع العاملين على هذه الثّورة. أذكُر خصوصاً حواراً في شرفة المقهى الكبير بروان التي تُطلّ على رصيف الميناء، مقهى ڤيكتور. حتّى في الميادين التي كنّا مُستعدين إزاءها فكريّاً، فإنّ الاصطدام بواقعة ما يرجّنا دائماً وكنّا نعلّق عليه بإسهاب؛ عشنا ذلك خلال تلك الظّهيرة بالذات. جلس بحّار يرتدي قميصاً أزرق إلى طاولة مجاورة لطاولتنا: طرده رئيسه. كانت الحادثة عاديّة، لكنّها جسّدت الفروقات الطبقيّة، وكانت شرارة حوار دام طويلاً وأفضى بنا بعيداً. طرحنا هذا السّؤال: هل نحن قادران على الاكتفاء بالتعاطف مع الصراع الذي تشنّه الطّبقة الكادحة؟ أليس من واجبنا المشاركة في هذه المقاومة؟ كان سارتر خلال سنوات متردّداً بشأن الانضمام إلى الحزب الشيوعي. كانت أفكاره، مشاريعه، مزاجه تتعارض مع الشيوعيّة؛ لكن وإن لم يكن أقلّ منّي نزوعاً إلى الاستقلال، فقد كان يملك حسّ المسؤوليّة أكثر منّي. يومها استخلصنا – كانت خلاصاتنا عرضيّة دائماً – أنّنا لو كنّا ننتمي إلى البروليتاريا، فمن الضروري أن نكون شيوعيّين، لكن، وإن كانت القضيّة تهمّنا فهي تظلّ غريبة عنّا؛ كلّ ما قد يُطلَبُ منّا، هو أن ننحاز إلى البروليتاريا لا أكثر. كان علينا الاستمرار في بناء مؤسّستنا التي لا تتصالح مع فكرة الانخراط في الحزب.

ما لا نتطرّق إليه أبداً، هو أن نناضل جنباً إلى جنب مع المعارضين. كنّا نحترم تروتسكي، وكانت فكرة «الثورة الدائمة» تُرضي نزعتنا الاستبداديّة أكثر من إرساء الاشتراكيّة في بلد واحد. لكن من جهة الحزب التروتسكي، والفرق المنشقّة، كنّا نواجه نفس الدّغمائيّة (العقائديّة) الفكريّة التي ينطوي

عليها الحزب الشيوعي. ولم نكن نصدّق نجاعتهم. حين روت لنا كوليت أودري أنّ شقّها الذي لم يكن يضمّ سوى خمسة أعضاء، يتساءل عن احتمال قيام ثورة جديدة في الاتحاد السوفيتي، لم نُخفِ عنها تشاؤمنا. لم نهتمّ بقضيّة سيرج Serge التي شغلت أعداء ستالين. إلّا أنّنا لم نشعر بأنّنا خارج اللعبة؛ كنّا نرغب في القيام بحركة شخصيّة، عبر حواراتنا، عبر التدريس، وفي الكتب التي سنؤلّفها؛ سيكون نشاطاً نقديّاً أكثر مما هو تعليمي لكن في فرنسا، في ذلك الوقت، كان اعتقادنا جازماً أنّ النقد يلعب دوراً مُهمّاً في التغيير.

استمررنا إذاً في تكريس أنفسنا لمؤلّفاتنا وبحثنا، ولاحظ سارتر أنّه في حاجة إلى المُساعدة كي يتمكّن من بلورة أفكاره المتناثرة. ظهرت أولى تراجم كيركيغارد في تلك الفترة: لا شيء حرّضنا على قراءتها وتجاهلناها. في المقابل كان سارتر مأخوذاً بما يُسمّى بعلم الظّواهر الألمانيّ. قضّى رايموند آرون السنة الجامعيّة في معهد برلين الفرنسي، وكان يدرس هوسيرل Husserl وهو يُجهّز رسالة الدّكتوراه. عندما جاء إلى باريس حدّث سارتر بذلك. أمضينا أمسية معاً في مونبارناس؛ احتسينا الكوكتيل بعصير المشمش. أشار آرون إلى كأسه وقال: «أترى، عزيزي، لو كنتُ عالم ظواهر، لكان في وسعك التحدّث عن هذا الكوكتيل، هذه هي الفلسفة!» شحب وجه سارتر لشدّة الانبهار، أو كاد؛ كان بالضّبط ما يتمنّاه منذ سنوات: الحديث عن الأشياء، كما يلمسها، كما يرى الفلسفة. أجابه آرون بأنّ علم الظّواهر يستجيب تماماً لانشغالاته: تجاوز المعارضة بين المثالي والواقعي، تأكيد سيادة الوعي ووجود العالم في آن، كما يظهر لنا. اقتنى كتاب هوسيرل من شارع سان-ميشال، كان متعجّلاً كي يعرف ما بين طيّاته، حتّى إنّه راح يتصفّح الكتاب قبل فكّ صفحاته الملتصقة. طار فرحاً لمّا عثر على تلميح للطوارئ. هل سحب أحدهم البساط من تحت قدميْه؟ اطمأنّ أكثر بعد قراءة الكتاب. لم تكن الطوارئ تلعب دوراً مُهمّاً في منظومة هوسيرل الفلسفيّة، لم يتحدّث عنها إيمانويل ليڤيناس Levinas سوى بطريقة عامّة وشكليّة. قرّر سارتر دراسته بجدّية، وبمساعدة آرون، قام بالإجراءات اللازمة ليخلف رفيقه في معهد برلين الفرنسي.

إنّ اهتمامنا بالعالم كان بصرامة مُوَجّهاً من قِبَل توسّعنا الذي تحدّثتُ عنه؛

كنّا نتمتّع بانتقائيّة مُعيّنة، ونقرأ كلّ ما يُنشَر (صدرت في تلك السنة *المفهوم النقيّ* لبروتون، *ريشة ما* لميشو، *فونتامارا* لسيلون، *اللامبالاة* لموراڤيا، *المدينة* لڤون سالومون، *التّوأم الأخضر* لمارسيل إيمي)؛ الكتاب الفرنسيّ الذي شدّ انتباهنا في تلك السنة، هو *رحلة في نهاية اللّيل* لسيلين. كنّا نعرف كمّاً من المقاطع عن ظهر قلب. كانت فوضويّته تشبه التي لدينا) فتح كتاب *موتٌ مؤجّل* أعيُننا. كان هناك نوع من الحقد على الضعفاء وهي طبيعة ما قبل فاشيّة). هاجم الحرب، الاستعمار، الرّداءة، التفكير السائد، المُجتمع، بأسلوب ونبرة أعجبانا كثيراً. صمّم سيلين أداة جديدة: كتابة أكثر حياة من الكلام. يا لها من راحة بعد جمل جيد، وآلان وڤاليري الباردة! استوحى سارتر نواته من كتابة سيلين. صرف النّظر تماماً عن اللغة النهمة التي استخدمها في *أسطورة الحقيقة*. من الطبيعي أن نجد للمُذكّرات طعماً خاصّاً، الرّسائل، البيوغرافيا أيضاً التي كانت تساعدنا على صقل خصوصيّاتنا؛ قرأنا *ديدرو* لبيلي، *صورة زيليد* لـ«سكوت» الذي ألّف بيننا وبين السيّدة شاريير Charrière، *الڤيكتوريّون المرموقون* حيثُ قابل ليتون ستراشي بعض الأوغاد بحقيقتهم. صدرت في المجلة الوطنيّة الفرنسيّة *الوضع الإنساني* الذي خامرتنا بشأنه أفكار جيّدة وأخرى سيّئة: احترمنا الطّموح أكثر ممّا احترمنا المُنجَز. عموماً، لاحت لنا تقنية الروائيّين الفرنسيّين بدائيّة مقارنة بأساليب الأمريكان الكبار، *42 الموازي* لجون دوس باسوس ظهر في نسخته الفرنسيّة حديثاً؛ حمل إلينا إضافة كبيرة. كلّ فرد مُشكَّل بحسب طبقته، لا أحد يمكن أن يُعرّف نفسه بها؛ راوحنا بين هاتيْن الحقيقتيْن؛ منحنا دوس باسوس على المستوى الجمالي مصالحة وجدناها مثيرة للإعجاب. لقد ابتكر إزاء أبطاله مسافة سمحت له بعرضهم عرضاً ذاتيّاً دقيقاً، وكنتيجة اجتماعيّة بحتة؛ لم يزوّد كلّاً منهم بنفس القدر من الحرّية؛ وسط الحاجة، التعب، الشّغل، الثّورة، كان بين المُستغَلّين من يعيش أوقاتاً من الامتلاء والنّزاهة، كانوا يعيشون؛ لكن من ناحية الطّبقة العليا فقد كان الانحياز جذريّاً: موت جماعي جمّد كلّ ردّة فعل، كلّ الكلام، حتّى الهمس. سيكون على سارتر خمس سنوات لاحقة، أن يحلّل في المجلّة الفرنسيّة الجديدة الأساليب الخفيّة لهذا الفنّ. لكن شدّتنا الأحداث المرعبة التي ضمّنها دوس باسوس كتابَه. كان قاسياً حقّاً أن ترى أناساً يتصادمون مع أنفسهم في

كوميديا الحرّية هذه، ويُجسّدون انعكاس وضعهم. دأبتُ وسارتر على تطبيق هذه الازدواجيّة على الآخر وعلى أنفسنا خصوصاً. لأنّنا لو مضينا في الحياة بثقة كبيرة، فسنتعاطى مع أنفسنا دون تهاون؛ منحنا دوس باسوس أداة نقديّة جديدة رحنا نستخدمها بطواعية وبصورة مُوسّعة. كنّا نروي على طريقته مثلاً، حواراتنا في مقهى ڤيكتور: «يبتسم المُدير بسحنة فرح، وأحسّوا بالغضب ينهشهم. سحب سارتر نفساً من غليونه، وقال ربّما لا طائل من التعاطف مع الثّورة. اعترض الـ «كاستور» قائلاً إنّ عليه إنهاء كتابه. طلبوا نبيذاً، وقالوا إنّه من الصّعب معرفة ما ندين به للآخرين وما ندين به لأنفسنا. أخيراً، أعلنوا أنّهم لو كانوا بحّارة، فمن المؤكّد أنّهم سينضمّون إلى الحزب الشيوعي، لكنّ جلّ ما يُمكن أن يُطلَبَ منهم في وضعهم، هو أن يأتوا في صفّ البروليتاريا دائماً.» مُفكّران من البورجوازيّة الصّغيرة، يتحدّثان عن أعمالهما القادمة كي يتجنّبا الانخراط في السّياسة: كانت تلك هي حقيقتنا وكنّا متمسّكين بعدم التغاضي عنها.

50000 دولار، *والشّمسُ تطلع أيضاً*، جعلانا نعرف همنغوي؛ قرأتُ بالإنجليزيّة أيضاً عدداً من أقاصيصه. كان قريباً منّا جدّاً من زاوية ذاتيّته ومفهومه للإنسان: ما من مسافة بين قلوب ورؤوس وأجساد أبطاله. كانوا يتسكّعون في جبل سان-جينڤياف أو في الطرقات الشّعبيّة، يتحدّثون، يسكرون، يأكلون، يضاجعون النّساء، ولا يُخفون شيئاً. كنّا نكره النزعة الإيروتيكيّة - التي أفرط مارلو في استخدامها في كتابه *الوضع الإنساني* - لأنّها تحيل على تخصيص مبالغ فيه يُثير الجنس ويُحقّره في آن. كان عُشّاق همنغواي يتحابّون في كلّ لحظة جسداً وروحاً؛ الجنس هو أحد تصرّفاتهم، ومشاعرهم، وأقوالهم، وحين ينفرط عقد الشّهوات، والملذّات، فإنّ الجنس يجمعهم تحت جناحه. أمر آخر أعجبنا: إن كان الإنسان حاضراً برمّته، فلا توجد هناك «ظروف كريهة». كنّا نمنح قيمة كبيرة لعذوبة الحياة اليوميّة المتواضعة: نزهة، غداء، حوار؛ كان همنغواي يصبغ ذلك بسحر روائي؛ إنّه يخبرنا عن النّبيذ الذي تُحبّذه شخصيّاته، أيّ لحم يأكلون وكم كأساً شربوا؛ كان يسمح لنا بالاطّلاع على لائحة مواقفهم؛ بعض التفاصيل التي لا معنى لها كانت تكتسب معانيَ بريشته؛ كنّا نتعرّف على عالمنا المألوف من وراء قصص

الحبّ والموت التي يرويها. كان اتّفاقاً كافياً في وضع كوضعنا؛ كانت إحالات هذه الرّوايات اجتماعيّاً تزوغ عنّا لأنّنا، بسبب الفكرة التي كوّناها عن حرّيتنا، لا نفهم أنّ الذاتيّة هي موقف إزاء المجموعة الكلّية.

إنّ تقنية همنغواي في ظاهرها وبساطتها القويمة، تستجيب لمتطلّباتنا الفلسفيّة. فالواقعيّة القديمة التي ترتكز على وصف الأشياء لمُجرّد ذاتها، تقف على دعائم هشّة. يميل بروست وجويس كلّ على طريقته إلى موضوعيّة ليست أكثر صلابة في نظرنا. لدى همنغواي فإنّ العالم يوجد في هامشه المُعتِم، لكن دائماً من زاوية موضوع مُعيّن؛ لا يُصرّح لك الكاتب سوى بما يتطابق مع الوعي الذي تستثيره الأحداث؛ إنّه ينجح في منح الأشياء حضوراً عظيماً، خصوصاً لأنّه لا يفصلها عن الوقائع التي انخرط فيها أبطالُه، ويُعوّل على مقاومة الأشياء كي يجعلنا نشعر بمرور الوقت. عدد كبير من القواعد التي وضعناها لأنفسنا مُستوحاة من همنغواي.

للرّوايات الأمريكيّة قيمة أخرى: إنّها تُطلعنا على أمريكا. هذا البلد الذي لا نراه أبداً إلّا من خلال زجاج مصقول مُشوِّه، فلا نفهم منه شيئاً؛ لكن مع الجاز وأفلام هوليوود، دخل حياتنا. ومثل أغلب الشّباب في فترتنا، كنّا شغوفين جدّاً بالـ «الرّوح الزنجيّة»، «أناشيد العمل»، الـ «بلوز». كنّا نُحبّ *رجل النّهر القديم*، جيمس *أنفيرمري*، *بعض هذه الأيام*، *الرّجل الذي أحبّ*، *الآنسة حنّا*، *لويس بلوز*، *جاپانسي*، *سماء زرقاء*؛ شكوى الرّجال، سعادتهم الهاربة، الأمل المُحطّم وجدت أصواتاً تتحدّى الكياسة والفنون المُرتّبة، صوتاً قادماً بقسوة من قلب ليلهم مهزوزاً بالثّورة؛ لأنّهم نشؤوا وسط عواطف جماعيّة، معاناة كلّ منهم، معاناتهم جميعاً – كانت تلك الأغاني تلامس كلَّ منطقة حميمة في داخلنا ومُشتركة بين كلّ البشر؛ سكنتنا، وغذّتنا كالعديد من الكلمات ووتيرة لغتنا، ومن خلالها وُجدت أمريكا بالنّسبة إلينا.

تجعلها السّينما توجد في الخارج: على الشّاشات ومن الضفّة الأخرى للمُحيط. كان أوّل بلد رعاة بقر وخيولهم وترحالهم عبر الصّحراء الشّاسعة؛ لقد اختفت تقريباً، مطرودة من قبل زحف السّينما الناطقة. وباتت نيويورك، شيكاغو ولوس أنجلوس تعجّ بالعصابات ورجال البوليس (عُرض في باريس

تلك السنة: النّدبة، أنا هارب، البيت الكبير). قرأنا العديد من الريبورتاجات عن آل كاپون Al Capone، ديلنجر، وروايات كثيرة مُستلهمة من أمجادهما. لم نكن نحبّذ اللّصوص؛ إلّا أنّنا كنّا نستمتع برؤيتهم يقتتلون فيما بينهم ويعاندون بندّية رجال القانون. كشفت الصّحافة مؤخّراً تواطؤ البوليس مع العصابات وفساده وعرّت الإفراط الذي انخرط فيه، التحامهم بالمُنحرفين. كنّا نشمئزّ من الأفلام التي تُفرط في تقديم المواعظ الأخلاقيّة والتي بدل أن تتّخذ من اللصّ بطلاً تتّخذ من رجل البوليس الذي سيعيد المياه إلى مجاريها بسلطة الأخلاق. غير أنّ هوليوود واعدة بأشياء أخرى مُختلفة: أولاً، الوجوه الرّائعة. كان ينقصنا ذلك، ولم نكن نُفوّت فرصة مشاهدة الأفلام الأمريكيّة حتّى السيّئة منها، تلك التي يُمثّل فيها غريتا غاربو، مارلين ديتريتش، جون كراوفورد، سيلفيا سيدني، كاي فرنسيس. في تلك السّنة، اكتشفنا في (*الآنسة لو*) و(*لستُ ملاكاً*) ماي ويست الرّائعة.

هكذا، كانت أمريكا بالنّسبة إلينا أوّلاً، عبر خلفيّة أصوات خشنة وإيقاعات مُكسّرة، سلسلة غريبة من الصّور: نشوة ورقصات السود في الـ*هاليلويا*، بنايات ناطحة للسّحاب، سجون ثائرة، أفران ومداخن عالية، إضرابات، سيقان جميلة وكعوب عالية، قاطرات، طائرات، خيول برّية، مُروّضو خيول. عندما نستفيق من هذه الفوضى الجميلة، فإنّنا نُفكّر في أمريكا البلد الذي تهيمن فيه الرأسمالية في كامل وقاحتها وجبروتها؛ نكره فيها الاستغلال، البطالة، العنصريّة، قرار الحشد إعدام الفرد دون إعطائه فرصة للدفاع عن نفسه. بعيداً عن الخير والشرّ، ثمّة في تلك الأرض الهائلة عالم مُمزّق وقويّ يسحرنا.

ألقينا على الاتّحاد السوفيتي نظرة فاحصة أكثر. عدد كبير من الروايات جعلنا نكتشف أوقاتاً نجهلها عن الثّورة: العلاقة بين الرّيف والمدينة، بين المُحضِرين المُكلّفين بالمُصادرة أو الجُباة والمزارعين الذين انتُزعت منهم ملكيّاتهم. حتّى في الكتب التي صيغت بفنّ فظّ – مجتمع *الفلاحين* لپانفيروف، *الحمقى* لليونيد ليونوف (الذي لم يكن يتحرّج في البداية من كونه متأثّرا بدوستويفسكي) – شغفنا انتشار التجربة، حداثتها وتعقيدها. رُويَت بشكل جيّد جدّاً من قِبَل شولوخوف في *الأراضي المُستصلحَة*. نعرف روايته عن *الموهبة المُطمئنّة*؛

أحبطتنا تلك الرّحلة القوقازيّة الطّويلة، لم نصل إلى نهايتها. فيما بدت لنا *الأراضي المُستصلَحَة* إنجازاً فنّياً عظيماً. مثل سابقيه، عرف شولوخوف كيف يُحرّك غيلان شخصيّاته؛ دخل تحت جلودهم وداخل عقولهم، حتّى وهو يتحدّث عن أعداء الثّورة. نجح في تحويل بطله «الإيجابي»، التحرّي البوليسي، إلى إنسانٍ يثير الإعجاب؛ لكنّه جعلنا أيضاً نهتمّ بالشّيوخ المتكلّسين الذين ناضلوا من أجل الإبقاء على قمحهم. جعلنا نمسك بأيدينا انعدام العدل والتمزّق التي تشكّلت الحكاية من خلالهما. يؤسفنا غياب هذا التعقيد في السينما الروسيّة؛ لقد أصبحوا أكاديميّين للغاية وكنّا نتجنّب خصوصاً الأفلام التي تنتصر في آخرها الجمعيّات الزراعيّة. في فيلم *طريق الحياة* الذي يروي قصّة أطفال مُهملين يتمّ تأهيلهم وتعليمهم، نجح المُمثّلون الشباب – خصوصاً الذي جسّد شخصيّة مُصطفى، رئيس العصابة – في أداء أدوارهم ببراعة غطّت على «القصيدة الوعظيّة (عنوان الرواية التي اقتُبِس منها الفيلم؛ الكتاب لم يكن مُملّاً؛ لكنّ السيناريو لم يحترم روح الكتاب)». لكنّه استثناء على أيّ حال.

هكذا كنّا منجَذِبَيْن على نحو متناقض إلى أمريكا التي ندين نظامها، والاتّحاد السوفيتي الذي تحدث فيه تجارب أحببناها لكنّها تتركنا على الحياد. لم نكن مع لا شيء بعيْنه. يبدو لي هذا طبيعيّاً، بما أنّ العالم والإنسان في أعيننا ما زالا قيد الخلق. قلتُ قبل الآن إنّ اعتراضنا على الأشياء لا دخل فيه للغضب، بالعكس: نحنُ نقصي الحاضر بعنوان مُستقبل سيتحقّق بالتّأكيد بفضل نقدنا لواقعنا في حدّا ذاته. عديد المُفكّرين يتبنّون نفس المنهج. بعيداً عن الانفصال عن فترتنا، فإنّ سيادتنا عليها تنبع منها وتحيلنا إليها؛ في احتجاجنا على النّخبة، لدينا حلفاء؛ وافتتاننا بما يُحيط بنا كان يعكس الذّوق العام لجيلنا: كان مُشتركاً أن نُحبَّ الجاز والسّينما. أغلب الأفلام التي كنّا نُحبّها حظيت بإعجاب واسع من قبل الجماهير: مثلاً *حياة هنري الثامن الخاصّة* الذي جعلنا نكتشف شارل لوتون Charle Laughton[14]. *كولي وامپي* لبريخت، الذي لم يحظ إلّا بنجاح رديء، والذي لم نتحمّس له بدورنا؛ كانت من بين أبطاله الرائعة هيرتا ثيل (العاطلة عن العمل)، وأظهر الفِيلمُ «التزاماً» مباشراً بضراوة دفعت ڤون

14- Charle Laughton: منتِج ومُمَثّل بريطاني (1899–1962).

بيبان إلى منعه؛ انتظرنا منه الكثير: كان مُثقلاً بالأفكار ومُنجزاً بقدر ضئيل من الفنّ. على هذا المستوى لابدّ أنّنا نتميّز عن الجمهور المُتوسّط: كنّا شديدي الحساسيّة ضدّ الأفلام الفرنسيّة؛ وبفضل المُبدع إنكيشينوف، شاهدنا *رأس رجل*، و*القضيّة في الكيس* للإخوة بريڤير الذي حاز على رضانا: لكن بدقّة، لأنّ الإخوة پريڤير قد تجاوزوا الواقعيّة الفجّة، أحياناً والسطحيّة أحياناً أخرى كما هو شأن السينما الفرنسيّة في أغلبها التي لم تكن تُثير أيَّ دهشة. في مجال الموسيقى، أمتعتنا داميا، ماري دوبا، والصّغيرة ميراي حين تُغنّي *مُمَدّدة على القشّ*. نجمان صاعدان في سماء باريس: جيل وجوليان. فوضَوِيَّان، مناهضان للعسكر، عبّرا عن ثورة واضحة، الآمال البسيطة التي كانت ستُرضي قلوب التقدّميّين. كان نقد اليسار حفلة بالنّسبة إليهما. خلال المرّة التي صادفناهما فيها في كاباريه مونمارتر، كانا متضايقَيْن، أنيقَيْن. على ركح بوبينو Bobino، مرتَدِيَيْن ملابس سوداء، غنّيا *لعبة التّعذيب*، *دولار*، وعشرين أغنية أخرى. لم نكن الوحيدَيْن المتحمِّسَيْن للتصفيق لهما. عادة يُضجرنا الرّقص؛ لكن في جوان، قدم باليه جووس من ڤيانا سابقاً ومنحازاً للسّلام، *الطّاولة الخضراء*، اتّخذنا أماكننا في المسرح الذي كان مُحتفِياً بهما كلَّ مساء.

أمضينا عيد الفصح في لندن. مدينة أكبر من باريس وأكثر حداثة: خرجنا في الشّوارع، مشينا ساعات وساعات. بيكاديلي، هامستيد، پوتني، غرينويتش: كنّا مُتّفِقَيْن على رؤية كلّ شيء. صعدنا إلى الطّابق العلوي لأوتوبيس أحمر، وتنقّلنا وسط ضاحية بعيدة، عدنا منها سيراً على الأقدام. كنّا نتناول الغداء في أحد صالونات البيرة بستراند Strand. أو في مطعم سوهو، ثمّ نستأنف المسير. كانت تُمطر أحياناً ولم نكن نعرف أين نأوي؛ أزعجنا غياب المقاهي: ذات ظهيرة لم نجد مأوى غير محطّة المترو. ضحكنا من تقاليد الحياة اليوميّة الإنجليزيّة؛ صباحاً، لتناول الفطور ترتدي النساء ملابس بين العري وفساتين المناسبات؛ عند الظّهر على الرّجال أن يلبسوا قبّعات دائريّة، ومطريّة في اليد؛ دعاة يُبشّرون في ركن من أركان هايد پارك كلَّ مساء؛ التاكسي الصّغير، اللافتات القديمة، قاعات الشّاي، العروض الغريبة، كان كلّ شيء غريباً بالنسبة

إلينا. لبثنا ساعات في الرّواق الوطني؛ وقعنا صدفة على الكرسي الأصفر وعباد شمس ڤان كوخ في رواق تايت. مساءً ذهبنا إلى السّينما. شاهدنا «سينارا Cynara مع الفاتنة كاي فرانسيس. «كنتُ وفيّاً لك على طريقتي»: هذه الجملة المُقتبَسَة من الفِيلمِ ستتحوّل فيما بعدُ إلى كلمة سرّ بيننا. ابتهجتُ في المسرح الصّغير «ماسكيلاينس» حيثُ المُشعوذون والـ «سحرة» يؤدّون عروضاً مُذهلة بإخراج رفيع المُستوى لم أر مثله من قبل في أيّ مكان.

أعترف أنّه رغم التفاهم الذي يُخيّمُ بيني وبين سارتر ، ثمّة اختلافات عديدة. كنتُ أبحث عن آثار شكسبير وديكنز في لندن، وكنتُ أتسكّعُ بلذّة في حيّ شيسويك Chiswick؛ أخذتُ معي سارتر إلى متنزّهات المدينة، إلى حدائق كيو Kew، إلى غابة ساحة هامتون. كان يتأنّى في الضّواحي المُزدحمة مُحاولاً تخمين طريقة عيش آلاف العاطلين عن العمل ممن لا سعادة لهم في الحياة. قال لي، إنّ علينا عند عودتنا إلى إنجلترا أن نزور منشستر، بيرمينغهام، والمدن الصناعيّة الكبرى. كان له عنادُه هو أيضاً. كان يجعلني أمشي طوال اليوم تحت المطر بحثاً عن قاعة سينما صغيرة، حيثُ يُفترَضُ أن يُعرَض، حسب اللافتة، فِيلمُ *رحلة دون عودة*، مع كاي فرانسيس ووليام پويل؛ نلتُ مكافأتي: يا له من فِيلمٍ رائع! لكنّي أنا من تحفّزتُ للقيام بمشاريع مُهمّة. عادة، كان سارتر يتحمّس من أعماقه مُصدّقاً أنّي أقصد ما أقول. كنتُ مقتنعة تماماً أنّ بيننا تناغماً عميقاً: «نحنُ واحد»، أكّدتُ. هذه الحقيقة، جعلتني أتجنّب التشكيك في رغباتي. ذُهلتُ عندما اصطدمنا في مناسبتَيْن.

وجد كلانا كاتدرائيّة كانتربوري Canterbury جميلة وأمضينا يوماً من دون غيوم. كان سارتر مُستمتعاً بالحدائق وبشوارع أكسفورد؛ لكنّ التّقاليد، وتحذلق الطّلبة كانت تُثير احتقانه ورفض دخول المعاهد؛ دخلتُ اثنَيْن أو ثلاثة من بينها، وعاتبتُه على ما اعتبرتُه من جانبه بدعة. لم يُفسد برامجي على الأقلّ. استمتعتُ أكثر بعد الظّهيرة، عندما كان علينا زيارة المتحف البريطاني British Museum وحيثُ قال إنّ لا رغبة له في دخوله: لا شيء يمنعني من زيارته وحدي. هذا ما فعلتُه. غير أنّي تجوّلتُ دون فرح بين المُجسّمات والتماثيل والمومياوات؛ بدا لي مُهمّاً جدّاً أن أرى هذه الأشياء: أليس كذلك؟

أرفض التفكير في أنّ إرادتي تُساورها النّزوات: إنّها قائمة على قِيَم، وتعكس أموراً أرى أنّها مُقدّسة. كنتُ ميّالة إلى إدخال المعنى والضّرورة إلى حياتي بما أنّي لم أكن أراهن على الأدب مثلما هو شأن سارتر؛ أو أن نضمّ إلي قراراتي كما لو كانت بديهيّات مُغلقة؛ وإلّا فإنّ فضولي ونهمي يُصبحان مُجرّد طبيعة، بل ربّما امتداد: لم أعد أطيعُ أيَّ تفويض.

صرتُ أخطّط بشكل أقلّ لعدم وقوع خلافات بيننا: كنتُ أؤمن بالحقيقة وهذه أحد وجوهها. لم نكن نصل إلى الرّضا في حواراتنا، من خلال أفكارنا وانطباعاتنا المتضاربة، إلّا عندما كنّا نقع على اتّفاق. عادة يقترح سارتر «نظريّة»؛ أنقد، وأحوِّر؛ أحياناً لا أقبلها وأعرض عليه مراجعتها. تسلّيتُ كثيراً بمقارنته للمطبخ الإنجليزي والاختباريّة التجريبيّة Empirisme لدى لوك Locke، فسّر لي قائلاً إنّ كليهما مبنيٌّ على مفهوم التحليل التطابُقي. على رصيف نهر التاميز Tamise، أمام لوحات الرّواق الوطني، أيّدتُ كلّ ما قاله تقريباً. لكن، ذات مساء، في مطعم صغير قرب محطّة أوستون Euston، تشاجرنا؛ كنّا نأكل، في طابق علوي، مأكولات تحليليّة سيّئة، ونحنُ نراقب الأفق يحترق: حريق من جهة الميناء. أخذت سارتر نوبة تحليل كالعادة، وحاول تعريف لندن في مُجملها؛ أرى أنّ خريطتها ناقصة، طموحة لكن دون فائدة: مبدأ ردّة فعله لم يُعجبني من الأساس. استأنفنا، بحماس، نقاشاً بدأناه قبل سنتَيْن حول مرتفعات سان-كلود وكيف أعيدت مرّات عديدة. تمسّكتُ بفكرة أنّ الحقيقة تتجاوز كلَّ ما قد يُقال عنها؛ وجب مواجهتها في غموضها، وتعتيمها بدل اختزالها في مفاهيم يُعبَّر عنها بالكلمات. أجاب سارتر أنّه إذا أردنا كما نرغب، في امتلاك الأشياء، فإنّه لا يكفي النّظر والاستمتاع بالعاطفة: علينا فهم معانيها واستخدامها في جُمل. ما شوّش شجاراتنا هو أنّ سارتر لم يفهم لندن طيلة اثنيْ عشر يوماً، وأنّ خلاصته ناقصة جدّاً؛ كنتُ مُحقّة في أن أنتحِيَ بنفسي. تكون ردّة فعلي مُختلفة وأنا أقرأ المقاطع التي تصف هاڤر في مخطوطه: كان لديَّ انطباع بأنّه يكشف لي عن الحقيقة. على أيّ حال سيتواصل هذا التنافر طويلاً؛ كنتُ أوّلاً مُتمسّكة بالحياة، بحضورها الرّاهن، وكان سارتر مُهتمّاً أوّلاً بالكتابة. رغم أنّي أجد متعة في العيش ويجد هو متعة في الكتابة فكان من النّادر أن تنشب بيننا خصومة.

كان سارتر يقرأ الجرائد: بشكل سيّئ لكن كان ملتزماً بذلك. لم أكن أعيرها قيمة كبيرة. في المقابل كنتُ أتصفّح يومياً *التّحفة الفنّية*، و*الصّحيفة*، وكلّ أسبوع *البطّ المُكبّل* و*ماريان* التي أطلقها غاليمار حديثاً. أمّا الوقائع التي تجري في الجانب الآخر من الأرض – الحرب الصينيّة اليابانيّة، حملة غاندي في الهند – فلم تكن تعنينا كثيراً. لا أحد كان يشعر كم أنّ نقاط الأرض مترابطة. كان اهتمامنا مُنصبّاً على الأحداث الجارية من حولنا، وفي ألمانيا: مثل كلّ اليسار الفرنسي، كنّا نراقبها بهدوء كبير.

بدت انتخابات هندنبرغ لرئاسة الرايخ مبرّرة لتكهّنات الشيوعيّين الألمان: كانت النازيّة تخسر عامل السّرعة. كان عليهم زرع التفاؤل؛ استعادت الحركة شعبيّتها، حسب تعبير الجرائد، «صعودها المُدوّي». سنة 1933 رأينا هتلر يتقلّد منصب المُستشار، وفي 27 فيفري حريق رايخستاغ يفتح باب تصفية الشيوعيّين على مصراعيْه. انتخابات جديدة، في شهر مارس، أكّدت فوز هتلر: منذ 2 ماي بات العلم ذو العلامة المُشكّلة يرفرف في باريس، فوق السفارة الألمانيّة. عدد كبير من الكُتّاب والعلماء الألمان، من الإسرائيليّين على وجه الخصوص اختاروا المنفى: من بينهم آينشتاين. أُغلق معهد العلوم الجنسيّة. أحسّ الرأي العام الفرنسي بهول المصير الذي ينتظر المُفكّرين الألمان من قبل نظام هتلر. في شهر مايس، ساحة الأوبرا، ببرلين، محرقة كبيرة أعدمت أكثر من عشرين ألف كتاب. تسلسلت عمليّات اضطهاد مناهضة لليهود. إن كانت إبادة اليهود غير مطروحة بعد فإنّ تدابير كثيرة اتُّخذت لتجويعِهم؛ قطيعة آليّة جعلتهم غير قادرين على كسب حياتهم.

اليوم، يُدهشني أنّنا استطعنا تسجيل تلك الأحداث بنوع من الهدوء النسبي؛ أدنا تلك الممارسات بقوّة؛ كانت النازيّة تُلهِمُ اليسار الفرنسي أكثر من فاشيّة موسوليني؛ لكنّها ترفض مواجهة التهديدات التي تتربّص بالعالم. كان الشيوعيّون إذاً أكثر المتعجّلين للوقوع في الخدعة. مع القليل من التفاؤل المنهجي، كان الحزب الشيوعي الألماني يجهل أهمّية الانشقاق الذي يُضعف البروليتاريا الألمانيّة وأنّ سياسته هي التي تزيد من تأزيم موقفها؛ أكّد ثايلمان أنّه من المستحيل على الأربعة عشر مليون بروليتاري ألماني أن

يسمحوا باستقرار الفاشيّة في عقر دارهم؛ لن ينقادوا أبداً إلى هتلر في حربه. تبنّى الشيوعيّون الفرنسيّون والمتعاطفون معهم هذه الفرضيّات؛ في صحيفة *لو موند*، مارس 1933، كتب باربوس Barbusse أنّ هتلر كان عاجزاً عن إصلاح الاقتصاد الألماني؛ سينهار، وستستعيد البروليتاريا الألمانيّة إرثها. في هذه الظّروف، لم يكن السلام مُهدّداً بالطّبع؛ الخطر الوحيد، يكمن في الارتباك الذي ما ينفكّ اليمين يزرعه في فرنسا كي يقذفوا بنا في الحرب. سنة 1932، اقترح رومان رولان في مجلة *أوروبا* و*لو موند*، بياناً كان جيد من بين الموقّعين عليه، يطالب فيه المُثقّفين بأن يعدوا بـ «معارضة الحرب». جويلية سنة 1933 تأسّست جمعيّة الكتّاب الثوريّين؛ أسّسوا مجلة *المجموعة*، تحت إدارة باربوس، جيد، رومان رولان، ڤايان كوتوريي، وأراغون ونيزان بصفتهما سكرتيرَيْ تحرير؛ الهدف الأوّل كان التصدّي للفاشيّة في فرنسا؛ وعلى الصّعيد العالمي حقّقت الحركة الفرنسيّة المعادية للفاشيّة وحدة مع الحركة السلميّة الكبرى بأمستردام. طبعاً، لم ينحنِ مُثقّفو اليسار أمام هتلر؛ لقد أدانوا – من بينهم مالرو وآخرون – فضيحة محكمة ليپزيغ Leipzig؛ التأم اجتماع مُوسّع في شهر سبتمبر بصالة واغرام Wagram، للدفاع عن ديميتروف، شارك فيه مورو جيافيري وكان من بين المُتدخّلين. لم يمنع ذلك باربوس من تصاعُد الدعاوي ضدّ قيام الحرب. أيّده اليسار برمّته. بشّر كتّاب العمود في صحيفة *ماريان*– أسبوعيّة ذات خطّ راديكالي اجتماعي يُديرها إيمانويل بارل – بالسّلم وأعلنوا فرم نظام هتلر عن قريب. كرّر آلان في *الأفكار* أنّ تصديق الحرب هو الموافقة عليها؛ يجب أن نتجنّبها في الحلم. كان الجميع مُقتنعاً أنّنا لن نتمكّن من فهم احتمال نشوب الحرب ما لم نلعب لعبة اليمين. لسبب آخر أيضاً، أن توغّل الجميع في طريق مُعاكس حيثُ كان على كثيرين الاستمرار فيه بعناد إلى غاية سبتمبر 1938 وحتّى بعد الهزيمة: إنّ ذكرى حرب 14–18 ما زالت لم تبرح حناجرهم. من الخطر وغالباً من المُؤلم التضحية بالحاضر رغم دروس الماضي: لكن بالنسبة إليهم كان الماضي ثقيلاً جدّاً كي يدركوا سقوطهم في هذا الفخّ. سنة 1914، مُفكّرون واشتراكيّون وجلّ النّخب المُثقّفة – من بينهم جوريس Jaurès الذي قُتل بدم بارد – قدّموا أعمدة تعصّب قومي. الذين شهدوا هذا الاندحار، أقسموا على عدم إثارة أسطورة «الوحشيّة الألمانيّة»،

رفضوا التصريح أنّ هذه الحرب، لو اندلعت، فإنّها ستكون صائبة. منذ سنة 1920، عدد كبير من الكُتّاب والفلاسفة، والأساتذة عملوا على التقريب الفرنسي الألماني: استمرّوا في تأكيد موقفهم ومعاضدة بعضهم بعضاً ضدّ الحمق القومي. باختصار، من الراديكاليّين إلى الشيوعيّين، كلُّ اليسار يهتف بصوت واحد: «لتسقط الفاشيّة!» و: «نزع السّلاح!»

هكذا، منَعَنا الإخوة الأكبر منّا من التفكير في حرب مُحتَمَلة. كان لسارتر خيال خصب وميّال إلى الرّعب، كي يحترم التعليمات؛ كانت تصوّرات تعبر ذهنه في هذا الشّأن، جسّدها في *الغثيان*: مُدُن عائمة في الشّغف، كلّ الأبواب مُقفلة، دم على الرّصيف وفي دكاكين القصّابين. أمّا أنا فقد كنتُ أتابع بفرح حلم الانفصام. إنّ العالم موجود كجسم له أشكال عديدة وحيثُ اكتشافُه يُعدُّ مغامرة دائمة، لكن ليس كحقل جاذبيّة قادر على ليّ ذراعي. لا أفسّر الأشياء إلّا بالطّريقة الماكرة التي عرفتُ بها المعلومة. أولي اهتماماً للمشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة، لكن تحت مفاهيم نظريّة؛ لم أكن ألتفت إلى الأحداث إلّا بعد مُضيٍّ سنة، بضعة أشهر، إلّا إذا تحوّلت إلى أشياء. قرأتُ ماركس، روزا لكسمبرغ، *الثّورة الروسيّة* لتروتسكي، كتاب فارمان Farbman، وعلى المستوى الخمسِيّة الأخيرة - *بياتيلتكا* - دراسات حول اقتصاد السياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P، حول حياة العامل الأمريكي، حول الأزمة الإنجليزيّة. لكنّ المقالات السياسيّة تصيبني بالنّعاس، كنتُ أغرق فيها؛ وكي أضيء الأحداث التي لا أجد منها سوى استعارات، كان عليَّ استباق المُستقبل: لا أريد. أؤمن بالمُستقبل البعيد: كان مُحدّداً بلغة تمنح ثورتي وانتظاراتي الحقّ. ما لا أقبله هو أنّ التاريخ يوماً بعد يوم، وسط هذه التّفاصيل والمناورات، بصدد أن يتحقّق وأنّ غداً غير متوقّع يلوح في الأفق من دوني. أحسستُ، إذاً أنّي في خطر. إن شغفي بسعادتي يفرض عليَّ الإمساك بالوقت، ما يكفي كي أجد نفسي بعد أسابيع أو أشهر في وقت آخر، دون حراك، فخورة ودون تهديد. يعاتبني سارتر أحياناً على استهتاري؛ كنتُ أنزعج حين يستغرق طويلاً في قراءة صحيفة. كي أبرّر لنفسي ذلك، أستحضر نظريّة «الإنسان الوحيد». يعترض سارتر قائلاً إنّ نظريّة «الإنسان الوحيد» لا تتنصّل من مجرى الأحداث؛ إنّه يُفكّر دون مُساعدة الآخرين: هذا

لا يعني أنّه اختار الجهل. يُزعزع كياني هذا الهجوم المُضادّ، لكنّي مع ذلك أصرّ على موقفي. أردتُ أن تُحتَقَرَ مسائل الحياة اليوميّة العرضيّة والتافهة، كما فعل رامبو، لوترِيامون، ڤان كوخ. إنّ السلوك الذي أطالب به لا يلائمني إلّا قليلاً: أنا لا أشبه الغنائيّين أو الحالمين أو المنعزلين. إنّه في الواقع نوع من الهرب: كنتُ أضع غمامات كي أحافظ على سلامي. عاندتُ طويلاً وأنا أختبئ داخل «رفض الإنسان» هذا الذي أستوحي منه مظهري الجمالي. أحبّ المنظر الطبيعي الذي يغيب عنه الإنسان، والتنكّر الذي لا يخفي عنّي حضوره: الجمال، الألوان المحلّية. في رووان، كنتُ أحبّذ شارع أو-دي-روبيك: البيوت الغريبة الأشكال، الساطعة، السابحة في مياه قذرة مُعدّة كما يبدو لأصناف غريبة من المخلوقات. شدّ انتباهي الناس الذين، بطريقة أو بأخرى، ينكرون إنسانيّتهم: المجانين، المومسات، المتشرّدون.

لم يكن موقف سارتر من أبناء جنسنا هؤلاء، واضحاً تماماً. كان يسخر من كلّ الحقوقيّين؛ يستحيل، فكّر، أن نعتزّ - لا أن نكره - هذه الوحدة: «الإنسان». رغم ذلك، معاً في الشّوارع الكبرى والمعارض، في ميادين مدريد وڤالنسيا، في كلّ مكان، كنّا نستمتع بالاختلاط بالحشود: لماذا؟ في لندن، لماذا أحببنا الواجهات القذرة بستاند، الميناء، المخازن، المراكب ومداخن المصانع؟ لم تكن أعمالاً فنّية، ولا مُنجزات باروكيّة أو شاعريّة؛ تلك المنازل والشّوارع القبيحة لم تكن تتجاوز الوضع الإنساني، ولا تفرّ من حقيقته: إنّها تُجسّده. إن كنّا قد أولينا عناية كبيرة لهذا التجسّد المعنويّ إلى مادّة فلأنّنا لسنا ممن لا يبالي بالنّاس. تساءلنا دون العثور على إجابة. في الواقع وكما هو شأن أنطوان روكنتان في *الغثيان*، فقد كان لسارتر رهابٌ من بعض فئات المُجتمع، لكنّه لم يكن يسحب ذلك على الإنسانيّة بأسرها: لم تكن قسوته مُسلّطة سوى على الذين يمتهنون تقديسَه. قبل سنوات، قالت امرأة تُربّي عشر قطط لجان جينيت: «ألا تُحبّ الحيوانات؟ - لا أحبّ النّاس الذين يُحبّون الحيوانات»، قال. هذا هو موقف سارتر من الإنسانيّة.

استفسر نيزان يوماً عن مشاغلي، أجبتُه بأنّي شرعتُ في كتابة رواية. «رواية

مُتخَيَّلَة؟» سأل بنبرة تهكّم أزعجتني للغاية. الكتاب الثاني الذي أشتغل عليه منذ سنتَيْن، له العديد من المزاعم: سأسوّي حسابه مع المُجتمع. لاجئ ألماني عرّفتني به كولين أودري، كان يأتي مرّتَيْن أو ثلاثاً في الأسبوع ليُعلّمني اللّغة، نظر باندهاش إلى الأوراق المُكدّسة فوق الطّاولة. «عادة، نبدأ بقصص قصيرة، قال لي؛ وحين نحترف الكتابة قليلاً نشرع في كتابة رواية.» ابتسمتُ؛ لم تكن مسألة حكايات قصيرة؛ أردتُ لكتابي أن يكون وحدة.

إنّ عشوائيّة مشروعي هي التي تُفسّر طموحي وتُبرّرُه. اغتسلتُ في مرساي من مخاوفي، من حسرتي: لم أعد مُهتمّة بنفسي الآن. أرى الآخرين من الخارج، لا أشعر أنّهم يعنون لي شيئاً؛ لا أحسّ بحاجة إلى التحدّث إليهم. عموماً، كانت الأشياء إمّا ثقيلة جدّاً أو مُفرَغة من المعنى حتّى تُراودني فكرة ترجمتها إلى جُمَل. تكسّرت الكلمات على جدار سعادتي؛ والوقائع الصّغيرة في حياتي تستحقّ أن تُنسى. كنتُ في شبابي الأوّل قد عزمتُ على أن أضمّن كتابي العالم بأسره والسّبب هو أنّي لا أجد ما أرويه بشكل مُحدّد.

رغم ذلك، فإنّ كراهيّتي للنّظام البورجوازي كانت صادقة. كانت هي ما حوّل وجهتي من العالم السّحري. اتّخذتُ ستندال نموذجاً اشتغلتُ عليه السّنة الماضية كثيراً. قرّرتُ بيني وبين نفسي استخدام جرأته الروائيّة كي أحكي مغامرة ليست في خطوطها العريضة سوى حكايتي: ثورة فرديّة ضدّ مُجتمع قذر. رسمتُ لوحة لما بعد الحرب، أدنتُ المُثقّفين ذوي الأفكار المُتحذلقة، واجهتهم بأبطال يُجسّدون أخلاقي: أخ وأخت، تجمعهما علاقة تحالف مُعقّدة. لا يُقابل الأخوين من جهتي أيُّ تجربة خاصّة أو أيُّ طيف؛ استفدتُ من ذلك حتّى أتمكّن من سرد أحداث سنوات الدّراسة من وجهة نظر أنثويّة وأخرى ذكوريّة.

اندفعتُ، إذاً، في كتابة قصّة طويلة حيثُ الشّخصيّات هي النّسخة العصريّة لـ «جوليان سوريل Julien Sorel» و«لاميال Lamiel» سمّيتُهما پيير ومادلين لابروس. أمضيا طفولة حزينة في بيت نسختُه عن بيت جدّي وجدّتي لأمّي؛ جرت مراهقتهما بمحاذاة أوزرش. جمعتهما علاقات صداقة، رغبة، حقد، ونقمة بأطفال العائلتيْن الكبيرَتَيْن في الجوار، آل «بومون Beaumont» وآل

«إستينياك Estignac»، المُلتحمَتَيْن بروابط جنس سرّي. منحتُ مارغرين دي بومون الفضائل المتصنّعة التي شدّتني في السيّدة مارغريت دي تيريكور. كتبتُ الفصل الأوّل مُستلهمة إيّاه من ذكريات الطّفولة؛ أيّده سارتر، وپانيز الذي عرضتُ عليه العمل بودّ فأثنى عليه: كان يجد في القصّة سحر بعض الروايات الإنجليزيّة.

لكن فجأة تغيّرت النّبرة: عطفتُ بالعمل نحو السّخرية والهجاء. جعلتني قضيّة بوغرا Bougrat أحلم كثيراً: استوحيتُ منها جوانب مُهمّة. أغوى پيير السيدة مارغريت دي بومون بعد أن طرده والده مُلقياً به في الرّداءة، وهو في أمسّ الحاجة إلى المال، للدّراسة والعيش؛ كان ينوي استغلال العائلة ببرودة، تلك العائلة التي دخلها والتي أوجعتُها بكلّ ما أوتيتُ من قسوة؛ لكنّني أعتقد – وما زلتُ أعتقد – أنّنا ونحنُ ندّعي تحريك الأوغاد إنّما نعقد معهم صفقة في واقع الأمر؛ اكتشف ذلك مُبكّرا، حسم أمره وراح يعيش تحت شتّى الذّرائع مُبدِياً حبّاً عفيفاً أفلاطونيّاً لسيّدة تأخذ من السيّدة لومار والسيّدة دير ينال. زلزال من سوء الفهم الغامض يقوده إلى المقصلة: سمّم صديقُه نفسَه. اعترضت أخته على زواجها؛ كانت تعيش حياة عناد وفضيلة ومغامرة. لم أشتغل كثيراً على هذه النّواة؛ لم تُعجبني ناحيتها الميلودراميّة. ثمّ إنّي متفائلة؛ توقّفتُ عند عقدة أكثر بهجة.

في النّسخة النهائيّة، حافظتُ على فصل الطّفولة. ثمّ نزاع عنيف بين پيير ووالده الذي يدّعي تزويج مادلين لأحد أبناء عائلة إستينياك المُدلّلين. غادر إلى باريس حيثُ سكن في البداية مع عمّة ثريّة في سنّ النّضج؛ تركها وأصبح يُغنّي في كاباريه مُقلّد على *الأرنب الرّشيق*، كما وصفه لي دولان؛ كان يريد امتهان التمثيل مثل دولان، مُخرجاً، ومُجدّداً في المسرح؛ لم يكن مُجرّد وصولي، كان طموحاً جدّاً: الخلق، وفي وسعي منحه حيرتي الخاصّة.

اخترتُ لقطيعته مع عائلته سنة 1920. كي أعيد تصوّر الجوّ في تلك الفترة، قرأتُ في مكتبة رووان أعداداً من *المجلّة* ومجموعة من *الإنسانيّة*؛ جعلتني المقارنة غبيّة أمام نفسي: بين الحكايَتَيْن اللتين تُرويان لي في نفس الوقت، في نفس البلد، لم يكن هناك نقطة مُشتركة واحدة. لم أطل البحث، اكتفيتُ

بحدَثَيْن أو ثلاثة. افتُتِحَ الفصل الذي وصل فيه پيير إلى باريس بوصلة بطولة كبيرة. كان يتنزّه في أروقة اللوڤر، رمق بتأثر لوحة *سان-لويس* لغريكو؛ ثمّ حضر مصادفة، بساحة نزل المدينة، الحفلة التي قلّد فيها پوانكاري Poincaré باريس بميداليّة الحرب. استاء جرّاء هذه المهزلة، تساءل كمّاً من الأسئلة؛ كيف يُمكن إنجاز لوحة رائعة حين يكون لدينا رأس شخص لئيم؟ أين هي حقيقة الفنّ ومتى يُصبح خيانة؟ لاحقاً، ستجمعه علاقات بشابات شيوعيّات، ورغم أنّه يُشاركهنّ جلّ أفكارهنّ، كان يرفض نظرتهم الحاسمة إلى العالم؛ ومثل إنسانيّتهم، كان مُتمسّكاً بلا إنسانيّة بشعريّة الأشياء؛ وكان يُنصّب القيم الفرديّة منزلة أعلى من المصلحة الجماعيّة. لم تكن تلك الصّراعات مجانيّة لأنّي ألقيتُ به في فوّهة الحبكة العاطفيّة التي جعلته يشعر يوماً بعد يوم بأهمّية القلب والوجه المحبوب.

هذا الوجه، كان وجه زازا، التي سمّيتُها آن من جديد، والتي حاولتُ أن أحيي صورتها. تزوّجت الابن الأكثر موهبة في عائلة إستينياك، وخلال العُطل التي كانت تُقضّيها على تخوم أوزرش أصبحت صديقة لمادلين وتعرّفت على پيير الذي التقى بها في باريس. بدت لي قصص الحبّ عاديّة؛ ثمّ إنّ تديّن آن، وإخلاصَها، احترام پيير لها منعتهما من خوض علاقة متهوّرة؛ أتخيّل بينهما إحساساً أفلاطونياً لكن عميقاً جدّاً؛ انفتحت آن على الحياة أخلاقيّاً وفكريّاً. لكنّ زوجها حرّم عليها تلك العلاقات. كما هو الشّأن في الرواية السابقة، ماتت آن ممزّقة بين الواجب والسّعادة. هكذا أفضت المهزلة إلى تراجيديا؛ لم تظهر الروحانيّة البورجوازيّة تافهة فحسب بل وقاتلة أيضاً.

رغم ذلك، التحقت مادلين بأخيها في باريس؛ مارست صفاقة لا تغيب عنها الابتسامة؛ كانت حاذقة في استمالة قلوب الرّجال، ونظّمت مع أخيها عمليّات سطو والمؤكّد أنّها قادت ألعابها بأريحيّة؛ رغم مشاكلها؛ كانت تُعاني من آلام لا أعتقد أنّي شُفيتُ منها بعد؛ كان الآخر يُبهرها. صغيرة، عندما كانت تلتقي بأميرة صغيرة ذات أقراط جميلة، كانت تقول: «كم أريد أن أكون مارغريت!». كانت تحبّ أخاها في حقيقته؛ وقعت في حبّ رفيق پيير، شيوعيّ شابّ اسمُه «لابورد»، كانت مُعجبَة بقوّته ومبادئه: كان عالمها

يدور حول هذا الرّجل المُكتفي بذاته، لم تكن هي سوى أحد أقماره. لكن ها هو يُحبّها بدوره، كان في حاجة إليها، باح لها بذلك؛ تهاوى السّراب، لم يكن لابورد امتلاءً لا يُساوره الخطأ، بل رجلاً، من جنسها. صرفت عنه النّظر لتجد نفسها في مواجهة حياتها باعتزاز وفخر.

كان لهذه الرّواية قيمة؛ رغم الإفراط في مراحلها ومحاورها، بنيتُه بصلابة؛ لم أغفل عن أيّ شخصيّة في مسارها؛ كانت الوقائع الخارجيّة والتّجارب الخاصّة تتآلف بشكل طبيعي، أحرزتُ تقدّماً في فنّ الحكاية، بناء مشهد وتركيب الكلام على لسان النّاس. لم يكن إخفاقي جذريّاً بصورة أقلّ. من جديد خنتُ زازا وأنا أطابق قصّتها على الأحداث؛ سقطتُ في خطأ استبدال زوج بأمّ؛ وإن كانت غيرة الأخيرة تُفهَم أفضل مما هي عليه في الرّواية السّابقة، فإنّي مع ذلك لم أجعل معقولاً يأس آن. في الوقت الذي كانت تعيش فيه مع زوجها، لم يكن «إخلاص» پيير حقيقيّاً؛ حرمتها قطيعتهما فقط من صداقة لم أُحسن إضفاء القوّة الحارقة عليها كي أبرّر موتها.

تماسك وضع مادلين بشكل أقلّ؛ بالنّظر إلى خصالها، كان من غير المعقول أن تنفصل عن رجل تحترمه لأنّه ببساطة يُحبّها.

أخيراً لم أعرف الظّروف التي كان عليها أن تحفّ بپيير؛ لم يكن للشّخصيّات الثانويّة أيّ خصوصيّة أو قدرة على الإقناع. بعد بداية عاديّة، توقّفت الرّواية ولم تكتمل. استعجلتُ الفصول الأخيرة: كنتُ قد فهمتُ أنّ الجولة خاسرة لا محالة.

كانت المقاطع الأكثر إقناعاً، رغم كلّ شيء، هي المقاطع التي وصفت صعوبات مادلين. استعدتُ شعوري بالسّلام؛ لكنّ تلقّيتُ صفعة مؤثّرة جرّاء الانتقال العنيف من الفخر إلى المهانة. ولم أكن قد عثرتُ على حلّ لأكبر مشاكلي: مصالحة همّ التّعويل على الذّات مع الأحاسيس التي تقذف بي نحو الآخر دون شفقة.

في تلك السّنة، نظّم موسوليني في روما معرضاً فاشيّاً، ولاستقطاب السُيّاح الأجانب وفّر النقل عبر القطارات تخفيضا بـ 70%. انتهزنا الفرصة دون تردّد.

على عكس إسبانيا التي كانت تنطوي على بعض الأشياء البشعة، لم يكن في إيطاليا حائط واحد غير مُشبع بالجمال؛ أذهلتني إيطاليا منذ البداية. سارتر، لا؛ تحت أقواس البيزا Pise، قال لي بنبرة عابسة إنّه يجد هذا البلد جافّاً، وإنّه لا يُعجبه أبداً: ذلك لأنّه لم يُطق لقاء الفاشيّين ذوي القمصان السّوداء في الشّوارع.

زُرنا أجمل مُدن وسط إيطاليا، أمضينا أسبوعَيْن في فلورنسا. قرّرنا ترك روما لزيارة أخرى ولم نتوقّف فيها سوى أربعة أيّام. نزلنا في فندق بساحة بانتيون Panthéon، الذي كان أفضل أسواق المدينة حسب الدّليل: ألبيرغو ديل سولي حيثُ سكن سرفانتس Cervantès. وقعنا فوراً في حبّ السّاحات والنوافير والتماثيل الساحرة. أحببتُ أن يكون لـ «الفوروم Forum» حديقة كبيرة، حيثُ الورود الحمراء حول حوض الـ «ڤستال Vestales». وها إنّي أتجوّل في تلال الـ «بالاتان Palatin»[15]. لكنّ حضور موسوليني كان طاغياً على المدينة؛ كتابة على الجدران، والقمصان السّود المُنتَشرة على الأرصفة. ليلاً، لم نكن نرى أحداً في الشّوارع؛ سقطت في الغياب هذه المدينة التي عرفت الأمجاد عبر القرون من العدم؛ ذات مساء قرّرنا أن نسهر إلى غاية الفجر، شاهِدَيْن وحيديْن. عند منتصف اللّيل كنّا نتحدّث في ساحة ناڤونا المُقفرة، جالِسَيْن على حافّة النافورة؛ ما من بصيص ضوء خلف الشّبابيك المُقفلة. قميصان أسودان اقتربا منّا: ماذا نفعل في ساعة متأخّرة في الخارج؟ شفعت لنا عندهما صفة السُيّاح، لكنّهما رجوانا بحزم أن نعود للنّوم. لم نُطع؛ كان مُؤثّرا أن نمشي على الرّصيف الروماني دون أن نسمع شيئاً عدا وقع خطواتنا: كما لو كنّا قد هبطنا بمعجزة في إحدى مُدن المايا التي تحجبها الغابات عن الأنظار. مع حوالَي الثالثة صباحاً، سُلّط علينا ضوء مصباح كاشف: ماذا نفعل؟ لكن هذه المرّة بدا سلوكنا مُشيناً حتّى لو كنّا سُيّاحاً. انتهى بنا المطاف للعودة إلى الفندق مُتحَسِّرَيْن على ليالي مدريد الجميلة. كان علينا حضور المعرض الفاشي كي نتمتّع بخدمة التّذاكر المُخفّضة. ألقينا نظرة على الواجهات الزّجاجيّة حيثُ عُرضت مُسدّسات وعِصِيٌّ «شهداء الفاشيّة».

15- «بالاتان Palatin»: لهجة ألمانيّة يتكلّمُها سكّان ضفاف نهر الرّين.

في أورڤيتو Orvieto، رأينا كنيسة سينيوريلي Signorelli، توقّفنا بضع ساعات أمام طوب بولونْي Bologne الأحمر. ثمّ ڤينيسيا. لدى خروجنا من المحطّة ذُهلتُ لرؤية المسافرين وهم يُدلون بعناوين نُزُلِهم لأصحاب مراكب «الجندول»؛ سيتّخذون أماكنهم، يفتحون أمتعتهم، ويستحمّون: تمنّيتُ ألّا أقع في مثل ذلك. وضعنا حقائبنا في الاستقبال، ومشينا ساعات؛ رأينا ڤينيسيا بتلك النّظرة التي لا تتكرّر: الأولى. تأمّلنا باندهاش المرّة الأولى لوحة *الصّلب* العملاقة لـتانتوري Tintoret. في ڤينيسيا أيضاً، قريباً من جسر ريالتو، لمحنا الشّرطة الألمانيّة في قمصان داكنة؛ كانوا من صنف آخر مختلف عن الفاشيّين السود الصّغار؛ طوال القامة، ذوي عيون فارغة، ويمشون بخطوات قاسية. كان هناك ثلاث مائة ألف قميص داكن يتنزّهون في نورمبرغ: كان مُجرّد تخيّلهم أمراً مُرعباً. أحسَّ سارتر بوقع أن يرى هؤلاء في شوارع برلين بعد شهر، سيُصادفهم كلَّ يوم.

لم يكن بحوزتنا فلس واحد في ميلانو. تسكّعنا تحت أروقة غاليريا؛ بدت لنا المطاعم والمحال فخمة بما أنّنا ممنوعان من دخولها. كان علينا التّضحية بالأيام الثّلاثة التي كنّا سنقضّيها حول البُحيرات. بكيتُ لشدّة قسوة التّضحية. عُدنا إلى باريس.

غادر سارتر إلى برلين، لم أعد أهتمّ بالقضايا الوطنيّة. مع ذلك كانت هناك غيوم سوداء تتكوّن في السّماء، إنّها تتكاثف، وسرعان ما ضربت الصّاعقة. زحف هتلر مع المُجتمع الدّولي، وبرهن الاستفتاء السّاحق الذي تلا خطابه المُدوّي في 11 نوفمبر أنّ ألمانيا تدعم سياسة العنف. لا أحد صدّقه حين ادّعى أنّ ألمانيا تسعى إلى السّلام «في كنف الشّرف وتساوي الحقوق». فيما استمرّ اليسار الفرنسي في التّأكيد بأنّ على فرنسا منع الحرب. «التصدّي إلى موجات الفزع، على السّلام أن يسود مهما كان الثّمن»، كتب آلان بداية 1934. إنّ محاكمة ليپزيغ – أُخلِيَ سبيل جميع المُتّهمين، ما عدا ڤان دير لوب الذي حُكِم عليه بالإعدام ونُفّذ فيه الحكم شهر جانفي – أقنعت اليسار بأنّ النازيّين لم يكونوا واثقين من نفوذهم. ما أدانته أكثر من غيره هو صعود فاشيّة فرنسيّة.

اتّخذت المنظّمات اليمينيّة من الوضع العالمي ومن الكساد الاقتصادي ذريعة لنشر قوميّة عدوانيّة تقف ضدّ الديمقراطيّة. تفاقمت بسرعة فضيحة اختلاس ستافيسكي Stavisky[16]، التي بدأت هادئة أوّل الأمر: استغلّ اليمين الضجّة ضدّ الاحتكار اليساري، والجمهوريّة الثالثة والبرلمان والديمقراطيّين عموماً. أجّجت رابطة التحرّك الفرنسي، الوطنيّين الشباب، التضامن الفرنسي، الاتّحاد الوطني للمُقاومين، صليب النّار خصومات في شارع راسپاي، شارع سان-جرمان، قريباً من غرفة النُّوّاب، على امتداد شهر جانفي. ترك لهم شياپ Chiappe الأذرع طليقة. بعد المُظاهرة التي التأمت يوم 26 جانفي في ساحة الأوبرا والتي ضمّت أربعين ألف شخص، استقال المكتب؛ شكّل دالاديي Daladier حكومة جديدة وأقال شياپ. اندلعت أعمال شغب يوم 6 فيفري، يوم تقدّم الوزراء أمام الغرفة. لم أتابع الحكاية إلّا من بعيد: كنتُ مُقتنعة أنّها لا تعنيني. بعد العاصفة جاءت الأخبار المُمتازة؛ بدا لي من العبث الانشغال باضطرابات لا حيلة لي إزاءها على أيّ حال. اشتدّت شوكة الفاشيّة في كامل أوروبا، ونضجت الحرب: بقيتُ في سلامي الأبدي.

كان لابدّ لي من كم هائل من المبادئ حتّى أحافظ على لامبالاتي: لم يكن الوقت يعوزني، بل لم أكن أعرف فيما يُمكنني أن أستغلّه. غرقتُ في الملل الريفي. لم يكن هناك الكثير لأنتظره من زميلاتي الجدد. كانت الآنسة لوكاس، أستاذة الإنجليزيّة تُشبه فطراً ضخماً؛ تدلّى فُستانها المُخملي الأسود إلى قدميها ويُفتَح على وشاح صوفي وردي: «لم أستطع التخلّي عن فساتيني للطّفلة الصّغيرة!» قالت، كانت تكره تلاميذها لأنّهم يُذكّرونها بصغرها. خرجت السيّدة أوبان للتوّ من سيڤر Sèvres مُجسّدة امرأة في مهبّ الرّيح؛ كانت تجوب قاعة الأساتذة مُطلقة الزّفرات: «الرقّة، أريد القليل من الرقّة!» بالتّأكيد، كانت سيمون لابوردان أقلّ حُمقاً؛ ارتبط ماركو معها في علاقة، كانت تعرف السيّدة لومار وپانييز؛ كانت سمراء وذات عينَيْن رائعتَيْن زرقاوَيْن

16- ستافيسكي Stavisky: وُلِد ستافيسكي الفرنسي ذو الأصول الروسيّة سنة 1886 في أوكرانيا وتُوُفِّيَ سنة 1934 في شاموا الفرنسيّة. مصرَفيّ اتُّهِم بتحويل أموال واشتهَرت قضيّته في تلك الفترة وشغلت الرأي العام والصحافة.

يميل لونهما إلى الرمادي، ملامح جافّة وصافية، وأسنان سيئة؛ لم نستلطف بعضنا بعضاً كثيراً، لكنّها كانت رفيقة كوليت أودري في سيڤر وكنّا أحياناً نتناول الغداء معاً، ثلاثتنا في مطعم شعبي بمحاذاة المحطّة. كانت مواقفنا تقرّب بيننا. كانت كوليت أودري وحدها من تهتمّ بالسياسة: كانت تبدو شيوعيّة حمراء خالصة؛ فيما كانت لي ولسيمون نفسُ وجهات النّظر حول ما يحدث. كنّا نُبدي في المعهد، خلال شبابنا، نوعاً من الأسبقيّة على جيلنا. كنّا نعتني بأناقتنا. كانت كوليت ترتدي عادة قمصاناً من نوع لاكوست وربطات عنق تغيّر في ألوانها بجسارة وسعادة؛ كانت تملك سُترة جميلة جدّاً، تبدو لنا رائعة، من الجلد الأسود وذات بِطان أبيض. كان لدى سيمون صديقة تقتني ملابسها من كبريات الدّور فكانت تُهديها من وقت إلى آخر بذلة مُذهلة في بساطتها وجودتها. بالنّسبة إليَّ كانت أناقتي تنحصر في الكنزة التي كانت جدّتي تحيكها حسب نماذج منتقاة بعناية والتي كان تلاميذي يُقلّدونها عادة. كانت زينتنا وتسريحة شعرنا ما يُمكن أن يُسمّيه والد كوليت أودري: راهبات علمانيّات.

لكن من كنّا؟ لا زوج، لا أطفال، لا بيت، ما من منصّة اجتماعيّة، وعشرون سنة: في مثل هذا العمر يرغب المرء في أن يكون ذا وزن ثقيل على الأرض. انخرطت كوليت في السّياسة، من خلال ذلك الميدان أرادت أن تُثبت لنفسها أنّها موجودة. حتّى ذلك الحين، جنّبني عشقي للحياة، ومشاريعي الأدبيّة ومساندة سارتر همّاً من هذا النّوع. لكن ها إنّ غيابه وضعف الرّواية التي عكفتُ على كتابتها وكآبة رووان، تجتمع لتشويش مساري. هكذا فسّرتُ الضيق البائس الذي اجتاحني.

في باريس، كنتُ أتناول العشاء باستمرار مع ماركو الذي عُيِّنَ حديثاً أستاذاً للإنجليزيّة في أميان Amien، صحبني إلى حانات رائجة حيثُ كنّا نأكل أطباق الصّلصة على أغطية المُربّعات؛ كان يُريد أن يبدو جذّاباً وسخيّاً في الإطراء؛ روى لي كمّاً هائلاً من الحكايات، الخاطئة أكثر مما هي صحيحة، لكنّها كانت في مُجملها مُمتعة؛ باح لي بأسرار قلبه بإفراط لم يخدعني؛ كنتُ أجيب بالكشف عن أسرارٍ مدروسة، لم يكن هو بدوره يُصدّقها: لكنّ وسامته منحت

قيمة لشراكته المُخادعة. في تلك الفترة كنتُ أنساق إلى الأذى: استمتعتُ بالإصغاء إليه وهو يُقطّع سيمون لابوردان بأسنانه. كان يتبجّح بكونه حوّلها إلى امرأة تعيسة. لِمَ لم يتأثّر إلّا قليلاً بشغفها به؟ لم أعرف ذلك قط. في الواقع كان يُحبّذ الرّجال. خلال وقت وجيز أقام علاقة مع شاب أشقر وسيم وراح يتغزّل به في قصائد، سيّئة للغاية، شَعرٌ ذو رائحة غابيّة؛ قبلا أن تشاطرهما سيمون الشقّة؛ لكنّ ماركو روى ساخراً: «كنّا نجعلها تنام في خزانة.» حاولت إغواء الشاب الأشقر لكنّ الأوضاع لم تنجح. ثمّ إنّ ماركو غادر إلى أميان وسيمون إلى رووان؛ كانت لا تزال تراه مُحاولة بفشل ذريع غزو قلبه والتحرّر منه في آن. كانت تعيش تحت عَيْنَيْه مقاومة فكرة كرهِه دون كلل. سرق منها كرّاساً من مُذكّراتها وقرأ لي مقاطع منه: «أريد أن أهيمن! كتبت. سأتّخذ لنفسي منقاراً وأظفاراً وسأمسك بالأشياء والناس تحت مخالبي.» كان ذلك مُثيراً للشّفقة أكثر من كونه مُزرياً. أفرط ماركو في إهانتها، كانت تحاول ردّ الفعل مُستعينة بكلمات خرقاء؛ مع ذلك لم أفكّر في لفت الانتباه إليها وكرّرتُ على كوليت ضاحكة، ما سمعتُ من تعاويذها المُنحَطّة. كانت تضايقني يوماً بعد آخر بهمّ تأسيس حياة غنيّة، ومتنوّعة لن يكون في وسع ماركو بعد المجد الذي ستبلغه أن يُحقّرها: كانت تُزيّف الحقيقة؛ وتنفخ تجاربها؛ ماركو أيضاً، لكنّه كان يفعل بعفويّة، كما يبدو، مجاناً، فيما كانت هي تسعى وراء ذلك بجدّية مؤسفة.

كنتُ ربّما سأحاكمها بقسوة أقلّ لو أنّها لم تكن تكنّ لي عداءً حادّاً. قطعاً، لم يُخفِ عنها ماركو أنّي أتهكّم عليها: لم يُحفّزها ذلك على الصّداقة.

ضيّق غياب سارتر الحميميّة بيني وبين پانييز: في تلك السّنة كنّا نتناول العشاء باستمرار بمفردنا؛ كنتُ أروي له كلَّ ما يحدث معي؛ كنتُ أسأله النّصيحة كلّما احتجتُ إلى ذلك؛ كانت لديَّ ثقة كبيرة بحكمه على الأشياء وكان يحوز مكانة هامّة في حياتي. اغتظتُ كثيراً لمّا علمت أنّ سيمون كانت تنقل إليه بطابع مشحون بسوء النيّة أفكاراً ودّية في الواقع كنتُ قلتها لها في شأنه. ثأرتُ منها من خلال القيل والقال. كنتُ من حين إلى آخر، من باب السّأم، أحتسي كأساً مع الآنسة پونتيو Mlle Ponthieu، قيّمة شابّة يُفسدُ وجهها وحم خمري اللّون، قبيح في الحقيقة، لكن كان جسدُها رشيقاً وكانت

أنيقة؛ كانت على علاقة بصناعيٍّ من باريس وتعيش قصصاً غراميّة مع أساتذة من ثانويّة الأولاد. كنّا نتحدّث حول الملابس والزّينة، ونثرثر. بعد ظهيرة مُتعبة كنتُ عادة أجد عذوبة قذرة في التطرّق إلى الفضائح. في الخارج كانت الغيوم واللّيل الريفي؛ لكن لا شيء يوجد بشكل أعمق من الإضاءة والدّفء في المقهى حيثُ كنتُ أجلس، الشّاي الحرق في حنجرتي، أنا التي تتكلّم والتي في وسعها تمزيق العالم بأسره بواسطة الكلمات. كانت سيمون ضحيّتي المُفضّلة.

يوم الأحد أذهب لرؤية ماركو في أميان؛ أطلعني على كاتدرائيّة المدينة، كان أكثر يقظة وتزلّفاً من أيّ وقت مضى. طرح عليَّ أسئلة خبيثة حول السيّدة لومار وپانييز، حول علاقتي بسارتر، لكنّني كنتُ أحبط كمائنه من خلال الكذب والتلفّظ بأشياء ساذجة لا جديد فيها. كان حوارنا سلسلة شجارات تنتهي غالباً بضحكة مُدوّية. أمضيتُ يوماً مرحاً للغاية. مساءً، أخبرني ماركو برصانة أنّه يرغب في البوح لي بسرّ عظيم. أخرج من حافظة أوراقه صورة طفل وسيم أشقر: «إنّه ابني»، قال لي. قبل ثلاث سنوات، كان في عطلة بأحد شواطئ الجزائر؛ من بعيد لمح يختاً يتألّق؛ سبح إلى غاية المركب، صعد على سطحه، هناك التقى شابّة إنجليزيّة رائعة الجمال، شقراء ومن عائلة نبيلة وغنيّة. كان يعود إليها كلَّ ليلة. ووُلد الطّفل سرّاً. لا أدري ما الذي حدث له، ولا كيف انتهت ملحمة العشق المُترفة لأنّي كنتُ قليلاً ما أهتمّ بالمسرحيّات. لاحقاً، سيُقدّم ماركو لسارتر نسخة مُختلفة عن هذه الرّواية وروى أخرى لپانييز. في الحقيقة، كان الطّفل الأشقر ابن أخيه. لابدّ أنّ ماركو سعيد لاعتقاده بأنّه خدعني، لأنّه ليس هناك أفضل من إنسان مولع بالخرافات كلّما تعلّق الأمر بتصديق سذاجة الآخرين. في آخر الأمسية، سجّلتُ نقطة على أيّ حال. حجز لي غرفة لدى المرأة التي تؤجّر له بيته؛ اقترح أن نتقاسم الفراش «كأخ وأخت». أجبتُ بأنّ أصل القاعدة هو أنّ الأخ والأخت بعد سنّ معيّنة لا يعودان يتقاسمان الفراش نفسَه. ضحك لكنّه اصفرّ قليلاً. عموماً كنتُ سأرفض عرضه السيئ؛ زيادة على ذلك، روى لي أنّ إحدى مُتعه حين كانت سيمون لابوردان تزوره في أميان، هو أن يقضّي الليل تحت غطائها بعفّة ويتسلّى بمداعبتها كأنّه يفتتح معها عناقاً، مُستمتعاً بسماع لهاثها من شدّة الرّغبة: أشعر بالبرود ناحية ماركو ولم أكن

أخشى مناوراته؛ لكنّي أكره عجرفته. يا للانتصار العظيم لو أنّي أطلقتُ أنيناً في الحلم! أنا راضية عن الإحباط الذي سبّبته له. لدى عودتي إلى رووان رويتُ ما جرى في عطلة نهاية الأسبوع للآنسة پونتيو. أضفتُ أنّ ماركو لم يعد قادراً على إلحاق الألم بسيمون لابوردان وأنّه يكنّ لي المودّة. عرفتُ من پانيير أنّ سيمون ضحكت كثيراً لأنّي تبجّحتُ بسلبها مكانها في قلب ماركو: هذا ما بلّغتها إيّاه الآنسة پونتيو. ندمتُ فعلاً؛ أنا أيضاً يُمكن تعذيبي بواسطة الكلمات؛ إنّها لعبة. أنتبه إلى ذلك حين لا يكون هناك فائزون. لم أمنع نفسي من الاستمتاع، إذا أملى عليَّ قلبي ذلك، لكن دون ترقّب انتقام أو انتصارات.

حصلت لي مُغامرة أخطر بكثير. كان عليَّ قضاء أمسية السابع من فيفري مع ماركو؛ دعتني السيّدة لومار وپانيير إلى العشاء في ذلك اليوم بالذات. لم أكن أرغب في الإفصاح لهما عن علاقتي بماركو، لأنّهما كانا يبالغان في تأويل حميميّتها، ولا يُؤيّدانها أبداً. كنتُ سأبغض النّظرات التي كانا سيتبادلانها لو أطلعتهما على الحقيقة. أجبتهما، إذاً، أنّ عليَّ الخروج مع أختي. يوم 6 فيفري وجدتُني في رووان؛ عرفتُ الأخبار خلال اليوم الموالي عبر الجرائد. بعد العشاء، خرجتُ في نزهة مع ماركو، في ساحة الكونكورد؛ كان بالإمكان رؤية السيارات مقلوبة ونصف متفحّمة؛ كان هناك فضوليّون يحومون حول المكان. فجأة وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع پانيير وسيمون لابوردان. تبادل پانيير وماركو أحاديث عامّة بمرح؛ أمّا أنا فقد اعتُصِرت حنجرتي. عاودني الفخّ الذي وقعتُ فيه عندما كنتُ في السادسة عشرة، لمّا نسختُ ترجمة نصّ لاتيني؛ حركة دون عواقب تسرّبت منّي دون قصد، بات لها معنى هائل. سيقرّر پانيير والسيّدة لومار بتكتّم أنّ علاقتي بماركو مشبوهة. كيف السّبيل لأشرح لهما أنّي حاولتُ منع ابتساماتهما؟ لا. هذه المرّة أيضاً، بدا لي من الحكمة المثابرة في الكذب. بعد أسبوع تناولتُ العشاء مع پانيير؛ أكّدتُ له أنّي كنتُ عازمة على الخروج مع أختي: لم أغيّر خطّتي سوى في آخر دقيقة. دافعتُ عن حجّتي بحرارة جعلته يوشك على تصديقي؛ لكنّ السيّدة لومار لم تزدد سوى اقتناعٍ بأنّي منافقة وجعلتني أشعر بذلك. يؤسفني أنّي خسرتُ ثقتها. أنقذني سارتر من هذا الموقف حين جاء إلى باريس بمناسبة عيد الفصح؛ روى الحقيقة لأصدقائه، وفسّر لهم سلوكي بتعاطف عرف كيف يجعله مُعدياً؛ ربّما

سرح بهم خيالهم حتّى إنّهم شكّوا في صراحتي إزاءه؛ في مُجمل الأحوال، لقد أقنعهم مزاجه الحسن بأنّه أولى عناية كبيرة للمسألة. ضحكوا معي دون أفكار مُسبقة. ما زلتُ أستحضر هذه الذّكرى بشكل حيّ؛ ليس ثمّة لعنة أكبر من أن تُعامَلَ كمذنب من قبل قضاة مُحتَرَمين؛ كلّ محاكمة غيابيّة هي سبب إضافيّ كي تُتلَفَ علاقة المرء بنفسه وبالآخرين وبالعالم، إنّها وصمة أبديّة. مرّة أخرى حالفني الحظّ، أنا التي ما كنتُ لأتحمّل سرّاً من الأسرار.

يوم التاسع من فيفري نظّم الحزب الشيوعي مُظاهرة تصدّى لها البوليس بوحشيّة وقُتِلَ ستّة عمّال. يوم 12 فيفري اصطفّ العُمّالُ الشيوعيّون مع الاشتراكيّين للمرّة الأولى جنباً إلى جنب في مسيرة واحدة اتّجهت إلى ڤانسان. أعلنت الرّابطة العامّة للشّغل إضراباً عامّاً في ذلك اليوم وانضمّت إليها الرابطة العامّة المُوَحَّدة للشغّالين، «ضدّ تهديد الفاشيّة ودفاعاً عن الحرّيات السياسيّة». امتثل للإضراب أربعة ملايين ونصف مليون عامل تقريباً. في المعهد وحدهنّ سيمون لابوردان وكوليت أودري ومناضلة نقابيّة أخرى ساندن الإضراب. لم أفكّر في الانضمام إليهنّ، فقد كنتُ بعيدة جدّاً عن كلّ نشاط سياسي. ثمّة سبب آخر لهذا التردّد. كنتُ أتجاهل أيَّ خطوة تجعلني أعي وضعي كما لو كنتُ أتحمّل مسؤوليّة، مثل ذي قبل، أرفض التقاطع مع الأستاذة التي كنتُ. لم يعد في وسعي الزّعم بأنّي أقدّم دروساً: كنتُ أقوم بعملي كرهاً: إنّه يضطرّني للإقامة في رووان، للمجيء إلى المعهد في ساعة مُحدّدة، الخ. لم يعد دوراً أقوم به، فُرِضَ عليَّ فرضاً، فأذعنتُ له بل أمر تختبئ خلفه حقيقتي. لم أكن مُهتمّة بمطالب النّقابات. كنتُ أريد التحرّك في الفصل الدراسي كفرد يُعبّر عن أفكاره أمام أشخاص آخرين دون أن تبدو عليه صفة العضو في منظّمة تحرّك أو خطابَة.

مع ذلك وبسبب مُحتوى دروسي، كنتُ أُرمَقُ بنظرات مُستاءة من قِبَل البورجوازيّة برووان: يُرَوَّجُ أنّي أخرج مع نائب غنيّ. ألئنّ بانيبز كان أحياناً في انتظاري بمحطّة سان-لازار في كامل أناقته؟

كان أصغر من أن يكون نائباً؛ ولم يكن لي مظهر آكلة مُجوهرات. لكنّ الناس لا ينظرون عن قرب: إنّهم فقط يثرثرون. كنتُ في القسم أجتنب

العثرات؛ لم أعد أعير التّلميذات كُتباً خطيرة تخدش الأخلاق السّائدة، بل أطلب منهم العودة إلى مرجع كوڤيلي للفلسفة. إلّا أنّي وأنا أتحدّث عن العائلة قلتُ إنّ المرأة ليست مُعدّة لصنع أطفال العالم. قبل ذلك بأشهر كان الماريشال پيتان Pétain، قد طالب في خطاب ألقاه، بضرورة توحيد المدرسة والمؤسّسة العسكريّة. وطاف بيان مُوَجَّه للأساتذة لخدمة بروباغندا التشجيع على الإنجاب: خطرت لي بشأن البيان تصوّرات مُضحكة. جرى الحديث على أنّي أتبجّح بعُشّاقي الأثرياء وأنّي أدعو تلميذاتي لتقليدي؛ بعد ذلك قيل إنّي طلبتُ منهنّ اتّباعي بأمر صارم؛ بعضهنّ ممّن كنّ يتمتّعن بـ «أخلاق عالية» عارضن الدّعوة. بالتّأكيد ذلك ما شجّع «مجلس المُحافظة للولادات وحماية الطّفولة» على إرسال تقرير للمُحافظ يدين التلقين الذي يقوده «أستاذ غير شريف» والذي يستهدف إفساد العائلة الفرنسيّة. صغتُ بمساعدة پانيبز ردّاً ثائراً بتحصُّن، قدّمتُه لرؤسائي في العمل؛ اتّهمتُ فيه أولياء التلاميذ الذين هاجموني مُدّعين أنّي أؤيّد المذهب الهتلري وأنّي أطالب بنفي المرأة في بيتها. كان مُتفقّد الأكاديميّة رجلاً مُسنّاً يلبس بشكل سيّئ ولا يُثمّن البورجوازيّة المحلّية وانحاز لي ضاحكاً.

رغم ذلك، وفي معهد كورني Corneille، لم يترك زميلي السيّد ترود مُناسبة في الفصل إلّا ونصب لي مُحاكمة تشهير وقام بتقطيعي خلالها.

زادت الأساطير التي حيكت ضدّي وضدّ كوليت وسيمون من قيمتنا في عيون البنات ممّن لم يكنَّ يرزحن تحت التزمّت. كانت كوليت أودري تُؤجّج بعض النيران التي لم نكن نعيرها أهمّية كبيرة. لكنّنا كنّا صغاراً حتّى يُمتعنا أن نبدو بديعين في عيون الآخرين. قلتُ إنّ ماركو كأغلب المثليّين الجنسيّين، كان يلتقي بـ «كائنات رائعة». كانت سيمون لابوردان تُفتّش بهوس عن تلميذة على رأس النّخبة، عن المراهقة العبقريّة التي كانت تُعارض نتائج بحوثها. كانت كوليت تسعى دائماً لإخضاع تلميذاتها إلى تأثير سياسي، عددٌ كبير من بينهنّ انخرطن في «الشّبيبة الشيوعيّة». أمّا أنا فأشتغل على قراءة بعض الروايات أمام تلميذات الثالثة ممن كنتُ أدرّسهنّ اللاتينيّة. ثلاث أو أربع من بينهنّ كان لديهنّ اعتزاز وهموم نساء راشدات؛ أجملهنّ – التي ستُصبح لاحقاً

ممثّلة تعمل مع باتي Baty – وجدت نفسها حاملاً، وكان عليها الزواج في سنّ الخامسة عشرة. دخلت طالبات الفلسفة تحت مظلّة النضج وكنتُ أقابل من سيُصبحن نساء (في الحقيقة لقد تفاجأتُ. لم أرتَبْ يوماً في أنّ العاقلة والرّصينة جاكلين ناتر قد نجت من المقصلة بأعجوبة؛ لقد أصبحت الشّجاعة جاكلين غويرتجي، وأصدرت محكمة الجزائر في حقّها حكماً بالإعدام هي وزوجها.) بقليل من التفاؤل.

حدّثتني كوليت عن مُقيمة يُسمّونها «الروسيّة الصّغيرة» لأنّها كانت ابنة روسي أبيض متزوّج بفرنسيّة، شهد لها كلّ الأساتذة بقوّة «الشّخصيّة» وبدا لي وجهها الشّاحب الذي غطّاه شعرها الأشقر، وجهاً بليداً، وكانت تُقدّم اختبارات مُجزّأة يصعب تقييمها. مع ذلك، كنتُ وأنا أعيد امتحانات الثلاثي الثاني، أعلن: «يُدهشني أنّ الآنسة أولغا د. هب التي حازت على العلامة الأعلى.» قبل الباكالوريا كان هناك «امتحان أبيض». كان الطّقسُ حارّاً وكنتُ أشعر بإعياء كبير لمجرّد مراقبة تلميذاتي يجتهدن بمشقّة في إنجاز اختباراتهنّ؛ كنّ يضعن أوراقهنّ الواحدة تلو الأخرى على مكتبي. وحدها الروسيّة الصّغيرة ظلّت جاثمة في مقعدها. طلبتُ منها الواجب فانهارت باكية. سألتها ما المشكلة: كان كلّ شيء يسير على نحو سيّئ. عرضتُ عليها الخروج يوم الأحد بعد الظّهر. أخذتها في جولة على الرّصيف. دعوتُها لاحتساء كأس في حانة ڤيكتور، حدّثتني عن بودلير وعن الله: لم تؤمن به يوماً، لكن في المبيت راج أنّها متصوّفة لأنّها كانت تكره «الفتيات المُتحمّسات للاشتراكيّة الراديكاليّة».

نجَحَت بتفوّق في الباكالوريا رغم آلاف العراقيل التي كان ينصبها السيّد ترود لتلاميذي انتقاماً منّي. لدى عودتها إلى بوزڤيل Beuzville، أرسلها والداها للتحضير لنيل شهادة الفيزياء والكيمياء وعلوم الطّبيعة برووان؛ في سنّ الثانية عشرة، أرادت أن تصبح راقصة، في سنّ السابعة عشرة، مُهندسة معماريّة: كانت تمقت الطبّ. هرب والدها ذو الأصول النبيلة من الثّورة وكانت أمّها تقرأ صحيفة *العمل الفرنسيّة*: كانت أولغا مُشمئزّة من طلبة رووان لأنّهم كانوا تقريباً منضوين تحت اليمين المُتطرّف: لم تكن معنيّة بالسياسة لكنّها لا تتحمّل

تفكيرهم المُسَطَّح. ارتبطت بنزر من اليهود الرومانيّين والبولونيّين المطرودين من بلادهم بسبب معاداة اليهود، لجؤوا للدّراسة برووان لأنّها أقلّ تكاليف من باريس؛ كان الرومانيّون يملكون القليل من الأموال ولم يكونوا يطرحون على أنفسهم الكثير من المسائل؛ أصبحت صديقة البولونيّين الذين كانوا يرزحون تحت البؤس والذين كان بعضهم يهوداً والبعض الآخر شيوعيّين. وراحت تجوب معهم كلَّ الأماكن بشغف. كان أحدهم عازف كمان. كانوا جميعاً مولعين بالموسيقى وخلافاً لأبناء الفرنسيّين فكان يحدث أن يتخلّفوا عن وجبة كي يتمكّنوا من حضور حفلة أو للرقص في ملهى *الملكي* ***Royal***. تقاسمت شقّة مع بعض الفتيات بضعة أشهر ثمّ غرفة مؤثّثة مع رفيقة بولونيّة. كانت ترى زميلات قدامى منذ أيّام المعهد من بينهنّ لوسي ڤيرتون، الناشطة في الشبيبة الشيوعيّة التي كانت تصحبها إلى الاجتماعات. روت لي أحدها. التأم في ذلك المساء مُؤتمر حول الإجهاض الذي كان مسموحاً في الاتّحاد السوفيتي؛ كان الموضوع يخصّ النساء لكنّ المتدخّلات كنّ مراهقات. شارك في النّقاش طالب قديم يبلغ من العمر أقلّ من الثلاثين. كان زعيم المنظّمة الوطنيّة للحركة النضاليّة الفرنسيّة، كان يضع قلادة حول عنقه ويحمل عكّازاً في يده، كان من السّهل إرباك الفتيات الشابات الحاضرات في القاعة لأنّهنّ كنّ متمرّدات جادّات يُفكّرن في المشاكل المطروحة حول أوضاعهنّ الراهنة والمُستقبليّة دون خلفيّات وقحة: هذا الجَيَشان «الكلبي الفرنسي (عبارة جوليان غراك)» حبس أنفاسهنّ وجعل خدودهنّ تتورّد خجلاً. استدعت لجنة النّظام عاملي الموانئ لحضور المؤتمر؛ وتقدّم أحدهم من هيئة المنظّمة. «لستُ متعلّماً مثلكم سيّدي، لكنّي لا أخاطب فتيات بهذا الشّكل»، قال؛ وانصرف الرّجل المُسنّ مع رفاقه.

كانت أولغا تُحدّثني عن كلّ جديد يطرأ في حياتها؛ كانت تروي لي أخبار رفاقها؛ سألتني يوماً ما معنى أن يكون المرء يهوديّاً. أجبتُ بحزم: «لا شيء. لا يوجد يهود: هناك إنسان.» أخبرتني لاحقاً ما حظيتُ به من مكانة عندما دخلت غرفة عازف الكمان وهتفتْ: «أصدقائي، أنتم لا وجود لكم! أستاذة الفلسفة قالت لي ذلك!» حول عديد النّقاط – سارتر أيضاً، لكن بأقلّ حدّة منّي – كنتُ أميل إلى التّجريد بصورة تبعث على الأسف. أعرف حقيقة

الطّبقات الاجتماعيّة؛ لكن كردّة فعل إزاء تفكير أبي، أحتجّ لدى سماعي حديثاً عن الفرنسيّة، الألمانيّة، النّوع اليهودي، العقليّة البدائيّة، الأنوثة الأبديّة. لكنّ الكونيّة التي أنتمي إليها كانت تنأى بي عن الواقع. ما يعوزني هي فكرة الظّروف القادرة وحدها على تقديم تعريف ملموس للمجتمع الإنساني دون استدعاء فكرة حتميّة زمنيّة. لكن لا أحد، إذاً، ونحنُ نخرج من إطار معارضة الطّبقيّة قرّبها إليّ بشكل من الأشكال.

أحببتُ قصص أولغا، طريقتها في تحسُّس الأشياء، نمط تفكيرها؛ لكنّها من جهة أخرة لم تكن في نظري سوى طِفلة، ولم أكن أراها دائماً. كنتُ أدعوها مرّتَيْن في الأسبوع لتناول الفطور في حانة پول؛ كان هذا الموعد - علمتُ بذلك لاحقاً - يُزعجها؛ اعتقدت أنّنا غير قادرين على الأكل والحديث في آن واحد: اختارت ألّا تأكل شيئاً وأن تتحدّث قليلاً. أخذتها في نزهة مسائيّة ثلاث أو أربع مرّات. استمعنا إلى بوريس غودونوف، بتقديم من الأوبرا الروسيّة؛ أخذتها إلى عزف منفرد لجيل وجوليان اللّذَيْن لم أكن أملّ سماعهما قط. رافقتني إلى اجتماع نظّمته كوليت أودري أجهل مَحَاوِرَه وكلَّ شيء عنه؛ كان على العديد من المتداخلين أخذ الكلمة. كان الموضوع الجذّاب هو دعوة جاكْ دوريو إلى موسكو كي يفسّر زَيْغَه السّياسي: رفض الذّهاب. كان من بين الشّخصيّات على المنصّة كوليت أودري وميشال كوليني. جاء الشّيوعيّون أصيلو رووان بأعداد غفيرة، وما إن فتح دوريو فمه حتّى تعالت الهتافات من جميع أرجاء القاعة: «إلى موسكو! إلى موسكو!» تطايرت الكراسي فوق الرّؤوس. شكّلت كوليت وأصدقاؤها درعاً بشريّاً بأجسادهم لحماية دوريو؛ رمى بها أحد العُمّال أرضاً. غادر دوريو المكان وعاد الهدوء ليُخيّم من جديد؛ جرت الجلسة مُحترمة، بل لقد صفّق الحاضرون باحتشام لاشتراكي صغير وشاحب. كان قلبي اللّيبرالي يضطرب من شدّة السّخط.

قطعت تلك الأمسية مع رتابة الأيّام في رووان. تسلية أخرى؛ مجيء جاكلين أودري الخاطف؛ أعطتني درساً في المكياج وفي كيفيّة إزالة شعر الحاجِبَيْن؛ مساءً، خرجتُ مع كوليت وجاكلين لتناول البطّ لدى دوكلير. لم أكن أرى كوليت باستمرار، لأنّها كانت مشغولة ومهمومة. اشتغلتُ على رواية

من دون متعة؛ تابعتُ أخذ دروس في اللّغة الألمانيّة، كنتُ، بفضل قاموس فراو سورج Frau sorge، كارل وآنا Karl und Anna، أقرأ مسرحيّات شنيتزلر Schnitzler. بقي لي كمٌّ هائل من الوقت لأقتله، إن لم تسقط السّنة بأكملها في التّفاهة والضّجر فلأنّ فاجعة حدثت: حكاية لويز پيرون Louise Perron.

كانت لويز پيرون تدرس في معهد رووان الإعدادي. سمراء في الثّلاثين، قبيحة، ذات عيْنَيْن برّاقَتَيْن وجسد جميل وغير أنيقة. كانت تسكن تحت أنقاض منزل قديم مجاور للفندق الذي أقيم به. عندما قدمت إلى رووان كانت على علاقة بكوليت أودري منذ سنة؛ لكن للأسف وبما أنّ كوليت سخرت من لويز لأنّها فتحت لها قلبها، فقد اختارتني بدلاً عنها كاتمة لأسرارها. خلال الأيّام الأخيرة من محاورات پونتيني، التقتْ كاتباً معروفاً سأسمّيه ج.ب. ذات مساء أعلنت بنبرة استفزاز «أنا تروتسكيّة!» ونظر إليها بفضول، قالت. أغدقت عليه بالسُلَفِ السخيّة وزعمت أنّها عضّته من كتفه في حديقة الدّير. عموماً لقد نجحت في جرّه إلى سريرها وصرّحت له أنّه حبيبها الأوّل. «إلهي! كلّهنّ عذراوات هنا!» قال ج.ب. بإحباط لكن من دون أن يجرؤ على التهرّب. كان متزوّجاً وكانت لويز على يقين أنّه سيهجر زوجته من أجل حبّها. إلّا أنّ ج.ب وضع النّقاط على الحروف حال عودته إلى باريس: لا يمكن لهذه المغامرة أن تمتدّ؛ عرض على لويز صداقته؛ لكن عندما رفضت الاكتفاء بصداقته كتب لها أنّه من الأفضل قطع العلاقة. لم تُصدّق لويز نزاهته، فإمّا أنّه يتسلّى بالقسوة أو أنّه يكذب شفقة على زوجته: على كلّ حال هو يُحبّها. كان يرفض مواعدتها لكنّها لم تستسلم لمكائده: يوم الأحد، استأجرت غرفة في فندق فخم بباريس مُطلٍّ على بيت ج.ب. وراحت تراقب باب العمارة؛ حالما لاح لها أسرعت للقائه، عادة كانت تحصل على لقاء سريع يحتسيان خلاله كأساً.

في رووان، قرأت وأعادت الكتب التي يُحبّها، وزيّنت غرفتها بنُسخٍ من لوحاته المُفضّلة: لقد حاولت دائماً أن تُخمّن في كلّ الظّروف ما كان سيقول، يفكّر، يحسّ. ظهرت ذات صباح بينما كنتُ في الميتروپول بساحة المحطّة، أحتسي قهوتي بصحبة كوليت أدوري: «ج.ب جاءته بنت. لوكس!»، قالت وغابت كالرّيح. «لوكس! يا له من اسم غريب»، قالت كوليت. في الواقع،

أرادت لويز القول إنّ قبساً أضاء عقلها؛ لم يطلب ج.ب الطّلاق من زوجته لأنّها كانت تنتظر مولوداً. أرسلت إلى السيّدة ج.ب باقة ورود حمراء وبطاقة تهاني بريديّة تظهر مرفأ رووان. ذهبت إلى ميدي Midi، بمناسبة عيد الفصح؛ لم تتغيّر الأشياء لدى عودتها. لم يكن ج.ب يردّ على تلغرافاتها، مكالماتها، رسائلها السّريعة. حاولتُ تعقيلها. «قرّر القطع معكِ»، قلتُ لها. هزّت كتفيْها: «لو أنّه أراد القطع معي حقّاً لكتب لي، لأخبرني بذلك.» ذات يوم لمعت في ذهنها فكرة أخرى: «إنّها الغيرة.» وفسّرَتْ لماذا. أرسلت له من الرّيف بطاقة بريديّة كتبت على النّحو التالي تقريباً: نحن من هذا البلد الذي يشبهني، نرسل إليكَ ذكرياتي.» «صيغة (نحنُ) تعني أنّي كنتُ برفقة حبيب. لم يكن ذلك صحيحاً، لكن لابدّ أنّ هذا ما خطر له آنذاك.» ثمّ كانت ذات مساء بصحبة أحد أصدقاء ج.ب في المسرح – التقت به هو الآخر في پونتيني – وبدا أمره غريباً طوال مدّة العرض، ادّعى أنّ حذاءه يضايقه لكن ألم يشكّ لحظة في أن لويز تحاول إغواءه؟ ألم ينقل ذلك لـ ج.ب؟ كتبتْ له رسالة طويلة لتبديد سوء الفهم: لزم ج.ب الصّمت. فكّرت، إذاً، أنّها ارتكبت زلّة أخرى. أرسلت إلى السيّدة ج.ب وروداً حمراء في لون الدّم والموت. وكان على البطاقة البريديّة صورة لميناء رووان؛ لقد فهموا أنّها تقول لمنافستها: «أريد التخلّص منكِ!» رتّبت رسالة أخرى تشرح الوضع. ذات ظهيرة من شهر جوان، رحتُ للقاء سارتر في المحطّة وعبرنا السّاحة لمّا لاحت لي لويز. تقدّمت نحوي؛ سالت دموع على خدّها: أخذتني من ذراعي وانزوت بي: «اقرئي!» لقد تلقّت كلمة من ج.ب واضحة وحاسمة، تنتهي بهذه الجملة: «لنترك للصّدفة عناية تحديد لقاء بيننا.» قلتُ إنّها رسالة إنهاء علاقة. هزّت كتفيْها بنوع من الاحتقان: «شغّلي عقلكِ قليلاً، لو أراد إنهاء العلاقة لما كتب لي.» وانخرطت في شرح شديد الذّكاء في الواقع؛ كان كلّ فاصل يُبيِّنُ سوء نيّة ج.ب «الصّدفة، قالت. أنتِ لا تفهمين ماذا تعني. يريد أن أذهب إلى النّزل ثانية، أن أراقبه وأن أتظاهر بلقائه بغتة. لكن لِمَ كلُّ هذه الحِيَل؟ لماذا؟» تصرّفت كي تقابل ج.ب قبل العطلة؛ حدّثها بأدب: ذهبت إلى الرّيف لتكتب عن كتابه مقالاً يبرهن أنّها تستحقُّه. تأكّدتُ أنّها مثيرة للشّفقة؛ قبل ذلك كنتُ أعتبر الحكاية مجرّد تهريج. كانت تضحكني لكنّي تأثّرتُ كثيراً ذات صباح في جوان لمّا رأيتُها تبكي. بعد

أيّام من العودة صادفتُ لويز قريباً من المعهد؛ أخذتني من معصمي إلى بيتها لاحتساء الشّاي. خلال العطلة، في فندق صغير بالألپ كتبت مقالاً حول ج.ب وراحت لتعطيَه إيّاه نهاية سبتمبر في الصّحيفة التي يعمل بها. استقبلها بودّ، لكنّها وجدت سلوكه تجاهها غريباً. أشاح بظهره وظلّ فترة طويلة ينظر من النّافذة سانداً جبهته إلى الزّجاج: حسناً، لقد أراد إخفاء شعوره؛ لكن بعد ذلك، وهو جالس في مكتبه أسند ذقنه إلى قبضة يده. «هذا يعني أنّه لا ينام مع زوجته. لكن لِمَ يقول لي أنا هذا؟» في تلك اللّحظة حدث منعرج في رأسي، ولم تعد قضيّة لويز مُضحكة بالنّسبة إليَّ. على امتداد الأسابيع اللاّحقة، كانت باستمرار تنبجس من فتحة بالباب وتضغط بيدها على ذراعي.

كان ج.ب بصدد وضعها أمام الأمر الواقع، أو هل كان يسعى للانتقام منها؟ أخيراً أليست أفضل طريقة للردّ هي قتله؟ ربّما كان ذلك ما يتمنّاه كما راودها الانطباع. حاولتُ مثل السّنة السّابقة تسليتها بأن أروي لها قصصاً عن ماركو، سيمون لبوردان، عن كامي ودولان، غير أنّها لم تكن تصغي؛ كانت تنبش في ذكرياتها بلا كلل. ذات مساء، قدّمت لي مديرة الفندق لاروشفوكولد باقة زهور الشّاي: «زال سوء التّفاهم. أنا سعيدة لأنّي أحمل إليكِ زهوراً.»

وضعتُ الباقة في مزهريّة وقلبي منفطر من الضّيق. فسّرت لويز في اليوم التالي؛ قبل أن تنام في المساء، كان شريط الصّور لا يزالُ يمرّ في رأسها؛ إحداها أعمتها: كان على ورق الرّسائل الخاص بالنّزل الألپيني قصاصة يظهر عليها حوض نافورة؛ في حين أنّ حوض النافورة في علم التحليل النفسي له معنى مُحدّد: لقد فهم ج.ب أنّ لويز تعلن متحدّية إيّاه: «لديَّ حبيب!» جُرِحَ في صميم حبّه الطّاهر لها لذلك عمد إلى تعذيبها. بعثت لي برسالة سريعة تشرح فيها كلَّ شيء ولدى عودتها من مكتب البريد اشترت لي الزّهور. بعد أيّام من محادثتنا كانت في غرفتي من جديد مُستلقية على سريري وبجانبها تلغراف. «ما من سوء فهم» لم تحاول الخِداع، أقرّت أنّ كل شيء قد انتهى. قلت لها بلاهات تُقال في مثل هذه المواقف.

ربّما كان خلاصها في الصّدمة التي تلقّتها: خلال شهر نوفمبر، لم تغشّ الحقيقة قط. كنّا نراها باستمرار أنا وكوليت أكثر من السّابق وعرّفتُها على

أولغا. وباقتراح منّي راحت تحرّر ذكريات الطّفولة بأسلوب فجٍّ لا أنكر أنّه أعجبني. كانت أحياناً، تبدو في مزاج رائق ويُلاحظ أنّها قرّرت نسيان ج.ب. في بونتيني قدّم لها رجلٌ خمسيني بعض الدّروس هو الآخر. كان اشتراكيّاً؛ كتبت له وتمّ بينهما اللّقاء، أخذها لتُمضي معه ليلة في بيتها القريب من نزل محطّة الشّمال.

بعد يومَيْن وكان يومَ إثنَيْن، كان عليَّ احتساء الشّاي مع أولغا، لكنّي قلتُ للأخيرة أن تذهب بمفردها، فقد كان لديَّ عمل مُهمّ، سآتي أخر نهاية اليوم.

حالما وصلتُ رحلت أولغا. روت لها كمّاً من قصص الطّفولة الجميلة، قالت لي لويز وهي تحدّق فيَّ بشكل لا يُطاق. صمتت واستمرَّت في تفحّص ملامحي. حاولتُ قول شيء ما لكنّي لم أجد ما أقول. أرعبتني الكراهية التي في عَيْنَيْها أقلّ من الصّراحة البرّيَّة التي عبَّرت بها عنها. لقد غادرنا عالم المفاهيم البريئة ولم أعد أعرف في أيّ أرض أخوض مغامرتي. فجأة، أدارت لويز رأسها وبدأت تسرد؛ حدّثتني على امتداد ساعتَيْن تقريباً دون انقطاع، عن رواية *التّرف*، لجورج ساند.

رحتُ إلى باريس حيثُ قضيتُ بطرق احتياليّة - ثلاثة أيّام مع سارتر الذي وهب نفسه عطلة طويلة بمناسبة الكريسماس. رافقني إلى رووان مساء الخميس. يوم الجمعة صباحاً وبينما كنّا نحتسي قهوة في الميتروبول جاءت كوليت مضطربة. كان لها موعد مع لويز ولم تكن تجرؤ على الذّهاب إليها. استقبلتها لويز على العشاء يوم الثّلاثاء مساء: كانت قد أعطت طاولة لاثنَيْ عشر شخصاً في غرفتها: «أين البقيّة؟ سألت وهي تفتح لكوليت. ظننتُ أنّ عددكم سيكون كبيراً!» تناولت تلغرافاً من فوق الموقد وقالت بلهجة خفيفة: «لن يأتي ألكسندر!» كان ألكسندر هو المدير السابق لمجلة *آراء حرّة*، قد درّس في رووان سنتَيْن والآن هو في لندن. «لندن بعيدة جدّاً»، قالت كوليت. هزّت لويز كتفيْها وكسا الغموض ملامحها. «ليس ثمّة ما يُؤكَل»، قالت. وأضافت بنبرة مفاجئة: «سأطبخ مُعجّنات». كان العشاء طبق معكرونة.

بعد يومَيْن، أي الخميس، رنّت لويز جرس باب المبنى الذي تسكنه كوليت؛ ارتمت على ركبَتيْها وراحت بمزيج من التهديد والتضرّع تقول إنّها

ليست المسؤولة عن أيّ شيء. هذه المرّة، لامست قلب كوليت. كانت للتوّ تتّصل بالمدرسة التي تُدرّس فيها لويز: لم تأتِ هذا الصّباح لإعطاء الدّروس؛ بدت مُنهَكَة جدّاً في الفترة الأخيرة. كان على كوليت الذّهاب إلى المعهد؛ قررتُ الصّعود إلى لويز بصحبة سارتر.

التقيتُ بأولغا في طريقي، كانت تبحث عنّي. زارت لويز مساءَ الأربعاء لتعيد لها كتاباً استعارته منها قبل أيّام. كانت لويز عادة تفتح الباب من مكانها بواسطة زر؛ يومها نزلت، أمسكت الكتاب: «وسوط الكلب؟ ألم تُحضري سوطَ الكلب؟» وغمغمت متذمّرة وهي تصعد السُلّم: «يا للمهزلة! آه! للمهزلة!». يوم الإثنيْن وحتّى لا تنسى تفاصيل ذكريات طفولتها وتتجنّب الصّمت الثّقيل المُخيّم على الغرفة، روت حكاية شجار دارَ بيْنها وبين جدّتها؛ كان عمرها أربع سنوات، كانت عاجزة وهدّدت المرأة العجوز: «عندما يعود أبي، سيضربك بسوط الكلب.» «هذا هو التّفسير!»، قالت لها رفيقتها الشيوعيّة الصّغيرة لوسي ڤيرنون التي نقلت لها الواقعة. قرّرت لوسي التي كان من عادتها عقلنة العالم أنّ سلوك لويز طبيعي للغاية. لكنّ ثقلاً ظلّ جاثماً على قلب أولغا.مكتبة .. سُر مَن قرأ

تخيّلنا، أنا وسارتر، اللّيلة التي كان على الرّجل الخمسيني أن يُقضّيها مع لويز يوم السّبت الماضي. شرع سارتر في كتابة قصّة حول هذا الموضوع، أهملها، لكنّها كانت البذرة الأولى لكتاب *الغرفة*.

كانت لويز تشغل وحدها الطّابق الرّابع والأخير من العمارة؛ ضغطت على الزرّ الذي يناسب شقّتها؛ دون نتيجة؛ ضغطت على آخر فانفتح الباب. صعدنا السُلَّم؛ عندما وصلنا إلى الأعلى لمحنا بقعة بيضاء على باب لويز: ورقة مُلصَقَة كُتِبَ عليها بحروف المطبعة: «المُهرّج الخالد.» رغم حكايات كوليت وأولغا، فقد تلقّيتُ صدمة. طرقتُ. لا شيء يجيب. نظرتُ من خلال ثقب القفل. كانت لويز جالسة أمام المدفأة متلفّعة بوشاح، وجهها شمعي ولا تتحرّك كجثّة. ما العمل؟ نزلنا، تحدّثنا في الشّارع وعُدنا؛ طرقت من جديد ومن خلال الباب رحتُ أحثُّ لويز كي تفتح: فتحت. مددتُ لها يدي لمصافحتها فأخفت يدها وراء ظهرها. كانت الغرفة مليئة بدخان الأوراق

المحروقة، كان هناك أجزاء ممزّقة على الكنبة. قرفصت لويز وألقت بحفنة منها في النّار. «ماذا تفعلين؟ سألتُها. – لا! قالت. لن أتحدّث. تكلّمتُ ما فيه الكفاية!» لمستُ كتفها: «تعاليْ معنا. تعالَيْ لتأكلي شيئاً.» ارتعشت ورمقتني بخوف: «هل تعنين ما تقولين؟» قالت كلمات كما اتّفق: «تعرفين جيّداً أنّي صديقتكِ. – آه! صديقة جميلة! قالت. اتركيني، ارحلي!» أضافت.

غادرنا، وأمام اليأس الذي أصابني أرسلتُ تلغراماً لوالِدَيْها اللذين يقطنان إحدى البلدات بأوڤري.

كان عليَّ إعطاء الدّروس بعد الظّهر. عند الثانية صعد سارتر وكوليت أودري إلى بيت لويز. استوقفَتْهُما في السُلّم مُؤجّرة الطّابق الثّالث: إنّه اليوم الثالث على التوالي وهي تسمع ضجيج لويز في الأعلى من الصّباح وحتّى المساء؛ وقالت المنظّفة إنّها لا تتوقّف عن الكلام بصوت مرتفع. عندما دخلا غرفتها ارتمت لويز في أحضان كوليت باكية: «أنا مريضة!» قبلتْ أن ينزل سارتر ليشتري لها الفواكه. وجد كوليت على الرّصيف: غيّرت لويز مزاجها وطردتها. هذه المرّة عندما دفع بابها لم يكن مُغلَقاً، كانت لا تزال في ركن الأريكة، العينان مُطفأتان، والوجه مُسترخٍ؛ وضع الفواكه بجوارها وغادر. صرخ صوتٌ من خلفه: «لا أريد كلَّ هذا!» وسُمِعَ صوتُ خطوات متسارعة، الإجّاص، الموز والبرتقال تدحرجت جميعها في السُلّم. واربت السيّدة في الأسفل بابها: «أيمكنني جمعها؟ من المؤسف أن تضيع.»

لم تبدُ لي قط سماء رووان المُبلّلة وشوارعها الثّقيلة أكثر أسى من تلك الظّهيرة. كنتُ أنتظر تلغرام عائلة پيرون بقلق ومررت إلى مكتب الفندق؛ جاءت امرأة سمراء، وتركت كلمة: «لا أكرهكِ. يجبُ أن نتحدّث. أنا في انتظاركِ.» يا للجنون، هذا الباب الذي يُفتَحُ ويُغلَق، وهذا السُلّم المُظلم الذي يتوجّب صعوده ونزوله، وهذا الذّهاب والإيّاب في ذلك الرّأس بالأعلى! ترعبني فكرة أن أغلق على نفسي غرفة لويز تحت لهيب نظراتها وأن أستنشق رائحة اليأس التي كانت تنزّ من الجدران. رافقني سارتر مُجدّداً. مدّت لنا لويز يدها وابتسمت: «حسناً. قالت بصوت هادئ. دعوتُكما لأطلب منكما النّصح بما أنّكما صديقاي: هل عليَّ الاستمرار في الحياة، أم عليَّ قتل نفسي؟

– العيش، طبعاً، قلتُ دون تردّد. – ليكن لكن كيف؟ كيف سأكسب لقمة عيشي؟» ذكّرتُها أنّها أستاذة؛ هزّت كتفيها بانزعاج: «هيّا! لقد أرسلتُ طلب استقالة! لن أستمرَّ في أداء دور القرد بقيّة حياتي.» القرد، المُهرّج، مثل الأب كارامازوف، لقد لعبتْ هذا الدّور، ليكن، لكن كلُّ ذلك انتهى الآن، تريدُ أن تتجدّد، أن تشتغل بالسّاعِدَيْن؛ تكنس الطّرقات مثلاً، أو تقوم بأشغال البيت. لبست معطفها: «سأنزل لاقتناء جريدة من أجل الإعلانات. – ليكن»، قلتُ. ماذا يُقال. كانت تنظر إلينا بعيْنَيْن زائغَتيْن: «آه! ها إنّي أقوم بالكوميديا!» رمت بمعطفها على الكنبة: «لكن هذه أيضاً كوميديا! قالت وهي تضعُ يديها على خَدّيْها. ألا يوجد مخرج؟» هدأت أخيراً، ورسمت ابتسامة: «حسناً. لم يبق لي سوى أن أشكرك على كلّ ما فعلتِه من أجلي.» تعجّلتُ في الاحتجاج: لم أفعل شيئاً. «آه! لا تكذبي!» قالت بنبرة غاضبة. سعيتُ بشكل دؤوب لإقناعها بمَذلّتها؛ أردتُ أن أعرف من خلال حكايتي لها عن سيمون لابوردان، ماركو، كامي، إن كانت روحها تافهة حتّى تصدّقها: صدّقتها. كانت تشبه خشبة مُبتلّة في حضور النّاس؛ لم تكن تهتدي إلى الحكم الصّائب إلّا في وحدتها؛ كانت سلبيّتها أمام الآخرين وجهاً من وجوه مَذلّتها. حتماً لم أعمل على تعميقها إلّا لكي أدفع بها إلى ردّة فعل تساعدها على تخطّي أزمتها. وختمتُ شغلي معها بتشجيعها على كتابة ذكريات طفولتها: كانت طريقة لتحليلها نفسيّاً. صرفتُ النّظر عن تحصين نفسي ضدّ امتنانها المُقلِق.

كان لهذا الحدث قسوة حوار مسرحي جيّد. لقد تركَتْ لدينا انطباعاً حيّاً. صدمنا عجز لويز عن الخروج من «الكوميديا»: يتطابق ذلك مع كلّ الأفكار التي كنّا نحملها حول هذا الموضوع؛ يكمن خطأ لويز، حسبَ تصوّرنا، في أنّها أرادت إنشاء صورة عنها تصلح لها فيما بعد سلاحاً ضدّ احتمال حبّ تعيس؛ ما يُحسَبُ لها هو أنّها واكبت تدهور حبّها يوماً بعد آخر؛ أمّا مأساتها فتتلخّص في أنّها نسيت نفسها فغرقت أكثر فأكثر.

وصل والد لويز صباح اليوم التالي؛ كان صانع براميل في أڤينيون، وتفحّصَنا بريبة: «ماذا فعلوا للبنت؟» شكّ في أنّ أحدهم أغواها وسبّب لها الأذى. أخو لويز الأصغر منها بعشر سنوات كان تلميذاً في دار المُعلّمين

العليا، وصل في المساء؛ ظلّ هو الآخر مُتحفّزاً. استقرّ في بيت أخته خلال عطلة عيد الميلاد. قبل مغادرة رووان ذهبت كوليت للقاء مديرة لويز لتطلب منها تمزيق طلب الاستقالة؛ قابلتها القيّمة العامّة. طرقت المديرة باب لويز كي تطلب منها تفسيراً للخطوة التي أقدمت عليها؛ طردتها لويز صارخة: «أحتاج إلى العمل النقيّ!» شعرت بفزع ألزمها الفراش إلى غاية اليوم.

رأيتُ لويز خلال الأيّام الأولى من شهر جانفي في مقهى الميتروپول؛ كانت نحيفة ومُصفَرّة، يدها رطبة وكان كامل جسدها يرتجف. «كنتُ مريضة، مريضة جدّاً.» لقد عرفتُ خلال الأسبوعَيْن الماضِيَيْن نوعاً من الانفصام وأخبرتني كم كان ذلك مُرَوّعاً دون هوادة بكت. لم تعد تحمل أيّ عدائيّة في داخلها؛ رجتني كي أدافع عنها ضدّ الافتراء. «يدي بريئة، أقسم لك»، قالت وهي تمدّ يدها على الطّاولة. نعم لقد كتبت في مقالها أنّ شخصيّات ج.ب تتشابه كأصابع اليد الواحدة، لكن لم تكن الجملة مُبطّنة. لم تُرِد الشرَّ يوماً لطفل ج.ب. قرّرت أن تتعالج. نصحها الطّبيب بالذّهاب إلى الرّيف للنّقاهة؛ سيتكفّل أخوها بذلك وستمكث هناك أسبوعَيْن أو ثلاثة.

حسب رسالتها الأولى، بدا أنّ الثّلج والغذاء الجيّد قد ساعداها على تجاوز محنتها. لقد تغيّرت؛ تزحلقَت على الثّلج؛ وصفت النّزلَ والمناظر؛ كانت بصدد حياكة صدار صوفي أبيض لي: «أشكر الآخرين مرّة أخرى.» وحدها هذه الجملة أسفل الرّسالة شغلتني عنها. بعقلانيّة. لأنّ بقيّة الرّسائل لم تكن تنبئ بخير؛ التوى كاحل لويز وراحت تستحضر الماضي وهي مُستلقية على كرسيّها الهزّاز، أحياناً، عندما تستيقظ كانوا يجعلونها ترى نجوماً وصلباناً: ماذا؟ لماذ؟ أنريد إنقاذها أم نسعى إلى ضياعها؟ بدا كأنّها تأخذ منعرجاً نحو فرضيّة ثانية.

لم أكن في الحفلة حين رحتُ إلى المحطّة لاستقبالها؛ التّاسعة مساءً: لم أجد الشّجاعة كي أختلي بها في غرفتها؛ كنتُ خائفة قليلاً، وخصوصاً من أن أبدي لها خوفي. لاحت لي وسط المُسافرين، كانت تحمل حقيبتها، بسحنة قوّة، بوجه برونزي قاسٍ؛ لم تبتسم لي، أصررتُ على تناول كأس في مشرب المحطّة؛ لم يعجبها ذلك قط، تمسّكتُ بعرضي وكان ذلك أفضل

فقد كان لصخب الناس من حولنا وقع مُطمئن فيما كانت هي تُحقِّقُ معي؛ طلبت إجابة واضحة: هل كان التّحالف في مصلتحها أم في مصلحة الانتقام؟ كانت تتحدّث بصوت نقيّ، ومنحتها صحّتها الجيّدة فرصة توجيه هذيانها نحو النّظام: كان بناءً مُحكَماً يصعب دحضه كـ «ليبنز Leibniz» وسبينوزا. أنكرتْ وجود تحالف: «هيّا! قالت. إنّها ليست غيوماً تلتقي!» تعرف جيّداً أنّ كوليت هي عشيقة ج.ب في الوقت الحاضر؛ ويُفتَرَضُ في الصّيف الماضي أنّها زارت النّرويج مع بعض الأصدقاء؛ وتحدّث ج.ب بنبرة ساخطة عن مشروع رحلة إلى النّرويج: صدفة؟ لا. كان الجميعُ على علم بالعلاقة ما عدا لويز. أساساً لقد تمّ إبقاؤها بعيداً حتّى لا تدري بشيء. في المطعم، كنتُ أحتسي شراب التُفّاح مثل كوليت وسيمون لابوردان، وطلبت لويز نبيذاً، قلتُ مازحة: «آه! أنتِ وحدكِ!» وعَمَدْتُ إلى هجوم مُضاد: «تعرفين أنّكِ مُؤوّلة كبيرة»، قلتُ لها. روت لي أنّها كانت تمضي ساعات مُستلقية على الأريكة مُستغرقة في البحث عن المعاني التي تخفيها الحركات والإيماءات والكلام الذي سجّلته في يومها. «نعم، أعرف، أجبتُ بهدوء. لكن الواقع هو الواقع.» روت لي سيلاً من الحكايات: طرفة العين الوقحة، يوم التقيتُ بها؛ تبادل ابتسامات مع كوليت، نبرة غريبة ندّت عن أولغا؛ جملٌ ممزّقة لم أنطق بها. يستحيل اجتناب هذه الحقائق. لدى خروجنا من المحطّة اكتفيتُ بالتّرديد بأنّه لا وجود لتحالف. «حسناً، بما أنّكِ ترفضين مُساعدتي، لا جدوى في الوقت الحاضر من أن نرى بعضنا بعضاً. سأتّخذ قراراً بمفردي»، قالت وهي تغيب في ظلمات المدينة.

نمتُ بشكل سيئ تلك اللّيلة والليالي الموالية. دخلتْ لويز غرفتي وعلى شفتَيْها الزّبد؛ وكان هناك من يساعدني على إدخالها في صندوق كمان؛ حاولتُ النّوم مُجدّداً، لكنَّ الصّندوق ظلّ فوق الموقد؛ في الدّاخل كان هناك شيء حيّ مُنحنٍ من شدّة الحقد والخوف. فتحتُ عينَيَّ. ماذا أفعل لو أنّ لويز طرقت بابي في قلب اللّيل؟ لن يكون في وسعي ألّا أفتح لها، مع ذلك، ومنذ آخر حوار دار بيننا وأنا على يقين أنّها قادرة على فعل أيّ شيء. كانت أيّامي مُسمَّمَة بفكرة لقاء قد يجمع بيننا؛ فكرة كونها تتنفّس، تجترُّ، على مسافة مئات الأمتار منّي، كانت كافية لإيقاظ شعور القلق الذي أحسستُ به في الخامسة عشرة وأنا أرى شارل السّادس على خشبة أوديون. مرّ أسبوعان تقريباً. تلقّيتُ

أنا وأوديت رسائل متطابقة: «أتمنّى أن تسعديني يوم الأحد 11 فيفري على الساعة منتصف النّهار بحضور مأدبة غداء كبيرة، أنظّمها في باريس على شرف أصدقائي؟» هذا الغداء الذي لا يُشارُ إلى مكانه، يذكّر بالمأدبة التي حكت لي عنها كوليت. أرسلَتْ دعوات إلى والِدَيْها، إلى ألكسندر وإلى ج.ب، إلى الاشتراكي وآخرين. لكن قبل الموعد المُحدّد زارت السيّدة ج.ب وأقسمت لها باكية أنّها لا تقصد إيذاءها أبداً. استطاعت السيّدة ج.ب إقناعها بدخول مصحّة في ذات اليوم.

خرجت في منتصف الصّيف، وأكملته في بيت والِدَيْها. سافرت إلى باريس شهر أكتوبر وواعدتني عند القبّة. انتظرتُها في عمق المقهى بحنجرة متصلّبة. رحّبت بي بحفاوة وودّ غير أنّها ألقت نظرة ارتياب على الكتاب الموضوع أمامي: ترجمة لويس غيو لرواية إنجليزيّة. «لماذا لويس غيّو؟» سألتني. اشتكت من المصحّة التي أخضعها فيها الأطبّاء إلى تجارب التنويم المغناطيسي ونقل الأفكار التي ألقت بها في نوبات مريعة. استعادت هدوءها، لكنّها كانت متأكّدة من أنّ التحالف لم يُلقِ بأسلحته بعدُ. وُضعت آخر رسالة من كوليت في مكتب بشارع سنجر Singer، ما يعني: «أنتِ قرد Singe»؛ على الورق نقرأ *الأقوى*؛ «كنتُ الأقوى.» أنا نفسي كان لدَيَّ سلوك مشابه. أقرّت لويز أنّها مهووسة بالتّأويل. عندما قرأتْ *سينا Cinna* مرّة أخرى خامرتها فكرة أنّ المؤامرة كانت تلميحاً لما تعيشه؛ تعقَّلَتْ أخيراً: مضى على هذه التراجيديا ثلاثة قرون. لكن حين تسمع الرّاديو، أو تقرأ في صحيفة أسبوعيّة، تصريحات مُستفزّة، ما الذي يمنعها حقّاً من أن تكون المعنيّة بكلّ ذلك؟ إنّ لدى التحالف الإمكانات المادية الكافية ليشتري البرامج والمقالات. لقد باشرت في وصف مُدهش لعالم هو عالمها. رموز نفسيّة، مفاتيح الرؤى والأحلام، لغة الأرقام والزّهور، جناس الكلمات: كان كلّ شيء يصلح لشحن أبسط الأشياء والحوادث التافهة بعدد لا يُحصى من النّوايا المتربّصة بها دون غيرها. ما من وقت بريء في هذا الوجود، ما من بوصة مُحايدة على وجه الأرض، ما من تفصيل متروك للصّدفة؛ كان لكلِّ شيء دلالة مُحدّدة؛ أعتقد أنّها مأخوذة بعيداً عن الأرض وهشاشتها إلى جنّة أو جحيم. إلى الجحيم دون شكّ. كان وجه لويز أسود. «لا أرى سوى حَلَّيْن، قالت وهي تزن كلماتها. إمّا أن أنخرط في

الحزب الشّيوعي، أو أن أقتل. المُشكلة هي أنّي عند ضرورة البدء بالناس الذين تعلّقتُ بهم أكثر من غيرهم.» لم تغادر نظراتي حركة يديها التي كانت تضغط على حقيبتها من وقت إلى آخر. منذ ذلك الحين عرفتُ أنّها تحمل موسى معها وأنّها قادرة على استخدامها. كي أهدّئ من روعي، قلتُ إنّ ضحيّتها الأولى ستكون حتماً ج.ب وأنّها لن تتمكّن من بلوغ الضحيّة الثّانية؛ لكنّ ذلك لم يُطمئنّي إلّا قليلاً. كنتُ في نفس الوقت مُعجَبَة بأوهامها الغامضة التي كانت تسبح داخلها. التحقت بسارتر وكوليت أودري في «مروج اللّيلك» ولم أستطع التغلّب على قلقي بينهما. كانت المرّة الوحيدة في حياتي التي بدا معها الحوار مع سارتر سطحيّاً. «حقّاً! ألستَ مجنوناً!» قلتُ له بمزاج رائق، في القطار الذي سيُقلّنا إلى رووان.

كنتُ أولي الجنون منزلة ميتافيزيقيّة مُحترَمة: أرى فيه رفضاً وتجاوزاً للوضع الإنساني. عادت لويز إلى عائلتها في أڤيرون. كتبتُ لها وعرضتُ عليها المراسلة مُؤكّدة لها صداقتي. بعثتْ لي برسالة تشكرني فيها؛ لم تعد تكرهني. «لسوء الحظّ، كتبتُ، لستُ في وضع كريم كي أنجز أيَّ شيء. في داخلي شيء متصلّب كالحاجز الذي يمنع انطلاقي نحو الأمام، يمنع أيَّ رغبة وأيَّ إرادة. أخيراً، أشعر أن كلَّ ما أودّ بناءه معك يحافظ في أعماقه على لغم سيفجّر كلَّ شيء رغماً عنك وعنّي، في وقت يكون فيه كلانا يترقّب ذلك... لتعتبر أنّي أُصاب أحياناً بالطّبيعة الأكثر ترويعاً، والقلب الأكثر عرياً وروحاً سوداء كالسّخام. لا تواسيني فكرة أنّي لستُ وحيدة؛ إنّها فقط تساعدني على الخروج من المازوشيّة البذيئة التي أرزح تحتها منذ أكثر من سنة – مع يقين أنّ حياتي لم تكن حبيسة بأكملها – وتعينني قليلاً على رؤية الأشياء بشكل مُختلف.»

لن أراها مُجدّداً، إذاً، أبداً. عاشت هذيانها طويلاً، وانتهى بها الأمر إلى إحساس بالاشمئزاز من وضعها. عادت إلى التّدريس. علمت أنّها انضمّت إلى المقاومة وأنّها انخرطت في الحزب الشّيوعي.

كنتُ قد قرّرتُ الذّهاب إلى برلين نهاية شهر فيفري. راودتني قبل ذلك فكرة استغلال حكاية لويز پيرون لأنتزع من أحد الأطبّاء شهادة تمنحني الحقّ في إجازة. نصحتني كوليت بأحد الاختصاصيين النفسيّين، الدّكتور د.، إنّه

الطّبيب الذي نصح أحد رفاقه بـ: «السّماح لمشاعره بالسّقوط كأوراق ميّتة». انتظرت نصف ساعة تقريباً، في أحد طوابق الحيّ اللاتيني السفليّة؛ كنتُ متأثّرة قليلاً: هل سيرسلني هذا الطّبيب في جولة؟ فتح الباب أخيراً؛ كان رجلاً مُسنّاً ذا شاربَيْن أبيَضَيْن وهيئة مُحترمة؛ لكن على بنطلونه من جهة الأمام كانت هناك بقعة بيضاء جديدة لا تُفسّر بطرق عديدة. جعلني ذلك في مزاج مرح تبدّد خجلي، تحدّثت بإسهاب. كنتُ قد تردّدت في أخذ لويز إليه قبل دخولها المصحّة؛ وأضفت أنّ مأساتها أنهكتني عصبيّاً، وكتبَ لي بسخاء وطيبة من عشرة إلى خمسة عشر يوماً من الرّاحة. عندما اتّخذتُ مكاني في قطار برلين السّريع، بدا لي أنّي مسافرة عالميّة كبيرة، وأنّي أقيم في جسد مريم العذراء.

لم يكن نزلاء معهد برلين يرون النازيّة بعيون تختلف عن اليسار الفرنسي. لم يكونوا يخالطون سوى طلبة ومُثقّفين مُقتنعين بأنّ الهتلريّة وشيكة. فسّروا استفتاء نوفمبر ومؤتمر نورمبرغ على أنّهما أزمة هستيريا جماعيّة عابرة. لاحت لهم معاداة اليهود موقفاً مجانيّاً، أحمقَ للغاية حتّى يُشكّل تهديداً جادّاً. كان في المعهد يهودي وسيم، طويل القامة، مُستقل، وكورسيكي صغير ذو شعر مُجعَّد: حتما كان الألمان سيعتقدون أنّ الثاني إسرائيلي والأوّل آري. سخر سارتر وأصدقاؤه من هذا الازدراء الرّاسخ. إلّا أنّ التعصّب النازي سيظلّ يُمثّل خطراً ما لم يُقضَ عليه. يُدركون ذلك جيّداً. ربط أحد رفاق سارتر في السّنة الماضية علاقة مع إسرائيليّة ثريّة ومعروفة؛ لم يكتب لها مباشرة خشية أن تلحقَ بها الضّررَ مراسلة شخص فرنسي: كان يبعث برسائله إلى سارتر الذي كان يمرّرها إليها. سارتر يحبّ برلين كثيراً، لكن كان قلبه ينقبض عندما يلتقي بالسّترات الدّاكنة كما في ڤينسيا أوّل مرّة.

حاول الاشتراكيّون النمساويّون، خلال إقامتي، استغلال استياء العُمّال. لمعارضة صعود النازيّة، هبّوا في انتفاضة قمَعَها دولفوس Dollfus وسط الدّماء. أعتم علينا هذا الفشلُ الأفُق. كنّا رافضين فكرة المساس بعجلة التاريخ، لكن أردنا التصديق بأنّها تدور في الاتّجاه الصّحيح. وإلّا فسيكون علينا إعادة النّظر في مواضيع عديدة.

لن تبدو برلين مُكبّلة بالدّكتاتوريّة في نظر سائح عاديّ. كانت الشّوارع

حافلة ومُبتَهجة؛ أدهشني قُبحُها؛ أحببتُ شوارع برلين ولم أتخيّل أنّ البيوت يمكن أن تكون بشعة؛ حيّ واحد نجا من هذا العار، نوع من الأحياء الخضراء المُشيّدة على التّخوم والذي كان يُسمّى «حانة العمّ توم».

في الضّواحي أنشأت النازيّة أيضاً مُدُناً للعُمّال، مريحة ما يكفي، لكن كانت في الأصل يسكنها بورجوازيّون صغار. كنّا نتنزّه طويلاً من كرفرستاندام إلى ألكسندرپلاتز. كان الجوّ بارداً، - 15 درجة؛ حثثنا الخطوات وعددنا المحطّات. لم تعجبني محال الحلويّات، كانت شبيهة بقاعات الشّاي؛ لكن راقت لي الحانات ذات الطّاولات الثّقيلة والرّوائح الدّسمة. كنّا نتناول فيها الغداء باستمرار. أحببتُ الطّبخ الألماني الدُّهني، الكرنب الأحمر والخنزير المُدخّن، وفطور الصّباح الرّيفي القائم على البطاطا المقليّة والبيض المسلوق. لم أحبّ لحم الطّرائد بالمعجون والأطباق الغارقة في الكريمة التي تُقَدَّمُ في المطاعم الفاخرة قليلاً. أذكر أنّ أحدها كان اسمُه الحُلم Le rêve؛ كان مكسُوّاً بالمُخمَل الناعم الذي كانت ترقص فوقه أضواء على طريقة لوي فولر؛ كان هناك أروقة، ماء متدفّق وعصافير على ما أظنّ. أخذني سارتر أيضاً إلى المقهى الروماني الذي كان مُلتقى المُفكّرين. ما عادوا يرتادونه منذ سنة أو سنتيْن؛ لا أرى سوى ردهة كبيرة مليئة بالطّاولات الرخاميّة والكراسي ذات الظّهور الصّلبة.

أُغلِقَ عدد كبير من فضاءات التّرفيه، من بينها «سيلويتين Silhouetten» حيثُ قديماً كان يختال المُخنّثون. غير أنّ النّظام العام لم يكن يسود. خرجنا المساء الأوّل أو الثاني مع كونتان، أحد رفاق سارتر المتخصّصين في الأراضي المُنخفضة. في زاوية الطّريق، تحدّث مع امرأة أنيقة وجميلة جدّاً تحت خمارها الرّقيق؛ كانت ترتدي جوارب من الحرير، حذاءً ذا كعبيْن عالِيَيْن وكانت تتكلّم بصوت خشن؛ لم أصدّق عينَيَّ حين علمتُ أنّها رجل. أخذنا كونتان إلى الملاهي الإجراميّة، حول ألكسندرپلاتز. ضحكتُ وأنا أقرأ لافتة مُعلّقة على الجدار: يُمنَعُ تنشيط السيّدات Das animiern der Damen ist verboten.
خلال الأيّام التالية، أراني سارتر أماكن أكثر بورجوازيّة. احتسَيْتُ الكوكتيل bowl في كاباريه حيثُ طاولات تحيط بمرقص ترابي: فارسة تقوم بحركات

طيران بهلواني. شربتُ البيرة في حانات ضخمة؛ إحداها كانت تضمّ سلسلة من الباخات، ثلاث فرق موسيقيّة تعزف في آن واحد. عند الحادية عشرة صباحاً، كانت كلّ الطّاولات مشغولة، الناسُ يتعانقون ويترنّحون مردّدين الأغاني: «إنّها الحفلة»، شرح لي سارتر. في عمق الصّالة الرّئيسة كان الدّيكور يُجسّد ضفاف نهر الرّين Rhin؛ فجأة وسط ضجّة نحاسيّة هائلة، اندلعت العاصفة: مرّت اللوحة المرسومة إلى البنفسجي الأرجواني، خطوط ضوء انعكست عليها، سُمِعَ الرّعد وصوتُ الشلاّلات. صفّق الجمهور بهيجان.

قمنا برحلة قصيرة؛ في هانوڤر رأينا، تحت مطر غزير، منزل ليبنيتز Leibniz: كان فخماً، فسيحاً وجميلاً جدّاً بنوافذ عنق الزّجاجة. أحبّ بيوت هيلدشايم Hildsheim العتيقة، أسطحها الحمراء، التي كانت تؤوي غرفاً علويّة أعلى ثلاث مرّات من الواجهات؛ صامتة وخالية، بدت الطّرقات هاربة من الزّمن وخُيِّلَ إليَّ أنّي أتجوّل داخل فِيلم غرائبي: عند المنعطف القادم سأرى رجلاً يُلوّح بكنزته السّوداء، مُعتمراً قبّعة عسكريّة سيتّضح أنّه الدّكتور كاليغاري. تناولتُ العشاء مرّتَيْن أو ثلاثاً في المعهد الفرنسي. كان أغلب النّزلاء يروّحون عن أنفسهم من عناء الدّراسة بممارسة تجارة العملة. ثمّة فرق كبير بين صرف «المارك المُجمَّد» المُخصّص للسيّاح والمارك العادي الذي كان تصديره مُحجّراً. كان كونتان وآخرون عديدون يلتحقون كلَّ شهر بالحدود؛ كانوا يخفون في بطان ملابسهم الداخليّة أوراقاً نقديّة تشتريها البنوك الفرنسيّة بأسعار مُرتفعة، فيما كانوا بصفتهم أجانب يشترونها بمبالغ زهيدة. لم يكن سارتر مُهتمّاً بهذه الحيل. كان يعمل كثيراً؛ كان بصدد إتمام حكاية روكنتان؛ قرأ هوسرل؛ كتب أطروحة حول سُمُوِّ الأنا، نُشرت سنة 1936 في *بحوث فلسفيّة*. كتب من زاوية هوسرليّة، لكن بتضادّ مع بعض نظريّاته الجديدة عن علاقة الأنا بالوعي؛ سيُنشئ تمييزاً بين *الوعي والنفسي*، وسيظلّ متمسّكاً بذلك دائماً؛ وفيما أنّ الوعي حقيقة هو آنية تتجلّى في حضور الأنا، فإنّ الجانب النّفسي هو جملة أشياء لا يمكن لمسُها من خلال عمليّة ردّ الفعل التي لا يمكن أن تبوح بأسرارها إلّا عندما توَصَفُ شأنها شأن جميع المُدرَكات؛ الكره مثلاً، تسامقٌ نُدركُه عبر التجارب ويظلّ حضوره مُجرّد احتمال. أنايَ هو جزء من العالم، مثل أنا الآخرين تماماً. هكذا بنى سارتر قناعاته الأكثر قدماً والأكثر عناداً:

ثمّة اكتفاء من جانب الوعي غير الظّاهر للآخر؛ العلاقة مع الأنا، التي تُفسِدُ، حسب لاروشفوكو La Rochefoucould وعلم النّفس الفرنسي التقليدي، حركاتنا الأكثر عفويّة ولا تَظهر سوى في ظروف خاصّة جدّاً. ما شغله أكثر هو أنّ النظريّة وحدها كما قدَّر، ما يسمح بالإفلات من الإيمان بالذات والنفسي والأنا الموجودة في الذات ولدى الآخر على نحو موضوعي. بإلغاء الإيمان بالذّات وتجنّب مكائد المثاليّة، أكّد سارتر في خاتمته احتمال تحقّق نظريّته على أرض الواقع سواء من الناحية الأخلاقيّة أو السياسيّة. أذكر أسطره الأخيرة لأنّه من الصّعب الحصول على الأطروحة كما أنّها شكّلت استمرار اهتمامات سارتر: «بدا لي دائماً أنّ فرضيّة العمل في خصوبتها المشابهة للماديّة التاريخيّة لا تتطلّب لبنائها غرابة الماديّة الميتافيزيقيّة. ليس من الضّروري، إذاً، أن يسبق الشّيء المعنى كي تتلاشى القيم الروحانيّة السابقة وكي يستعيد العالم أسسه على أرض الواقع. يكفي أن يكون الأنا معاصراً للعالم وأن تكون جدليّة المعنى والشّيء منطقيّة خالصة، كي تختفي الهموم الفلسفيّة إلى الأبد...» هذه الظّروف تكفي، أضاف: «كي يظهر الأنا كخطر يواجه العالم، وكي يستنزف الأنا محتوى العالم (بطريقة غير مباشرة حسب الحالات). لسنا في حاجة إلى أكثر من ذلك لتأسيس أخلاق وسياسة إيجابيّة (نُشِرَ سنة 1936. كتبتْ هذه الأسطر سنة 1934) عبر الفلسفة.»

كان سارتر سعيداً في المعهد حيث وجد حرّيته، ومن ناحية ما، الرّفقة التي أحبَّ لأجلها دار المُعلّمين. بالإضافة إلى ذلك أقام علاقة أنثويّة ذات قيمة كبيرة بالنّسبة إليه. كان لأحد النّزلاء المُغرمين بفقه اللغة لكن لا مبال تماما بكلّ ما يتعلّق بالحبّ، زوجة يجدها كلّ من في المعهد جذّابة. جابت ماري جيرار الحيّ اللاتيني طويلاً. كانت تؤجّر غرفاً في الفنادق الغريبة، ويحدث أن تحتجز نفسها في غرفتها أسابيع عديدة، تُدخّن وتحلم؛ لم تفهم سبب مجيئها إلى الأرض؛ كانت تعيش أيّامها يوماً بيوم دون غد: سابحة في غيوم تُمزّقها بين الحين والآخر أشياء حياتيّة عنيدة لابدّ منها؛ لم تكن تؤمن بمآسي القلوب: مآسٍ مترفة، آلام أثرياء؛ الأسى الوحيد في نظرها هو البؤس، الجوع والألم الجسدي؛ أمّا السّعادة فلا معني لهذه الكلمة عندها. كانت جميلة، تبتسم ببطء، بسخاء كبير؛ مخاوفها الفكريّة جعلت سارتر يتعاطف

معها بحرارة؛ بادلته نفس الشّعور؛ اقتنعا ألّا أفق لعلاقتهما لكنّ الحاضر يكفي وكانا يلتقيان كثيراً. قابلتُها؛ أعجبتني ولم أشعر إزاءها بالغيرة. رغم أنّها كانت المرّة الأولى التي يهتمّ فيها سارتر بشأن امرأة، لم أكن أسيء تقدير شعور الغيرة أو أرى أنّي مصروفة عنه. لكنَّ هذه الحكاية لم تباغتني ولم تربك الفكرة التي كونتها عن حياتنا، منذ البداية، أخبرني سارتر أنّه سيقيم علاقات ويخوض مغامرات. قبلتُ المبدأ كواقع دون مشقّة؛ كنتُ على علم كم كان سارتر متحمّساً لمشروعه الذي سيصبح غاية وجوده: معرفة العالم والتعبير عنه؛ كان لديَّ يقين بأنّي مرتبطة به بشكل ضيّق لا يجعل من محطّات حياته أمراً مُثيراً للاضطراب.

بعد وقت وجيز من وصولي إلى برلين، تلقّيتُ رسالة من كوليت أودري تخبرني فيها أنّ غيابي عن المعهد قد سبّب الاستياء. نصحني سارتر باختصار إقامتي؛ رفضتُ، أكّدت أنّ شهادتي الطبيّة تحميني. أصرَّ: لو بلغ إلى علم إدارة المعهد بمسألة هروبي إلى ألمانيا فإنّ متاعب كثيرة في انتظاري. كان ذلك صحيحاً، لكنّي كنتُ أرتعش غضباً من فكرة التّضحية من باب الحذر. مكثتُ. هنّأت نفسي على ذلك، لأنّي لم أواجه شيئاً لدى عودتي إلى رووان. رويتُ رحلتي إلى جميع أصدقائي بابتهاج كبير. «ماذا عن اللقاءات؟ سألني ماركو. لم تقابلي أحداً؟» حين أجبتُه بلا رمقني بشفقة.

كنّا نتبادل الأخبار أنا وسارتر. اسمان كانا علامة فارقة ذلك العام. الأوّل هو فوكنر الذي صدر له بالتّوازي تقريباً بالفرنسيّة *عندما كنتُ أحتضر* و*الضّريح*. قبله، جويس، ڤيرجينيا وولف، همنجواي وآخرون كانوا قد رفضوا الموضوعيّة المزيّفة للرواية الواقعيّة في سعيها للتعبير عن العالم من خلال أحكام ذاتيّة؛ إلّا أنّ جديد تقنيته ونجاعتها هي التي أدهشتها؛ لم يكن يهندس بحذق مجموعة من وجهات النّظر فحسب، بل كان مع حالة إدراك ينظّم معرفة جهلاً، شرّاً، أوهاماً، كلاماً، صمتاً، على نحو يجعل الأحداث تغرق في نوع من العتمة الباهرة لتطفو بعد ذلك مُحمّلة بأقصى ما يمكن من الغموض والحدّة. لامستنا تلك الأعمال من ناحية فنّياتها ومواضيعها. على نحو ما، تشابهت الملحمة الحافلة بالمغامرات العنيفة، *عندما كنتُ أحتضر*، مع الابتكارات

الغرائبيّة. «أمّي سمكة»، قال الطّفل؛ وحين انزلق التابوت الراسي على العربة بشكل سيّئ في البحيرة ونزل إلى الماء، يبدو أنّ جثّة الأم قد تحوّلت فعلاً إلى سمكة؛ من خلال الأسمنت التي لفّ به المزارع ركبته المريضة، تعرّفنا على المادّة المُظلّلة المحبّبة للإخوة ماركس ودالي أيضاً: الخزف الذي يُؤكَل، السكّر المرمري. لكن هذا التناظر شكل لدى فوكنر رؤية عميقة للمادّة؛ إن كانت الأشياء والممارسات تبرز للقارئ في شكل هيئات هازئة، فلأنّ البؤس والحاجة يغيّران نظرة الإنسان وعلاقته بالأشياء. هذا ما فاجأنا في روايته التي عرفتها ڤاليري لاربو بصورة أثارت غرابتنا على أنّها «رواية عادات ريفيّة». أثار *الضّريح* اهتمامنا بنفس القدر. لم نفهم فرويد، كان يُنفّرنا؛ لكن ما إن تُقدّم لنا اكتشافات تحت أشكال متاحة، فإنّنا نخوضها بشغف. «نواة اللّيل التي لا يمكن اختراقها» التي توجد في قلب كلّ إنسان، رفضنا كلَّ الأدوات التي اقترحها المُحلّلون النفسيّون لولوج عالمها: خاضها فوكنر بفنّ، لقد فتح لنا فجوات سحرنا بها. لم يكتف فوكنر بالقول إنّ خلف الوجه البريء تزخر أشياء كريهة: إنه يرينا إيّاها؛ لقد نزع قناع الفتاة الأمريكيّة العفيفة؛ جعلنا نلمسها من خلال الاحتفالات المسمومة التي تخفي العالم، العنف التراجيدي للحاجة، للرغبة والانحراف المُقنّع بالمسرّات؛ يُشعل الجنس لدى فوكنر لهيب الشرّ ويسيل الدّم؛ تتجلّى مآسي الأفراد في الاغتصاب وجرائم القتل والحرائق؛ هذه النار التي حوّلت، في رواية *الضّريح*، رجلاً إلى شعلة حيّة، لم تكن تتغذّى في الظّاهر سوى على البنزين: نشأ في هذه الحرائق السرّية المخزية التي تلتهم بطون الذّكور والإناث.

الاسم الثاني هو كافكا الذي حاز أهمّية أكبر بالنّسبة إلينا. قرأنا *التحوّل* في المجلّة الوطنيّة الفرنسيّة وفهمنا أنّ الناقد الذي وضع كافكا ندّاً لجويس وبروست لم يكن مازحاً. صدرت *المحاكمة* لكنّها لم تحدث ضجّة كبيرة: يفضّل النُقّادُ هانس فالادا على كافكا؛ أمّا نحنُ فقد كان بالنّسبة إلينا واحداً من الكتب النادرة والرائعة التي لم نقرأ مثلها منذ زمن طويل. فهمنا فوراً أنّ نصّه لا يُختَصَرُ في مجاز وأنّه من غير الملائم البحث عن رموز تساعد على تأويله، بل إنّه يعبّر عن نظرة شموليّة للعالم؛ لقد قوّض العلاقة بين الوسيلة والغاية، طاعناً ليس في معنى الوعاء الأدبي والوظائف والأدوار والسّلوكيات

البشريّة فقط، بل في العلاقة الشاملة بين الإنسان والعالم أيضاً؛ لذلك اقترح صورة غرائبيّة ولا تُحتَمَل، بإظهار العلاقة معكوسة (حرّر سارتر هذه الفكرة سنة 1934 في دراسة حول بلانشو). إنّ مغامرة ك... كانت شديدة الاختلاف - متطرّفة ويائسة جدّاً - كما هو شأن أنطوان روكنتان؛ لكن في كلتا الحالَتَيْن اتّخذ البطل من محيطه العائلي مسافة تهدم النّظم الإنسانيّة وتجعله يسقط في ظلمات موحشة. كان إعجابنا بكافكا جذريّاً منذ الوهلة الأولى؛ دون أن نتمكّن من معرفة لماذا راودنا إحساس بأنّ نصوص كافكا تهمّنا بشكل خاص. كان فوكنر والآخرون يروون لنا حكايات بعيدة؛ فيما كان كافكا يحدّثنا عن أنفسنا؛ إنّه يكشف عن مشاكلنا في مواجهة عالم دون ربّ وأين مع ذلك يكمن خلاصنا. ما من أب جسّد القانون في نظرنا؛ لم يكن أقلّ حضوراً أو مرونة في داخلنا؛ إنّ القانون لا يسمح بفكّ شفرته تحت ضوء العقل الكوني؛ كان فرديّاً، سرّياً حتّى إنّنا لم نكن نحنُ أنفسنا قادرين على تهجِيَتِهِ، مع علمنا أنّنا لو اتّبعناه فإنّنا حتماً سنضيع. كنّا نتلمّسُ الخطوات ونُخمّن الطّريق، تائهَيْنِ وحيدَيْن مثل جوزيف ك... وماسح الأراضي، عبر الغيوم حيثُ ما من مسلك رابط يلوح في الأفق قد يصل الغابات بعضها ببعض. صوتٌ يقول: الكتابة واجب؛ أطعنا، غطّينا صفحات بالكتابة: لبلوغ ماذا؟ أيّ أناس سيقرؤوننا؟ وماذا سيجدون فيما نكتب؟ غاص الطّريق الصّعب الذي قادتنا إليه حتميّة ما وسط ليل مُبهَم. كنّا أحياناً نلمحُ الهدف بنوع من الاستنارة الخاطفة: هذه الرّواية، هذا النصّ، يجب أن يكتمل؛ إنّه يتألّق من بعيد منتهياً تماماً. لكن كان من المستحيل إيجاد الجمل التي ستأخذنا إلى نهايته صفحة بعد أخرى؛ إمّا أن نصل خارج النصّ أو إلى لا شيء. أدركنا أنّ علينا الاستمرار في التعلّم: ما من كلمة قد تخترق هذه المؤسّسة العمياء وما من عقاب. سينبثق الموت بقسوة كما هو شأن جوزيف ك...، دون أن ينطق بأيّ حكم؛ سيظلّ كلُّ شيء تحت التّشويق.

تحدّثنا كثيراً عن كافكا وفوكنر عندما جاء سارتر إلى باريس في عيد الفصح. عرض عليَّ في خطوط عريضة نظام هوسرل وفكرة *القصديّة*؛ حملتْ له هذه الفكرة ما يأمل فيه: إمكانيّة تجاوز التناقض الذي كان يضطربُ في داخله آنذاك والذي كنتُ قد أشرتُ إليه؛ كانت «الحياة العميقة» مبعث اعتزاز وشرف: إلّا أنّها ستجد نفسها ملغاة جذريّاً منذ اللّحظة التي يعبّر فيها الوعي

عن وجوده الخاصّ بتجاوز الذات إلى الشّيء. إنّ كلَّ شيء موجود خارج الأشياء والحقائق والمشاعر والدلالات وخارج الأنا نفسها؛ ما من عامل ذاتي قد يُمَوِّه على حقيقة العالم كما يبدو لنا. الوعي هو الذي يُحافظ على السّيادة والكون، الحضور الفعلي الذي ما انفكّ سارتر يُؤكّده. من هذا المُنطلق كان على علم النّفس أن يُراجع كلّيته ولقد شرع من خلال أطروحته حول الأنا، في الاضطلاع بهذه المُهمّة. رحل من جديد وحاولتُ ما استطعتُ الاستفادة من الثلاثي الأخير. خرجتُ مع شقيقتي كثيراً. كانت لا تزالُ تعيش مع والِدَيْنا، لكنّها استأجرت في شارع كاستانياري حجرة جليديّة في الشّتاء وحارّة في الصّيف. كانت تكسب القليل من المال من وراء عملها بعد الظّهر سكرتيرة في رواق بونجين Bonjean. كانت ترتادُ، بوتيرة متباعدة، حفلات الإنجليز أو حفلة فرانسيس غروبر وفرقته، إلّا أنّها كانت مجرّد مُتع نادرة. كانت حياتها المادّية صعبة ومُحتشمة؛ إلّا أنّها كانت تتحمّل وضعها بمزاج رائق أثار إعجابي بها. أخذتها معي إلى بعض العروض. شاهدنا مسرحيّات معاً، من بينها *خسارة أن تكون مومساً* (سُوّقَت المسرحيّة تحت عنوان: خسارة أن تكون بائعة هوى؛ من المؤسف أن يحيدوا بها نحو هذا الحياء اللّفظي الذي يخون النصّ الأصلي والدّلالة الدّراميّة. فكّر سارتر في فورد Ford عندما استخدم كلمة عاهرة كعنوان لإحدى مسرحيّاته.) لجون فورد الذي كنتُ أحبُّهُ كثيراً؛ كان الممثّلون يرتدون الأزياء الجميلة المُزخرفة التي صمّمها ڤلنتين هوجو لـ*روميو وجوليت*. تأثّرنا معاً لدى مشاهدة *المرأة الصّغيرة*؛ جسّدت المُبتدئة كاترين هيپبورن شخصيّة جو مارش وسحرتني كما في أحلام المراهقة التي كنتُها: بدت لي كأنّها عادت عشر سنوات إلى الوراء. دأبنا أيضاً على متابعة معارف الرّسم؛ زرتُ مع أختي رواق بونجين أواخر جوان لرؤية أعمال دالي الكبرى. أذكرُ أنّي شاهدتُ عدداً كبيراً من أعماله مع سارتر لكن نسيتُ متى كان ذلك. حدّثنا فلاناند بتلكُؤ عن الاهتمامات الدّقيقة التي قدّمها دالي على أنّها أُنجِزت برعاية ميسونيي Messonnier؛ سحرتنا حقّاً تلك الأصباغ المُزيّفة. غالباً ما كانت الألعاب السّرياليّة المتعلّقة بتناظر المادّة مع الأشياء وأعجبتنا «السّاعات الرّخوة» لدالي؛ لكنّي أحببتُ أكثر الشفافيّة المتجمّدة للمناظر حيثُ اكتشفتُ، أفضل بكثير من شوارع شيركو الشاعريّة المُذهلة والمقلقة للفضاءات الهاربة

من المدى؛ بدت الأشكال والألوان تحويراً للعدم؛ إنّه وهو يُمشّط التّفاصيل المفاجئة لإسبانيا، كما لاحظتها بعيْنَيَّ، نقلني بعيداً عن الواقع، مُفصحاً عن خلفيّات تجربتنا التي لم تكن في متناولنا: الغياب. رسوم أخرى اهتمّت بـ «العودة إلى الإسباني»؛ لم أؤيّد هذه المحاولة ولم تقنعني النّتائج.

في غياب سارتر قدّمتُ دروساً في الفلسفة لليونيل رولي الذي بات يعيش في باريس الآن؛ أسّس بصحبة بعض رفاقه «الحزب الميروڤنجي» الذي طالب، بواسطة رفع اللافتات وتوزيع المناشير بعودة سلالة شيلپيريك Chilpéric[17]. عاتبتُه لأنّه يهدر وقتاً كبيراً في ملاحقة خيالاته؛ لكنّه كان موهوباً في الفلسفة وكنتُ أكنُّ له ودّاً كبيراً. تعرّف على أختي وأصبحا صديقَيْن حميمَيْن.

كنتُ باستمرار أذهبُ إلى ضواحي باريس لرؤية كامي ودولان. المرّة الأولى التي وصلتُ فيها إلى شارع غابرييل، بعد سفر سارتر، أنعشت كامي قلبي.

كانت ترتدي فستاناً مُخمَلِيّاً أسودَ جميلاً، مُزيّناً بحزام ذي ياقة من الزّهور السّوداء المُرصّعة بقلوب صفراء. «أردتُ إغواءكِ»، قالت بمرح؛ زعمت أنّ مشاعرها ناحيتي يمكن أن تكون مُلحّة، بل ربّما مشحونة بالغيرة؛ لم أخض هذه اللّعبة التي لم تكن لتُسلّيها سوى القليل والتي دون شكّ ستتلاشى حالما نلتقي عند أوّل مناسبة قادمة. أحسستُ أنّها تعاملني بلطف لا يخلو من التّعالي، لكنّ نرجسيّتها وتأنّقها انتقصا منها في نظري وفقدتْ كلَّ سيطرة عليَّ. استمتعتُ معها دون أن تضايقني أيُّ ذهنيّة.

اشترى دولان منزلاً في فيرول Férolles قريباً من كريسي-أون-بيري. كان السّفرُ في القطار مُعقّداً نوعاً ما؛ ولأنّ الآنسة پونتيو كانت قد روت لي أنّها كانت في كلّ عطلة نهاية أسبوع تخرج في نزهة مع صديقها بالسيّارة، فقد سألتها إن كان في وسعهما أخذي إلى فيرول: فكّرتُ بتبصّر في أنّ فكرة مخالطة رجل مشهور قد تغريهما. وصلنا إلى كريسي ذات مساء سبت. هناك

17- شيلپيريك Chilpéric: أحد ملوك الإمبراطوريّة الكارولنجيّة الفرنسية حيثُ انقسمت الفرنجة خلال القرن الثامن إلى ممالك صغيرة واصطبغت بصبغة مسيحيّة ستُمَيّز الحُكم قروناً طويلة.

صعدنا إلى قرية مُعلّقة فوق ربوة. استقبلتنا كامي وقدّمت لنا نبيذ پورتو. رمق رفاقي بنظرة ساخرةٍ، تنكُّرَها الرّيفي: فستانٌ طويل من الصّوف الخشن، شالٌ ذو ألوان مبهرجة؛ وزادت في دهشتها عندما قدّمت لهما كأمّ حقيقيّة، دميتها فريدريتش وألبرخت. من جانبه، راح دولان يسحب أنفاساً من غليونه وهو يُحدّق في الزّوجَيْن الفرنسيّيْن المُنحَدِرَيْن من الطّبقة المتوسّطة. غادروا ورحتُ أكتشف البيت: إنّها ضيعة قديمة حوّلاها بنفسيهما إلى منزل إقامة؛ تركا لها خصوصيّتها الريفيّة: مدفأة تشتعل داخلها قطعٌ كبيرة من الخشب؛ أثّثاها وزّيناها مُزاوِجَيْن، بذوق جريء وواثق، بين التّحف الجميلة العتيقة وبين الإكسسوارات المسرحيّة. لبثتُ أربعاً وعشرين ساعة؛ رجعتُ مرّات عديدة. كان دولان ينتظرني في محطّة كريسي داخل عربة قديمة يجرّها حصان، كان يُعامله برفق. كان يأكل الشوكولاتة وهو يسوق العربة، لأنّ كامي منعت عنه التّبغ لأسباب مفاجئة وغامضة. كان عشاء كامي مدروساً كزينتها؛ جلبت من تولوز مُعجّنات خشنة وكبد الإوز. جهّزت أطباقاً مُعقّدة ولذيذة. وأمضينا الأمسية في الحديقة الصّغيرة الرّائعة. كان دولان يروي قصصاً ويدندن ببعض الأغاني القديمة؛ لكن يصعب تخمين طبيعة العلاقة بينهما على الوجه الصّحيح، فقد كانت كامي في حضور طرف ثالث تصنعُ من حياتها عرضاً، وكان يُجاريها في ذلك. كانا يُمثّلان كوميديا مُضحكة حول النّفاق والعبوس والضّغينة والرقّة.

لم أحبّ النورماندي قط؛ مع ذلك تنزّهتُ مع أولغا في الغابات الثّلجيّة المحاذية لرووان؛ وأردتُ استغلال عطلة عيد القُدُس لأتمدّد على العشب السّاخن. يوم الأحد ذهبتُ إلى ليون-الغابة لرؤية نُزلٍ أشاروا عليَّ به؛ كان باهظا بالنّسبة إليَّ؛ قمتُ بجولة في الأجوار؛ قريبا من قصر روزاي، لمحتُ وسط الأحراش، كوخاً ذا نوافِذَ انعكست عليها أشعّة الشّمس؛ كانت كلمة «مقهى» مكتوبة على مُربّعات الزّجاج بأحرف كبيرة؛ دخلتُ لاحتساء كأس وسألتُ المالك إن كان يُؤجّر غُرَفاً؛ عرض عليَّ شقّة صغيرة على مسافة خمسين متراً حيثُ سقف القشّ كان مُزخرفا بزهور السّوسن. أمضيتُ خمسة أيّام خلال الأسبوع الموالي. كانت أرضيّة غرفتي مُغطّاة بمُربّعات خزف أحمر، نمتُ على سرير ريفي تحت لحاف من الرّيش الأزرق. وسمعتُ صياح

الدّيك عند الخامسة صباحاً. كنتُ مُغلقة العينَيْن أراوحُ بين اليقظة والنّوم، بين فجر قديم ونور يزحف من خلال شقوق الشّبابيك. فتحتُ الباب فرأيتُ العشب الأخضر والأشجار المُزهرة. خرجتُ لاحتساء قهوة، وضعتُ طاولة تحت ظلّ شجرة تفّاح وعُدتُ تلك الفتاة الصّغيرة التي تقوم بواجباتها تحت شجرة الكاتاليا في ميرنياك. أهديتُ الفتاة ما كانت تحلم به دائماً، تحت أشكال عديدة: بيتاً لها وحدها.

عند نهاية شهر جوان، كان عليَّ امتحان تلاميذ الباكالوريا في كايين. عدد كبير من المُرَشَّحين كانوا قد جاؤوا من مدرسة بريتاني العسكريّة بـ «فليش Flèche»، كانوا يتفصّدون عرقاً داخل زيّهم الأزرق وكان يبدو عليهم الارتباك؛ الدّورُ الذي لعبتُه في هذه الحفلة البرّية لم يعجبني قط؛ عوّضتُه بمنح المُعدّل للجميع. لم أكن سعيدة البتّة. لا يمكنني البقاء إلى الأبد أمام دير للنّساء ثمّ أمام دير للرّجال. كنتُ أجلس وفي يدي كتاب داخل حانة شونديڤار حيثُ الروح الريفيّة المرحة تبدّد التوتّر. جذّفتُ ذات ظهيرة في نهر الأورن مع بعض الزّملاء: كان ذلك كئيباً. كان آرون الذي شغل مكان سارتر في الهاڤر أحد أعضاء اللّجنة وتناولنا العشاء معاً وسط جوّ من السّرور. التقيتُ أيضاً بپوليتز وكان آنذاك أستاذاً في إيڤرو Evreux؛ كان يتباهى بكونه مُستحيلاً أن ينطق أحدهم بكلمة «مثاليّة» أمام تلاميذه دون أن يقهقهوا؛ أخذني لتناول الغداء في مطعم صغير يقع في منخفض وسط ساحة قديمة بالمدينة. حدّثته بسخط عن الاجتماع حيثُ أغلق الشيوعيّون فم دوريو Doriot وضحك دون مراعاة للبيراليّة البورجوازيّة الصّغيرة التي كنتُها آنذاك. ثمّ شرح طبيعته، حسب مُعطيات خطّ اليد الذي كان يعتبره علماً صحيحاً: يوجد في كتابتي أثر لِبِنْيَة عاطفيّة مُضطربة، لكن أثبتُّ وجود بِنْيات جيّدة جدّاً أسيطر على الأوضاع بفضلها. ضايقتني لغته الماركسيّة؛ لكن على الأقلّ كان هناك تناقض بين عقائديّته والجاذبيّة التي على وجهه؛ استسغت حركاته أكثر من كلامه، صوته، النمش وشعره الجميل الذي استعاره منه سارتر ليمنحه لشخصيّة كتابه أنطوان روكنتان.

انتهت الاختبارات الشّفويّة أيّاماً قبل 14 جويلية وبما أنّي كنتُ وفيّة لعزمي على رؤية كلّ شيء في العالم، قمتُ بجولة في تروڤيل ودوڤيل التي

ملأتني برعب جميل كالسّعادة. توقّفتُ في بوايو أمام منسوجات المكلمة ماتيلد. تنزّهتُ في المنحدرات التي تهيمن على غرانڤيل. عدتُ إلى رووان. وحضرتُ حفل تسليم الجوائز متوسّطةً كوليت أودري من جهة وسيمون لابوردان من جهة أخرى. بعد يومين استقللتُ القطار إلى همبورغ حيثُ كان لي موعد مع سارتر.

رغم ليلة 30 جوان، رغم استقالة هندنبرغ Hendenburg، ظلّ أعداء النازيّة يأملون سقوطاً وشيكاً لهتلر. أراد سارتر تصديقهم لكنّه كان أيضاً سعيداً بمغادرة ألمانيا. استغللنا العطلة للقيام بجولة، قبل أن يودعها؛ سيعود إلى مركزه في هاڤر.

كانت همبورغ ألمانيّة ونازيّة لكنّها ميناء كبير قبل كلّ شيء. مراكب تغادر وأخرى تصل وتنام، ملاهي البحّارة وكلّ الفسوق الآخر. كان لابدّ من تدمير جزء كبير من الحيّ المُخصّص لهم من باب مراعاة الأخلاق؛ مع ذلك ظلّت هناك طرقات كثيرة مُعلّقة بين شجارات فتيات متبرّجات يعرضن خدماتهنّ على المارة من خلال نوافذ ذات مربّعات زجاجيّة مغسولة جيّداً؛ لم تكن قسمات وجوههنّ تتحرّك كما لو كنّ تماثيل جصّ على واجهة حلاّق. تنزّهنا على رصيف المرفأ، حول الأحواض؛ تناولنا الغداء على ضفاف الـ «ألستر Alster»؛ مساءً، كنّا نخرج لاكتشاف الأماكن السيّئة السّمعة؛ يعجبنا كلّ هذا النّشاط.

تحوّلنا إلى إيلب Elbe على متن زورق إلى غاية هيليغولاند، حيثُ ما من شجرة تنبت. قابَلَنا ألماني: أربعيني، على رأسه قبّعة سوداء، ووجهه كالح؛ بعد حديث عامٍّ قال لنا إنّه شارك في حرب 14–18 في رتبة رقيب؛ وتصاعدت نبرته تدريجيّاً: «لو اندلعت حرب أخرى فلن نكون المهزومين، قال: سنستعيد شرفنا.» أجاب سارتر إنّ الحرب غير ضروريّة، يجب أن ننتمي إلى السّلم. «الشّرف أوّلاً، قال الرّقيب. علينا أن نستعيد شرفنا أوّلاً.» أزعجني صوته المُتعصّب. محارب سابق، لابدّ أن يكون عسكريّاً، فكّرتُ كي أواسي نفسي؛ لكن كم كان عدد الذين يترقّبون لحظة الثّأر؟ لم أرَ من قبل حقداً

يتفجّر على وجه أحدهم راسماً الانتصار. حاولتُ نسيانه خلال كامل الرّحلة لكنّني لم أقدر.

في الشّوارع الهادئة لِلوبيك حيث الكنائس الجميلة بـ ستر السّاند Stralsund التي كانت تُسوّطها الرّياح البحريّة، رأينا فيالق من القمْصان الداكنة تسير بخطوات ذات وقع عنيد في موكب مهيب. مع ذلك تحت الأسقف ذات الأقواس الحادّة، بدا الناس مُسالمين؛ كانوا يحتسون البيرة ويُغنّون بمرافق مُشبَكَة. هل يُعقل أن نحبّ الحرارة الإنسانيّة ونحلم بالمجازر؟ لم يبدُ ذلك مُنسجماً. قليلاً ما لاحت لنا الرّوابط الإنسانيّة الألمانيّة أمراً جذّاباً وجديراً بالإعجاب. عبرنا برلين، رأينا پستدام Pstdam[18]؛ تناولنا الشّاي في جزيرة الإوزّ: بين الوجوه التي تجوب المكان من حولنا مُستمتِعين بالكريمة المخفوقة، ما من وجه يوحي بالودّ أو حتّى بالفضول؛ تذكّرنا بحسرة المقاهي الإسبانيّة والشّرفات الإيطاليّة، حيث كانت نظراتنا تتنقّل من طاولة إلى أخرى بشراهة.

بدت لي دريسد Dresde أكثر قبحاً من برلين. نسيتُ عنها كلّ شيء ما عدا سُلّماً كبيراً، وإطلالة رائعة على «سويسرا السّكسونيّة»، نهرتني مُديرة أحد المقاهي عندما رأتني أضع مكياجاً في الحمّام: «لا تضعي أحمر الشّفاه، إنّه شرّ. في ألمانيا نحن لا نضعُ أحمر الشّفاه!»

تنفّسنا براحة أكبر على الضفّة الأخرى من الحدود. في شوارع براغ، المحفوفة بالمقاهي على النّمط الفرنسي، وجدنا المرح؛ الطّرقات، السّاحات القديمة لـ «الضّلع الصّغير» أعجبتنا المقبرة اليهوديّة القديمة. ليلاً، لبثنا متكئين طويلاً بمرافقنا على درابزين الجسر العتيق، وسط تماثيل القديسين الجاثمة منذ قرون أعلى المياه السّوداء. دخلنا مرقصاً خالياً تقريباً؛ ما إن فهم مدير النّزل أنّنا فرنسيّان حتّى عزفت الفرقة نشيدنا الوطني؛ ابتسم الزّبائن النادرون وصفّقوا فوق رؤوسنا، فرنسا، بارتو Barthou[19]، الوئام. كانت لحظات مؤلمة.

عزمنا على الرّحيل إلى ڤيانا. لكنّنا رأينا تجمّعات في الطّرقات لدى خروجنا

18- پستدام Pstdam: مدينة ألمانية تابعة لبرلين.

19- بارتو Parthou: صحافي ورجُل دولة فرنسي عاش بين 1862 و1934.

من الفندق؛ كان النّاس يتهافتون على الجرائد ذات العناوين العريضة. مَيَّزنا اسم دولفوس Dollfuss وكلمة تبدأ بحرف م فخمّنا المعنى. أحد المارّة أخبر سارتر بالألمانيّة: قُتِلَ دولفوس. بدا لي أنّ الوقت مناسب أكثر من أيّ وقت مضى للذهاب إلى ڤيانا. غير أنّنا كنّا مأخوذين آنذاك بتفاؤل العصر، ما جعلنا نعتقد أنّ حقيقة العالم هي السّلام؛ ڤيانا حزينة، لن تكون ڤيانا من دون فضائلها الصّغيرة ذات شأن. تردّدتُ بدافع ازدواجيّة في الشّخصيّة بشأن تغيير برامجنا، لكنّ سارتر رفض قطعيّاً الذّهاب إلى مدينة مُشوّهة بسبب مأساة عبثيّة. لم نشأ التفكير في أنّ اغتيال دولفوس قد كشف على العكس الوجه الحقيقي للنمسا، لأوروبا بأسرها. أو لعلّ سارتر قد ساورته الشّكوك حيال ذلك ولم يرغب في مواجهة الواقع المؤلم الذي لم ينجح خلال تسعة أشهر أمضاها ببرلين للتكهّن به: لقد تفشّت النازيّة على كامل أوروبا الوسطى؛ إنّها تشبه حريق قشّ لم يجرؤ الشيوعيّون على التلفّظ به.

على أيّ حال، لقد غضضنا الطّرف عن التراجيديا، وتحوّلنا إلى مونيخ. رأينا هناك مجموعات فنّية وحانات أضخم من حانات ڤاترلاند البرلينيّة.

أعجبني سكّان بڤاريا؛ لم أطق الباڤاريّين ضخام الجثّة الذين كانوا يُظهرون سيقانهم المكسُوّة بالشّعر وهم يأكلون السّجق. توقّعنا أن نجد جمال نورنبرغ؛ لكن آلاف الأعلام ذات العلامة النازيّة كانت ترفرف من النّوافذ وكانت الصّور التي رأيناها في الأخبار متعجرفة بصورة لا تُحتَمَل: الاستعراض الضّخم، الأيادي الممدودة، النّظرات الثّابتة، شعب بأسره في غفوة؛ أحسسنا براحة عند مغادرة المدينة. في المقابل مرّت القرون على نورنبرغ ولم تُفسِدها؛ تجوّلنا في عصور وسطى مُلمّعة جدّا ذات أجواء فاتنة. لا أعرف بحيرة تضاهي سحر بحيرة كونيغسي. أقلّنا قطار ذو أذرع نقل متحركة إلى قمّة زوغسپيتز، على ارتفاع يفوق ثلاثة آلاف متر. كنّا ونحنُ نتنزّه نفكّر في مسألة شائكة. لا أعرف ماذا فعلنا كي نعبر تشيكوسلوفاكيا؛ لكن كان علينا من جديد عبور الحدود للذهاب إلى إينسبروك، وكان حمل المارك ممنوعاً؛ استبدلنا أموالنا بورقة نقديّة كبيرة واحدة أردنا إخفاءها: لكن أين؟ أخيراً، خبّأها سارتر داخل علبة الثّقاب. اليوم الموالي فتّش عون الجمارك كتبنا وحقائبنا الصّغيرة؛ لكنّه أهمل

علبة الثّقاب التي كان سارتر قد وضعها على الطّاولة مع جملة من الأشياء الأخرى. حتّى في النّمسا بدا لنا الهواء أخفّ مما هو عليه في ألمانيا. أعجبتنا داينسبروك وكذاك سالزبرغ، منازلها التي تعود إلى القرن الثامن عشر ذات النّوافذ العارية، اللّوحات الإشهاريّة التي كانت ترقص أمام الواجهات: دببة، بجع، نسور، الأيائل، مُشَكَّلَة بواسطة النّحاس. في أحد المسارح دمى جميلة تعزف *اختطاف السّرايا* لموزارت. وبعد جولة في الباص حول سالزكامرغوت عدنا إلى مونيخ.

حثّنا دولان وكامي والرّأي والشائعات بإلحاح على حضور عرض شغف أوبيراميرغو؛ تلتئم العروض كلّ عشر سنوات، كانت الأخيرة سنة 1930؛ لكن كنا محظوظين لأنّ سنة 1934 كانت سنة احتفال مُقدّس؛ ضرب الطّاعون القرية سنة 1633، سنة 1934 وللمرّة الأولى اعترف السكّان بموت المسيح وفاء للنّذر. اتّخذت الاحتفالات إذاً، وهجاً خاصّاً ولم يحدث قط ازدحام بين السيّاح مثل تلك السّنة. جرى العرض كلّ يوم منذ شهرَيْن رغم ذلك شقّ على وكالة الأسفار خاصّتنا أن تجد لنا غرفة شاغرة في فندق. نزلنا من الباص ليلاً، تحت مطر غزير وتسكّعنا طويلاً قبل أن نأوي إلى مخادعنا: على تخوم القرية، منزل يقيم فيه خيّاط وعائلته الألمانيّة الصّرفة؛ تناولنا العشاء معهم، بصحبة زوجَيْن من مونيخ؛ بدت لي الوجبة عسيرة الهضم حيثُ البطاطا تعوّض الخبز. راح الزّوجان يرمقان سارتر بريبة: «أنتَ تتكلّم الألمانيّة جيّداً»، قالا، وأضافا مُؤنّبَيْن: «ليس في كلامك لهجة.» شعر سارتر بالإطراء، لكنّه انزعج: ظاهريّاً، يُشتبَه بسهولة في أنّه جاسوس. هدأ المطر قليلاً، وخرجنا للتنزّه في الشّوارع المحفوفة بالمنازل المزخرفة ببهجة: شرفات مُزهرة، حيوانات، ضفائر وأكاليل، نوافذ مُزَيّنة. رغم الساعة المتأخّرة سمعنا أصوات المناشير والمِسحَج؛ كان كلُّ القرويّين تقريباً نقّاشين على الخشب: لمحنا من خلال نوافذ الورشات فائضاً من المُجسّمات والتماثيل الرّهيبة. كانت الحانات مكتظة، حيثُ السيّاح متحلّقون حول رجال ذوي لحِى بيضاء وشعر طويل: إنّهم الممثّلون الذين كانوا منذ سنوات يستعدّون لتجسيد شخصيّات *اللّغز*. كان المسيح هو ذاته مسيح سنة 1930، ابنُ مسيح 1920 و1910 الذي كان والدُه مسيحاً أيضاً: لم يخرج الدّورُ من العائلة منذ عهد طويل. انطفأت

الأنوار مُبكّراً: سُحِبَ السّتارُ عند الثامنة صباحاً. عدنا. كلّ الغرف مشغولة، جهّزوا لنا مُقاماً في ملجأ مليء بالأخشاب والنّشارة حيثُ الصّراصير تتحرّك بوقاحة في كلّ اتّجاه؛ تمثال عرضَ تصاميم يقوم بالحراسة في أحد الزّوايا؛ نمنا فوق مصطبة قريبة من الأرض. كان ماء المطر يقطر من السّقف. لم نكن نحبّذ كثيراً الاحتفالات الفلكلوريّة، لكن *شغفاً* لأوبيرامرغو كان فعلاً عرضاً مسرحيّاً عظيماً. دخلنا عبر نوع من الأنفاق إلى صالة ضخمة تضمّ نحو عشرين ألف متفرّج. من الثّامنة حتّى منتصف النّهار، من الثانية حتّى السّادسة، لم يزغ انتباهنا لحظة واحدة. عرض الرّكح وعمقه سمحا بانتشار كبير للحشود، وكان كلّ ممثّل مُسيطراً على جزئه بإيمان جعلنا نشعر أنّنا إزاء الحشود التي جاءت لتهتف للمسيح وهو يُجَرُّ في شوارع القدس. تتناوب «لوحاتٌ حيّة» صامتة، ثابتة، مع مشاهد متحرّكة. علّق كورال نسائي على المأساة بلحن موسيقي رائع يعود إلى القرن السابع عشر: شعورهنّ الطّويلة المُمَوَّجة تنساب على أكتافهنّ فتبدو اللّقطة كأنّها إعلان غسول شعر. أمّا عن أداء المُمثّلين فقد كانوا سيُعجِبون دولان كثيراً بنظامهم ونجاعتهم؛ وصلوا إلى حقيقة لا صلة لها بالواقعيّة. مثلاً كان يهودا judas يعدُّ الثلاثين الأخيرين؛ لكنّ حركاته كانت تنسابُ بشكل ناجع وغير متوقّع، لا يشعر الجمهور حياله بالملل بل يحبس أنفاسه ويزداد تشوّقه.

كان قرويّو أوبرامرغو يعبّرون ببراعة عن مبادئ أدب بريخت: مزيجٌ فريد من الدقّة ومن «أثر المسافة» هو ما أكسب شغف فتنته.

في المقابل عرفنا ما يجب معرفته عن ألمانيا. مكّن استفتاء 19 أوت هتلر من نفوذ دكتاتوري لا شيء يحُدُّه أبداً؛ لقد باتت النمسا نازيّة أيضاً. وجدنا أنفسنا في فرنسا مسرورين للغاية. لكن سرعان ما خابت آمالنا؛ كانت أُبُوَّة دوميرغ Doumergue[20] استبداديّة كأيّ دكتاتوريّة حقيقيّة؛ هزّت قراءة الصّحف قلوبنا: يا للنّفاق! وراء صورة الأخلاقي الورع كانت التّجاوزات تفسح لنفسها حيّزاً. كعادتي صرفتُ النّظر عن السّياسة كي أتذوّق، دون خلفيّات، ستراسبورغ، الكاتدرائيّة، و«باريس الصّغرى»؛ مساءً، شاهدنا

20- دوميرغ Doumergue: تولّى دوميرغ رئاسة فرنسا من سنة 1924 إلى غاية 1931.

واحداً من أفلام الألوان الأولى، *قناعُ الشّمع* الذي أثار احتجاجات عارمة بين أوساط الباريسيّين؛ أمتعنا صراخ المسكينة فاي راي المُروّع بعد أن كان، منذ كينغ كونغ، حكراً على أفلام الرّعب. أحببتُ قرى الألزاس، القصور، الصّنوبر، البحيرات وحقول العنب في المنحدرات الخفيفة؛ احتسينا نبيذ ريكويهر riquewihr وتامينر taminer، تحت الشّمس جالِسَيْن إلى طاولة أمام باب الفندق. أكلنا كبد الإوزّ، المُخلّلات، وتورتة الخوخ. زرنا كولمار Colmar[21]. حدّثني سارتر عن لوحات غرونوولد؛ لم يكن مخدوعاً بأوهام الشّباب؛ كنتُ أشعر بنفس الأثر كلّما رأيتها أمام المسيح المكلل بالشّوك، أمام العذراء الشّاحبة المذهولة التي تحجّرت حيّة.

كان سارتر يُحبّ هذا البلد، حتّى إنه اقترح بنفسه المشي بموازاة التّلال من ضيعة تروا-إيبي Trois-Epis (السّنابل الثّلاثة) تحوّلنا على مدار ثلاثة أيّام إلى هونيك Hohneck، ماركشتاين، بالون-دي-ألزاس. كانت أمتعتنا في جيوبنا. سألنا أحد زملاء سارتر عندما التقينا به عند مضيق شلوشت، أين نقيم: «في لا مكان، أجاب سارتر، نحنُ نمشي فحسب»، بدا الزّميل مُحتاراً. في الطّريق ترنّم سارتر بأغانٍ مرحة جدّاً استلهم كلماتها من التباس العالم. أذكر واحدة:

آه! آه! آه! آه! من كان يُصدّق

أن نصير جميعاً، جميعاً، جميعاً أمواتاً

مقتولين دون رحمة كالكلاب في الشّوارع.

إنّه التطوّر!

أعتقد أنّه لحّن في نفس الوقت أغنية *شارع المعاطف البيضاء* التي سيجعل لاحقاً إيناس Inès تترنّم بها في مشهد من «جلسات مُغلقة».

فارقني سارتر في ميلوز Mulhouse، ليُمضي خمسة عشر يوماً مع عائلته. دعاني پانييز للانضمام إلى مُخيّمه في كورسيكا مع أخته وابنتَيْ عمّه. نزلتُ في مرسيليا عند هبوط اللّيل. اتّخذتُ مكاناً في عبّارة أطلسيّة وتمدّدتُ. بدا

21- كولمار Colmar: مُقاطعة شرق فرنسا.

لي النّوم تحت النّجوم مُنعشاً: فتحتُ عينَيَّ وكانت السّماءُ هنا! عند الفجر، استحوذت باقة من الرّوائح الأرضيّة السّاخنة والخفيفة على المركب: إنّها رائحة الأحراش.

اكتشفتُ متعة التّخييم. كانت على الدّوام تحرّكُ مشاعري وأنا ألمحُ الخيام المنصوبة على عشب البراري أو غابات الكستناء، خفيفة، هشّة لكن مضيافة وواثقة. قطعة قماش بالكاد تفصلني عن الأرض والسّماء، غير أنّها حمتني مرّتَيْن أو ثلاثاً ضدّ عنف العواصف. النّوم في منزلٍ متنقّل: هنا أيضاً حققت حلماً قديماً من أحلام الصّبا، مُستوحى من مقطورات الكرنفال، من *البيت البخاري* لجول ڤيرن. كان للخيمة سحرٌ مُختلف: ننفُخها صباحاً ونفتحها مع حلول المساء في الخارج. ورغم أنّ العصابات الأخيرة قد تمّ القبض عليها، فإنّ الجزيرة كانت لا تزال غير مأهولة؛ لم نكن نلتقي مُخَيِّماً أو سائحاً واحداً رغم أنّ تنوّع المناظر الطّبيعيّة مُذهل. يكفي يوم مشي واحد للنّزول من غابات الكستناء إلى الأبيض المتوسّط. غادرتُ وذكريات حمراء تتلاطم في رأسي، ذهبيّة وزرقاء.

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

الفصل 4

بين أكتوبر 1934 ومارس 1935 أصبح الوضعُ السّياسي غامضاً، على الأقل بالنّسبة إلى إنسان عادي. ازدادت الأزمة الاقتصاديّة خطورة؛ سرّحتْ شركة المحرّكات سالمسون Salmson العمّال وأعلنت سيتروان إفلاسها؛ وصل عدد العاطلين عن العمل إلى مليونَيْن. موجة من كراهية الأجانب هزّت فرنسا: لم يكن مقبولاً البتّة تشغيل يد عاملة إيطاليّة أو بولونيّة فيما لا يوجد شغل لعمّالنا. تظاهر طلبة اليمين المتطرّف بسعار ضدّ الطّلبة الأجانب متّهِمين إيّاهم بانتزاع الخبز من أفواههم. جعلت قضيّة بوني Bonny فضيحة ستاڤيسكي Stavisky تطفو على السّطح من جديد: خلال المحاكمة العلنيّة التي صرّح بها لأسبوعيّة غرنغوار *Gringoire*، كان بوني مُقتنعاً – خصوصاً من خلال شهادة الآنسة كوتيون – بالمساومة والفساد. من جهة أخرى، في جانفي، صوّتت سارْ Sarre بأغلبيّة 90% لارتباطها بألمانيا. باتت البروباغندا المعادية للديمقراطيّة شرسة أكثر فأكثر. كانت حركة صليب النّار تربح كلّ يوم ميداناً جديداً؛ أصبحت أسبوعيّة كونديد Candide الراعي الرّسمي لها ونشر الكولونيل دي-لا-روك، وسط صراع كبير، برنامجه تحت عنوان: *الثّورة*. دافع كاربوتشيا Carbuccia على شكل آخر من أشكال الفاشيّة على صفحات غرنغوار التي وزّعت نهاية 1934 ستّ مائة وخمسين ألف نسخة: كانت جريدة أبي المُفضّلة. كان اليمين القومي يتمنّى صعود هتلر فرنسي، ويدفع باتّجاه حرب ضدّ الفهرر الألماني؛ طالب بتمديد الخدمة العسكريّة إلى سنتَيْن. مع ذلك عند تعيين لاڤال وزيراً للخارجيّة لوحظ نوع من الانحياز إلى السّلام في صفوف اليمين. عزم موسليني على غزو أثيوبيا. وقّع معه لاڤال معاهدة تفسحُ

له المجال للقيام بذلك. ناقش الأمر مع هتلر. عدد كبير من المُثقّفين سايروه في ذلك. أعلن دريو Drieu[22] موالاته للنازيّة. غادر رامون فرنداز المنظّمات الثّوريّة التي انتمى إليها في الماضي مُصرّحاً: «أحبّ القطارات التي ترحل.» دعمت الأسبوعيّة الراديكاليّة الاجتماعيّة ماريان Marianne موقف لاڤال. كتب إيمانويل بيرل، رغم أنّه كان يهودياً: «عندما نتوصّل إلى رؤية ألمانيا بكلّ العدالة والصّداقة الممكنة، فإنّنا لن نشكّك إذّاك في القرار لأنّ السيّد هتلر قد سنّ ضدّ اليهود قانوناً شرعيّاً.»

من ناحيته كان لليسار توجّسُه. في شهر جوان من سنة 1934 أسّس آلان، لانجڤان، ريڤي، پيير جيروم الرّابطة المعادية للفاشيّة التي اقترحت نفسها بديلاً لسدّ الطّريق أمام التقدّم الفاشي. أدانوا معاداة اليهود الألمان؛ احتجّوا على نظام الاعتقال والتّرحيل الذي كان قد تفشّى في إيطاليا. حول المسألة الجوهريّة - السّلم أم الحرب؟ - لم يرغبوا في الانحياز لا إلى سياسة الكولونيل دي-لا-روك ولا إلى سياسة پيير لاڤال. أقرّ كلُّ مناهضي الفاشيّة أنّ زمن «الفاشيّة الشّاملة» قد تطوّر. ڤيكتور مارغريت الذي دافع بحميّة، سنة 1932، عن الاعتراض الواعي للشّيوعيّين، اعترف اليوم بنقائص ذلك. أيّد نداء لانجڤان في نطاق تحرّك الحشود القادر وحده، حسب رأيه أيضاً، على إحباط الفاشيّة. رغم ذلك، أكّدوا بالإجماع على أنّ الحرب يمكن ويجب تجنّبها؛ في أحد بياناتهم، كتب آلان، ريڤي، لانجڤان في هذا الصّدد: «لنُمسك ألسنتنا عن نشر الأكاذيب التي تشيعها الصّحافة الرّجعيّة.» كرّر غيهينو بعناد: «يجب أن نرغب في السّلم.» أما الشيوعيّون، خلال الثلاثيّتَيْن، فقد بدت مواقفهم مُبهمة. صوّتوا ضدّ قانون السَّنَتَيْن ولكن إزاء تسلّح ألمانيا، لم يجدوا غضاضة في أن يأملوا توسّع القوّة العسكريّة الفرنسيّة. انتهزت فترة التقلّبات هذه لأجنح إلى سلامي الخاص: بما أنّ أحداً لم يكن يفهم ما يجري، لِمَ لا نفترض أنّ شيئاً جادّاً لم يحدث. استعدتُ بهدوء مسار حياتي الخاصّة.

كنتُ أعرف جيّداً أنّ روايتي الأخيرة لم تكن تساوي شيئاً ولم أكن أجد

22- دريو Drieu: كاتب فرنسي من مواليد باريس 1893 وتُوُفِّيَ مُنتَحراً في باريس أيضاً سنة 1945.

الشّجاعة الكافية لأخوض تجربة فاشلة جديدة. الأفضل هو أن أقرأ وأتعلّم في انتظار إلهام ملائم للكتابة. كان التّاريخ أحد نقاط ضعفي؛ قرّرتُ دراسة الثّورة الفرنسيّة. في مكتبة رووان راجعتُ جملة من الكتب التي جمعها بوتشاز ورو Roux، قرأتُ لـ«أولار Aulard»، ماتياز؛ وتعمّقتُ في *تاريخ الثّورة* لـ جوريس Jaurès. بدا لي هذا الاكتشاف مُشوّقاً: فجأة، تحوّلت الوقائع المعتمة التي كانت تحجب الماضي وتعطّله في ذهني مفهومة وصار لتسلسلها معنى. عكفتُ على هذا العمل بانضباط كما لو أنّي أستعدّ لتجاوز امتحان. كنتُ من جهة أخرى أحاول إيجاد مدخل لهوسرل. قدّم لي سارتر كلَّ ما يعرفه في شأنه. وضع بينَ يدَيَّ النصّ الألماني دروساً حول *الوعي الباطني للزّمن* الذي استوعبتُه دون عناء. كنّا نناقش بعض مقاطعه أثناء كلِّ لقاء يجمع بيننا. شغفتني حداثة وثراء علم الظّواهر: بدا لي أنّي لم أقترب من الحقيقة كما حدث معي وأنا أخوض غمار هذه التّجربة.

شغلتني هذه الدّراسات. في رووان، لم أكن أرى سوى كوليت أودري وأولغا التي رسبت في شهادة الفيزياء والكيمياء وعلوم الطّبيعة. اشتغلتْ برصانة خلال الثلاثيّ الأوّل للسّنة الماضية وأحبّها أساتذتها كثيراً؛ ثمّ وطّدت علاقات مع أصدقاء بولونيّين، غادرت مقرّ إقامتها، لقد أثملتها حرّيتها. أمضت أيّاماً ولياليَ بين التنزّه والرّقص وسماع الموسيقى والحديث والقراءة؛ توقّفتْ عن المراجعة للامتحان. أزعجها هذا الإخفاق إلى درجة أنّها حاولت التدارك خلال عطلتها. الآن تفرّق رفاقُها، هناك من هم في باريس وآخرون في إيطاليا؛ لم تكن تخالط سوى فرنسيّين لا تُحبّهم. لكنّها فقدت حماسها إزاء دروسها التي كانت تشعرها عموماً بالملل؛ يؤسفها فشل جديد يلوح في الأفق وعدم رضا والديْها؛ لم تكن تستعيد الثّقة بنفسها ومذاق الحياة إلّا معي؛ أثّر ذلك فيَّ كثيراً وكنتُ أخرج باستمرار معها. تابعتْ لويز ڤيرون علاجها في أوڤرني؛ عُيّنَتْ سيمون لابوردان في باريس؛ توقّفتُ عن مخالطة الآنسة ڤونتيو. لم أعد في حاجة إلى قتل الوقت بما أنّي كنتُ أقضي مع سارتر كامل أوقات فراغي.

كان يعمل كثيراً. كان قد أكمل في برلين النّسخة الثانية من كتابه؛ أحببتُ هذه النّسخة؛ غير أنّي كنتُ متّفقة مع ڤانييز والسيّدة لومار في أنّ سارتر قد أفرط

في استخدام الأسماء المُشتقّة والمُقارنات: عزم على العودة للكتابة بنظرة متشكّكة في كلّ صفحة. لكن طُلِبَ منه لمصلحة سلسلة تصدرها منشورات ألكان Alcan، بحثاً حول الخيال. كان محور شهادة تخرّجه، الذي جمع عنه معلومات غزيرة وحاز به ملاحظة حسن جدّاً. اهتمّ بالمسألة. ترك أنطوان روكنتان وعاد إلى البسيكولوجيا. كان في نفس الوقت يأمل في الانتهاء من العمل بسرعة لينال قسطاً من الرّاحة.

عادة ما نجد أنفسنا في هاڤر لأنّها تبدو لنا أكثر بهجة من رووان. أحبّ الأحواض القديمة، رصيفها المحفوف بأكواخ البحّارة والفنادق الخرقاء، المنازل الضيّقة ذات أسطح الألواح التي تكادُ تلامس نوافذَها؛ إحدى الواجهات كانت مُغطّاة بالحراشف بالكامل. أجمل الشّوارع كان شارع غاليون الذي كان يُضاءُ بأنوار علامات الإشهار مساءً: القطّ الأسود، الفانوس الأحمر، الطّاحونة الورديّة، النّجمة البنفسجيّة؛ كان جميعُ سكّان هاڤر يعرفونه: بين المواخير التي يحرسها القوّادة يُفتَحُ مطعم لاغروس طون المشهور؛ كنّا نرتادُه من حين إلى آخر لنأكل سمك الصّول النورماندي ومقرمشات الكلفَدوس. عادة، كنّا نتناول وجباتنا في حانة ڥايات الكبيرة، هادئة وعاديّة. كنّا نمضي ساعات في مقهى غيوم تال حيثُ كان سارتر يجلس ليكتب؛ كان مقهى فسيحاً ومريحاً بمقاعد القطيفة الحمراء، وإطلالته الجميلة على الخلجان. كانت الحشود التي نسير وسطها في الشّوارع والأماكن العامّة أكثر تنوّعاً وألواناً من تلك التي نراها في رووان؛ حتّى البورجوازيّة نفسها تبدو مرتعشة أكثر مما هي عليه في رووان: لأنّ هاڤر ميناء كبير؛ يأتي الناس من كلّ صوب ويمتزجون؛ أنجزنا أعمالاً كبيرة وفق المناهج العصريّة؛ إنّنا في الوقت الحاضر نعيش على شبح الماضي بدل التطفّل. خلال الطّقس الجميل كنّا نجلس في شرفة حانة صغيرة قريبة من الشّاطئ، اسمُها «النّوارس». تذوّقتُ هناك الخوخ المُغمَّس في النّبيذ الأبيض وأنا أتأمّل من بعيد المياه الخضراء والعنيفة؛ تنزّهنا على طول شوارع المركز، صعدنا إلى سانت-أدريس، سلكنا أعلى السّاحل الممشى المحفوف بالڤيلات الفاخرة. في رووان كان بصري يرتطم دائماً بالجدران حيثُما اتّجهت؛ هنا يمكنني أن أرمي بصري نحو الأفق وأن أتلقّى على وجهي ريحاً قويّة آتية من الجانب الآخر للعالم. أبحرنا في

مركب إلى أنفلور؛ إنّه مرفأ صغير جذّاب، قُدَّ بالألواح حيثُ بدا أنّ الماضي حافظ على انتعاشه القديم.

كان سارتر يأتي إلى رووان لتغيير الأجواء. في أكتوبر انتظم معرض في الشّوارع التي تُحيط بالمدينة، ولعبنا البلياردو الياباني؛ شاهدنا عرضاً مهيباً في مسرح للعرائس، كان العرض يُشبه فِيلماً لميلياس Méliès: باص كبير يتحوّل إلى منطاد ويرتفع إلى الأعلى. قرّرنا زيارة المتحف بنصيحة من كوليت أودري. تفاخر بلوحة رائعة لجيرار داڤيد، كلاسيكيّة، لم نتعلّم منها شيئاً. ما أعجبنا حقّاً هي سلسلة بورتريهات جاك إيميل بلانش؛ لقد كشفت لنا عن وجوه معاصرينا: دريو، مونترلاند، جيد، جيرودو. وقفتُ مشدوهة أمام لوحة كنتُ رأيتُ لها نسخة وأنا طفلة، على غلاف *الفرنسي الصّغير* المُصوّرة، كان لها أثر كبير عليَّ فيما بعد: *مُتوتّر وجوميج*، أثارت فضولي كلمة متوتّر، التي استُخدِمت طبعاً على نحو غير بريء بما أنّه قد تمّ قطع الأربطة العصبيّة للمُحتضرين. كانا راقِدَيْن جنباً إلى جنب وسط زورق مُسطّح، كان المشهد يحاول تقليد السّعادة، لكنّهما، مُعذّبين بالعطش والجوع، راحا يبتعدان مع مجرى الماء نحو نهاية مُروّعة. لا يهمّني إن كان الرّسم سيّئاً؛ لبثتُ طويلاً متأثّرة بالرّعب الذي كانت تُعبّر عنه. بحثنا عن أماكن جديدة يمكننا الجلوس فيها للدّردشة. كان قبالة مرقص لو-روايال حانة صغيرة، الأوسيانيك، كان يرتادُها شبّانٌ بورجوازيّون يتقمّصون الهمجيّة، ويتنادَوْنَ بأسماء رجال العصابات؛ مساءً تأتي راقصات الروايات للشّرب والثّرثرة. حدسنا عاداتهنّ. تركنا مطعم پول لننتقل إلى مطعم-مقهى اسمُه عند ألكسندر، وصفه سارتر إجمالاً تحت اسم عند كامي؛ نصف دزّينة طاولات من الرّخام تسبح شتاءً وصيفاً وسط ضوء مائي؛ المُدير، أصلع حزين، كان يُقدّم الخدمات بنفسه؛ كانت قائمة الأطعمة دائماً عبارة عن بيض أو لحم الخنزير والفاصوليا المُعلّبة. لأنّنا كنّا نميلُ إلى صنع الشّخصيّات الروائيّة، فقد شككنا في أنّه تاجر مُخدّرات. لم يكن ثمّة زبائن ما عدانا نحنُ الاثنَيْن وثلاث نساء جميلات كفاية، يعشن فقط كما يبدو ليلبسْن؛ الأمل، اليأس، الغضب، التحسُّر، الاعتزاز، الحبور، الرّغبة: كلّ هذه الأحاسيس كانت تمرّ في محادثاتهنّ لكن دائماً من خلال فستان يُهدى أو يُرفَض، «ينجَحُ» أو يُفَوَّت. وسط الصّالة بلياردو روسي وكنّا نلعب جولات قبل وبعد الوجبة.

أيّ ترف كان في متناولنا! علّمني سارتر مبادئ الشّطرنج. كان زمن الكلمات المتقاطعة؛ كنّا، إذاً، كلّ يوم أربعاء نحُلّ شبكة *ماريان*، التي كنّا أيضاً نفكُّ ألغازها. تسلّينا برسوم ديبو Dubout الأولى، الأكاديميّين الأوائل لجون إيفل وحكاية «الملك الصّغير» التي كانت ترويها صُوَرُ صوغلو Soglow.

من بعيد لبعيد، كان أصدقاء يأتون لزيارتنا؛ يستعدّ ماركو للتّعيين في رووان السّنة المُقبلة، فكان يتفحّص المدينة بعين الرّيبة: «إنّها بون Bône»، استخلَص أمام استغرابنا الشّديد. كان لديه أستاذ غناء آخر، أفضل من السابق؛ من هنا حتّى وقت وجيز، سيكون عليه أن يجتاز اختباراً في الأداء أمام مدير الأوبرا: ستبدأ مسيرته المجيدة دون موعد.

عاد فرناند وستيفا للعيش في باريس مُجدّداً في ورشة جميلة بمونبارناس. ذهبت لرؤية أمّها في لوو Lwow وتوقّفت بضعة أيّام في أوروبا الوسطى. أمضت يوماً في رووان وأخذناها إلى مطعم الأوبرا حيثُ كنّا من وقت إلى آخر ندعو أنفسنا مقابل خمسة عشر فرنكاً على عشاء فاخر. جحظت عينا ستيفا: «هذه الشّرائح الضّخمة! الفراولة، الكريمة، وهم بورجوازيّون صغار من يأكلون هذا!» في لوو، بڤيانا، علينا أن ندفع ثروة كي نحصل على وجبة مماثلة. لا أتخيّل وجود اختلافات غذائيّة على هذا النّحو؛ بدا لي غريباً أن أسمع ستيفا تكرّر بنوع من الضّغينة: «إنّهم يأكلون جيّداً هؤلاء الفرنسيّون!»

زارتنا السيّدة لومار بصحبة پانيز عديد المرّات. تشاركنا البطّ في فندق التّاج، وتنزّهنا بالسيّارة؛ أطلعونا على كودبيك، سان-واندري، دير رهبان جوميج. وعندما رجعنا سالكين طريقاً تشرف على نهر السّين توقّفنا عند زاوية نظر اكتشفناها على الضفّة الأخرى من النّهر، مصانع غران-كورون (لتّاج الكبير) المُضاءة؛ كانت تحت السّماء السّوداء كألعاب ناريّة متجمّدة. «هذا جميل»، قال پانيز. تبرّم سارتر: «إنّها مصانع، حيثُ هناك أناس يعملون ليلاً.» تمسّك پانيز بأنّ المشهد جميل رغم ذلك؛ حسب سارتر لقد راح ضحيّة سراب خبيث؛ عمل، تعب، استغلال: أين الجمال؟ رجّني هذا الحوار وتركني حائرة (لقد ألهمت المحادثة تلك التي دارت في *المثقفون* بين هنري ونادين، في مواجهة أضواء لشبونة.)

ضيفُنا غير المتوقَّعُ هو نيزان الذي جاء إلى رووان ليشارك في اجتماع خَطابي. كان يلبس باستهتار مدروس ويحمل مطريّة رائعة مُعلّقة على ذراعه. «اقتنيتُها من مصاريف سفري»، قال لنا: كان يحب أن يهب نفسه هديّة من حين إلى آخر. سنة 1933 نشر روايته الأولى: أنطون بلويْ (قرأناها أسوأ من *عدن العربيّة*. ظننّا أنّها رواية شعبَوِيّة. شرح سارتر في مقدّمة الطّبعة الثانية لأعمال نيزان كم أنّ وجهة النّظر تلك تبدو لنا اليوم سخيفة.) التي رحّب بها النُقّاد بحفاوة؛ اعتبر واحداً من بين الروائيّين الشبّان الواعدين. جاء للتوّ من زيارة للاتّحاد السوفيتي دامت سنة؛ حضر مع جون ريتشارد بلوش، مالرو، أراغون في مؤتمر الكُتّاب الثوريّين: «كانت إقامة مُكلِفَة للغاية»، قال لنا وهو يقضم أظفاره بطريقة مُهذّبة. حدّثنا عن المآدب الضّخمة حيثُ كانت الڤودكا تتدفّق فيها كالسّيول، الخمور الجيورجيّة المُدَوِّخة، رفاهية المقطورات ذات الأسرّة، بهاء غرف الفنادق؛ كان صوتُه المتجاهل يوحي بأنّ هذا التّرف يعكس رخاء البلد. وصف لنا مدينة في الجنوب، على حدود تركيا، تفيض ألواناً محلّية حيثُ النّساءُ مُحجّبات والأسواق والمحال تعرض الأقمشة والأمتعة الشرقيّة. راقت لنا حيَلُه. كانت النّبرة ودودة، كأنّه يهمس لنا بسرّ يقصي كلَّ خلفيّة بروباغندا؛ وبالفعل لم يكذب؛ لكن من بين الحقائق التي في حوزته كان يختار تلك التي تناسب أكثر في إغواء الميتافيزيقي الفوضوي الذي هو رفيقه الصّغير سارتر. حدّثنا عن كاتب اسمُه أوليشا، غير معروف بعدُ في فرنسا. عن رواية نشرها سنة 1927، لقد اقتبس منها مسرحيّة، *مؤامرة الأحاسيس* التي نالت نجاحاً كبيراً في موسكو. كانت رواية مُبهَمَة؛ استنكرت مساوئ البيروقراطيّة، وانعدام الإنسانيّة في المجتمع السوفيتي، لكن – هل كان ذلك من باب الحذر أم القناعة؟ – كانت تأخذ أيضاً على عاتقها مسألة الدّفاع عن النّظام بواسطة جملة من الأحابيل الأدبيّة الغريبة.

«سارتر هو أوليشا»، قال نيزان، ما حفّز فضولنا لمعرفته: أثار اهتمامنا خصوصاً لمّا تطرّق إلى محور بدا أنّه من بين جميع المحاور يعنيه بشكل كبير: الموت. رغم أنّه لم يُلمّح إلى ذلك، فإنّنا نعرف أيَّ قلق يشعر به جرّاء فكرة الاختفاء يوماً إلى الأبد؛ يحدث أن يتسكّع أيّاماً، يقضيها في شرب النّبيذ الأحمر من حانة إلى أخرى هروباً من فزع الموت. تساءل ما إذا كانت

العقائد الاجتماعيّة تساعد على التّخفيف من وطأته. تمنّى ذلك، وسأل الشّبان السوفييت عن ذلك: أجابوا جميعاً أنّه إزاء الموت، فإنّ الرفقة والتضامن لا ينفعان، وأنّهم أيضاً خائفون من فكرة الموت. رسميّاً، مثلاً، عندما يكتب تقريراً حول رحلته خلال المنتدى، فإنّ نيزان ينقل الأشياء بكثير من التفاؤل؛ مع التقدّم في إيجاد الحلول للمشاكل التقنيّة، فسّر، فإنّ الحبّ والموت يتركّزان في الاتّحاد السوفيتي على نحو يدعو للاهتمام: معنا كان يشرح الأشياء بشكل مُختلف. صدمه أنّ المرء هناك مثلما هو الحال هنا، يموت وحيداً مع علمه بذلك.

انطبعت عطلة عيد الميلاد بأحداث مُهمّة جديدة؛ بادرتُ، أو على الأقلّ ظننتُ هذا: علمتُ لاحقاً أنّ ابتكاراتي كانت فقط تعكس تيّاراً جماعيّاً. منذ فترة قصيرة، أصبحت رياضات الشّتاء المُخصّصة فيما مضى للميسورين فقط، مُتاحة أمام أناس عاديّين ما جعلهم يُسارعون إلى أخذ نصيبهم منها.

أخذ ليونيل-دي-رولي الذي قضى طفولته في الألپ، ويعرف أسرار التزحلق والانعطاف المُفاجئ في الثّلج، أختي جيجي وأصدقاء آخرين إلى ڤال ديزار؛ وهي قرية بائسة رغم ذلك استمتعوا كثيراً؛ لم أكن قادرة على إهدار متعة في متناول يديَّ وأقنعتُ سارتر بذلك. استعرنا تجهيزات ضروريّة واستقرّ بنا المقام في فندق صغير بمونتروك، أعلى ضيعة شامونيكس. اكترينا على عين المكان ألواح تزحلق غير مُغطّاة. كنّا نتحوّل إلى نفس المنحدر الخفيف كلّ صباح وبعد الظّهيرة؛ نصعد وننزلق إلى الأسفل، ثمّ نعيد الكرَّة. كان مُبتدئون يتمرّنون مثلنا متعثّرين. قرويّ عمره عشر سنوات علّمنا كيف نتصرّف إذا أردنا الاستدارة. أمتعتنا اللعبة رغم رتابتها: كنّا نحبّ تعلّم الأشياء. ولم ألامس هذا العالم مُجدّداً، هذا العالم الذي لا رائحة ولا ألوان فيه، حيثُ البياض الكثيف والشّمسُ التي تبذُر حبوب الكريستال القُزَحيّة. ليلاً، كنّا نعود إلى الفندق، ألواحنا على الأكتاف، والأيدي منتفخة. نحتسي الشّاي، ونقرأ كتاباً حول الجغرافيا الإنسانيّة، إنّه يعلّمنا كيف نُفرّق بين منازل «الكتل الأرضيّة» ومنازل «الكُتل العالية». جلبنا معنا أيضاً كتاباً حول الفيزيولوجيا؛ اهتممنا خصوصاً بالجهاز العصبي، بالبحوث الحديثة حول تحفيز الأعصاب والعضلات. أيّ

سعادة في الارتماء صباحاً بين أحضان العالم الفسيح البارد؛ أيّ سعادة في أن أنفسنا مساءً بين أربعة جدران دافئة وحميميّة! كانت عشرة أيّام ناعمة وأخّاذة مثل حقول الثّلج تحت سماء زرقاء.

ذات يوم من شهر نوفمبر، كنّا جالِسَيْن في سقيفة شرفة مقهى النّوارس، بهاڤر، تأسّفنا طويلاً على رتابة مُستقبلنا. ارتبطتْ حياةُ كلينا بالآخر، تأكّدت صداقتنا إلى الأبد، ارتسمت مسيرتنا وأخذ العالم مجراه. لم نكن قد بلغنا الثلاثين ولا شيء جديداً يحدث في حياتنا، لا شيء أبداً! عادة، لا آخذ الشّكاوى مأخذ الجدّ. لكنّني أحياناً أسقط من صرحي. يحدث أن أذرف سيلاً من الدّموع لمجرّد احتساء كأس زائدة؛ يستيقظ حنيني للمُطلق: من جديد، أعيد اكتشاف غطرسة النهايات الإنسانيّة واقتراب الموت؛ أعاتب سارتر لأنّه ينساق إلى هذه الخدعة البغيضة: الحياة. في اليوم التالي أكون بعدُ تحتَ صدمة الاكتشاف. ذات ظهيرة كان لنا حوار طويل ونحنُ نتنزّه عند جناح الكتلة الطباشيريّة المكسُوّة بعشب مُملّ تُطلُّ على السّين، برووان. نفى سارتر أن تكمن الحقيقة في الخمر والدّموع؛ حسب رأيِه فإنّ الكحول يدخلني في حالة من اليأس فأضفي على وضعي دوافع ميتافيزيقيّة من باب تضليل الذّات. أمّا أنا فقد دافعتُ عن نفسي قائلة إنّي وأنا أحطّم سيطرتي على الأشياء وكلّ الدّفاعات التي تحمينا عادة من البداهة غير المُحتملة، فإنّ الثمالة تجبرني على النّظر إليها وجهاً لوجه.

أعتقد اليوم، أنّي في وضعي المُمَيَّز، تحتوي الحياة على حقيقَتَيْن لا يمكن الاختيار بينهما بل عليَّ مواجهتهما معاً؛ سعادة الوجود ورعب النّهاية. لكنّني أتأرجح بين هذه وتلك. لا تهيمن الثانية إلّا في لحظات كالوميض غير أنّي أشكّ في أنّها سارية أكثر.

لدَيَّ همٌّ آخر: أنا أتقدّم في السنّ. لم تتضرّر صحّتي ولا وجهي؛ غير أنّي من حين إلى آخر أشعر أنّ كلَّ شيء من حولي يتبدّل: لم أعد أحسُّ بشيء، غمغمتُ بألم. ما زلتُ قادرة على الدّخول في «غفوة» مع ذلك لديَّ انطباع بأنّي أمرّ بخسارة فادحة لا علاج لها. تبدّدت الاكتشافات اللامعة التي قمتُ بها لدى تخرّجي من السوربون. ما زال فضولي يجد ما يتغذّى عليه: لم أعد أصادف جديداً خاطفاً. رغم ذلك فإنّ الحقائق تضجّ من حولي، لكنّني

ارتكبتُ خطأ عدم محاولة الخوض فيها؛ احتويتُها في شكل صور وأساطير مُستهلكَة: الشّيقُ مثلاً. يبدو لي أنّ الأشياء تتكرّر لأنّي أكرّر نفسي. مع ذلك فإنّ هذا الأسى لا يُؤثّر بشكل مباشر وجدّي على حياتي.

ألّف سارتر جزءاً نقديّاً من كتابه حول *الخيال* الذي طلبه منه البروفيسور ديلاكروا لمصلحة ألكان Alcan؛ شرع في الجزء الثاني، وهو جزء أكثر أصالة، حيثُ تناول الإشكال من جذوره مُستخدماً الظّواهر القصديّة والمواد الأوّلية؛ هكذا أنشأ أولى أفكاره الفلسفيّة: خلُوّ الوعي المُطلق وقدرته على صنع العدم. هذا البحث الذي ابتكر لأجله الطّريقة والمضمون، مُستلهماً مادته من تجاربه الخاصّة، يحتّم تركيزاً مُعتبَراً: غير مكترث بالشّكل، كتب بسرعة فائقة، حريصاً على أن تواكب ريشته أفكاره المتدافعة؛ على خلاف عمله الأدبي، أنهكه هذا الابتكار المُركّز والمتعجّل في آن.

اهتمّ بالحلم طبعاً، الصّور من خلال الإغماء التنويمي، العيوب البصريّة. في شهر فيفري، اقترح عليه أحد أصدقائه القدامى، الدّكتور لاغاش (نجح في شهادة التبريز حيثُ أخفق سارتر؛ تابع دراسة الطبّ وتخصّص في علم النّفس.) القدوم إلى سانت-آن ليقوم بحقنه بمادة الميسكالين؛ يُسبّب هذا المُخدّر الهلوسة وبإمكان سارتر مراقبة الظّاهرة بنفسه. حذّره لاغاش أنّ التجربة لن تكون جيّدة؛ في حين أنّها لا تُشكّل خطراً عليه. غامر سارتر بإبداء «سلوك غريب» مُدّة ساعات.

قضيتُ اليوم مع السيّدة لومار وپانييز في شارع راسپاي. بعد الظّهر لدى عودتنا، اتصلتُ بسانت-آن: قال لي سارتر إنّ مكالمتي قد أنقذته من صراع مع حبّار لم يستطع التغلّب عليه. وصل بعد نصف ساعة. مدّدناه على سرير في غرفة ذات إضاءة ضعيفة؛ لم يهذِ؛ لكنّ الأشياء التي كان يراها تتشوّه باطّراد وبصورة عشوائيّة مُريعة: رأى مطريّات في شكل عقبان طائرة، أحذية كالهياكل العظميّة، ووجوهاً مرعبة؛ إلى جانبه ازدحم السّلطعون والحبّار والأشياء المُكشّرة. استغرب أحد المقيمين؛ في تجربته، روى لنا، عندما انتهت الحصّة، أنّ للميسكالين مفعولاً مُغايراً تماماً؛ لقد نطّ فرحاً بين مروج الأزهار وسط الحوريّات. ربّما توقّع متعة مماثلة بدل الكوابيس، ربّما فوّت

سارتر على نفسه مناظر الجنّة، قال بندم. لكنّ تكهّنات لاغراش أثّرت عليه. كان يتحدّث دون مرح وهو ينظر بريبة إلى أسلاك الهاتف التي فوق السجّاد. في القطار صمت كثيراً. كنتُ ألبس حذاءً مُقلّداً على جلد الثّعبان تنتهي أربطته بكُرات صغيرة كحبّات الجوز: كان من دقيقة إلى أخرى، يتوقّع رؤيته مُتحوّلاً إلى خنفساء ضخمة. كان هناك أيضاً قرد غابٍ مُعلّق في السّقف من ساقَيْه وكان يُلصِقُ وجهه إلى الزّجاج مُكشِّراً. في اليوم التالي تحسّن سارتر وروى لي عن سانت–آن بحياد.

يوم أحد، رافقتني كوليت أودري إلى هاڤر. كان سارتر مُبتهجاً مع الناس الذين يُحبّهم؛ فاجأني مزاجه المُتجهّم. مشينا على حافّة الشّاطئ وجمعنا نجوم البحر دون كلام تقريباً. لم يكن سارتر يعرف ما أفعله بصحبة كوليت ولا لماذا هو هنا. غادَرتُه غاضبة قليلاً.

عندما التقينا مُجدّداً، شرح الأمر. منذ أيّام وهو فريسة للقلق؛ حاله يشبه تلك التي تسبّبت له فيها الميسكالين وأفزعه ذلك. تغيّر إدراكُه للأشياء؛ كان للمنازل وجوه مُكشّرة حيثُ العيون والفكوك تغزوها من كلّ جانب؛ لم يكن قادراً على منع نفسه من البحث والعثور، في كلّ ساعة حائطيّة، على وجه بومة. طبعاً كان يعرف أنّها منازل وساعات؛ العيون والتكشيرة، لا أحد قال إنّه يُصدّقها لكنّه سيصدّقها في نهاية المطاف ذات يوم؛ يوماً ما سيكون حقّاً مُقتنعاً أنّ الجراد ينطّ خلفه. ثمّ إنّ هناك بقعة سوداء تحوم في الفضاء بعناد، على مستوى عيْنَيْه تماماً. ذات ظهيرة كنّا نتجوّل في رووان، على الضفّة الشماليّة للسّين، بين السّكك وحظائر الشّغل والمقطورات ونُتَفٍ من المراعي المجذومة؛ قال لي فجأة: «أعرف ما يحدُثُ لي: إنّه ذهان هلوسة مُزمن.» كما كان يعرّف في تلك الفترة، إنّه مرض يؤدّي بصاحبه إلى الخبل خلال عشر سنوات. اعترضتُ بغضب، ليس من باب التفاؤل، بل لأنّه لم يكن على صواب. لم يكن وضع سارتر يُشبه حالة الذّهان. لا البقعة السّوداء ولا الوساوس ولا فكوك المنازل تدلّ على وجود ذهان لا شفاء منه. أعرف في المقابل سهولة سقوط سارتر في تأزيم الأمور من خلال تخيّل وقوع كارثة. «جنونك الوحيد هو اعتقادك أنّك مجنون، قلتُ له. – سترَيْن»، أجاب بغموض.

لم أرَ شيئاً عدا اضطراب وجد مشقّة كبيرة في انتزاع نفسه منه. كان أحياناً ينجح. أثناء عيد الفصح، ذهبنا إلى بحيرات إيطاليا؛ بدا مُبتهجاً، ونحنُ نجذّف في بحيرة كوم Côme، وفي شوارع بلاجيو الصّغيرة، ليلاً، رأينا موكباً من الشّعلات المُضيئة. لكن لدى عودتنا إلى باريس، لم يفلح حتّى في تصنّع الصحّة الجيّدة. عرض فرناند لوحات في رواق بون–جون؛ ظلّ سارتر طيلة الافتتاح جالساً في زاوية، صامتاً، بوجه شاحب. لم ير شيئاً هو الذي لم يكن يفوِّتُ فرصة كهذه. كنّا أحياناً نظلّ متجاوِرَيْن في المقهى دون كلام ونتجوّل في الشّوارع صامِتَيْن.

فكّرت السيّدة لومار في أنّه مُرهَق، وأرسلته إلى طبيب أصدقائها، لكنّ الأخير رفض منحه إجازة مرضيّة؛ حسب رأيه يحتاج سارتر إلى ترفيه أقلّ ولا يجب أن يظلّ وحيداً؛ وصف له نصف حبّة «بيلادينال» صباحاً ومساءً. تابع سارتر دروسه وكتاباته. في الواقع كان يستسلم للخوف بشكل أقلّ حدّة حين يكون برفقة أحد ما.

اعتاد الخروج مع اثنيْن من تلاميذه القدامى كان يكنّ لهما مودّة خاصّة: ألبير پال وجاك بوست؛ أنقذته صحبتهما من رطانات البحر. في رووان، عندما كنتُ أعطي الدّروس كانت أولغا تقوم بدور المُمرّضة عن طيب خاطر. كان سارتر يروي لها كمّاً من الحكايات التي تسلية وتشغله في آن واحد عن الإصغاء لوساوسه.

أكّد الأطبّاء أنّ الميسكالين لا يمكنه بحال أن يتسبّب في هذه الأزمة؛ عرضت حصّة سانت–آن على سارتر مشهداً من مشاهد الهلوسة لا أكثر؛ إنّه التّعب والضّغط النّفسي الذي خلّفته بحوثه الفلسفيّة ما عمّق مخاوفه. فكّرنا منذ ذلك الحين في أنّها تسبّب له ضيقاً عميقاً: لم يكن سارتر قابلاً لفكرة الانتقال إلى «سنّ العقل» وإلى «عمر الرّجال».

خلال الفترة التي أقام فيها بالكلّية، كان الطّلبة يغنّون أغنية جميلة وحزينة حول مصير طلبة دار المُعلّمين؛ تحدّثتُ عن الاشمئزاز الذي قابل به أفقه. ثمّ تجاوز المحنة خلال عامَيْ الأستاذيّة لأنّه كان سعيداً بإنهاء خدمته العسكريّة؛ حياته الجديدة ساعدته على تحمّل أزمته. في برلين، كان له موعد مع الحرّية

من جديد، بهجة الحياة الطلابيّة؛ لم يُفكّر كثيراً في الجدية والروتين اللّذيْن يتهدّدان الكبار. حوارنا في مقهى النوارس حول مُستقبلنا القاحل لم يكن بالنّسبة إليه حديثاً سطحيّاً. كان يُحبّ تلاميذه ولم يكن الفزع الذي يوحي له به «الأوغاد» مُجرَّدَ محاورَ أدبيّة؛ يُضايقه العالم البورجوازي الذي يجد نفسه محاصراً بداخله. لم يكن متزوّجاً، حافظ على حرّية مُعيّنة: مع ذلك كانت حياته لصيقة بحياتي. باختصار، في الثلاثين، توغّل في طريق مُسطّر سلفاً: ستكون مغامراته الوحيدة هي الكتب التي سيؤلّفها. رُفِض الأوّل؛ يحتاج الثاني إلى مزيد من الاشتغال؛ أمّا عن كتابه حول *الصّورة*، فلم يقبل ألكان سوى الجزء الأوّل (تحت عنوان *الخيال*)، وعزم على نشر الجزء الثاني الذي يعتبره، بذات الأهمّية، بعد فترة طويلة. كان لدينا كلينا ثقة مُطلقة بمُستقبله؛ لكنّ المُستقبل لا يكفي دائماً لإضاءة الحاضر. راهن سارتر بحميّة على شبابه حتّى إنّه احتاج إلى مسرّات قصوى كي تواسيه لأن شبابه قد غادره.

قلت، إنّه رغم المظاهر فإنّ وضعي كان مُختلفاً عن وضعه. كان من البديهي أن يجتاز مرحلة التبريز وأن يحصل على عمل. أنا، من أعلى مدارج مرسيليا، أحسستُ بسعادة لا توصف. لم يبدُ لي أنّي تلقّيتُ مصيراً بل اخترتُه. المسيرة التي رأى سارتر أنّها قد سلبته حرّيته كانت بالنّسبة إليَّ تحرّراً. ثمّ، مثلما كتب ريلكي Rilke عن رودان Rodin، كان سارتر «سماءَهُ الخاصّة»؛ إذاً، في مساءلة دائمة للأشياء المريبة؛ لكن ليس أبداً في مساءلة معي؛ بالنّسبة إليَّ، إنّ وجوده يُبرّر العالم الذي لا شيء يبرّره في نظره. لم تسمح لي تجربتي الخاصّة، إذاً، بفهم أسباب اكتئابه؛ من جهة أخرى، رأينا أنّ البسيكولوجيا لم تكن نقطة قوّة من جانبي خصوصاً مع سارتر، لم أكن أتخيّل أنّي سأطبّق ما أعرفه عليه؛ بالنّسبة إليَّ كان وعياً محضاً وحرّية جوهريّة؛ أرفض اعتبارها لعبة ظروف مظلمة، أو أمراً سلبيّاً؛ أفضل التصوّر بأنّه ينتج مخاوفه بنفسه، وأخطاءه بواسطة نوع من الإرادة المُسيئة؛ أرعبتني أزمته أكثر مما أغضبتني؛ كنتُ أناقش وأحلّل، أعاتب انسياقه للإيمان بأنّه محكوم. أرى في ذلك ضرباً من الخيانة: إنّه لا يملك الحقّ في أن يقذف بنفسه وسط شائعات تهدّد ما شيّدناه معاً. ثمّة نوع من الجبن في طريقة الهرب من الحقيقة هذه؛ لكن لم يكن التبصّر ليفيدني كثيراً؛ لا أستطيع حلّ جميع مشاكل سارتر الحقيقية نيابة عنه؛ كي يُشفى

من اضطراباته العابرة، تعوزني التجربة والتقنيات اللازمة. لم أكن سأسعى لمساعدته لو كنتُ مُصابة بمخاوفه. لذلك أعتبر غضبي ردّة فعل سويّة.

امتدّت أزمة سارتر، بين استقرار وتعكّر، حتّى العطلة؛ لقد اعتمدتُ على كلّ الذكريات التي احتفظت بها في تلك الثلاثيّة. مع ذلك، مثلما هو الشّأن بالنسبة إلى السّنوات الماضية، حرصتُ على التعلّم والاستمتاع. معرض مهمّ جدّاً عنوانه *رسّامو الواقع* جعلنا نكتشف جورج دي لاتور؛ نقلت الأعمال العظيمة من متحف غرونوبل إلى باريس وعرفتُ زورباران **Zurbaran** الذي جهلتُه في إسبانيا. استمعتُ إلى *دون خوان* لموزارت التي أعادتها الأوبرا السنة الماضية. شاهدتُ في المسرح *روزاليند* بإخراج من كوپو ومسرحيّة لكالدرون **Calderon**، *طبيب جلالته*، جون هارلويْ، بيت داڤيس، جيمس كانيي، خنجر روجي، فريد أستير. شاهدتُ *المفقود، نجوى ليليّة ثلاثيّة، جريمة بلا شوق، كلّ المدينة تتحدّث*.

ظلّت طريقتي في قراءة الصّحف رعناء. كنتُ أتهرّب، كما قلتُ، من المشاكل المطروحة من قبل سياسة هتلر. طفقتُ أراقب العالم بلا مبالاة. قام ڤينيزيلوس بانقلاب فاشل في اليونان؛ مارست حكومة هواي لونغ **Hwey Long** دكتاتوريّة غريبة على لويزيان: لم أهتمّ بهذه المغامرات. أثّرت فيَّ بشكل خاص القضايا الإسبانيّة: اندلعت في كاتالونيا انتفاضات عماليّة فسحقها اليمين الذي كان في الحكم بوحشيّة.

من بين الأحداث الصّغيرة التي أثارت بعض الضجّة، سلسلة الاغتيالات التي راح ضحيّتها ألكسندر من يوغسلافيا وبارتو؛ زوج الأميرة مارينا؛ محاكمة مارتوسكا، مُحوّل القطارات الذي حوكم في بودابيست والذي ألقى باللوم في جرائمه على عاتق مُنوِّمٍ مغناطيسي؛ الأصواتُ الغامضة في جزيرة غالاباغوس؛ لا شيء من هذا شغفني. في المقابل قرأتُ من الطّرف إلى الطّرف، مع سارتر، تقرير المحقّق غيّوم حول موت المُستشار پرانس: أثارت القضيّة فضولنا كما لو كانت رواية لكروفت. في شأن الجميلة أرلات ستاڤيسكي، تساءلتُ حول موضوع صادفني لاحقاً تحت أشكال أكثر عنفاً: هل ثمّة حدود، وأيّها، للوفاء

المُشترك الذي يجب أن يتوفّر بين رجل وامرأة يجمع بينهما الحبّ؟ سؤال أسال الكثير من الحبر، تصويت المرأة؛ خلال فترة الانتخابات البلديّة، ثارت ماريا پيرون ولويز واس بسخط؛ كانتا على حقّ؛ لكن وبما أنّي كنتُ غير منتمية سياسيّاً ولأنّي لم أكن لأستنزف حقوقي، كان سيّان بالنّسبة إليَّ أن يُعترف لي بها أم لا.

في نقطة مُعيَّنة، لا مصالحي ولا استنكاري أثّرا فيَّ حقيقة: الصّورة الفضائحيّة التي عليها مكافحة الجريمة في مجتمعنا. سنة 1934 ببال-إيل Belle-Ile، هرب منحرفون شبّان؛ انضمّ سيّاح بشكل طوعي لمطاردتهم؛ سدّوا الطّرقات بسيّاراتهم، وفتّشوا بمصابيحهم بين الخنادق. أُخذ كلّ الأطفال وضُربوا بجنون حتّى إنّ صراخهم أثار شفقة البعض من أهل الجزيرة. حملة صحفيّة نشرت فضيحة سجن الأطفال: الإيقافات العشوائيّة، المعاملة السيّئة، إلحاق الضّرر. رغم وضوح الشّهادات، تمّ الاكتفاء ببعض العقوبات ضدّ الإداريّين الأكثر تورّطاً: لم يتغيّر النّظام. أثناء محاكمة پيوليت نوزيار، حيّدت المحكمة آليّاً جميع البراهين التي من شأنها «الإساءة لسمعة الأب وذكراه»؛ لم تحظ البنت، إذاً، بظروف تخفيف؛ فيما سُلِّطَ على جلّادي الأطفال - حتّى لو أنّ الضحيّة رضخت - فقط بثلاث أو أربع سنوات سجن، حُكِمَ على قاتلة أبيها بالمقصلة (إن كانت لم تُعدَم فإنّ حكم الإعدام لم يعد يُطَبَّق في فرنسا منذ فترة طويلة.) أثارت الحشود الأمريكيّة اشمئزازنا، بهيجان أمام السّجن، مُطالبين بموت هوپتمان، مُختطِف لندبرغ المزعوم: أُعدِمَ بعد أربع مائة وستّين يوماً من التّسويف، دون أن تثبت إدانته بشكل مؤكّد.

بالعودة إلى أشياء أمتعتنا غرابتها المُضحكة، أحد المُدافعين المُتحمّسين في مُجتمعنا، المُدّعي العام هنريو Henriot، المشهور بصرامته حتّى إنّه كان يُلَقَّبُ بـ«المُدّعي الأقصى»، رأى ابنه جالساً في مقعد المُجرمين. كان مُنحَلّاً ومُصاباً بالصّرع ويجد متعة في تعذيب الحيوانات، ميشال هنريو، زوّجه والداه بفتاة فلّاحة، مريضة وبسيطة عقليّاً، لكنّها مُجهّزة بشكل جيّد. كان يوسعها ضرباً مُبرّحاً مدّة سنة بأكملها في منزلها المعزول الذي يقع بلوش غيدال على ضفاف المُحيط؛ كان يُربّي ثعالب فضّية ولم يكن يفارق بندقيّته حتّى

أثناء نومه. «سيقتلني»، كتبت المرأة الشابّة لأختها؛ روت لها وقائع تعذيبها في رسائل لم تُؤثّر في قلب أحد. ذات ليلة، قتلها بستّ طلقات من بندقيّته. لم تكن جريمة مدلّل ما بدا لنا وحشيّاً، بل تواطؤ العائلتيْن، اللتيْن، ولمصالح مُشتركة بينهما وكي تتخلّصا من الزَّوْجَيْن، وضعتا حمقاء بين يَدَيْ وحش. حوكم ميشال هنريو بعشرين سنة سجناً، لأنّه كان ابن عمّ الفاشي فيليپ هنريو.

محاكمة أخرى شدّت انتباهنا بسبب شخصيّة المُتَّهَم: مالوغيران، الذي دفعت بعشيقها ناتان إلى تخدير وقتل وسرقة شاذّة ثريّة. كي يخفّف من عنف شخصيّته، ذكر المُحامي الأستاذ هنري توريس حادثاً خطيراً وقع قبل سنَتَيْن أو ثلاث والرجّة التي نتجت عنه. بدت مالو تحت قبعتها التي تغطي نصف وجهها جميلة، وأثار استهتارها حفيظة الهيئة. قيل إنّ الضحيّة كانت تجمعها بعشيقها علاقة نزوات قذرة: مازوشيّة، متعة جنسيّة أساسها الألم، التلذّذ بالألم؛ بحسب النّظرات التي كانا يتبادلانها، كان واضحاً أنّهما يعيشان قصّة حبّ ورفضت بعناد أن تتخلّى عن تضامنها معه. أدانت هيئة بروكسيل الرّجل بعشرين سنة من الأشغال الشاقّة والمرأة - وإن كانت لم تحضر الجريمة - بخمس عشرة سنة. فجأة نزع عنها الأستاذ توريس القبّعة كاشفاً عن عين مفقوءة وجبهة مُحدَّبَة وجمجمة مُشوّهة. لابدّ أنّها كانت ستستفيد كثيراً لو أبدت القبح الذي تسبّب لها فيه الحادث.

تساءلتُ وأنا أناقش مع سارتر الجرائم والمحاكمات والأحكام حول حكم الإعدام؛ بدا لي مُجرّداً أن يستنكر المرء المبدأ دون تعمّق؛ ما أجده شنيعاً هو الطّريقة التي يتمّ بها تنفيذ الحكم. كانت لنا مُحادثات طويلة في هذا الشّأن وتأجّجت نار في داخلي جرّاء التفكير في الإشكال. لكن أخيراً أظنّ أنّ الاحتجاج، الاشمئزاز، الأمل في مستقبل عادل، كلّ هذه المواقف بدأت ترقى. مؤكّد أنّي ما كنتُ لأشعر بأنّي أتقدّم في السنّ وأنّي أراوح مكاني إن كنتُ بَدَلَ الإيواء إلى روتين الحياة قذفتُ بنفسي في هذا العالم: لأنّه لا يتحرّك؛ بعيداً عن الثّرثرة، أعتقد أنّ وتيرة التّاريخ آخذة في التّسارع. مارس 1935 وضع هتلر قانون الخدمة العسكريّة الإجباريّة وارتبكتْ فرنسا يميناً ويساراً إثر هذا القرار. دشّنت معاهدته مع الاتّحاد السوفيتي عصراً جديداً: أيّد ستالين رسميّاً سياسة

دفاعنا الوطنيّة؛ انهارت فجأة الحواجز بين البورجوازيّة الصّغيرة والعُمّال الاشتراكيّين والشيوعيّين. راحت الصّحافة بكلّ أطيافها تقريباً تنشر بوافر من النيّة الحسنة تقارير عن موسكو وعن قوّة الجيش الأحمر وبسالته. خلال الانتخابات الكانتونيّة بسويسرا فاز الشيوعيّون فوزاً ساحقاً لعب دوراً مُهمّاً في ضمّ الأحزاب اليساريّة الأخرى تحت جناحهم: تمّ الإعلان عن الجبهة الشّعبيّة نهاية شهر جوان خلال مُؤتمر بالتعاوُنيّة. بفضل نفاذ هذه الهجمة المُضادّة بدا أنّ السّلام بات مُؤكّداً ونهائيّاً.

كان هتلر متعاظماً، شرع في سباق تسلّح مسعور سيُؤدّي بألمانيا إلى الإفلاس؛ محاصرة بين الاتّحاد السوفيتي وفرنسا، لم يكن لألمانيا حظوظ في كسب أيّ حرب؛ يعي ذلك جيّداً، لن يُصيبه جنون الإلقاء ببلد مُنهَك في مغامرة يائسة مُسبَقاً: على أيّ حال سيأبى الشّعب الألماني مجاراته.

قرّر اليسار الاحتفال بفوزه عن طريق مسيرات واسعة النّطاق. انتظم عيد 14 جويلية ببهرج لا نظير له. رحتُ مع سارتر إلى الباستيي La bastille: كان هناك خمسُ مائة ألف شخص حاضرين، مرفرفين بالأعلام الثلاثيّة الألوان؛ مُنشدين وهاتفين. كانوا خصوصاً يصرخون: «لاروك على القائم» و«عاشت الجبهة الشّعبيّة!» إلى حدّ ما شاركنا في الاحتفال بحماس، لكن لم تُخامرنا فكرة المسير والغناء والهتاف مع الآخرين. هكذا كان موقفنا في تلك الفترة؛ يمكن للأحداث أن تُثير لدينا جملة من مشاعر الغضب والخشية والفرح: لكنّنا لا نُشاركُ أبداً؛ كنّا نظلّ مُتفرّجين.

«رأيتم إسبانيا، إيطاليا، وأوروبا الوسطى؛ ولا تعرفون فرنسا!» عاتبنا پانيير. كنّا بالفعل نجهل أجزاءً كبيرة منها. وبما أنّنا كنّا مُفلسين للغاية في تلك السّنة فقد قرّرنا اكتشافها. ذهب سارتر أوّلاً إلى النّرويج بصحبة عائلته في جولة بحريّة. أنا، ركبتُ القطار، ذات صباح، حاملة حقيبة ظهر تحتوي على ملابسي، غطاء، ساعة مُنبّهة، دليل أزرق وحزمة من خرائط ميشلان. انطلقتُ من شيز-ديو وطفقتُ أمشي مدّة ثلاثة أسابيع. كنتُ أتجنّب الطّرقات، سالكة البراري والغابات، مُنجذبة إلى كلّ القمم، ملتهمة المناظر بعينَيَّ، البحيرات،

الشلاّلات، أسرار البوادي والضّيعات. لم أكن أفكّر في شيء: أتنقّل وأرى. أحمل متاعي على ظهري ولا أعرف أين أنام مساءً، ولم تكن النّجمة الأولى تضعُ حدّاً لمغامرتي. أحببتُ انثناءات التّضاريس والعالم يغوص في الغسق. أحياناً، وأنا أمشي خلف تلّة مهجورة من قبل البشر وحتّى النّور تخلّى عنها، يُخيَّلُ إليَّ أنّي ألمس الغياب العصيّ الذي كان كلُّ شيء يخفيه، دون استثناء. انتابني ارتباكٌ يُشبه ذاك الذي أخذني في سنّ الرّابعة عشرة في حديقة تُحاكي الطّبيعة حيثُ لم يكن الله موجوداً كأنّي أتعقّب أصواتاً بشريّة. كنتُ آكل الحساء وأشرب النّبيذ الأحمر في الفندق. أحياناً أرفض الانفصال عن السّماء والعشب والأشجار وأريد على الأقلّ أن أحتفظ منها بالرّائحة؛ بدل استئجار غرفة في قرية، فإنّي أستمرُّ في المشي سبعة إلى ثمانية كيلومترات وأطلب المأوى في ضيعة: أنام في مزرعة ورائحة التبن تضوع من خلال أحلامي.

اللّيلة التي تركت لي ذكرى مُتّقدة هي تلك التي قضيتُها لدى آل ميزينك. كنتُ أعتزم النّومَ في الإسطبل المُزري تحت الجبل؛ كان لا يزالُ نهاراً عندما توقّفتُ، وقيل لي إنّ هناك ملجأ على القمّة على مسافة تقلّ عن ساعَتَيْن من المسير. اشتريتُ الخبز، شمعة، وملأتُ قربتي المُغلّفة باللّباد نبيذاً أحمَرَ وصعدتُ وسط المراعي والزّهور؛ نزل الغسق ثمّ حلَّ الظّلام. كانت الدّنيا مُعتمة حين دفعتُ باب حجيرة ذات طلاء رمادي، مُجهّزة بطاولة، مقعد طويل ولوحَتَيْن مائلَتَيْن. وضعتُ شمعتي على الطّاولة، مضغتُ القليل من الخبز واحتسيتُ كلَّ النّبيذ كي يمنحني الشّجاعة لأتغلّب على وحدتي المقلقة؛ كانت الرّيحُ تعصف بقوّة عبر أحجار الجدران. وضعتُ حقيبتي بدل الوسادة، لوحةً بدل الفراش وانكفأتُ على نفسي داخل الغطاء الذي لم يكن ليحمِيَني من البرد. نمتُ بشكل سيّئ للغاية؛ لكن راق لي في منتصف نومي أن أستنشق رائحة الصّحراء الليليّة العظيمة: كنتُ تائهة كما لو أنّ منطاداً يطوف بي. استيقظتُ عند تمام السّادسة تحتَ سماءٍ متوهّجة، سابحة وسط روائح العشب والطّفولة؛ غيمة داكنة، تحتَ قَدَمَيَّ قطعتني عن الأرض وتوغّلتُ وحدي في الأفق اللازوردي. تابعت الرّياحُ عصفها، تسلّلتُ إلى الغطاء الذي كنتُ أحاولُ الالتفاف به. انتظرتُ؛ تمزّق الغطاءُ القُطني فوقي، وتلقّيتُ من خلال الشّقوق قطعاً من الرّيف المُشمِس. هبطتُ ركضاً عبر المُنحَدَر المُعاكس للذي ارتقيتُه.

يا لها من شمس! لقد أحرقت قدمَيَّ العاريَتَيْن داخل حذاء رياضي قماشي؛ بدأتُ أعاني العذاب لدى وصولي إلى سانت أچريڤ حيثُ كان لزاماً عليَّ أن أتوقّف أربعاً وعشرين ساعة، مُمَدَّدَة، كنتُ أشعر بعذاب كبير كلّما وقفت، لذا رحتُ أجوب الغرفة زحفاً؛ عندما استعدتُ قدرتي على المشي، كانت كلّ استراحة عبارة عن ألم. كنتُ أقتني مؤونتي من البقالة وفيما كان البائع يجهّز لي طلبي كنتُ أروح وأغدو كنمر في قفص. هدأ الألم وغادرتُ وقد ارتديتُ جوارب قصيرة لأحمي قدمَيَّ.

ليلة أخرى في أرداش السّفليّة، حيثُ كان الهواء عذباً إلى درجة أنّي كرهتُ الأماكن المُغلقة. نمتُ في غابة كستناء، حقيبتي تحت رأسي ومنبّهي بالقرب منّي، لم أستيقظ لحظة حتّى بزوغ الفجر. يا لسعادة أن أفتح عينَيَّ وأن أستقبل السّماء الزّرقاء! أحياناً كنتُ أحدس اقتراب زوبعة لدى استفاقتي: أعرف تلك الرائحة الطيّبة بين خضرة الأشجار حيثُ الأمطار توشك على الهطول دون أن تكتسح الغيوم السّماء. حثثتُ الخطى، هروباً من الهجوم الذي سيضرب المنظر الهادئ. روائح، نور وظلال، نسمات، أعاصير تنشر في شكل موجات هادئة ومتعكّرة في عروقي، عضلاتي وصدري؛ بوضوح حتّى كأنّي أسمع صوت دمي، وضجّة خلايا جسدي، كلّ هذا اللغز في داخلي، الحياة، يمكنني أن أطولها من خلال جلبة الصّراصير والرّياح التي تُشعّثُ الأشجار وسط خشخشة الزّبد تحت قدَمَيَّ.

ممتلئة بالخضرة والأفق، وجدتُ لذّة في التوقّف، بالمدن والقرى، أمام حجارة رصفها الإنسان. لم أشعر بوطأة الحدة قط. اندهشتُ دون كلل أمام الأشياء وإزاء حضوري الخاص؛ مع ذلك فإنّ صرامة برنامجي حوّلت الطّوارئ إلى ضرورات. دون شكّ أنّه المعنى الذي لم أصغهُ بعد عن سعادتي: لقد نجت حرّيتي المنتصرة من المكائد، والأغلال بما أنّ مقاومة العالم بعيداً عن مضايقتي، لعبت دور الدّعامة ومادّة لمشاريعي. منحتُ من خلال تشرّدي غير المُكترث العنيد حقيقة لأوهامي الكبيرة المتفائلة؛ تذوّقتُ سعادة الأرباب: كنتُ أنا نفسي خالقة الهدايا التي غمرتني.

ظهر سارتر ذات ليلة على رصيف محطّة سانت-سيسيل دوندورج. كان

مشّاءً جيّداً لو أراد. إنّه يحبّ البلد، الرّوابي العارية والجبال المُلوّنة؛ عطف إلى التجوال والتخييم برحابة صدر: كنّا نتناول غداءنا دائماً في الهواء الطّلق، بيضاً وشرائح لحم. سلكنا مضائق تارن Tarn، صعدنا إلى إيغوال Aigoual، وتنزّهنا في لي-كوس Les causses. تُهنا في أزقّة مونپوليي القديمة وكي نستأنف الطّريق قمنا بنزول محفوف بالمخاطر صخرة بعد صخرة. كانت منصّة لازراك تعجّ بجراد يتقافز تحت أقدامنا على إيقاع خطواتنا، لقد كانت صحراء؛ التصقتْ بأرجلنا كامل اليوم؛ مساءً، عندما وصلنا إلى كوڤرتواراد، كان الجوّ مُؤثّراً، بروز الحصون النائمة منذ قرون وسط دغل هزيل؛ كانت البيوت الجميلة والعتيقة نصف مدفونة تحت نباتات القرّاص؛ تسكّعنا حتّى حلول اللّيل في الشّوارع الشبحيّة.

استقرّ بنا المقام في روزيي بفندق جيّد، بعيداً عن القرية؛ كانت غرفنا وشرفنا تُطلّ على مياه تارن الخضراء. تواعدنا مع پانيز الذي كان يتنزّه على الأقدام في الجهة مع أصغر بنات عمّه؛ تيريز التي التقيتُ بها في كورسيكا ووجدتُها ظريفة جدّاً، كانت شقراء نضرة، تعشق الحياة والأجواء المفتوحة وتعشق پانيز. كانت في العشرين تقريباً ومُدرّسة في سان-إي-مارن. منذ كورسيكا وپانيز متعلّق بها؛ لم يكن يتحرّق شوقاً ليبني معها بيتاً، لكن كانا يلتقيان أغلب الوقت ويُفكّران في الزّواج يوماً ما. معاً تسلّقنا «نقاطاً رائعة»، تبعنا كورنيشيْ ميجين Méjean والهضبة الكلسيّة السوداء، أكلنا سرطان البحر والسّلمون وتخبّطنا في التارن. يوماً ما، في غياب تيريز، سألَنا پانيز عن رأينا فيها: «الخير كلّه»، قال سارتر؛ أضاف أنّها ما زالت صبيانيّة قليلاً وأنّها تروي بأريحيّة حكايتها العائليّة. وخز هذا التحفّظُ پانيز وكان متعلّقاً بها جدّاً كي ينقلب ضدّها: «صغيرتي تيريز، إنّهم لا يجدونك ذكيّة!»، قال لها بمرح حادّ نوعاً ما؛ أحزنها ذلك قليلاً وأزعجنا جدّاً. لكن افترقنا بهدوء وودّ.

يُفضّل سارتر الحجارة على الأشجار؛ أخذ برنامَجي ذوقَهُ بعين الاعتبار. كنّا أحياناً نمشي وأحياناً أخرى نركب الحافلات، زرنا المُدُن والقرى، الدّير والقصور. ذات مساء، أقلّنا باصٌ متأرجح ومُكتَظّ إلى كاستلنو-دي-مونميرال؛ كانت تُمطر؛ لدى نزولنا في ساحة محوطة بالأقواس، قال لي سارتر فجأة إنّه

ملَّ كونَه مجنوناً. حاول جرادُ البحر تعقّبَه على امتداد رحلتنا؛ ذاك المساء، وضع له حدّاً. كان عند كلمته. ولم يعكّر مزاجَه شيء.

لم أكتُب شيئاً السّنة الماضية. أردتُ إلزاماً أن أنكبَّ على عمل جادّ؛ لكن ماذا؟ لماذا لا أحاول في مجال الفلسفة؟ يقول سارتر إنّي أفهم مذاهب الفلسفة، من بينها منهج هوسرل وآخرين، أسرع وأدقّ منه؛ فعلاً؛ كان يُؤوّل فلسفتهم حسب تصوّراته الخاصّة؛ لم يكن ينجح بسهولة في إنكار ذاته أمام نصوصهم دون أن يتّخذ فوراً وجهة نظر غريبة. لم تكن لي مناعة لأخترقها، تتكيّف أفكاري فوراً مع الأفكار التي فهمتها للتوّ؛ أتلقّى سلبيّاً: على نفس القدر الذي أضمّ معه صوتي، أكتشف الأخطاء، عدم الانسجام، كما أحدس بإمكانيّة التعمّق في التحليل؛ إذا أقنعتني نظريّة فإنّها لا تعود خارجة عنّي؛ إذ تغيّرُ علاقتي بالعالم وتُلوّنُ تجربتي. باختصار، لدَيَّ قدرات كبيرة على المقاربة، حسٌّ نقدي متطوّر، وتمثّل الفلسفة بالنّسبة إليَّ واقعاً حيّاً. إنّها تمنحني رضا لا أسأمه أبداً. مع ذلك لا أعتبر نفسي فيلسوفة؛ أعرف جيّداً أنّ سهولة دخولي إلى نصّ متأتّية خصوصاً من افتقاري للابتكار. في هذا الميدان، العقول الخلاّقة نادرة جدّاً، حتّى إنّه من عدم الجدوى سؤالي، لماذا لا أتّخذ لنفسي حيّزاً بين صفوفهم: من الأجدر تفسير الكيفيّة التي بها يستطيع بعض الأشخاص ممارسة هذا الهذيان المُنسّق الذي يُسمّى النّظام ومن أين يأتيهم العناد الذي يمنحُ تصوّراتهم قيمة المفاتيح الكونيّة. قلتُ مرّة إنّ القضيّة النسويّة لا تخضع إلى هذا النّوع من الإصرار.

كان في وسعي على الأقلّ أن أراجع بعض الدّراسات المُوثّقة، الأعمال النقديّة، وربّما بعض الأطروحات العبقريّة حول موضوع مُعيّن: كاتب مغمور أو معروف بشكل محدود، وجهة نظر منطقيّة. هذا لا يستهويني أبداً. وأنا أتحدّث مع سارتر وأقيس مقدار صبره، جرأته، كان يبدو لي مُبهجاً التعاطي مع الفلسفة. لكن فقط حين تُلحُّ علينا فكرة مُهمّة. العرض، التحليل، الحكم، الاقتطاف، نقد أفكار الغير، لا، لا أرى فائدة من ورائها. تساءلتُ وأنا أقرأ كتاباً لـ فانك Fink: «لكن، كيف يقبل الإنسان أن يكون تلميذاً لأحدهم؟»، حدث

لي لاحقاً أن بذلتُ جهداً مُتقطّعا في لعب هذا الدّور. لكن كان لي في البداية طموح فكري هائل كي أكتفي بدور كهذا. أردتُ الإفصاح عمّا هو أصيل ومتفرّد في تجربتي، كي أنجح أدركتُ أنّ عليَّ الالتفات إلى الأدب.

كنتُ قد كتبتُ روايتيْن طويلَتيْن حيثُ فصلاهما الأوّلان متماسكان تقريباً، لكنّهما انحلاّ تقريباً وجنحاً إلى الاستعارات. توصّلتُ هذه المرّة إلى كتابة قصص قصيرة وأن أمسك بسياقها من البداية حتّى النّهاية بصرامة، منعتُ عن نفسي صنع العجائبي أو الانزياح إلى النّسق الرّوائي القصديري؛ عدلتُ عن تصميم حبكات لا أصدّقها، وأن أرسم لبِنات أجهل عنها كلَّ شيء؛ اكتفيتُ بالأشياء والأشخاص الذين أعرفهم؛ حاولتُ إثارة حساسيّة القارئ إزاء حقيقة اختبرتُها وأيّدتها بنفسي؛ ستكون تلك الحقيقة وحدة الكتاب الذي سأشير إلى جوهره، كنتُ قد استعرتُه من ماريتان Maritain: *تفوّق الروحاني*.

كنتُ دائماً متأثّرة بالكُتب وأفلام الحرب التي جعلتني أسكب الدّموع بغزارة. كلّ *افتتاحيّات الصّلوات*، *وقفوا أيها الموتى!* كلّ الكلمات والحركات الفاتنة كانت توقظ في داخلي صوراً مُريعة: ساحات معارك ومقابر جماعيّة؛ جرحى «بوجوه مُترهّلة» قالت إيلين زينا سميث التي هزّتني روايتها، *ليس بهذا الهدوء*. بالقرب منّي رأيتُ زازا تنزلق نحو الجنون والموت بسبب أخلاقيّات وسطِها. إنّ ما يُذكَرُ على أنّه نزيه في روايتي الماضية، هو رهبتي من المُجتمع البورجوازي. حول هذه النّقطة وأخرى أيضاً، أجد نفسي مُنسجمة مع عصري؛ كان اليسار من الناحية الإيديولوجيّة نقديّاً أكثر من كونه بنّاءً؛ كان الثّائرُ يتكلّم نفس اللّغة التي يتكلّمها المُتمرّد، لم يتجاهلا مُهاجمة الأخلاق، الجماليّات، فلسفة الطّبقة الحاكمة. كان كلُّ شيء يُحفّزني على المُضيِّ قُدُما في مشروعي. أردتُ عبر الحكايات الخاصّة الإشارة إلى أشياء تتجاوز ذاتي: فائض الجرائم الصّغيرة منها والشّنيعة، التي كانت الروحانيّات تُغلّفها.

من بين شخصيّات قصصي المُختَلَقة، كنتُ أربط علاقات جبانة لكن كل واحدة منها تُشكّل معاً كُلّاً متكاملاً. خصّصت الأولى لصديقتي القديمة ليزا. وصفتُ ضعف فتاة خجولة يُكبّلها الغموض والحبكات التي يتفنّن فيها معهد سانت-ماري؛ كانت تصارع كي تكون روحاً بين الأرواح، إلّا أنّ جسدها كان

يخونها بصمت. أصبغتُ على بطلتي الثانية ريني وجهَ وشحوبَ وجبهةَ أخت الدّكتور أ. العريضة التي عرفتُها في مرسيليا. اكتشفتُ أنّه كانت في طفولتي صلة بين المازوشيّة في بعض ألعابي وورعي. عرفتُ أيضاً أنّ عمّتي الأكثر تديّناً كانت تتلقّى الضّرب بالسّوط ليلاً من قبل زوجها. تسلّيتُ وأنا أتخيّلُ تدنّي التديّنِ لدى الكبار إلى حدّ «الكلبيّة». كنتُ في الآن نفسه أضعُ رسماً *للفَرَقِ الاجتماعيّة*؛ حاولتُ التّحسيس بالتباس التفاني. استخدمتُ في كلتا القصّتيْن نبرة موضوعيّة، ذات سُخرية مُقنعة على نمط جون دوس باسوس.

في القصّة الموالية أشرتُ إلى سيمون لابوردان التي سمّيتُها شنتال. بعد مجيئها من ساڤر، درست الأدب في رووان. بضمير مُتشنّج حاولتْ أن تُبدي عن نفسها وعن حياتها صورة قد تبهر أصدقاءها. من خلال مُذكّراتها الخاصّة ومونولوجها رأينا كيف غيّرت كلَّ تجاربها، لاحقت الجمال، وابتكرت لنفسها شخصيّة امرأة متحرّرة من الحساسيّة الشّعريّة. في الواقع، لقد كان همّها سُمعتَها. عبر عنادها وسعيها إلى لعب دور ما، حطّمتْ تلميذَتَيْن تُحبّانها، ثمَّ عرفت كيف تنأى بنفسها. أحرزت هذه القصّة تطوّراً؛ انسحب مونولوچ شنتال على أحلامها وعلى ما هي عليه فعلاً؛ نجحت في إبراز المسافة التي تفصل الذات عن الذّات والتي هي الشرّ في الواقع.

استخدمتُ لاحقاً أساليب مشابهة كي أشير في *المَدعُوّة*، إلى غشّ إليزابيت. إن كانت الدّروب التي نسبتُها لشانتال تضايقني كثيراً، فقد أردتُ بشكل أقلّ مع سيكون لابوردان أن أراها لأنّي سقطتُ فيها أنا نفسي: مدّة سنتيْن أو ثلاث سنوات، استسلمتُ أكثر من مرّة لنزوة تلفيق حياتي كي أجمّلها. في مرسيليا تطهّرتُ تقريباً من هذا العيب، بفضل الوحدة والغياب، لكنّي ما زلتُ أعاتب نفسي عليه إلى غاية اليوم. الرّواية التي كتبتْها فرنسواز في *الضّيفة* تدور حول هذا المحور. شغلني، ولقد وجدتُ متعة في خوضه. مع ذلك تبدو لي اليوم قصّة شانتال مُجرّد تمرين: كان في وسعِ بطلتي أن تلعب دوراً ثانويّاً في رواية؛ لم تكن تملك ما يكفي من الثّراء لجعلها تهتمّ بأمجادها وإحباطاتها.

حاولتُ من جديد أن أبعث زازا للحياة، وهذه المرّة سأتمسّكُ بالحقيقة؛ كانت آن ڤينيون فتاة في العشرين فريسة لنفس القلق والشّكوك التي عانت

منها زازا. فشلتُ في جعل قصّتها مُقنعة. لم أكن سيّئة في صَلاة السيّدة پينيون الطّويلة التي افتتحتُ بها الحكاية؛ انسحب ذلك على حقيقتها وأكاذيبها؛ لكنّي اقترفتُ خطأ في الجزء الثاني، حيثُ أردتُ أن أجعل من الجميع مُخطئين في مُحيط آن؛ نسبتُ لها شانتال صديقة ودفعتُها للثّورة دون اقتناع ودون أن تبذل أدنى جهد لانتشالها من وحدتها؛ لقد اكتفت بلعب دور آخر، لمسنا وجهة نظرها إزاء المأساة من خلال شرّها الدّفين. ودون انتباه، حططتُ من قيمة آن مُتخيّلة أنّها كانت تمنحُ ثقتها لشخص لا يستحقُّها كثيراً. بدت الخاتمة واضحة مع پاسكال، الذي أحبّتهُ آن كما أحبّت زازا پراديل دون غبطة. لم تكن شخصيّة الشابّ مُسقَطَةً لكن كانت تنقصها المتانة. رسمتُ بورتريه لآن معقولاً ومُثيراً للعاطفة أكثر ممّا فعلتُه في النّسخة الأولى: لن نُصدّق حزنها العظيم على أيّ حال ولا أن يكون قادراً على أن يودي بها إلى الهلاك. الوسيلة الوحيدة، ربّما، لإقناع القارئ بذلك، هي أن أروي الأشياء على حقيقتها. بعد الانتهاء من كتابة *المُثقّفون*، حاولتُ مرّة أخرى نقل مأساة زازا في قصّة طويلة، كنتُ قد اكتسبتُ المهارة الكافية، مع ذلك لم أنجح في الوصول إلى هدفي.

انتهى الكتاب بذمّ لطفولتي، نسبتُ لمرغريت دروس «التّرغيب»، وأزمتي الدينيّة خلال مراهقتي. ثمّ سقطتُ في الجماليّة؛ لكنَّ عينَيْها قد زاغتا، ألقت الغموض وراء ظهرها، السّراب والأساطير وقرّرت مواجهة العالم.

كانت هذه الرّواية هي الأفضل؛ كتبتُها باستخدام ضمير المُتكلّم، تعاطُفاً مع البطلة، بأسلوب حارّ. نجحتُ خصوصاً في فصل السّيرة؛ كانت المغامرة التي أحالتها إلى الحقيقة غير مُقنِعَة.

خلاف العيوب الخاصّة بكلِّ فترة، كان بناء النصّ مُرتبكاً: لم تكن مجموعة قصصيّة ولم تكن رواية. كانت مقاصدي التّلقينيّة والهجائيّة محلَّ نقد. هذه المرّة أيضاً تجنّبتُ تعريض نفسي للنّقد؛ لم أظهر سوى من خلال الماضي البعيد، على مسافة كبيرة من نفسي. لم أمنح حكاياتي حرارة حياتي حيثُ بطلات مُعتَلَّات يتحرّكن في عالم غير إنساني. من جهة أخرى، كنتُ وأنا أكتب القصص أحظى بتأييد من سارتر في بعض مقاطعها. خلال السّنَتيْن اللتين استغرقتهما في كتابتها كنتُ أتمنّى أن أحظى باهتمام ناشر.

أحداث مُهمّة جرت في الصّيف. أثارت القوانين التي سنّتها حكومة لاڤال معارضة عنيفة؛ اندلعت أحداث شغب في الموانئ: بريست، شيربورغ، لوريون؛ في هاڤر وتولون قُتِلَ عُمّال من طرف قُوّات حفظ النّظام؛ أخيراً رضخ الشغّالون. لكنّ هذه الهزيمة لم تُحبط آمالهم. خدمتْ جنازة باربوس Barbusse[23] ذريعة لمُظاهرات عنيفة مثل مظاهرات 14 جويلية. لمُعاضدة الجبهة الشعبيّة على تحديد وإشاعة مواقفها الإيديولوجيّة، أراد كُتّابٌ – شمسون، أندريه ڤيولي، غيهينو – بعث أسبوعيّة جديدة، *الجُمُعَة*. اصطفّ اليمين، بشكل غير مسبوق، وبحميّة ضدّ «الأوغاد»؛ تزايد عدد المُنخرطين في صفوف «صليب النّار»، ناشدين المُساندة من وراء الحدود ودعمَ الفاشيّة الإيطاليّة. ولأنّ موسوليني كان رافضاً للتدخّل فقد جهّز نفسه للهجوم على أثيوبيا، على نبلاء أثيوبيا النيغوس Négus. صوّتَ المُجتمع الدّولي ضدّه مُقترحاً جُملة من العقوبات وقرّرت لندن تنفيذها عندما اخترق الجيشُ الإيطالي حدود أثيوبيا. نشر أربعة وستّون مُثقّفاً فرنسيّاً في جريدة لوتون Le Temps عدد 4 أكتوبر مانيفستو «للدّفاع عن الغرب» تحمّله ضدّ العقوبات؛ في ذلك اليوم بالذّات قصف الدوتشي القائد مدنيّين في أدوا Adoua. احتجّ المُثقّفون المناهضون للفاشيّة؛ من بينهم كان هناك كاثوليك؛ ضمّت جريدة *العقل* التي كان يُديرها إيمانويل مونيي صوتَها إلى صوت صحيفة *البلد*.

بدت لنا مُضحكة تلك القطيعة الرّمزيّة التي مارسها بعضُ كُتّاب اليسار الذين منعوا أنفُسَهم، مثلاً، من شرب السنزانو Cinzano[24]؛ لكنّ تصرّفات لاڤال أثارت اشمئزازنا: بدعوته المُخاتلة لـ«العقوبات البطيئة»، وجعل من فرنسا متواطئة مع الفظاعات المُرتَكَبَة في أبيسيني من طرف الطّيران الإيطالي الذي ذبح ببرودة دمٍ النّساء والأطفال. لحُسنِ الحظّ أنّنا كنّا قد توقّعنا انقلاباً في مواقف السّياسة الفرنسيّة. اجتماعات، خطابات، اضطرابات، مسيرات: راح التجمّع الشعبي يتقوّى يوماً بعد يوم؛ كانت الغلبة لمناضلي اليسار أمام مناضلي اليمين في مواجهات شهدتها البلاد. لم يكن فوز الجبهة الشعبيّة محلّ

23- باربوس Barbusse: كاتب فرنسي وُلِد سنة 1873 وتُوُفّي في موسكو سنة 1935.

24- السنزانو Cinzano: ماركة نبيذ إيطالي يتمّ إنتاجُه في مُقاطعة بيدمونت.

شكّ. «حائط الفضّة» سيهوي، ستُحلُّ التعاضديّات وستُجرَّدُ مائتا عائلة من الحكم. سيحتفل العُمّالُ بانتصارهم وحصولهم على مطالبهم وسيُحقّقون تأميم عدد كبير من الشّركات. من هذا المُنطَلَق افتُتِحَ المُستقبل. وسط هذه الأجواء انطلقت السّنة الدراسيّة الجديدة. شهد الثلاثي الأوّل مُحاكمة الأوستاشي Oustachi وستاڤيسكي. عُثِرَ على رُفاة الصّغيرة نيكول مارسكو التي كان قاتِلُها يُقضّي حُكماً بالسّجن منذ سنة؛ خلال كلّ هذا الوقت، نزر من المُفتّشين راحوا يجوبون بهراواتهم منطقة شومون: تحدث الراهب لومبير عن هذه اللّعبة وعدد من النّاس صدّقوه. جُنَّ بوستركيتون الذي أضحكنا كثيراً ولم يكن يضحك. تحصّل الـ«جوليو كوري Juliot–Curie على جائزة نوبل مقابل اشتغالهم على الإشعاع النووي الاصطناعي. كان الحديث رائجاً كثيراً بين الصّحف عن تدابير عمل جديدة اتّخذها الاتّحاد السوفيتي، كان قد وضعها ستاخانوف.

لا شيء عكّر صفو حياتنا الخاصّة منذ قرّر سارتر أنّه تعافى. غادرتُ فندق روشفوكو لأنتقل إلى فندق اسمُه لو -پتي-موتون Le Petit mouton (الخروف الصّغير)، الذي كانت أولغا قد أشارت عليَّ به: سكنهُ أصدقاؤها البولونيّون فيما مضى وكانت تجدهُ مُمَيّزاً. أعجبني أيضاً؛ كان يقعُ في نهج يفتَحُ على شارع الجمهوريّة، منزلٌ قديمٌ على الطّراز النورماندي، ذو ثلاثة طوابق، وأعمدة ظاهرة وعدد من مربّعات الخزف؛ ينقسم إلى جناحَيْن تفصلُهُما حجرة المُدَبِّرة، كان لكلّ جناح بابُه وسُلّمُه. على اليمين غُرَف الخدم وعلى اليسار يقيم النّزلاء، وهم على الأغلب أزواج شباب، حتّى إنّ الممرّ يمتلئ بالتنهّدات ليلاً. سكنتُ بالقرب من عريف في الجيش، كان يضرب زوجته قبل أن يُضاجعها. كانت كنبتي وطاولتي تتأرجحان، لكنّني أحببتُ البهجة القذرة قليلاً، للملاءات وورق الحائط والسّتائر. كنتُ غالباً ما أتناولُ العشاء في إقامتي قطعة جومبون، وخلال اللّيالي الأولى كنتُ أسمعُ في نومي حفيفاً وقحاً: فئرانٌ تجوب الأرضيّة والورق المُجعّد الذي رميتُ به في سلّة المُهمَلات. يحدُثُ أن أشعر بقوائم صغيرة على وجهي. أمّا المُدَبِّرَةُ فقوّادة، سمينة ذات شعر نافر كالقنفذ، وتلبس جوارب قطنيّة ورديّة.

استقرّ ماركو الذي عُيِّنَ حديثاً في رووان بفندق لو-پتي-موتون، في الجناح الأكثر فُحشاً. كان يُمطِرُ المُديرة بوابل من الإطراء ليستمتع برؤيتها تتصرّف كفتاة صغيرة؛ كان يلعبُ الكُرة مع كلبة الألماني أمام باب الفندق.

أثناء العُطلة تلقّيتُ رسائل يائسة من أولغا. لم تتقدّم في شهر جوان لامتحان الفيزياء والعلوم، وبدل العودة فوراً إلى بوزڤيل راحت تقضي ليالي بيضاء في التسكّع برووان والرّقص في ملهى روايال. وصلتْ إلى بيتها بعد ثمانية أيّام من التّأخير، مُتعبة، تحمل كدمات في مُحيط عينَيْها، وعلى كتفها قطّاً مريضاً وجدَتْهُ مُهمَلاً في مجرى مياه. أراد والِدُها إرسالها للإقامة في كايين Caen: لم تكن لترتعب أكثر لو أنّهما قرّرا حبسها في إصلاحيّة. أشفقتُ عليها، وتحسّرتُ لأنّها لن تتمكّن من العودة إلى رووان لأنّي أُكِنُّ لها ودّاً كبيراً.

كان لصداقتنا دوافع متينة، بما أنّها ما زالت تشغلُ حيّزاً في حياتي بعد خمس وعشرين سنة؛ لكن في البداية، أولغا هي التي سعت إلى إقامة العلاقة بيننا وحمايتها: لم يكن غير ذلك مُتاحاً. تستمدّ العلاقات قُوّتها من كونها قد نشأت ضدّ شيء ما. أولغا، في الثامنة عشرة، كانت ضدّ كلّ شيء تقريباً؛ أنا أضطرب في الحياة كسمكة في الماء؛ لا شيء يُزعجني إن سحقها كلُّ شيء. لقد بلغت مشاعرها ناحيتي حدّها الأقصى بسرعة جعلتني أبادلها الأحاسيس فوراً.

خلال شبابه، حاز والدُ أولغا على شهادة مُهندس من مونيخ؛ قرّر بعد الثّورة العملَ بها، في ستراسبورغ واليونان ثمّ بوزڤيل. كانت المُستنقعات في اليونان موبوءة؛ في بوزڤيل لم يكن هناك معهد. وجدتُ أولغا وأختَها نفسَيْهما مُقيمين في مَعهَدَيْ أنغوليم ورووان. لكنّهما قضّتا عُطلة طويلة مع الوالِدَيْن اللذين أمضتا معهما طفولتهما الأولى؛ أحببتُ أولغا كثيراً. كانت السيّدة د. ذكيّة جدّا، مُتفتّحة وتقليديّة قليلاً؛ كان لها من الشّجاعة ما يكفي لتغادر البيت الكئيب لتدرس الفرنسيّة في روسيا؛ لدى عودتها من فرنسا، تزوّجت رجلاً روسيّاً في المنفى؛ أحسّت أنّها في بلدها الذي كانت فيه أصلاً منفيّة: لم تتحمّل الألزاس ولا النورمنديين؛ وكي تُربّي ابنتَيْها كان عليها اتّباعَ حدسها وأحكامها الخاصّة؛ جعلتهما يقرآن الكتب صغيرَتَيْن، روت لهما حكايات أكبر من سنِّهما؛ درَّبَتْهُما على الأساطير، التّوراة، الإنجيل وخرافات بوذا لإمتاعهما من جهة ولتنتزع

منهما الرّغبة في تصديقها إلى الأبد. حازت أولغا بفضل هذا التّعليم المُبكّر إعجاب أساتذة الآداب وأغضبت البقيّة تقريباً.

بين هذه الأمّ غير المألوفة والأب الغريب الأطوار الذي كان على الدّوام يُحدّثها عن البلد الرّائع، البلد الذي كان عليها العيش فيه، أحسّت أولغا أنّها مُختلفة عن بقيّة الأطفال، واعتبرت اختلافها تفوّقاً؛ بل لقد راودها انطباع بأنّها محشورة تحت جلد ليس جلدَها: من أعماق روسيا لم يعد لها وجود، آنسة صغيرة متعلّمة في معهد الفتيات النّبيلات، اعتبرت بتكبّر أنّ التّلميذة أولغا د. منصهرة مع حشود الرُّوانيّين الخارجيّين؛ لم تتحمّل ذلك بسهولة. التّناقض الكامن في تعليمها هو أنّ والدَيْها قد أهملاها فريسة للانضباط والرّوتين والأحكام المُسبقة، وكلّ الحماقات التي تسود مبيت الفتيات، بعد أن زرعا فيها ألوان الازدراء المُتَّفَقِ عليها، الخرافات، غباء العادات الفرنسيّة الفاضلة. نتج عن ذلك صدامات جادّة، لكنّها لم تؤثّر كثيراً في أولغا لأنّ والِدَيْها أيّداها دائماً. كانت السيّدة د. تشعر من حين إلى آخر بوخز الضّمير؛ كانت تتمنّى لو أنّ بِنتَيْها كانتا كـ «البقيّة»؛ لقد خلقت صحوتُها المُبكّرة مآسي، لم تدم طويلاً، لحسن الحظّ لأنّ المُستجدّات أبعدتهما عن مصيرهما. عندما خرجت أولغا من المعهد، وجد والداها صعوبة كبيرة في الحياد بها عن المنهج «العادي». لم يُفكّرا في الزّواج كمسيرة حياة، لقد آمنا بقدُراتها، أرادا أن تتعلّم مهنة. لكن أيّ مهنة؟ الرّقص، لم يأخذا هذا الحُلُم مأخذ الجدّ ثمّ إنّ الوقت قد تأخّر. الهندسة المعماريّة تستهوي أولغا؛ قرّر والِدُها أنّ حظوظ نجاح المرأة في هذا المجال ضعيفة. اختار الطبّ، دون اعتبار انجذاب أولغا لهذه الدّروس. كانت النّتيجة فشلاً مُضاعَفاً في شهادة الفيزياء والعلوم. في جوان وأكتوبر 1935، ثمّ سنة تدارك كانت – حسب رأيهما – مضيعة جذريّة للوقت. أحسّا بأسف كبير ما انفكّا يلوكانه. حين كانت في بوزڤيل، منعاها من التّدخين، من السّهر ومن القراءة تقريباً، فرضا عليها جدول أوقات صارماً؛ أصيبا بالإحباط بسبب إهدارها لحياتها ورفقتها السيّئة. إنّ النّزاع الذي كان عادة ينشب بين المُراهق ووالِدَيْه اتّخذ لديها شكلاً شاقّاً بشكل خاصّ لأنهما جسّدا دون وعي منهما ما أنشآها على رفضه: النّظام، حكمة الأمم، التّقاليد الراسية وكلُّ الجدّية الكامنة في هذا العمر الذي كانت تراه، برعب، يقترب منها بثبات. لامت نفسها لأنّها

خيبَتْهُما، فقد كانت دائماً تستمدّ طاقتها من احترامهما لها؛ إلّا أنّ تحوّلهما وانشقاقهما ملآها ضغينة. أمضت السّنة الأخيرة ساخطة وفوضويّة، معادية للعالم بأسره ولنفسها. كانت أختُها أصغر منها وتُحبّها كثيراً؛ ولم يكن يربطها برفاقها سوى علاقات سطحيّة؛ لا أحد كان في وسعه إنقاذها من هذا الرّكود المُطبِقِ عليها بالكامل. لا أحد خلافي. كنتُ في موقع ملائم لمساعدتها. كنتُ أكبر منها بتسع سنوات، ولديَّ سُلطة الأستاذ وخُطوة الثّقافة والتّجربة، ما مكّنني من الحسم مع موظّفي المعهد ومع البورجوازيّة الروائيّة؛ كنتُ أعيش ألفتي الدّاخليّة دون هموم كبيرة؛ أولغا المُتحوّلة والقويّة بعمرها والحكمة التي تنسبها إليَّ، وجدتْ فيَّ نفورها، رفضها، وتعطّشها للحرّية. لقد سافرتُ وعرفتُ أناساً؛ كانت رووان وبوزڤيل سجوناً أمتلك مفاتيحها؛ الثّراء اللامتناهي للعالم في الأفق وفي جديده؛ كانت تحلم من خلالي؛ وفعلاً، عديدة هي الأشياء التي جاءتها من ناحيتي خلال سنتيْن: كتب وموسيقى وأفكار. لم أُشرع أمامها المُستقبل فحسب، بل إنّ ما يبقى حقيقة هو أنّي وعدتُها بقدرتها على شقّ طريقها؛ كانت ترزحُ تحت ضغط عنيف من قبل أقارب والِدَيْها ما دفعها إلى السّقوط المرير في الانهزاميّة؛ أفهم أنّ الفيزياء والعلوم قد مثّلا عائقاً حال دون تقدّمها نحو ما تريد وأنّ استقلالها الذاتي قد سيطر عليها: منحتها ثقتي؛ كانت في حاجة عاجلة إلى هذا الاحترام، إلى تواطئي وإلى كلّ ما أحمله لها بقدر ضئيل في البداية، وطبعاً لم تُحلِّل بنفسها هذه الأسباب التي جعلتها ترتمي بين أحضاني؛ كانت تظنّ أن تفسير ذلك يكمن في جدارتي بصُحبتها؛ لكن انطلاقاً من وضعها، أصبحتُ بالنّسبة إليها شخصاً نفيساً وفريداً. على العكس لم ينقصني شيء. حين ألتقي بأناس جدد وجذّابين، فإنّي أربط معهم علاقات جميلة، غير أنّهم لا يخترقونني. لم يكن في وسع فينيق مُجهّزٍ بكلّ ما يبعث على الفخر أن ينجح بإغوائه المُجرّد في أن يُربِكَ لامبالاتي. لامستْ أولغا النّقطة الضّعيفة الوحيدة في قلبي: حاجتها إليَّ. قبل سنوات، كانت ستُضايقني وكنتُ سأعتبر اقترابها منّي تطفّلاً؛ لم أفكّر أوّلاً سوى في إثراء تجربتي؛ في الوقت الحاضر، يبدو لي أنّ يدَيَّ مليئتان وعبر الحماس الذي استقبلتْ به هداياي الأولى، جعلتني أولغا أكتشف لذّة العطاء؛ عرفتُ من قبل ثمالة التلقّي ومباهج تبادل الأشياء الثّمينة؛ لكنّني لم أكن أعرف إلى أيّ مدى هو رائع أن

تشعر بأنّك نافع، ومثير أن تُصدّق أنّك ضروري. كانت الابتسامات التي تظهر على وجهي فيما مضى توقظ في داخلي فرحاً لم أكن لأتحمّل دون مشقّة كوني حرمتُ منه نفسي. مؤكّد أنّ كلّ تلك الابتسامات لم تكن لتلامس وجداني لولا ودّ واحترام أولغا اللذان غمرتني بهما فوراً. عرفتُ مذاق السّحر الذي في وجهها، حركاتها، صوتها ولغتها وحكاياتها؛ أُعجبتُ بذكائها وحساسيّتها؛ لم تكن تنخدع بطبيعة إنسان أو وجود كتاب حتّى من دون أن تعرف عنه كلّ شيء. كانت تملك هذه الفضيلة التي اعتبرناها الأهمّ: الأصالة؛ لم تكن تُزيّفُ انطباعها أو آراءها. أدركتُ أنّها لا تُشبه أبداً الفتاة الشّقراء الشّاحبة، المُمِلّة التي رأيتُها يوماً تبكي من أجل مُنجَز غير مُكتمِل. كان لديها شيء ما مُتهوّر ومُتطرّف اجتاح كياني بالكامل. صغيرةً، عرفتْ بعنف أكثر منّي نوبات الغضب؛ ما زالت تحتفظ بقدرتها على السُّخط الذي يُفقدُ الصّواب. لم تكن مُجرَّدَ نزوات بلهاء، بل كانت بذلك تُعبّرُ عن امتعاضها، عن ثورتها واحتجاجها: لم تكن هذه السّلبيّة هشاشة في طبيعتها بل تحدٍّ في وجه كلِّ استبداد مهما كان نوعُه. كانت أولغا تعيش مُتَعَها دون حساب للعاقبة: يحدث أن ترقص حدَّ الإغماء. كانت مولعة بتأمّلُ كلّ شيء خصوصاً النّاس؛ ترك اندهاشُها في داخلها نضارة الطّفولة وكانت تَمضي وراء دهشتها في أحلامها الطّويلة. كان حديثي معها ممتعاً لأنّها كانت تُصغي إليَّ بشغف. روت لي ماضيها، كشفتُ لها عن جزء كبير من ماضِيَّ أيضاً: كنتُ دائماً متأكّدة من أنّي أهملها وأنّها تفهمني جيّداً. كنتُ أتحدث معها براحة وحميميّة أكثر مما كنتُ سأفعل مع امرأة في سنّي. أحببتُ تصرّفها المُحافظ والمُتكتّم، فيما كان ألف ضوء ينير طُرُقَها البوليسيّة في التحرّي. تمنّيتُ مُساعدتها على استثمار مهاراتها التي كانت تهدرها في دراسات قاحلة، وسط جوّ من السّأم والنّدم. مع ذلك كنتُ حذرة؛ لم أسمح لنفسي صراحة، بأن أتّخذ من حياتها أرضيّة كي أُنفِّذَ مشروعي. أجبرني مُخطَّطُ والِدَيْها على التقدّم خُطوة، وشجّعني سارتر على ذلك؛ كان يُحبُّ أولغا كثيراً ويرى أنّها جذّابة في دور المُمَرِّضة؛ كما من المُستحيل أن أتركها تقيم في مبيت كايين؛ اقترح عليّ فكرة بدت لي لامعة. كانت أولغا تكره العلوم، لكنّها تلميذة مُمَيَّزَة في الفلسفة، لمَ لا نوجّهها نحو هذا الاتّجاه؟ كان سارتر يقدّم دروساً لطلبة الإجازة في هاڤر؛ سيُساعدني على تحضير أولغا لهذه الشهادات. طلبتُ

مقابلة والِدَيْها اللذين دعواني إلى بوزڤيل. نزلتُ في المحطّة قبل الأخيرة ومبكّرةً أكثر ممّا أردتُ؛ أمضيتُ فترة ما بعد الظّهيرة أتجوّل مع أولغا من خلال ريف حزين ومُرعب؛ أوينا إلى المقاهي القرويّة وانتظرنا. لم تكن تأملُ الكثير من مبادرتي. إلّا أنّي، بعد عشاء على الطّريقة الروسيّة عرضتُ مشروعي على السيّدة والسيّد م.د. وأقنعتُهما بأن يعهدا لي بأولغا. لدى عودتي إلى رووان، سطّرتُ مع سارتر بعناية جدول أوقات للدّروس التي سنُلقّنُها إيّاها وبرنامج العمل الذي عليها إنجازه بدقّة: قراءة، حفظ، عرض. حجزتُ لها غرفة في فندق لو-پتي-موتون.

أعجبتها الدّروس الجديدة؛ أصغت بحماس وبدا أنّها تفهم كلَّ ما نشرحُه لها؛ كانت تُنضِّدُ الكُتُب التي قدّمتُها لها فوق الطّاولة باهتمام بالغ. لكنّ يوم طلبتُ منها تلخيصاً كتابيّاً لأحد فصول برغسون، ابتلعت كمّية كبيرة من فتات الممحاة ما منعها من مواصلة العمل. هل كانت ردّة فعل والِدَتِها كلّما أخفقت في امتحان غروراً قديماً أوحى لها به فشلُها الذي كانت تُفضّل عليه عدم القيام بالمُحاولة من الأساس؟ عموماً لم تنجح في كتابة السّطر الأوّل من المقطع الأوّل. بالتّالي لم تكن فكرة سارتر عبقريّة إلى ذلك الحدّ. للاستعداد لاجتياز الإجازة بعيداً عن السوربون، دون رفاق دراسة، كان لابدّ من شغف كبير أو مقدار عالٍ من الإرادة. بفضل ذكائها، استطاعت أولغا أن تتفوّق في الفلسفة، لكن في الواقع لم يكن التّخمين المُجرّد يستهويها البتّة. لم تكن قادرة على الانصياع إلى التّوجيهات. أفهم أنّ وراء انهزاميّتها خلال السّنتَيْن الماضِيَتَيْن في دراسة الفيزياء والعلوم أسباباً واضحة أكثر ممّا تصوّرتُ. ثمّة أناس تُحفّزهم الصّعوبات: لكنّها تُحبِطُ أولغا. كانت منذ طفولتها مُقتنعة أنّها لا تنتمي إلى المُجتَمَع المُحيط بها، لذلك لم تتخيّل لنفسها مُستقبلاً في انتظارها: بالكاد يوجد الغدُ بالنّسبة إليها؛ السّنة المُقبلة أبداً؛ لم تكن تُفرّقُ سوى قليلٍ بين المشروع والحُلم؛ أمام مهمّة قاسية، لا أمل يحدوها. حاولتُ مُحاربة تساهُلها؛ لكنّ عتابي وأسفي لم يحُثّاها على المُواصلة، بل جعلاها تنزلق صوب اليأس والعدميّة. سُرعان ما توقّف سارتر عن عهده وحذوتُ حِذوَه. بعد عيد الميلاد، أصبحت دروس الفلسفة ضرباً من الأساطير. خاب أملي لكنّي

تجاوزتُ الأمر؛ في الوقت الحاضر أولغا مُتفتّحة لأنّها تعيش دون ضغوط. ورغم أنّها طالبة مُتجهّمة، فإنّها أظهرت سلوكاً رائعاً.

إنّها عاكفة الآن على العمل بحماس أكبر من عدم الإيمان بالغد؛ لم تكن قط تتعب من النّظر والاستماع والحديث والرّقص والتنزّه والإحساس بنبضات قلبها. بسببها تركنا هاڤر من أجل رووان. أخذتنا شرفة مقهى ڤيكتور لنُنصِت إلى العازف الرائع تزيغان، ساشا مالو؛ تمّ استبدالُه بأوركسترا نسائيّة ذكَّرَتنا بمقهى تور الكبير الذي أمتعتنا محاسِنُه إلى حدّ جعل سارتر يُدرجُه في كتاب مع *وقف التّنفيذ*. كان لدينا فضول إزاء النّساء أكثر من النّساء؛ أصغينا بانتباه كبير إلى تقليد السيّدات الصّغيرات عند ألكسندر، وإلى نادلات حانة الأوسيانيك. كان في شارع الساعة الكبيرة نهجٌ يشبه قليلاً ذاك الذي في مرسيليا؛ لعبتُ فيه البوكردايس مع أولغا، وتحدّثتُ فيه مع سارتر ونحنُ نحتسي القهوة أو عصير البرتقال. كانت تأتي هناك باستمرار مُديرة دار أزياء مرموقة، للتحدّث مع حرفاء أو مُزوِّدين حول طاولة على هيئة برميل خشبي؛ كُنّا ننظر إليهم بمودّة؛ النّساء القائدات ونساء الأعمال كُنَّ قليلات في تلك الفترة؛ أُعجِبْنا بأناقتها، تحرّرها، حزمها وسُلطتها. عندما ذهبت كوليت أودري إلى باريس تركت لنا مفاتيح شقّتها. طهونا السباچيتي على موقدها، استمعنا إلى أسطواناتها، وداعبنا حمامها. كانت آخر الشّهر تعيرُنا جهاز الموسيقى لنضعه في مون-مون-دي-پيتي؛ وضعتُ لها في المقابل مِشبكا ذهبيّا أهدتني إيّاهُ جدّتي.

كنتُ أرى أولغا باستمرار في غياب سارتر. أجعلها تقرأ ستندال، بروست، كونراد وجميع الكُتّاب الذين أُحبُّهم وكانت تُحدّثني عنهم بانبهار تارة وبغضب تارة أخرى، لأنّ علاقتها بهم كانت مُعقّدة وحيّة أكثر من أناس من لحم ودم؛ كان پروست على وجه الخصوص يوحي إليها بأحاسيس غامضة تتراوحُ – دونَ توقّف عند منطقة وُسطى – بين النّفور والكراهية وبين الإعجاب والدّهشة. لنتحدّث في هذه الشّؤون كنّا نجلسُ في الأوسيانيك وغالباً في حانة صغيرة على رصيف الميناء، حيثُ السّتائر والموكيت والمرايا أيضاً مُزخرفة باللّون المشمشي الجميل؛ حيثُ كنّا نحتسي النّبيذ. قرّرتُ تعليم أولغا الشّطرنج. لعبنا بعض الجولات في حانة الأوبرا. لكنّ جهلنا به كلّفنا نقداً مُخزياً جعلنا لا

نجرؤ على اللّعب إلّا خلسة؛ نأوي إلى غرفتي ونلعب ونحنُ نحتسي كؤوساً كبيرة من الشيري–روشي؛ كنّا نُحبُّ الشّراب باعتدال؛ ذات ليلة ازدردنا كمّية مهولة حتّى أنّ أولغا تدحرجت في السُلّم ونامت هناك إلى أن تعثّر بها أحد النّزلاء. كنّا باستمرار نصعد إلى غرفة ماركو للاستماع إلى أسطواناته: سيمفونيّة بيتهوڤن الرّابعة، كونشيرتو براندبورغ، ثُمانيَّةُ سترافينسكي؛ ألفتُ العديد من الأعمال الخالدة التي كنتُ بالكاد أعرفُها، أو أبداً. إنّ ما يُزعجُني هو أنّ ماركو كان يرمقني بنظرة مُستفهمة عند نهاية كلِّ مقطع موسيقي، كانت نظرة مُتهكّمة قليلاً: كنتُ أجتهد بمشقّة كي أجد تعليقاً مناسباً.

دعانا ماركو ذات ظهيرة، أولغا، سارتر وأنا إلى شقّة حيثُ كان يشتغل على نشيده. عندما كان يُدندن في الشّوارعُ نغم الرّاية لباخ أو لحن كاڤاتين لبيتهوڤن، كان صوتُه يُطربني؛ كانت النّوافذ ترتجّ حين يشرعُ في غناء لحن بوريس غودولوف، وكنتُ أظنّ أنّ طبلَتَيْ أُذُنَيَّ قد انفجرتا وأشعر بالخيبة. حصص أخرى أكّدت الحقيقة المؤسفة: كان ماركو يُغنّي بشكل أقوى في كلِّ مرّة لكن بأقلّ جودة. لم يكن منتبهاً إلى ذلك؛ ظلّ مقتنعاً أنّه سيكتسح الأوبرا بنجاح منقطع النّظير. في المقابل كان يُكابدُ ضدّ الإفلاس وكان ذلك حريّاً بالاهتمام في نظري: بدأ شعره بالتّساقط. كان كلّ مساء يدهنُ رأسَه بمُرطِّبٍ مصنوع من مادّة الكبريت وكان لديه انطباع بأنّه يُسلَخُ حيّاً؛ كان مُدّة خمس دقائق يضغطُ بقوّة بيده على النّافذة حتّى لا يصرخ. مع ذلك لم يكن قد فقد شيئاً من وسامته. في الوقت الحاضر، أنا أعرفه بشكل أفضل، لقد تبدّدت جاذبيّتُه قليلاً. لكنّ أولغا التي كان يُكِنُّ لها مودَّة كبيرة، لا تراه قد فقد قدرته على الإغواء. كانا أحياناً يخرجان معاً.

ذات مساءٍ، بينما كانا يتوغّلان في شارع جان دارك، رسمتْ أولغا خطوط الرّقص على الجليد بخطواتها؛ أخذها ماركو من ذراعيْها وتجاوزا الشّارع راقِصَيْن؛ كان ماركو يُغنّي. فجأة لمحا مجموعة من الشّباب يُشاهدانهما على الرّصيف مصدومين تماماً: أحد تلاميذ ماركو كان قد طردَهُ أهلُه. «تبّاً!»، قال ماركو. وأضاف دون أن يُفلِتَ أولغا: «لا بأس، لنواصل، لقد تأخّر الوقت.» رأى التّلميذ أستاذَه يبتعد جذلانَ بين ذراعَيْ فتاة شقراء.

مع ماركو، كانت كلُّ نزهة تتحوّل إلى مغامرة؛ ابتكر لأولغا أكاذيب جميلة مُشوّقة، اقتحم أماكن بمراكب، ورسا وسط أناس غرباء، عرض عليهم تقاسُم بعض الكؤوس وجعلهم يروون له قصص حياتهم. تقدّمَ منّا، ذات مساء، في حانة اللّون المشمشي، أنا وأولغا، ربّانٌ من البحريّة الإنجليزيّة. كان دميماً جدّاً، له أنفُ سكّير، لكنّه كان يروي حكايات مُشوّقَة عن المراكب؛ استمعنا إليه وأُعجِبَ بدوره بالطّريقة التي تتكلّم بها أولغا الإنجليزيّة. بعد أيّام، كانت في حانة أخرى بصحبة ماركو والتقت بالرُبّان مُجدّداً. «قدّميني، قال ماركو وقولي، هامساً بالفرنسيّة، إنّي أحد أقاربك.» اعتقد الرُبّانُ أنّه شقيق أولغا، ودعاهما إلى الشّراب وعرض عليهما مواصلة الأمسية على متن مركبه. تردّد ماركو ، كان من الواضح أنّ الرُبّان قد أُعجب بأولغا. «تعالي معنا، قال ماركو، لكن لعلمك ليس ثمّة ما يمكن احتساؤه لدى هذه الفتاة. عليك أن تقتني قارورة.» ذهب الرُبّانُ العارف بالمكان لشراء قارورة ويسكي ووضع ماركو خطّته: سيسرقه؛ سيتركه ماركو دقيقَتَيْن مع أولغا بمفردهما، سيُحاول القبطان طبعاً القفز فوقها. عندها سيظهر ماركو فجأة، مُهدّداً إيّاه بالفضيحة؛ عليه أوّلاً الانتهاء من جعل ضحيّته تثملُ تماماً. صعدا إلى غرفة أولغا، وشرعا في إفراغ قارورة جوني والكر. كان القبطان يشرب بنهم، والآخران يسكُبان السّائل خلسة تحت السّرير الذي كان يفوح بالويسكي منذ شهر. لكنّ القبطان حافظ على ثباته. طلب من ماركو الخروج معه قليلاً إلى السُلَّم؛ هناك عرض عليه الأموال. طلب ماركو أرقاماً خياليّة كي يُثنيَه، وغضب الآخر. كي يتملّقَه انتهى ماركو بالقبول باكياً أنّ البؤسَ دفعه إلى بيت أخته الصّغيرة، لكنّه شعر بتأنيب الضّمير وسرعان ما غيّر رأيه. لم يهدأ القبطان؛ كان على ماركو أن يُمسك به من كتفه ويُوجّهَهُ بصرامة ناحية الخروج. لم يغتظ القبطان؛ لاحقاً، بعد أيّام، كنتُ وأولغا نستمع إلى الموسيقى في غرفة ماركو عندما توقّفت سيّارة في ركن الشّارع: فكّرتُ أنّ القبطان قد تأثّر جرّاء تصرّف الشابَّين؛ جاء يبحثُ عنّا ليأخذنا لزيارة مركبه. تبعناه وأكرمنا كما ينبغي.

مرَّ الثّلاثي الأوّل سعيداً، بفضل وجود ماركو، تطوّرت صداقتي بأولغا، شفاء سارتر والحماسُ الجديد الذي كرّستُه في عملي. كنتُ مشغولة جدّاً بالقراءة كذي قبل؛ إلّا أنّي كنتُ مواكبة لما يستجدّ. لم تكن السّنة الماضية

سنة أدب، احتفل اليمين بكُتُب روبرت فرنسيس، أخي جاك ماكسنس وفاشيّ مثله، والذي حاول تقليد آلان فورنيي في *حظيرة الجميلات الثّلاث* ومركب *النّجاة*. نشر مالرو في ذلك الشّتاء أسوأ كُتُبِه على الإطلاق، زمن *الازدراء*. نشر نيزان *حصان طروادة*. إحدى الشّخصيّات الرّئيسة لونج Lange، أستاذ الأرياف؛ فوضويّ، كان يتجوّل في وحدته بين شوارع المدينة ويستغرق في أحلامه الميتافيزيقيّة السّوداء وهو يجوب ببصره الحجارة؛ كان يُشبِهُ سارتر دون شكّ؛ انحاز إلى الفاشيّة في الصّفحات الأخيرة. أعلن نيزان بنبرة عدم اكتراث، لكن بحزم أنّ بريس پاران Brice Parrain كان مثله الأعلى. قال له سارتر ممازحاً إنّه لا يُصدّقُ ذلك.

الكتاب الوحيد الذي طبع تلك الفترة هو ترجمة *أنوار أغسطس* لفوكنر. لم يُحبَّ سارتر أسلوبه، آخَذَه على ازدواجيّته التّوراتيّة. لكن على الأقلّ كنّا مُتَّفِقَيْن على الإعجاب بجرأته غير المسبوقة. لم يكن عالم فوكنر الحافل بالجنس والجريمة متوهّجاً كما هو الشّأن في تلك الرّواية. استغربتُ كون المغامرة التي رمت كرسيماس بين أيدي المُجرمين صادمة كالحياة وحتميّة الموت. في هذا الجنوب المُجرّد من كلّ مُستقبل الذي لا حقيقة له سوى أسطورته الخاصّة، فإنّ التسلسل الأكثر اضطراباً جامد سلفاً في قدره المحتوم؛ عرف فوكنر كيف يُضفي زمناً على حكايته بإلغاء الوقت. في منتصف الكتاب، يقلب الأشياء فجأة: هنا، حيثُ القدر ينتصر، يتساوى الحاضر مع الماضي ولا يعود للحاضر أيُّ ذكر؛ بالنّسبة إلى كريسماس، لا يُمثّل ذلك سوى انقطاع السّلسلة، فشقّ يعود إلى يوم ميلادها والآخر ينزلق نحو نهايتها المُرعبة، وكلاهما يعكس لعنة واحدة: دم أسود في العروق. مراوحاً الوقت، أغنى فوكنر تقنيته. لقد وزّع الظّلال والأنوار بشكل أفضل من رواياته السّابقة؛ توتّر القصّة، حدّة الأحداث، جعلا من *أنوار أغسطس* تحفة فنيّة استثنائيّة. قال ماركو الذي كان يراكم النّظريات، إنّ على الرواية أن تكون جدليّة في أزمنتها أو لا تكون. على أيّ حال نحنُ نرى أنّ الرواية الفرنسيّة التقليديّة قد أدّت دورها وانتهى، وأنّه من الإجحاف عدم إعطاء الفرصة للحُرّيات الجديدة والحساسيّات المُبتكَرَة من قبل شبّان أمريكان.

لم نكن نذهب إلى باريس كثيراً، لكنّنا كنّا في المُقابل نستغلُّ أوقات إقامتنا القصيرة إلى حدّ استنزافها. زرنا معرض الفنّ الإيطالي، معرض الفنّ الفلمندي. شاهدنا، بقليل من الحنين، بقايا قصر تروكاديرو Trocadéro الذي كان بصدد الهدم. في كازينو باريس غنّى موريس شوڤاليي: عندما يلتقي نبيلٌ نبيلاً آخر. كان يقوم بتقليد مُقلّديه بشكل مُذهل. عُرض في السّينما فيلمُ *حفلة البطولة، المُخبر، العَلَم*. شاهدنا مرغريت جاموا في *نزوات ماريان*، استمعنا إلى مادلين أوزيراي تقول: «مات القطّ الصّغير.» غير أنّ عروض جوڤي Jouvet الرّصينة قد أصابتنا بالملل قليلاً وتجاهلنا فِيلمَ *لن تقوم حربُ طروادة*. من جانب المسرح، حضرنا افتتاح عرض *الفاعل*، التي اقتبستها كامي من بلزاك بكثير من المرح. في روب نوم مركادي Mercadet[25] بدا دولان الشخصيّة ذاتها؛ كان حضور الدّائن السيّد ڤيوليت، البكّاء، الرثّ، السّائل عن أمواله على الدّوام، الذي جسّده سوكولوف مُبهراً كذلك: كان في عمله ما يُشبه السّحر. كانت المرّة الأولى التي أضعُ فيها قَدَمَيَّ في فضاء فنّانين يوم العرض الأوّل؛ سارع النّاسُ نحو دولان وكامي صارخين، هاتفين، الأمر الذي تركني بلا صوت.

لحسن الحظّ أنّي لم أكن في حاجة إلى جُملِ دولان وكامي لكنّ كامي دفعتني دفعاً أمام سوكولوف لأنّي عبّرتُ لها عن إعجابي بأدائه الرّائع: «هنّئيه.» كان جالساً على مقعد طويل، شارداً قليلاً، وعلى ركبتيْه ملابس السيّد ڤيوليت البالية؛ تمتمتُ ببعض الكلمات ونظر إليّ من خلال أجفانه المثنِيَّة متفاجئاً أكثر من كونه ساخراً. أحسستُ أنّ وجهي اتَّقَد، وسال العرقُ بارداً على جبيني: قلتُ في نفسي إنّي غير بارعة في مواقف اللّباقة.

احتفظتُ بذكرى لامعة عن عُطلة عيد الميلاد الأخيرة. هذه السّنة، أمضى ليونيل الشّتاء مع خالة مُسنّة في شاليه غستينغ بسويسرا. دعا أختي. أقمتُ مع سارتر في فندق قريب، صغير جدّاً، وجميل للغاية؛ كان خشبيّاً ككلّ بيوت القرية، ودافئاً بفضل موقد خزفي كبير؛ كانت الشّوارعُ المغمورة بالثّلج تضوع بروائح الصّنوبر المُبتلّ ونيران النّباتات الخضراء. ارتقينا مُرتفعات أكثر وعورة

25- مركاديت Mercadet : إحدى مسرحيّات هونوري دي بالزاك وكتبها سنة 1840 تحت عنوان ميركاديت قبل أن يتغيّر إلى «الفاعل Le Faiseur».

من مونروك، ومُخفّفة مثلها: كان ليونيل بارعاً في التزلّج على الثّلج لكن أستاذاً سيّئاً. طلبت الخالة العجوز حلوى البودنج الإنجليزيّة والرّوم للاحتفال بعيد الميلاد؛ انقضّ عليها سارتر. بنهم وبحركة مُضمرة أكثر ممّا هي عفويّة وأكلنا معه على أيّ حال.

كنتُ في تناغم تام مع أولغا، لكنّنا لم نكن نُشبه بعضنا بعضاً. كنتُ أعيش لأجل مشروعي؛ وهي كانت تنكر المُستقبل؛ كلّ جهد، كان يبدو لها مُثيراً للازدراء، الحذر دناءة، المُثابرة كذبة؛ لم تكن تولي قيمة سوى لعواطفها: لا يعنيها ما يُمكن فهمُه بالعقل. كانت تستمتع بسماع بيتهوڤن أو باخ. لكن عندما دعانا ماركو للاستماع إلى ثُمانيّةِ سترافينسكي قالت بمزاج رائق: «تزعجني الموسيقى، ولا أحبّ غير الأصوات.» حسب مُصطلحِ شيلر Scheler (الذي نعتبره اليوم مَعينَ فاشيّة) الذي كنّا نستخدمُه دون حرج في تلك الفترة، إنّها تضعُ «القِيَمَ المعيشيّة» في مرتبة أعلى من «القِيَمِ الروحيّة»؛ لا الأدب ولا الفنُّ يلامسان قلبها مثل الأجسام، الحركات والوجوه البشريّة. كانت مولعة بأوسكار وايلد وتعتبر نزعته الجماليّة قصيرة؛ لكنّي لم أكن متضايقة قط من مواقفها؛ نسبتُها إلى سنّها ولم أتسلّ يوماً بالقول إنّ أولغا تفكّر ضدّي. كانت علاقتها بسارتر دون حكايات تقريباً: كانا مُنسَجِمَيْن ولا أحد منهما يطالب الآخر بشيء. كان الحاضرُ كافياً بالنّسبة إلى أولغا؛ وكانت الكلمات التي تشرحُ، تحُدُّ أو تعُدُّ وتستبق دائماً، كلمات خارج السّياق تماماً.

كما يحدثُ دائماً فإنّ دخول الطّرف الثالث هو الذي يُفسدُ الأشياء. لم تكن تخفي المتعة التي تجدها في الخروج مع ماركو، وتخيّلَ سارتر أنّها تُفضّل عليه ماركو. منذ أن بدأ في المقارنة فإنّنا نقيس ونتوقّف عن الاستسلام للحظة عفويّة؛ ليس الحاضر سوى علامة من علامات المُستقبل وهنا تتولّد بعض الأسئلة: تساءل سارتر وسأل أولغا، لقد أصبح بينهما كلام يخصُّ علاقتهما. تنزّلت تلك الغيرة وما انجرَّ عنها من ردود فعل منزلةً أفلاطونيّة. كان ماركو يزعم أمام أنظار النّساء أنّه رئيس الملائكة. وأولغا الصّبيانيّة والمتأثّرة في آن، كانت ترهب بسهولة وتوحي بالاحترام. كانت إمبرياليّة عاطفيّة صرفة من جانب سارتر. هل كان ذلك سيتأكّد لو أنّ أولغا لم تكن تبدي رغبة في الخروج

مع ماركو؟ أعتقد نعم؛ لم يكن ماركو سوى ذريعة. كان سارتر مُتعلّقاً بأولغا منذ السّنة الماضية. لم يحصرها طويلاً في دور المُمَرّضة. كان في البداية يروي لها قصصاً ويبتكر لها الأغاني، لم يكن همُّه إغواءها بقدر ما كان يرجو تسلية نفسه من خلالها؛ لم يكن يحاول القيام بنفس الشّيء إلى جانبي: كنتُ أقرب إليه من أن يُزيِّفَ حقيقتي في نظره. لكنّه أحجم عن إجبار غريبة على رفقة مُهَلوِس حقير كما كان يعتبر نفسه؛ كان يستبدل نفسه براقص بارع ساعات من الزّمن: رحلتْ عنه سرطانات البحر. راح ينتظر هدنة بنفاد صبر، وتمنّى عودة أولغا: لقد كفّت عن أن تكون وسيلة، أصبحت غاية؛ اتّضح أنّه كان يُسلّيها كي يبدو في نظرها مُسلّياً. بعدما انطفأ جنونه، ظلّ بريقه في عينَيْه على شكل إعجاب بأولغا التي عكفت على حمايته منه. لم يكن سارتر يتوقّف في نصف المسافة قط؛ بعد الصّداقة التي توطّدت بينه وبين أولغا كان عليه أن يُفضي بالعلاقة إلى ذروتها. لكنّ الارتباط الذي أنشأه بنفسه بينهما لا يتحمّل واقعة أو حركة أبداً، بما أنّ أولغا كانت مُقدّسة؛ لن تتجسّد طبيعتاهما إلّا على نحو سلبِي: يطلب سارتر الانفراد؛ لا أحد يجب أن يعني لأولغا شيئاً غيرَه.

ابتسامات أولغا، نظراتها وكلامُها، كانت تكتسي أهمّية قصوى منذ اللّحظة التي تتحوّل فيها إلى إشارات ورهانات. من جهة أخرى فإنّ جراد البحر قد انسحب تاركاً بينهما شاطئاً خالياً وجاهزاً ليمتلئ بوساوس أخرى. بدل الاندهاش من بقعة سوداء راقصة تسبح في مُستوى عينيه، كان سارتر يتعقّب بنفس الانتباه المعتوه أصغرَ حركة من جفون أولغا: كان يكتشف عالماً في كلٍّ منهما. كما راح يتجنّب إرهاقها بأسئلة واستنتاجات ثقيلة الظلّ؛ لم يكن يُجنّبُني ذلك؛ هل سجّل نقطة لمصلحته ضدّ ماركو؟ هل منحتهُ أولغا، هل ستَمنحُهُ التميز الجذري الذي يرجوه منها؟ ناقشنا الأمر ساعات طويلة.

لم يكن ذلك يضايقني؛ أُفضِّلُ أن يُطاردَ سارتر أحاسيس أولغا بدل أن يُعاودَه الهذيان العصبي. شأن آخر يُقلقني. في سعيِه المحموم للوصول إلى قلبها، نسب سارتر لأولغا قيمة لا متناهية؛ فجأة، منعتُ من الاستخفاف بآرائه، ذوقه وكلّ ما تحتقِرُه؛ هكذا، عرّف نظام قِيَمٍ وهذا النّظام يعارض نظامي الخاص.

ما انفكّ سارتر يتراجعُ عن هذا الطّعن. في برلين، انشغل بماري جيرار في جزء كبير لأنّها لا تولي اهتماماً لأيّ شيء، لا تريد شيئاً، لا تُصدّق شيئاً تقريباً، ومُؤكّد أنّها لا تُؤمن بسُمُوّ الأدب والفنّ. من المُستحيل أن لا يكون الشكّ قد ساوَرَه، ولا أن يكون عزمُه قد حادَ عن الكتابة؛ لا شيء، إذاً، يمنعُه من إضاعة وقته، أن ينساق وراء شغفِه، أن يقول ويُفكّر في أشياء لا قيمة لها: لا خطر يُهدّده. بل إنّه يجد متعة خالصة في اللعب بنار لن تُحرقه: هكذا فقط يشعر أنّه حُرٌّ أمام مشاريعه وأهدافه؛ كان يفرُّ من عقليّة الجدّية التي كان يمقتها جدّاً.

يستغرقُني الكتاب الذي كنتُ أشتغل عليه آنذاك؛ لكن خلال السّنَتَيْن الماضيَتَيْن، كتبت وفاءً لماضيَّ، ولأنّ سارتر كان يحثّني عليها. أعرف أنّ غريمتي لن تتزعزع فقد حرصتُ على إخضاع نفسي لتعليمات صارمة. رفضتُ، إذاً، الفوضى التي كانت ستُدخِلُها أولغا على حياتي لو أنّي منحتُها وزناً مبالغاً فيه. عمدتُ إلى تقليمها لتعود إلى الحجم الذي ما فتئت تُمثّلُه بالنّسبة إليَّ؛ أحبُّها من كلِّ قلبي، أحترمها، إنّها تسحَرُني؛ لكنّها لا تملك الحقيقة؛ لم أكن لأتركَ لها هذا الحيّز السيادي الذي أشغلُهُ، في منتصَفِ كلِّ شيء. مع ذلك استسلمتُ رويداً.

كان من الضّروري بالنّسبة إليَّ أن أضبط إيقاع سارتر كي أرى أولغا بعيون غير عَيْنَيْه.

يبتسم أصدقاؤنا أو يغضبون، متعجّبين من الغلبة التي حظيَتْ بها طفلة. فسّر الأمر في البداية مُعدّداً خِصال أولغا. في حدود استلهامي شخصيّتها كي أنسبها إلى غزاڤيير Xavière في رواية *الضّيفة*، كنتُ أُشوّهُها آليّاً. لم يكن الصّراعُ بين البطَلَتَيْن في كتابي قادراً على أن يصل إلى ذروة الحِدَّة لو لم أنسب لغزاڤيير ظاهراً جذّاباً وأنانية ماكرة لا تُقهَر؛ كان لابُدَّ ألّا تُمثّل أحاسيسها سوى انعكاس مُضلِّل كي تجد فرنسواز نفسها فريسة الحقد والموت. طبعاً كان لأولغا نزواتها ومزاجها ولينها: لكنّها على العكس، لا تُمثّل سوى حقيقة سطحيّة. كرمُها (بالمعنى الديكارتي الذي نُضفيه على المُصطَلَح) كان يُلاحَظُ من الوهلة الأولى؛ وثمّة بداهة – على المُستَقبَل أن يُؤكّدها – كانت تضمن لنا العمق والحزم والولاء للقلب. كانت قريبة منّا جدّاً بسبب ازدرائها

للتّفاخُر الاجتماعي وحُلمِها المُطلَق. لم تكن لتبدُوَ لنا جذّابة لو أنّ خصالها كانت خلاف ما هي عليه أو أنّها لم تستجب لتطلُّبِنا الواعي؛ إنّه توافق بديهي بالنّسبة إلينا؛ لم نكن نلاحظ سوى ما يُدهشُنا؛ لكنّها قاعدة علاقتنا بأولغا. وأنا أستدعي غزاڤيير لم أكن أمسكُ من أولغا - مع القليل من القتامة - سوى الأسطورة التي ألِفناها عنها؛ لكنّ شخصيّتها لم تكن لتُغريَنا، ولم تكن لتُشكّل أسطورة، إن لم تكن ثريّة أكثر منها.

هنا يكمنُ الانحراف الذي ضلّل مُحيطَنا؛ بدل أن نتمادى في علاقتنا بأولغا، ألصقنا بها خرافة. يجدر بنا أن نعزُوَ هذا الزّوغان للاشمئزاز من سنّ الكبار؛ وعوض أن يتحمّل سارتر ذلك، أُصيب بنوبة عُصاب، وقلتُ بدموع تجري على الخدّ إنّ التقدُّمَ في السنّ هو التردّي. كنتُ أستمدّ قيمتي لدى أولغا يوماً بيوم من نُضجي. هذا لا يمنعُ أنّنا نتمتّعُ بصخب الشّباب، ثورته، حرّيته وتعنّتِه. كانت أولغا تُجسّد الشّباب المتوهّجَ بتهوّرها وتطرُّفها. لم تكن متمرّدة في كلامها فحسب بل وفي سلوكها ضدّ المتّفق عليه، المؤسّسات، التّعليمات، الرّوتين والحدود؛ كانت تكبت الجوع والنّعاس، وتسخرُ من العقل: كانت تدّعي هروبها من هذا الشّرط الإنساني الذي لا نُقبل عليه دون ارتكاب حماقات مثيرة للخجَل. زوّدناها بالقيم والرّموز. أصبحت رامبو، أنتيغون، الأطفال المرعبين، ملاكاً أسودَ يحاكمنا من فوق سماء زُمُرُّديّة. لم تفعل شيئاً كي تُحدِثَ هذا الفرق؛ بالعكس: كانت متضايقة، لأنّها تكره الشخصيّة الرائعة التي تجعلُها تستحقّ مكانتها بيننا. لكنّها كانت عاجزة عن منعها من ابتلاعها.

أُعجِبْنا باستسلامها للخطّة دون احتراز: مع ذلك كان همّنا الأوّل هو أن نبني لها ولنا مُستقبلاً: بدل أن نكون زوجاً سنكون ثلاثة. فكّرنا أنّ العلاقات الإنسانيّة منفتحة على الابتكار، حتّى إنّه ما من اختيار مُمَيَّز سلَفاً، لا شيء مُستحيل: بدا لنا هذا الحلُّ مفروضاً. حلُمنا به من قبل. خلال الفترة التي كان فيها سارتر تحت الخدمة العسكريّة، التقينا ذات ليلة بمونبارناس بفتاة صغيرة، جذّابة، نصف ثملة وتائهة قليلاً. دعوناها لاحتساء كأس، استمعنا إلى شكواها؛ أحسسنا أنّنا شخنا وتعقّلنا كثيراً. حين افترقنا، تسلينا بفكرة تبنّيها. حاليّاً ونحنُ ناضجان تماماً، مُتعقّلَان كما ينبغي، بدا لنا مُلائماً وداعياً للفخر أن

نُكرّسَ أنفسنا من أجل شابّة تعرف كيف تستغلُّ حاجتنا للعناية بأحد ما. طلبتْ أولغا أن نغيثها لأنّها لا تعرف كيف تعيش؛ من جهة أخرى كانت تنعش هذا العالم الذي وجدناه بالياً. وضعنا نظام انفراد اثنَيْن واللّقاء الكامل، فقد لاح لنا أنّ ذلك سيمنحُ كلاّ منّا قدراً من الرّضا.

فعلاً، لقد طهّر حماسُ أولغا حياتها من الغُبار؛ راحت رووان تومضُ فتحتْ لنا بابها للاحتفال؛ قدّمتْ لنا شاي الياسمين، سندويشات من ابتكارها؛ روت لنا طفولتها وحدّثتنا عن مناظر اليونان في الصّيف؛ حدّثناها عن أسفارنا؛ غنّى سارتر أغاني تُلائم طبقة صوته؛ اخترعنا بعض المشاهد الكوميديّة: استعدنا العشرين. منذ تفتّح الرّبيع، كنّا نذهب إلى سانت-أدريان كلّ أحد على سفوح مرتفعات الطّبشور التي تحفّ بالسّين؛ كنّا نرقص هناك تحت عرائش تُضيئها أكاليل الأنوار. اكتشفنا حانة الطّيران، على ضفاف ميدان طيران تُحيطُ بالغابة. كان هناك مرقص وزوايا حيثُ يمكننا احتساء كؤوس ونحنُ نتناولُ العشاء. يُقفر المكان بعد الظّهر ويحدث أن نقضي ساعات بمُفردنا؛ كنتُ أعملُ في ركن فيما كان سارتر وأولغا يتحدّثان؛ ثمّ ألتحق بهما. نادراً ما كانت طائرة تُحلّق في الجوار أو تهبط. كان سارتر يقظاً وقد عوّدني أن أحوّل الأشياء إلى كلمات؛ شجّعتْ أولغا المُندَهِشَة من كلّ شيء، هذا الهَوَس. كنتُ من حين إلى آخر أتضايق من ذلك. عندما كنّا نتبادلُ التعاليق، حول مذاق نبيذ ما، قسمات وجه، فإنّي أتّهم الجميع وأنا من بينهم بـ «شرح النّصوص». لكنّنا كنّا مُضطرّين تماماً لاستغلال مواردنا الشّحيحة.

رافقنا أولغا إلى باريس خلال عيد الفصح. أخذتنا لرؤية *الحداثة*؛ حضرنا حصَّتَيْن متتاليَتَيْن، أردنا معرفة الصّور وحفظها. استخدم شارلو الصّوتَ للمرّة الأولى، لكن ليس على نحوٍ واقِعِيّ؛ بل بالعكس لقد استخدمهُ لينتزع عن بعض الشّخصيّات صِفَتَها الإنسانيّة: كانت الأوامر الإداريّة تُذاعُ في مُضخّم صوت، جهاز يُصدر ثرثرة توحي بالجشع.

حفظنا الأغنية التي أنشدها على لحن *أبحثُ عن تيتين*

La spinach or la tacho

Cigaretto torlo totto

E rusho spagaletta

Je le tu le tu le tava

كنّا أحياناً ندندن بها، أمّا ماركو فكان يُغنّيها بصوتٍ مُرتفع. بصق الدَّمَ ذات مرّة ولكيْ يُقنعه سارتر أنّه غيرُ محكوم بالموت في العشرين كان عليه أن يرافقه إلى طبيب. كان في حاجة إلى الشّعور بالأمان الذي يمنحه الكبار رغم أنّهم يوحون إليه - ما عدا سارتر ربّما - بالاندهاش المُشفق. استمتعنا خلال تلك السّنوات بابتكار شخصيّة نعود إليها في كلّ مرّة: الجمجمة الصّغيرة. كنّا نكره الحياة الداخليّة، كما سبقَ أن قلتُ؛ لم يكن الجمجمة الصّغيرة يملك منها قشّة؛ كان خارج المواقف والأشياء دائماً. متواضع، هادئ وعنيد، لم يكن يُزعج نفسه بالتّفكير لكنّه دائماً كان يقول ويفعل ما يتناسب مع القول والفعل. جاك بوست الذي كنّا نُسمّيه «بوست الصّغير» مقارنة بأخيه پيير - بدا لنا تجسيداً للجمجمة الصّغيرة (في كتاب سنّ العقل، رسم سارتر لبوريس بورتريه مُستوحى من «بوست الصّغير» على الأقلّ كما بدا لنا في تلك الفترة). كان متعلّقاً بالأشياء هو الآخر: الكؤوس التي يشرب فيها، الحكاية التي تُروى له. لم يكن له أيّ طموح، بل فائض من الرّغبات المكبوتة، وكان يستمتع بإيقاظها باعتدال؛ كان يتصرّف في كلِّ الظّروف كما يجب أن يتصرّف المرء: أي بطبيعة الحال كما كنّا سنفعل نحنُ أيضاً. لم يكن ذكاؤه خلاّقاً، لأنّه يخشى على الدّوام التفَوُّهَ بـ «حماقات» حتّى إنّه كان يتعمّد إخفاء الأفكار التي تخطُرُ له؛ لكنّها سريعة ومُضحكة. تنسحب هذه الطّرافة على أقواله وأفعاله أيضاً؛ لقد نشأت من اصطدام التّربية المُحافظة التي تلقاها وعفويّة النّظرة: كان يفرض على نفسه تعليمات ويكبحها في حركة واحدة. أذكر دخوله إلى مقهى بهاڤر حيثُ كنّا في انتظاره أنا وسارتر وماركو؛ تقدّم بخُطى متردّدة، سريعة ومتراجعة في آن، ووجه مُشرق تحت السّيطرة بعناية: هذا المزيج من السّرور التلقائي والمُحافظة يجعلنا نبتسم. رمقنا بريبة: «ماذا دهاكم حتّى تنظروا إليّ بطرف العين؟» هنا انفجر ماركو ضاحكاً وتبعناه. لقد غزا بوست الجميع في رووان. كان ماركو يأكله بعينَيْه. تجوّلت معه أولغا ليلة كاملة؛ شربا قارورة سنزانو حتّى الفجر ووجدا نفسَيْهما نائمَيْن في ساقية. أمّا أنا فقد كنتُ أُكِنُّ له

الودّ حين كان يدفع الباب في مقهى ميتروپول بسحنة خجولة وجسورة في آن. قضّيا ساعات في مقهى الدوم وڤايكينغ شرب وراقب النّاس. كنّا نتناول العشاء في مطعم إسباني حيثُ يمكن الاستماع إلى عازفي قيثارة جيِّدَيْن ومُغنية في عمر مُتقدّم ذات صوت شجِيّ؛ كانت ترقص أيضاً، ويتحوّل جسدها المُترهّل إلى كتلة من الخفّة. كانت تغيب من حين إلى آخر وعندما تظهر كان هناك شيء ما كالانتصار يعلو مُحيّاها: كانت تتعاطى الهيروين، قالت لنا كامي التي كانت بصفتها ابنة صيدلي تزعم معرفتها بالمُخدّرات. خلال أيّام كان على أولغا الرّحيل إلى بوزڤيل، دعاها والداها. كان يأسها واضحاً على ملامِحِها ولأنّ الوقت يتداعى في كلّ دقيقة تمرّ بها، لم تتخيّل قط وهي تفارقنا أنّها لن تتمكّن من رؤيتنا مُجدّداً. لبثنا ساعَتَيْن كالمُحتضرين في مقهى الدوم صامِتَيْن. حين عادت إلى رووان، لم تتوقّع أن تجد نفسها هناك، أن تلتقي بنا، أن تسقط حقيبتها من يدها في فناء المحطّة. انتهيت وسارتر من قضاء العطلة برحلة قصيرة إلى بلجيكا؛ بروكسيل؛ براغ، أونڤيي، مالين: حجارة ميّتة، ميناء كبير صاخب والرّسوم الأجمل في العالم.

انضمّ أصدقاء لرؤيتنا، خلال الثلاثي الأخير. أمضت كامي يومَيْن في رووان، وبما أنّها كانت تحب المُدن الصّغيرة فقد أطلعناها على كلّ ما يمكن رؤيته. أُعجِبتُ بالبط في نزل التاج، احتست البورتو في حانة السنترا؛ وذكّرها الروايال مساءً بمراقص تولوز المزرية التي عرفتها شابّة؛ كساء نباتي يُغطّي الجدران؛ على الجدران أكاليل ورقيّة؛ موظّفون وطلبة صغار يرقصون وسط أضواء برتقاليّة. طلبتْ كامي الشمبانيا، أخذت أولغا إلى الملهى؛ عندما عزفت الأوركسترا موسيقى إسبانيّة للأزواج، عقدتْ ذراعَيْها، ألقت برأسها إلى الخلف. ضربت الأرض بكعبها، وقامت بحركة استعراضيّة مُذهلة، صلصلتْ مُجوهراتها وحلّقَتْ ضفائرها، كان الجميع يُشاهدها. لدى عودتها إلى الـ پتي-موتون، ملأ صوتها الشادي الشوارع النائمة: طبعاً كنتُ وسارتر أنتمي إلى عرق هابيل؛ لكنّ أولغا كانت تحمل علامة شيطانيّة.

السّنة الماضية، جمعت سارتر بجاك بوست صداقة وكان الأخير يستعدّ لإجازة الفلسفة. جاء به إلى رووان وعاد بوست مرّات عديدة. كان عمره

تسع عشرة سنة، ابتسامة مُشرقة، وهيئة أمير. لأنّه يعتقد ككلّ البروتستانت المُخلصين أنّ كلّ إنسان ملك على الأرض. كان ديمقراطياً في طبعه وبقناعة لذا لم يكن يشعر أنّه أسمى من أحد: لكنّه لم يكن يتقبّل بسهولة أن يعيش المرء تحت جلد إنسان آخر وخصوصاً أن يُصبح عمراً آخر؛ على طريقته، كان يُجسّد الشّباب في نظرنا. كان لديه كبرياء الشّباب، المُتغطرس تقريباً، الذي كان يوحي أيضاً بنرجسيّة رقيقة: خرج سارتر مع أولغا فترة ما بعد الظّهيرة وتنزّهت مع بوست. روى لي كمّاً من الرّوايات المُسلّية جدّاً حول طريقة سارتر في تقديم الدّروس، نفوره من الانضباط، غضبه المُباغت، الذي لم يكن سخطَ أستاذٍ بل سخطَ رجلٍ أرهقته فجأة غرابة الحياة؛ هكذا توقّف يوماً في منتصف الشّرح، جال ببصره بين طُلّابه بنظرة مُتعَبَة: «ما من بريق ذكاء على كلّ هذه الوجوه!» كان انفجارُه يُرعب نصف الفصل ويجعل بوست يضحك بهستيريا يشقُّ عليه السيطرة عليها.

أقامت أختي في الـﭙـتي-موتون مُطوَّلا؛ كانت تحَضِّرُ لمعرض سيلتئم في رواق بون-جين. شرعت في حصص لرسم بورتريه أولغا التي تضايقت من الآلام التي كانت تسبّبها لها. جاءت جيجي في نفس الفترة. تكدّسنا في غرفة أولغا واخترعنا ألعاباً مُتنوّعة. رقصت جيجي ببطنها وغنّى ماركو. أشعل بوست أعواد الثّقاب بأصابع قدميْه ولبس سارتر مثل امرأة. لاءمه زيُّ المُخَنَّثين بشكل لافت. كان عليه خلال إقامته بالنّرويج أن يرتدي في حفلة تنكّريّة فستاناً أسودَ من القطيفة كان على ملك أمّه وباروكة شعر أشقر ذات جدائل طويلة: مِثليَّة جنسيّة أمريكيّة راقبته كامل اللّيل دون كلل. في اليوم الموالي أشاحت عنه بسحنة انزعاج.

هزّت رووان إذاً، فضيحة أسعدتني وأختي بشكل خاص. في واحدة من عمليّات «توزيع المُكافآت» المُتعلّقة بدروس «الرّغبة Désir، قبّلنا أحجار القدّيس دوبوا دي لافيلرابيل الذي كان يرأسُ الاحتفاليّة. اتّخذ الفاتيكان ضدّه عقوبات قاسية إثر ضلوعه في اختلاس الأموال وسقوطه في الرّذيلة. فقدت فتاة شابّة حياتَها. فُصِلَت مُتديّنات. كان هناك همس كبير في الزّوايا المُظلمة للكاتدرائيّة؛ أصرَّ مُدافعون على نقل التّهمة إلى مُساعده الأقرب إليه.

لكنَّ أحداً لم ينكر وقوع الحادثة؛ لقد سلّطوا أضواء غير مُتوقَّعَة على الشّوارع الهادئة المحفوفة بدير الطّوائف التي تُحيطُ بالأسقفيّة.

صرفت أختي النّظر عن وظيفة السكرتيرة التي لم تكن تترك لها الوقت للرّسم؛ إنّها تعمل حاليّاً من الصّباح حتّى المساء. استقرّت في ورشة جديدة شارع سانتويْ قريباً من مصبغة الجلد؛ كانت الورشة عبارة عن غرفة كبيرة، مُزرِيَة لكن مُريحة حيثُ الرّيحُ للأسف كانت تحمل إليها دفعات من رائحة الجلد المدبوغ والجيفة؛ نقلت إليها مطبخاً صغيراً حيثُ كانت تُعِدُّ وجباتها: كانت تعيش هناك تقريباً، بتقشّف شديد لأنّها لم تكن تملك فلساً واحداً بسبب غلاء ثمن الألوان. التأم معرضها أوّل شهر جوان؛ جاء أناسٌ كثيرون للافتتاح وأثنى النّقدُ على أعمالها بسخاء. أظهرت رسومها وبورتريهاتها موهبة أكيدة. غضبتُ من ماركو الذي أخضعها إلى ألاعيبه. أقام معها في رووان واحدة من صداقاته المُخادعة التي كان بارعاً في أدائها؛ ثمَّ دعاها مرّتَيْن أو ثلاثاً إلى تناول الغداء في مطاعم باريسيّة نصف باذخة؛ أغرقها في خدماته وفتح لها روحَه وحَرَسَها بعين مُخمَليَّة وعبّر لها بصوت دافئ عن أسفه لأنّي وسارتر لم نكن نوليها القيمة التي تستحقّها. كان وجهه إذّاكَ يقطُر صدقاً: أحسّت بالإشفاق على نفسها.

لحُسن الحظّ أنّ ما يربط بيننا متين للغاية حتّى لا تستوضحَ منّي الأمر. شرحتُ لها من هو ماركو تحديداً، وضحكت كثيراً لأنّها سقطت في أحابيله بسهولة. لقد أمكنه بنجاح أن يحشُرَ نفسَه في علاقتنا بپانييز. كان پانييز مُستاءً من افتتاننا المُفرَط بأولغا. وقعنا في خطأ إخبار أولغا بتقلّبه ما جعلها تتجنّبه. ذات مساء خرجت مع ماركو وهاجم الأخير پانييز بلا مُبالاة؛ عضّت الطُّعم وتكلّمت؛ أخبرته بنيّة زواج پانييز من ابنة عمّه. لم يرغب پانييز في أن يدري ماركو. تعجّل ماركو في التحدّث معه بهذا الشّأن وحرص على أن يفهم پانييز مدى كره أولغا له ما دامت قد أفشت سِرَّه؛ عاتبها وعاتبنا طبعاً. من جِهَتنا كان سوء ظنّه بأولغا أمراً مُزعجاً.

جاء لرووان مع تيريز وأمضيا اللّيلة في فندق لو-پتي-موتون. قال لنا صباحاً كم تأثّر وهو يسمع في الغرفة المُجاورة حواراً بين رجل وامرأة: لم

يتأكّد من تمييز الكلام لكن بين تناوب الصّوت الخشن والصّوت الرّقيق استطاع أن يُصغي للشّدو الأزلي للأزواج. اعترضنا بقُوّة: لقد شغل الغرفة المجاورة للعريف الذي يُعنّفُ زوجته، لا يهمّ، قال؛ لم يكن للزّوجَيْن حظوظ أقلّ لإبداء معانٍ رمزيّة وكونيّة عظيمة. لا جديد في هذا النّوع من الخلاف بيننا وبين بانييز؛ لكنّنا فقدنا انحيازنا القديم له وقرّرنا أنّ مثاليّته الإنسانيّة قد حفرت بيننا خندقاً عميقاً. لم تنشب بيننا وبين ماركو خصومات غاضبة، كان يضحك أمام لومنا ويُسلّينا ويسلبنا كلَّ أسلحتنا. كانت شيطانيّته تقودنا إلى دعابات سمجة، لا أفهم اليوم ما الذي كنّا نجده ظريفاً فيها. أمسك بين قبضتيْه الشيطانيّتين على أحد زملائه واسمُه پول غوت: كان يؤاخذه على إذعانه للسُّلطات وإطنابه في المزاعم الأدبيّة. كان غوت قد ألّف كتاباً تفاخر بمآثره وأراد ماركو كسرَ أنفه. قرّر سارتر الدّخول في اللّعبة في قسم كبير ليُسلِّيَ أولغا. أظهرَ ماركو لغوت رغبته في معرفة رأي كاتب قادمٍ وادّعى معرفته بپيير بوست: كان الأخير فعلاً سيمُرُّ برووان في تلك الأيّام؛ عرض ماركو أن يُقدّم له المخطوط ليُلقِيَ عليه نظرة وحدّد مع المُزَيَّفِ موعداً. وافق غوت. يوم الموعد، جلستُ أوّلاً في مقهى بمحاذاة فندق لو-پتي-موتون حيثُ كان يُفتَرَضُ أن يجري اللّقاء. جاء ماركو بعد قليل يصحبُ رجلاً قصيراً ومُستديراً كضفدع، حدّثني فوراً عن أعماله. بدا له غير عادل كما فسّر لي أن ينجح رفاقه القدامى بمعهد برازيلاش، مثلاً، ولا ينال هو إلّا مستقبلاً مُظلماً. أخرج من جيبه تذاكر المترو وقصاصات ورقيّة: كانت مصدر إلهامه، مادّة تضمنُ له التّواصُل مع وقائع الحياة. يروي كتابه على نحو ملحَميّ قصّة إنسان - الكاتب نفسه والإنسان عامّة - من النّشأة حتّى الموت؛ لم يكمل سوى الفصل الأوّل. أثناء المُحاضرة دخلت أولغا المقهى وجلست إلى طاولة متظاهرة بعدم معرفتي؛ كانت تؤدّي دور مومس؛ ظهر سارتر بعد دقائق متوشّحاً شالاً طويلاً ويحمل تحت إبطه كرّاساً سميكاً يُشبه دفاتر التّسجيل. قدّمهُ ماركو لغوت تحت اسم پيير بوست. نشر سارتر المخطوط أمامه وشرع يُجزّئ الرّواية الرماديّة الأكثر سوءاً من سماء رووان، والمشحونة بالاستعارات السّخيفة؛ قال إنّ عبارة واحدة أعجبته: «فراولة دم»؛ لكنّها توجد في كلّ مؤلّفات السيكولوجيا؛ فيما بقي فإنّ پيير بوست المزعوم قد عاتب غوت على كتابة شيء من قبيل: «قاطرة شغفي

تسير فوق سكّة لا مبالاتك.» بعد عمليّة الإعدام المُستَحَقّة هذه، غادر تاركاً غوت مُحطّماً وماركو سعيداً جدّاً. كان للمُحادثة صدى. كتب غوت لبوست الحقيقيّ. فسّر له الأخير سوء التّفاهُم. وعبّر لأخيه جاك عن انزعاجه من انتحال اسمه. بدا لنا أنّ المزحة تعكس جانباً جادّاً. كنّا سنستاء بدورنا لو أنّ أحداً ما استغلَّ أسماءنا على نحو مماثل. كنّا سنعتبر أنّه اغتصب هويّاتنا. مع ذلك لم أندم على هذه الدّعابة: الضحيّة بخير.

كنّا دائماً مُنتَبِهَيْن إزاء الأشخاص الذين تتقاطعُ معهم دروبنا؛ كنّا نُحدّث عنهم أولغا، بوست وماركو وكانوا يُتابعون اجترارنا للأحداث دون ملل. واقعة حصلت في فصل سارتر صدمتني كثيراً: أحد تلاميذه وكان ذكيّاً للغاية لكن ابناً غير شرعي، ساخطاً وفاشيّاً، قتل نفسه بالقفز من السّطح. شرب قهوة بالحليب عند الثامنة صباحاً، كتب رسالَتَيْن، إحداهما لجدّته والأخرى لشابّة؛ دخل إلى الحمّام وقطع شرايين عُنُقِه بموسى حلاقة؛ لم يأتِ الموت. صعد إذاً إلى السطّح وصرخ في المارّة: «احذروا، ابتعدوا!» وقفز في الفراغ. حَلُمتُ طويلاً ليس من دون قلق بكوب الحليب، همّ الآخر الذي ظلَّ مُحافظاً عليه وهو على عتبة الموت. كان بالقرب من رووان مأوى لمرضى نفسيّين كان سارتر قد زاره بدافع فضول؛ تحصّل على موافقة بمرافقتي إيّاه بصحبة طالبَيْن، أولغا وبوست. كان المُدير في انتظارنا عند المدخل الخارجي وسط الرّيف؛ قطعنا جناناً ومراعي، حيثُ عدد من الرّجال يعملون: جميعُهم مرضى، إنّهم مسالمون، قال المُدير. كان غريباً أن أرى مجانين يشتغلون بكامل الحُرّية مُجهّزين بمعاول ورفوش ومجارف. صحبنا المُدير إلى غاية المبنى الرّئيس وعهد بنا إلى طبيب شاب. دخلنا قاعة أولى: ممرّ ضيق يفصل صفَّيْن من الأسرّة؛ في المكان تفوح رائحة رتيبة ومُقرفة، ليست إنسانيّة تماماً وليست حيوانيّة أيضاً. رجالٌ يرتدون مآزر زرقاء متحلّقون في آخر الرّواق؛ أحدهم فتح سحّاب سرواله وحاول الآخرون إخفاءه وهم يُصغون إليه؛ ابتسم مُعتَذِراً. يبست حنجرتي؛ بدا سارتر، أولغا وبوست مُنزعجين أيضاً: أيّ جولة هذه؟

وحدهُ الطّبيب كان مُبتَسِماً بملامحَ مُرتخية. كان يتكلّمُ بصوت مُرتاح. «هؤلاء، علينا إطعامهم بأنفسنا.» قال وهو يُشير إلى جَسَدَيْن مُمَدَّدَيْن على

الأسرّة. مال وهمس ببعض الكلمات: كان الرّجل مفتوح العَيْنَيْن ولا شيء في قسماته يتحرّك. مررنا إلى رواق آخر فآخر: نفسُ الرّائحة والرّجال المُسمّرون بزيّ أزرق. جاء ناحية الدّكتور شخصٌ أسمرُ طويل القامة: «الرّاديو معتوه!» صاح؛ واستمر في التذمّر صارخاً: لم تكن الحياة سهلة دون راديو في السّجن الكبير، كيفَ يُقتَلُ الوقت؟ أجاب الدّكتور بحركة غامضة: الرّاديو، إنّه ليس جناحَه. «صحيح، قلت لنفسي، حتّى هنا يسيل الوقت ولابدّ من وسيلة لقتله.» إنّهم يلبثون هناك منذ الصّباح وحتّى المساء دون فعل أيِّ شيء. دون أن تكون لهم زاوية خاصّة ما عدا السّرير. كنتُ أشعر أنّ الحزن يتفاقم كلّما تقدّمتُ في هذه التّجربة أكثر.

في إحدى الغرف كان هناك طاولات ورجال يكتبون أشياء؛ كانوا يملؤون كرّاسات بكلمات كُتبت بخطّ جميل، تجمع بينها لعبة السّجع والجناس: هؤلاء لا يضجرون أبداً. كانت القاعة المُجاورة صاخبة وسمعتُ بها أصواتاً: مرضى البارانويا والذّهان. أخذنا أحدُهم في ركن وتضرّع لنا كي نُساعدَه: «لقد ركّزوا هاتفاً في معدتي.» إنّهم «يُسكرونه» دون هوادة، كان يتكلّم بشكل طبيعيّ لكن مُنهَكاً. غمز جارُه بعيْنَيْه وأمسك جبهته. «إنّه مخبول!»، قال بصوت خفيض وراح يسرد علينا حكايته؛ علامة على فخذه الأيمن تُثبتُ أنّه الابن الشّرعي لإمبراطور بحار الجنوب، آخر وصف لنا آلة ابتكرها لكنّ جماعة افتكّوا منه براءة الاختراع. رأيتُ حالات مُشابهة في سنات–آن؛ لكن هناك كانت مُجرَّد حالات؛ هنا، الحالات أشخاصٌ حقيقيّون من لحم ودم يعيشون حياتهم اليوميّة متطلّعين إلى المُستقبل أمامهم: هذا هو الجحيم؛ فيما كان هؤلاء الرّجال يُحدّثوننا بأصوات وملامح عاديّة وشغف مُتَّقِد، لمحتُ وراء قضبان النّوافذ وجوهاً بلهاء مُكَشِّرَة: شياطين سقطت في آخر مرحلة من الحُمق. حتماً من هنا حتّى عشرة أعوام، عشرين عاماً، سيسقُطُ هؤلاء الواهمون في الظّلام هم أيضاً وستنطفئ نظراتهم وتموت ذكرياتهم. «هل ثمّة بينهم من شُفيَ؟» سألتُ الدّكتور. هزّ كتفيْه. مائتان وستّون مريضاً ذكراً وهو وحده للعناية بهم، إنّه يُعالج الزّكام ونوبات الكبد؛ أمّا الاضطرابات النّفسيّة فلا تبقى دقيقة واحدة لتشخيصها. في الواقع هو لا يعرف جميع المرضى. يعرف أنّ ذلك مُؤسف. فهمتُ برعب أنّ الضحيّة لم يكن لها حظوظ في الحريّة إذا طال الاحتجاز؛

وبين هؤلاء الرّجال من هم قادرون على التماثُل للشّفاء: ما من تدابير تُتَّخَذُ من أجل إنقاذهم. عندما يدخل المرء هنا، فإنّه يتخلّى عن كلِّ أمل في الخروج.

فتح الطّبيب باباً؛ وسط حجرة ذات جدران خزفيّة، رجل مربوط إلى سرير حديديّ يصرخ ويُحاول فكّ قيدِه؛ في حجرة مُشابهة ينامُ آخر. إنّهم المجانين الغاضبون. ثمّ زرنا جناح المشلولين عموماً، وهم الوحيدون الذين كانوا يتلقّون علاجاً منتظماً؛ كانوا باستمرار يُحقَنون بميكروب المالاريا حتّى يقف المرض عند مرحلة النّشوة؛ كانوا جميعاً يبتسمون ويُحرّكون أيدِيَهم في هدوء وسعادة. انتهت الزّيارة عند ساحة الشّياطين: هنا تُقيم الفضلات الإنسانيّة التي لمحتُها خلف القضبان؛ وجوهٌ مُسترخية، أفواهٌ يسيل منها اللعاب، هذا يقفز على ساق واحدة، الآخر يعبث بأصابعه وآخر يتأرجح إلى الأمام والخلف: إنّهم يُكرّرون حركات كان لها معنى يوماً ما. اليوم ما عادت ترمزُ إلى شيء. هل كانوا مثل بقيّة النّاس يوماً ما في طفولة بعيدة؟ كيف، لماذا جاؤوا إلى هنا وماذا نفعل نحنُ في هذه السّاحة؟ كان في وجودنا ما يُشبه الشّتيمة في نظرهم.

دعانا المُدير لتناول الغداء في بيته. كان يسكن ڤيلا، استقبلتنا فيها زوجَتُه، امرأة حكيمة، تلبس الأسود وذات وجه يدلُّ بتعجرف على أنّ أحداً من قبلُ لم «يُثمِل» عقلها أو قلبها. كانت الخادمة نزيلة بالمنفى؛ كانت تعاني نوبات، لكنّها كانت تُعلم سيّدتها دوماً، قبل يوم أو يومَيْن من حدوث ذلك؛ مريضة أخرى تُؤمّن الخدمة نيابة عنها في تلك الحالة. كان الحوارُ بيننا تعوزه الحميميّة، كنّا لا نزالُ تحت صدمة الفترة الصباحيّة المريعة التي قضيناها؛ وجدنا مشقّة في الإجابة على أسئلة الزّوجَيْن المُلِحَّة.

بعد القهوة أطلعنا المُدير على جناح النّزلاء الذين يدفعون الرّسوم. كان لكلِّ منهم غرفة؛ شبكة معدنيّة تحمي زجاج النّوافذ دون مِقبَض، ثقب في الباب يسمَحُ للحُرّاس بإلقاء نظرة شاملة على الغرفة. يجدر بالمُقيمين الإحساس بأنّهم مُلاحقون أكثر مما لو كانوا في قاعات عامّة. لم ننتهِ بعدُ من الزّيارة. صحبنا طبيب مُسنٌّ ذو شارِبَيْن إلى البناية المُخصّصة للنّساء، لم يقع توزيعُهنّ حسب الفئات مثل الرّجال؛ حمقاوات، تعيسات، مُصابات بالبارانويا، مهووسات، جنباً إلى جنب في فناء كبير مليء بالأسرّة والطّاولات

والكراسي حتّى إنّه يصعُبُ التنقّل بينها. لم يكنّ يلبسْن الزيَّ المُوَحَّد، عديد منهنّ كنّ يشبكن الزهور في شعورهنّ ويلففن حول أجسادِهنّ ملابس مُبَهرجة غريبة: تُسمَعُ جلبة حادّة، أغانٍ، مونولوچ، مرح. خُيِّلَ إليَّ أنّي أحضر مهزلة سخيفة، سيّئة الإخراج. مع ذلك فإنّ نساءً يرتدين ملابس خالية من الألوان الزّاهية يحكن الصّوف في صمت في إحدى الزّوايا. أرانا الطّبيب امرأة عجوزاً من بينهنّ حاولت إلقاء نفسها من النّافذة ليلة أمس: كانت محاولتها السّابعة للانتحار، وضع يده على كتفها «إذاً، عُدنا من جديد؟ هذا ليس جيّداً! الحياة ليست بهذا السّوء! عِديني أن تكوني عاقلة... - نعم دكتور»، قالت المرأة دون أن ترفع عينيْها. لم يكن ذلك الدّكتور يُعقّد الأمور، المجانين مجانين؛ إنّه لا يتخيّلُ إمكانيّة شفائهم أو أن يجدوا من يفهمهم. نساء مُسمَّرات إلى أسرّتهم في سترة القيد، كنّ يرمُقنه بيأس أو بحقد: تُنتزَعُ السّترات في حال وعدن بالبقاء متعقّلات، كان يقول لهنّ بصوت مُؤنّب. توقّفتُ مع أولغا أمام امرأة مُتقدّمة في العمر، جميلة جدّاً، كانت تحيكُ الصّوف جالسة على كرسيّ؛ دموع تسيل بهدوء على وجهها العاجي اللّون؛ سألناها لماذا تبكي: «أنا أبكي طوال الوقت! قالت مُشفقة. هذا يُحزنُ زوجي كثيراً، أطفالي أيضاً، أن يَرَوني أبكي طوال الوقت. لذلك جاؤوا بي إلى هنا!» انهمرت دموعها؛ بدا أنّها تتقبّل الأمر كحتميّة لا أحد يستطيعُ تغييرها. يعِشْنَ معاً منذ الصّباح وحتّى المساء جنباً إلى جنب، الباكيات اليائسات مع المُغنّيات بصوت مُزعج أو اللاتي يرقصن رافعات فساتينهنّ: كيف لم تكرهن بعضهن بعضاً؟ «إحداهنّ، قال لنا الطّبيب، فتكت إحداهنّ بجارتها خلال اللّيل بواسطة مقص.» عَصَرَ التقزّزُ قلوبنا وأحسسنا بالإنهاك وبنوع من الخجل عندما عدنا إلى العالم اليومي في شرفة مقهى ڤيكتور.

جرت الأمور كما خطّطنا. كانت أولغا تعرف أصدقاءنا وتشاطرنا تجاربنا؛ كنّا نُثري وجودها وكانت نظراتها تنعش الألوان من حولنا. كان الأرستقراطيّون الأذلّاء في المنفى يتناغمون مع فوضويّتنا المُعادية للأرستقراطيّة. معاً، كُنّا نبغض حشود يوم الأحد، النّساء والسادة المُهذّبين، الرّيف، العائلات،

الأطفال وكلَّ الإنسانيّات. كنّا نحبُّ الموسيقى الغريبة، أرصفة نهر السّين، البوارج، الكاباريهات المشبوهة السيّئة السّمعة، صحراء اللّيل. كنّا في عمق زاوية الحانة ننسج بالكلمات والابتسامات شرانق حريريّة تحمينا من رووان ومن العالم بأسره؛ مأخوذين بسحر الألق لدى التقاء عيوننا، كان كلٌّ منّا يشعر أنّه ساحر ومسحور. في تلك اللّحظات، بدا أنّ «الثلاثي» يُمثّل نجاحاً ساحقاً. إلّا أنّ شروخاً بدأت تُصدّعُ البناء الجميل.

كان البناءُ من إبداع سارتر؛ لا يُمكن القول إنّه هو من شيّدَه: لقد أوحى به بمُجرّد إعجابه بأولغا. أمّا أنا فحاولتُ كثيراً أن أبلغ الرّضا بيني وبين نفسي، لكنّي كنت على الدّوام قلقة. كنتُ مُتمسّكة بسارتر وأولغا بطرق مُختلفة بل بطُرُق لا مجال لمُقارنتها، لكن بقُوّة في كلتا الحالَتَيْن؛ لا قدرة لي على دمج مشاعري ناحية كلٍّ منهما. كنتُ أكنُّ لأولغا عاطفة وألفة عميقة، يوميّة لا تشوبها الدّهشة؛ حين قرّرتُ رؤيتها بعَيْنَيْ سارتر، خُيِّلَ إليَّ أنّي أغالط قلبي؛ كان حُضورها وأمزجتها تلامسُ وجداني كذي قبل بل لقد زاد إعجابي بها؛ لكنّ جملة النّقاط التي تُحدّد ردّة فعلي إزاءها كانت تجعلني على نحو ما أتحاشاها. حتّى خلال لقاءاتنا المُنفردة لم أكن أشعر بحرّية التصرّف بما أنّي أمنع عن نفسي كلَّ تقاعُس أو لامبالاة؛ لم أعد أتعرّف على الرّفيق الهادئ والمُريح الذي أحببتُه فيها. كنّا عندما نخرجُ ثلاثتنا فإنّ أولغا القديمة تختفي لأنّ سارتر كان يُطالبُ بأولغا أخرى؛ كانت أحياناً تستجيب فتُظهرُ أنوثة وجمالاً صارِخَيْن فتبدو غير طبيعيّة في نظري؛ كانت أحياناً تتضايق فتبدو عابسة بل ولاذعة؛ لكن في كلّ الحالات كان لابدّ من أن تُجيد دورَها. لم يكن سارتر الشّخص نفسه ونحنُ مُنفردَان ثمَّ وهو يعتني بأولغا. حتّى وجدتُ نفسي مُنزعجة بشكل مُضاعَف أثناء لقاءاتنا المشحونة جدّاً.

كان لديها في الغالب جاذبيّة تسحرني، لكن حين أفكّر في الثّلاثي الذي نُشكّلُه كمؤسّسة طويلة النّفس على امتداد سنوات فإنّي أفزع. لم أكن أرغب في أن تكون أولغا ثالثتنا خلال الرّحلات التي أرغب في القيام بها مع سارتر قادم الأيّام. من جهة أخرى سيكون عليَّ التّدريس في باريس السنة المُقبلة وأخذ أولغا معي: لكن لو قلتُ إنّ سعادتها تكمن مع سارتر أكثر مما هي

مُرتبطة بي فإنّ ذلك يُفسدُ سعادتي. لا أشكّ في أنّه سيحلّ محلّي يوماً ما في حياة أولغا؛ لم تكن القضيّة افتكاكها منه بما أنّي لم أكن أطيق خلافاً بيني وبينه. ثمّ إنّه يستحقّ أن تُفضّله عليَّ لإصراره على المُطالبة بها، كان مُثابراً أكثر منّي في ذلك؛ يجب الاعتراف؛ لا يحقّ لي أن أشكوَ شيئاً، بما أنّه كان يمنح أولغا الوقت والعناية اللذين لم أمنحهما لها: لكنّ هذا المنطق لم يكبح غيظي. دون أن يتشكّل بوضوح، كنتُ متحاملة على سارتر لأنّه خلق هذا الوضع، وعلى أولغا لأنّها تأقلمت معه عن طواعيّة؛

كانت ضغينة مُزدوجة ومُشوّشة، ولأنّها كانت مُخجلة فإنّي لم أبُح بها لنفسي. ساهمتُ بالكلام والتصرّفات، وباعتزاز، في نجاح مسيرة الثّلاثي. مع ذلك لم أكن مسرورة لا بنفسي ولا بالآخرين وكانت تُساورني الشّكوك بشأن المُستقبل.

كانت أولغا أيضاً في ورطة. في البداية جرت حكايتها مع سارتر دون عراقيل تُذكَر؛ كان أمره يعنيها، يُعجبُها ويُسلّيها ويشدّ انتباهها؛ ثمّ إنّ المُختلف كان دائماً يجذبها: لقد وجدت شاعريّة حادّة خلال النّزهات التي حاربا فيها جراد البحر معاً. عبر تلك الأحلام الغامضة، من خلال *أسى Mélancholia* الذي قرأتْه بشغف، بدا لها سارتر شخصيّة خياليّة قادرة على نقلها بعيداً عن سأم الأرض. «أمضيتُ وقتاً رائعاً معك»، كانت تقول له دائماً. حرص في البداية على ألّا يُحاصرها بالأسئلة، ألّا يبدو مُتطلّباً، لكن لم يعد الآن يكفيه انتزاعها من ماركو؛ إنّه يُطالب أولغا بصداقة مُطلَقَة، فريدة كالحُبّ الحقيقي، وكان في حاجة إلى التأكّد من ذلك عبر بعض العلامات الواضحة: كلمات، نظرات، رموز. لم تكن راغبة في الارتباط بأحد، خصوصاً إذا كان رجلاً غير وحيد قبالتها؛ كانت مُتعلّقة به جدّاً وكانت لها مُغامراتها وما إن تظهر له الهيام، أو الحركات التي كان يُحبّها فإنّها سرعان ما تمحوها في اليوم الموالي. كان مُستاءً من نزواتها ويشتكي على الدّوام من استبدادها، كانا يتشاجران طوال الوقت تقريباً. كانا يفترقان غاضبَيْن؛ عندها يُهاتفني سارتر من هاڤر ليعرف ما إذا كانت أولغا ما زالت تحمل ضدَّه الضّغينة. وكان ماركو أحياناً يباغت مكالمته فيضحك حتّى تسيل دموعُه.

ذات يوم، بعد مُشاحنة ثائرة بشكل خاصّ، كان على أولغا هذه المرّة أن تتّصل بعد ساعَتَيْن من رحيل سارتر. مجهول أخبرها أنّ رجلاً قصيراً ساخطاً قد اعتدى، لدى نزوله من قطار رووان، على رجل قويّ البنية يفوقه مرّتَيْن جسديّاً، وفقأ له عيناً؛ نُقل الثائر إلى المُستشفى وأصرّ على إخبار أولغا. طرقت بابي مفزوعة. لبستُ معطفي ووضعتُ قبّعتي عازمة على الذّهاب إلى هافْر في أوّل قطار. في انتظار ذلك صعدتُ إلى شقّة ماركو. طلب أن نتّصل عبر الهاتف بمقهى يّوم لنتأكّد ممّا إذا كان سارتر يعملُ بهدوء جالساً إلى ركنه المُعتاد. أجاب سارتر على الاتّصال واعتذر: أعتقد أنّ أولغا ستتعرّف على صوتِه وأنّها ستُدرك من خلال هذه المزحة أنّه يدّعي الجنون فتُسامِحَه. أحسستُ بالرّاحة، فيما ظلّت أولغا يائسة تماماً؛ شمتَ ماركو.

لم تكن كلّ الشجارات تنتهي بمرح. كان سارتر وأولغا يتناوبان إبراز مخالبهما أمامي ويُطالبان بتحالُفي مع كلّ منهما. كنتُ غالباً ما أنحازُ إلى أولغا؛ لكنّها كانت تعرف أنّ علاقتي بها لا تُشبه ولا تُعادل علاقتي بسارتر. كنّا نُنَزِّلُ حداثة سنّها مرتبة أعلى من تجربتنا: كان دورُها دور طفلة، تعيش في عنف زوجٍ من الكبار. ليس في تشارُكِهما ما يسمحُ بوجود أيِّ شرخ. كان في استطاعتنا دائماً أن نراجع علاقتنا بإخلاص: كنّا نحتفظ بدفّة قيادة الثّلاثي. لم تنشأ بيننا بعدُ رابطة ندّية. لعلّنا أجّلنا ذلك. حتّى وإن كنتُ أوبِّخُ سارتر باستمرار إلّا أنّي أظلُّ دائماً متضامنة ومُتّحدة معه إلى درجة تشكُّ معها بأنّي قد أتنازل عن مشاعري ناحيتَها لأجله. تُؤلمُها تلك الفكرة لأنّها كانت مُتعلّقة بي أكثر منه: كانت تتحامل عليه، لكن عليَّ أيضاً. إنّه يكادُ يهدم صداقتنا بتسلُّطه ولم أكن أعترض! كانت ترى في تكتّمي نوعاً من اللامبالاة ونما في داخلها غيظ ناحيتي غذّاه خوفها من أن تفقدني. كانت من النادر أن تغضب على سارتر دون أن تحشرني في تلك العداوة. أحياناً أيضاً، كي تنتقم من برودي، كانت تقترب منه بشكل صارخ كي تُشعرني بالمرارة؛ ثمّ، فجأة يُجَنُّ جنونها من حميميّتنا فتنقلب على سارتر.

هو أيضاً لم يكن يجد حيّزاً مُريحاً في هذا الوضع، ليس فقط أمام تردّد وتغيّر أولغا المُستمرّ الذي يثير سُخطَه لكن لأنّه في الحقيقة يجهلُ ما يريدُه

منها تحديداً: لا شيء قد يتشكّل بوضوح، أو يُمكن تخيُّله أو الحصول عليه. هذا ما يُفسِّرُ إحساس الخيبة الذي يُرافق إعجابَه بحضور أولغا ولُطفِها: كان إذاً، يغضبُ لا لأسباب دقيقة، بل ليُواري تحت الصّخب الفراغَ الذي كان يضرب رغباته ومسرّاته؛ أحياناً كانت عواطفه المُفاجئة تُذهلُ أولغا. كان حريصاً دائماً على جرّي إلى معرفة ما يجري في لقاءاتهما؛ تقبّلتُ حكايتهما برحابة صدر في البداية وعلّقتُ على بعض الكلام؛ الآن أشعر بانعدام صبرٍ لا أستطيعُ إخفاءه عندما يسألُ سارتر عن عبوس أو تكشيرة أو حركة من جفنَيْ أولغا. كان يغضبُ حين أعارض تأويلاته وأكثر حين أختار أن أكون في صفّ أولغا ضدَّه.

كانت هناك كلمة استعرناها من فلسفة الظّواهر وأطنبنا في استخدامها خلال مُحادثاتنا: البداهة. الأحاسيس، جميعُ «الأجسام النّفسيّة» ليست سوى احتمالات؛ لكنّ التّجربة *erlebnis* تحتوي على بداهتها الخاصّة. كي يُكمِّمَ فمي، كان سارتر يقول لي: «غضبت منّي أولغا قبل قليل: هذا بديهي.» أردُّ على عبارته بكلمات مماثلة؛ وأعتب عليه زجَّهُ ببداهات مُرتَجَلة وسط حقائق افتراضيّة: عداوة أولغا أو صداقتها. حول هذا الأمر كنّا أيضاً نعبث دون توقّف. لكنّي مع مرور الوقت انزعجتُ.

هكذا طعنتنا الآلة الجهنّميّة التي ابتكرناها بأنفسنا. لقد خرجنا دون أذى في نهاية المطاف: انتصرت الصّداقة أخيراً. كان هناك الكثير من الطّيش وحتّى الجنون في هذه الاضطرابات؛ غير أنّنا أظهرنا إرادة قويّة لتجاوُزها؛ لم يكن أحدٌ منّا يُكنُّ كراهية للبقيّة. هذا لا يمنعُ أنّ كلامنا مرّ بساعات سوداء؛ كنّا مُتعلّقين بعضنا ببعض بقوّة تجعلُ الظّلال التافهة تتكاثف إلى أن تصير غيوماً تملأ السّماء. طبعاً ما كان ليحدُثَ كلُّ ذلك لو كنّا نعيش طوال الوقت في باريس؛ كنّا حتماً سنجدُ البديل؛ الأصدقاء والتّرفيه. لكنّ الثّلاثي الذي نُكوّنه كان يعيش في دفيئة ساخنة وناعمة، وسط الوحدة المُرعِبَة للرّيف؛ حين يلُفّنا الحُزن فلا شيء يُسلّينا. كان سارتر أحياناً يُصابُ بكآبة تقلقني أكثر من تلك التي مرّ بها السّنة الماضية، إلّا أنّها خالية من كلِّ معنى، كانت أولغا أيضاً تَزيغ؛ في باريس خلال عيد الفصح، عندما كنّا في بيت كاميي أحرقَتْ يدَها بإلصاق

سيجارة مُشتعلة عليها، فعلت بصبر عجيب: ورويتُ الحادثة في *الضّيفَة*؛ كانت إحدى الطّرق للدّفاع عن نفسها ضدّ القلق الذي ألقت بها المغامرة داخله. أنا، حتّى تلك الفترة – ما عدا النوبات الرّهيبة القصيرة التي يُسبّبُها التفكير في الموت من حين إلى آخر – كنتُ أعيش في نور السّعادة الجميلة دون ضعف؛ لقد عرفتُ الحزن بذهول. أذكرُ تلك الظّهيرة الحارقة في رووان عندما كنتُ أتجوّل مع أولغا كئيبَتَيْن؛ شارع أو-دي-روبيك، طفلان يُلاحقان بعضهما بعضاً ضاحِكَيْن إلى مرحاض عمومي، كمانٌ يُصدرُ صريراً حادّاً في الطّابق الأرضي لمنزل تغمُرُه المياه. في عمق الشّارع رجلٌ جالسٌ يُغنّي بصوت مُرتَعِش:

إنّها تُمطر في الطّريق
في اللّيل أُصغي إلى
القلب الرّاحل
إلى وقع خطواتِك.

أنصتُّ إلى وقعِ خطواتنا وكان قلبي راحلاً. أذكُر أيضاً غداءً في مطعم الأوبرا مع ماركو. ودّعتني أولغا بتحيّة مُتجمّدة وغادرت مع سارتر ضاحكة. كانا بصدد قضاء وقت مثالي: معاً، تأمّلا الأشياء وفرحا بها، لقد استحوذا على العالم الذي طردتني منه ضغينة أولغا؛ كنتُ كجنديّ أعزل أسبحُ في العدم. لم أستطع ابتلاع لقمة واحدة لشدّة انقباض حنجرتي وضاعت كلمات ماركو في هاوية الفراغ.

آنذاك، لم أكن قادرة على تقبّل أمزجة أولغا؛ لا، أفكار النّاس ليست داخل رؤوسهم في شكل دُخان لطيف: إنّه يحتاجُ إلى العالم وأراني انصهاره فيه. تضطرّني أولغا إلى مواجهة حقيقة برعت حتّى ذلك الوقت في مراوغتها: الآخر موجود، مثلي تماماً وبنفس الوزن. كانت بدافع عناد وحفاظ على الدّور الذي تلعبُه في الثلاثي، متمسّكة بخصوصيّتها؛ كان في وسعها منح الكثير لصداقتنا مدّة طويلة، لكنّها كانت تعرف متى تنسحب؛ لم تكن بيننا رابطة المشروع القادرة وحدها على ضمان تواصُل التّفاهم بيننا، حالما تنفصل عنّي، كانت تراني بعيْنَيْن غريبَتَيْن قادرَتَيْن على تحويلي إلى غرض؛ أحياناً إلى مثل

أعلى وأحياناً إلى عدُو؛ ما يجعلها تعيش شكوكاً دائمة، هو أنّها كانت تُؤكّد طوال الوقت حقيقتها الحاضرة بعنف ناسية الماضي ورافضة المُستقبل؛ كنتُ أشعر أنّي صرتُ في نظرها شرسة إلى الأبد كلّما ندّت عنّي كلمة أو بدر منّي تصرُّف لا يُعجِبُها. باتت لي حدود جديدة؛ اتّضحَ فجأة أنّ سلوكي العادي هو مصدرُ ضعفي؛ أصبح ما أراه صواباً جملة من الأخطاء فجأة. في الواقع لم تكن أولغا مُتشبّثة بالغِل؛ ولديَّ وسائل أدافع بها عن نفسي؛ في داخلي، تحاملتُ عليها، اتّهمتُها وحكمتُ عليها. لن أرى نفسي بعينٍ قاسية؛ لكنّي فقدتُ القليل من شعوري بالأمان؛ آلمني ذلك؛ كنتُ في حاجة إلى قناعات، وكان الشكُّ يسبّب لي الغثيان.

إنّ ما يهزّني أيضاً، النّزاعات التي تنشب بيني وبين سارتر أحياناً؛ كان دائماً حريصاً على ألّا يقوم بأيِّ شيء قد يهدِمُ علاقتنا؛ كانت حواراتنا مُتّقِدَة كالعادة، لكن دون حِدَّة طباع؛ راجعتُ أيضاً بعض الفرضيّات التي اعتقدتُ حتّى ذلك الوقت أنّها مُتاحة؛ أعترف بأنّه من الإجحاف جمعَ ذاتي مع الآخر تحت غطاء واحد: نحنُ.

كانت هناك تجاربُ يعيشها كلانا لمصلحته الخاصة؛ اعتقدتُ دائماً أنّ الكلمات قد تفشل في التّعبير عن الواقع: كان عليَّ التعمّق في بعض الخلاصات. أزوِّر الحقيقة لو قلتُ: «لسنا سوى واحد.» بين اثنيْن ليس ثمّة انسجام تام، إنّه عملٌ متواصل. كنتُ على استعداد لأدرك ذلك. غير أنّ سؤالاً مُزعجاً يُطرَحُ فوراً: ما حقيقة هذه العلاقة؟ فكّرنا حول هذه المسألة –فلسفة الظّواهر تؤكّد مفاهيم قديمة– فكّرنا في أنّ الوقتَ يفيض على اللّحظات، أنّ الأحاسيس هي خارج «فترات القلب المُتقلِّبَة»؛ لكن إن كانت مُتماسكة فقط بفضل العقود والشّروط والتصرّفات ألا تفرغ يوماً ما من معناها وينتهي بها الحالُ إلى أن تُشبه المدفن الأبيض للكتابة؟ كانت أولغا تكره بشدّة ما يُبنى على الإرادة؛ لم يكن ذلك سبباً كافياً لأتضايَق؛ لكن قبالتها، يستسلم سارتر أيضاً إلى الفوضى العاطفيّة؛ كان يشعر بالقلق، والسّخط والسّرور، وهو ما كان لا يعرفه معي. المُزعِجُ هو أنّ ما أشعر به أعمَقُ من الغيْرَة: كنتُ أحياناً أتساءل ما إذا كانت سعادتي مبنِيّة على كذبة كبيرة.

نهاية السّنة الدراسيّة، ودون شكّ بسبب انفصال وشيك يوحي في كلّ لحظة أنّه الأخير، توتّرت علاقة سارتر بأولغا. حدثت بينهما خصومات جادّة وكفّا عن رؤية بعضهما بعضاً. ضاعفت أولغا من لطفها معي بدافع تعويض غريزي؛ كنتُ متعبَة من العمل ومنحتُ نفسي أوقات ترفيه وعلى امتداد أيّام أمضينا أوقاتنا معاً تقريباً. كان ماركو يُرافقنا أحياناً في المساء. كانت الأزقّة خلف رصيف الميناء مليئة بالبَحّارة الغرباء الذين يتسكّعون في عذوبة اللّيل؛ كان ماركو ينخرط معهم في الأحاديث؛ أخذَنا إلى حانات يرتادُها «المُنزَلون». وكُنّا نعود من دونِه؛ كانت أولغا تتكلّم الإنجليزيّة بطلاقة وكانت لنا حوارات طويلة مع رجال شُقرٍ قادمين من بلاد بعيدة. من بين هؤلاء أشقر وسيم جدّاً من النّرويج، التقينا به عدّة مرّات؛ سألنا عن أسمائنا: «إنّها تُدعى كاستور، قالت أولغا مُشيرة إليَّ. – إذاً، أنتِ بولوكس Pollux؟»، قال الرّجلُ بمرح. كان كلّما لمحَنا جاء ناحِيَتَنا: «ها هي كاستور وبولوكس!» يصرخُ بحماس، ويُقبّلُنا من خدودنا. نُنهي اللّيلة في مطعم-مقهى يظلُّ مفتوحاً حتّى الرّابعة صباحاً، كان يرتادُه الشّباب الذّهبيّون؛ اسمهُ «عند نيكو»، كان المكان الوحيد الذي يُمكن فيه تناول الحساء بعد مُنتَصَف اللّيل. أحبَبْتُ هذا التشرُّد وتلك الحميميّة التي انفردتُ بها مع أولغا. فقد، كنتُ أعرف أنّ سارتر لا يرى هذا التحوُّلَ الجديد دون مرارة؛ كنتُ تقريباً أشعُر بالذّنب إزاءه؛ على أيّ حال لم يكن آنذاك يُفكّر بي على أنّي حليفة وهذا التنافُر كان يُسمِّمُ الهواء الذي لا أتنفَّسُ غيرَه.

لم تتقدّم أولغا إلى الإجازة، وكتب لها والِدُها رسائل ثائرة: سترحلُ إلى بوزڤيل بداية شهر جويلية. سأفتقدها كثيراً. رغم أنّ الجوّ الثلاثي انتهى به المطافُ إلى أن يُصبِحَ خانقاً ولعلَّ الارتماء في الطّيش دون عواقب وسطَ الأصدقاء أفضلُ لنا جميعاً. جاء بوست الذي جمَعَتْهُ بماركو صداقة متينة ليُقيم في فندق لي-پتي-موتون أيّاماً قصيرة؛ مساءً، كنّا ثلاثتنا نركُضُ بين الملاهي المشبوهة التي برع ماركو في اكتشافها. كان شارع الكورديليا أقلَّ جمالاً من شارع غاليون بهاڤر، لكن كان في وسعنا رؤية نجوم بنفسجيّة تتألّق، طواحين حمراء، قطط خضراء؛ ذات ليلة حيّا ماركو بحركة مُفعَمة بالأنس قوّادَة جالسة عند مدخل أحد الممرّات، تحدّث معها وأدخلتنا إلى نوع من الصّالة الحقيرة؛ بعضُ النّساء يرفُلنَ في فساتين طويلة جالسات على مقاعد خشبيّة. دعا ماركو

نحيفة شقراء لاحتساء كأس، طرح عليها أسئلة لبِقَة؛ أجابت الشّقراءُ متضايقة وبدا لي عديم الذّوق. عموماً كان يسمحُ لنفسه بالقيام بأيِّ شيء تقريباً: كان يتمتّعُ بالعفَويّة. أصبح سارتر يتحمّل ضبابية علاقته مع أولغا منذ عادت إلى عائلتها؛ كان مزاجُه رائقاً في رووان. كنتُ أمضي الأمسية معه في أكل البيض «عند نيكو» وعند مُنتَصَف اللّيل يأتي ماركو كنجم سانداً بوست الثّمل بعد احتساء قارورَتَيْ بيرنو، ضاحكاً ملء شِدقَيْه.

يغمُرُنا فرحُه فنُثير جلبة كبيرة نحن الأربعة. حان وقت الرّحيل من رووان بالنّسبة إليّ كما هو الشّأن بالنّسبة إلى ماركو: بدأت سمعتنا تفسد فعلاً. عُيِّنَ كلانا في باريس: أحسستُ بالرّاحة. كان أمام سارتر سنة أخرى كي يُغادر هافْر لا أدري ما السّبب – ربّما هي مسألة مركز مُزدوج – دُعِيَ أستاذ فلسفة آخر. في المُقابل عُرِضَ على سارتر مركز في دار المُعلّمين العليا بـ «ليون». ضغطتْ عليه السيّدة لومار وأهله كي يقبل؛ لكنّ ليون كانت بعيدة ويخشى أن يطول عملُه هناك بذريعة ضرورة تخرّج الدّفعة بأكملها؛ فضّل فصل باكالوريا في لاوون؛ على ذلك النّحو يُمكنه البقاء قريباً من باريس، حيثُ باعتبار الاختيار المُتواضع الذي رضِيَ به فإنّ حظوظ تعيينه في باريس وافرة السّنة المُقبلة. ساندتُه بحماس.

استعدتُ سعادتي. بدا أنّ سارتر هدأ وعزمتُ على الذّهاب معه إلى روما. من جهة أخرى عبر دوّامة حياتنا الخاصّة، تابعنا السياسة باهتمام تلك السّنة. حضرنا بسرور انتصار الجبهة الشّعبيّة.

توقّعنا ذلك منذ زمن. رغم أنّ اليمين قاوم بشراسة كي يمنع هذا الفوز. مثّلت قضيّة جيز Jèze المرحلة الأكثر صخباً في المعركة. بوصفه أستاذ حقوق، قدّم جيز ضمانات عديدة لمصلحة الحركة؛ لكنّه قبِلَ في سبتمبر أن يتلو مُرافعة اتّهام ضدّ إيطاليا أمام المُجتمع الدُّولي. مُحاضرته الشّعبيّة الأولى استُقبِلَت في نوفمبر بهتاف كبير كاد اللقاء يُؤَجَّلُ بسببه. واجه الطّلبة من جديد بحضور العميد أليكس بداية شهر جانفي: عاد الهتاف المشحون بالغضب العارم. أُغلِقَت كلّية الحقوق وحاول الطّلبة الفاشيّون القيام بإضراب عامّ في الحيّ اللاتيني: فشلوا فيما صوَّتَت الغُرفَة على قانون حكومي يقضي

بحلِّ روابط الفِتنة. خلال شهر فيفري، في الوقت الذي استولت فيه القُوّاتُ العسكريّة الإيطاليّة على أديس أبابا، وجّه اليمين الفرنسي لموسوليني برقيّات تهنئة، فتحتْ كلّية الحقوق: تعطّلت دروس جيز ثانية. اتُّهِمَ العميد بالتقصير في حمايته وكان عليه الاستقالة. في شهر مارس بعد مُحاولة أخيرة، أحجم جيز نهائيّاً عن الكلام أمام الجماهير.

مُحاولة اغتيال جادّة أُديرت ضدّ ليون بلوم Léon Blum[26]. أراد «الوطنيّون» إخفاء توهُّج جنازة وطنيّة على موكب دفن بينڤيل Bainville[27]. لدى عودتهم من الموكب صادفهم ليون بلوم في شارع سان-جيرمان قادماً بسيارة من الغرفة؛ أوقفوه، وجرحوا بلوم جروحاً خطيرة قبل أن يتدخّل البوليس. جرت إيقافات عديدة؛ لاحقت العدالة موراس Mourras الذي كتب مقالات دمويّة ضدّ بلوم واتُّهم بالتّحريض على القتل وحُكِمَ عليه بالسّجن مُدّة أشهر. نظّمت الجبهة الشّعبيّة مُظاهرة مُضادَّة لأعداء بلوم. مرّة أخرى ظهرت قُوّتُه. كانت الخطابات الشّعبيّة والمسيرات تُؤيّدُ إمكانيّة نصر وشيك لمَّحَت إليه الأحداث الجارية في إسبانيا. الپاسيوناريا La Pationaria هزّت الجماهير بفصاحتها؛ هزم اليمين في الانتخابات؛ عبثاً حاول الجنرال فرنكو الانقلاب: ظلَّ النّصرُ حليف الجبهة الشعبيّة الإسبانيّة التي كانت صحافتنا المُتنوّرة تُسمّيها الجبهة الوحشيّة واصفين فظاعتها. شقّت الصّحافة اليساريّة مسالكَ النّجاح السّهل على حساب إدانة هذه الحكايات.

عندما احتلّ هتلر لا-ريناني La Rhénanie، جنح المُسالمون إلى الصّبر مرّة أخرى. «المُقاومة والتّفاوُض»، كتب إيمانويل بيرل. لكنّ اليسار المتأكّد من صلابته ازداد قوّة. السّلم، أعلنتُ، لا يجب أبداً أن يكون تراجُعاً. لقد مرّت أكاذيب هتلر في فرنسا بفضل اليمين: كانوا يخوضون معركة التّراجُع أمام خصمهم العنيد. لم تكن الجماهير الفرنسيّة تميل إلى الحرب؛ لكن ولِكَيْ تُسحَر الجماهير، كان على اليمين أن يُراهن على سياسة الحزم.

26- بلوم Léon Blum: سياسي فرنسي (1872-1950) تولى رئاسة الوزارة في الجمهورية الفرنسية الثالثة مرتين.

27- بينڤيل Bainville: أكاديمي وصحافي ومؤرّخ فرنسي (1879-1936).

عوّلنا نحنُ وأصدقاؤنا على الجبهة الشّعبيّة في الخارج لتُنفّذ خطّة السّلام وفي الدّاخل كي تشرع في بناء حركة ستُفضي بنا إلى اشتراكيّة حقيقيّة. احتفلتُ مع سارتر بانتصار الجبهة؛ إلّا أنّ «ذاتيّتنا» كبحتْ نزعة «التقدّميّة» واحتفظنا بالموقف الذي في 14 جويلية 1935 حصَرَنا في دور الشّهود. لا أتذكّرُ أين قضينا ليلة 3 ماي؛ كان في ساحة برووان دون شكّ، وكانت هناك مُضخمات تُعلن عن أرقام سارّة؛ رغم أنّ سارتر لم يُصوّت. كانت المزاعِمُ السياسيّة لمُثَقَّفي اليسار تجعلُه يهزّ كتفَيْه بلا مبالاة. تابعَ جاك بوست نتائج الانتخابات في باريس بصحبة أخويْه، دابي وشامسون. روى لنا أنّ شامسون قد هتف مُنتشياً بالفوز: «يا للهزيمة النّكراء!» «شامسون لا يضعُ شيئاً لأحد.»، قال سارتر بنفاد صبر. التحدّث، الإلقاء، الاحتجاج، الوعظ: يا للتحرّك العابث! هل كان سيبدو لنا تافهاً لو أنّ الفرصة قد شملتنا نحنُ أيضاً؟ لا أعرف. غير أنّي في المقابل متأكّدة من أنّنا لو تحرّكنا بنجاعة فإنّنا سننجح؛ إنَّ امتناعنا عن التّصويت مصدَرُه الرّئيسُ عدونا: لم نكن رافضين للمُشاركة في الأحداث قطعيّاً منذ البداية. الدّليل، هو أنّنا قدّمنا كلَّ ما في وسعنا، عندما اندلعت الاضطرابات عاتَبَنا پانييز على ذلك؛ للمرّة الأولى نجد أنفسنا على طَرَفَيْ نقيض سياسيّاً؛ كان فراقنا فراقاً سياسيّاً جادّاً؛ حسب رأيِه، تُهدّد الاضطرابات تجربة بلوم، فيما رأينا أنّها الطّريقة المثاليّة لمنحها بعداً مُتطرّفاً. تلقّينا خبر احتلال المصانع بفرح كبير؛ أذهلنا العُمّال بشجاعتهم، تخطيطهم السّليم، انضباطهم، ابتهاجهم: أخيراً، أحداث جديدة، مُهمّة، أحداث ثوريّة حقيقيّة. أسعدتنا اتّفاقيّاتُ ماتينيون Matignon: عقود بالجملة، ترفيع في الأجور، أسبوع بأربعين ساعة، إجازات خالصة الأجر، شيء ما تغيّر في وضعيّة العُمّال. تأمّمت الصّناعة الحربيّة؛ تمّ بعث ديوان الحبوب، سنّت الحكومة قانون حلّ الروابط الفاشيّة، خسر الغباءُ والظّلمُ والاستغلال المعركةَ وتقهقرت؛ يجعلُ هذا قلوبنا في حفلة – وعموماً لا أرى هنا أيَّ تناقض – ما زال امتثالُ القطيع يُثير حنقنا حتّى حين يُبدّل ألوانه. لم نكن نُحبُّ الغُلُوّ الجديد الذي بدأ يغزو فرنسا. كتب أراغون مقالات ثلاثيّة الألوان. في قصر الحمراء وسط جوّ مُفعَم عموماً بالحماس، غنّى جول وجوليان *فرنسا الجميلة*: إنّها قضيّة زهرة الذّرة والخشخاش، كما لو أنّها أشعار ديروليد Déroulède. وفيما حضرنا السّنة

الماضية احتفالات 14 جويلية فقد قاطعناها هذه السّنة؛ ركض إليها جاك بوست وبيّنّا له عدم جدوى ما يفعل. كان من الرّائع رؤية الحشود تمشي نحو الانتصار؛ لقد نالته وبدت لنا رتيبة مراقبتهم يُحيون ذكرى أمجادهم.

في ذلك الصّيف، رأينا مُصطافين مُتّجهين إلى المصيف لقضاء عُطَلٍ خالصة الأجر للمرّة الأولى. خمسة عشر يوماً، ليست بالمُدّة الطّويلة؛ الجميع، عمال سانت-أوان وأوبرڤيليي سيتنفسون هواء آخر غير هواء المصانع والقرى الصّناعيّة. امتزجت هذه السّعادة التي أتاحتها الرّحلة بشائعات مُقلقة. أعلنت الصّحافة عن «تمرّد في المغرب الإسبانيّة» نزل الجنرال فرنكو في إسبانيا ليلة 12 و13. لكنّ الشّعب بأكمله اختار الجمهوريّة: لم تكن هزيمة الثُّوّار مَحَلَّ شك. أعددنا حقائبنا بقلوب مُطمئنّة.

استمتعنا السّنة الماضية باكتشاف فرنسا؛ قبل الوصول إلى إيطاليا توقّفنا أيّاماً في غرونوبل؛ كان باص يُقلّنا كلَّ صباحٍ إلى الألپ؛ مساءً كنّا نحتسي البورتو في الـ «سنترا Cintra»؛ تنزّهنا مُتحدِّثَيْن عن ستندال؛ أنشد سارتر أغنية من إبداعه عن غرونوبل والسّادة ذوي القلوب النّبيلة، حول غرينيت Grenette وآنساتها ذوات الأرواح النقيّة. كان پانييز يُمضي العُطلة مع العائلة في غياستر وذهبنا لرؤيته؛ رافقنا إلى مرسيليا بالحافلة.

في روما أقمنا عشرة أيّام بألبرغو ديل صول؛ أكلنا البورتشيتا Porchetta[28] بساحة بونيتون. كنتُ أحبّ روما، أكلها، فاكهتها، ضجيجها، ساحاتها، طوبَها وصنوبرها.

كانت ناپولي في نظرنا مُشوّقة؛ أشاد الدّليل الأزرق بسحرها دون تفسير. كتبتْ لي أختي التي جاءت تقوم بجولة: «إنّها ليست جميلة، بل قذرة: القذارة لا تكفي.» تضايقنا في ساحة المحطّة ريتوفيلو لأنّها كانت قاسية ومُغبّرة. لكن سُرعان ما أوغلنا في شبكة الطّرقات الضيّقة المُشار إليها في خريطتنا، على جانب ڤياروما. وجب أن نكون إنسانيّين أشدّاء لأنّ البورجوازيّة الواعية،

28- البورتشيتا Porchetta: طبق تقليدي إيطالي ميّز أيضاً مدينة نيس الفرنسيّة.

المُهتمّين بالنّظافة، الشيوعيّين وكلّ العقلانيّين كانوا سيستنكرون – ليس من دون سبب – تلك القذارة والتعتيم المُحيط بها. إن كان لابُدَّ من التنازل عن القلب، فسنقول إنّنا نُحبّ الإنسان لا كما يجب أن يكون بل كما هو عليه. فجأة تزحزحت الظّهيرة؛ لم تعد الشّمسُ حاضرة كنور في السّماء، لكن على الأرض كأنّها جيوب عظيمة من الظّلال؛ لا شيء جامداً في أفق هذه البالوعة: كلّ شيء يضجّ ويتخمّر؛ حتّى الحجارة نفسُها اسفنجية، إنّها تنزّ مُفرِزَة رغوة وفطريّات. تباهت حياة الإنسان بعُريِها العُضوي، وحرارتها العميقة: على هذا الشّكل دوَّختنا ونفّرتنا.

شعرنا بالرّعب: أطفال عراة، تُغطّيهم القشور، الجُرب، المرضى، الجروح المُتعفّنة، وجوهٌ شاحبة كالدُمّل، جُزُرٌ موبوءة يُشار إليها باللافتات: «لا تصلُح للسّكن»، «ممنوع» حيثُ تتعفّن عائلات بأسرها، في السّواقي، أوساخٌ، جِيَف تتعاركُ عليها الأيدي؛ العذراوات في كلّ زوايا الشّوارع تُباركُ الناس، مغمورات بقاذورات ذهبيّة، وسط الزّهور والمصابيح الخافتة. لكنّنا لم نُحصِ عددها؛ تركنا أنفسنا للمظاهر كي تخدعنا. ڤيادي تريبولاني، حول لابورتا كاپوانا، رأينا أهرامات البطّيخ والدلّاع، أكوام الطّماطم والباذنجان والليمون والتين والعنب والسّمك المتألّق وتلك القواعد المُزخرفة، كانت جميلة إلى درجة أنّ باعة المحار صنعوها من القوالب والطّحالب: كنّا نجهل أنّ الأكل إذا عُرِض بتلك الكيفيّة فهذا يعني أنّ الناس يموتون جوعاً. استطعنا أن نُعجَبَ ببعض نواحي هذا البؤس لأنّنا كنّا غافلين عن أعماقه؛ أعجبتنا، مثلاً، لأنّها ألغت الحواجز بين الناس وقلّصت حدّتها: خرج هذا الشّعبُ من بطن حارّة واحدة؛ الكلمات: داخل، خارج، فقدتْ معناها. تنتمي المخابئ المُظلمة التي تلمَعُ من خلال الشّعارات إلى الشّارع؛ على الفراش الزّوجي ينام مرضى، أموات يرقدون مكشوفين. وحميميّة البيوت على قارعة الطّريق. حائكون، إسكافيّون، حدّادون، صانعو زهور مُزيّفة، كان جميعُ الحرفيّين يعملون تحت أسقف دكاكينهم الواطئة؛ تجلس النّساء أمام المنازل لتنظيف رؤوس أطفالهن ولغسيل الملابس وإفراغ الأسماك من أحشائها. تجري ابتسامات، نظرات وأصوات صديقة من طرف الشّارع إلى الضفّة الأخرى. لمس لُطفُهم قلوبنا. كان هناك دائماً حول پورتا كاپوانا لافتات وأكاليل، دمى

عملاقة ودجّالون؛ مساءً، تُضاءُ الشّموع؛ ودائماً ثمّة حفلة يقيمها الباعة مع المارّة بأكاذيبهم وخصوماتهم وحركاتهم. رأيتُ هذا القروي واقفاً في عربته، وسط شحنة دلّاع؛ كان ينحتُ مُربّعاً نازفاً في الفاكهة بحذق كبير ويعرضه على طرف سكّينه: هذا يعني أنّ حبّة الدلّاع سليمة وجيّدة، يرمي بها إلى الحريف الذي يتلقّفها في الهواء؛ ثمّ بمهارة مُذهلة يبقر أخرى ويرميها. نزلنا في فندق قريب من المحطّة، في قلب الأحياء الشعبيّة؛ ذهبنا للاستماع إلى الأغاني في بار قريب. تجاهلنا الحانات والمطاعم الأنيقة، والنّزهة المُرَفَّهة على طول الرّصيف؛ لكنّنا كنّا نتناول الغداء براحة في مطعم ظليل وجذّاب، كان الپاپاغلّو قريباً من ڤياروما ويملك قفصاً به ببغاء حقيقي؛ كانت الجدران مُغطّاة بصور فوتوغرافيّة لفنّانين إيطاليّين وأجانب. وللعشاء كنّا نشتري في الشّارع نفسه سندويشات الدّجاج البارد وكنّا نأكلُها مشياً على الأقدام. كنّا من حين إلى آخر نحتسي قهوة تحت الـ «غاليريا Galleria» وتذوّقنا حلويات كافيش المشهورة أو نتناول مُثلّجات بساحة مونيتشيبيو Municipio في شرفة مقهى غامبرينوس. كنّا نحاول إيجاد مُتع لذيذة في ناپولي لنناورَ قسوَتَها. مع ذلك، في كلّ مكان من كلّ ساعة، كانت الرّيح تأتينا مُحمّلة بغبار الموانئ الكئيب، أو الرّوائح الرّطبة الغريبة. عندما صعدنا إلى پوسيليپي Pausilippe، لم يخدعنا بياضُ ناپولي الكاذب.

كان سارتر مثلي سائحاً جيّداً؛ لم يكن في نيّته أن يُفوّتَ متعة قيّمة. مقطورات مُعلّقة كلَّ صباح، كانت تنقل إلى قمّة ڤيسوڤ مجموعة أمريكان: تسعون فرنكاً للفرد، لم نكن قادرَيْن على دفع هذا المبلغ. صعدنا على الأقدام انطلاقاً من محطّة القطارات سيركون-ڤيسوڤيو؛ تبعنا في البداية مسالكَ صخريّة تقطعُ مزارع عنب ذات تربة سوداء: ثمّ تسلّقنا كتلَ الحمم، الغبار والرّماد؛ تكاثف الرّماد؛ كان الرّمادُ يتفتّتُ تحت أقدامنا ووجدنا صعوبة في السّير. أخيراً، ارتقينا حائط السكّة الحديد، ذات الطّوابق والمدارج العملاقة؛ كي نمرَّ من درجة إلى أخرى، كان لابدّ من بذل جهد يقطَعُ الأنفاس. لحق بنا بائع مُتجوّل وراح يُشجّعني بالحركات والصّوت. اثنان أو ثلاثة من سُكّان المنطقة كانوا يتعقّبون خطواتنا؛ نصبوا أكشاكهم الصّغيرة قريباً من محطّة الوصول: ميداليّات خضراء اللّون، قطع من الحمَمِ المُتحجّرة، تُحف مُزيّفة. كان أحدهم

يبيع العنب واشترينا منه عناقيد في لون العنبر. ورغم البُخار الخانق لبثنا طويلاً جالِسَيْن على حافّة الفوهة متأمِّلَيْن باندهاش أصلَ العبارة البالية: القشرة الأرضيّة. يا لها من كعكة عملاقة، هذا الكوكب، السيئ النُّضج، الناضج أكثر ممّا يجب، المُنتَفِخ، المُتصدّع، المُمَزَّق، المحفور، الحارق والمُحرِق! تسلّينا بوصول قطيع من السُيّاح؛ اصطَفّوا خلف الفجوة، تحت قيادة دليل أمطرهم بالأرقام: عرض، طول، عمق، تاريخ آخر ثورة؛ اقتنوا تُحَفاً تذكاريّة، داعبوا آلات تصويرهم الفوتوغرافيّة: تبخّروا في غضون نصف ساعة. استمتعنا مرّة أخرى بخُلوَتِنا قبل نزول المُنحَدَر ركضاً. كنّا فخورين بأنفسنا.

طالما أحببتُ اكتشاف الطّبيعة بفضل قوّة الرّكبة. في كاپري، تسلّقنا السُلَّمَ العتيق الذي يُؤدّي إلى مارينا بآناكاپري. تناولنا الغداء هناك بالأعلى في شرفة فريدة تُطلّ على البحر: شمس ساطعة وخفيفة، ريح عذبة، نبيذ سفوح التّلال، المياه الزّرقاء، ناپولي من بعيد، البيض المقلي، رأسي الذي يدور قليلاً، إنّها إحدى ذكرياتي الرائعة.

رأينا بوزڤيل ودُخان براكينه؛ واستَقْللنا القطار لپومپيي Pompéi. زيارتُنا إلى متحف ناپولي أزعجت سارتر قليلاً. كتب لأولغا: «ما ضايقني في البداية هوَسُ أهل پومپيي لتوسعة غُرفِهم بالوهم. يتكفّلُ بذلك الطّلاء الذي يملأ الجدران برسوم وخطوط مُزَيَّفة؛ إنّهم يدهنون الأعمدة وما خلف الأعمدة، بخطوط هاربة تمنحُ الغرفة أبعاد قصر. لا أدري إن كانوا يتلذّذُون بالخِدَع هؤلاء الپومپيون المغرورون، لكن أظنّ أنّي أُصِبتُ بالرّهبة وأنّه نوع الرّسوم المُزعج الذي لا يقدر أن نُزَحزِحَ عنه نظراتنا عندما نكون مُصابين بالحُمّى. ثمَّ إنّي أُصِبتُ بالخيبة إزاء المنحوتات المنسوبة لـ«الزّمن الجميل» التي تُجسّد شخصيّات ومشاهد أسطوريّة. تمنّيتُ أن أجد في پومپيي تعبيراً عن الحياة الرومانيّة الحقيقيّة، حياة يافعة، أكثر عنفواناً من تلك التي تُدَرّسُ في المدارس؛ يبدو لي من المُستحيل ألّا يكون هؤلاء الناسُ همجيّين قليلاً. كنتُ أنسب التفاهات الإغريقيّة الرومانيّة التي كانت تجلب لي النّعاس في القسم للقرن الثامن عشر. اعتقدتُ إذاً، أنّي أكتشف روما الحقيقيّة. غير أنّ المنحوتات أثبتت لي العكس؛ وجدنا التفاهات الإغريقيّة الرومانيّة في پومپيي. أحسسنا أنّهم لم

يعودوا، منذ زمن طويل، يُؤمنون بالآلهة ونصف الآلهة التي كانوا يرسمونها على الجُدران. كانت المشاهد الدينيّة مُجرَّدَ ذرائع مع ذلك لم يكونوا يستغنون عنها. انبهرتُ وأنا أجوب القاعات المليئة بالتماثيل الكلاسيكيّة المُكرَّرَة، كنتُ أرى عشر مرّات، عشرين مرّة مشهداً لحياة أخيل أو ثيزيوس، وبدا لي مُريعاً ألّا يكون في مدينة غير هذا على الجدران، إنّها حضارة ميّتة بعيدة عن مشاغل البنوك والباعة وصُنّاع الأسلحة: تخيّلتُ الفارق المُتجمّد والثقافة المليئة بالأعراف بين هؤلاء الناس ووجدتني بعيداً جدّاً عن تماثيل الساحرات بروما. (سيقول لكم الكاستور دون شكّ إنّنا، أيّاماً بعد ذلك، قد عثرنا في أرضيّة ذلك المُتحَف بالذّات على مجموعة ساحرات بأحداق نُحاسيّة. لكنّها تعود إلى حقبة ماضية.) لدى خروجي من المُتحَف لم أكن راغباً في رؤية پومپيي وأبديتُ ناحية الرومان نوعاً من الفضول والنّفور، كان شعوراً مُقرفاً. بدا لي أنّهم حتّى في فترتهم عاشوا الماضي السّحيق وأنّه كان شعوراً مُقرفاً. ولاح لي أنّهم حتّى في فترتهم قد عاشوا الماضي السّحيق، ماضي سلَفهم، وأنّه كان في مقدورهم القول؛ «نحنُ رومان الأزمنة الغابرة»، مثل فرسان، لا أدري أيّ كوميديا هزليّة تقول: «نحنُ فرسانُ العصور الوسطى، الذين هم في طريقهم لخوض حرب المائة عام.»

في الحقيقة أنَّ پومپيي التي حفظها موتُها الماحِقُ بمُعجزة قد فاقت تصوّراتنا: إنّنا أخيراً نتجوّلُ في آثار مدينة لا نعرف فقط معابدها، قصورها، ومنشآتها العموميّة، بل بيوتها وڤيلاتها ومنازلها المهجورة ودكاكينها وخمّاراتها وأسواقها أيضاً؛ مدينة ضاجّة وصاخبة مثل ناپولي أيّامنا هذه. الشّوارع ذات البلاط الثّقيل، الفارّة نحو السّماء عبر جُدران مُتفتّتة، تملأ بصري من الطّرف إلى الطّرف؛ إلّا أنّها كانت تغمر خيالنا ظلال؛ مأخوذة بين هذه الأشباح والحقيقة القاتمة، لمستُ غموضَ الغياب، كما لم أفعل في أيّ مكان بالعالم. أمضينا اليوم في التسكُّع وسط تلك البقايا، ولم يكن شيء يقاطعنا غير تناول الوجبات بسرعة، واحتساء نبيذ حافل بكلّ وحول ڤيسوڤ.

في بيستوم، تأمّلنا للمرّة الأولى معبداً إغريقيّاً، احتار سارتر لأنّه، كما قال لي: «لا شيء يدعو للتّفكير هنا.» في نظري بدا هذا الجمالُ بسيطاً وناعماً؛

لا أجد طريقة لأمسك به. اليومان التاليان كانا أكثر توهّجاً في ذاكرتي. عاد سارتر مباشرة إلى ناپولي. نزلتُ في المحطّة الموالية لسالرن وعزمتُ أن أسافر بحقيبة على الظّهر، مشياً على الأقدام العشرين كيلومتراً التي كانت تفصلني عن أمالفي Amalfi. ناداني حوذي على عربة: سيُقِلّني مُقابل ثماني ليرات. جلستُ داخل المقصورة مذهولة بالصّفقة، بجواري شابٌّ إيطالي صموت يرتدي قبّعة ريش. اتّكأت على الوسائد وأنا أراقب السّاحل المتألّق وبياض القرى الإغريقيّة القديمة المُزخرفة باللّونَيْن الأزرق والذّهبي. رأيتُ الكاتدرائيّة وشوارع أمالفي؛ نمتُ في دير عتيق بألبرغو دلّا لونا، وكنتُ سأمكثُ طويلاً على الشّرفة أتأمّلُ البحر الصّدفي اللامع بفوانيس الزوارق لولا أنّ البوّاب أربك وحدَتي بتَعَجُّلِه. خلال اليوم الموالي عرفتُ راڤيلّو، حدائقها، فيلاتها، بساتينها، أسوارها التي تنتصب على طولها تماثيل مرمريّة مُشيحة عن البحر باشمئزاز كما لو أنّ نمل العصر الذّهبي قد نخرها. تنقّلتُ في الباص بين أمالفي وسزنتو ورأيتُ أجمل شاطئ بالعالم.

لم ينِدّ عن سارتر أيّ ندم وأنا أصف له هذه المتع لأنّه في المقابل استمتع كثيراً. دعاهُ شابٌّ للشّراب لمّا رآه يتنزّه بمُفرَده؛ أخذه من خمّارة إلى أخرى؛ ثمّ اقترح عليه عرضاً من اختياره: لوحات حيّة مُستوحاة من المنحوتات التي تُزخرف مدينة العجائب في پومپيي؛ تبعَهُ سارتر إلى غاية دار مُتخصّصة في هذا الشّأن؛ مُقابل سعر مُناسب، أدخلته قوّادة إلى صالون مُستدير ذي جدران مكسُوّة بالمرايا؛ تُحيط بالصّالة مقاعد مُخمَليّة حمراء؛ جلس هناك وحيداً لأنّ القوادة لم تسمح لصديقه بالدّخول معه. ظهرت امرأتان؛ كانت الأكبر سنّاً تحمل في يدها قضيباً ذكريّاً من العاج وستلعبُ دورَ الرّجل؛ قلّدت المرأتان ببرود الوضعيّات الجنسيّة الموصوفة في المنحوتات الجداريّة. ثمّ رقصت الصّغرى وهي تُحرّكُ دُفّاً. بإضافة المال يُمكن للحريف الانفراد بمن يُريد. سارتر حادَ عن هذا الامتياز. في الشّارع، أمام الباب، وجد دليلَه في انتظاره؛ كان الأخير ماسكاً بقارورة نبيذ اقتناها سارتر من أوّل مخزن خمور، لم يشربا سوى نصفها؛ انتظر سارتر ليُكملاها معاً؛ ثمّ بعد ذلك افترقا. ما أعجب سارتر هو الشّعور بالغربة الذي أحسَّ به وهو يرى نفسَه جالساً وحيداً وسط انعكاسات الضّوء بالصّالون المُبهرج حيثُ امرأتان تقومان أمامه بعمل هزلي

وروتيني في آن واحد. أطلق على قصّته التي حاول السّنة الموالية سرد تلك المُغامرة من خلالها، عنوان *اغتراب*.

من ناپولي إلى پالرمو نمنا على سطح المركب. تحمّلت أكثر بؤسَ پالرمو على بؤس ناپولي رغم أنّها مُريعة أيضاً. هناك أيضاً حفّزت المأكولات المعروضة شهيّتي للأكل. الأصالة والألوان المحلّية كانت تنزّ من كلّ مكان ولامَسَ ذلك قلبي كثيراً: أزقّة مُظلمة، ملابس قديمة، دكاكين، أهرام من الدلّاع. وكم وجدتُها فاتنة تلك الصّور المُتنقّلة التي كانت على وجه العربات تروي أسطورة روبرت غيسكار والصليبيّين. كان هناك كمّ هائل من المسارح الصّغيرة التي تُنشّطها الدّمى؛ ذات ظهيرة دخلنا أحدها؛ كان مليئاً بالأطفال المُزدحمين على مقاعد خشبيّة، كنّا الكبار الوحيدين. رأينا شارلُمانْيْ، رولان، روبرت غيسكار وفرسان آخرين مُتعجرفين داخل زيّهم الحربي يطعنون الخونة بسيوفهم. كان أحد الأطفال يتضايق من حين إلى آخر. عندها يضربه أحد الرّجال بلطف بطرف عصا طويلة. أكلنا العنب المُجَفَّف وشعرنا بغبطة حقيقيّة.

كي نزور الكنائس والقصور من طرف المدينة إلى طرفها الآخر، كان علينا التجوّل بواسطة العربات أغلب الأوقات؛ ذات مساء، فيما كنّا نمشي في الشّارع المركزي الكبير، رأينا إحدى العربات حيثُ كان الحصان ملفوفاً؛ وقعُ حوافره، هدير العجلات، كسرا صمت الغسق، وهرب الناس على الجادة؛ كان مشهداً شبيهاً بأفلام الغرابة أو أحد أغلفة جريدة دومينيكا ديل كورير.

من جديد رحنا نُسائل معابد الإغريق: لم نكن نجد ما نقول، ولم تكن الآثار تقول شيئاً: لكنّ صمتها كان مُلهِماً أكثر من أيّ ثرثرة. أحسسنا بثقل صمتها دون كلل ونحنُ جالسان بين الأعمدة المُتناثرة. ما من روح حولنا في ذلك الوقت؛ حملنا معنا العنب والماء والخبز وتناولناها كغداء تحت ظلّ المرمر الذي كانت تجري من خلاله السّحالي: راحَ سارتر يُصفّر ليُثيرها. في سيجيست بدأنا نعرف ماذا تعني الأروقة الإغريقيّة.

صرفنا النّظر عن زيارة أغريجنتو: كانت الرّحلة إليها في غاية التّعقيد. لم أندم رغم حبّي لسيراكوس، عري حجارتها البراقة المتطابقة كمُدَرّج مسرح

على ضفاف بحر معدني، طُرُقها المُغبَرَّة، حيث تمشي بسلام «ثيران الشّمس» ذوات القرون الرائعة. صوت الأرض حول قصر أوريال Euryale؛ تسكّعنا طويلا في أقبيته، على الدّروب المُستديرة، ووسط صمت السّباخ التي ابتلعها البحر، بعيداً عن كلّ شيء. نزلنا إلى مقاطع لاتومي للحجارة الكلسيّة، المكان الوحيد الذي أعرفه، حيثُ الرّعب يقترب من الشّاعري. من ميسين حيثُ البشاعة تُحيي ذكرى نكبة طبيعيّة لا تقبل الدّحض، تجاوزنا المضيق الجميل في عبّارة. لدى عودتنا تضايقتُ إذ فيما كنّا نُبحر كان سارتر يقرأ الصّحف: حدّثني عن إسبانيا، ألمانيا، عن المُستقبل الذي لا يراهُ مُشرقاً بالمرّة.

باخرة بائسة أقلّتنا من ميسين إلى ناپولي؛ أمضيتُ ليلة سيّئة: كان الطّقس بارداً ما يجعل من النّوم على السّطح مُتعذّرا وفي أحشاء المركب كنّا نستنشق روائح كريهة. توقّفنا أيّاماً في روما. تغيّر مزاجُ سارتر فجأة؛ انتهت الرّحلة وعاوَدَتْهُ الوساوس: الوضعُ السياسي، علاقته بأولغا. أُصِبتُ بالذّعر. هل ستعود كوابيس جراد البحر؟

أكّد لي أنّها لن تعود، ونسيتُ الأمر في طريق عودتنا إلى ڤينيسيا التي أردنا رؤيتها. لبثنا هناك أربعة أو خمسة أيّام وقرّرنا قضاء ليلة بيضاء كما فعلنا في روما قبل سنتَيْن. تقشّفا في مواردنا، سوّينا حسابنا مع النّزل وأخلينا غُرفتنا: ما من ركن لنا في المدينة. جُبنا المقاهي حتّى ساعة إغلاقها؛ جلسنا على عتبات ساحة سانت-مارك؛ مشيْنا على طول القنال. خيّم الصّمت على كلّ شيء؛ من النّوافذ المفتوحة سمعنا أنفاس النائمين على نغمة واحدة. رأينا السّماء يتخلّلها الأبيض فوق البنايات الجديدة؛ بين الرّصيف والمقبرة، زوارق عريضة ومُسطّحة، تنزلق في مياه البحيرة كظلال؛ في المُقدّمة رجال يُجذّفون؛ من مورانو، وبورانو، من الجزر والسّواحل، ينقلون شحنات خضر وفواكه. عدنا إلى قلب المدينة، بدأت الحياة تدب رويداً في الباحة على ضفاف القناة الكبيرة وتجلّى الصّباح وسط وفرة الدلّاع، البرتقال، الأسماك؛ فتحت المقاهي أبوابها وامتلأت الشّوارع. حجزنا غرفة ونمنا. قال لي سارتر إنّ جرادة بحر عملاقة لاحقته طوال اللّيل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 5

لدى عودتنا إلى باريس في شهر سبتمبر، سنغرق في المأساة التي ستُهَيْمن على حياتنا سنتَيْن: الحرب في إسبانيا. لم يربح جيشُ فرنكو بالسّرعة التي تمنّاها اليمين؛ غير أنّه لم يُسحَق بالسّرعة التي توقّعناها. تكسّرت مسيرة المُتمرّدين في مدريد لكنّهم تمكّنوا من حيازة موطئ قدم في إشبيلية وساراغوسا وأوڤييدو. تقريباً كلّ الجيش – 95% – وأجهزة الدّولة انحازت إلى فرنكو: وكي تُدافِعَ عن نفسها لم يكن في مُستطاع الجمهورية سوى التّعويل على الشّعب.

هبّوا لنجدتنا بحماس كبير. أجّجت خيالنا الحكاياتُ التي كنّا نقرأها في الجرائد والمعلومات التي كان فرناند وأصدقاؤه ينقلونها إليها. في مدريد وبرشلونة، سطا العُمّال على الثكنات وتسلّحوا؛ رفع سُكّان مدريد العلم الأحمر فوق ثكنة مونتانا. أخرج القرويّون بنادقهم القديمة من الغرف العلويّة والأسقف. في المدن والقرى، تسلّحت الميليشيات بالعِصي لنقص الأسلحة: كان هناك عدد كبير من النّساء في صفوفهم. ألقى حاملو الديناميت القنابل اليدويّة والزجاجات الحارقة على دبابات فرنكو. كانت بسالة الشّعب الأعزل تقطع الطّريق على الفيالق المُجهّزة والمنضبطة التي شجّعتها الكنيسة والاقتصاد على افتكاك الأملاك: كانت ملحمة حزينة وجدنا أنفسنا معنيّين بها كثيراً. ما من بلد قريب منّا مثل إسبانيا، يُعدُّ فرناند أحد أصدقائنا المُفضّلين. لقد تشاركنا معا حبور الصّيف الجمهوري الأوّل تحت شمس مدريد؛ عرفنا أحداث إشبيلية المُفعمة بالحياة، بعد فرار سانخورخو، عندما أضرمت الحشود في دوائر ناريّة، حرائق حول الأرستقراطيّين، عجز أعوانُ المطافئ عن إخمادها. رأينا بأعيُننا غرور الأرستقراطيّين والقساوسة، ورأينا وقاحتهم

وبؤس القرويّين وتمنّينا لو أنّ الجمهوريّة تمسّكت كفاجعة شخصيّة. ثمّ إنّنا نعرف يقيناً أنّ حرب إسبانيا ستؤثّر على مُستقبلنا؛ خصّص لها اليسار حيّزاً في صحافته كما أنّه شأن فرنسي وهو بالفعل كذلك: لا سبيل كي تجثم فاشيّة جديدة على صدورنا.

لن يحدث هذا، نحنُ على ثقة تامّة من ذلك؛ لا أحد في مُعسكرنا شكّ في انتصار الجمهوريّين. أذكُر عشاءً في المطعم الإسباني الذي تحدّثتُ عنه والذي كان جمهوريّون يرتادونه. وقفت حريفة إسبانيّة شابّة وتلت قصيدة تُمجّد الحرّية وانتصار بلدها؛ لم نفهم الكلمات - أحد جيراننا فسّر لنا المعنى عموماً - لكن لامس قلوبنا صوتُ الفتاة ووجهها. وقف كلّ المدعُوّين وهتفوا: «تعيش جمهوريّة إسبانيا!» كانوا جميعاً مُؤمنين بانتصارها الوشيك. صرخت لاپاسيوناريا في وجوه الفاشيّين مُتحدّية إيّاهم: «لن تمرّوا!» الكلمة التي جابت أرجاء إسبانيا.

لكن كان لحماسنا وجه آخر: الغضب. كي يكون الانتصار ساحقاً، كان على فرنسا أن تساند الشّعب الإسباني، أن ترسل له المدافع والرّشاشات والطّائرات والبنادق التي تنقصه بشكل مُرَوّع؛ إلّا أنّ بلوم كان قد تبنّى سياسة «عدم التدخّل» منذ الأيّام الأولى من شهر أوت، رغم مُعاهدة التبادل التجاري بين فرنسا وإسبانيا؛ رفض إرسال الأسلحة للجمهوريّة، بل أغلق الحدود دون الإمدادات والصّادرات الخاصّة. يوم 5 سبتمبر سقطت إرون Irun، إذ لم يكن في حوزة المُدافعين عنها شيء للقتال، فيما على بعد مئات الأمتار فقط منها أوقفت السّلطات الفرنسيّة قطارَيْن مُحَمّلَيْن بالبنادق في اتّجاه إسبانيا. بسبب هذا الحصار سقطت سالاڤيرا لارين، وتقدّمت جحافل فرنكو نحو إستريمادورا ونحو غيپوسكوا. كان حياد بلوم أكثر إثارة للسُّخط من هتلر وموسوليني اللذين كانا يُرسلان علانية العتاد والرّجال لفرنكو. يوم 28 أوت أوّل قنبلة تسقط على مدريد كانت من طائرة جانكر ألمانيّة. أُعجِبْنا بموقف مالرو وطيّاريه الذين انضمّوا لخدمة الجمهوريّة: لكن هل كان في وسعهم وحدهم الوقوف أمام الطّيران النازي؟ استُقبِل بلوم بالهتاف في اجتماع السّلام بسانت- كلود: «طائرات لإسبانيا!» رابطة الشغالين، الشيوعيّون، جزء كبير من الاشتراكيّين

طالبوا بإعادة فتح الحدود من جهة الپيريني. مع ذلك أيّد بعض الاشتراكيّين الراديكاليّين قرار بلوم؛ علينا قبل كلّ شيء أن ننقذ السّلام، قال؛ الحقيقة، ودون ميل إلى الفاشيّة كان يخشى المدّ الثوري للجبهة الشعبيّة. بدا انعكاس نزاعاته واضحاً في الصّحف التي كنّا نقرأها. في جريدة *الجمعة*، رفض غيهينو Guéhenno التّضحية بالسّلام من أجل الثّورة، فيما ربط أندريه ڤيوليس وحتّى السّلمي رومان رولاند حظوظ السّلام بحظوظ الجمهوريّة بإسبانيا

أغلب المُتعاونين مع *البطّة المُقَيّدة* كانوا مع التحرّك؛ حاربَه غالتيي بواسير. كنّا نكره الحرب كأيّ إنسان آخر، لكنّنا لا نتحمّل فكرة تمنع الحكومة الفرنسيّة وصول آلاف البنادق وعشرات الرشّاشات التي كانت كافية للجمهوريّين كي يلحقوا بفرنكو الهزيمة. أصابنا حذر بلوم بالاشمئزاز ولم نُفكّر يوماً أنّه قد يخدم السّلام. أيّ ضيق عظيم استقبلنا به بداية أكتوبر خبر وصول المُتمرّدين إلى أبواب مدريد وفي نوفمبر احتلالهم للحيّ الجامعي، أمام تراجع الحكومة في ڤالنسيا! وفرنسا لا تتحرّكُ! لحسن الحظّ فإنّ الاتّحاد السوفيتي قد اتّخذ موقفاً؛ أرسل دبّابات، طائرات، رشّاشات وميليشيا وبمؤازرة من الكتائب الدُّوليّة، تمَّ إنقاذ مدريد.

عندما اندلعت معركة مدريد، لم يتحمّل فرناند بقاءه في باريس؛ عزم على الالتحاق برفاقه للقتال. وجدنا أنفسنا من جديد في خلاف مع پانييز؛ لم ير في قرار فرناند سوى حماقة؛ قرّرت السيّدة لومار أيضاً أنّه من الأجدر به الاعتناء بزوجته وابنه والبقاء معهما بدل لعب دور البطل. كانا من أولئك الذين وهم يُساندون الجمهوريّة، لا يتمنّون أبداً رؤية الحرب الأهليّة بصدد التحوّل إلى ثورة ناجحة. أيّدنا فرناند من صميم القلب؛ رافقناه إلى المحطّة بصحبة ستيڤا وأصدقاء آخرين. رحل معه الرسّام برمان. على الرّصيف كان التأثّر بادياً على الجميع: سينتصر الجمهوريّون؛ لكن متى؟ ومقابل أيّ ثمن؟

ساهم تمرّد فرنكو المدعوم من قبل موسوليني في تقوية آمال المحوَر الذي ارتبط باليابان من خلال اتّفاق ألماني–ياباني. صفّق اليمين برُمّته لانتصارات فرنكو؛ «المُثقّفون الغرب» بدرجة أولى – ماكسنس، پول شاك، ميومندر، بونار – أيّدوه بضجّة كبيرة. كانت لديَّ عادة الإنصات إلى أبي دون

أن ترمش جفوني، وهو يمدحُ صواب صحيفة غرنغوار الأسبوعيّة ووطنيّة ستيفان لوزان المُتبصّرة. لكن عاودني - بصمت - خوفي الصّبياني عندما كان والدَاي وأبناء عمومتي المُتعنّتون يتندّرون حول الفظاعات التي كانت صحافتهم تنسبها «للجبهة المُحتالة» - الرّاهبات المُغتصبات بالآلاف على عتبات الكنائس، أطفال الكورال المقتولين، الكاتدرائيّات المُحترقة - أو عندما كانوا يُطرون على بطولة مُجَنَّدي قلعة الكاثار (القصر) Al cazar. وجدتُ صعوبة في فهم كيف استطاعوا، من وجهة نظرهم ذاتها أن يجدوا متعة في نجاح تلك النُّسخ النازيّة. ضاعفت صحافتهم من ضراوتها. مارست جملة الافتراء والقدح التي شنّها كاربوتشيا في صحيفة غرنغوار، وضغطاً كبيراً على وزير الدّاخليّة سالنغرو ما أدّى به إلى الانتحار. رفع الأعراف رؤوسهم؛ فقد حاولت الرابطة التراجع عن الامتيازات التي انتزعتها منها إضرابات جوان. مع ذلك لاحظنا عودة القطاع الصناعي. بفضل أسبوع الأربعين ساعة أصبح في الإمكان رؤية أزواج مترادفين يتوسّلون على متن درّاجاتهم صباح السّبت نحو أبواب باريس؛ كانوا يعودون يوم الأحد مساءً وعلى مقود دراجاتهم باقات ورد ونباتات خضراء. كان هناك شبّان يذهبون للتّخييم في الغابات المُجاورة حاملين حقائبهم على ظهورهم. ثمّة شيء ما فازوا به وأصبح تحصيلاً. ورغم انقسام اليسار في شأن التدخّل بإسبانيا فقد حافظ على تفاؤله.

كنتُ أُدَرِّسُ في معهد موليير. لم أتخيّل طبعاً أنّي سأقيم في پاسي، كنتُ أتنقّل إليها لتقديم الدّروس ومن ثمَّ سُرعان ما أعود. أنزل إلى شارع لا غيتي La Gaîté، في نزل مُحترَم، نزل الروايال بروتانيْ. السّنة الماضية، عندما استقرّت سيمون لابوردان في شقّة من ثلاث غرف قالت السيّدة لومار إنّها جميلة، رغبت أيضاً في استئجار بيت أرتّبُه حسب ذوقي. لم أكن عازمة مبدئيّاً على تقمّص حياة الرحّالة. لكن فكرة الرّكض بين الوكالات أيقظت لديَّ المخاوف؛ ثمّ من أين آتي بالمال لشراء الأثاث؟ كان الفندق يُغنيني عن كلّ هذه الهموم. لا يهمّ إن كنتُ لا أملك سوى غرفة واحدة تنقصها الجاذبيّة: لديّ باريس، شوارعها وساحاتها ومقاهيها.

كان ماركو يُدرّسُ في لويس--لو-غران؛ كان يقطن أسفل شارع ديلامبير، في فندق أغلى سعراً من فندقي. أنهى بوست إجازته في السّوربون؛ استأجر في بيت أخيه غرفة مُستقلّة، بساحة سان-جرمان-دي-پري. لم يكن ثمّة مجال ليُهمل أولغا في بوزڤيل؛ لكنّ والدَيْها يعلمان أنّها لم تتقدّم بالترشّح لأيّ شهادة فاعترضا على ذهابها؛ استقلّت القطار دون موافقتهما؛ استأجرت غرفة بفندق. لم تكن الفلسفة تستهويها وتساءلتْ بقلق عمّا يجب عليها فعله من أجل نفسها. لفترة قصيرة، قدّمت الشّاي فيما يشبه المقهى الصّغير بشارع سان-ميشال والذي كان أيضاً مكتبة وملهى: لكن لم يبد لي هذا حلاًّ ملائماً. كان عليَّ انتظار سارتر مَرَّتَيْن في الأسبوع بمحطّة الشّمال. لم تُعاودهُ نوبة ڤينيسيا؛ لقد تلاشى جراد البحر نهائيّاً؛ تناولنا كأساً في مقهى مُجاور، لم يعد له اليوم وجود؛ رغم أنّه كان مُحبّباً إلينا: كانت هناك صالة خفيضة، حيثُ المرايا مُتجاورة كالحراشف، مقاعد من الفرو وطاولات مرمر وإضاءة كئيبة تُذكّرنا بحانة پول؛ كانت الجدران مكسُوّة بخشب أسود منقوش على طراز التّوابيت الناپوليتانيّة. تبادلنا الحكايات حول آخر ما استجدّ لدينا من أحداث وعلّقنا على الأخبار. ثمّ نزلنا إلى مونبارناس. لقد قرّرنا أنّ الدّوم Dôme هو مقرُّ قيادتنا. كنتُ أتناول فطوري هناك في صباحاتي الشّاغرة. لم أكن قط أعمل في غرفتي بل على طاولة في عمق المقهى. حولي لاجئون ألمان يقرؤون الصّحف ويلعبون الشّطرنج؛ غرباء من كلّ الجنسيّات كانوا يتحاورون بحماس فيما بينهم لكن بصوت خفيض: لم تكن وشوشاتهم تُزعِجُني؛ مُنعَدِمة البهجة، أجلس أمام ورقة بيضاء؛ أرفع عينَيَّ لأتأكّد من أنّ الناس موجودون: يُحفّزني ذلك على أن أخُطَّ كلمات، ربّما لامست أحدهم يوماً. وأنا أتحدّث مع سارتر، أو أولغا، أحبّ رؤية الناس يغدون ويروحون. بفضل فرناند وستيفا تسنّى لنا أن نضع أسماء لبعض الوجوه: كان هناك راپوپورت بلحيته المُزهرة، النحّات «زادكين»، الضّخم دومينغاز، الضّئيل ماني-كاتز. الرسّام الإسباني فلوريس، فرنسيس غروبر الذي كانت أختي مُرتبطة به بشكل قريب، كيسلنغ، إيرنبرغ بوجهه الممتلئ تحت شعره الفوضوي الكثيف، عدد وافر من الرسّامين والكتّاب المشهورين والأقلّ شهرة. أثار فضولنا خصوصاً رجل وسيم ذو ملامح نافرة، وشعر أشعث وعَيْنَيْن نهِمَتَيْن، يتسكّع كلَّ ليلة من رصيف إلى

آخر وحيداً، أو بصحبة امرأة جميلة؛ كان يبدو قاسياً كصخرة وخفيفاً كطيف: هذا كثير، كنّا نعلم أنّه من الأفضل عدم الاستسلام إلى المظاهر ومظهره كان مُغرياً كفاية حتّى نصرف النّظر عن احتمال خيبة الأفق: كان سويسريّاً، نحّاتاً ويُدعى جياكوميتي. عموماً في باريس، وكما هو الحال في رووان، فإنّ النساء يبدون أكثر ظُرفاً من الرّجال. ليلاً، تسكَرُ أمريكيّات ذوات قامات طويلة لكن بأناقة. نساء فنّانات، زوجات فنّانين، عارضات أزياء، مُمَثّلات صغيرات في مسرح مونبارناس، فتيات جميلات، وأخريات أقلّ جمالاً أو أنيقات جدّاً، يُسلّينا أن نراقبهن يحلُمن أمام قهوة الكريمة، يثرثرن مع رفيقات، يتغنّجن أمام ذكورهنّ. يرتدين ملابس غير مُكلفة لكن بعد بحث؛ كانت إحداهنّ ترتدي ملابس جذّابة مُلغزة اقتنتها دون شكّ من معرض الملابس المُستعملة. أذكر جيّداً تلك التي كنّا نُسمّيها «السويسريّة»؛ كان شعرها أشقر، ناعماً جدّاً، ترفعه في شكل تاج على رأسها على طراز السّنوات 1900؛ كانت تلبس قميصاً برّاقاً ذا أكمام كفخذ الخروف؛ كانت تدفعُ عربة طفل. وكنّا من حين إلى آخر نجلس في مقهى سلكت Sélect، وسط نادلات ذوات شعر حليق، وربطات عنق، وأحياناً نظرات بعين واحدة: بدا المنظر مُتحذلقاً. كنّا نُفضّل الكوميديا العفويّة التي كانت تُؤدّيها الشابّات اللامعات. ذات مساء، اكتشفتُ مع أولغا في شارع الأمير سوقَ هوغار، إنّه مكان حيثُ تُباعُ أغراض رخيصة الثّمن ومُريبة؛ أذهلتنا نكهة البساطة والدّيكور، الموسيقى الصّاخبة الصّاعدة من الطّابق السّفلي، خصوصا الزّجاج المُزخرَف والمُزهر الذي قدّم لنا فيه رجلٌ عربيٌّ شاياً بالنّعناع؛ في العمق، فرقة تُقلّد أولاد النّيل، وترقص رقصة هزّ البطن؛ لا أحد في القاعة العُلويّة ما عدا امرأة في الثّلاثين، شعرُها مُسرّح بلا جمال، تُغنّي نصفَ مُمَدّدة على مقعد طويل. رأيناها بعد ذلك أكثر من مرّة في الدّوم؛ كانت دائماً وحيدة، لم تكن تُغنّي بل تُحرّك شفتَيْها كأنّها تستلهم كلمات من الخيال. أخرى من نفس السنّ، ذات ملامح قاسية، كانت تبتسم وعيناها نحو السّماء، تُخاطب مُحاوراً غير مرئي. شككنا في أنّه الربّ. كلّما كانت للنّاس سحنة غياب، شعرنا بالتّعاطُف معهم. بعضهم كان يُسبّب لنا القلق؛ كان هناك رجلٌ جاحظ العينَيْن وكانت عيناه تزدادان بروزاً أسبوعاً بعد آخر: خرجتا فجأة من محجَرَيْهما وسقطتا على الأرض؛ كان هناك أيضاً،

رجلٌ نُسمّيه السّادي. احتسيتُ كأساً مع أولغا في حانة لاكوپول؛ كانت تلبس معطفاً من فرو فهد مُزَيَّف، كنتُ أضعُ قبَّعَة رجاليّة؛ حدجنا رجلٌ ذو عينيْن مُتدلِّيَتيْن وفكّ مُتهدّل بنظرات زُجاجيّة؛ وضع أمامنا على الطّاولة صحيفة كتب عليها: «عبدٌ أمْ كلب؟» ابتلعنا بسرعة ما مشروبنا. غمغم عندما مررنا من أمامه: «أُطلُبا منّي عبور الصّالة على أربع قوائم وسأفعل!» رأيناهُ بعد أسابيع؛ كان يمشي في الشّارع بجانب امرأة ترتدي ياقة قاسية، ربطة عنق، حذاء عالياً وسحنة شرّيرة على وجهها: كان يبدو في غيبوبة. ألفة مُضمَرَة جمعت بيننا وبين مُرتادي مقهى الدّوم؛ اعتاد السُّكارى، المُتسوّلون، البؤساء أن يطلبوا منّا مائة فلس، لعلمِهم من مصدر أو من آخر أنّنا نشغل وظائف قارّة، أي أنّنا ميسوران؛ كانوا يظنّون أنّهم مُضطَرّون لاختلاق سلسلة مُعَقّدة من الأكاذيب: كان هوس كذب مُبتَذَلاً للغاية. كان هؤلاء المنسيّون، والمنفِيّون والفاشلون والحكّاؤون يمنحوننا إحساساً برتابة الرّيف. يُقال إنّ هناك امتثال القطيع في عدم الامتثال للقطيع: إنّه على أيّ حال يضفي جوّاً من الفنتازيا أكثر من الآخر. عشتُ مَسرّات قُصوى وأنا أعمل وحدي وسط هؤلاء، قريبة وبعيدة عن أولئك الذين يُراوحون مكانهم في الحياة كما اتّفق.

رغم الموارد التي تُوَفِّرُها باريس، فإنّ الثّلاثي خاصّتي سُرعان ما سقط في المشاكل مثلما كان حالُنا في رووان. كتب سارتر رسائل طويلة لأولغا – إحداها وصف لها فيها ناپولي وستَصلُحُ فيما بعدُ نقطة بداية لرواية *اغتراب*؛ ردّت عليه وتمّ بينهما لقاء حارّ. يحدث أن يتنزّها حتّى الفجر في شوارع باريس، مُستمتِعين بالرّفقة فحسب. ثمّ فجأة تعبسُ أولغا. كانت نوبات جفائها تُزعِجُ سارتر أكثر من مناسبات شعوره بتحسّن علاقتهما؛ كانت أولغا أيضاً من جهتها تجد صعوبة بالغة في نفاد صبره المُستَمرّ. بعد ساعات من العمل في قاعة الشّاي، كانت غالباً ما تنتابُها العصبيّة؛ يُرعِبُها فراغ مُستقبلها. خلافي وخلاف سارتر لم تكن تعرف سوى ماركو وبوست، كانت تتسكّعُ ساعات طويلة بمُفردها حتّى تُصابَ بالملل. قبل أشهر في رووان، أرادت أن تُجرّب مفعول الكحول؛ شربت الپيرنو: فاقت النّتيجة توقّعها بكثير. لم تتكرّر التّجربة قط.

الآن، كي تُناوِرَ سأمها وقلقها، راحت تلجأ إلى الپيرنو عن طواعية كي

تدخل حالة من الهذيان والعمى المُطبق. لدى عودتي إلى غرفتي، كنتُ أجد أحياناً، تحت الباب، ورقة ورديّة مليئة بكتابة مُبَعثَرَة: تصف أولغا تقزّزها من العالم ومن نفسها. على طريقة لويز پيرون، كانت تُثبّتُ ورقة بشأنها وبدا لي غير عادل أن تعاملني برمادِيّة أكثر قتامة ممّا مضى. اعتقدتُ أنّنا في باريس سنتجاوز، دون ريب، هذه المتاهة التي أحكَمَت قبضتها علينا في رووان؛ لكن لا. لم يكفَّ سارتر عن التذمّر من تصرّفات أولغا؛ فقدت كلَّ أمل في العثور على مخرج وبدأتُ أغضب جرّاء الدّوران في حلقة مُفرَغة. بعيداً عن التحسّن أو عدمه، راحت أوضاعُنا نحنُ الثّلاثة تسوء وتصبحُ غير مُحتَمَلة يوماً بعد آخر. رحبت بالأمسيات بصحبة ماركو وبوست، مُعتبرة إيّاها نطاق هروب. في تلك الفترة أصبح كلاهما لا يفترقان. كانا يذهبان معاً إلى السّينما والحفلات؛ أعطى ماركو لبوست مفتاح غرفته كي يسمع أسطواناته كلّما عنّ له ذلك. كان بوست حسّاساً أمام سحرِ ماركو وجاذبيّته، دعاباته، وتهديداته التي كان يقبلها ببساطة الشّباب؛ لم يكن يندهش لدى رؤية ماركو يسقط في اضطراب غامض. كان يعتقد أنّ ماركو مُنشغل بمسيرته. غنّى صيفاً، في كازينو ڤيشي ولوري ڤوليي الذي هتف مذهولاً عندما سمعَه للمرّة الأولى: «أخيراً صوتٌ خارق!»؛ كان الفنانون المشاهير يولون القليل فقط من الانتباه للمُبتدئين ما جعل هذا الإطراء المفاجئ يُثمِلُ ماركو. في أكتوبر مَثل أمام مُدير الأوبرا في نطاق اختبار سماع: «إذاً، أيّها السيّد! قال له المُدير، عد حين يُصبحُ في إمكانك الغناء بشكل دقيق» نسب بوست لهذا الإخفاق أنّنا لم نكن نُفسّرُ مزاج ماركو بشكل جيّد. رويداً صارح نفسَه: كان ماركو ينتظر منه أكثر من الصّداقة، وراهن كلّياً على هذا الأمل. لم يكن بوست راغباً في الانفصال عن ماركو ولا أن يرضخ لشغفه: تخبّط هو الآخر في الفخّ. لم يعد ماركو يُخفي شيئاً على أحد، لقد بات يبكي ويتّهم بوست بالاحتماء بسارتر ضدَّه. كنتُ أعمل ذات صباحٍ في مقهى الدّوم عندما انبجس ماركو: «تعالَيْ»، قال لي آمراً لكن بصوت مُرتعش. نزلتُ معه إلى شارع ديلامبير ورأيتُ دموعاً في مُقلتَيْه. البارحة، لدى عودته إلى غرفته حوالَيْ السادسة مساءً، سمع صوت موسيقى وهمس أصوات؛ نظر عبر ثقب القفل فإذا به يرى أولغا وبوست يُقبّلان بعضهما بعضاً: لا أكثر من ذلك لكن نظراً لطبع أولغا المُتحفّظ فقد استخلص أشياء مأساويّة بالنّسبة إليه.

علمتُ بعد ذلك أنّه التقى بسارتر وأولغا في مقهى الدّوم مساءً. وأنّه تلفّظ بجُمَلٍ ساخرة لا أحد منهما فهم القصد من ورائها فقد كان سارتر يجهلُ ما يعلَمُه ماركو وأولغا لا تشكّ في أنّه يدري بشيء. أمضى ماركو بقيّة اللّيلة مُنتَحِباً؛ لقد أدرك تماماً ما حصل: كان العشرينيّان مُستَمتِعَيْن فترة طويلة؛ ارتمى كلاهما في حضن الآخر هروباً من عُقَد الكبار وتطلّبهم المُزعج.

شخصيّاً، بدا لي أنّ أولغا قد وُفِّقَت عندما قرّرت كسرَ الحلقة التي لم نُفلِح في الخروج منها. واجه سارتر كلَّ شيء. وأبدى إتقانه للُّعبة. حاول ماركو بإلحاح، إقناعنا بالقَطْعِ مع أولغا وخصوصاً مع بوست؛ رفضنا ضمّنا إلى دائرة ضغينته. كان يجوب مونبارناس بمُسَدَّسٍ في جيبه؛ دخل الدّوم على حين غرّة كي يُباغت تآمرنا عليه؛ اعتقد أنّنا كنّا نلتقي في فندقي أربعتنا لنحيك الدّسائس ضدّه؛ تجسّس من خلال إحدى النّوافذ: ظلال كانت تمرّ عبر الزّجاج وكان ماسكاً بمقبض مُسدّسه مسعوراً؛ ارتبك حين أخبرتُه أنّي أسكنُ غرفة أخرى. نسِيَ لعب دور الرّجل الخارق. وراح يُوَزّعُ آلامه ودموعه. لقد أثار شفقتنا إلى درجة أنّنا قرّرنا أخذه معنا في رحلة إلى شامونيكس Chamonix[29].

لم يكن سارتر مُبتَهِجاً هو الآخر. إضافة إلى فشل الثّلاثي، فقد اعتصر قلبَهُ أمر آخر. قدَّم نيزان مخطوط كتابه *ميلانكوليا* - الذي استلهم عُنوانه من نقش للفنّان دورِرْ كان يُحبُّه كثيراً - إلى دار غاليمار، وتلقّى كلمة من پولهان Paulhan يُؤكّد له أنّ الكتاب قد تمّ رفضُه وأنّه مع ذلك لم يكن يخلو من مزايا.

لقد تقبّل بهدوء رفضَ *أسطورة الحقيقة*؛ لكنّه اشتغل أربعَ سنوات على *ميلانكوليا* الذي استجاب تماماً لأفكاره؛ اعتبر من وجهة نظره ومن وجهة نظري أيضاً، أنّه أصاب هَدَفَه. عارض پولهان مقاصد سارتر ذاتها: التّعبير عن حقائق وأحاسيس ميتافيزيقيّة بأسلوب أدبي؛ كان هذا المشروع مُتَجَذّرا في أعماقه منذ زمن طويل حتّى يقبل بسهولة حُكماً مُماثلاً: شتّت هذا الرّفضُ عقولنا، تأثّر جرّاء ذلك پانييز والسيّدة لومار أيضاً؛ رجّحا ربّما أنّ *ميلانكوليا* كانت مُمِلّة وربّما كُتِبَت بشكل سيّئ؛ أفضى بنا هذا التشتّت إلى نوع من

29- شامونيكس Chamonix : قرية على الحدود الفرنسيّة السويسريّة الإيطاليّة، اشتهرت بمحطّة التزحلق على الثلج ورياضات الشتاء.

الحيرَة: كيفَ يمكن أن يحدث فارق مُهمّ كهذا بين وجهة نظر الآخر ووجهة نظرنا؟ كان سارتر فعلاً قد عزم على عرض مخطوطه على ناشرين آخرين؛ لكن بما أنّ كلَّ طعن كان له صدى في نفسِه وبعيداً عن الدّفاع عن نصّه بغرور، اختار سارتر طرح أسئلة مُزعجة.

كانت الإقامة في شامونيكس، إذاً، خالية من الفرحة. كان الشّتاء قاسياً جدّاً، لقد أُغلِقَت كلّ المسالك بسبب الجليد؛ أحد التّلاميذ في المعهد، بعد ثمانية أيّام من التّدريب راهن على النّزول من مُنحَدَر بريڤنت Brévent: وُجِدَ جسدُهُ مُمَزَّقاً.

صعدنا العربة المُعلّقة (تليفيريك) وغامرتُ بصحبَة سارتر بالتّزحلق على مُنحَدَرات خفيفة. لم يُصَب ماركو بالغثيان، كان يتلقّى دروساً خاصّة، ولم يكن يخافُ أيَّ فارق في الارتفاع، وتحت ذريعة اكتساب المهارة، راح يلاحقُ الثّلوج الأخطر. ذات ظهيرة، ذهبتُ مع سارتر إلى مضيق ڤوزا Voza؛ نزلنا عبر المسلك الأزرق الذي كان يتخلّلُ الغابة والذي لم نكن نُحسِنُ التّعامل معه في الفندق ووجدنا ماركو، كان وضعُه النّفسي يزداد تعكُّراً كلّما أوغلنا في اللّيل. رأى في الحلم أنّ بوست رافقه إلى رياضات الشّتاء، لا شيء استطاع مُواساته عن غيابه. بعد العشاء خرج إلى الثّلج كي يدعك رأسَه بغسول الكبريت الذي بات يُطلق الآن رائحة كريهة جدّاً؛ طلب من سارتر ذات مرّة أن يُجرِّبَه؛ سمحتُ له بثلاث قطرات على قطعة قماش، لامست جمجمتي فيما بعد وأحسستُ أنّ رأسي قد اشتعل.

رجا ماركو، لشدّة وحدته ليلاً التي لم تكن تُحتَمَلُ، أن ننام ثلاثتنا في غرفة واحدة. شغلْنا ما يُشبه المخزن البائس العاري حيثُ كان هناك ثلاثة أسرّة. دخل ماركو إلى فراشه وانخرط في بكاء مرير بدموع حقيقيّة، واستمرَّ نشيجُه طويلاً عبر الظّلمات. لقد أحبّ، بل لقد عاش الهُيام، قال لنا، لكنّه لم يلتقِ قط بشخص يتمنّى أن يقطع معه عهداً نهائيّاً بقيّة الحياة؛ في جويلية، ظنّ أنّ هذا الحظّ قد حالَفَه: إنّه يخسَرُه دون أمل؛ لا شيء قد يُواسيه أبداً. أخبرنا باكياً عن شكل الحياة التي كان سيعيشُها مع خليل اختاره بعناية؛ كان سيَضَعُ بين يديْه ثروته وأمجادَه؛ كانا سيُسافران معاً من مكان إلى آخر، على متن سيّارات طويلة

متألّقة. دعوْناه إلى النّوم؛ صمتَ، أطلق زفرة ومن جديد راح يروي لنا الصُّوَرَ التي عبرتْ مُخيِّلَتَه: بوست، شاله الأبيض، ابتسامته الناصعة، حداثة سنِّه، هيبته، قسوته غير الواعية؛ لدى الخروج من لقطة حارقة، كانا يذهبان معاً إلى السّينما لمُشاهدة شارلو أو الإخوة ماكس Max brothers. كان ماركو بقلبه المُحَطَّم يسمعُ بوست يضحك! كان في هذيانه شيء ما أشدّ سواداً وأكثر عناداً من تخريف لويز پيرون: بدا لي أنّه بصدد صنع جحيم لا مفرّ منه على الإطلاق.

عند العودة، استأنف شتائمه ودموعه المُوجَّهَة إلى بوست الذي تفاقمت الوقائعُ من ناحيته؛ لم يكن سعيداً؛ أولغا أيضاً. استَمَرَّت في رؤية سارتر الذي قرّر الحفاظ على علاقة جيّدة معها؛ دون أن يعود لها حيّزٌ في قلبه؛ كالعادة ساورتها الشّكوك حول مُستقبلها؛ أخذتني للتّرويح عن أنفسنا إلى مرقص مونبارناس لكنّني سرعان ما أُصابُ بالملل. كانت أغلب أمسياتنا حزينة. لحسن الحظّ أنّ سارتر قد استعاد مزاجَه الرائق؛ راوَدَه القليل من الأمل في شأن *ميلانكوليا*. كان دولان صديقاً قريباً ومُقرَّباً من غاستون غاليمار وكتب له مُلتَمِساً أن يقرأ بنفسه المخطوط المرفوض. من جِهَته قابل پيير بوست غاليمار ليُشجّعَه على قراءة الكتاب. كان سارتر في الأثناء مُنشَغلاً بكتابة قصّة وجد فيها متعة كبيرة. خلال جولته البحريّة في النّرويج جرّب للمرّة الأولى هذا الجنس الأدبي القصير، *شمسُ منتصف اللّيل*. ضاعت منه في مُقاطَعة كوس Causses ولم يُعد كتابَتَها. ألّف تلك السّنة *إيروستات* والآن ها هو يعمَلُ على *اغتراب* (لم ير منها النّور سوى بعض المقاطع، بعد فترة طويلة من صدور *الجدار*). رافقتُه مرّتَيْن أو ثلاثاً إلى دولان: كان يستأجر غرفة في فندق دافئ ذي رائحة مُتعَفّنة. في باريس، زُرنا معرض غوغان Gauguin؛ شاهدنا أفلاماً. قرأنا. ساعدنا كتابُ *الفاشيّة والرّأسماليّة الكبيرة* قليلاً على فهم فترتنا التي كنّا نمرّ بها. شغفنا ستيكل Stikel بكتابة *المرأة الباردة* لأنّه يقترح تحليلاً نفسيّاً يُقوِّضُ نظريّة اللاوعي. كنّا بعيدَيْن عن جورج برنانوس؛ غير أنّ مُذكّرات *كاهن مُرافَقة* أوجب علينا احترامَه؛ قرأتُه عديد المرّات مُندهشة ببراعته المُتخفِّيَة تحت بساطته. كاتبان مجهولان بالنّسبة إلينا أثارا إعجابنا: كينو عندما كتب *الأيّام الأخيرة* ولايريس بكتابة *عمر الإنسان*.

حضرنا بروفات جول سيزار بإخراج من دولان؛ كامي التي قامت بالاقتباس، ساعدت في الإخراج أيضاً؛ لعب دولان بشكل سيّئ دورَ كاسيوس: بدا كأنّه مُنَشّط. اختار لدور سيزار كوميدِيّاً قديماً غير معروف، كانت الحِرَفُ ستلائمه أكثر من الموهبة لكن كان جسدُه نحيفاً ومُناسباً للشخصيّة: شكلُه، حركةً تلو حركة، كلمة تلو أخرى، استطاعَ أن يبدو في نظرنا مُمَثّلاً كبيراً.

جسّد ڤانديريك الوسيم بروتوس بفنّيات عالية؛ كان لجينيكا إتنازيز وجه نبيل وصوت مُؤثّر رغم اللّهجة الواضحة. أمّا مارشا فقد تقمّص شخصيّة مارك أنطوان، وكان رائعاً. أُعجِبتُ بعمل دولان وكامي وكامل الفريق، ومساءَ العرض الافتتاحي تابعتُ باهتمام كبير النّقد الذي أشارت لي به كامي: كانت الأغلبيّة من المُسنّين وقد بدت عليهم الكآبة واضحة؛ كان شتاءً، وكثير منهم يسعُلون؛ كان لونيي پو يبصُق في علبة فضّية صغيرة. لقد صدمَهم النصُّ الذي رفضتْ كامي تمييعَه. مع ذلك حاز العرضُ نجاحاً كبيراً. خلال مشهد احتفالات لوپركال على شرف إله الغابات، عبرَ الرّكحَ اثنَان من العبيد راكِضيْن، ماسكين بسياط في أيديهما. كانا عاريين تقريباً: كادا في كلِّ مرّة الإطاحة بالتّمثال النّصفي لسيزار المُنتَصِب وسط السّاحة؛ في ذلك المساء، تجنّباه بمهارة عالية. أحدُهما شدّ انتباه الجمهور بوسامته؛ سأل جون كوكتو عن اسمِه: جون ماري Jean Marais.

انغمستُ في مشاغلي ومُتعي بدرجة أقلّ من الفرح مقارنة بالعادة: أحسستُ طوال الوقت أنّي مُتعَبَة. مع أولغا، سارتر، معها كنتُ أسهر حتّى ساعة مُتأخّرة؛ يرتاحُ سارتر في لاوون، أولغا خلال النّهار، أنا أبداً. ثابرتُ على العمل، أردتُ إنهاء كتابي. أستيقظ باكراً في الصّباح لألتحق بالمعهد. أحياناً، كنتُ في المترو أقيس بقلق، الزّمنَ الذي كان يفصلني عن اللّيلة المُوالية: «ما زال أمامي ستّ عشرة ساعة قبل أن أنام!» كنتُ مُستعدّة لأدفع أيَّ شيء مُقابل النّوم فوراً ودون موعد أستفيق عنده. حدث أن أغمضتُ عَيْنَيَّ وفقدتُ وعيي بما حولي دقائق وأنا أنتظر سارتر في مقهى قريب من محطّة الشّمال.

تحوّل النّعاسُ إلى هَوَس. عرفتُ الإنهاك، خلال السّنة التي كان عليَّ فيها الاستعداد لشهادة التّبريز، لكن عندما يثقُل رأسي مساءً، لم أكن أقاوم:

أخلُد إلى النّوم. الآن، عليَّ إجهاد نفسي حتّى ساعة متأخّرة والاستيقاظ مُثقَلَة بالرّغبة في مزيد من النّوم. لم أكن أتعافى قط. أدركتُ آنذاك أنّ التّعب مُدَمِّر كمرض وأنّه قادر على قتل كلِّ مباهجِ الحياة.

من ناحية أخرى، تابعتُ بكثير من السّرور صعودَ الجبهة الشّعبيّة حتّى لا يُحبطني انحِطاطها. كما لم تكن تستجيب لأوامره القيادة المركزيّة. شكّل نقصان الوحدة هذا خطراً رهيباً، في مواجهة جيش فرنكو العتيد، الذي كان يلقى دعماً مُتزايداً من قِبَل ألمانيا وإيطاليا.

انقَبَضتْ قلوبنا عندما حدّثنا فرناند عن مدريد: منازل مبقورة بمقاطعة الكالا Alcala (القلعة)؛ الأرصفة مُتصدّعة حول باب الشّمس La puerta del sol؛ الحيّ الجامعي الذي تحوّل إلى غبار. غادر نحو إسبانيا مُؤمناً دائماً أنّ الانتصار سيكون حليف الجمهوريّين. وبدا أنّ الأحداث تُؤيّد نبوءته. استطاع الجيشُ الشّعبي في خاراما وغوادا لاخارا إيقاف هجوم فرنكو ضدّ مدريد. غير أنّ جنود الدّيناميت فشلوا في استعادة أوڤييدو Oviedo. جنوباً، سقطتْ مالاغا.

كان السّببُ وراء هذه الهزائم واحداً: انعدام الأسلحة. راحت مهزلة «عدم التدخّل» تبدو لنا مُجرمة يوماً بعد يوم. للمرّة الأولى في حياتنا، لأنّنا انشغلنا في أعماقنا بقضيّة إسبانيا، تلوح لنا الإدانة غير كافية كمَخرَج؛ عجزُنا السّياسي كان أبعد من أن يَصلُحَ لنا حُجّة، إلّا أنّه كان مُؤسفاً للغاية. كان عجزاً تامّاً. كنّا معزولين، لم نكن أحداً: لن يكون لما سنقوله أو نكتبه في شأن التدخّل وزن يُذكَر. لا مجال أيضاً للذّهاب إلى إسبانيا؛ لا شيء في حياتنا يدفعُنا إلى خُطوة مجنونة كهذه. ثمَّ إنّه في ظلّ انعدام وسائل سياسيّة وتقنيّة مُعيّنَة، لن يكون التصرّف إلّا شبيهاً بما جاء في *الذّبابة والقُرادة*. عبرت سيمون وايل الحدود للالتحاق بالميليشيا؛ طالبت ببندقيّة؛ عُيِّنَت في المطبخ وقلبت على قدميْها قِدراً من الزّيت المغلي. التقت كوليت أودري في برشلونة بقادة حزب العُمّال للوحدة الماركسيّة P.O.U.M، تحدّثت في تجمُّعات خطابة؛ عادت سعيدة من رحلتها لكنّنا شككنا في صحّة أقوالها.

أراد بوست الذّهاب إلى إسبانيا، هروباً من حالة الكساد التي تسبّب له

فيها ماركو إضافة إلى ضياع علاقة قديمة. كانت الحدود مُغلَقة منذ فيفري، ليس أمام الأسلحة فحسب بل أمام المُتطوّعين أيضاً؛ طلب من سارتر أن يسأل نيزان ما إذا كان في وُسعِه تهريبه خلسة. تساءل سارتر قلقاً للغاية: أمِنَ الواجب النّزول عند طلب بوست أم لا؟ من حيثُ المبدأ على المرء احترام حرّية الناس؛ لكن لو أنّ بوست تعرّض إلى مكروه فسيشعر بالذّنب حتماً... انتهى به الأمر إلى التحدّث بغير حماس مع نيزان الذي أرسل بوست ومالرو أيضاً. شرح الأخير أنّ الجمهوريّة في حاجة إلى أسلحة وكوادر ومُتخصّصين في ميادين مُختلفة وليس إلى مُقاتلين عديمي التّجربة. فريسة صعوبات مادّية خطيرة، أعلن بلوم أنّ الـ«هدنة» ضروريّة. اكتُشِفَت مُؤخّراً جمعيّة سرّية بتنظيم من اليمين المُتطرّف الذي كان يُخزّن الأسلحة ويعملُ بالتّعاون مع جهاز الجوسسة الهتلري. افتُضِحَت المؤامرة وبدل نشر أسماء الضالعين أُخمِدتْ القضيّة. إنجلترا مثل فرنسا وافقت دون احتراز على التدخّل الألماني-الإيطالي في إسبانيا. كان البلد الوحيد الراغب في قطع الطّريق أمام الفاشية هو الاتّحاد السوفيتي وها إنّنا لا نفهم شيئاً مما يحدث في تلك المنطقة. كان «جيد Gide» مُتعجّلاً في الوَلَع، مُتعجّلاً في التراجُع، كي نُصدّق *عودة الاتّحاد السوفيتي* الذي سارع في نشره بعد عودته من روسيا والذي أثار زوبعة كُبرى. لكن، ماذا تعني المُحاكمات التي تجري في موسكو؟ روتْ صحيفة *الصّباح* غير مازحة أنّ اعترافات المُتّهمين قد انتزعت منهم بواسطة «عصير الحقيقة» وهو عقار يُمكن شراؤه مُقابل أربعة سنتات من أمريكا؛ إنّها حماقة: لكن أيّ تفسير يُمكن استخدامُه للردّ؟ نيزان الذي أمضى في الاتّحاد السوفيتي سنة من النّشوة أُصيب بحيرة عميقة؛ كان لنا معه حوار طويل في مطعم ماهيو Mahieu وكعادته كان حذِراً في التعبير عن مشاعره لكنّه لم يُخفِ اضطرابَه. لم نتخيّل الاتّحاد السوفيتي على أنّه جنّة إلّا أنّنا أيضاً لم نتساءل بجدّية حول البناء الاشتراكي. كان ذلك مُزعجاً خصوصاً في الفترة التي أثارت فيها سياسة الديمقراطيّات اشمئزازنا. ألا يوجد مكان واحد في العالم يُمكن تعليق الآمال عليه؟

فإسبانيا لم تكن أرضَ أمل بل ساحة معركة لا أحد يعلم إلى ماذا ستُفضي. حصل فرناند على رُخصة في شهر فيفري؛ كان طافحاً بالحماس، لكنّ الوضعَ

مُقلق من خلال أحاديثه. أضحكنا وهو يحكي لنا كيف استطاع انتزاع لقب المسؤول؛ أثناء مُشاجرة مع أصدقائه، وجد نفسَه في أرض مكشوفة، تحت نيران العدُو، أخذ فريقه للاحتماء وراء أحد الجدران: هنّأه الجميع بحرارة على المبادرة الشّجاعة؛ تحصّل بسرعة على مرتبة النّقيب ثمّ القائد: وانتهى به الأمر إلى مرتبة جنرال. وهو يسرُد طرائف ارتقائه، أخبرنا إلى أيّ حدّ يفتقر فيه الجيش الشّعبي إلى كوادر، إلى الانضباط والتنظيم. كانت الفوضى الاجتماعيّة والسّياسية أكثر خطورة. لم يكن الشيوعيّون، الراديكاليّون، الزّعماء النقابيّون يخدمون نفس المصالح. رَفَضَ الفوضويّون في كلّ مكان أنّ عليهم كسب الحرب أوّلاً قبل القيام بثورة؛ في بعض الأرياف والأصقاع النّائية مثل كاتالونيا، انشغل النقابيّون خاصّة بعقد اتّفاقيّات مع السوفييت، فيما كان عليهم الاهتمام بتشغيل المصانع. أزعج الفوضويّون التحرّكات الحكوميّة بمساعداتها العشوائيّة لها؛ يا للثّورة! من المُدهِش أن أكون نفسي، فقط نفسي وبالضّبط، لا شيء فريداً من نوعه مثل أن يكون المرء نفسه حتّى إنّه من الصّعب التصديق بأنّ هذه الفرادة يتمتّع بها الجميع دون استثناء. المرض، الحوادث، المآسي، إنّها أشياء لا تحدُث سوى للغير: لكن تحت أنظار الفضوليّين أتحوّل فجأة إلى هذا الآخر. نعم، لقد اقتلعوني من حياتي، من شعوري بالأمان، ليُلقى بي في بلاد اللا إنسان، حيثُ كلّ شيء مُحتمل؛ لا شيء سيحميني مُستقبلاً، كلّ الأخطار مُحدقة بي. في حينه لم أقل هذه الأشياء مُستعينة بالكلمات؛ كان معنى الذّهول الذي غرقت فيه طوال الطّريق: «المريضة التي ينقلونها، هي أنا!»

ثمَّ لم أعد أفكّر طويلاً في الأمر؛ استسلمتُ ببرودة الملاءات؛ سألزم فراشاً، حقنوني وأخذوني على عاتقهم: يا لها من راحة أشعر بها أنا التي تعيش أبداً بيَدَيْن مضمومَتَيْن! علمت لاحقاً على وصولي أنّ إحدي رِئَتَيَّ كانت شبيهة بكبد وأنّ الأخرى بدأت تنحو منحاها؛ ما من سبيل حينها لمنع الالتهاب؛ اكتَفَوا بحقني لتقوية القلب: لكن لو أنّ الرّئة الثانية تداعت فإنّها النّهاية. لم تخطر لي فكرة مماثلة. انتظرتُ الشّفاء بثقة. نمتُ مرفوعة الصّدر بالوسائد؛ حافظت على نفس الوضعيّة واستفقتُ بصعوبة، كان الوقتُ مُشَوّشاً. حين استعدتُ وعيي شغلتني الحُمّى؛ إنّها تُضاعف ثلاث مرّات أضعف الأصوات والأضواء المُتذبذبة: صباحاً، يملأ شدو العصفور الكونَ والأبديّة من الطّرف

إلى الطّرف؛ نظرتُ إلى سلّة الزّهور التي أرسلها تلاميذي، على المنضدة بالقرب من رأسي إبريق مليء بعصير البرتقال: لم أكن أرغب في أكثر من ذلك. إنّها تكفيني. استيقظتُ رُوَيْداً. كانت أمّي تزورني كلَّ صباح تقريباً، سارتر بعد الظّهيرة حيثُ لا يكون في لاوون.

جلست أختي، أولغا، السيّدة لومار وبوست بالقرب منّي، وحدَّثْتُهُم. يوماً ما استطعتُ القراءة. وجدتُ الرّيف في الرّواية الأولى لتايدمونيي *الشّارع القصير*. أراد الطّبيب معرفة ما إذا كانت رِئَتَاي قد تضرّرتا بجدّية، قام بتصويرها؛ يا لعذاب الوقوف! كاد يُغمى عليَّ. انتظرتُ النّتيجة يَومَيْن بقدر كبير من الفضول لا من التوجّس؛ بكيتُ وأنا أغادر غرفتي بالفندق، لكنّ فكرة الذّهاب إلى مصحّة لم تُغضِبْني. «ستكون تجربة»، قلت في نفسي. سأظلُّ وفيّة لمبدئي، وهو أن أحوّل كلَّ ما تعرّضني إليه الحياة لمصلحتي. يحزّ في نفسي أن يُكرّرَ العالمُ: حسناً! سيتغيّرُ حتماً. الثّلاثي، اضطراباته، لقد انتهى الأمر بهواجسه لأن تُثقل كاهلي، حتّى بدا المنفى مُريحاً في نظري. هل كان هذا الانفصال إحدى وسائل الدّفاع المُبكّرة: لو كان عليَّ أن أعالج نفسي طويلاً في مكان بعيد، هل كان ذلك سيجعلُ مزاجي يتعافى؟ لم أخُض هذا الامتحان. سُمِحَ لي بإتمام نقاهتي في باريس.

هل يُحسنُ بوست استخدام رشّاشة؟ لا، اعترَف. «ربّما أمكنكم التدرّب عند غاستين رينيت»، قال مالرو جادّاً. سقط مشروع بوست في الماء. ذات مساء، انتابتني قُشعريرة مُفاجئة وأنا أتحدّث مع بوست في مقهى سيليكت. جرت العادة أن أستخفّ بالزّكام، نزلة البرد، الحُمّى، لكنّ الهزّة هذه المرّة كانت عنيفة ما جعلني أقول: «يجب أن أعود!» نمتُ نوماً مُضطرباً، استيقظتُ مُبَلّلة بالعرق ولزمتُ الفراش اليومَ بأكمله؛ عندما عاد سارتر من لاوون مساءً لم يشكّ كلانا في أنّه ما من دواء قادر على شفائي. منذ فترة وكاميي تُريد التعرّف على السيّدة لومار ودعَتْها للعشاء معنا؛ لم أشأ التخلّف عن هذا اللّقاء. وجدتُ مَشقّة في ارتداء ملابسي، كنتُ أرتجف لكن في النّهاية لن أستسلم لميكروب. في الخارج، كان الجوُّ بارداً جدّاً ووصلتُ إلى بيت كاميي في وضع سيّئ. كانت قد نقلت مقرَّ إقامتها إلى شارع ناڤاران وأصبحت تسكُن ورشة كبيرة

أثّثتها مثل منازل فيرول Férolles، مُستخدمة إكسسوارات مسرحيّة، تُحفاً قديمة عثَرَت عليها لدى باعة الأغراض العتيقة وابتكارات خاصّة بها؛ موقد كبير يُدفّئ الغرفة؛ كان بيتاً جميلاً وفيه ما يكفي من ضروريّات، كان حقّاً مسكناً حميماً. استقبلت كامي ضيوفها باحترام ولباقة. وألقيتُ نظرة على الأباريق والزّهور والمُقبّلات المُلوّنة؛ تمدّدتُ على سرير مُغطّى بحرير قديم، وفيما كان الآخرون يأكلون ويتحدّثون كنتُ أحاول التنفُّس بصعوبة. أخذني سارتر والسيّدة لومار أخيراً؛ أحسستُ بارتعاش في كامل مفاصلي ونحنُ ننزلُ السُلَّم؛ ضبابٌ جليدي ملأ الشّوارع وشعُرتُ به ينزل إلى رئتَيَّ وأنا أنتظر سارتر الذي أسرع لإيقاف سيارة تاكسي. نمتُ تحت تأثير الحُمّى؛ كنتُ أرتجف طوال اللّيل. قبل مُغادرته في القطار، اتّصل سارتر بطبيب أمر فوراً بالكمّادة؛ اعتنت بي أختي والسيّدة لومار مدّة يومَيْن كامِلَيْن. حملت لي أكل المرضى: كريمة الكراميل، مُرَبّى المشمش؛ لم ألمس شيئاً؛ آلام رهيبة كانت تُمزّق ضلوعي اليُسرى لدى أبسط حركة. أمضيتُ اللّيالي أرشحُ بالحُمّى، بلّلتُ ملابسي مَرَّتَيْن. صباحاً، خشيَ الطّبيب عليَّ: أعلن أنّه من الضّروري نقلي إلى المصحّة. لم أشأ. لدى عودته من لاوون قال سارتر إنّ السيّدة لومار قد رتّبت كلَّ شيء، ستنقلني سيّارة إسعاف إلى سانت–كلود بعد الظّهر، بكيتُ: خُيِّل إليَّ أنّهم يقتلعونني من حياتي إلى الأبد. هدأتُ. كانت مفاجأة كبيرة لي عندما أرقدتني المُمَرّضة على النقّالة وأنزلتني، رأسي مُنخفض، السّلالم، كلّ شيء بدا غريباً. أمام الباب، كان الفضوليّون في الموعد ليتفرّجوا وفيما كانوا يوصدون السيّارة، حدّثتُ نفسي فزعة: «ها إنّ الأشياء تحدُث لي أنا!» لم أكن أقلّ اندهاشاً عندما استيقظتُ في عُمق اللّيل. يمكن، إذاً، لأي شيء أن يحدُث لي كأيّ شخص آخر.

حجز لي سارتر غرفة في فندق ماركو، أكثر اتّساعاً ورفاهة من الرّوايال بروتانْي. لزمتُ الفراش، لكنّني كنتُ سعيدة بمغادرة المصحّة! إنّها عطلة عيد الفصح؛ ساعة الغداء، خرج سارتر لمطعم كوپول لجلب طبق اليوم، جاء به إلى غرفتي بخطوات وئيدة خشية أن يقلب شيئاً؛ مساءً كنتُ آكلُ الجومبون والفواكه. استعدتُ عافيتي. المُضجر هو أنّي كنتُ تحت رحمة الناس الذين جاؤوا لرُؤيتي. ثمّ هذا الحبس الذي بدأتُ أنوء بحمله. حاولتُ المشْيَ في

غُرفَتي لكنّ رأسي كان يدور، وتحتّم عليَّ تعلّمُ الوقوف على ساقَيَّ ثانية. غادر سارتر إلى لاوون، ماركو وبوست المُتصالِحان قليلاً هما اللذان أخرجاني في نزهتي الأولى؛ أخذاني إلى اللكسومبورغ ماسِكَيْن بذراعيَّ من كلِّ جانب: الهواءُ الطّلق، والشّمسُ دوّخاني وترنّحتُ.

استأنفتُ قراءة الصّحف من جديد: نفسُ العناوين إضافة إلى هذا، *المساء* الصّادرَةُ بداية شهر مارس التي كان يُديرُها أراغون، حيثُ كان نيزان مُكلّفاً فيها بالسّياسة الخارجيّة. ورغم أنّ بلوم قد نادى بالهُدنة فإنّ ماليّة الطّوارئ القُصوى قد طُبّقت آليّاً لإفلاس الحكومة. حُلّت الرّوابط لكن سرعان ما أسّس لاروك La roque الحزب الاشتراكي الفرنسي ثمّ بعدَه دوريو Doriot الحزب الشعبي الفرنسي - الذي انخرط فيه رامون فرنانديز - خلال أحد اجتماعات الحزب الاشتراكي الفرنسي تجاوب عُمّالُ كليشي بمُظاهرة عنيفة ردّ عليها البوليس بالمثل وكان الثّمنُ خمسة قتلى من صفوف العُمّال. أخذت حربُ إسبانيا منحى سيّئاً. قصف أنصارُ فرنكو مدريد والجنوب؛ قاموا بمذبحة أطفال ونساء في دورانغو؛ طائرات ألمانيّة ألقت القنابل على بيلباو. ونهاية أفريل هزّت مجزرة غرنيكا الكاثوليك: أدانها موريالك بشدّة، مادول، برنانوس، ومارتيان. في فرنسا، انطلقت حملة استنكار ضدّ سجن الأطفال مع الأشغال الشاقّة.

مات مُستوطن يبلُغ من العمر تسعة عشر سنة في إيِيس Eysses بسبب سوء المُعاملة؛ وعدت الحكومة بتحسّن الأوضاع، لكنَّ شيئاً لم يتغيّر في إيِيس، في أميان وميترايْ. لم أكن أرجو سوى نسيان هذه المآسي التي لا قِبَل لي على تحمّلها. أطعتُ الطّبيب الذي وصف لي راحة مُدّتها ثلاثة أيّام في ميدي Midi.

رافقتني أولغا إلى القطار؛ كانت حجرتي مُدفّأة أكثر ممّا يجب؛ لم أُفلِحْ في النّوم وأمضيْتُ اللّيل أقرأ حشرة *اللكسبورغ* لأندريه بايون. في الصّباح الباكر، كانت تولون تضوع بروائح الميموزا والسّمَك؛ ركبتُ الحافلة التي تسلُكُ الطّريق المُحاذي للسّاحل، كان طريقاً مُتعرّجاً بشكل خطير. خُيِّل إليَّ أنّي سأُقذَفُ في الخارج عند كلِّ منعَطف.

منع عنّي الطّبيب ضفاف البحر، السُلّم الطّويل وكلَّ إجهاد؛ استَقرَّ بي

المُقام في بورم-لي-ميموزا. كانت المَحَطّة عبارة عن مكان وعر ومُهمل نزلتُ فيها وحدي؛ ما من مُوَظّف أو عامل. كانت السّاعةُ مُنتَصَف النّهار؛ فوراً قفزت إليَّ الشّمسُ وروائحُ الرّيف: كان انبعاثاً مشرقاً بعد فترة علاج مُظلِمَة.

مشى بجانبي، نحوَ القرية، رجُلٌ حمَلَ عنّي حقيبتي. كان من الممكن رؤية البحر القريب وجُزُرَ هياريس Hyères؛ لكنّني قرّرتُ أنّ المسافة بيننا كافية. لم أشعُر بأنّي مريضة. إنّها المرّة الأولى في حياتي التي سأقيم خلالها بمكان ريفي، في البداية استمتعتُ بذلك. نزلتُ في أفضل فُندُق - إقامة كاملة مُقابل ثلاثين فرنكاً - حشَوْتُ نفسي بالأطعِمَة، وأنا أراقب فتيات شابّات يلعَبْن الورق تحت الشُّرفَة. تنزّهتُ في التّلال، من خلال غابات الصّنوبر، قطعتُ دروباً رمليّة يُسمّيها أناسُ هذه البلدة، بتفخيم وإجلال، «الشّوارع»: رأيتُ الورود الكثيفة المُتألّقة التي لا رائحة لها، الحشائش ذات الرّوائح الحادّة التي أحببتُ دعكها بين أصابعي. قرأتُ أقاصيص لفوكنر، تشبّعتُ بالشّمس. لكن بعد ثلاثة أيّام، دبّ فيَّ الضّجَر لرؤية نفس الوجوه عند كلّ وجبة. وضعتُ حقيبتي على ظهري ورحلتُ. رغم نصائح الطّبيب، قمتُ بجولة بوركيرول وميناء كروس Port-cros. ثمّ اتّجهتُ إلى الجبل. كانت تُمطرُ في كولوبريار وقضّيتُ يومَيْن في نُزْلٍ كنتُ زبونته الوحيدة؛ في قاعة الأكل ذات البلاط الأحمر، قرأتُ *كاترين-جُنديّة*، *جالنا* لماز ودي لاروش، لكنّها جلبت لي النُّعاس، *الآمالُ المُحطَّمَة* لمورافيا التي سبّبت لي القليل من الملل وكتاباً لمورغان *علمُ الأجنّة والوراثة*، الذي لم يُمتِعني البتّة هو أيضاً. نصحوني بأن أسمَن: تناولتُ قدراً كبيراً من دهن الكستناء، اختصاص البلدة التي عرفتُ فيها غابات الكستناء الأولى خلال طفولتي؛ خلدتُ إلى النّوم عند العاشرة مساءً؛ أنا أُدلِّلُ نفسي، إنّها لعبة جديدة. نصحوني أيضاً بعدم المشيْ كيلومترات عديدة. لكن شيئاً فشيئاً عُدتُ إلى المسافات الطّويلة. تسلّقتُ هضاب لي-مور Les Maures؛ من خلال غابات كِلسِيّة، تحت سماء غائمة، ذهبتُ إلى شارتروز-دي-لاڤيرن؛ اكتشفتُ شِبْه جزيرة سان-تروپيز، قُراها المُعلَّقة، قِمَمها البرّية التي لم يكن مُتاحاً تسلُّقُها إلّا عبر دروب جمركيّة أو باتّباع الأدغال. تمتزج قراءاتي بالطّبيعة؛ مُتجاوِزَة الصّخور الحمراء بإيستيريل Esterel، وسط «عُنُق الجحيم» حيثُ الحرارة شيطانيّة بالفعل، شدّت انتباهي

رواية *البقرة المسعورة* لجورج أورويل. صعدتُ إلى قمّة جبل ڤيناغر. استنشقتُ روائح الميموزا في تانيرون. الصحّة من جديد، السّعادة تضطرب في عروقي.

كنتُ أجد رسائل سارتر في البريد كهدايا غيرَ مُتوَقَّعة. حدّثني عن *نومانسيا* *Numance*[30] بإخراج من جون لويس بارو، المُقتبَسة عن مسرحيّة لسيرڤانتس: كان عرضاً جديداً ورائعاً. أطلعني عن خبر هزّ قلبي فَرَحاً؛ دعتهُ دار غاليمار: لقد تمّ قبول *ميلانكوليا*. هكذا روى لي الأمر: لتعلَمي، إذاً، أنّي نزلتُ في محطّة الشّمال مع تمام الثانية وأربعين دقيقة. كان بوست في انتظاري. استَقْللنا سيارة تاكسي وذهبتُ إلى الفندق لأجلب مخطوط *إيروستات Erostate*. من ثمَّ مررنا بالدّوم حيثُ وجدنا پوپيت التي أصلحت القِصَّتَيْن: *اغتراب والجِدار*. انهمكنا في الاشتغال عليها نحنُ الثّلاثة ومع تمام الرابعة انتهينا. تركتُ بوست في المقهى الصّغير حيثُ انتظرتُكِ يوم ذهبتِ حزينة إلى *المجلّة الفرنسيّة الجديدة* لجلب المُنجَز المرفوض. دخلتُ دخول الأبطال. كان هناك سبعة أشخاص ينتظرون في الطّابق الأوسط. بريس پاران، هيرش، سيلغمان. عرّفتُ بنفسي وطلبتُ مقابلة پولهان من سيّدة تعالجُ هواتف على الطّاولة. أخذت أحد هواتفها وأعلنت طلبي. قيل لي انتظر خمسَ دقائق. جلستُ في ركن، على كرسي مطبخ صغير وانتظرتُ. رأيتُ بريس پاران يمُرُّ ويلمحُني دون اكتراث كأنّه لم يتعرّف عليَّ. استغرقتُ في إعادة قراءة *الجدار*، كي أتسلّى وأمنحَ نفسي القليل من الثّقة لأنّ *اغتراب* بدت لي بشعة. ظهر رجلٌ مرح. كِتّان مُذهل، دبّوس يشدّ ربطة العنق، بنطلون مُخطَّط، الرّأس إلى الوراء قليلاً، وجهٌ أحمر ذو أنف كبير قاطع وعينان قاسيتان. كان جول رومان. اهدئي! إنّه ليس

30- *نومانسيا Numance* كانت مستوطنة قديمة لـكلت أيبيريا، تقع أطلالها على بعد 7 كيلومترات شمال مدينة صوريا، على ربوة تُدعى Cerro de la Muela في بلدية گاراي.

اشتهرت نومانسيا بدورها في حروب كلت أيبيريا. ففي سنة 153 ق.م واجهت نومانسيا أول نزاع خطير مع روما. وبعد 20 سنة من الكراهية، في سنة 133 ق.م كلّف مجلس الشيوخ الروماني سكيپيو الإفريقي بمهمة تدمير نومانسيا. فضرب حصاراً على المدينة، وأقام سوراً طوله تسعة كيلومترات مدعوماً بالأبراج والخنادق وقضبان الاقتحام وغيرها. وبعد 13 شهراً من الحصار، قرر النومانسيون أن يحرقوا المدينة قبل الاستسلام.

تشابُه أشخاص، قلتُ لنفسي. أوّلاً من الطّبيعي أن يكون هناك لا في مكان آخر؛ ثمَّ لقد نطق اسمَه. هكذا، بعد برهة، وقد نَسِيَني الجميع، خرجت المرأة صاحبة الهواتف من ركنها وطلبت إشعال سيجارتها من الأشخاص الأربعة الباقين. لم يكن بينهم من يملك ولاّعة. عندها نهضتْ بغنج لا يخلو من وقاحة: «إذاً، أنتم الأربعة رجال، ولا أحد بينكم يملك النّار؟» - جئتُ لمُقابلة السيّد پارون...، لا، پولهان. - حسناً، اصعدي!»

صعدتُ طابَقَيْن ووجدتُ نفسي أمام شخص طويل القامة أسمَر البشرة، ذي شاربَيْن سوداوَيْن ناعِمَيْن مَشوبين قليلاً باللّون الرّمادي. كان لباسُهُ فاتحاً، ضخماً قليلاً، وبدا لي أنّه برازيلي. إنّه پولهان. دعاني إلى مكتبه؛ كان صوتُه مُمَيَّزاً مع نوع من الحِدّة النسائيّة. جلستُ على طرف أريكة جلديّة وثيرة. قال لي فوراً: «ما سوء التّفاهم هذا: بخصوص الرّسائل؟ لم أفهم.» قلتُ: «أنا السّببُ في سوء التّفاهم. لم أُفكّر قط في الظّهور على صفحات المَجَلّة.» قال لي: «أوّلاً هذا مُستحيل لأنّ النّصوص طويلة جدّاً، ربّما تطلّب ستّة أشهر ومن المؤكد أنّ القارئ كان سيفقد عقله عند المُسلسل الثاني. لكنّها مُثيرة للإعجاب.» تلت ذلك جملة من النّعوت وعبارات الإطراء مما يُمكنك تخيّلها، «لهجة مُتفرّدة»، الخ. كنتُ قلقاً لأنّي فكّرتُ: «بعد هذا سيجد قصصي قبيحة.» ستقولين فيمَ يهمُّ رأي پولهان. عندما يجد *ميلانكوليا* جيّدة فسأكون فخوراً لكن سأنزعج إذا بدت له تلك القصص رديئة. قال لي في الأثناء: «هل تعرفين كافكا؟ رغم الفرق، لا يلوح لي سوى كافكا كي أقارن النّصوص التي أمامي على مُستوى الأدب الحديث.» نهض وأعطاني عدداً من مجلّة *مقياس* Mesure وقال: «سأقدّم إحدى قصصك لـ*مقياس* وأستأثر بأخرى لل*مجلّة الجديدة*» قلتُ: «إنّها ربّما... هه... هه... مُتحرّرة. لقد لامَست بعض القضايا الجنسيّة نوعاً ما.» ابتسم بسحنة مُتسامحة. «من هذا الجانب، *مقياس* صارمة جدّاً. لكن في *المجلّة الجديدة* نحنُ ننشُرُ دون حساب.» قلتُ له إذاً، إنّ لي قِصّتَيْن أخريَيْن. «حسنا! قال بافتتان، أريدُهُما، هكذا يُمكنني الاختيار كي ألائم إحداهما مع روح المجلّة، أليس كذلك؟» سأحملُ له القِصَّتَيْن بعد ثمانية أيّام إن لم يمنعني ذلك من إنهاء *الغرفة*. قال لي بعد ذلك: «مخطوطُك بين يَدَيْ بريس پاران. نحنُ مُختلفان قليلاً. إنّه يتحدّث عن إسهاب وعن

مقاطِعَ باهتة. لكنّني لستُ من رأيِه: أعتقد أنّ الظّلال ضروريّة لتتوهّج المقاطِعُ القويّة.» لقد تضايقتُ كجُرَذ. أضاف: «لكنّ كتابكَ سيُقبَلُ بالتّأكيد. غاليمار لا يُمكنها عدمُ قبوله، ثمَّ إنّي سأصحبُك إلى پاران. نزلنا طابقاً ووجدنا أنفُسنا عند پاران الذي بات الآن يُشبه كونستان ريمي، لكن بأكثر خشونة. «أقدّم لك سارتر. - حدستُ ذلك...، قال الآخر بحرارة. ثمَّ إنّه لا وجود لسارتر واحد.» رفع الكُلفَة فوراً. صعد پولهان وتجاوزتُ مع پاران قاعة تدخين مليئة بالأشخاص والأرائك الجلديّة كي نُعبر إلى ردهة - حديقة في الهواء الطّلق تحت أشعّة الشّمس.

جلسنا على كنبة خشبيّة مطليّة بالأبيض أمام طاولة خشبيّة مصقولة وشرع يُحدّثني عن *ميلانكوليا*. من الصّعب أن أنقل لك ما قال حرفيّاً، لكن عموماً: قرأ الصّفحات الثلاثين الأولى وفكّر: ها إنّ أحدهم يُشبه دوستويفسكي؛ يجب أن يستمرَّ هذا وأن تحدث له أشياء خارقة، لأنّه خارج المُجتمع. لكن بدءاً من الصّفحة الواحدة والثّلاثين، خيَّبَتْهُ المقاطع المُمِلّة التي لا فرقَ بينها وبين الكتابة الشّعبيّة. وجد اللّيلة في الفندق طويلة جدّاً (اللّيلة التي التقت فيها الخادمتان) لأنّ أيّ كاتب عصري يُمكنه قضاء ليلة طويلة جدّاً في فندق بشارع ڤيكتور-نوار، ووجد «غريبة» حادثة المرأة والرّجل المُتشاجريْن في الشّارع. لم يُحبّ قط العصامي الذي بدا له مُضجراً وكاريكاتوريّاً في آن. أحبَّ الغثيان، المرآة (عندما بغت السيّدُ نفسهُ أمامها)، المُغامرة، رفْع القُبَّعات والحوار بين أناسٍ لطفاء في الحانة. وصل إلى هنا ولم يقرأ البقيّة. بدا له الجنسُ الأدبي سيّئ الاختيار وفكّر أنّ النّفَسَ سيكون نفَساً صحافيّاً بشكل أقلّ بكثير لو اهتممتُ بالأجواء الغرائبيّة بالأجواء الشعبيّة. أراد أن أحذف ما استطعتُ المنحى الشّعبي (المدينة، الملل، جُمَلاً مثل: «أثقلتُ في العشاء بحانة ڤيسليز») واللُّحمة عموماً. أحبَّ السيّد رولبون. قلتُ له إنّه على أيِّ حال لم يعُد هناك لُحمَة ابتداءً من يوم الأحد (لن يكون هناك سوى الخوف، المتحف، اكتشاف الوجود، الحوار مع العصامي، الطّوارئ والنّهاية) قال لي: اعتدنا هنا، إذا فكّرنا في أن نُغيِّرَ شيئاً في كتاب مؤلِّفٍ شاب، أن نعيدَه إليه، وذلك في مصلحته الخاصّة، كي يقوم بالتّعديل الضّروري. لكن أعرف كم هو شاقّ أن تُعادَ صياغة كتاب. سترى، وإن لم تقدر فسنتّخذ قراراً من دون ذلك.» كان

مُؤنساً كأخ كبير». غادرتُه لأنّ لديه مشاغل، لكن دعاني لاحتساء كأس عندما يكون في وسعِه ذلك. عندها أردتُ ممازحة الصّغير بوست. وبما أنّ مخطوط *ميلانكوليا* كان في حوزتي فقد دخلتُ المقهى وألقيتُ الكتاب على الطّاولة دون أن أتفوّه بكلمة. رمقني شاحباً وقلتُ له: «مرفوض»، بنبرة مُشفِقَة وبحزن غير مُتقَن. «لا!لكن لماذا؟ – بدا لهم مُمِلّاً ومُقرِفاً.» ظلّ واجِماً، ثمّ رويتُ له كلَّ شيء وسُرَّ سروراً عارماً. تركتُه وذهبتُ لأشرب مع بريس پاران. سأطلِعُكِ على الحوار الذكيّ الذي دار بيننا في شارع باك Bac. إنّه يُفكّر في شؤون اللّغة مثل پولهان: هذا يعنيهم. تعرفين الموضوع القديم: الجدَليّة ليست سوى خصومة حول الكلمات لأنّنا لن نستنزف معاني الكلمات أبداً. في حين أنّ كلَّ شيء جدلي بطبيعته، الخ. أراد التقدّم بأطروحة حول هذا الأمر. افترقنا. كتب لي بعد ثمانية أيّام. أنتظر التّعديلات على *ميلانكوليا* وطبعاً معاً سنُقرّرُ ما الذي يُمكن فعلُه...»

لدى عودتي إلى باريس، قدّم لي سارتر تفاصيل أخرى حول *ميلانكوليا*. لقد رفض پولهان فقط نشرَها في الـ*مجلّة الفرنسيّة الجديدة N.R.F*؛ لقد ظلَّ الفريق العامل على التّقارير مُرتبكاً. علماً أن پيير بوست هو الذي اقترح سارتر فقد كُتبت قُصاصة على ملفّ سارتر: «اسألوا پيير بوست إن كانت لهذا الشاب موهبة أم لا.» بعدَ ذلك قرأتْ غاليمار الكتاب وبدا أنّهم أُعجبوا به؛ لم يعتِبوا عليه سوى العنوان. اقترح عُنواناً آخر: *الغثيان*؛ عارضتُه: لكن عبثاً، لأنّي فهمتُ مقاصدَه لاحقاً؛ غير أنّني خشيتُ أن يعتقد الجُمهور *الغثيان* رواية عن الطّبيعة. اتُّفِقَ أن يصدُر الكتاب خلال سنة 1938. في شهر جولية نشر پولهان *الجدار* على صفحات المجلّة الجديدة؛ أذهلتْ قصّة المجهول النّاسَ؛ وتلقّى سارتر عدداً كبيراً من الرّسائل. إضافة إلى تعيينه بمعهد پاستور في نويي Neuilly. أنهيتُ مراجعة *الرّوح المُتعالية* الذي رقَنَتْهُ أختي على الآلة الكاتبة: خلال افتتاح السّنة الأدبيّة شهر أكتوبر عرضه سارتر على بريس پاران.

استعدتُ حيويّتي وأمضيتُ أوقاتاً سعيدة في باريس. شاهدتُ الرّاقصين السّود لكوتون كلوب من نيويورك الذين أيقظوا في قلبي سراب أمريكا. فتَحَ المعرض أبوابه. أمضينا ساعات أمام الأعمال الفنّية الفرنسيّة وبوَلَع

أكبر في القاعات المُخصّصة لڤان غوخ: كانت المرّة الأولى التي نرى فيها مُجمَلَ أعماله منذ الخطوط السّوداء في طفولته حتّى السّوسن وغربان أوڤر. دُشِّنَ الجناحُ الإسباني أواسط شهر جويلية وتلقّينا بصورة تُنعِشُ القلب غرنيكا لبيكاسو.

عاد نيزان من «مُؤتَمر الكُتّاب» الذي انعقد في مدريد تحت القنابل؛ وصف لنا بحماس مواقف المُشاركين، خلال القصف، تملَّقَ البعضُ وارتاع البعضُ الآخر؛ ثمّة بينهم من ارتمى على أربع تحت الطّاولة عند سماعه صوتَ القذائف. قال إنّ الحماسَ لم يفتَر في مدريد المطعونة. مع ذلك كان الوضعُ حرجاً. عند بداية شهر ماي كاد تمرّد النقابيّين المُنشقّين الذي سالت أثناءه دماء كثيرة في برشلونة، يُطيحُ بكاتالونيا ويُقدّمها للفاشيّين. شكّل نيغرين Negrin مكتباً جديداً وعزم على وضع حدّ لفوضى العابثين والتروتسكيّين الذين كانوا يُهدّدون المُقاومة ضدّ فرنكو؛ تمّ إيقاف زعماء حزب العُمّال للوحدة الماركسيّة الذي نَعَتَه الشيوعيّون بأنّه سقطُ الخَوَنة. فيما اتّهم الفوضويّون وقسمٌ من الاشتراكيّين نيغرين والستالينيّين بخنق تحرّك الحشود، وبأنّهم قتلوا الجمهوريّين. أنذرت هذه الأبعاد بمُستقبل مُظلم. ضاعف الطّيران النازي من قصف مدريد وبرشلونة؛ شمالاً زاد أتباعُ فرنكو من أعمال الشّغب. يوم 19 جوان سقطت بيلباو. بدأ المُحايدون الفرنسيّون من اليسار يفهمون خطأهم. قام غيهينو بنقد ذاتي في صحيفة *الجمعة*: «ثمّة في الأعماق من لهُم في مثل سنّي ذكريات تشُلُّ الحركة»، كتب. وختم: «علينا أن نفهم حتميّة الحرب لإنقاذ السّلام.» لدى آخرين بدأ الانقلاب. لكنّ الحكومة لا تُفكّر في تغيير موقفها. ورغم مبالغته في الحذر فإنّ مكتب بلوم قد سقط بسبب السّكك الحديديّة والتأمين والبنوك. ما من حظوظ كي يُقرّر شوتون Chautemps[31] التدخّل. سيظلُّ اليسار في الحكم بفضل الوزير الجديد؛ لكنّ *البطّة المُقيَّدَة* قامت بأكثر من مُجرّد التهكُّم عندما أُعلِن عن المُضيّ في إضفاء شكل جديد على الجبهة الشّعبيّة: دون شيوعيّين، دون اشتراكيّين ودون راديكاليّين.

31- شوتون Chautemps: (1885-1963) رجُلُ دولة فرنسي تولّى رئاسة مجلس الوزراء في مناسبات عديدة إبّان الجمهوريّة الثالثة.

رقصنا ليلة 14 جويلية في ملاهي الحيّ الصّغيرة بمونبارناس، والباستي، وغادرتُ باريس حيثُ كان على سارتر البقاء بضعة أيّام. عزمتُ على خوض المُغامرة على قَدَمَيَّ نحو منطقة أعلى هذه المرّة لم أتجرّأ من قبلُ على المُخاطرة بمُقارعتها: أشار عليَّ پانيز بمُحيط مضيق ألوس Allos. اتّجهتُ إلى لوزي Louzet عند مُنتصف النّهار، نمتُ في ملجأ على سفوح هضبة الأساقفة الثلاثة، ومن هناك استأنفتُ التسلُّق صباحاً. كان الطّريق الذي وعد به الدّليل الأزرق مُختفياً تقريباً وبعد قليل ستُرعِبُني القمّة من فوقي؛ كي أهرب منها، تسلّقتُ أعلى فأعلى وبدأ الفراغُ تحت قَدَمَيَّ يزداد حِدّة؛ توقّفت: عبر هذا الدّرب كان الوصول إلى القمّة غيرَ مُمكن؛ لكنّي لا أستطيعُ النّزول، فكّرتُ، دون أن يتحطّم عُنُقي؛ لبثتُ مُلتصقة بالمُنحَدَر وقلبي يخفق بعنف. حاولتُ التقدّم خُطوة: التّعبُ والخوفُ جعلاني أترنّح؛ كي أستعيدَ توازُني تخلّصتُ من حقيبتي التي سقطت عموديّاً نحو الضّيعة في الأسفل: كيف ألحق بها دون أن أتهشّم؟ من جديد، تقدّمتُ خُطوة؛ سلكتُ الطّريق متراً بعد آخر ببطء كبير، خطر لي أنّي لن ألمسَ الأرض المُسطّحة مُجدّداً أبداً. فجأة، خانتني الأرض، انزلقتُ، تمسّكتُ بالحجارة التي تدحرجت معي أيضاً. «هكذا أخيراً! قلتُ. إنّ هذا يحدُث، إنّه يحدُثُ لي أنا: انتهى الأمر!» وجدتُ نفسي في عُمق أخدود، انتزع جلدُ فخذي، لكنّ عظامي بخير؛ انتابتني الغرابة كيف لم تراودني سوى القليل من المشاعر وأنا على يقين تام بذهابي نحو الموت. تناولتُ حقيبتي وركضتُ نحو لوزي، أوقفتُ سيّارة أقلّتني إلى الضفّة الأخرى للجبل، نحو الفندق الصّغير لمضيق آلوس حيثُ نمتُ قائلة بغموض: «لقد خسِرتُ يوماً!»

تداركتُ أمري الأيّام المُقبلة. مشيتُ من خلال جبال عالية حيثُ تلمَعُ تراكُمات ثلجيّة بيضاء، عبر هضاب القرى مُهملة لنبات القرّاص والثعابين. اللّيلة الأخيرة نمتُ على مقعد جماعي طويل؛ على السّاعة التي بدأ فيها قرميدُ المنازل يُغيّر لونَه تحت السّماء، ركبتُ الباص صوبَ مرسيليا حيثُ كان عليَّ الذّهاب مع سارتر وبوست إلى ميناء پيري في أثينا.

لقد خططنا منذ زمن لهذه الرّحلة إلى اليونان؛ في هذه الحالة، التي هي ليست الوحيدة، إن لم نكن نُسايرُ الموضة فنحنُ على الأقلّ مأخوذان

بالأحداث والظّروف؛ عدد كبير من المُثقّفين غير الميسورين يتصرّفون لزيارة هذا البلد في حدود المُتناوَل، كان بعيداً لكنّ عُملَتَه مُتدَنّية. ذهبت إليها جيجي السنة الماضية؛ أُصيبت هناك بالمالاريا، لكنّها مُفعَمة بالحيويّة ومنحتنا نصائح ثمينة. كان بوست يضطرم رغبة في أن يُرافقنا واتّفقنا على أن يأتي معنا أسبوعَيْن أو ثلاثة.

وجدتُ بوست وسارتر في المحطّة ورُحنا لشراء مُؤننا. فتذاكرُ المركب التي اقتطعناها لا تسمَحُ لنا بالأكل؛ بفضل هذا التقشّف وجدنا جيوبنا مليئة واستطعنا شراء كلَّ ما نشتهيه من سوق اللّحوم الضاجِّ بالنّاس: خُيِّل إليَّ أنّي أسرق ولستُ أقتني. ركبنا *الكيرو سيتي Cairo City* ولاحظنا أنّ بين المُسافرين على ظهر السّفينة تفرقة سادت بعَفَويّة؛ المُهاجرون الفقراء العائدون إلى بلادهم احتشدوا في الأمام مع أمتعتهم؛ السُيّاحُ القليلون، في المُؤخّرة. أجّرنا خياماً حيثُ وضعنا حقائبنا وأغطيتنا – ولم نكن نملك أكياس نوم – وموقداً حمله معه بوست مُهندس الرّحلة. زوجان في الثّلاثين من العمر ضربا خيمتهما أيضاً. كنّا قد التقينا في مونبارناس بإحدى المرأتَيْن، سمراء، مُتيقّظة، ساقان قصيرتان قويّتان وكان زوجُها طويل القامة، أشقر في لون النّحاس ووسيماً، سمّيناه «اللّطيف الضّخم»؛ كان ظهرُه مدبوغا من أثر أشعّة الشّمس وكانت تدلك حروقه بواسطة مرهم. عند السّادسة صباحاً، شرع البحّارة في رشّ المياه على المركب، كانوا يتشقلبون بأزياء سباحة عرضة للمياه المُتجمّدة. بدوا فرحين جدّاً. كنّا كذلك نحنُ أيضاً. خرّبتُ آلة بوست. إلّا أنّ الطُّهاة قد سمحوا لنا بتسخين أكلنا المُصبّر. قدّموا لنا العنب والخوخ. كنّا نأكل وننام ونقرأ ونتحدّث. ساذجة تحت الشّمس، مُترنّحة فوق الأمواج، أحسستُ بأنّ روحي خفيفة ومُحلّقة. رأيتُ مضيق ميسين Messine وفي اللّيل ألقت المشاوي نيرانها. زحفت السّفينة والوقت ببطء نحو قنال كورانت Corinthe. وصولاً إلى مرفأ پيري وعبر طريق مُتصدّع أقلّتنا سيّارة تاكسي إلى أثينا.

منذ 1936 وميتاكساس دكتاتور. من وقت إلى آخر كان يُشاهَدُ جنود ذوو تنانير مثنيّة يقومون بمسيرة في موكب يجوب السّاحات؛ لكن لا تبدو أثينا

عاصمة لدولة عسكريّة؛ كانت فوضويّة، كئيبة وبائسة جدّاً؛ للوهلة الأولى وجدتُ تجمّعات كبيرة في الشّوارع الشعبيّة حول الأكروپول: منازل صغيرة ورديّة أو زرقاء، واطئة جدّاً، ذاتُ شُرُفات وسلالم خارجيّة؛ لدى مرورنا رشقنا أطفالٌ بالحجارة؛ «هكذا، إذاً، إنّهم لا يُحبّون الأجانب أبداً»، فكّرنا بهدوء. لاحقاً، تألّمتُ كثيراً عندما أحسستُ بالكراهية وأنا أعبر بلداً فقيراً. لكن خلال السّنوات الثلاثين ونحنُ نستنكر بشدّة انعدام العدل في العالم، يحدُثُ خصوصاً أثناء الرّحلات حيثُ الأشياء المُدهشة تُضلّنا، أن نعتبر الأمكنة مجرّد مُعطيات طبيعيّة. استخدمنا حِيَلاً مُعتادَة ضدَّ حجارة الأطفال اليونانيّين: لسنا نحنُ السيّاحُ الذين ينبغي أن يستهدفنا غضبُهم. لم نُعرِّف بأنفُسنا قط كما قد يظهر من خلال الظّروف التي فُرِضت علينا. من خلال المناورة وسوء النيّة، كنّا نُدافِعُ عن أنفُسنا ضدَّ الوقائع التي قد تُسَمِّمُ رحلتنا. مع ذلك أحسسنا بالضّيق في بعض أحياء پيري المُرَشّقة بالأكواخ المطليّة بألوان زاهية فيما كان الفقر بها رهيباً. لم يكن النّاسُ الجاثمون بالساحات هناك يشعُرون بالحرارة وسط القاذورات كما هو شأن الناپوليتانيّين في ناپولي: إنّهم نوعٌ من البشر البوهيميّين، المُهاجرين، المُحطّمين، أناسٌ أدنى من البشر. جوعى في خِرَق، مُتقيّحون، لم يكن لديهم الودّ ولا الترحيب الإيطالي. كان المُتسوّلون يُمسدون جراحَهم بسحنة شرّيرة. كان هناك عدد مُرَوِّعٌ من الأطفال المرضى، المُشوّهين، العميان، الممسوخين. رأيتُ على رصيف پيري طفلاً يُعاني تضخّم الرّأس، وكان لديه بدل الرّأس نتوء هائل بالكاد رُسِمَ عليه وجه. عموماً، حتّى البورجوازيّة الصّغيرة، والبورجوازيّة الميسورة، كلّ الأثينيّين تعساء جدّاً. لم نكن نرى على شرفات المقاهي سوى الرّجال كجُثث مُنتفخة، يلبسون ألواناً داكنة، صامتين يدعكون مسابحهم العنبريّة بكآبة. عندما يُطلَبُ من تاجر سلعة لا يملكُها، صحيفة لم تأتِ بعد، فإنّ وجهه يُعبّر فوراً عن الاستهزاء والجزع معاً؛ يُحرّكُ رأسَه على نحو يدُلّ في فرنسا على نعم، لكنّها حركة تعكسُ عذاب العالم.

حجزنا غرفة في فندق حقير، قريباً من ساحة أمونيا؛ سمَحَ المُدير لبوست بالنّوم على السّطح مجاناً: كان بوست أحياناً يُفضّل قضاء ليلة تحت صنوبر مُقاطعة ينيكس اليونانيّة. كان علينا لتناول إفطار الصّباح أن نصعد أعلى

شارع الملعب وهو شارع نسبيّاً مُترَف؛ عند التّاسعة، تكون درجات الحرارة قد لامست الـ 35 وكنّا نمسحُ العَرَق على شرفة محلّ حلويات مشهور حيثُ ازدردتُ بنهم شوكولاتة الحليب والكريمة، المخفوقة بأصفر البيض. إنّها أفضل وجبات اليوم. لم تكن المطاعم الفرنسيّة الأنيقة في مُتناولنا وأكلْنا بشكل سيّئ في خمّارات ساحة أمونيا حيثُ أشارت القائمة بالفرنسيّة: أحشاء (رُسمت الكلمة خطأ) خروف في البروش؛ كان الأرز مُلتصقاً بالأواني وتفوح منه رائحة شحم الجلد. كانت الأحشاءُ في المشابك حيثُ توجّهنا في الأنحاء. ثمّ لقد كرهتُ في أسواق أثينا كلَّ تلك الخرفان ذات المظهر الأحمق، المزهُوَّة ببذاءة بائسة بلحمها الشّاحب. أذكُرُ اليوم الذي بحثنا فيه عن مطعم بساحة الملعب، المُحترقة تحت لهيب شمس الظّهيرة؛ اعترض سارتر عليها جميعاً وانتابته نوبة غضب مفاجئة زادت موجة الحرّ من حِدَّتها؛ كان يضحكُ أصفر اللّون. «يوم 28 جويلية 1937. غضب پولو الدّائم»، غمغم وهو يجوس بعيْنَيْه فوق صحيفة ليست في حوْزَتنا. اكتشفنا في ذلك اليوم أو ربّما آخر حانة ألمانيّة ظليلة حيثُ أكلنا للمرّة الأولى شرائح لحم لذيذة. في المقاهي احتسيْنا سائلاً حُلواً أسوَدَ هو القهوة وأحببتُه رغم كلّ شيء؛ شربنا الماء المُثَلَّج بشراهة وكان يُقدَّمُ مُعقَّماً بمحلول الجاڤيل ومعه ملعَقة معجون الكَرَز.

كنّا نمضي اليوم في الشّوارع والأسواق، في الميناء، المتاحف، لكن خصوصاً في الأكروپول والمنطقة الأثريّة بپنيكس Pnyx من حيثُ كان في مُستطاعنا رؤية الأكروپول. يُروى الجمالُ بصورة أقلّ من السّعادة. حين أقول: رأيتُ الأكروپول؛ في المُتحَف رأيتُ تمثال كورايْ Koraï، لا شيء لأضيفَه، إلّا إذا كنتُ سأكتُبُ كتاباً آخر. هنا أنا لا أرسُم اليونان بل الحياة التي عِشناها هناك.

أُصِبْنا بالذّهول أمام معابد الإغريق؛ تعلّمنا ترجمتها إلى كلمات؛ في پنيكس استعدنا القرون الغابرة، الاجتماعات، الحشود، شائعات أثينا القديمة. لكن غالباً ما كُنّا مُندَهشين وصامتين. كان ذلك أقرب إلى البَكَم. عند غروب الشّمس لاحظنا أنّ جبل هيمات Hymette كان بنفسجيّاً. طلب منّا الحُرّاسُ مُغادرة الأكروپول. قام سارتر وبوست بتَسَوُّقٍ سريع من أسفل السُلَّم المرمري

حيثُ كانت هناك لافتة كُتِبَ عليها: يُمنَعُ وضعُ الأشياء الغبيّة. ألهمَت اللافتة سارتر مقطعاً شعريّاً على طريقة پول كلوديل: «على عتبات سُلَّم المرمر - علماً أنّ وضع الأشياء التافهة ممنوع - نَسْيَ الصّغيرُ بوست ذلك وحثَّ الخُطى مُسرِعاً.»

رتّبنا بعناية جولة في أرخبيل سيكلاد: مكونوس، ديلوس، سارا، سانتورين. نِمنا على سطحِ سُفُن الشّحن كما نِمنا على سطحِ كيروسيتي. قمرٌ أحمرُ ضخم ملأ السّماء، اللّيلة التي غادرنا فيها پيري وكان الهواءُ عذباً يُنعِشُ القلب؛ أيقظتني السّعادة أكثر من مرّة وفتَحتُ عَيْنَيَّ لأرى الدُبَّ الكبير. في ميكونوس احتَسَيْنا القهوة ورأينا طواحين الرّيح العملاقة. أقلّنا زورق طويلٌ إلى ديلوس؛ تحرّكَت المياهُ وتقيّأتُ ما في جوفي. هل سنبقى في ديلوس أربعَ ساعات أم ثلاثة أيّام؟» سألني سارتر، غيرَ مُبال بالتشنّج الذي يُثيره في مزاجي المُتعكّر. «أربع ساعات أم ثلاثة أيّام؟ هيّا قرّري.» لا يهمُّني، لم أكن أملك جسداً أو روحاً. تابعَ مُطارَدَتي: «يجب أن تُقَرّري الآن.» تمتمتُ: «ثلاثة أيّام»، ودخلتُ في نصف غيبوبة. وجدتُ نفسي مُترنّحة في الطّريق إلى جناح السُيّاح. كانت الغرفتان مشغولتين من قبل شباب إنجليز، يرتدون ملابس ناصعة البياض؛ لكنّ المالك ساعدنا على نقل عُدّتنا إلى الشّرفة. ظلَّ سارتر في الشّاليه وخرجتُ مع بوست للسّباحة في البحر وهدأ غثياني، غير أنّي عرَّضتُ ظهري للشّمس فاحترق. تحمّلتُ ألمي على نمط فلسفة «زينون Zénon» عن قُوّة التحمّل.

كم أحببنا الأُسودَ المُتأمّلة، من خلال المعابد المرمريّة! أحببناها ما دامت الآثار كما هو الشّأن في پومپيي، لقسمٍ كبير من مدينة حيّة: مرفأ محفوف بالمحال، المخازن، الدّكاكين، حانات البحّارة! تنزل نساءُ ميكونوس عند الصّباح الباكر بزيّهن المَحلّي، يحملن أشياء لتسلية السُيّاح: زرابي، شالات، قبّعات صوفيّة، مُجوهرات لا قيمة لها، حزمة من القصدير والأغراض الرّخيصة. عند الحادية عشرة تلتصق عبارة برصيف الميناء، ينزل السُيّاح يقودُهم دليل بصرامة كما رأيتُهم عند قمّة بركان ڤيسوڤ Vesuve. يمكثون بالكاد ثلاث ساعات وأغلبُهم يتناولون الغداء في الفندق؛ «يقومون» بالآثار على عجل. بعض المُغامرين يزعُمون صعود جبل سانت Cynthe: سرعان

ما ينزلون لدى سماع الصفّارات؛ يشترون أشياء عديمة الشّأن وكنّا نراهم يصعدون العبّارة من جديد باعتزاز كبير. يصعدُ التُجّارُ زوارقهم هم أيضاً. تعود الجزيرة لنا من جديد. بعد ساعات نصعدُ إلى جبل سانت لِنرى الجُزُر المُجاورة تتألّق من بعيد ثمّ تمّحي وسط غُبار المساء الأرجواني.

ديلوس مكان يمكنني فيه أن أحوز جنّة.

على متن المركب البُخاري الذي أقلّنا إلى سارا، نِمنا بين أقفاص الدّجاج الصّاخب. صباحاً صعدنا السُلَّم ونزلنا بين بيوت قديمة بيضاء. بعد الظّهيرة ذهبتُ مع بوست للسّباحة، على بعد عشرة كيلومترات من هناك، على الجانب الآخر من الجزيرة. كان علينا أن نستقلَّ الباخرة عند الثالثة صباحاً في اتّجاه سنتوران Santorin ونِمنا ثلاثتنا فوق كومة رمل قريبة من الميناء. غَفوتُ بقبَضَتَيْن مضمومَتين. رفعنا المرساة عند الفجر ومع بزوغ فجر اليوم المُوالي استيقظنا على سفوح مُنحَدَر سانتورين. أحاطت بالسّفينة مراكبُ صغيرة؛ ثلاثة شُبّان فرنسيّين حريصين جدّاً على ألّا يخدعهم أحد، راحوا يناقشون سعر العبور بغرور لم ينجَح في إخفاء بُخلِهم: في زيارة لبلد فقير ظنّوا أنّهم سيكونون مُستَغَلّين بِفُحش إن لم يُبادروا هم بذلك. وبّخناهم فيما بيننا كما يجب. أنّبتُهم أيضاً؛ يا لها من حماقة أن نَضيّع أوّل ظهور للمنازل البيضاء المتَوَهّجة أعلى مُنحَدَر دم الثّور التي كانت تلامسُ زرقة البحر. جذّفنا ثمّ سلكنا طريقاً في شكل مُدَرّج أخذنا إلى القرية، وسألنا هناك عن فندق ڤولكان Vulcan من حيثُ أردنا بدء نُزهَتِنا وسط الأحياء. كان النّاسُ إمّا يومئون برؤوسهم أو يبتسمون. أشار لنا أحدهم بفجوة في جدار: كهف. سقانا صاحب المغارة قهوة ثقيلة، جاءنا بأرجيلة تناوب تدخينها سارتر وبوست. من جديد سألنا عن فندق ڤولكان؛ نجح في فهم مقصدنا وفسّر لنا أنّنا قد أخطأنا الجزيرة؛ لم ننزل في تيرا Thira، المرفأ الرّئيس، بل في أويا Oia، على الضفّة الشماليّة للجزيرة. لا يهم؛ اتّفقنا على أن نسلُك درباً على حافّة المُنحَدَر؛ لاحظتُ أنّها لم تكن حمراء؛ إنّها تُشبه الكعكة التي توضعُ فوقها طبقات حمراء، في لون الشّوكولاتة، الكرز، البرتقال، اللّيمون؛ من بعيد سطعت جزيرة كايمينيس كلَمَعان الفحم. وجدنا نُزْلَ ڤولكان؛ من باب التقشّف وخشية الحشرات، طلبنا من المُدير النّومَ فوق

السّطح؛ وافق. عرفتُ لياليَ أخرى من الجنّة. لم تُزعجني صلابة الإسمنت. كنّا مُلتَفّين داخل أغطيتنا نسمَعُ فوق رؤوسنا همساً ووقع خُطوات مكتومة: أناس، كلاب تمشي على أسطح أخرى لأنّ المدينة مُشيّدة من شرفة إلى شرفة أعلى. أيقظتنا ابنة المُدير حاملة في يديها إبريق ماء وإناء؛ لمحنا فوقنا قباباً مطليّة بالجير الأبيض، شُرُفات مُبلَّلة وعلى سطح البحر الخلاّب كبريت وحمم كايمينيس؛ سبحتُ في سحر كبير منذ الخفقات الأولى لجَفْنَيَّ، حتّى خُيِّلَ إليَّ أنّ شيئاً في داخلي سينقَطِع.

صباحاً، احتسينا القهوة في الفندق؛ وفي المساء تناولنا العشاء: قدّموا لنا دجاجاً هزيلاً كنتُ في أسواق پيري قد أشفقتُ لرؤيته أكثر من الخرفان النّحيفة. عند الظّهيرة نكون عادة في رحلة استكشاف. أطولُ رحلاتنا قادتنا إلى تيرا وإلى ضريح ستاڤوس Stavos. عبرنا مزارع عنب فوق دروب مفروشة رماداً يُسحَقُ تحت أقدامنا ما جعلنا نقوم بثلاث خُطُوات بدل خُطوة واحدة، كان ذلك شاقّاً للغاية؛ كانت الشّمسُ تُسوِّطُ ونحنُ نسلُكُ الطّرقات بين الجُدران البيضاء حيثُ تنتصب من بعيد إلى بعيد شجرة تين هزيلة. ثمّ تُهنا قليلاً. استسلم سارتر لغضبه: «إنّه مزاح الحلاّق!»، قال حانقاً، قال أيضاً ولم يكن عادلاً في ذلك: «اعتقدتُ أنّي ذاهبٌ في رحلة سياحيّة وها هم يجعلونني مُستكشفاً أمريكيّاً صغيراً!» هدأ، لكن، كنّا مُنهَمِكين عندما دخلنا أوبوريو Emborio حيثُ عزمنا على تناوُل الغداء. ما من روح واحدة على الطّريق الوعر أو داخل البيوت المُقفلة بإحكام؛ امرأة تلبسُ الأسود هربت منّا لما أردنا التحدّث إليها (وهو يصف أرغوس في المشهد الأوّل من مسرحيّة *الذّباب*، استلهم سارتر المكان من أومبوريو.) أخذنا ندورُ في حلقة مُفرَغَة داخل هذه الأفران؛ أخيراً اكتشفنا مقهى، مليئاً بذباب مُزعج؛ قدَّموا لنا سلطة طماطم تعوم فيها ذباب غارق في زيت مُثير للغثيان كما سبق أن رأينا في تاريفا بإسبانيا. كي نُطفئ عَطَشنا كان علينا الاختيار بين نبيذ الراتنج الذي لا أحد منّا كان قادراً على تحمّله وبين ماء الصّهريج الطّافح بالوحل؛ حاولتُ احتساء جرعة نبيذ، ثمّ الماء، كي أطرد مذاقاً بآخر، لكنّني تراجعتُ (بعد سنة حدّثنا پانييز عن أومبوريو كما لو أنّها قرية فاتنة؛ أغلب الظنّ أنّه تناول الغداء مع تيريز في فندق جماعي.)

ذهبنا إلى كامينيس عبر الزورق: دُخان ينبعث من الأرض الكبريتيّة يحرق أقدامنا؛ عجيبة، هذه القشرة السّوداء المائلة إلى اللّون الأصفر فوق المياه الزّرقاء. غاص سارتر وبوست على مسافة قصيرة من الجزيرة وسبحا حول الزّورَق؛ كان الماء أحياناً يُحرقهما، وكانت الفجوة فوقهما مُرَوّعة؛ سرعان ما صعدا إلى سطح المركب.

من سانتورين عُدنا مُباشَرَة إلى أثينا. عزف سارتر وبوست، إيقاعات يونانيّة بواسطة غليونَيْهما: أنشدا ببراعة. خلال الاستراحة، قفز بوست في الماء وسبح بالقرب من المركب. مكث في پيري من حيثُ أبحر إلى فرنسا. روى لنا لاحقاً أنّه أمضى ليلته اليونانيّة الأخيرة في غرفة رهيبة؛ عندما سأل مُديرة النُّزل عن دورة المياه أشارت إلى البحر وقالت صارخة: «المُحيط! المُحيط!»

ذهبت مع سارتر إلى دلفيس Delphes. المنظر حيثُ الرّخام يمتزج برقّة مع الزّيتون، مع البحر البعيد، يفوق جميع أماكن الأرض جمالاً. نمنا في العراء اللّيلة الأولى، كانت الرّيح قويّة إلى درجة أنّنا حجزنا غرفة في فندق اللّيلة المُوالية؛ لحُسن حظّنا لأنّ عاصفة هوجاء ضربت الآثار والأشجار في تلك اللّيلة؛ كنّا ننظر إلى العاصفة من خلال النافذة مُحتفِلَيْن بحظّنا السّعيد: كنّا بصدد الإنصات إلى سخط زوس من أعلى فدرياديس. نزلنا إلى إيتيا Itéa، نمنا ساعات في فندق حقير؛ استيقظنا في عمق اللّيل لنركب سفينة، لمحتُ امرأة مُشيحة بظهرها من خلال باب مفتوح. كانت ترتدي فُستاناً أسودَ وتُمَشّطُ شعرها الأسود الطّويل؛ التَفَتَتْ: اتّضح أنّه رجلٌ مُلتحٍ، شنودَة؛ كانوا قطيعاً كاملاً يعبُرون القنال. رتّبتُ خطّة ذكيّة لأصل إلى أولمپيي عبر الجبل: بلَغْنا ديرَ ميغاس بيليون بواسطة مقطورة سكّة حديديّة يدَويّة - مشهورة لكن دُمِّرَت قبل ثلاث سنوات بسبب حريق ضربها - ثمَّ مدينة مياه بائسة حيث تناولنا الغداء؛ أقلّتنا سيّارة أجرة أربعين كيلومتراً بعيداً عن ذلك المكان وتوقّفت على مشارف سيْل يقطَعُ الطّريق. تابَعنا السّير على الأقدام؛ كان الطّريق مُتعرّجاً من خلال التّلال التي تراوحَ لونُها بين الكريستالي والخوخي تكسوها نباتات خضراء داكنة؛ حملَ سارتر حقيبتنا، وقُبّعة قشّ عريضة وعصا؛ أمّا أنا فقد حملتُ تحت ذراعي علبة كرتون. لم نُصادِف إنسيّاً واحداً، صادفنا فقط كلاباً

صفراء من بعيد لبعيد كان سارتر يُلاحقُها بالحجارة: يخافُ الكلاب. بعد أربع ساعات من المَشْي أدركتُ أنّه حتّى في اليونان فمن الضّروري كي ننام على ارتفاع ألف ومائتَيْ متر أن نتجهّز كما ينبغي؛ بقلق رأيتُ السّماء تميلُ نحو السّواد. فجأة لمعت قرية عند أحد المُنعَطَفات وقرأتُ على شرفة خشبيّة: فندق، xenodokeion. كانت الأغطية تتألّق بياضاً واكتشفتُ صباحاً أنّ باصاً ينزل إلى أولمپيي. خُضنا حقولاً مكسُوَّة بالشّوك حيثُ يجفّ العنب الأسود.

قضّينا ثلاثة أيّام نتسكّعُ بين شُرُفات أولمپيي، وسطَ منصّات مُتصدّعة؛ هذه الآثار الهادئة لامست قلوبنا بشكل أقلّ من ديلوس ودلفيس. ليلاً، نِمنا على جناح جبل صغير اسمُه كرونيون تحت حماية الصّنوبر؛ أضأنا بالقرب من رأسَيْنا شموعاً خضراء ذات رائحة لحمايتنا من البعوض؛ ارتديْنا ملابس النّوم وانزلقنا داخل أغطيتنا الصّوفيّة؛ تتالت الشّتائم وسط الصّمت: تدحرج سارتر فوق إبر الصّنوبر حتّى أسفل المُنحَدَر. صعد وقد جُرِحت ساقُه. بعد قليل سمعتُ وقع خطى، ولمحتُ ضوء مصباح يدَويّ: إنّه «اللّطيف الضّخم» وجماعَتُه ينامون على بعد أمتار منّا؛ رأيناهُم في القرية يشربون تحت تعريشة حديقة خاصّة مُبتهجين على الدّوام.

تستعرُ الظّهيرة، لا يُمكننا المسير سوى بداية أو نهاية النّهار.

تحوّلنا إلى أندريتسينا Andritséna عند الخامسة مساءً؛ التقينا وسط القصب بإنجليز عائدين: كان يتقدّمُهم دليل وحمار يحملُ أمتعتهم؛ فكّرنا أنّنا تجنّبنا إزعاجاً كبيراً. نِمنا تحت شجرة وتابعنا عند طلوع الفجر. وفق حساباتنا ينبغي أن نصل حوالَيْ العاشرة، قبل الحرارة الكبيرة، إلى فندق كريستوپولس الذي أثنتْ عليه جيجي. لم يُشر الدّليل الأزرق إلى أنّ معبر ألفي Alphée سيكون وعراً. في الحقيقة، كان النّهرُ تنّيناً ذا أذرع مُتعدّدة حيثُ غُصنا حدّ السُرَّة. تطلَّب الأمر ساعَتَيْن كي نتجاوَزَه؛ ثمّ إنّي قلّلتُ من شأن المسافة المقطوعة: وجدنا أنفسنا عند الواحدة ظُهراً تحت حرارة 40 درجة، عند سفح ربوة صخريّة؛ ما من ظلّ لنرتاح إليه؛ تلقّى سارتر وخزاً في كامل ساقَيْه جرّاء الشّوك وأحسسنا أسياخاً حمراء تنغرز في حناجرنا. في لحظة من اللّحظات وقد نال منّا الإعياءُ بين الصّخور، أحسسنا باليأس. ثمّ نهضنا ومَشَيْنا. لمحتُ

منزلاً، هرعتُ لطلب الماء، شربتُ بلهفة. حين عدتُ إلى سارتر وجدتُه مُحتقناً تحت قبّعة القشّ، يُطارد بعصاه كلباً أصفر شرساً. أطفأ هو الآخر ظمأه واستعاد شجاعَتَه. بعد ساعة وصلنا إلى طريق وسط قرية. أوينا إلى ظلِّ خمّارة وطلبنا من السيّد كريستوبولس الهاتف ليأتينا بسيّارة؛ في الانتظار تناولنا بيضاً مسلوقاً؛ ليس ثمّة شيء آخر يُؤكل ولا حتّى الخُبز. بدا لنا فُندُق أندريتسينا ومَطبَخُه راقيين جدّا مُقارنة بالحانة.

وصلنا إلى معبد باسا على ظهر بغل؛ وذهبنا إلى إسبرطة بالحافلة، ليس ثمّة ما يُمكن رؤيته وميسترا Mistra حيث نِمنا على أرضيّة قصر مهجور تقريباً. عندما فتحنا أعيُننا لمحنا خمسة أو ستّة وجوه تلبسُ الأسوَد، تميلُ نحوَنا بريبة. زُرنا جميعَ الكنائس، رأينا كلَّ التماثيل مُندَهشين أمام اكتشاف الفنّ البيزنطي. من باحة العظام سرق سارتر جمجمة حملناها معنا. وكانت لنا في قصر ديسپوت المُنعِش واحدة من بين اثنَيْن أو ثلاثة شجارات تُسجّلها الذّاكرة خلال حياتنا بأسرها. أردتُ صعود تايجيت Taygète: التَسَلُّق عند التاسعة والنّصف، النّزول عند الخامسة والنّصف، اللّجوء ومصادِر الماء. قال سارتر لا بالقطع: خاف أن يخسر حياتَه. وفكّرتُ أنّنا ربّما كنّا سنموت بضربة شمس في صحراء الحجارة تلك التي من السّهل أن يهلَكَ فيها المرء دون أن ينتبه إليه أحد. لكن هل كان مُناسِباً أن نرى طلوع الشّمس أعلى جبل تايجيت ونتخلّفَ على هذه المُعجِزة؟ فوّتنا ذلك.

ميْسان Mycènes. وسط القبور، أمام باب الأُسودِ، عرفنا مثلما حدث لنا في الأكروپول، تلك «القشعريرة السّحريّة» التي تحدَّثَ عنها بروتون جيّداً والتي تنشأ من خلال الاصطدام بالجمال المُطلَق. الأروعُ بين مناظر الأرض هو ربّما منظر كليتمينستر Clytemnestre المُسنَدَة إلى حاجز القصر تترقّبُ قدوم أغاممنون من البحر البعيد. أمضَيْنا يَوْمَيْن في فندق الجميلة هيلين والملك مينيلاس. أعجبنا اسمُه. لمسنا البحر في نوپلي؛ كان هناك سجن أعلى ربوة مُطلّة على الخليج مُغطّاة بالتّين الشّوكي حيثُ فاحت من ثمارها المُتعَفِّنة رائحة مُقرفة. كان الحارسُ يذرَعُ المكان مُتنقّلا بين شريط الأسلاك الشّائكة وأشجار الصبّار. أشار إلى نافذة مُشبّكة وقال باعتزاز وبلغة فرنسيّة: «يسكُن هنا

جميعُ شيوعيّي اليونان!» حينها تذكّرنا ميتاكساس Métaxas تحت سماء دائريّة في هيئة سقف! إنّها ذكريات أكرَهُ التفكير في أنّها قد تموت معي. ثمّ أحسسنا بالملل في كوانت؛ وأثينا من جديد. إيجين، ميناؤها المُرَتَّبُ الصّغير، معبَدُها المُنتَصِبُ وسط أشجار الصّنوبر الفوّاحة. اتّجهنا صوب مقدونيا. كانت نهاية شهر أوت وكُنّا قد أفلَسنا. يُفترَضُ أن يتقاضى بوست راتِبَيْنا ويُرسِلَ لنا المبلَغ في تحويل تلغرافي إلى سالونيك Salonique؛ لكن يوم الرّحيل لم يبقَ لنا سوى القليل من المال حتّى إنّه كان غير قادِرٍ على دعمنا أربعاً وعشرين ساعة، اقتنيتُ فقط الخُبزَ وعلبة معجون وبصلاً.

عندما وصلنا لم تكن الحوالة قد وصَلَت بعد؛ كان الحلّ الوحيد هو أن نحجز غرفة في فندق مُجهَّز بمَطبخ. أصررنا على الإقامة الكاملة حتّى أنّ المالك المذهول انتهى بالاتّفاق مع مطعم على المرفأ. هكذا ضمِنّا الاستمرار في العيش دون مشاكل. لكن كان علينا التقشّف ببخل فيما يتعلَّقُ بمُتَعِنا الخاصّة. في سينما بالهواء الطّلق شاهدنا دون حماس فِيلْمَ مايرلينغ Mayerling وبكثير من الرّضا تابعنا *سِرّ الدّرجان الـ39* لهيتشكوك الذي كنّا نجهل اسمَه. لكن أيَّ مُماطلة كان علينا تحمُّلُها قبل أن يقتني سارتر علبة سجائر وقبل أن أتناول قطعة كعك سائلة ومُغْبَرّة تُسمّى كورابيي Kourabié! كنّا نمُرُّ بمكتب البريد مرّتَيْن في اليوم: لا شيء. بدأ الوضعُ يُصبِحُ حرجاً؛ لم نكن نملكُ فلساً واحداً تقريباً. صادَفنا جون پريڤوست في أحد الشّوارع: كان أحد أصدقاء پيير بوست، ولم يكن ليرفُضَ إقراضنا لكنّنا لم نجد الجرأة لنسأله ذلك.

لم نُخطّط للمُكوث وقتاً طويلاً في سالونيك، بدأ اليونان بكنائسه وحدائقه الخلاّبة المُنعِشة ومعابده يُزعجنا حقّاً.

يجب أن نرى المزيد حالما نستلم الحوالة. أردتُ ميتيورس: أربع عشرة ساعة بالقطار، ذهاباً وإيّاباً انطلاقاً من ڤولوس. تمرّد سارتر الذي لا يُحرّكُه الفضول للطّبيعة. كان يقول لي نعم لإرضائي لأنّ انفصامي كان بالضّرورة سيجعلني أثور ضدّ نوبات رفضه الكثيرة؛ لكن ليس من دون مُقاومة: ذرفتُ دموعَ سُخط بمُفردي.

كان المركبُ يُبحِر عبر مياه أسفَنجِيّة وبين حجارة كالخفّاف؛ تأمّلتُ

ضفاف أوبي Eubée: قلتُ في نفسي إنّ أشياء ساحرة في انتظاري هناك ولن أكون معها في الموعد. في أثينا احتفلنا بمطعم فرنسي قبل أن ننصُب خيمتنا على متن تيوفيل غوتيي، هذه الباخرة الكبيرة لا تملك مزايا الكيرو سيتي. هنا أيضاً تفرقة تلقائيّة فَصَلت المُهاجرين عن السُيّاح؛ كان الأخيرون أكثر عدداً، المُهاجرون أكثر بُؤساً وقذارة.

لم أشترِ سوى مؤن ضئيلة؛ ليس من حقّ الطُّهاة بيع أيّ شيء لكنّهم كانوا يُقدّمون الفواكه والمُرطّبات بوفرة؛ مع ذلك شعرنا بالجوع والطّقس بارد في منتصف سبتمبر.

اضطرب البحرُ وغمرني بالكامل إحساس بأسى العودة.

يومان مع سارتر في مرسيليا كانا كفيلَيْن باستعادة حَيَوِيَّتي. عاد إلى باريس؛ خرجتُ مع أولغا في نزهة قصيرة إلى ألزاس. أطلعتني في ستراسبورغ على أماكن طفولتها، واندهشنا مساءً لدى رؤية ألزاس يرقُصون التانغو في ملهى. رأينا «بار Bar» وأوبرنايْ، مجموعة قُرى مُلوّنة كسيمفونيّة حمقاء؛ أحببنا، خصوصاً، قلاع الغرانيت الورديّة المُعَلَّقة في عزلة فوق الصّنوبر. كانت أولغا تمشي فرِحَة جدّاً بين التّلال الجميلة من خلال الغاب الكثيف. كنّا فقراء ونتغذّى فقط على تورتة البصل وحبّات خوخ كبيرة؛ مساءً، كنتُ أحتسي النّبيذ الأبيض وكنّا ننام في الشاليه داخل بيوت غابيّة، أو في فنادق للشّباب. أفسد البردُ نزهاتنا ولم تُضايقنا العودة إلى باريس.

غادر ليونيل رولي هاڤر نحو باريس؛ لكنّه مرض منذ سنة. سُلّ في الكلى قطع عليه تعليمه. أمضى أشهراً في مصحّة سانت-كلود حيث عالجتُ احتقان رِئَتَيَّ. ثمّ سكن شقّته بشارع بروكا. تلقّى علاجاً مُرهِقاً أجرى عمليّة جراحيّة مؤلمة جدّاً. بدا أحياناً أنّ الألم يتوقّف؛ وفي أحيان أخرى يعود. تحمّل بصبر انعِدام الأمان وتلك الآلام الرّهيبة. بدأ في كتابة نصّ يختبر فيه ردّة فعله ضدَّ المرض. أيّدَتْ تجربتُه أفكارَ سارتر: اكتشف في ذروة عذابه نوعَيْن من الفراغ الذي يمنع من مُحاصرتها والإمساك بها. كان مُنكَبّاً على عمله بشغف وهذا العمل كان يُساعده على تخطّي وضعِه القاسي. لكن ستكون هناك نكسة

في شهر جوان: سيكتشف أنّه مُصاب بسُلّ العظام وأرسَلَه الأطبّاءُ إلى بيرك Berck. قبل البدء في الدّروس أمضينا معه يومَيْن نهاية سبتمبر. رغم كلّ ما قرأتُه عن بيرك، فقد بدا لي المكانُ كئيباً أكثر ممّا تخيّلتُ. كانت الرّياحُ عنيفة ومُتجمّدة، البحرُ والسّماءُ في لون الرّمل. كانت مصحّة غيرَ مألوفة؛ ما من أثاث تقريباً في الغُرف؛ ما من طاولات في قاعة الأكل حيثُ كانت المُمَرّضات يُصفّفْن النقّالات فحسب. مع ذلك لم يبدُ أنّ ليونيل مهزوم.

كان مُهتَمّاً بكلّ ما يُحيطُ به، بل لعلّه يتسلّى بذلك. إنّه يدين لفضوله بهذا الانعتاق. وصف لنا تقاليد هذا العالم الغريب، روى لنا عدداً من النّكات، خصوصاً حول قصص حبّ المرضى فيما بينهم أو مع المُمَرّضات. قصصه العنيفة في واقِعِيّتها وهذا الجو عموماً، ألهما سارتر فصلاً في كتاب مع *وقف التّنفيذ* الذي لامتْهُ عليه «الأرواحُ الطيّبة».

انتهينا من الرّيف؛ ها نحنُ أولاء نعيشُ في باريس: ما من رحلات في القطار، ما من انتظار على رصيف المحطّات. استَقَرَّ بنا المقام في فندق أجمل من روايال برتانيْ، كان سارتر قد اكتَشَفَه أثناء فترة نقاهتي. كان يقعُ بين شارع مين Maine ومقبرة مونبارناس: كانت لي أريكة، رفوف وكتب ملائمة للعمل. أصبحتْ لي عادات جديدة؛ صباحاً، أحتسي القهوة، أتناولُ الكرواسون على طاولة في حانة صاخبة ومُشرقة، *الفُرسان الثّلاثة*. غالباً ما كنتُ أشتغل في مسكني. كان سارتر يقطُن الطّابق العُلوي. هكذا أصبحت لدينا جميعُ مزايا العيش المُشترك ولا واحدة من مساوئها.

ماذا سأكتُب الآن وقد أنهيتُ قصصي؟ بعضُ المواضيع تُحوّم في رأسي منذ زمن لكنّني لا أعرف تماماً كيف سأعالِجُها. ذات مساء، بعد العودة المدرسيّة بأيّام قليلة، كنتُ جالسة مع سارتر في عمق الدّوم؛ كنّا نتحدّث عن عملي، وعاتب خجلي المُفرَط. في كتابي الأخير، لامستُ بعض المسائل التي كانت تشغلُني، لكن من خلال شخصيّات أُكنّ لها الكراهية أو شعوراً مُشوّشاً بالمَوَدّة؛ كان من المؤسف، مثلاً، أن أجسّد آن Anne بشُنتال Chantal. «أخيراً! لماذا لا تتحدّثين عن نفسك فيما تكتبين. قال لي بحماس مُفاجئ. أنت أهمّ من كلّ ريني أو ليزا...» صعد الدّم إلى وَجْنَتَيّ؛ كان الطّقسُ حارّاً وكالعادة كان هناك

دُخان كثيف وضجيج حولنا وخُيِّل إليّ أنّي تلقّيتُ ضربة قاسية على رأسي. «لن أجرؤ أبداً!»، قلت. أن ألقي بنفسي عارية في كتاب، دون أن تكون لي من الأحداث مسافة، إنّه أمر خطير: لا، إنّ هذه الفكرة تُرعِبُني. «تَحَلَّيْ بالجرأة»، قال لي سارتر. مارس عليَّ ضغطاً: إنّ لدَيَّ طريقتي الخاصّة في الإحساس بالأشياء، في ردّ الفعل، وهذا ما يجدُرُ بي التّعبير عنه. مثل كلّ مرّة يباشر فيها مشروعاً جديداً، أيقَظتْ كلماتُه احتمالات وآمالاً بالجُملة؛ لكنّني خائفة: مِمَّ تحديداً؟ لاح لي أنّي يوم أغذّي الأدبَ مادّتي الخاصّة، فإنّه سيتحوّل إلى شيء خطير كالسّعادة والموت.

فكّرتُ الأيّام المُوالية في نصيحة سارتر وشجّعني على التعلّق بموضوع مُعيّن يشغلني، من خلال مقاطع قصيرة، منذ ثلاث سنوات على الأقلّ: لمَّحْتُ إلى ذلك من قبل، لكن تنبغي العودة. مثل الموت الذي نتحدَّثُ عنه دون النّظر إليه وجهاً لوجه، فإنّ وعيَ الآخر يظلُّ بالنّسبة إليَّ «يُقال»؛ حين أدرك وجوده، أجد نفسي أمام فاجعة حقيقيّة مثل الموت، في مثل عدم قُدرَتنا على القبول به؛ قد يُعوّض هذا الآخر على نحو غريب: أنتزع من الآخر حياتَه فيفقد كلَّ نفوذ على العالم وعلَيَّ (كنتُ أجهَل جُملة هيچل: «كلُّ ضمير يلاحقُ موتَ الآخر.» لم أقرأها سوى سنة 1940.) أثّرت فيَّ كثيراً حكاية حدثت سنة 1934. شابّ قتل سائق تاكسي: «لم أكن أملك الأجرة»، فَسَّر. فضل الجريمة على الخِزي. أفهمُه من جانب ما. حلمتُ بهذا العارض لأنّه يتطابَقُ مع مُجمَل انشغالاتي. لستُ متصالحة مع الموت ولو تخيّلتُ موتاً عنيفاً فإنّ نفَسي ينقطع. قد ينفجر وعيي في لحظة مثل جراب نَفَخَه الرّيح وثَقَبْتُه، وأنا صغيرة بكعب حذائي؛ يُمكنني في لحظة أن أثقب وعي إنسان آخر: يُبهرني القتل من الزاوية الميتافيزيقية. من جهة أخرى ولأسباب أخلاقيّة، كانت الجريمة واحدة من أوهامي العائليّة. رأيتُ نفسي في قفص الاتّهام أمام المُدّعي العام، القاضي، الهيئة، الحُشود، أحمل وزراً من عبء تبرير حياتي؛ بدا لي هذا التصرُّف غير لائق لكنّي لم أضعْ أسلوباً عمليّاً آخر لتغييره؛ الملجأ الوحيد، هو أن أقوم بعمل لا أحد غيري قادر على تحمُّلِ تبعاته، شرطَ أن يُدركَ المُجتَمع ذلك، وإلّا فسيكون على سارتر مُشاطَرتي العواقب. ليس ثمّة سوى جريمة موصوفة واحدة قد تُعيدني إلى الوحدة. أستمتع أحياناً بربط المواضيع بشكل مُضيَّق.

وعيٌ ما انجلى أمامي بحضوره المُتوهّج الذي لا ينقلب عدماً أبداً؛ بسبب الغيرة، الرّغبة، ارتكبتُ خطأ لا يرحَم: ووجدتُ في الانعدام بدافع الهيبة التي خلّفتها سيمون وايل في نظري، فكّرتُ في بناء شخصيّة مُتمرّدة مُستوحاة من شخصيّتها: عندما أخبرتُ سارتر بذلك عارضني قائلاً إنّ امرأة نذرت نفسَها للتّواصُل مع العالم من خلال مبادئ مُشترَكة، لا يُمكنها الظّهور كضمير مُنغَلِقٍ على ذاته. تتواءم أولغا مع اختياري بشكل أنسب بفضل انقطاعها عنّي بسبب فارق السنّ، فترات صمتها الطّويلة، أمزجتها التي فرضها عليها الثّلاثي. اقتنعتُ فوراً. لكنّ تخطيط *الضّيفة* كان قد تشكّل قبل أن أحسب حسابها.

لم أملك الجرأة لخوض المغامرة وأن أجعل من امرأة الثلاثين التي كنتُها موضوعاً لكتاباتي. استخدمتُ الحيلة أيضاً، وتفسيرُ ذلك نقصُ التقنية لديَّ. تمسّكتُ بأن يكون للبطلة «جذورٌ» كما قال د. هـ. لورنس. أُعجِبتُ بطريقة فوكنر في إرباك الزّمن في كتابه *أنوار أوت*؛ لكنّ نمطَهُ كان ينضوي تحت عُنصر القدر، فيما أعتزم دخول معترك قضايا حرّة وغير متوقّعة؛ من ناحية أخرى، أعرف أنّنا قد نثقل النصّ بقطع سياق الأحداث بالعودة إلى الماضي في كلّ مرّة. قرّرتُ إذاً، سردَ طفولة الشخصيّة وفترة شبابها حيثُ سأتجسّد وأطلقُ عليها اسمَ أمّي فرنسواز. لن أمنحَها ذكرياتي الحقيقيّة، سأصفها من بعيد بأسلوب مُقلّد مرّة أخرى، على أسلوب جون دوس پاسوس.

استرجعتُ موضوعاً استخدَمتُه مع شُنتال، في *الرّوح المُتعالية*: حاولتُ الإشارة إلى الخدَع التي تُهدّد الفتيات الشابات في مُحاولة لإضفاء أهمّية على حياتِهنّ. جعلتُ لفرنسواز صديقة سمَّيتُها إليزابيت، رغم أنّها لا تمُتُّ لزازا بصلة من حيثُ رقّتها. منحتُ إليزابيت جسد إحدى تلميذاتي في الصفّ الثالث، كانت في الخامسة عشرة تبدو مُكتنزة، طافحة بالغواية بشعرها الغزير الأشقر الإيطالي وفساتينها السّوداء الضيّقة. كانت تَمضي في حياتها واثقة بصورة مُستفزّة استبعدت بها رفيقتها في المعهد، فرنسواز: من جديد أظهرتُ الآخر على أنّه سراب؛ في الواقع، كانت إليزابيت ظلّاً خانعاً لأخيها پيير الذي كانت فرنسواز بالكاد تنتبه إليه في البداية. رسمتُ بإسهاب العلاقات المُهتَزّة التي جَمَعت بين فرنسواز وأستاذ تاريخ الفنّ الذي كان يُشبه هيربو Herbaud.

أخيراً تعرّفتُ على پيير لابروس، واتّحدت حياتُهما. إليزابيت التي تُكن لأخيها حبّاً عنيفاً، لكن مكبوتاً، كانت تغار من فرنسواز ومُنجَذبَة إليها في آن. اشتغلتُ سنة بأكملها على هذا الجزء الأوّل.

في الأثناء، كان سارتر يكتُبُ بحثاً نفسيّاً حول الظّواهر عَنْوَنَه بـ: *نفس Psyché* الذي لم يكن مُتاحاً أمامه سوى نشر مقطع تحت عنوان *مُخطّط نظريّة الظّواهر العاطفيّة*. حلّل نظريّة الشّيء النّفسي، الذي بدأه في نص حول سُمُوّ الأنا. لكنّ ذلك لم يُمثّل في نظره سوى تمرين وقطَعَه بعد أربع مائة صفحة، ليُنهي مجموعَتَه القصصيّة.

تصالحَت أولغا مع والِدَيْها وقضّت عُطلتها في بوزڤيل. كانا مُتعلِّقَيْن بعضهما ببعض ما يسمَحُ لهما أن يُدركا أنّها كانت تُجرّب حظّها في باريس بدل سجنها في ضيعة ريفيّة. في شهر جوان اقترحتُ عليها القيام بالمسرح. شجّعتْها كامي التي كانت دائماً تدعوها «ابنتي الروحيّة». دخلت شهر أكتوبر مدرسة التّمثيل وعرضت على دولان مونولوچ *الفُرصة* الذي ساعدَت ميريمي على إعداده. ورغم أنّها انفجرت بالبكاء عند نهاية العرض، فإنّه هنأها وتلقّت دروساً بضعة أسابيع بمتعة كبيرة. قدّم لها دوراً جديداً لتدرسه فحفظته عن ظهر قلب؛ لكنّها لم تكن تعرف أحداً بالمدرسة وانزوت في ركنها دون تبادل الأحاديث مع بقيّة الطّلبة ولم تجرؤ أن تطلب من أحد مُساعدتها على إلقاء نصّها. «ليس لَدَيَّ ما أقول»، اعترفتُ بصورة مُشفقة حين دعاها دولان لتجتاز اختباراً شفويّاً. رفع عيْنَيْه ويَدَيْه نحو السّماء وعين إحدى رفيقاتها في العمل؛ قال لهما بأن تشتغلا معاً طيلة الأيّام المُقبلة وأن تقدّما عرضهما الأسبوع القادم. أولغا المذعورة، لم تطأ المدرسة أشهراً. كانت متأسّفة لأنّ تعليم دولان راق لها جدّاً. لم تعترف لي بهذا الزَّيغ. هذا الصّمت، يُثقل كاهلها. وجّهت لنفسِها كمّاً من التّقريع الذي لم يُسهّل حياتها. أغدق لها ليونيل المنفي إلى بيرك بثقته مؤقّتاً؛ انعزَلت قليلاً، مُدخّنة سيجارة بعد أخرى سابحة في أحلام كئيبة وسط فوضى عارمة.

انعَكَسَ سوء مزاجِها على علاقتها بي. كانت الفترة الأسوأ على امتداد صداقتنا. وإحدى الفترات الأوهن في حياتي. لم أستطع القبول بأنّ الحرب

داهمة أو حتّى مُحتَمَلة. لم يكن أمامي سوى أن أدفن رأسي في التّراب كنعامة لشدّة التهديدات التي كانت تُحدِقُ بي من كلّ جانب وتسحقُ وجودي.

في فرنسا احتضرت الجبهة الشّعبيّة أشهراً؛ تحطّمت عندما خرج الاشتراكيّون من وزارة شوتون Chautemps. وفيما كان اليسار يتهاوى راحت الفاشيّة تتفاقم. إثر حوادث شارع پريسبورغ Presbourg (آلات جُهنّمية فجّرت المَبْنَيَيْن التابِعَيْن لـ «الرّابطة العامّة للأعراف الفرنسيّين». قُتل اثنانِ من الأعوان. كانت عمليّة استفزازيّة)، أكّدت الأبحاثُ ضخامة المُنظّمة السرّية للتحرّك الفرنسي المُسمّاة بـ*القناع*. كانت مسؤولة عن عدّة جرائم قتل لم يتمّ الكشفُ عن هويّة مُرتَكِبِها: قُتِل المُهندس ناڤاشين الذي عُثِرَ على جُثّته في غابة بولوني، ليتسيا تورو التي اغتيلَت في مقطورة المترو قريباً من بوّابة دوري Dorée، الإخوة روسيلي مُؤسّسو الحركة المُعادية للفاشية «عدالة وحُرّية». نهاية شهر جانفي، أربعون من مُنظّمة *القناع* وجدوا أنفُسَهم وراء القُضبان. دلَّ اختفاء الجنرال ميلر على وجود مُؤامرة فاشية، جمعت على كامل أوروبا وأمريكا عدداً كبيراً من الرّوس البيض. لم تكن تلك الحركات في حدّ ذاتها تُشكّل خطراً جادّاً؛ لكنّها كانت تُخبر بوجود فاشيّة عالميّة من الطّرف إلى الطّرف. وهي فوق ذلك تتصرّفُ بوجه مكشوف في الشّرق الأقصى، أشعل المحوَرُ حرباً جديدة؛ عقِب حادثة ميناء ماركو پولو، احتلَّ اليابانيّون پيكين وقرّروا إخضاع الصّين بأكملها. اجتمع الوطنيّون والشيوعيّون وقاوم الصينيّون لكن بأيّ ثمن! تلاشت نانكين، شابيي - ضاحية شعبيّة ضخمة شمال شنغهاي - احترقت بالكامل تقريباً. نشرت الصّحافة صُوَراً رهيبة: أشلاء نساء، وأطفالاً مُتفَحّمين قتلتهم القنابل اليابانيّة.

على مشارفنا، كان هتلر وموسوليني بصدد احتلال إسبانيا. وصلت الفيالِقُ الإيطاليّة يوم 26 أوت إلى سانتاندير؛ نهاية أكتوبر سقطت خيخون Gijon؛ كان الفاشيّون هم سادة الفحم في أستورياس والحديد في بيسكاي؛ كانوا مُسيطرين على شمال البلاد؛ فشلت كلُّ المحاولات لطردِهم. انتقلت الحكومة إلى برشلونة التي اجتاحتها غارات عنيفة شهر أكتوبر. قُصِفَت ڤالنسيا، مدريد، ليريدا، وتكوّنت جثث الأطفال والنّساء على الأرصفة. وعدت الپاسيوناريا

في اجتماع خطابي التأم في باريس: «لن تَمُرّوا!» وكسبت الجمهوريّة معركة توريل: حاصروا المدينة واحتلّوها. لكن كان عليهم إخلاؤها.

وهدّد فرنكو كاتالونيا. إن استَمَرّت فرنسا وإنجلترا في حيادهما العنيد فإنّ إسبانيا ستضيعُ دون شكّ: استَمَرّتا في العناد. لم تتلقّ الجمهوريّة مدفعاً واحداً ولا طائرة فيما راحت ألمانيا وإيطاليا تُرسِلُ إلى فرنكو عتاداً ثقيلاً ومُدَمّراً. خلال شهر مارس، بسط الفاشيّون نفوذَهم على الجبهة الشّرقيّة؛ لم تترك طائراتُهم شيئاً في مُدن سواحل كاتالونيا؛ قنابلُ دمارٍ شامل مَحَقَت أحياء بأسرها في برشلونة وعصفت بالمركز: كانت الحصيلة ألفاً وثلاثمائة قتيل في يومَيْن وأربعة آلاف جريح. عند مضيق پيرثوس ازدَحَم الناس في شكل قطيع كبير من اللاجئين البؤساء. نظّمت المقاومة صفوفها في برشلونة؛ لكنّ الإنتاج حال إلى الصّفر تقريباً بسبب قصف كاتالونيا المعزولة عن لوڤان والمركز، وجدت نفسها في وضع ميئوس منه. جاء فرناند مرّة أخرى بعد حصوله على رخصة؛ لقد تغيّر، لم يعد يبتسم. «أيّها الفرنسيّون الأوغاد!»، قال. بدا أنّه يشمَلُنا أنا وسارتر بالضّغينة. بدا لي ذلك غير عادل لأنّنا كنّا نتمنّى من القلب أن تهرع فرنسا لنجدة إسبانيا، لكنّ غضبَه كان أعمى. تُؤسفنا المأساة الإسبانيّة؛ والألمان يرعبوننا. في شهر سبتمبر، في نورمبورغ، قام هتلر أمام ثلاثمائة ألف نازي ومليون زائر بأشرس خطاب له على الإطلاق. رحلة موسوليني إلى مونيخ متّنت ارتباط الدكتاتورين. إخفاق عمليّة انقلاب جعلَت الرايخ يتلقّى أوامره مباشرة من هتلر، وأصبح هملر وزيراً للداخليّة، انتصر الغستاپو.

في ڤينّا سقط الحُكم في يد الهتلري سايس إنكار Seyss-Inquart. بعد خطاب مُدَوٍّ دخلت جيوش هتلر إلى النّمسا: تمّ الدّمج Anschlusss. خيّم الذُّعرُ في ڤيانا فيما بدأ في تشيكوسلوفاكيا الألمان السوديت يُطالبون بالاستقلال. لم يُبالغ سارتر: بدأت حظوظ السّلام تضعُف. كان بوست مُتأكّداً من أنّه سيُغادر قريباً إلى الحرب، وبدا أنّه سيفقد حياتَه هناك. ما زلتُ أخدَعُ نفسي. لم أكن أرى الوجه الحقيقي للأحداث، لكنّ المُستقبَل راحَ يُسحَبُ من تحت قَدَمَيّ؛ أحسستُ بشعور سيّئ يُشبه القلق. لهذا السّبب لم أحتفظ من تلك

السّنة إلّا بذكريات غائمة. في حكايتي الشّخصيّة، لم أكن أجد أشياء واضحة. تدبّرتُ أمري أفضل من السّنة التي قبلها؛ لم أعد أسهرُ طويلاً، صارت وتيرة خروجي أقلّ. خلال شهر أكتوبر ونوفمبر حضرتُ مع أولغا وسارتر احتفاليّة قدّمتها ماريان أوزوالد، في صالة غاپو، بعد عمليّة انتحار فاشلة. كانت ترتدي الحرير الأسود وكان شعرُها أحمر بشكل لافت، تغنّت «أنا الطيبة» لجون كوكتو بنبرة غضب مكتوم يُظهر جليّاً أنّها تلَمِّحُ من خلالها إلى ثورة الإخوة پاپان. غنّت أغاني عديدة لجاك پريڤير، من بينها تلك التي ألهمهُ إيّاها هروب المُستَوطِنين الصّغار من جزيرة بال Belle–Ile (الجزيرة الفاتنة):

أيتها العصابات، المُنحرفون، اللّصوص، المُزعجون

إنّه قطيعُ الناس الشّرفاء

الذين يُطاردون الأطفال

كانت في فوضى پريڤير ضراوة تملؤني بالرّضا. أُحبُّ الصّوت الخشن والدافئ لماريان أوزوالد، شخصيّتها القلقة، والفارق بين حركاتها، إيماءاتها، ونصوص أغانيها.

كان أيضاً في صالة غاپو أن استَمعتُ مع سارتر للمرّة الأولى لسيمفونيّة بيتهوڤن الرابعة. لمَحْنا كامي؛ كانت تقوم ببعض الخربشات على الأوراق أثناء المقاطِع التي كانت تجدُها مُمِلّة: كانت تُسَجِّلُ أفكاراً لروايتها، قالت لنا؛ جعلني هذا التّراكُم حالمة.

ذهبْنا خلال عُطلة الميلاد إلى ميجيڤ Megève؛ نزلنا في فُندُق صغير. كانت أختي وجيجي تستأجران شاليه قريباً مِنّا بصُحبة بعض الأصدقاء، والتحَقَ بنا بوست. قرّرنا تلقّي دروس؛ لم أكن خفيفة الحركة ولا شُجاعة، لكنّني كنتُ أتطوّرُ من يوم إلى آخر. أمضَيْنا أوقاتاً رائعة على مُنحَدَرات جبل أربوا وروشبرون. مساءً، كنّا نقرأ صحيفة صامويل پيپيس، صحيفة ستيلا، لسويفت اللتين تمّت ترجَمَتُهُما مُؤخراً. في تلك الفترة، أو بعد فترة قصيرة من عودَتنا إلى باريس قرأنا *الأمل* لمالرو بشغف تجاوَز الأدب من بعيد. كما في رواياته الأخرى، كان أبطالُه يعوزُهُم الدّمُ السّاخن، لكنّ ذلك لم يكن مُمّلاً لأنّ الأحداث أكبرُ وزناً من الشخصيّات، ولقد برع مالرو في سردها. كان قريباً منّا

باستشرافه للكارثة، وبطريقته التي كان يشعُر من خلالها بالتّناقُض القائم بين الحماس والانضباط.

كان يطرَحُ مواضيعَ جديدة في الأدب: علاقات الأخلاق الفرديّة بالعمل السياسي؛ احتمال الحفاظ على قِيَم إنسانيّة في صُلب الحرب نفسِها؛ لأنّ مُحاربي الجيش الجُمهوري كانوا مَدَنيّين، بشراً، قبل أن يكونوا جُنوداً وهم لا ينسَون ذلك أبداً. اهتممنا بنزعاتهم، دون أن نحدس إلى أيّ درجة سيبدون، بعدَ وقت وجيز، مُنتهي الصّلاحيّة وإلى أيّ حدّ ستُقَوِّضُ الحربُ العلاقات الإنسانيّة التي شغلت مالرو وتعلّقنا بها وأوليناها قيمة كبيرة.

إلى جانب قصف مدريد، لاحت لي الانتصارات في المعارك، الهزيمة، كلُّ الأشياء التي حرّكت فضولي قديماً، باهتة. كنتُ بالكاد أقرأ الحوادث في الجرائد. بقيتُ على الحياد إزاء مُحاكَمَة ويدمان Weidmann الذي خصّصتْ له الصّحافَة صفحات بأسرها بهدف الإلهاء والتّضليل. صرتُ أستمتع بشكل أقلّ من السّنوات الماضية بالنّظر إلى وجوه الناس الذين كنتُ أقف معهم جنباً إلى جنب.

في شهر جانفي شاهدنا بالوَرشَة كواليس پلوتوس التي اقتبستها كامبي بحُرّية عن أريستوفان Aristophane؛ على أنغام موسيقى إيريوس ميلهو، وديكور كوتو Coutaud، تأدّت مشهديّة لا تعني الكثير سوى أنّها مُسلِّيَة في مناظر عديدة منها. أدار دولان اللُّعبة. أنقذت ماري إيلان داستي بجمالها سقوطَ دور الفقر في التصنّع المُبتَذَل. ما أفضى على العرض بهارات خاصّة هو أنّ ماركو كان أحد المُمَثّلين به. أراد التمرُّن على الغناء على المسرح وفكّر أن حماية دولان أمر لا يُفَوَّت. ساقاهُ عاريتان، يرتدي فقط قميصاً قصيراً، نَعلَيْن، كان يقود فرقة القرويّين. لكن كان من الصّعب قيادَتُهم، إذ كما قال له مُدير الأوبرا يوماً: إنّه يفتقر إلى التّدبير الصّائب والمقاييس المضبوطة. كان يغنّي مرافقاً الموسيقى وحين يتحرّكُ على الرّكح، لم تكن خُطُواتُه متناغمة مع الإيقاع. مع ذلك كان لِصَوْتِه تأثيرٌ قويّ على الصّالة الصّغيرة.

لم أشاهد مع سارتر سوى مسرحيّة واحدة أخرى خلال تلك السّنة: *القرصان* لمارسيل آشارد بإخراج من جوبي. كانت المشهديّة ضعيفة والنّمط

الذي يقوم على لعب بعض الأدوار بتقنية الرّجوع إلى الوراء - مثلما هو الشّأن في *هامليت* العرض الذي قدَّمَه الممثّلون أمام هيئة القضاء - ليس جديداً؛ لكنّنا وجدنا دائماً سحراً خاصّاً في اقتحام الخيال داخل عالم خيالي أصلاً.

في المُقابل كنّا نرتادُ السّينما بانتظام. عدا پريڤير وڤيغو - قُمنا أيضاً بمُشاهدة الكرنفال الملحمي بوجه استثنائي - فإنّ السّينما تصيبنا بالملل. كانت السيناريوهات سطحيّة، الصّور شاحبة، والمُمَثّلون يتحدّثون خطأ. وبما أنّنا أيضاً نكرهُ أفلام الحرب، فقد قاطعنا *الخدعة الكُبرى لرونوار Renoir*. من ناحية أخرى وجدنا الكوميديا الأمريكيّة مُمتِعة: *رحلة اللاعوْدَة*، *بيورورك-ميامي*، *غودفرايْ رَجُلي*، *السّيد ديسدس العجيب*، *زوجة ذي اللّحية الزّرقاء الثامنة*، الخ.

لم يكن للحكايات التي ترويها هذه الأفلام معنى، لكنّها كانت محبوكة بشكل مُذهل: ما من حادثة - حسب مفهوم ڤليري - لم يكن لها ارتباط بعموم القصّة؛ تذوّقنا هذا البناء كما لو كان سوناتا كلاسيكيّة. من جهة أخرى كانت واقعيّتها في نظرنا مُتوارية خلف الخيال واللقطات المألوفة؛ شارع، سُلَّم، ناقوس، أصغر ديكور، أصغر التّفاصيل كان كفيلاً بجعلنا نُغادرُ أماكننا ونُسافر بعيداً. إنّ الخلافات التي تكتنف العُشّاق عادة، هي اختراعات حادّة: كنّا نجهلُ أنّها تتماثلُ للصّراع الأمريكي إزاء قضيّة الأجناس. في إحدى الكوميديات، كان البطَلُ يحملُ بين ذراعيْه بطلة لا تُحتَمَل ليقطع بها جبلاً غارقاً في المياه، فيتركها تسقُط من بين يدَيْه في بركة مياه: بدت لنا جسارة أن يُترجِمَ الأمريكان عداءَ الذّكَرِ للمرأة. وهكذا يمتزجُ الخطأ بالصّواب عندما نقطعُ المُحيط، ومن وراء هذا التّشويش تنشأ الغرابة بالنّسبة إلينا. ثمّ إنّ هناك العديد مما يُمكنُ العثور عليه في هذه الأفلام. تلك السّنة، أرسلت لنا هوليوود واحداً من نجاحاتها السّعيدة، وغير المُتوقّعة في نظرنا، *أخضرُ المراعي*، المُستوحى من مسرحيّة لـكونيلي Connnely: التّوراة مُجسّدة من قِبَل السود، الربّ أسوَد ومُلتح، يُدخّنُ سيجاراً عملاقاً ومحوطاً بملائكة سود يُنشدون «الزّنجي الروحاني»؛ ملائكة خدم من النّساء ذوات الأجنحة المَحمِيّة جيّداً بأغطية الأثاث، يكنسن البلاد الإلهية. أبناء قابيل يتبادلون إطلاق النار

بالمُسدّسات. في السّماء جميعُ الآثام مُباحة، الكلّ مُستمتِع. بدا لنا أنّ لهذه القصّة نضارة الجنّة المفقودة، دون السّقوط في السّذاجة.

منذ سنة 1933 واكَبْنا على الشاشات ظهور سيمفونيّات الـ «سيلي Silly» بالألوان وكان سارتر يُقلّد دونالد كانار. بسرور كبير استعدتُ حكايات طفولتي المُفَضّلة: *الخنازير الثّلاثة الصّغيرة*، لسنوات تغنّينا بها مثل كلِّ الناس: «من هو الذّئبُ الشرّير الكبير؟»

كان الحدثُ الأبرز في تلك السّنة هو العرض السّريالي الذي افتُتِحَ يوم 17 جانفي 1938 في رواق الفنون الجميلة ضاحية سانت–أونوري. في المدخل، ووسط تاكسي من اختراع سالڤادور دالي، حيثُ تتساقطُ الأمطار، عارضةُ أزياء شقراء مُنتشية بين الهندباء البرّية والخسّ المُغطّى بالحلازين؛ عارضات أخريات كُسين وتعرَّيْن من طرف مان رايْ، ماكس أرنست، دومينغيز، موريس هنري الذي ضجّ *الشّارع السّريالي* بأعماله؛ كنّا نُؤثِرُ تُحفَ ماسون الفنّية، خصوصاً الوجه الحبيس في قفص والمُكمّم بفكرة ما. أُثِّثَت الصالة الكبرى بأعمال مارسيل دوشان، وكانت كهفاً يؤوي غديراً وأربعة أسرّة تُحيط بكانون شواء ضخم: كان السّقفُ مُكَوَّناً من أكياس فحم. أشياء سابحة في فضاء الصّالة وسط جوّ من الظّلام المحسوب بعناية، وروائح القهوة البرازيليّة: غطاء من الفرو، منضدة تحملُها سيقان نساء؛ أبواب، جدران، مزهريات، أياد تخرج من كلِّ مكان. لا أعتقد أنّ السّرياليّة كان لها أثر مُباشر علينا؛ لكنّه طبعُ الهواء الذي نتنفّسُه. السرياليّون، هم، مثلاً من جعل من معروضات الأغراض المُستَعملَة موضة حيثُ كنتُ وسارتر وأولغا نقضي فترة ما بعد ظهيرة يوم الأحد.

وهكذا، لم تكن التّسلية ما يعوزُنا. لكنَّ صداقتنا فترت. لم يكن ماركو يخفي عداءه ناحيتنا، كنتُ قليلاً ما أراه ودون رغبة منّي. تلاشى پانييز من ناحيتنا؛ أغضبَهُ تطرُّف سارتر السّياسي وتعلّقنا بأولغا، وكان يشكّ خطأً في أنّ صداقة قد تجمعُنا بابنة عمّه؛ لم نكن مُتخاصمين لكنّنا لا نلتقي. ذات ظهيرة في الدُّوم، رأيتُ تيريز تلبَسُ خاتَماً؛ لقد تزوَّجت من أحد زُملائها، قالت لي. كانت في انتظار پانييز وكنتُ في انتظار سارتر: أمضَيْنا ساعة أو ساعتَيْن معاً نحنُ الأربعة. تساءلنا أنا وسارتر، لماذا أحجَمَ پانييز وتيريز عن

الارتباط؛ لم يُفَسِّر شيئاً وراحَ انزعاجُنا يتفاقم مع مرور الدّقائق. بعد أيّام أخبرتْنا السيّدة لومار أنّهما كانا فعلاً مُتزَوّجين: شهِد ماركو على زواجهما. لاحقاً ستتمتّن علاقتنا من جديد؛ غير أنّنا لم نفهم قط الدّوافع وراء هذه الكوميديا السّخيفة أمامنا. من جهة أخرى صارت علاقتي بأولغا مُكفَهِرّة. وأختي تعيش في قلق بسبب صحّة ليونيل؛ في كلّ مرّة أراها، كانت تنخرطُ في نوبة بكاء. قطعاً كانت تلك العَثَرات والظّلالُ تُصيبُني بالإحباط. تصوّرتُ أنّ نجاحاً أدبيّاً قد يجعلني أؤوب من جديد؛ لكنّني لم أتوقّع ذلك بالمرّة. قال سارتر إنّه سيمُرُّ بغاليمار ليسأل عن أخبار مخطوطي. انتظرتُه في الدّوم وأنا أعملُ غير مُتَشوّقة كثيراً لمعرفة النّتيجة. رُفِضَ الكتاب. وجده بريس پاران سيئ البناء في عمومه، وباهتاً في تفاصيله. «سنُجرّب مع ناشر آخر»، قال لي سارتر الذي قدّم المخطوط لغراسيت Grasset. بالكاد أحسستُ بالخيْبَة، على الأقل لحظتها، لكن لعلَّ ذلك الإخفاق هو الذي زجَّ بي في دوّامة من الكَساد. لم يُغنِ عنّي ما كنتُ أكتبُه الشيء الكثير: لم تُقنعني قصّة طفولة ومراهقة فرنسواز، أنا نفسي. بالإضافة إلى أنّ صحّتي كانت لا تزالُ هشّة. انتكستُ مرّة أخرى، الليلة التي سبقت عُطلة عيد الفصح؛ لم يكن الأمر خطيراً، لكن كان عليَّ أن ألزم الفراشَ أيّاماً.

غادَرنا باريس حالما شُفيت. كان في مُخطّطنا الذّهاب إلى الجزائر لكن لم يكن لدينا مُتَّسَع من الوقت. أخذنا القطار صوب بايون Bayonne وقُمنا بجولة في إقليم الباسك Basque[32]. كان الرّبيعُ مُزهراً وشعرتُ بالبهجة تغمُرُني. في إيكستاسو، كانت هناك شجرة تدُلُّ على غُرفتنا بالفندق، حيثُ كان علينْا أن نسلُك ممرّاً للوصول إليها: شيَّدنا بين الأغصان مِنصّة، يمكن لسارتر استغلالها للعمل أثناء نزهتي في الروابي المُجاورة. سرتُ بين السّرخس، عَيْناي مُشبعتان بالشّمس واللّون الوردي لزهر الخوخ. لدى عودتنا توقّفنا في لاروشال حيثُ أمضى سارتر طفولته. حول الميناء المُحَصّن، وفي الشّوارع ذات الأقواس، ناقشنا مصير *طفولة قائد* التي كان بصدد كتابتها. كان يتساءل ما إذا كان من الممكن أن تتوقّف القصّة في المنطقة التي تنتهي فيها الأحداث

32- الباسك Basque: إقليم إسباني مُستَقِل.

فعلاً، عندما خرج لوسيان من المُراهَقَة؛ رأيتُ أنّ من الأفضل مواصلتها، وإلّا بقيَ القارئ مُتَعَطّشا للمزيد. اليوم أُفكّر أنّي كنتُ مُخطئة في تقديري.

الهواءُ الصافي، المشي، الحركة في السّفر، جميعُها جعلتني أشعر بحيويّة قُصوى حتّى إنّي في ﭙينتكوت، خرجتُ وحدي هذه المرّة، حقيبتي على ظهري، إلى أوڤيرنيْ Auvergne. أذكُر خصوصاً، ذات ظهيرة، دُخولي مضيقاً مُثيراً على تخوم سان-فلور. استرجعتُ طفولتي، وعادت إلى ذهني ذكريات قديمة: الزّهرة التي اتُّهِمتُ بقَطفها من حديقة العمّة أليس؛ قلتُ إنّي أرغبُ بشدّة في أن أبعَثَ الحياة من جديد في تلك الفتاة الصّغيرة؛ لكنّني شككتُ في أنّ الفرصة ستسمَحُ يوماً.

قمتُ بصحبة سارتر بنوع من الحجّ إلى ماضينا القريب: رووان. لا شيء تغيَّر، وكم هي عديدة الأشياء التي عادت إلى ذاكرتنا؛ مع ذلك شعرنا بالإحباط؛ بدل الدّفيئة الحارّة التي عِشنا تحت سقفها، وجدنا مُحلاً لبيع الأعشاب المُجفَّفَة. لقد انفَصَل المُستقبل الذي صار حاضراً من الأوقات التي كانت تُشكِّلُه: لم يعد في الشّوارع ولا في ذاكرتنا سوى الهياكل. أي مُستقبل لهذه الأيّام التي نعيشُها؟

رأيتُني أتحدّث مع سارتر في مقهى كاتافالك المُحاذي لمحطّة الشّمال الذي كنّا نعود إليه بين الحين والآخر. كنتُ أحدّثُه عن نجاح رواية *الغثيان* التي تلقّاها النُقّاد كحدث مُهم، والرّسائل التي تلقّاها بشأن *ألفة* و*الغرفة* الصّادِرَتَيْن في المجلّة الجديدة N.R.F وفي مجلة *مقياس* Mesure. «سيكون ذلك مُمتعاً لو أصبحنا كُتّاباً مشهورين جدّاً»، قلتُ له: كانت تلك هي المرّة الأولى التي يخطُرُ لي فيها النّجاحُ الجماهيري، وأغرتني الفكرة. كنّا سنعرف أناساً آخرين، ونعيش تجارب أخرى، فكّرتُ بشكل غامض؛ سيكون تجديداً لحياتنا. حتّى تلك الآونة لم أكن أُعوّل على أحد كي أُحَقّقَ سعادتي ولم أكن أطلُبُ من الغد سوى أن يكون نسخة مُطابقة لليوم: فجأة تمنّيتُ أن يطرأ على حياتي شيء من خارجها، شيء مُختلف تماماً. بدأ مخزون الحياة التي عِشناها خلال السّنوات التسع الماضية ينضَب. كي أُنقِذَ نفسي من ذلك المأزق، خطّطتُ لمشاريع غير واضحة المعالم. بدل أحلام المجد. قريباً سيكون في إمكاننا شراء سيّارة. بدا

لي من الإسراف الإنفاق على تأثيث بيت بدل شراء سيّارة: سأتعلّمُ السّياقة وأيّ حرّية حينها سنعيشُ في رحلاتنا! خالجتنا أيضاً فكرةُ ركوب الطّائرة باريس–لندن. فكّرنا أيضاً – ليس لتلك السّنة بل سنة 1939 ربّما – رغم عزوفنا عن الرّحلات المُنظّمة أن نزور الاتّحاد السوفيتي مع وكالة إنتوريست. لاحت لنا أمريكا في الأفق أكثر ألقاً من أيّ بلد آخر. لكنّنا لم نطمَع يوماً في أن نكون قادِرَيْن مادّياً على الوصول إليها: في هذه اللّحظة على الأقل.

رفضت دار غراسيت مخطوطي: انتظرتُ ذلك. كتب لي القارئ هنري ميلر: «ثمّة بالتّأكيد استحضار لمصير الفتيات بعد الحرب، تنوُّع متأثّر بتيّارات فكريّة مُعاصرة، خصلات مُتعلّقة بالذّكاء، ملاحظة وتحليل. بدا لنا وصفُ أوساط تلك الفترة دقيقاً؛ غير أنّ المؤاخذة الوحيدة على هذه الرواية هي أنّها تفتقر إلى الأصالة العميقة. بعبارات أخرى، فإن لوحة التقاليد التي رسمتِها مُستَنزَفَة منذ عشرين عاماً. اكتَفَيْتِ بوصف عالم مُتحلِّل ووضعنا على مشارف عالم جديد دون أن تُوَضِّحي لنا بالضّبط خصوصيّاته التي تُمَيِّزُه عن غيره.

«ثمّة في *الروح المتعالية La primauté spirituel* المواهب التي تسمَحُ لكِ يوماً بكتابة مُؤَلّف ناجح.

تفاجأتُ. لم أشأ رسم لوحة تقاليد؛ اعتقَدتُ أنّي قمتُ بدراسة نفسيّة مُتنَوّعة. أحبطَتني مؤاخذة «افتقارها إلى الأصالة العميقة»؛ البطلات اللاتي رسمتُ ملامِحَهنّ، عرفتهنّ لحماً ودماً، ولا أحد قبلي تطرّق للحديث عنهنّ؛ كانت كلّ واحدة من بينهنّ مُتفرِّدَة. لاحقاً، رأيتُ تعجُّباً مماثلاً لدى مُبتدئات في الأدب، ممن يعتقده أنّهن قد عبَّرْن عن تجارب «أصيلة» فيما لم أجد في مخطوطاتهنّ سوى أشياء عادية. إنّ الحقائق المعروفة جدّاً يُمكنها تحت ريشة الكاتب أن تُضيء بطريقة غير مسبوقة. إنّها مُعضلة المرور من الحياة إلى الكتابة، مُعضلة الفنّ الأدبي برُمَّتِه ما نحنُ بصدد الحديث عنه. عموماً، لو أُسيء فهمي، فذاك لأنّي أسأتُ التعبير، قلتُ لنفسي. لم تفتَر عزيمتي. كنتُ على يقين أنّي سأصيب الهدف في المرّة المُقبلة. ساعدني اقتراب العُطلة والبرامج المُثيرة على أن أدفن ابتسامة كتاب *الرّوح المُتعالية*.

عاد سارتر إلى باريس ورحتُ للتنزّه في الألپ. أُعجِبتُ بلياقتي: بعد ليلة في القطار، سرعان ما شرعتُ في التسكُّع هنا وهناك، مشيتُ تسع ساعات مُتواصلة. لم يضعُف إيقاع مسيري. من شامونيكس إلى تينْيِ، تسلّقتُ جميعَ القمم المتاحة لمشّاء وحيد.

تلقّيتُ في تينْيِ رسالة من سارتر. أنهى عمله على *طفولة قائد* بداية شهر جويلية. كتب لي: «لقد عثرتُ فجأة على موضوع روايتي، أجزائها وعُنوانها، كما تتَمَنَّيْن: الموضوع هو الحُرّية.» بيّن لي العُنوان بخطّ المطبَعة، *الشّيطان* Lucifer. عنوان الجزء الأوّل *الثّورة* وعنوان الجزء الثاني *القَسَم*. وبخطّ كبير: «المأساةُ هي أنّنا أحرار.»

كان علينا ركوب السّفينة من مرسيليا إلى المغرب؛ كانت لدَيْنا تذاكر الدّرجة الثالثة، لكنّ رفيقاً قديماً لسارتر ينتمي إلى شركة پاكي Paquet، حجز لنا أماكن في الدّرجة الثانية. حرصتُ على ألّا أوافق على ضربة الحظّ هذه ووصلتُ مُبَكّراً إلى محطّة سان-شارل حيثُ تواعَدْنا. للأسف! تأخّر قطارُ العاشرة الذي يُقلّ إلى المركب؛ عند مُنتَصَف النّهار، لم يأتِ، ولا حتّى الثانية: نال منّي نفادُ الصّبر ثمَّ اليأس. استقبلتُ سارتر عند الرابعة مُتَحسِّرة جدّاً: «لنَذهب إلى الميناء رغم كلّ شيء»، قال لي. عندما توقّفت بنا سيّارة التاكسي على الرّصيف، كانوا على وشك سحب الجسر؛ أسرعتُ فيما رفع بحّارة سارتر فوق الخندق الذي بدأ يتّسعُ بين الأرض والسّفينة. تذكّرتُ رحلاتنا على متن الكيرو سيتي وعلى ظهر الزّوارق اليونانيّة: بدت لي الرّحلةُ مُرَفَّهة جدّاً ورائعة. تمدّدتُ قبالة الشّمس أراقب الأسماك الطّائرة. لا لم أتقدّم في السنّ: لاح لي أنّي في العشرين وأنّي أعيشُ أجملَ عُمر في الحياة.

شعرنا بالملل في الحيّ الأوروبي بالدار البيضاء؛ كنّا نبحَثُ عن الأحياء القصديريّة التي لم نجد مشقّة في إيجادها؛ كانت الحياةُ أكثر تعاسة من أحقر حيّ مُزرٍ في أثينا، وكانت صُنْعاً فرنسيّاً. تجاوزناها بسرعة لأنّنا أحسسنا بالعار. كنتُ وفيّة للعادات التي صقلها جيد، لاربو، موران وآخرون من بين علامات الأدب البارزة، لذا ذهبنا إلى بوصبير Bou-Sbir. خلال ظهيرة حارقة وجدنا أنفُسنا مُمَزَّقَيْن بين الحيّ الغربي والحيّ اليهودي، كانت كأنّها قرية مُتصنِّعَة من

تلك التي يزورها السُيّاح؛ تعجّبتُ لوجود محال بقالة ومقاه. عرَبيَّةٌ مكسُوّة بالوشام والحليّ البرّاقة وترتدي فُستاناً طويلاً أسود، أخذتنا إلى حانة ثمَّ إلى غرفة؛ نزعَتْ فُستانها، ارتَعَش بطنُها ودخّنت سيجارة بفرجِها.

أذكُر في الرّباط أصوات مناقير طيور مالك الحزين المُعَلّقة فوق الأبراج ذات الشّرفات في لون الخبز المحروق المحفوفة بأشجار الغار الورديّة. وصلنا إلى فاس لَيْلاً. قرّرنا الذّهاب إلى قصر دجالنايْ Djalnaï؛ أقلّتنا عربة مجرورة إلى طريق صحراوي مُحاذٍ لأسوار بيضاء؛ لا يُسمَعُ أيُّ ضجيج، ما عدا وقع خطوات الحصان؛ المسافة لا متناهية وبدأ الظّلامُ والصّمتُ يضايقاننا: إلى أيِّ قطعِ رقبة نحنُ ماضون؟ بعد خمسة أو ستّة كيلومترات، توقّف الحوذي وعلى وجهه قسمات الأسف أمام باب مُغلَق؛ كان يعرفُ طبعاً أنّ الفُندُق لا يفتَحُ أبوابَه صيفاً، لكنّه لم يشأ أن يُفَوّت على نفسِه أجرة الرّحلة؛ عُدنا إلى المدينة الأوروبيّة خائبَيْن لا تُسلّينا سوى النّجوم الوضّاءة. كنّا بعيدَيْن عن مدينة السُكّان الأصليّين ثلاثة كيلومترات وعرَة، وكنّا نقطعُها بمَشقّة كلَّ صباح؛ لكن ما إن نصل: يا لها من سعادة خالصة! أن نكون قد أحببنا فاس السرّية، بنسائها المُنَقّبات، وقصورها الموصَدَة، ومدارِسها ومساجِدها الممنوعة، المعروضة بوفرة سِلَعها وهُتاف الباعة وحركاتهم. كانت فاس مع ذلك سرّية أكثر من كونِها مُتاحَة: مع حلول الغسق عندما نكون في طريقنا إلى الطّريق المركزي حيثُ ترتعشُ أعمدة الإنارة يميناً ويساراً، تضعُ الشّرطة سلاسل في شكل حواجز لغلق الأحياء المُظلمة. يُغلَقُ باب السّوق، ثمّ بابُ المدينة الكبير خلفَنا. ذات مساء تُهنا في أزقّة الأسواق فاقتفى أثرنا شاب تطوّعَ بعد ذلك كي يُرينا المَخرَج؛ حدسنا بسُرعة أنّه يزيغُ بنا. «لا تَذهبا معه!» صرخَ مُسلمٌ أكبر منه سنّاً: فجأة فرَّ دليلُنا مُسرعاً. هل كان ينوي سرِقَتنا؟ حتّى في النّهار، كان الهواءُ ثقيلاً في هذه المتاهة بسبب روائح القرفة والقرنفل والجلد المدبوغ حديثاً وبكلّ العطور العربيّة؛ تعريشة تخنق السّماء: خُيِّلَ إلينا أنّنا نمشي في دهاليز تحت الأرض. أحمرة تندفعُ أو تتسمّر في مكانها مُسبّبة شلَّ الحركة؛ أحياناً كان أحدُ جُباة المُكوس يمُرّ، أبيض بالكامل مُمتطياً حصاناً زُيّنَ بالمُجوهرات، وكان الناسُ يبتعدون فاسحين له الطّريق. كلّما تخيّلتُ حريقاً مُسبّباً فوضى عارمة في هذه الأنفاق المكتظّة، فإنّ عرقاً بارداً يجتمعُ على وجهي. لكنّ قلقي

كان يزيدُ من حدّة الرّوائح والنّكهات والألوان. لو أنّ لكلمة السّحر معنى في نظري فإنّه فاس. لبثنا في نُزلنا الأوروبي الرّديء يومَيْن إضافِيَّيْن. تناولنا وجبة مَحلّية في مطعم سياحي، لكن جميل للغاية وخالٍ في تلك الفترة من السّنة؛ أكلنا المعكرونة بأصابعنا جالِسَيْن على الأرض، الدّجاج بالّليمون، المشاوي، الكُسكس، و«قرن الغزال». عندما خرجنا أحسسنا بالغِبطَة لأنّنا خفيفان: ذاك لأنّنا لم نحتسِ النّبيذ، استخلَصنا. لكن سُرعان ما أُصيب سارتر بنوبَة كبد ألزمتهُ الفراش يومَيْن.

كانت مكناس متحفّظة أكثر من فاس، أقلّ جمالاً واختناقاً. غادرناها على متن حافلة محلّية لزيارة الآثار الرومانيّة ڤوليبيليس Volubilis ومولاي إدريس. شعُرنا بالضّجَر قليلاً في المدينة المُقَدّسة؛ كانت المعالم الوحيدة هي المساجد وكانت جميعُها ممنوعة بإجلال بواسطة السّلاسل والحواجز على قُطر مائة متر ولافتات تَذكر سياسة المُقيم العام ليوتي؛ ما أعجَبَنا – بسبب الحرارة المُرتفعة لشهر أوت – أنّه لم يكن في المدينة أوروبي غيرُنا. جلسنا في مقهى صغير – فجوة في جدار – وتذوّقنا سفرا هو غاية ما جئنا من أجلِه؛ كان حولنا مغاربة بائسون جدّا، ونحنُ نرفَعُ أكواب الشاي ونُقرّبها من أفواهنا تذكّرنا الأفواه المُصابة بالجدري التي وُضعت عليها: مررنا إلى شيء آخر. عرض المالكُ على سارتر غليوناً ذا أنبوب طويل ورفيع مَحشُوّ بالهباء: الكيف؛ كان يضحَكُ، وأصدقاؤه يضحكون بمودّة فيما كان سارتر يسحبُ أنفاس الدّخان الأبيض، دون أن تبدو عليه الدّوخة اللذيذة التي وعد بها النادل لكنّه ابتهج لدى عودتنا، أقلّتنا سيّارة تاكسي، كان صاحِبُها بارعاً جدّاً ولا يستخدمُ المكابحَ أبداً: الحافلة مليئة بالسُكّان المحلّيين – كانت تتمايلُ بعُنف حتّى إن أحدهم وكان واقفاً خلفنا تقيّأ ونثر على قميصي وكنزة سارتر.

في مرّاكش، لم نرغَب في أن نُنْفى بعيداً عن مركز المدينة. هناك أيضاً كلّ الفنادق الجيّدة كانت مُغلَقة. حجزنا في فندق عربي، قذر، لكنّه يُطلُّ على جامع الفنا؛ ليلاً، ونحنُ نكادُ نقضي نحبَنا من شدّة الحرّ، سحَبنا أسرّتنا إلى الحديقة عند جناح الغُرفة. وجدتُ سحراً خاصّاً في النّوم بالهواء الطّلق؛ خيراً من تلك البالوعة غير القابلة للاستغلال تقريباً. كنّا نُمضي السّاعات الرّهيبة في مقهى من

الناحية الأخرى للساحة؛ كان هناك شرفة نتناول فيها العشاء؛ لم نملَّ قط تلك العروض التي تجري على مدار السّاعة على أرض شاسعة. رأينا أناساً مُختلفين عن سُكّان الشّمال: قامة طويلة، ملامِحَ جافّة، عمامة، وجوهاً نحاسيّة كما يظهر سان-جان-باتيست في اللوحات، ولابدّ أنّهم يتغذَّوْن على الجراد؛ قدِموا من الصّحراء. كانوا يراقبون بعيون مُندَهِشة مثلنا تماماً عروضَ مُرَوِّضي الأفاعي وبالِعي السّيوف؛ وقوفاً، أو جالسين على الأرض في حلقة موسّعة، كانوا يستمعون إلى الصّوت المتأتّي، المُندَفِع والمُوَقَّع كالموسيقى لرُواة الحكايات. تحت ظلّ الخيام يُصْلَى لحمُ الخروف؛ مرقٌ أصفر يُطهى في القدور. الناسُ يبيعون، يشترون، يتحدّثون، يصرُخون، يُعجَبون ويتخاصَمون: يا له من غليان هائل! تنخفض درجات الحرارة مساءً، مصابيح خافتة تُضيء الأكشاك، وابتهالات تعلو نحو السّماء. رأيتُ الجِمال في الشّمال من قبل، لكن في مرّاكش تحت الحصون الطينيّة، بين النّخيل والينابيع، عرفتُ نُبلَها وفضائلَها؛ لم أكن أتعَب من رؤيتها تجثو على الرّكَبِ وتنهَض وتمشي بخطُواتها المتأرجحة والمُتهادية. كانت الأسواق أكثَر اتّساعا وإضاءة من فاس، وأكثر بداوة أيضاً؛ أحسسنا بوفرة أقلَّ لدى الباعة لكن عدداً أكبر من الحرف اليدَويّة؛ أذهَلَني نهجُ الصبّاغين، لم تكن الألوان خاصّية في الأشياء بل مادّة جوهريّة فيها؛ كالماء الذي يُصبِحُ ثلجاً، برداً، جليداً، بُخاراً، كان للألوان تحوُّلُها المُمَيَّز: الأرجواني، الأحمر يسيل سواقي؛ يأخُذ في الأحواض شكل تماسُك القشدة المُتخثّرة: إنّها ناعمة كالصّوف الذي اتّخذ الآن شكلَ ذيل الحصان. ثمّ يُترَكُ ليَجِفّ مُعلّقاً. من بين كلّ تلك المواد التي تُحال إلى أصلها البريء والتي تُطَوِّعُها المهارات - الصفّ، الجلد، الخشب - بدا لي أنّي أتعلّمُ كطِفلَة.

قُمنا بجَولة أطلسيّة مُحمَّلين بالخرائط والمفاتيح والمُؤن؛ أقلّتنا حافلة إلى مضيق، وعادت لتأخُذنا بعد ثلاثة أيّام؛ في الأثناء سلكنا طُرُقات صحراويّة عبر الجبال الحمراء الفاتنة؛ نِمنا في الملاجئ أسفل القُرى البربريّة. اقتنينا من قَروي خُبزاً من دون خميرة؛ تناوَلنا معه شرائح اللحم في المأوى المُخصّص لنا. أذكُرُ خصوصاً أنّنا كنّا نتأمّلُ سلسلة جبال شاهقة؛ تساءل سارتر إن كانت القمم تزداد ارتفاعاً أم انخفاضاً: في نظرنا كانت تعلو، لكن يُمكن أيضاً رؤيتها كانهيار ضخم وحاولنا فكّ اللّغز بانتباه جادّ.

تحوّلنا إلى الجنوب على متن الباص. كنّا الراكِبَيْن الأوروبيّيْن الوحيدَيْن وجعلنا السائق الأوروبي نجلس بمُحاذاته: تلقّينا حرارة المُحرّك الرّهيبة، ورائحة البنزين وحسبتُ أنّيَ على وشك الاختناق؛ لو مددتُ يدي خارج النافذة فإنّ الهواء الأحمر سيُحرقني: كنّا نسير وسط فُرن. كانت تلك المنطقة حيثُ الناسُ لا يشبعون أبداً، عُرضَة للجفاف والمجاعَة: كنّا في إحدى تلك السّنوات العِجاف. حُشود يائسة حاولت النزوح إلى الشّمال؛ أغلقت الحُكومةُ الطّريق في وجوههم: كانوا يعطونَهم الحساء ويُطاردونَهم. كان الناسُ يموتون كالذّباب، والذين هم على قيد الحياة كانوا يحمِلون ملامِحَ أناس يُحتَضَرون. كنّا نستريحُ بين الحين والآخر في إحدى القُرى؛ شربنا أكواباً كبيرة من الماء في المقهى الذي كان يُديرُه يهودي يلبَسُ قبّعَة سوداء؛ لم أُحبَّ رؤية الأهالي ذوي الملابس الرثّة والمُحيطين بالحافلة من كلِّ جانب؛ كانوا يطلبون السِّلَع التي أوصوا عليها من المدينة قلقين، ومُتلهّفين: عادة ما تكون عبارة عن أسمدة. هنا يلعَبُ السائق دور الجابي: كان يُلقي بالصّناديق كالصّدقات ولم يكن توزيعُها يخضَعُ سوى للتطوّع والعشوائيّة. كان أحياناً يمُرُّ دون توقّف على جماعات قابعة بلا حراك تحت النّخيل؛ يبطئ قليلاً فيما يتكفّلُ مُساعدُه المحلّي بإلقاء الأكياس والصّناديق من أعلى الحافلة. يحدُثُ أن نسير ساعات على أرضٍ قاحلة مَسَحَتها حرائق الهواء الساخن وحيثُ ما من نبات ينبُت. توقّفنا بالقرب من منجم الكبريت، كان للأرض ألوانٌ زهريّة رائعة: خضراء، خضراء رماديّة، صفراء في لون اللّيمون، برتقاليّة ووردية.

احتَسَيْنا شراب الينسون وتناوَلنا الغداء مع مُهندِسي المنجم في مطعَمهم. بدت لي المُدُن كئيبة. لبثنا في ورزازات وقتاً طويلاً. كانت الحرارَةُ لا تُطاق ما منعنا من الخروج بعد الظّهيرة؛ بعد الغداء حاولنا النّوم رغم أسراب البعوض الأخضر الذي لا يكادُ يُرى والذي كان يمتَصُّ دماءنا؛ ثمَّ في قاعة أكل الفُندُق ذات النّوافذ المُقفَلَة بعناية، شربنا الماء بالزّبيب الأسود. عند الغسق، أطللنا برؤوسنا قليلاً، ومَشيْنا على طول وادٍ جاف بين أشجار نخيل عجفاء، مأخوذين بروعة الصّمت في الوِهاد التي كانت تُعانق السّماء.

كان صاحبُ الفندق لطيفاً وبادَلْناهُ الودّ؛ وصف لنا وباء التيفوئيد الذي

ضرب حديثاً (استلهَم سارتر من تلك القصّة سيناريو *تيفوئيد* الذي تمّ تجسيدُه لاحقاً قبل أن يتحوّل إلى *المغرورون*.) كان كلَّ يوم عند منتصف النهار يُوَزَّعُ مجاناً أرز مطبوخ على الأطفال؛ كان الأطفال يأتون من أماكن تبعد عشرة كيلومترات من كلّ النواحي ولم أر بؤساً شبيهاً: لا أحد تقريباً كانت عيناهُ سليمتين؛ كانوا يُعانون من داء في غُدَد القصبة الهوائيّة أو أنّ رموشَهُم تنبُت داخل الأحداق فتثقُبُها؛ كانوا عِمياناً، عوراً، وبثور تُغطّي محاجر أعيُنِهم؛ كانت تلك أفظعُ ملامحِ المرض على الإطلاق. كانت الأشباحُ تجلسُ وسط ساحة حولَ أوعية كبيرة – بوتيرة واحدة حتّى لا يُحرَمَ أحد أو يُمَيَّزَ أحد – يأكُلون بأيديهم.

سقط حجرٌ في قلوبنا عندما غادَرنا جحيم الجنوب. عدنا إلى الدار البيضاء عبر السّاحل؛ استنشقنا في صافي وموغادور الهواء البحري المُنعِش. رجعنا إلى فرنسا.

خلال رحلة العودَة تابع سارتر بقلق ما يجري في تشيكوسلوفاكيا. اضطرب. منذ الدّمج وألمانُ السودات Sudètes حزانى؛ كانوا يُطالبون بإلغاء الدّولة الوطنيّة على حساب المُنظّمة الفدراليّة، ضامنين بذلك سيادة كاملة لألمانيا. بعد الانتخابات البرلمانيّة، التي استفتَتْ حزب السودات، طالب هينلين Henlein زعيم النازية التشيكوسلوفاكيّة بعودة المُستقلين الألمان إلى ألمانيا الكبرى. ركّز هتلر قوّاتِه على الحُدود، وأعلنت پراغ عن تعبئة جُزئيّة. جاء لورد رونشيمان إلى پراغ بداية شهر أوت في مُهمّة سلام؛ صرّحَ أنّ قوانين السودات تملك الحقّ في أن تكون نافذة وهذا ما شجّعَ على المُطالبات. توتّرتِ الأوضاعُ أكثر فأكثر، نوايا المبعوثين السودات كانت سيّئة ما جعل التفاوُض مع پراغ مُستحيلاً. يوم 31 أوت كانت الحوارات على وشك القطيعة: أنقذَها لورد رونشيمان في آخر دقيقة. خلال بداية شهر سبتمبر قامت إنجلترا بنشاط ديبلوماسي مُكثَّف؛ عدّد شومبرلان واللورد هاليفاكس الخطابات والندوات الصحافيّة. يوم 13 سبتمبر قبل ليلة من عثوري على أولغا في مرسيليا، أعلن عن الحصار في پراغ ولوَّحَ هينلين بآخر مُقترحات الحكومة التشيكوسلوفاكيّة. بدا أنّ الحرب حتميّة، وكنتُ على مشارف العودة

إلى باريس مع سارتر. كانت الأخبار مُطمئنة في اليوم التالي؛ أخذ شمبرلان الطائرة إلى برشتسغادن للتّحاوُر مع هتلر شخصياً. شجّعني سارتر على عدم تغيير مُخَطَّطَيّ سيُراسِلُني في صورة تصاعُد الأوضاع نحو الأخطر. سُرعان ما سيطَر انفصامي على قلقي وتركتُه يركبُ القطار من دوني.

كانت أياماً غريبة. قضت أولغا مع بوست قسماً كبيراً من عطلته في فندق شعبي يُطلّ على ميناء مرسيليا القديم؛ أقامت في غرفة ذات بلاط أحمر، بائسة جدّاً، لكن حافِلَة بالنّور والصّخب السّعيد؛ هناك وجدتُها. لبثتُ ثماني وأربعين ساعة في مرسيليا بعد ذلك غادرنا بحقيبة على الظّهر في الباص أوّلاً ثمّ على الأقدام عبر سفوح الألپ. كانت أولغا تغضب أحياناً ونحنُ نتسلَّقُ جبلاً إلى حدّ ضرب الحجارة بعصاها؛ لكنّها كانت مثلي، تُحبّ مناظر الصّخور البيضاء والأرض الحمراء، وتُحبُّ في طريق الأحراش، أن تقطف التين الناضج وصعود الشّوارع المُدَرّجة للقرى القديمة المُعلّقة عالياً. كانت تجمَعُ على طول الدّروب الأعشاب ذات الرّوائح القويّة، التي كانت مساءً في الفندق تصنَعُ منها باقات عجيبة. مع ذلك وفي كلّ مرحلة كنتُ أركُضُ متفائلة كفاية. لكن يوم 25، وفي غاپ، طلب منّي العودة فوراً إلى باريس؛ أذكُرُ ارتباكي في تلك المُحافظة الكئيبة التي كانت ترزحُ تحت حرارة خانقة. في القطار عاتبتُ نفسي على مُبالغتي في التفاؤل الأعمى وعنادي في المُضي قُدُما لتحقيق مشاريعي. عندما نزلتُ في باريس كانت العناوين في الجرائد: «ساعات حرجة».

دُعِيَ جنود الاحتياط من الدّرجة الثانية والثالثة. أطلق هتلر تحدّياً بإسقاط پراغ خلال ستّة أيّام. وتطلّبت پراغ. بدت الحربُ أكيدة هذه المرّة. أبيتُ التّصديق؛ لا يُمكن أن تهوي على رأسي كارثة سخيفة كهذه. أذكُر أنّي التقيتُ في الدّوم بميرلوپونتي، الذي لم أرهُ منذ تربّصنا في جونسون-دي-سيلي، والذي كان لي معه يومها حوار طويل. طبعاً، قلت له، من حقّ تشيكوسلوفاكيا أن تدين خيانة إنجلترا وفرنسا: لكن أيّ شيء، حتّى انعدام العدل، هو أفضلُ دائماً من الحرب. بدت له وجهة نظري قصيرة. كذلك بدت لسارتر: «لا يُمكنُ الإذعانُ لهتلر دون حدّ»، قال لي سارتر. لكن، إن كان يميلُ إلى القبول

بالحرب، فإنّه احتجّ على فكرة مُراقَبَتها تندلع. أمضينا أيّاماً ممتِعَة؛ كنّا نرتادُ السّينما بكثرة ونقرأ جميعَ الصّحُف. تصلّب سارتر، مُحاولاً التوفيق بين أفكاره السياسيّة واندفاعِه العاطفي الخاص: أمّا أنا فقد كنتُ مذهولة تماماً. فجأة ابتعدت العاصفة دون عواقب، تمّ توقيعُ مُعاهدة مونيخ: لم أشعُر بوخز الضّمير وأنا أفرحُ لذلك. خُيّلَ إليَّ كأنّي نجوتُ من الموت وإلى الأبد. كان في إحساسي بالارتياح نوع من الانتصار؟ طبعاً ما دمتُ قد وُلدتُ دافئة؛ لن يكون الأسى في انتظاري أبداً.

بعد مونيخ لم تُخفَض عينَاي في الحال؛ بالعكس: تراجعتِ الحربُ واستعدتُ ثقتي في المُستقبل. تشتّتت آراء اليسار حول قيمة هذا السّلام الممنوح. ورغم أنّ جزءاً كبيراً من فريق صحيفة *البطّة المُقيَّدَة* هاجَم سياسة عدم التدخّل في البداية، فإنّ أغلبهم فرح بما آلت إليه الأحداث. تردّدت صحيفة *العمل*. انقسمَت المواقف في صحيفة *الجمعة* حتّى إنّهم أهملوا دورَهم السياسي: تحت عنوان *انعكاسات*، تجنّدوا للمجال الثقافي. تمسّك جيونو وآلان بمبدأ السّلام غير المشروط. عدد كبير من المُثقّفين كرّروا وراءهم: «أعلنت الديمقراطيّات السّلام في العالم.» شعار آخر جرى على الألسُن أيضاً: «السّلامُ يعمَلُ لدى الديمقراطيّات.» صوتُ الشيوعيّين ضدَّ مُعاهدة مونيخ لكن لا يُمكنهم الإسهاب في الإدانة؛ كان عليهم المُضي قُدُما جنباً إلى جنب – مهما كانت قناعاتهم الشخصيّة – مع سياسة الحزب المتفائلة. اقترحوا على فرنسا تغيير سياستها الداخليّة وعقد حلف مع الاتّحاد السوفيتي ومُضاعَفة الدّفاعات الوطنيّة ومُقابلة كذب هتلر ببراهين صارمة: سطروا هذا البرنامج بحماس يبعَثُ على الأمل. وهكذا اعتبر بعضُهم أن السلم قد تمّ إنقاذه وأوضحَ البعض الآخر وسائل بلوغه: لم أكذّب أحداً من الشِقَّيْن.

استأنفت العمل بعد إحساسي بالسّلام. قدّمت لبريس پاران المائة صفحة الأولى، مرقونة على الآلة، أي طفولة فرنسواز: قرّر أنّها أقلّ قيمة من قصصي وشاطرهُ سارتر الرّأي. قرّرتُ اعتبار ماضي البطلة جيّداً، لقاءها مع پيير، سنوات الانتظار الثماني: بدأت القصّة حين دخلت غريبة على حياتهما. وضعتُ مُخَطَّطا عامّاً: نشأة الثلاثي، الكشف عمّا في أعماق غزاڤيير، غيرة فرنسواز،

وقوعها في الخطأ؛ تدخّلت بشكل غادر في علاقة پيير وغزاڤيير؛ محقّتها الأخيرة بعدم اكتراثها وحِقدِها عليها فانتقمت الأخرى وقتَلَتها. هندَسَة خطّية. قدّم لي سارتر نصيحة. كي يُشار إلى درجة تعلّق فرنسواز بسعادتها التي بنتها مع پيير، يُستَحْسَنُ أن تكون قد مَنَحَتْهُ في الفصل الأوّل تضحية ما. أقحَمتُ جيربارت؛ أغواها جيربارت بوسامتِه وشبابه وسِحرِه لكنّها صرفت عنه النّظر. عندما فاز بحبّ غزاڤيير سقطت بين ذراعَيْه: هذه الخيانة هي التي محَتْها: بجريمة قتل. تثرى الحبكة وتضيقُ رُوَيْداً؛ يُمنني منحُ دور مُحدّد لإليزابيت التي شدّني حضورُها بحدّ ذاته. تأمّلتُ القاعدة التي اعتبَرْتُها وسارتر جوهريّة والتي قدّمها لاحقاً في مقال حول موررياك والرّواية الفرنسيّة: كنتُ في كلّ فصل أُصادِفُ أحد أبطالي، منعتُ نفسي من معرفة أشياء أكثر منه أو التفكير بصورة تفوقُه ذكاءً. تبنّيتُ، إجمالاً، مواقف فرنسواز ووجهات نظرها. فقد منحتُها من خلال تأويلات مُهمّة، تجربتي الخاصّة. ظنّت أنّها نقيّة السّريرة والضّمير، مُتفرّدة بذلك؛ ألحقتْ پيير بمملكتها الفاضلة: معاً، شغلا مركز العالم الذي عزمتُ في صُلب مُهمّة سامية على كشفِه. هذا الافتداءُ الذي اضطرّها للتّضحية بامتياز خاص بها، ملتحماً مع كلّ شيء، حال دونها ودون النّظر إلى حقيقتها بصدق: تعرّضتُ من قبلُ إلى هذه الإعاقة وأنا أقارن نفسي بزازا. في روايتي الأولى، نظرت السيّدة دي–پريليان بندم من عُلُوِّها، الدّموع التي سالت على خدَّيْ جينڤياف؛ هكذا، في المرقَص، غَبَطت فرنسواز إليزابيت على الحزن الذي ورّم شفتَيْها، ونشوة غزاڤيير القُصوى. لقد دخل الحُزن إلى عاداتها وكسر غرورها خلال الاحتفال بمئويّة جول سيزار، قالت في نفسها: «أنا لا أحد! (آن أيضاً قالت نفسَ الشّيء في *المُثقّفون خلال حفلة رأس السّنة عقب التحرير مُباشَرة، لكن من دون فخر أو أسف. بسكينة تامّة*)» راحت تبحَثُ عن برّ النّجاة بعيداً عن پيير وغزاڤيير: لم يكن لها «أنا» تقريباً. كانت شبحاً، شفافية خالصة، دون وجه أو شخصيّة. بعد أن تركت نفسَها فريسة لجحيم الشّغف، شيء ما أنقذها من الانهيار: أصبحَت كائناً بشريّاً حدودُه معلومة ومكانُه معلوم بدقّة في نقطة من هذه الأرض.

كان هذا هو ابتلاء فرنسواز: من موضوع شامل ينسَحِبُ على كلِّ شيء، تحوّلت فجأة إلى جزء ضئيل في هذا الكون الفسيح. انتهى بها المرضُ إلى

إقناعها كما أقنعتني من قبل؛ أنّها فرد ضمن أفراد آخرين، أنّها أيُّ أحد. خطرٌ ما إذاً، يُحدقُ بها، الخطر الذي حاولتُ محوَ أثره منذ مُراهقَتي: باستطاعة الآخر، ليس أن يسلُبَها العالم فقط، بل أن يمتلك كيانها ويسحَرَها أيضاً. عرّتها غزافْيير من خلال مخاوفها وأحقادها الخاصّة وشَوَّهَتْها؛ كانت كلّما حاولت الخُروجَ من الشّرَك التَفّتْ حولَها أكثر: بدت لها صورتها بشعة جدّاً ولم يعد أمامها، في المُقابل، سوى أمرين، إمّا أن تبغض نفسَها أو أن تُحَطِّمَ التعويذة بإلغاء التي مارَسَتها. هكذا انتَصَرت لحقيقتها.

دون شكّ، كما سبق أن عاتبني كثيرون، كانت خاتمة الكتاب هي الحَلَقة الأضعف. منحتُ قيمة لبعض الآونات: التناقض بين الليلة السعيدة البريئة التي جمعت بين فرنسواز وجيربارت، والخيانة الغامضة التي تُمثّلُها بالنّسبة إلى غزافْيير. بسبب تناوُل حياة كلّ منهم فإنّ الجمال والعذوبة والسّعادة عادة ما يكون الشرّ هو وجهها الآخر: نُصادِفُ هذه الحقيقة عند كلّ مُفترَقات الحياة. أن تَجعَل من ذلك دافعاً للقتل فهو أمر مُغايرٌ تماماً. ينسى الروائيّون كثيراً أنّ هناك هُوّة على أرض الواقع تفصِلُ بين الحُلم بالقتل وسلب حياة، مثلي تماماً. من ناحية أخرى، نفهَمُ، أظنّ، أنّ غزافْيير قادرة على الإلقاء بفرنسواز في دوّامة من الشّكوك والاحتقان المسعور؛ لكنّي في الفصول الأخيرة، دفعتُ الأنانيّة إلى ذُروَتها، لم تكن المناورة التي غذّيتُها بها في البداية مشحونة بما يكفي من اللّؤم ولا ما يكفي من المُثابرة كي تنشأ بينهما وبين فرنسواز ضغينة سوداء؛ مزاجيّة وطفوليّة، لا يُمكن أن تطال فرنسواز حدَّ النّخاع لتحوّلها إلى وحش؛ شخصٌ واحد يملكُ القوّة الضروريّة لذلك: پيير. لاموني أيضاً لأنّ فرنسواز لم تُشفَ بفضل العُنف: لم تُمحَ الإدانة المُوَجَّهة إليها من طرف غزافْيير. لم يُقنعني هذا النّقد. صرفتْ فرنسواز النّظر عن مُحاولة إيجاد حلّ أخلاقي لمُعضلة التّعايُش؛ لاح لها *الآخر* مُصيبة مُستعصِيَة؛ لقد دافَعت عن نفسها بارتكاب فعل عنيف وصادم لإيقاظ العالم: القتل. لا يهمّني ما إذا كانت مُحِقَّة أم آثمة: *الضّيفة* ليست رواية للوعظ. أكون راضية لو استهجَن القارئ جريمتها وصدَّقَها. لكن لا، كان خطئي فادِحاً لأنّي فشلتُ في قلب أطوار الأحداث اليوميّة إلى مأساة. لكن كان لابدّ، من زاوية أنّ الأدب هو عملٌ حيّ، أن أتوقّف عند هذه الخاتمة؛ كان هناك جانب التطهّر من ناحِيَتي. أوّلاً عند قتل أولغا على

الورق، أكون قد بدّدتُ الغضب، الضّغينة التي كنتُ أُكنّها لها؛ طهّرت صداقتنا من خلال جميع الذّكريات السيّئة التي امتزجت بالجيّدة. وجدتُ استقلالي الخاصّ، خصوصاً، عندَما فكَكْتُ قيْدَ فرنسواز عبر الجريمة، إزاء إدمانها على حُبِّ پيير. يكمنُ التناقُض الغريب في أنّي لم أكن مُضطرَّة للقيام بفعل يصعُبُ تفسيرُه كي أستعيد استقلالي، احتجتُ فقط إلى سرد الفعل في كتاب. إذ حتّى لو كنّا نحظى بتشجيع وانتباه ونصيحة تظلّ الكتابة عملاً لا يُمكن اقتسامُ مسؤوليّته مع أحد. في هذه الرّواية، أطلقتُ العنان للبَوْح، خاطَرت بذلك إلى درجة أنّي أحياناً في بعض المقاطع كان يبدو لي تحوُّلُ قلبي إلى كلمات أمراً غاية في المرارة. لكنّ هذا الانتصار المُنعَكِس على الخيال، لم يكن له وزنٌ على أرض الواقع: كان علَيَّ المُضيُّ إلى قمّة الخيال، أن ألبِسَهُ جسماً من دون انتقاص شيء، إن كنتُ حقّاً أرغَبُ في غزو وحدة فرنسواز لمصلحتي. في الحقيقة، كان من السّهل التوَصُّلُ إلى مُقاربة شخصيّتها بشخصيّتي. وأنا أقرأ الصّفحات الأخيرة، أقف اليومَ مذهولة، مُندَهِشة، حيثُ بالكاد أصدّق أنّي وأنا أكتُبُها كانت حُنجُرَتي متيبِّسَة كما لو كنتُ أتخفّف من عبء جريمة قتل. مع ذلك هذا ما حدث. قمتُ بتجربة الفراق بقلم في يدي. قد يبدو مقتَلُ غزاڤيير الحلّ المشروع والسّخيف لوضع حدّ لمأساة لم أحسن إنهاءها. على العكس من ذلك كان مُحرّكاً وسبباً في وجود الرّواية.

جسّدتْ غزاڤيير الضّمير المُعتِمَ المُنغَلِقَ على نفسه؛ لم أُظهِرها إذاً، من الأعماق قط. في المُقابل جعلتُ إليزابيت محورَ فصول عديدة. سوء نيّتها البعيد عن المساس بتبصّرها حدَّ من تطلُّعِها نحوَ أفق مُشرق لا محدود. لقد جرّت مُغامرة الثلاثي إلى جوّ عابر وتافه كما تبدو العواطف القويّة في نظر الدّخيل. أشرتُ بصفتي كاتبة إلى احتفاظي بهذا الغموض في مُخَيِّلَتي: قد ترسُم تجربة فرنسواز القاسية الابتسامة على وجه القارئ.

لكنّ إليزابيت لم تكن مُجَرَّدَ ضرورة؛ أوليتُ شخصيّتها عناية فائقة. إحدى الإشكاليّات التي ضايَقَتني هي علاقة النّزاهة بالإرادة؛ زيّفتْ إليزابيت وجهها الحقيقي وحياتها بالكامل: كانت مَدعُوّة للتّساؤل وهي تتأمّل صديقتها، ما يفصِلُ بين بناء حقيقي وآخر مُزَوَّر. أمّا غزاڤيير فقد كانت تضعُ المرأتَين في

سلّة واحدة. فيما سعت إلى إثبات وجودها دون غِشّ كان بينهما فرقٌ أعتبرُه جوهَرِيّا. كان من النادر أن يضيق صدرُ فرنسواز بالفراغ المُستَقِرّ في قلب كلِّ كائن بشري. كانت تُحبُّ پيير، تهتَمُّ بالعالم، وبالأفكار والناس وبعَمَلها. الأسى الذي أخضعَت طفولة إليزابيت إليه هو أنّ أحداً لم يكن يكترث لأجلها بحرارة أو بشكل حقيقي على الأقل؛ كانت تُخفي تلك اللامُبالاة بشغفها - بالرّسم والسّياسة - الذي لم يخدَعها يوماً؛ كانت تتقمّص العواطف التي بدا يقيناً أنّها لا تَحمِلُها حقيقة؛ عاتبتْ نفسَها على هذا العجز وانتهت النقمةُ التي في قلبها إلى تدمير العالم: رفَضتْ إعطاء قيمة للأشياء الممنوحة لها، للمُغامرات التي تعيشُها. يتحوَّلُ كلُّ شيء تُمسكُ به إلى عجين ورقي. استسلَمتُ للدُّوار الذي عرفتْهُ بالقرب من زازا، وأمام كاميي مُدَّة لحظات؛ حقيقة العالم وروحه في يد غيرِها: پيير وفرنسواز. تعلّقتْ بالأوهام لتُدافِعَ عن وجودها. أعدتُ في هذه اللّوحة - خصوصاً في المونولوچ الداخلي - عديد المسالِك التي كنتُ قد خصّصتُها قبل ذلك لشُنتال: سوء نيّتِها، وتصعيدها اللّفظي. لكنّني دفعتُ بالرّسمِ نحو السّواد. تعرفُ إليزابيت - مثل لوزپيرون خلال نوبَتِها - أنّها تلعَبُ دوراً في مهزلة وأنّ جهودَها للخلاص لا تزيدُها سوى غرقٍ. تُكنّ فرنسواز لصديقتها مودَّة أقرب إلى الشّفقة؛ كانت ترى فيها صورة ساخرة لها: لكن أحياناً يبدو لها الكاريكاتور كاشفاً لحقيقتها (لاحظتُ في أغلب رواياتي، أنّي جعلتُ إلى جانب بطلاتي المركزيّات نُفوراً مُعَيَّناً: دينيز عارَضت هيلين في *دماء الآخرين*، پول عارضت آن في *المُثقَّفون* لكنّ علاقة فرنسواز بإليزابيت كانت أكثر ضيقاً: الثانية طعنٌ مُقلقٌ للأولى)

لتصويب نظرة إليزابيت للثّلاثي إلى حُكم خارجي نزيه، أعطيتُ الكلمة لجيربارت في الفصل الأوّل. رغم أنّي عاملتُه بشكل سطحي: ألم يكن يلعبُ دوراً ثانويّاً في الأخير؟ أسباب كثيرة جعلتني لا أُقبِلُ على العالم بِعَيْنَيْ پيير؛ لقد زوّدتُه بحساسيّة وذكاء مُساوٍ لذكاء بطلتي على الأقل: كانت الرّواية ستَفشل حتماً، لو أنّي قدّمتُهم في خصامهم المُحتَدِم، بما أنّي اخترتُ أن أروي حكاية فرنسواز من بينهم جميعاً. من جهة أخرى، أردتُ خلقَ تكافؤ بين مُقاومة غزاڤيير وعنادِها وبين الشفافيّة الظاهريّة لپيير: ينبغي النّظرُ إليهما من خلال فرنسواز. ما يُؤسفني هو أنّي أخفقتُ في إعطائه الملامِحَ الدقيقة التي يبدو من

ورائها في عَيْنَيْ فرنسواز. أعرفُ السّبب الرّئيس دون شكّ. زوّدتُ فرنسواز بجزء كبير منّي كي يسهُل ارتباطُها برجل غريب عنّي. رفض خيالي هذه الاستعاضة. لكنّي لم أُحجِم بدرجة أقلّ عن إفشاء صورة لسارتر لعامّة الناس، كما عرفتُه. توقّفتُ عند اتّفاق ما، حافظ پيير على اسم وطموح بطل الرّواية الثّانية؛ استلهمتُ من دولان بعض الملامِح السّطحيّة؛ أخرى استوحَيتُها من سارتر بعد انتزاع ميزاته المُتّقِدَة؛ اخترعتُ البعض، بسبب مُتطلّبات الحبكة. كنتُ أرزحُ تحت حواجز الرّقابة الذاتية ومحرومة من الحُرّية فلم أدرِ ما إذا كنتُ أرسُم بورتريه الشخصيّة أم أخلُقُها. النّتيجة هي پيير - دعامة القصّة بما أنّ فرنسواز لا شخصيّة لها إلّا من خلاله - كان أقلّ متانة وواقِعيّة من أيّ بطل آخر.

تُظهِرُ *الضّيفة* مزايا ومساوئ ما يُسَمّى بالـ «الدّمج الرّوائي». كان سلبيّاً أكثر ومُرضياً للغرور وصفُ باريس، عالم المسرح، مونبارناس، معرض الأغراض المُستعملة وأماكن أخرى أحبّها بدل رووان. غيرَ أنّ قصّة الثلاثي كانت ستفقِدُ كثيراً من تماسُكِها ومصداقيّتها لو نُقِلَت إلى باريس. الارتباطُ المهووس لراشدَيْن بطفلة في التاسعة عشرة من عمرها، لا يُمكن تفسيرُه سوى في سياق حياة مُزيّفَة؛ كان لابدّ من هذا الجوّ الخانق كي تتحوّل أصغرُ رغبة، أصغر ندم إلى هوس، أن تأخذ جميع العواطف شكل مأساة عنيفة، أن تُذكّيَ الابتساماتُ شُعلات السّماء. من أُستاذَيْن مجهولَيْن، صنعتُ شخصيّات باريسيّة مُفعَمة بالودّ ومُتشعّبة العلاقات وعديدة الملذّات والمشاغل: لقد حالت المُغامرة الجهنّميّة، الصّادمة والمُعجِزَة في أحيان كثيرة إلى وحدة ثلاثة أشخاص، إلى أمر غير طبيعي.

عندما شرعتُ في كتابة *الضّيفة*، خطّطتُ ليكون مقتل غزاڤيير أثناء غياب پيير. سيكون في جولة دون شكّ. منحتني الحربُ ذريعة مثاليّة لإبعاده. فكّرتُ أنّه في مدينة مهجورة من قِبَل الإنسان، سيبلُغُ لقاء المرأتَيْن بسهولة وأكثر من أيّ وقت آخر ذروة التوتّر؛ لكن ثمّة احتمال أنّ ضخامة الدّراما الجماعيّة لم تكن لتنزَعَ فرنسواز -كما وصفتُها- من همومها الفرديّة؛ علاقتها بغزاڤيير، كان لابدّ أن تعيشها بضعف: ينقُصها الاقتناع الكافي للقتل. بدت الخاتمة

معقولة أكثر لو أنّها جرت في الرّيف خلال السِّلم. في هذه النّقطة، خذلني فارق الأمكنة والوقت على أيّ حال.

أمّا بالنّسبة إلى جماليّة *الضّيفة*، قلتُ على أيّ مبدأ ترتكز خاصّة؛ أهنّئ نفسي لأنّي احترمتُ القاعدة: يدين كتابي لهذا الانضباط بما فيه من نقاط جيّدة. بفضل الجهل الذي أخضعتُه لنفسي حيال أبطالي، فقد جاءت الفصول مُشوّقة كما لو كانت في رواية لأغاتا كريستي؛ لا يُمسِكُ الكاتب بطرف الخيط من الوهلة الأولى؛ رُوَيداً، سرد وقائع جديدة وحوارات ستكشف المظاهر غير المُتوقّعة؛

في وسع پيير أن يتحدّث طويلاً في شأن حركة قامت بها غزافيير بالكاد لاحظتها فرنسواز حيثُ ما من تأويل نهائي يمكن الجزم به، لأنّ أحداً لم يكن يمتلك الحقيقة. في المقاطع الناجحة للرواية، نصلُ إلى غموض في المعاني المُوَجَّهة إلى تفسير الحقيقة. أردتُ أيضاً ألّا تتسلسل الأحداث وفقاً لعلاقات سبب ونتيجة، بل أن تكون قريبة مما تدور في الحياة نفسِها، مفهومة ومُجزَّأة: فرنسواز تُضاجِعُ جيربارت انتقاماً من غزافيير، لكن أيضاً لأنّها تشتهيه منذ زمن، لأنّ الأخلاق لا تلعب دوراً يُذكَر، لأنّها تشعُر بتقدّم السنّ، لأنّها تشعُر بأنّها لا تزالُ شابّة، من أجل كم من الأسباب التي تفيض عمّا يُمكن الإشارة إليه. منعتُ نفسي كذلك من التدخّل في مرور الزّمن لأنّي رفضتُ مسحَ شخصيّاتي بنظرة شاملة أجمع بها في لمحة واحدة كلّ ضمائرهم ودواخِلِهم؛ كنتُ أقطَعُ الزّمن من فصل إلى آخر: لكنّي كنتُ أبدي كلّ ما يجري بتمامه دون اختصار حوار أو حدث.

ثمّة قاعدة، أقلّ صرامة، علمتني إياها قراءاتي لداشيال هاميت ودوستويفسكي التي حاولتُ تطبيقها: كلّ الحوارات يجب أن تكون حاملة لتحوّل، أي مُبدّلة لعلاقة الشخصيّات فيما بينها ومُحرّكة للأحداث عموماً. إضافة إلى ضرورة حدوث شيء ما خارجي فيما تدور الحوارات: هكذا مشدوداً إلى حدث تفصلُه عنه أوراق سميكة، سيشعُر القارئ مثل الشخصيّات بمرور الزّمن.

تأثّرتُ ولعلّ أهمّ ما تأثّرتُ به همنچواي كما أشار عدد كبير من النُقّاد.

أحد العناصر التي أحبّها في رواياته، هو رفضُه للوصف الموضوعي التقريري: المناظر، الديكور، والأشياء جميعُها تبدو لنا من خلال عيون الأبطال في سياق الحدث. حاولتُ القيام بنفس الشّيء. سعيتُ أيضاً مثلَه إلى تقليد (أقول تقليد ولا أقول نسخ، إذ من غير المعقول في رواية أن ينقل الكاتب الضجيج المُسمّى حواراً حقيقياً في الواقع)، النّبرة ولغة التخاطُب دون خوف من التكرار أو العقم.

فيما تبقّى، قبلتُ - على طريقة الأمريكان - عدداً مُعَيّناً من المواثيق التقليديّة. أعلمُ ما تُؤاخَذُ عليه الأشياء التي دَرَج على استخدامها كثيرون، لكنّي أعلمُ أيضاً ما يُبرِّرُها. سأتحدّث عن هذا حين أصل إلى الكلام عن *المُثقّفون*، لأنّي، أثناء كتابة *الضّيفة*، لم أكن قد استخدمتُ هذه المعارف بعد. أردتُ فقط كتابة رواية وكان ذلك في حدّ ذاته عظيماً.

هكذا، أخيراً، وأنا أبدأ الكتاب، راودني يقين بأنّي سأكمله إذا تمّ نشرُه؛ كان سارتر يُطمئنني من فصل إلى آخر وتأكّدتُ: لقد عرفتُ من جديد طعم السّعادة التي غمَرتني ذات يوم خريفي على ضفاف بُحيرة بير Berre؛ لقد خرجتُ من أوحالي اليوميّة، دخلتُ لحماً ودماً في العالم السحري للخيال.

جسّدتْ هذه الرّواية التي ستوجَدُ بعد سنة أو سنتَيْن مُستقبَلي بأكمله، ورحتُ أقطَعُ طريقي إليه بغبطة: لم أعد قط أشعُر أنّي امرأة مُسنّة. لبستُ بعناية فائقة، ذاك الشّتاء. أهديتُ نفسي بذلة قُطنيّة جميلة، تنورة سوداء مثنيّة، قمصاناً سوداء وصفراء اخترتُ لها ربطات عنق صفراء وسوداء. غيّرتُ تسريحة شعري؛ واءمتُ الموضة ورفعتُ شعري إلى الأعلى. اشتريتُ في الرّبيع قُبَّعَة سوداء اعتمَرتُها إلى جانب منديل صغير. بدوتُ أنيقة وكنتُ فخورة بذلك.

كان سارتر أيضاً يعيش الحياة بنهم. كان يشتغل على رواية كان قد أعلن عنها في رسالة، لا تحملُ الرّوايةُ عنوان *الشّيطان Lucifer* بل *دروب الحُرّية*. لم يخبُ نجاحُ رواية *الغثيان* وأحدَثَت قصّة *الجِدار* ضجّة بداية سنة 1939. طلب منه پولهان وكاسو قصصاً للمجلّة الجديدة ولمجلّة *أوروبا*؛ وافق بسرور. خصِّصَت له المقالات وراسله القُرّاء. ربط علاقات مع كُتّاب كثيرين وخصوصاً مع پولهان. مع ذلك لم يُعدّد الصداقات: القُدامى يكفون.

قاطَعَنا ماركو؛ لكنّنا وجدنا حميميّة مع پانييز وزوجته. أصدر نيزان أفضل كُتُبِه *المؤامرة*، كتاب أحببناهُ وحصل على جائزة الحُلَفاء.

تأسّفنا لغياب بوست. كان يُؤدّي الخدمة العسكَريّة في أميانس Amiens؛ كفريق ثانٍ. كان مُتَمَرّداً جيّداً وديمقراطيّاً كبيراً وبدَل القيادة كان يُفضّل السُّخط على أوغاد يمنحون أنفسهم الحقّ في إعطائه الأوامر. يشعُر الضبّاط بالحنق إزاء تعلّمه وثقافته فكانوا يحثّونه دون هوادة على تلقّي دروس استعداد للحياة العسكريّة وكان رفضُه يجعلهم في حالة من الغضب تُفرحُه للغاية. كان بعضُ زملائه قرويّين متواضعين وكان على انسجام تام معهم. لم يمنَعهُ ذلك من كراهية الثّكنة. لحُسن الحظّ أنّه كان في وسعِه المجيء يوم الأحد إلى باريس.

لا تُضجرُني مهنتي. كانت اجتماعات الأساتذة مملة لكنّني لا أكرهُ الانضباط الذي يُخضعني إليه جدوَلُ أوقاتي: إنّه يمنح يومي إيقاعاً مُحدّداً: كنتُ أعملُ بنظام ستّ عشرة ساعة في الأسبوع، لم يكن ذلك مُرهِقاً. مع ذلك استمررتُ في رفض كلّ تضامن مع زملائي؛ بالنّظر إلى الإجلال الذي أكنّه اليوم للأسرة التربويّة، ندمتُ بعضَ الشّيء؛ في الواقع كنتُ ألزم مسافة من الجميع كي أحافظ على مسافة من نفسي. كنتُ أقوم بوظيفة أستاذ فلسفة، لكنّي لم أكن كذلك فعلاً. لم أكن حتّى ذلك الإنسان الكبير الرّاشد الذي قد يُرى من الخارج: كنتُ أعيش مُغامرة فرديّة لا يلتصقُ بها مجال بصورة مُؤكّدة. أمّا دروسي فكنتُ ألقيها بمتعة كبيرة: كانت حوارات أكثر من كونها عملاً. كنتُ أتجنّب السّقوط في التكرار المُمِلّ والنّبش في نفس المواضيع. ثمّ إنّه من سنة إلى أخرى، يتغيّر المُستمعون: لكلّ فصل تركيبته النّفسيّة ومشاكلُه الجديدة. طيلة الأيّام الأولى، أنشغل باختبار الأربعين مُراهقة اللواتي سأحاول تلقينَهُنّ نمط تفكيري: من ستُتابعني؟ إلى أيّ مدى؟ تعلّمتُ أخذ احتياطي من العيون التي تومضُ بسرعة كالشُّهُب، الأفواه التي تبتسمُ بكثير من الذّكاء. رُويْداً يُقام نوع من التّسلسل الهرمي الحازم؛ يتّضحُ الاستلطافُ والنّفور. وبما أنّي لم أكن أظهر ما يخصّني من هذه المشاعر فقد كنتُ أوحي بالصّرامة والحياد. عكس تقديرات زملائي في مرسيليا؛ كان لهنّ «العمُر الميتافيزيقي»؛ لم يكن للحياة من وجود في نظرهنّ إلّا من خلال الأفكار، لذلك كنتُ أجد

أفكارَهُنّ مُتَّقِدَة. بعد الدّرس كنتُ أجعَلُهُنّ يتحدّثن كثيراً وتستمرّ الأحاديث بعد الخروج من الفصل.

بعد امتحانات الباكالوريا، كنتُ أواصلُ من بعيد مُتابعة اللاتي تخصّصن في الفلسفة. كما هو شأن بيانكا بيانانفيلد، التي حافظت السّنة الماضية على مرتَبَتِها الأولى في القسم، والتي التحقت بالسوربون مع فوج من تلاميذ سارتر من بينهم جون كاناپا. كانوا يُحاولون في أطروحاتهم وورقاتهم الإقناع من خلال طريقة فلسفة الظّواهر. كانت بيانكا تولي لعملها شغفاً كبيراً وكانت تردّ الفعل بعُنف إزاء ما يجري في العالم. أصبحنا صديقَتيْن.

كانت هناك روس بيض في پاسي Passy وتلك السّنة كانت أفضلُ تلميذاتي روسيّة بيضاء. سبعة عشر عاماً، شقراء، مع سطر يقسمُ شعرها نصفَيْن ويجعَلُها تبدو أكبر سناً، أحذية عالية وتنانير طويلة. أعجبتني فوراً ليز أوبلانوف بِحِدَّتِها. كانت تُقاطِعني بهَمَجيّة: «لم أفهم!» كانت أحياناً تُطيلُ جدالي بعناد إلى درجة أُضطَرُّ معها إلى تجاوز الفكرة؛ عندها تعقِدُ ذراعَيْها بفخر وتشرَعُ في قتلي بنظراتها. التقيتُ بها يوماً في المِترو، بمحَطّة «تروكاديرو» حيثُ كان علَيَّ تغيير الخطّ؛ قابلتني بابتسامة عريضة: «آنسة، أردتُ أن أقول لك إني إجمالاً لا أجد دروسكِ مُهِمة جدّاً.»

تبادَلْنا الأحاديث حتّى باب المعهد. لقيتها صباحات كثيرة عند نفس الرّصيف، وفهمتُ أنّها ليست صدفة: كانت تراقبني؛ وتستغلُّ انفرادَنا لتطلُب منّي الأجوبة التي لم تحصُل عليها في الفصل. كانت ترغب في مُواصلة دروس الفلسفة السّنة المُقبلة، لكنّ والِدَيْها اعترَضا؛ بما أنّها دون جنسيّة فقد كانت أبوابُ التعليم موصدة في وجهها وأراد والِدُها أن تُصبحَ مُهندسة كيميائيّة. تدرُسُ في معهد موليير منذ سنوات؛ دون أن تربطها صداقة سوى بفتاة واحدة روسيّة أيضاً غادَرت المعهد منذ ثلاث سنوات كي تُجرّب حظّها في الحياة. بدت لها رفيقاتها الأخريات مُمِلاّت وحمقاوات؛ كانت تحكم على الجميع بقسوة؛ لم تشعُر يوماً بالانتماء إلى هذا المجتمع الذي ظلّت تراقبه من بعيد بنظرة ساخرة. إنّ هذه المسافة هي التي جعلتها مُتطلّبة فكريّاً: كانت ترفُض أيّ اعتراف بهذه الحضارة الغريبة؛ ولا تقبلُ سوى الحقائق المُبرهن عليها تحت

نور العقل الكوني. كانت أيضاً تدين إلى وضعِ المنفى بتلك النّظرة العجائبيّة والمُضمحلّة أغلب الوقت للأشياء والنّاس.

لم أكن أمارسُ هواياتي بنفس الحماس مُقارنة بالسّنوات الماضية. تخلّيتُ عن مونبارناس. عادت أولغا من جديد تتابعُ دروس المسرَح؛ فعلت ذلك خفيَة؛ درست دور أوليڤيا في مسرحيّة *ليلة الملوك* لشكسبير بصحبة رفيقة لها؛ اهتَمَّ دولان بها دون غيرها خلال جلسة الاستماع. أثنى عليها كثيراً. سرعان ما رغب كلّ القسم في التعامل معها، الأهم هو أنّها استعادت الثّقة بنفسِها؛ تابعت دروسها بالتزام كبير وفي الوقت الحاضر ما من طالب مجتهد مثلها. راحت تطوّر فنّ الخطابة ودأبت على ترديد جُمل صعبة للغاية تتشابه فيها الأحرف والمقاطع على نحو يُعقّد اللّسان. قامت بتمارين الارتجال مع مُختلف الأساتذة؛ تدرّبت على الإيماءات مع جون لويس بارو. أعجبتْ دولان وعلّمها أسراراً كثيرة؛ كان يُحدّثني عنها باستمرار، باحترام واضِح. استقرَّت في فندق بساحة دنكور، كنتُ ألتقي بها باستمرار لتناول العشاء في مطعم صغير بمحاذاة قاعة المسرح التي ترتادُها فرق الممثّلين وطلبة المدرسة. روت لي كمّاً هائلاً من الحكايات عن هذا وذاك. كانت الجميلة مادلين روبنسون قد لعبت أكثر من دور وجسّدت أكثر من شخصيّة لكنّها ما زالت في تعلّم مُتواصل لمهنتها؛ إنّها تعيش في فوضى وجنون، ترمي الأموال من النافذة، ترتدي فساتين جميلة إلّا أنّها رثّة: كانت تستنكر الحِشمة واللياقة، الحذر والمظاهر التي كانت أولغا توليها احتراماً جَمّاً. تكهّن دولان بمُستقبل مُشرق لبيرت تيسان، من بين المُبتدئات، فتاة قصيرة ودميمة من اللّكسومبورغ موهوبة وذات طباع مُختلفة؛ استطاعتْ أن تنتَزع الدّمع من مُقَل رفاقها وهي تؤدّي دور مارا في *الادّعاء على ماري*. كان يُتَوَقَّعُ أيضاً من فتاة سمراء ذات جدائل طويلة ووجه مُغرَم أن تحظى باسم شهرة أندريه كليمون؛ التصقَ بها دورُ ولد مُتعَدّد المواهب اسمُه دوفيلهو Dufilho. تعرّفتُ على سيسليا برتين، التي كانت إضافة إلى اهتمامها بالمسرح كانت تستعدُّ لاجتياز إجازة الفلسفة. عيْنان برّاقتان وخدّان لامعان وبشرة قاتمة، كانت تتلفّعُ شالاً ذا ألوان صارخة يجعَلُها تبدو غجريّة: كانت تتمتّعُ بفتنة، غير أنّها تفتقر إلى العفويّة الطبيعيّة. ارتبطت أولغا بفتاة يوغسلافية ذات شعر أسود في لون الغُراب، التقت بها في مونبارناس كان

اسمُها أولغا هي أيضاً. لكن من بين جميع الأولاد والبنات في المدرسة كانت تُفضّل الصّغير مولودجي الذي اشتهر بعد تمثيله في فِلمَيْن أو ثلاثة؛ نجا في سنّ المُراهقة من عار المُراهقة واحتفظ بانتعاش الطّفولة وجِدّيتها. خالط جاك بريڤير وأصحابه خصوصاً مارسيل دوهاميل Duhamel، فحصل على ثقافة متنوّعة ولافتة: كان غريباً عدد الأشياء التي يعرِفُها. ألّف الشّعر السّريالي منذ طفولته، من خلال الروايات الأمريكيّة واكتشف الآن ألكسندر دوما وأُعجِبَ به أيّما إعجاب. أصولُه ونجاحُه نصّباه على هامش المُجتمع الذي قرّر بتعنّت صبياني وتطرّف بروليتاري: «هذا لا يحدُث من جانب العُمّال»، كان دائماً يقول بنبرة استهجان. كانت البورجوازيّة وحياة التّرحال تبدُوان في نظره فاسدتين. كان من طباعه التَحَفُّظ حدَّ التوحُّش وودوداً مُتحمّساً وقاطعاً بين الخير والشرّ، مُتفتّحاً مع نوبات عناد مُفاجئة، لطيفاً للغاية، لكن قادراً على الكراهية وغادراً عند الضّرورة. كان وحشاً مُغوِياً. انسَجَم مع أولغا لأنّ قسماً كبيراً من طفولتهما نجا من تقدّم العُمر.

كانت أولغا أحياناً تنزل من مونمارتر إلى سان جيرمان دي پري. كانت هي من أخذني أوّل مرّة إلى مقهى «فلور» حيثُ أصبَحَ من عادتي ارتيادُه معها، مع سارتر، وأن أمضي أمسياتي. أصبح هذا الفضاء موعداً لأهل السّينما: مُخرجين، كُتّاباً، مُلقّني سيناريو، كاذبات. جلسنا جنباً إلى جنب مع جاك پريڤير. غريميون، أورونش، كاتب السّيناريو شاڤان، أعضاء من الفرقة القديمة «أكتوبر»: سيلڤان إيتكين، روجي بلان، فابيان لوريس، بوسيار، باكي، إيڤ دينيو، مارسيل دوهاميل. كنّا أيضاً نرى فتيات غاية في الحُسن. الأكثر جاذبيّة كانت صونيا موسي ذات الوجه والجسَد الفاتِنَيْن – وإن كان جسَدُها وافراً أكثر مما ينبغي بالنّسبة إلى شابّة في العشرين – لقد أوهمن النحّاتين والرسّامين ومن بينهم ديران Derain؛ أمّا هي فكانت ترفعُ شعرها الأشقر في شكلٍ حلزوني مُذهل؛ أثارت إعجابي بنظافتها واختيارها الرّصين لزينتها ومُجوهراتها: أعجبَني فُستانُها الكشمير ذو التّصميم العتيق وقصّة الشّعر المُستقيمة. كانت جاكلين بروتون تظهر بين الحين والآخر، أصدافٌ تتدلّى من أُذُنيْها، عينان حادّتان وقلِقَتان، أظفارٌ مُستفزّة، وسط جَلَبَة أساوِرِها. لكنّ نوع الإناث الأكثر تواجُداً وانتشاراً هنّ من يُسمّونهنّ «المُزعِجات»: مخلوقات

ذوات شعر شاحب، دمّرتهنّ المُخدّرات أو الكحول أو الحياة نسبيّاً وذوات أفواه حزينة وعيون لا تنتهي.

إنّ لمقهى فلور تقاليدَه وإيديولوجيّته؛ لم تكن العُصبَة الوفيّة التي تلتقي يوميّاً تنتمي لا إلى الرحّالة تماماً ولا إلى البورجوازيّة؛ أغلبُهم مُرتبط بصورة غير مؤكّدة بسجال المسرح والسّينما؛ إنّهم يعيشون من وراء إيرادات غامضة، بالحُجَج أو الأمل. كان ربّهم، نبيُّهم، مُعلّمهم الفكري هو جاك پريڤير الذي كان يُجلّ السّينما والشّعر وكانوا يُحاولون تقليده في طريقة نثره وحيَلِه الأسلوبيّة. نحنُ أيضاً أحببنا أشعار جاك پيريڤير وأغانيه: فوضاه المُشَوَّهة قليلاً تلائمنا تماماً. قديماً سحَرَنا بـ «*القضيّة في الحقيبة*» وحديثاً بـ «*مأساة غريبة*» التي أخرجها كارنيه Carné مع بارو Barrault، جوڤي، فرنسواز روزاي. أحببنا خصوصاً *رصيف الضّباب* الذي مثّل فيه بشكل بديع غابان، وبراسور وميشال سيمون والفاتنة المجهولة ميشال مورغان؛ أثّر فينا اليأس الضبابي للشّريط: هنا أيضاً في وئام مع فترتنا التي تعيش في *رصيف الضّباب* تُحفة السينما الفرنسيّة. مع ذلك فقد كان شباب الفلور الكسالى يثيرون لدينا مزيجاً من التعاطُف ونفاد الصّبر؛ إنّ عدم امتثالهم كان وسيلتهم لتبرير ثقل ظلّهم؛ كانوا يعيشون حالة من السّأم المُزمن. كانت تسليتهم الوحيدة هي «المُزعِجات»: كان لكلّ من هؤلاء علاقة بواحدة من أولئك على امتداد فترة قد تطول أو تقصُر وهي عموماً قصيرة؛ لتُغلَق الحلقة من جديد قبل أن يُعاد الدّوران الرّتيب. كانوا يقضون يومهم في إبداء قرفهم بواسطة جُمل قصيرة يقطَعُها التّثاؤب. إنّهم لا ينتهون أبداً من إدانة المهزلة الإنسانيّة.

مساء الأحد، نتخلّى عن أناقة الارتياب في كلّ شيء لنتسلّى بالحيوانيّة الرائعة لسود شارع بلومي. رافقتُ أولغا عديد المرّات إلى هذا الحفل حيثُ كانت صونيا وأصدقاؤها أيضاً يأتون. التقيتُ هناك بماري جيرار التي لم تتغيّر كثيراً منذ برلين: كانت تتسكّعُ في مونبارناس وترتادُ الأماكن التي يرتادُها أهلُه. كنّا استثناءً: في تلك الفترة، «بيضاوات» قليلات العدد اختلطن بالحشود السّوداء؛ عدد أقلّ تجرّأ على دخول حلقة الرّقص: كانت بشاعَتُهُنّ صارخة أمام الأفارقة المرنين والكاريبيّين المُرتعشين؛ لو حاولن تقليدهنّ لبَدَوْنَ أشبه بأناس مُصابين بالهستيريا. لم أكن أتغاضى عن تحذلُق أناس الفلور، ولا

أتخيَّلُ يوماً أنّي أشاركُ في الأسرار الإيروتيكيّة الإفريقيّة؛ لكنّني أحبّ التفرّج على الرّاقصين؛ واحتساء الپانش Punch؛ كان الصَّخَب والدّخان وبُخار الكحول والإيقاعات العنيفة تُخدّرني؛ كنتُ أرى وجوهاً سعيدة تمرّ من خلال الضّباب. وكان قلبي ينبض بشدّة عندما انفَجَر صخبُ المُربَّع الأخير: بدا لي وسط الأجساد المُحتفلة أنّي أصل إلى ذروة الجسارة في الحياة.

إنّ عقليّة مقهى الفلور تغزو أيضاً الكاباريه الذي فتح في شارع موليير بداية سنة 1939 بفضل دعمِ صونيا موسي وفضل راعية أخرى أنياس كاپري، تلميذة قديمة من تلاميذ دولان. ركحٌ صغير، تحميه ستارة حمراء، يشغل عُمقَ قاعة صغيرة منَجَّدة. غنّت أنيا سكاپري بسحنة بريئة على وجهها الحادّ، أغاني لپريڤير؛ قرأت له أشعاراً وأبياتاً لأپولون؛ استعذبتُ صوتَها النَّضِرَ الرّقيق: لم أكن أمَلّ سماعها قط في *صيد الحوت*، ولا من رؤية الزّهرة السامّة تتفتَّحُ من بين شفتَيْها. كان إيپ دينيو بائعاً مُتَجوّلاً مُذهلاً، مُتفاخِراً بسبق آلة تعقد ربطات العُنُق. أضحَكنا حدَّ الدّموع في مشهديّة *المُلتحي* التي أنجزها مع فابيان لوريس؛ كان لديه سِجِلّ أغاني 1900؛ الأكثر تصفيقاً هي تلك التي تُجسّدُ ضابطاً ألمانيّاً كان ابنُه الرّضيعُ، وبسبب مُجريات غامضة، بصدد الموت جوعاً: وهب ثروته لفتاة ألزاسيّة رصينة كي تُوافق على إرضاعِ المولود.

لا، لا، مُستحيل، حلَمَتي فرنسيّة

لن أُرضِعَ ابن الألماني

تُجيبُ الألزاسيّة المُلتحِيَة بصوت مُرتعش واضعة يدها على ثديها. تحوز السّخرية على المنزلة الأولى في برامج كاپري؛ بالسّخرية من الأجيال الماضية، يُمكن أن نشعر بلذّة خاصّة متأتّية من النّرجسيّة الجماعيّة: لاحقاً بعد سنة، عندما فهمتُ عمايَ وجهلي، رميتُ بكلّ اللؤم وراء ظهري. لم نهجُر الدُّوم تماماً، ذاك الذي كان رُوّادُه أكثر تحطُّماً وغرابة من أهل مقهى فلور. ذات مساء دعانا إلى ورشتِه الضّخمُ دومينغاز الذي تعرّفتُ عليه أنا وأولغا لا أدري عبر أيّ خلل؛ كانت هناك «روما» الرّومانيّة اليونانيّة التي تسكن معه، الرسّام فلوراس Florès، وعشرة آخرون. لعبتُ لأوّل مرّة في حياتي لعبة الحقيقة التي أطارت صواب السّرياليّين. كان لجميع الأسئلة تقريباً بعدٌ جنسي أو فاحش.

سُئلَت روما لماذا تُحبّ مُصاحبة دومينغاز إلى فراشه: بحركة مُوَسَّعة وجذّابة، رسمت في الهواء جسماً ضخماً: «لأنّ هناك مثل هذا!»، قالت. لكن إجمالاً، كانت الأجوبة جوفاء ومُسطّحة مثل الأسئلة. أبلَيْنا جيّداً مُقابل جهود جبّارة. رُوَيْداً تحوّل الجوّ كما قيل في *البطّة المُقَيَّدة*، حصاراً خالصاً: بدا أنّ بعض اللاعبين مُستعِدّين لمزج الكلام بالأفعال. غادَرنا.

لم تكن الأفلام الفرنسيّة الجديدة ذات وزن مُقارنة بـ*رصيف الضّباب*. كان مولودجي مُذهلاً في فِيلمِ *جحيم الملائكة* وأصبحت الأفلام الأمريكيّة مُمِلَّة؛ انزاحت الدّراما أكثر إلى صفّ البوليس على حساب العصابات. في فِيلمِ *الملاك ذو الوجه القذر* وافق جيمس كانيي James Cagney على الموت بصورة مُخزِيَة كي يُنفِّر مجموعة من أطفال الجريمة. السيّد سميث يذهبُ إلى مجلس الشّيوخ، *لن تأخذوه معكم*، كانت كوميديا محبوكة جيّدة وحسنة الأداء ومُضحكة؛ لكنّها تزعُم بثّ رسالة: على الرّأسماليّة أن تكون هي الإنسانيّة.

جرت عروض جيّدة من جانب الكوميديا الفرنسيّة منذ دعا جون زاي مديري الشّركات الكبرى للاستثمار في قطاع الإنتاج. قبل خمس عشرة سنة شاهدتُ في المسرح *لكلٍّ حقيقَتُه*، عاودتُ مُشاهدته بإخراج حديث من دولان على المسرح الفرنسي؛ عندما برزا من عمق الممر الطّويل الذي جعلته لعبة الضّوء يبدو هائلاً، أذهَلَ لودو وبيرت بوڤي رفاقَهما والجمهور معاً بظهورهما المُربِك العالق في الأحزان. أثار دولان ضجّة كبيرة بعرضِه *زواج فيچارو*. بدا كأنّ الصّغير كلوديو الذي جسّد دورَ شيروبان يبلُغ من العمر اثنَتيْ عشرة سنة بالناحية الاجتماعيّة والسياسيّة للمسرحيّة؛ في رأيي أنه لم ينتزع من ضراوتها شيئاً بمعاملتها بسطحيّة. حضرتُ افتتاح مسرحيّة *الأرض المُستديرة* لسالاكرو وبدت لي ولا أدري إن كنتُ مُخطئة أم على صواب، حديثاً راقياً.

وجدَت لوسيان سالاكرو رائعة بفُستانها الحريري الطّويل وشعرها المرفوع إلى أعلى، المُحَلّى بمشبك نفيس. كانت، أيضاً، سيلڤيا باتاي جميلة، لحماً ودماً تحتَ قُبَّعَتِها الصوفيّة ذات الرّيش اللاّمع! لم أكن راغبة في الانسياق إلى جوّ الأناقة الباريسيّة وأن أختال في ملابس حفلة؛ لكن تسلّيتُ كثيراً برؤية المشاهير وآخر صيحات الموضة.

ترك دولان ورشة المسرح لبارو كي يعرض *الجوع*؛ كان لأولغا أكثر من دور في العرض: بدأت الأمسية باقتباس لافورغ لهامليت وإعداد لغرانڤال. في مسرحيّة *الجوع* حاول لأوّل مرّة دفعَ أفكاره حول «المسرح الشّامل» إلى أقصاها. لم يُحافظ من رواية كنوت هامسون سوى على الفكرة العامّة: الوحدة دون أمل، في قلب مدينة، لرجل جائع؛ ربط هذا الموضوع بآخر طالما شغله: الإنسانُ ونسخَتُه. كان البطَلُ الذي يُجسّده بارو مسكوناً بـ «آخر داخلي» أعارهُ روجيه بلان وجهه. لم يكن للكلام في العرض سوى دور ثانوي؛ غالباً ما استبدل بالـ «استعارات»؛ من خلال هذا النّمط الجديد حتّى ذلك الحين فجَّرَ بارو مُؤثّرات مُمَيّزة؛ لكنّه فضل لغة الإيماءات. كان تلميذاً لديكرو Decroux الذي سخّر حياتَه لنفخ الحياة في الإيماءات، لم يعتبر أنّ هذا الفنّ كافٍ بحدّ ذاته: أراد استخدامَه في المُنجَز الدرامي. لم يُقاوم رغبته في إقحام بعض المقاطع الشُّجاعة في *الجوع*: أقام، مثلاً، سُلَّماً وهمياً، انعزَل هذا الإجراء عن مُجمَل العرض وكسر الإيقاع؛ أقدّر جيّداً الأوقات التي تتحوّل فيها الحركة إلى طريقة تعبير مسرحيّة. وفي جسارتها الخالية من الخشونة يُمَثّل المشهد الصامت حيثُ البطل، لشدّة ضعفه، يفشَل في امتلاك المرأة التي يُحبّها، نجاحاً باهراً. لاقت المسرحيّة نجاحاً وعُرِضت أكثر من خمسين مرّة. بعد *نومانس Numance* وبينما *أُحتَضَر*. أنبأت *الجوع* أنّ بارو سيحمل المسرح نحو الواقعيّة تجديداً بات في حاجة ماسّة إليه. منح المُستثمر ما مَنَحَهُ: لم يبتكر شيئاً. في الوقت الذي انزلَق فيه المسرح نحو الواقعيّة، تمنّينا رؤية نوع غير مألوف من المُحاكاة: علاقة المُمَثّل بالنصّ، علاقة النصّ بالعرض، العرض بالجمهور، كان على كلّ شيء أن يتجدّد. هل نجح بارو في ذلك؟

خلال عُطلة عيد الميلاد عُدنا إلى ميجيف؛ بدأنا نرتّب الأمور على نحو مَرَضي: لم نكن طموحين. وخلال عيد الفصح سافرنا إلى پروفنسيا؛ كنتُ أتركُ سارتر في المُدن والقرى التي نصلُ إليها بعد القطار أو الحافلة وأخرج للتنزّه في مُنحَدَرات ليپرون، وفي الجبال المكسُوَّة بالثّلج عند تخوم منطقة دينْيْ Digne. كنّا نرى روايات جيونو معروضة في واجهات جميع الأكشاك

والمكتبات، بدأ يقوم بجولة حول العالم لإلقاء مواعظه، ولمّا كنتُ أسلُك طريقاً صغيراً على مقرُبَة من كونداتور، حقيبتي على ظهري، كان يُصادِفُني قرويّون ويسألونني إن كنتُ أنتمي إلى المُستوطنين. كان سارتر يقرأ هيدغير منذ بداية السّنة بترجمة لكوربان وبالنصّ الألماني الأصلي. حدّثني عنه بجدّية ذات مرّة؛ أرى الآن المقعَد الصّخري حيثُ جلسنا؛ كان سارتر يشرحُ لي ماذا يعني تفسير الإنسان كـ «كائن آت من بعيد» وكيف «ينكشف العالمُ في أفق الأدوات المجنونة»؛ لكنّي وجدتُ صعوبة في فهم الحضور الذي ينسبُه هيدغير إلى المُستقبل. سارتر الذي تعلّق دائماً وقبل كلّ شيء بمبدأ إنقاذ واقعيّة العالم أحبّ فلسفة هيدغير وطريقته في مواءمة المنشود بالملموس؛ لم يحكُم بأنّها أداة مُعَقَّدة، بل غنيّة بالتّلميحات المُلهمة.

كنتُ أغادرُ باريس كلّما كان في حوزتي أيّام شاغرة. تجوّلتُ في مورڤان بالبينكوت: زرتُ ديجون، أوكسِر، فيزيلاي. خلال أسابيع الباكالوريا، في جوان، ذهبتُ إلى جورا Jura. تسلّقتُ جميعَ القمم. كنتُ أتعبُ لأنّ رُكبَتَيَّ كانتا مُتورِّمَتَيْن وبات المشيُ عذاباً. أخذتُ القطار إلى جينيف حيثُ تجوّلتُ وأنا أعرُج قليلاً. كانت الحكومة الإسبانيّة قد أرسلت مجموعات مُتحَف البرادو لحمايتها ضدّ القصف الغاشم، وأمضيتُ فترة ما بعد الظّهر بين أعمال غويا وغريكو وڤيلاسكيز. كان قلبي مُنقبضاً لأنّي أعرفُ في الوقت الحاضر أنّه لن يكون في وسعي العودة إلى إسبانيا ولفترة طويلة.

حاولتُ طوال السّنة أن أحبس نفسي وأن أستغلّ كلّ لحظة تمُرُّ بي. لكنّي مع ذلك لم أستطع تجاهُل العالم من حولي. بدأتْ آمالُ جوان 1936 تضمَحِلّ. فشلت الطّبقة العُمّاليّة في مُعارضة القوانين التي سطت على جُلّ مكاسبها؛ خلال إضراب 30 نوفمبر ردّت منظّمة الأعراف بكلّ ثقلها وكان ردّاً ساحقاً. يعوزني الخيال كي يُؤثّر بي حريق كانتون Canton، وسقوط هانكيو Hankéou؛ فيما بدت لنا هزيمة الجمهوريّين الإسبان مأساة شخصيّة. ألقى نزاعهم الداخلي ومُحاكمة P.O.U.M التي جرت في برشلونة، الخوف في قلوبنا.

هل صحيح أنّ الستالينيّين قد اغتالوا الثّورة؟ أم علينا التّصديق بأنّ الفوضويّين قد لعبوا لعبة التمرّد المُسَلَّح؟ انتصر هؤلاء. برشلونة تُحتَضَر. وصف لنا فرناند خلال رُخصة، القصفَ والعَوَز؛ لا شيء يُؤكَل، ما عدا القليل من الخُبز وحفنات من الحمّص؛ ما من تبغ لتضليل الجوع: لم يكن في مقدورك أن تجد عقب سيجارة واحدة في الشّوارِع. كان الأطفالُ ناحلين، هزيلين، وكانت بطونهم مُنتَفِخة. في جانفي، سقطت المدينة تحت قصف قنابل الغاز المضغوط. احتشد على الحدود عدد هائل من اللاجئين في حالة رثّة ومُشرّدين. ما زالت مدريد تُقاوم لكنّ إنجلترا اعترفت بفرنكو؛ أرسلتْ فرنسا پيتان ليتفاوَضَ في بورغوس. بعد انتفاضات قليلة سقطت مدريد.

أحسَّ اليسارُ الفرنسي برمّته بالحُزن والمسؤوليّة. أعلن بلوم في أوت من سنة 1936 أنّ شحنات سريعة من الأسلحة كانت ستُنقِذُ الجمهوريّة وأنّ سياسة التّحاشي كانت سياسة مُغَفَّلين: لماذا لم ينجَح الرّأيُ العام في أن يفرض عليه سياسة أخرى؟ عندها بدأت أفهمُ أنّ وزني السياسي لا يمنحُني شهادة براءة وأنّي معنيّة بما كان يُردِّدُه فرناند: «الفرنسيّون الأوغاد».

أمام مآسي الضفّة الأخرى من الرّين Rhin[33]، هل في وسعي الاستمرار في تبنّي موقف الخنوع؟ لقد نشر النازيّون الرُّعبَ في بوهيميا والنّمسا. كشفت الصّحافةُ عن وُجود مُعَسكر داشو Dachau حيثُ تمّ إيواء آلاف اليهود وأعداء الفاشية. تلقّت بيانكا في يانافيلد زيارة أحد أبناء عمومتها الذين نجَحوا في الفرار من ڤيانا بعد ليلة قضاها في قبضة الغيستابو الحديديّة: ضربوه ساعات مُتواصلة؛ كان وجهُه لا يزالُ أزرَق ومُبَقّعاً بحروق السّجائر.

روى أنّ اللّيلة التي تلت موتَ ڤون-راث في مدينة صغيرة كان بها أقاربُه، قاموا بإخراج جميع اليهود من مضاجِعِهم، جُمِّعوا في السّاحة الكبيرة، أجبروهم على التجرّد من ملابسهم وبُتِروا بالحديد الأحمر. في كلّ مكان من الرايخ، استُخدِمت عملية الاغتيال ذريعة لارتكاب أفظع الأعمال الدّنيئة: أحرقت آخر كنائس اليهود، أقفلت محال اليهود، تمّ ترحيلُ آلاف الإسرائيليّين. «هل بالإمكان العمل، التّسلية، هل بالإمكان العيش في ظلّ

33- الرّين Rhin: أحدُ أهمّ الأنهار الأوروبية.

أشياء تحدُثُ كهذه؟»، قالت لي بيانكا باكية. خجلتُ لأنانيّتي، أنا التي نذرتُ نفسي للمُراهنة على السّعادة.

خجلتُ لكنّني لم أستسلم، مازلتُ أريدُ تصديق أنّ الحرب لن تحدُث. طالبت إيطاليا بدورها «بفضائها الحيوي»؛ أدانت معاهدتها مع فرنسا؛ عمدت إلى إحداث اضطرابات في تونس، وهدّدت جيبوتي. يوم دخلت الفيالِقُ الإيطاليّة إلى برشلونة إلى جانب جنود فرنكو تظاهرت الجماهير في روما وهتفت محتفلة بانتصار الدكتاتوريّة: «لنا تونس! لنا كورسيكا!» وطمأنتُ نفسي بآخر شعار سلمي: «لن يتقاتلوا على جيبوتي على أيّ حال!» بدا أنّ الاقتتال بعيد. لم يكن هتلر يدعَم موسوليني إلّا قليلاً؛ وعد روزڤيلت أنّه في حال الهجوم فإنّه سيتدخّل لنجدة الديمُقراطّيين. لكنّ سلوفاكيا وأوكرانيا انضوَتا تحت حماية الرّايخ؛ يوم 16 مارس دخل هتلر إلى پراغ. في إنجلترا أقرّت الحكومة قانون التّجنيد الإلزامي؛ في فرنسا، تحصّل دالاديي على صلاحيّات كاملة، بدؤوا بتوزيع أقنعة الغاز وتمت التّضحية بقانون الأربعين ساعة لمصلحة الدّفاع الوكني. كان السّلامُ يتراجَعُ من يوم إلى آخر. هاجَم موسوليني ألبانيا، هدّد هتلر ميميل Memel اللتوانيّة وطالب بالمدينة الحُرّة دانتزيغ Dantzig؛ وقّعتْ إنجلترا مُعاهدة مع بولونيا مُساندة منحازة إلى سياسة الانغلاق. ربّما أرعب هتلر اتّفاقٌ إنجليزي–فرنسي–روسي، لكنّ التفاوُض مع الاتّحاد السوفيتي لم يُفضِ إلى شيء. قريباً لن يكون هناك مُبادرة غير الحرب أو المناورة. كتب دِيا Déat في صحيفة العمل مقالاً أثار جدلاً كبيراً: «الموتُ من أجل دانتزيغ»؛ دعا الفرنسيّين إلى كلّ أنواع العصيان: من الراديكاليّين إلى الشيوعيّين، كان اليسارُ وحدهُ من أدان ذلك.

أذكُر محادثة في هذا الشّأن بين كوليت أودري وسارتر؛ خلّف لديْها الدّمار في إسبانيا انعِدامَ ثقة بالسّياسة: «كلّ شيء أفضل من الحرب، قالت. – لا، أبداً، ليس الفاشيّة»، أجاب. لم يكن يملكُ روحاً عُدوانيّة؛ يوم 30 سبتمبر لم يكن حانقاً من العودة إلى سير حياته المدنيّة؛ لم يعتبر مونيخ غلطة، وقدّر أنّ كلّ تراجُع سيكون بمثابة جريمة؛ عن طريق التنازل، نُصبحُ شركاء في الاضطهاد والإبادة: تُنفّرني هذه الفكرة أيضاً. كان هناك عشرات الآلاف من

اليهود الذين تشرّدوا في كامل أصقاع الأرض هروباً من مُعسكرات الموت: قصّة *سان لويس* جعلتنا نلمَسُ مأساتهم المُرَوِّعة. تسعمائة وثمانية إسرائيليّين أبحروا من هوبرورغ إلى كوبا: طردتهم حكومة كوبا وشقّ القبطانُ طريقَه إلى ألمانيا مُباشرة. أقسموا جميعاً على الموت معاً بَدَل العودة إلى هومبورغ. تاهوا أسابيع؛ أخيراً وافقت إنجلترا، فرنسا وهولندا على منحهم حقّ اللّجوء. عدد من السّفن الأخرى نقلت من الضفّة إلى الضفّة الأخرى أكداساً من البؤساء الذين لم يقبل بهم أيُّ بلد. لقد آن الأوانُ للانتهاء من هذه الوحشيّة التي طالما سمحت بها أنانيّتُنا.

غيرَ أنّ صُوَرَ الحرب الأخرى وخزت قلبي: الحكمُ بالموت على مليون فرنسي من باب الإنسانيّة، يا للتناقض! فسّر لي سارتر أنّ المسألة ليست إنسانيّة ولا أخلاقيّة مُجرّدة: نحنُ في صُلبِ اللعبة؛ إن لم يُقضَ على هتلر فإنّ فرنسا ستعرف مصير النّمسا. قلتُ مثل كوليت أودري، مثل عدد كبير من تلاميذ آلان: «أليستْ فرنسا في حرب أسوأ من فرنسا نازيّة؟» حرّك سارتر رأسَه: «لا أُحبُّ أن أُجبرَ على أكل مخطوطاتي. لا أحبّ أن تُقتلَع عينا نيزان بملعَقَة صغيرة!» ليكن: نحنُ المُثقّفين بدورنا، ستسلُبُنا النازيّة كلَّ معنى للحياة؛ لكن لو أنّ القرار بأيدينا هل كنّا سنجرؤ على إرسال رعاة الألبِ المُنخفض وصيّادي دوارنييز ليُقتَلوا نيابة عنّا؟ هم أيضاً معنيّون، أجابني سارتر؛ وربّما لأنّهم لم يحملوا السّلاح ضدّ هتلر، وجدوا أنفُسَهم دون شكّ يُقاتلون لأجله؛ في فرنسا مُلحَقَة أو مُستَخدَمة، عمّال، مُزارعون، بورجوازيّون، الجميعُ سيُعاني: سيُعامَلُ الجميعُ معاملة المهزومين، سيكونون أناساً أقلّ درجة وسيُضحّى بهم بقسوة لمصلحة عظمة الرّايخ.

أقنعني. لا يُمكن تجنُّبُ الحرب. لكن لماذا وصلنا إلى هنا؟ لا أملك حقّ التَشكّي أنا التي لم أرفع سبّابة لأمنعَها. أحسستُ بالذّنب. فقط استطعتُ أن أقول لنفسي: «حسناً! سأدفعُ؛ سأشتري عمايَ وطيشي بقبول العواقب.» لكنّني فكّرتُ في بوست، في كلّ الشبّان في سنّه ممّن لم تُتَح لهم فرصة التّأثير على مجرى الأحداث؛ يُمكنهم فقط إدانة الأكبر سِنّاً: نحنُ في العشرين وسنموت بسبب أخطائكم. كان نيزان مُحِقّاً في اعتبار الانخراط في السّياسة

عملاً لا يُمكن الفكاك منه: نحنُ نتّخذ موقفاً بامتناعنا عن ممارسة السّياسة. كبَسَ النّدمُ على نفسي.

كان من المُستحيل خلال يوم أو أسبوع أو حتّى شهر تحديد الحوارات التي كانت تجري في داخلي. لكنّ الأكيد هو أنّ سنة 1939 وُصمت بقطيعة في حياتي. قطعتُ مع ذاتيّتي وعدم اكترائي بالشّأن الإنساني. تعلّمتُ التّضامُن. قبل الخوض في سرد هذه الحقبة الجديدة، أريد أن أقوم بخلاصة سريعة حول النّتائج التي حصلتُ عليها خلال السّنوات العشر الأخيرة.

من العشوائي تجزئة الحياة. مع ذلك فإنّ سنة 1929 حيثُ تزامنت في الآن نفسِه مع انتهائي من الدّراسة ومع تحرّري المادي، مُغادرتي لبيت أهلي، تصفِيَتي لصداقاتي القديمة ولقائي بسارتر فتحت أمامي، بالطّبع، مرحلة جديدة. وانقلبت حياتي سنة 1939 جذرياً: علّمني التاريخ ألّا أهدر نفسي؛ من جهة أخرى قرّرتُ أن أنذُرَ وجودي للأدب إلى الأبد. لقد انتهت حقبة. نقلتني الفترة التي رويتُها من الشّباب إلى الرّشد. وقد هيمَن عليها اهتمامان: العيش، وأن أنجز ميلي الغامض - حتّى ذلك الحين - لأكون كاتبة، أي العثور على الثّغرة التي من خلالها سأقحم الأدب في حياتي. العيش أوّلاً، نحنُ نعيشُ دائماً مهما فعلنا؛ لكن ثمّة أكثر من طريقة لتوحيد اللّحظات التي نعيشُها: بضمّها إلى عمل مَثَلاً، أو أن نعكسها في مُنجَز فنّي. كان مشروعي هو حياتي نفسَها، التي آمنتُ بالقدرة على الإمساك بها. كان يتحتّمُ عليها أن تُجيب على شرطَيْن لا أفضّل بينهما في كامل تفاؤلي: أن أكون سعيدة، وأن أمتلك العالم؛ لم يكن الحُزنُ، حسب ظنّي، سوى واقع مُرتبط بالتقدّم في السنّ. وبما أنّ سعادتي كانت مضمونة بفضل تفاهُمي مع سارتر فإنّ ما يشغلني هو أن أمنحَ نفسي فرصة عيش التّجربة الأكثر ثراءً. لم تكن اكتشافاتي تتبعُ خطّاً واضحاً كما هو الشّأن في طفولتي؛ لم يكن لدَيَّ انطباع، من يوم إلى آخر، بأنّي أتطوّر أو حتّى أُحرزُ تقدّماً؛ لكنّها أشياء تملؤني بفوضاها وتشوُّشها؛ كنتُ أواجه المسائل لحماً ودماً بما أحسستُ من عمق في صدري، وما لاحظتُ أنّه غيرُ مريب. رأينا بأيّ دأبٍ كنتُ أدفعُ أبحاثي.

حافظتُ طويلاً على وهم أنّ الحقيقة المُطلقة للأشياء تُمنَحُ لوعيي

ولِوَعيي وحدَه - باستثناء سارتر، ربّما. طبعاً كنتُ مُدركة أنّ عدداً كبيراً من الناس يُمكنهم فهم جدول، سوناتا، أفضل منّي؛ لكن بدا لي بغموض أنّ أي بلد يحظى بأضواء مُمَيّزة فإنّه يظلُّ بكراً إزاء أيّ نظرة لا ألقيها عليه بعَيْنَيَّ.

حتّى الثّلاثين، أحسستُ أنّي أكثر تعقّلاً من الشّباب وأكثر شباباً من الكبار؛ الفئة الأولى المُصابة بالدُّوار والفئة الثانية مُبتَذَلة؛ في داخلي الأمر المثالي الوحيد القابل للتشكُّل هو الوجود؛ كلّ تفصيل يحظى بالمثاليّة. لكن هل إنّ الكون متعجّل مثلي لأعرف كلَّ ما يتّصلُ به؟ إنّ نشوَتي ثانويّة مُقارنة بهذه المنحة الدائمة؛ أستوعبُ الوجود بلهفة لكنّني لا أسعى إلى تحريكه؛ أفضِّلُ التدرّب على سيمفونيّة سترافينسكي الثامنة - التي لا تمنحني أيّ متعة - على أن أسمَعَ مقطعاً من غناء الأوبرا المألوفة. ثمّة جانب طائش في فضولي. مثلما هو الشّأن في طفولتي، أتخيّلُ منذ الوهلة الأولى وأنا أفكّ لغز قطعة موسيقيّة، مدينة، رواية، أنّي قد قبضتُ على جوهرها؛ أحبّذُ التنوُّع على التّكرار وأن أرى ناپولي من جديد أفضل من العودة إلى ڤينيسيا؛ يُبرّر هذا النّهم في ناحية ما لبلوغ غاية ما يجبُ تنسيبها إلى مجموعة الغايات التي تنتمي إليها؛ يحيل غناء الأوبرا إلى مُجمل أعمال بيتهوڤن الفنّية، إلى هايدن، إلى أصول الموسيقى، وحتّى إلى تطوّرها اللاحق. أعرف هذا لا لأنّي فقط قرأت سپينوزا، لأنّ الفكرة الأساسيّة تقود تفكير سارتر إليَّ. عليَّ أن أستهدف الكون برُمَّتِه لو أردتُ أن أصيب منه حفنة غبار. لا يُرعبنا التناقُض القائم في ذلك، كما عرفنا، نحنُ نُشذّبُ ونختزل ونحسم؛ رمينا ببرامس وموريلو إلى العدم؛ ورفضنا الاختيار، مع ذلك: كلّ ما يوجدُ يجب أن يوجد بالنّسبة إلينا.

من الطّبيعي أمام لا نهائيّة هذا العمل أن أكون دون هوادة فرنسيّة للمشاريع: كلّ تجربة هي عَقَبة وجب تخطّيها. غير أن هذه السّمة لا تُفَسّر فقط بضخامة الحقل الذي أروم اكتشافَه بما أنّي الآن أحجمتُ عن استنزافه ولم أتغيّر قط: أنا أعكسُ على المُستقبل. تُفزِعني الطّوارئ؛ وأنا أؤثّث المُستقبل بالآمال، والنداءات، والتطلّب، أضفي على الحاضر ضرورة، مع ذلك وكما قلتُ، عرفتُ الهدنة: كنتُ أتأمّل. كانت مكافأة عظيمة تلك الأوقات حيثُ يضيعُ همّ الوجود يضيع وسط امتلاء الأشياء التي أسبحُ فيها.

لم يكن العملُ الذي تابعتُه أنا وسارتر كي نُلحِقَ بنا العالم ليتعايش مع الروتين والحواجز التي وضعها المُجتمع؛ نحنُ نطعن فيها: كنّا نؤمن أنّ على الإنسان أن يُخلَقَ من جديد. بمرحٍ أجابت كوليت أودري «المُسيّسة» جدّاً، عاتبها أصدقاء بشدّة لأنّها تبذّر أوقاتها معنا: «أنا أعدُّ إنسان المُستقبل» ابتسمنا لهذه الكلمة لكنّها لا تبدو لنا مجانبة للصّواب؛ يوماً ما سيتزحزح النّاسُ عن تصلّبهم وسيبتكرون حياتهم بحرّية: هذا ما نتطلّعُ إليه. كنّا عادة مأخوذين بتيّار مُعَيَّن: عندما كنّا نذهبُ إلى رياضات الشّتاء، إلى اليونان، إلى حفلة جاز، إلى فِيلمٍ أمريكي، عندما كنّا نُصَفّقَ لجيل وجوليان. كنّا في الآن نفسِه نخوض التجارب بالفكرة التي نملكُ صياغتَها دون اعتماد نمط جاهز آخر. لقد ابتكرنا علاقات بالأشياء، حُرّياتها، خصوصيّاتها وصدقَها؛ ابتكرنا الثلاثي بسعادة أقلّ. ثمّة أصالة في طريقتنا في السّفر والمتأتّية بقسم كبير من عدم اكتراثنا بهيئتنا وترتيبات الرّحلة: لكن هذا الطّيش بحدّ ذاته يعكِسُ موقفنا من الاستقلاليّة. زُرنا اليونان على طريقتنا. مزجنا، في إيطاليا وإسبانيا والمغرب، حسب مشيئتنا، الرفاهيّة والإيحاء والهشاشة والجهد والكسل. خصوصاً، لقد أبدعنا مبادئ، نظريّات، وأفكاراً؛ رفضنا أن نُكبّل أنفاسنا بها، كنّا نمارسُ ثورة مُستمرّة؛ كان ذلك يُضايق المُقرّبين منّا ممّن يعتقدون أنّهم يسلُكون طريقنا فيما نحنُ في مكان آخر. «المُتعب معكم، قال لنا بوست يوماً، هو لزوم أن نكون متناغمين مع آرائكم لحظة بلحظة.» نعم صحيح، نحنُ نتحمّلُ بصعوبة تناقُضات الأصدقاء الحميمين ونتجاوز عن تناقضاتنا العديدة؛ كنّا نُمطر مواقفنا بأدلّة سرعان ما ندحَضُها في اليوم الموالي.

بفضل هذا التبدّل الذي تخضعُ له الأشياء، والانتباه لما يُحيطُ بنا، يبدو لنا أنّنا ألصقُ بالواقع. يُضحِكُنا أن يتحدّث جون وول أو عن «الذّهاب إلى الملموس في رواياتهما وأنهما يُحاصرانه: كنّا على يقين أنّنا نقبض على الملموس بملء اليَدَيْن. مع ذلك وككلّ المُثقّفين من صغار البورجوازيّين، فإنّ حياتنا تتّصف بلا واقِعيّتها. لدينا مُهمّة نمارسُها على الوجه الصّحيح لكنّها لا تنتزعنا من عالم الكلمات؛ كُنّا نزيهَيْن وعمَليّين فكريّاً؛ مثلما قال لي سارتر يوماً، إنّ لدينا حِسّاً واقعيّاً للحقيقة. (أغلب البورجوازيّين، كلّ الناس لديهم علاقات غير واقعيّة مع الحقيقة.) لم نكن، فقط، مثل جميع البورجوازيّين في منأى عن الحاجة،

وككل المُوظّفين في أمان، بل أيضاً لم يكن لدينا أطفال أو عائلة أو مسؤوليّة: جِنّيان. لم يكن ثمّة صلة مفهومة بين العمل المُمتِع إجمالاً وغير المُضني الذي نُنجزُه وبين الأموال التي نجنيها: ليس ثمّة تكافؤ. وبما أنّنا لم نكن نرزَحُ تحت أيّ واجب فقد كنّا نُنْفِقُه بطيش: كان أحياناً يكفينا حتّى آخر الشّهر وأحياناً لا يكون ذلك؛ لم تكن تلك العشوائيّة تظهر لنا حقيقة وضعنا المادي وفعلاً كنّا نجهَلُه؛ كنّا نتطوَّرُ كزنبق الحقول. مهّدت الوقائع الطّريق أمام أوهامنا. كنّا نطفَحُ صحّة؛ ولم يكن جسدانا يخوناننا إلّا إذا دفعنا به إلى حدوده القصوى؛ كان بإمكاننا أن نطلب منه الكثير وهذا يُعَوِّضُ شُحَّ موارِدِنا. رأينا من هذا البلد ما يُتاحُ للأثرياء رؤيتُه لأنّنا لم نكن نتردّد في النّوم في العراء والمشي والأكل في المطاعم القذرة. من ناحية ما، نحنُ نستحقّ مَسَرّاتنا، إنّنا ندفَعُ مُقابلها أثماناً يجدها غيرُنا باهظة: إلّا أنّه الحظّ ما جعلنا نستحقّ مسرّاتنا على هذا النّحو بالذّات. كنّا محظوظَيْن في أشياء أخرى أيضاً. لا أدري لماذا لقيتْ علاقتنا غير الشّرعيّة احتراماً وافراً كما لو أنّها رابطة زواج: السيّد پارودي مُتفقّد عام، يعرف ما بيني وبين سارتر ولقد أخذ علاقتي به بعين الاعتبار حين دعاني إلى رووان بعد تعيين سارتر في هاڤر؛ يُمكننا دون عقاب أن نحيدَ عن عاداتنا. بقينا ذلك في ظلّ الحرّية. لقد حجبتْ عنّا بداهةُ علاقتنا اختلاف العالم عنّا. كلّ بطريقته، تابع كلانا أحلامَه. ما زلت أريدُ لحياتي أن تكون «قصّة جميلة تُصبِحُ صحيحة كلّما رويتُها»؛ كنتُ أجمِّلُها كلّما رويتُها لنفسي؛ مثلما هو حال بطلتي شُنتال، ملأتُها رموزاً وأساطير سنتَيْن أو ثلاثاً. ثمَّ أحجمتُ عن الأشياء الجذّابة؛ لكنّني لم أُشفَ من الأخلاقيّات، من نزعة الصّفاء التي ظلّت تمنعُني من رؤية الناس على حقيقتهم، أو كَونيَّتي المُجرّدة. لبثتُ مغمورة بالمثاليّة وبجماليّات البورجوازيّين. خصوصاً عنادي الفُصامي إزاء السّعادة فقد جعلني عمياء في مُواجَهة الواقع السّياسي. لم تكن هذه القطيعَةُ جانباً من شخصيّتي: عانى جيلي بأكمله من ذلك تقريباً. من الصّادم غداة مُعاهدة مونيخ، أن ينقَسِم فريق صحيفة *الجمعة* -اليساريّين منهم فقط- بسبب الارتباك. ومثلما قال سارتر في كتاب مع *وقف التّنفيذ* جميعُنا نعيش حياة مُزيّفة مادّتُها السّلام. لا أحد يملكُ الأدوات اللازمة ليُمشّط عالماً ماضياً نحو التجمُّع الذي لن نفهم منه شيئاً إن لم نفهَمْهُ بالكامل. مع ذلك دفعتُ إلى أقصى درجة رفضي للتاريخ ومخاطره.

لكن، إذاً، ما الجيّدُ في التّجربة التي كنتُ أرويها؟ تبدو لي أحياناً مُبقّعَة بالجهل والسّوء حتّى إنّي لا أشعُر حيالها سوى بالأسف. زرتُ أومبريا Ombrie وسط إيطاليا، كانت لحظة فريدة لا تُنسى: في الواقع أنّ أومبريا من الأماكن التي غفلتُ عنها؛ تأمّلتُ لعبة الألوان ورويتُ لنفسي أسطورة؛ لم أرَ قسوة تلك الأرض والحياة البائسة للقرويّين الذين يعملون فيها. دون شكّ هناك حقيقة في ظاهر الأشياء: شرط أن نُدرِكَ أنّه ظاهر ولم يكن هذا الحالُ حالي. كنتُ مُتعطّشة للمعرفة واكتفيتُ بالخِدَع. كنتُ أحياناً أرتابُ في الأمر، لهذا السّبب أظنّني أهتمّ بحرارة النّقاشات التي تُفرّقُ بين پانييز وسارتر قبالة النّور السّاطع لغران-كورون Grand-Couronne (التاج الكبير). لكنّي صرفتُ النّظر.

غير أنّي وأنا أقوم بحصيلة هذه السّنوات، يبدو لي أنّها منحتني الكثير: كتباً كثيرة، لوحات، مُدُناً، عدداً من الوجوه، والأفكار والعواطف والأحاسيس! لم يكن ذلك مُزَيَّفاً برُمّته. إن كانت الزلّة حقيقة مُشوّهة، إن كانت الحقيقة لا تستقيم إلّا من خلال هذه الأشكال المنقوصة، نفهَمُ أنّه حتّى من خلال الأساطير فإنّ الحقيقة تنفَذ: كانت الثّقافة المنقوصة التي اكتسبتُها ضروريّة كي أتجاوزها. إن كنّا قد أسأنا وضع المواد التي خزّناها ليس الأحرى تكديسها. ما يضطرّني لأنظر إلى ضلالنا بتسامُح هو أنّ مفاهيمنا المتينة نفسَها لم تجعلنا نقفُ عند حدّ: ظلّ المُستقبل مفتوحاً والحقيقة مُؤجّلة.

في مُجمَل الأحوال، حتّى لو كنّا نتمتّعُ بجرأة أكبر فإنّ حياة كلٍّ منّا لم تكن لتختلف كثيراً لأنّ ما يهمّ لا يكمن في التّموقُع بدقّة بل في المُضيِّ إلى الأمام. بل إنّ الاضطراب في المسير هو الذي جعلني أهتدي إلى الهدف الذي رسمتُه لنفسي منذ زمن: تأليف الكُتب.

هكذا ارتبطت مشاغلي بعضُها ببعض. ولكي تكفيني حياة واحدة كان لابدّ أن أوليَ الأدب منزلته. خلال مُراهقتي وشبابي المُبكّر، كانت مُثابرتي صادقة لكن خاوية؛ اكتَفَيْتُ بالقول: «أريد أن أُصبحَ كاتبة» ينبغي الآن العثور على ما أريدُ كتابته وإلى أيّ مدى سأُوَفَّقُ في ذلك: يجب أن أكتُب؛ إنّها غاية. سيأخُذ منّي ذلك وقتاً كبيراً. كنتُ قد قطعتُ عهداً بأن أكتُب في حدود الثانية

والعشرين من العُمر كتاباً أروي فيه كلَّ شيء؛ أوّل رواياتي المنشورة *الضيفة*، كنتُ في الثّلاثين حين بدأتُه. في عائلتي وبين صديقاتي يجري همسٌ بأنّي فاكهة جافّة. تضايق أبي: «إن كان لديْها شيء ما في جوفِها فلتُخرِجْه.» كنتُ صبورة. أعرف أنّ استخراج كتاب من الذات ومن العدم مهما كانت قيمته، باستثناء حظّ خارق، فإنّه يتطلّبُ الكثير من الوقوع في الخطأ وخسارة الوقت. الكتابة مهنة، قلتُ لنفسي، يُمكن تعلّمُها بالممارسة. عشرُ سنوات هي فترة طويلة وفعلاً لقد حبّرتُ أوراقاً كثيرة. لا أظنّ أنّ ضعفَ تجربتي يكفي لتفسير فشل راسخ كهذا. قبل *الضيفة*، لم يسبق لي أن عِشتُ الإنهاك. هل عليَّ الإقرار في ذلك الوقت أنّي «صادفتُ موضوعاً»، فيما لم يكن لدَيَّ ما أقوله قبل ذلك؟ هناك أناس حولي بشكل دائم: ماذا يعني هذا *اللاشيء*؟ في أيّ ظروف، لماذا، كيف تنكشف الأشياء وتتماثلُ للقول؟

يظهر الأدب في حياة الإنسان حين يختَلُّ شيء ما؛ للكتابة - فسّر بلاشو ذلك جيّداً في تناقُض مع أيتري Aytré - الشّرط الأوّل هو أن يكفَّ الواقع عن المُضيّ «حسب مشيئته»، إذاً، هنا يمكننا رؤيتها ومنح الآخرين فرصة لرؤيتها. عند خروجي من سأم وعبوديّة شبابي المُبكّر، كنتُ مغمورة وطائشة وعمياء؛ كيف كنتُ سأعارض سعادتي وأهرب من رغباتي؟ ظلّت توصياتي للعمل خاوية حتّى اليوم الذي جثمتْ فوقَه بكلكلها وحيثُ وجدتُ في القلق نوعاً من الوحدة. لقد منحتني مُغامرة الثّلاثي السيّئة أكثر من مُجرّد موضوع رواية: لقد أعطتني فرصة تحليل الظّاهرة (كلُّ ما كتبتُه بعد ذلك أكّد أهمّية مبدأ التّراجع.)

أمّا الرّحلات والمناظر التي تعلّقتُ بها، فلم أتحدّث عنها كثيراً لأنّها جزء منّي. في البرتغال تساءلتُ حول مباهج السّياحة وأشيائها المُخجلة، توصّلتُ إلى أسرارها يوماً بيوم: راودتني رغبة شرحِها لنفسي. ثمّة فرق رهيب بين الفكرة التي كوّنتُها عن أمريكا وحقيقتها: حثّني هذا الفارق على سرد اكتشافاتي. وضعتْ أمامي الصّين كمّاً هائلاً من المشاكل ولوحَتْ لي بالذّنب: رددتُ الفعل مُحاولة إدراك ما يحدُث. لكن إيطاليا، إسبانيا، اليونان والمغرب وبلدان أخرى زرتُها دون أفكار مُسبَقَة، لم أكن أملكُ أسباباً تجعلني لا أقول شيئاً وأنا أغادرها، لم أكن أملك ما يُقال ولم أقل شيئاً.

رغم عجزي وفشلي لبثتُ دائماً مُقتنعة أنّي سأؤلّف كتباً تُنشَر؛ ستكون في الغالب روايات، فكّرتُ؛ في نظري، هذا الجنسُ الأدبي مُتفوّق على البقيّة، إلى درجة لاح لي معها أنّ سارتر يُهدر وقتَه بتحرير مقالات وقصص لمصلحة *المجلّة الجديدة N.R.F وأوروبا L'Europe*. أردتُ أن يُعجَبَ الناسُ بشغف بكتاباتي؛ إذاً، مثل جورج إيليو الذي اختلطت صورتُه في ذهني مع ماجي توليڤر، Maggie Tulliver[34]، أصبحتُ أنا نفسي شخصيّة خياليّة: ستكون لدَيَّ الضّرورة، الجمالُ والشفافيّة الرائعة. هذا التبدُّل هو الذي يستهدِفُه طموحي. كنتُ حسّاسة ولا أزال إزاء كلّ انعكاس على الزّجاج أو على سطح الماء؛ أتبَعُه ببصري طويلاً، يملؤني السّحر والفضول: أحلُم بأن أتضاعَف، أن أتحوّل إلى ظلّ ينفذ إلى القلوب ويسكُنُها. كان عميقاً أن يكون لهذا الشّبح ارتباط بالمرء لحماً ودماً: يُلائمني أن أكون نكِرَة. فقط، سنة 1938 كما قلتُ، أردتُ بقوّة أن أكون إنساناً معروفاً كي أتعرّف على أناسٍ جدد.

تغيَّر عالمي بشكل آخر؛ لكن قبل التطرُّق إلى ذلك أوَدُّ أن أسوق بعض الملاحظات. أعلم أنّ عدداً كبيراً من النُقّاد سيحتفلون وهم يقرؤون هذه السّيرة: سيقولون إنّها تكذب بشكل صارخ في كتابها *الجنس الثاني*؛ قالوا ذلك من قبلُ على *المُذكّرات*. ذاك أنّهم لم يفهَموا نصّي السّابق بل لعلّهم تكلّموا عنه دون أن يقرؤوه. هل كتبتُ يوماً أنّ النّساء رجال؟ هل زعمتُ يوماً أنّي لستُ امرأة؟ على العكس تماماً، كانت جهودي مُنصَبَّة بشكل خاصّ على التّعريف بوضع المرأة الذي هو وضعي. تلقّيتُ تعليماً للإناث؛ أنهيتُ تعليمي واستمرّت حياتي امرأة مُجتمع حيثُ الأجناسُ طوائف. كنتُ أتصرَّفُ انطلاقاً من المرأة التي ما انفكّت تسكُنني (ما يُميزُ أطروحتي عن الأطروحات التقليديّة، حسب رأيي، هو أنّ النّسويّة ليست جوهراً ولا هي طبيعة: إنّه وضعٌ خلَقَتْهُ الحضارات انطلاقاً من مُعطيَات نفسيّة). لأسباب تعرّضتُ لها في *الجنس الثاني* تشعُر النّساءُ أكثر من الرّجال بالحاجة إلى سماء فوق رؤوسهنّ؛ إنّهنّ مُتمرّدات بشأن قلب العالم رأساً على عقب أو تبنّيه بكامل الرّضا. هكذا ناسبني العيشُ بالقرب من رجل أُقدّر أنّه مُتفوّق عليَّ. إنّ طموحاتي وإن

34– ماجي توليڤر، Maggie Tulliver : شخصيّة روائيّة.

كانت عنيدة، فإنّها تظلُّ مُحتَشِمَة وإن كانت مُجرَيات أحداث العالم تهُمُّني فهي ليست من شؤوني. مع ذلك وكما رأينا، لم أكن أُعلِّقُ اهتماماً كبيراً على الأوضاع الواقِعيّة لحياتي: لا شيء يعوق تقدُّمي، ظننت. لا أنكر نسويّتي لكنّي لا أعترف بها: لا أخوض في تلك المسألة بيني وبين نفسي. إنّ لدَيَّ نفسَ الحريّات ونفسَ الالتزامات مثل الرّجال. إنّ اللّعنة التي تثقل كاهل المرأة: الارتباط، لستُ مَعنِيَّة بها. كسبُ الحياة ليس هدفاً بحدّ ذاته؛ من خلال هذه القناة فقط يُمكن تحقيق استقلال راسخ. إن كنتُ أذكُر قدومي إلى مرسيليا بفائض من العاطفة، فلأنّي أحسستُ من أعلى السُلَّم القُوّة التي أستمدّها من مهنتي ومن العراقيل التي أواجهها. أن يكتفي المرء مادّياً، يعني أن يُثبت أنّه فرد كامل؛ من هذا المُنطلَق أمكنني أن أرفض التطفّل الأخلاقي ومُشتقاته الخطيرة. من جهة أخرى، لا سارتر ولا أيّ من أصدقائي أبدى إزائي عقدة تفوّق. لم يبدُ لي إذاً، قط، أنّي ناقصة حظّ. أعلمُ اليوم كي أصف نفسي أنّه عليَّ القولُ لا: «أنا امرأة»؛ لكنّ نسويّتي لم تُشكّل بالنّسبة إليَّ ضيقاً أو ذريعة. على أيّ حال هي واحدة من مُعطَيات قصّتي، وليست تفسيراً لشيء ما.

ثمّة تفسيرات تفصيليّة أخرى أحترس منها. أحاولُ إبداء الوقائع على نحو مُتفَتّح قدر الإمكان، دون خيانة غموضها أو حصرها في خُلاصات مُزَيَّفة: إنّها منفتحة على التّأويل. غير أنّي أطعَنُ في اللّوائح التحليليّة النفسيّة السطحيّة التي تدّعي القدرة على حصرها؛ سيُقال بالتّأكيد إنّ سارتر كان بالنّسبة إليَّ تعويضاً عن الأب، وأولغا تعويضاً عن الطّفل: في عيون هؤلاء المذهبِيّين لا توجَد أبداً علاقات راشدة؛ إنّهم يجهلون الجدليّة التي من الطّفولة حتّى النّضج – انطلاقاً من الجذور التي لا أنكر أهمّيتها القُصوى – تحوّل العلاقات العاطفيّة. إنّها تلعَبُ دور المُحافظ، لكن بتجاوُزها وفي هذا التّجاوُز بالذات يكمن جوهَرُ الإحساس الجديد أي النّظرة الجديدة إلى العلاقات الناضجة. دون شكّ، يعود تعلُّقي بسارتر إلى طفولتي: لكن أيضاً إلى ما كان هو عليه. دون شكّ، كي أهتمّ بأولغا كان عليَّ أن أوجَد باستمرار وأن أكون مُستعِدَّة لرِفقَتها على الدّوام، أن لا تجد رغبتي في تكريس نفسي لإنسان آخر مُشبَعَة: إلّا أنّ شخصيّة أولغا هي التي رسّخت الواقع وفرادة صداقتنا. بعد أخذ هذا الاحتراز بعيْن الاعتبار، أومن اليوم بنظريّة «الأنا الأعلى»؛ ليس الأنا سوى شيء مُحتَمل

والمُخوّل ليقول إنّي أفهَم الصّورة الموجَزَة؛ بإمكان الآخر أن يكون له نظرة أكثر دقّة وصواباً. مرّة أخرى لا تُشكّل هذه الأطروحة تفسيراً. إن كنت بدأتها فلأنّني أعرف في جزء كبير أنّنا لا يُمكن التعرّف على أنفُسِنا بل روايتها.

telegram @soramnqraa

الجزء الثّاني

الضَّجر، حين ننكبُّ على تأليف كتاب يتطلّب نفساً طويلاً ومُرَكّباً بصرامة، هو أنّه قبل إنهائه فإنّنا نكُفُّ عن التّقاطُع معه: لا يستطيعُ الحاضرُ أن يجد نفسَه حيِّزاً في الكتاب. بدأت *الضّيفةُ* في أكتوبر 1938، أنهَيْتُه مع بداية صيف 1941؛ أثناء الطّريق، تفاعلت الشخصيّاتُ بعضها مع بعض وقادتني الفصول الأخيرة إلى مراجعة الأولى، أُضيئت كلّ مرحلة بضوء العمل إجمالاً؛ لكن هذه التّحويرات انساقت إلى مُتطلّبات الكتاب من الدّاخل: لم يعكِس تطوّري الشّخصي؛ لم أكن أستعيرُ من الأحداث اليوميّة سوى لمحات عرضيّة. لقد بُنِيَت الرّواية لتعبر عن ماضٍ كنتُ بصدد تجاوُزه: بالتّأكيد لأنّي صرتُ مختلفة. أمضيتُ أسابيع، أشهراً لم أكن خلالها قادرة على العمل؛ لكن ما إن اتّخذت مكاني أمام الورق حتّى بعثتُ الحياة في الماضي وفي عالم الأيّام الخوالي. على الأوراق المطبوعة لم أكن أجد أثر الأيّام التي أكتُبها: لا ألوان الصّباحات والمساءات ولا رعشة الخوف ولا الانتظار، لا شيء.

مع ذلك، فيما كنتُ أنتزعُها من العدم، انشطر الوقت، تحرّكت الأرض وتغيّرت. حتّى ذلك الحين لم يكن يشغلني سوى إثراء حياتي الشّخصيّة وتعلّم ترجمتها إلى كلمات؛ رُوَيداً تخلّيتُ عن ذاتِيَّتي، عن جسارة عشريني الموهومة؛ أدركتُ معنى أن يكون الآخر موجوداً؛ لكنّ علاقاتي مع الناس، واحداً واحداً، ما زالت تهمّني وكنتُ أروم السّعادة بمرارة. فجأة تداعى التّاريخ فوق رأسي وانفجرتُ: وجدتُ نفسي مُشتّتة في أركان الأرض الأربعة، مُرتبطة بكلّ دمي مع كلّ فرد ومع الجميع. اهتزّت كلّ الأفكار والقِيَم؛ فقدت السّعادةُ قيمتها. في سبتمبر من سنة 1939 دوّنتُ: «بالنّسبة إليَّ، السّعادة هي قبل كلّ شيء طريقتي

المُفضّلة لفهم العالم؛ لو تغيّر العالمُ إلى حد لا يعود معه قابلاً للفهم من خلال هذا الشّكل، فلن يعود للسّعادة أهمّية.» ومن جديد، في جانفي 1941، كتبتُ: «كم أنّ فكرتي عن السّعادة قاصِرة! لقد هيمنت عشر سنوات على حياتي، لكن أظنّ أنّي خرجتُ منها بالكامل.» في الحقيقة، لم أنجُ تماماً. لم أعتبر حياتي مشروعاً مُنغَلِقاً على نفسِه؛ كان عليَّ من جديد اكتشاف علاقات مع الكون الذي لم أعد أعرفُ وجهه.

هذا التحوُّل هو ما سأرويه.

الفصل 6

بداية صيف 1939. لم أكن قد أذعنتُ بعدُ لليأس. صوت عنيد يستمرّ في الوسوسة إليّ: «لن يحدُث لي هذا؛ ليس الحرب، ليس لي أنا.» لن يجرؤ هتلر على مُهاجمة بولونيا، سيتمّ توقيعُ المُعاهدة الثلاثيّة وسيُثنيه ذلك. ما زلت أستشرف مشاريع سلام. لم يحن الوقت بعد، كما عزمنا لنوكل لوكالة إينتوريست مُهمّة تعريفنا على الاتّحاد السوفيتي. لكن لو أنّ الأمور جرت على ما يُرام فيُمكننا التجوُّل في البرتغال. ليكن، قال سارتر: لكنّه أضاف أنّ الأمور لن تُسَوّى دون شكّ. جعلني مُتحفّزة؛ حَرِيٌّ بنا أن نُواجه الحقيقة؛ وإلّا فإنّها يوم تندلع لن أكون مُستعدّة لتحمّلها، سأنهار. لكن كيف يجهّز المرء نفسَه للفظاعة؟ قلتُ في نفسي؛ لا طائل من تدجين الشرّ؛ سأكون إذاً قد استنزفتُ طاقتي من أجل لا شيء؛ على أيّ حال يجبُ أن أرتجل أيّامي. وجمّدتُ خيالي عن طواعية.

دعتنا السيّدة لومار لقضاء بداية الصّيف في ڤيلا خوان-لي-پان. يوم 15 جويلية غادرتُ وحقيبتي على ظهري، وحدي إلى پروڤانسيا. كانت أجمل رحلة لي على القدميْن: جبل ڤينتو Ventoux، جبل لور Lure، الألپ السفليّة، كويراس، الألپ البحريّة. كان فرناند في نيس بصُحبَة ستيفا وخطر لهما مُرافقتي أيّاماً. لحقا بي في پوجي تينيي، مُزَوَّدَيْن بأحذية تسلّق رائعة. خلال اليوم الأوّل مشيْنا مُبتهِجين مدّة ثماني ساعات، عبر الهضاب الحمراء. في اليوم المُوالي سِرنا تسعَ ساعات عبر الجبل من غيوم إلى سانت إيتيان-دي-تيني. مساءً، نام مُرتَعِشاً بسبب الحُمّى. قمتُ بصعود طويل في اليوم التالي، ولدى عودتي مساءً، كان قد قرّر العودة إلى نيس. تابعتُ طريقي من دونه. تسلّقتُ قمم

سان–ڤيران على ارتفاع ثلاثة آلاف متر، كانت قمماً مهجورة حيثُ أخفتُ قطيعَ ظباء صخريّة. وبما أنّي أُحاذي الحدود الإيطاليّة فقد التقيتُ بجنود يؤدّون وظائفهم؛ في مناسَبَتَيْن تفحّص الضُبّاطُ أوراقي بريبة. كانت لارش التي وصلتُ إليها ذات مساء بعد مسير طويل مُحتَلَّة من قِبَل الفيلَق؛ كان من المُستحيل إيجاد سرير شاغر واحد؛ شاركتُ المُدبّرةَ حُجرَتها، امرأة عجوز نظيفة. لم أكن أفكّر في شيء عدا الحيوانات، الأزهار، الحجارة، الأفق، متعة أن تكون لي ساقان، معدة، رئتان، وأن أحطّم أرقامي القياسيّة.

التقَيتُ بسارتر وبوست في مرسيليا. كان بوست يتمتّع برُخصة آنذاك. كلاهُما يعتقد أنّ الحرب قائمة لا محالة؛ أصلاً، لقد تسلَّلَ الألمان إلى دانتزيغ؛ لم يكن هناك مجالٌ لا ليتراجَعَ هتلر عن مراميه ولا أن تخرق إنجلترا عهدَها مع بولونيا؛ ثمَّ إنّ سارتر لم يتمنَّ أن يتكرّر سيناريو مونيخ؛ لكنّه لم يكن سعيداً وهو يتصوَّرُ وقوع التّعبئة. تناولنا حساء السّمك في مارتيغ؛ كانت الشّمسُ تُغرِقُ المراكب المُلوَّنة والشّباك. جلسنا على حافّة الماء، على كُتَل صخريّة كبيرة وحادّة: لم تكن مُريحة، غير أنّ سارتر كان يُحبّ الشّقاء. قبالة السّماء الزّرقاء، حلمنا بصوت مُرتفع بلا اكتراث: هل يجدُر أن نعود من الجبهة عمياناً أم مكسوري الفكّ؟ ذات ظهيرة كنّا جالسين في شرفة مطعم Bruleur de Loups[35] بالميناء القديم عندما مرَّ پول نيزان حاملًا تحت ذراعه إوَزّة ضخمة من المطّاط: سيركبُ السّفينة إلى كورسيكا بصُحبة زوجَته وأطفاله؛ كان عليه اللّحاق بلورون كازانوڤا. احتسى معنا كأسا وقال لنا همساً وبنبرة انتصار إنّ المُعاهدة الثّلاثيّة في طريقها إلى الإتمام؛ كان يتكلّمُ بحبور هو المُتحفّظ على الدّوام: «ستركَعُ ألمانيا!»، قال لنا بحماس. كان يُشاركُ الآلهة أسرارها بما أنّه مُكَلَّف بالسّياسة الخارجيّة في جريدة *المساء*، وطمأننا كلامُه جدّاً. كنّا نرجو عُطلة سعيدة وآمنة، وغادَرَنا نيزان إلى الأبد متأبّطاً إوزّة المطّاط.

شيّد والدُ السيّد لومار ڤيلا «پويرتا–ديل–صول Puerta del Sol»[36] في فترة كان خلالها هذا الجزء من السّاحل مُقفراً؛ كانت محوطة بحديقة كبيرة

35– مطعم Bruleur de Loups: المعنى الحرفي للعبارة: محرَقَة الذّئاب.

36– پويرتا–ديل–صول Pueta del Sol: إحدى أكبر ساحات مدريد وأشهرها.

غُرسَت صنوبراً وتمتدُّ حتّى البحر على ضفاف شاطئ پروڤنسال. تناولنا الإفطار في الشّرفة ونحنُ نُشاهد راكبي الأمواج فوق المياه الزّرقاء وسط زئير مُحرّكات القوارب السّريعة: ذات صباح حضَرنا سباق تزلّج مُتعَرّج. كان سارتر يكتُب وكنتُ أقرأ: في تلك الفترة، لم أكن أُحسِن المزج بين العمل والاستجمام. عند مُنتصف النّهار نذهبُ إلى البحر وكان سارتر يُعلّمني السّباحة: نجحتُ في الحفاظ على جسدي فوق الماء، لكن أبداً في التقدّم أكثر من عشرة أمتار. بإمكان سارتر تخطّي الكيلومتر؛ فقط، حين يكون في عمق البحر، كان يتخيّلُ حبّاراً ضخماً سيخرُجُ من القاع ليُهلِكَه: كان يعود إلى الأرض فوراً. أحبّ العودة، حوالَيْ الثانية، إلى الڤيلا حيثُ كلّ النوافذ موصدة. كنّا نأكُل السّلطة، السّمك البارد، خلطة الزّيت والثّوم المَحلّية التي تجلب النّعاس. كان هناك أشخاص كثيرون على الغداء والعشاء؛ كان أطفال لومار يجلبون معهم أصدقاءهم وكان عددهم كبيراً. كان ماركو أيضاً في پويرتو دِل صول. أخفق مرّة أخرى في اختبار السّماع للالتحاق بالأوبرا، كان يعيش قصص حبّ أخرى، وتهديد الحرب يُرعِبُه. تعرّى رأسُه. سمِن. مال إلى البشاعة، كما أنّ مرارة خالَطت مزاجَه. تخيّل أنّ السيّدة لومار، أنا وسارتر نُحاكِمُه؛ كان يتجسّسُ على مُحادثاتنا: باغتناهُ ذات مرّة وراء الباب ومرّة تحت نافذة، كان في كلّ مرّة يعتذر مُطلِقاً ضحكة مُزَيَّفة. كانت هناك مُشاحنات بين أهل البيت وكُنّا كالعادة صبورين إزاء نزاعاتهم؛ تحدّثنا مع السيّدة لومار مُحاولين التوصّل إلى فرضيّات وكنّا نوزّع اللوم بالعدل. كان ماركو يجد لذّة كبيرة في بعثرة الأوراق وخلق الأذى للجميع. نقل إلى جاكلين لومار كلاماً مُزعِجاً يُفترَضُ أنّ سارتر قاله عنها: اشتكت وكانت مُصارعة رائعة! كانت لدى سارتر نوباتُ غضب حميدة؛ لكنّني نادراً ما رأيتُه يدخُل في سخط عنيف؛ لا يعود المرء يُحبّذ النّظر إليه حين يتبرّم وبكلمات قليلة كان يحسمُ المواجهة مع خصمه: بكى ماركو. كي يختم مُصالحتنا، أخذنا بصحبة السيّدة لومار إلى حانات شواذّ جنسيّين. ولأنّي لم أكن أعملُ فإنّ اليوم يبدو لي ذابلاً. كان أزرقُ السّماء وأزرقُ البحر يُحبطانني أحياناً؛ أنا أيضاً لديّ حدس أنّهما يُخفيان شيئاً ما؛ ليس حبّاراً بل سُمّاً. لم يكن ذلك الهدوء وتلك الشّمسُ سوى خدعة: فجأة سيتمزّق كلّ شيء. ذات صباح عرفنا من الجرائد أنّ معاهدة جمعت بين ألمانيا

والاتّحاد السوفيتي. يا للصاعقة! سيترك ستالين لهتلر حُرّية الهجوم على أوروبا؛ لقد ضاع السّلامُ نهائيّاً: اختنقنا أوّلاً بسبب جدّية الحدث. ثمّ ونحنُ نقلب ما يحصُل في الاتّحاد السوفيتي. كنّا نعتقد أنّه راعٍ للثّورات في العالم؛ فوراً منحت المُعاهدة الحقّ للتروتسكيّين، لكوليت أودري، لكلّ معارضي اليسار: أصبحت روسيا قوّة إمبرياليّة مُنغلقة على مصالحها الأنانيّة. إنّ ستالين لا يكترث بالبروليتاريا الأوروبّية. وسط هذه العتمة الموحشة التي تُخيّم على العالم، كنّا حتّى ذلك الوقت نرى في ذلك البلد شعاع أمل: لقد انطفأ. هبط اللّيل على اللّيل وعلى عظامنا.

أردتُ أنا وسارتر أن نمضي أيّاماً بمُفردنا وغادرنا خوان-لي-پان. لن تجدي العودة إلى باريس فوراً. تجوّلنا في الپيريني. تملّكتنا مرارة الفراق ونحنُ نُوَدِّعُ السيّدة لومار وحتّى ماركو: في أيّ ظرف سنلتقي؟ كان قطارُ خوان-كركاسون مليئاً بجنود تمّت دعوتهم من رخصهم وكانوا يهتفون بمطالبهم كمقاتلين قدامى: «نحنُ من سيُقتَلُ غداً»، قالوا. بدت لي أسوار كركاسون مُريعة لكنّي أحببتُ شوارع المدينة؛ احتسيْنا النّبيذ الأبيض في حانة ريفيّة مُقفرة، تحدّثنا عن الحرب، عمّا بعد الحرب، سعداء لأنّنا سنواجه السّوء معاً. ركبنا الحافلات، زُرنا المُدن، الكنائس ودير الرّهبان؛ كانت تُمطر في مون-لويس، ورأينا على الجُدران أول مناشير التّعبئة؛ قرّرنا العودة إلى باريس غير أنّنا أمضيْنا يوماً آخر في فوا Foix. دعوْنا أنفُسَنا على غداء جيّد في فندق برباكان - غلال البحر، كبد الإوز، جبن وفواكه مع نبيذ مَحَلّي - وأوضَح لي سارتر كيف أنّ بروني Brunet، في الجزء الثّالث من كتابه *دروب الحُرّية*، أبدى انزعاجَهُ من المُعاهدة السوفيتيّة الألمانيّة وكيف أنّه استقال من الحزب الشّيوعي؛ طلب مُساعدة ماتيو: عكس ما جاء في الجزء الأوّل، قال سارتر. ثمّ تنزّهنا على طول نهر ذي مياه بيضاء؛ قلنا إنّ ريفاً هادئاً كهذا، ومدينة صغيرة كهذه لن تصلهما الحرب، سنجدهما كما هما فيما بعد: منحنا ذلك ما نتعلّق به. قلنا إنّنا سننالُ نصيبنا من هذه الحرب.

مشينا ببرود مُحاولين إقناع أنفسنا أنّ هدوء حركاتنا وسكون الطّبيعة يعكسان قلوبنا. ستدوم هذه الخدعة وقتاً وجيزاً. أخذنا قطار تولوز على السّاعة

19 و30 دقيقة، من حيثُ سنستقلُّ السّريع نحوَ باريس؛ لكنّه كان مُزدَحِماً؛ لبثنا ساعَتَيْن ونصف السّاعة في محطّة ضاجّة بالمُسافرين، مُظلمة لا تومضُ فيها سوى بعض المصابيح البنفسجيّة الخافتة. حشد مُقلق، إنّه يُنبئ بكارثة: لا يُمكنني تجاهُلُها، إنّها تسري في نُخاعي. وصل قطارٌ سريع ثانٍ، أسرع الحشدُ نحوهُ في تهافُت: تعجّلنا علّنا نحصُل على ركن، كان علينا أن نقاتل.

كان كلّ شيء مُقفَلاً في باريس، مطاعم، مسارح، محال، لأنّه شهر أوت. لم يكن أحد من أصدقائنا قد عاد: كانت أولغا في بوزڤيل وبوست في ثكنة بآميانو، پانييز في الرّيف مع عائلة زوجته، أختي في لاغريار مع والِدَيَّ ونيزان في كورسيكا؛ وددنا التحدّث إليه؛ لم نكن نتخيّل أنّ معلوماته خاطئة. كان في جريدة *المساء* أناسٌ مُهمّون يكرهونه؛ لكن في ظلّ ظروف خطيرة كهذه تضمحلُّ العداوات. كيف تصرّف؟ لم يكن نيزان، لا في حياته النّضاليّة أو الخاصّة من أولئك الذين «يبتلعون الثّعبان»؛ إنّ الشيوعيّة تعني بالنّسبة إليه شيئاً يتعارض مع المُعاهدة. فكّرنا طويلاً في شأنه. بصورة عامّة، شغلنا مصير الشّيوعيّين: تمّ إيقاف بعض المناضلين في صفوفه؛ مُنِعَت صحيفة *الإنسانيّة* و*المساء*.

كان وضعاً متناقضاً وسيّئاً، أخيراً، كان الشّيوعيّون الفرنسيّون سبّاقين لمناهضة الفاشيّة. أشياء عديدة أخرى ضايقتنا، في الصّحف وفي الأحاديث التي نسمَعُها في شُرفات المقاهي. لقد أدانت الصّحافة - مُحقّة - تحرّكات «طابور خامس»؛ إنّه دون شكّ يُمثّل خطراً حقيقيّاً. لكن يُرَجّحُ أن يُستَخدَم الخبر ذريعة لاندفاع موجة جوسسة أسوأ من تلك التي جرت بين 14-18. ضايقنا مزيج العناد والضّعف والجُبن والتّفاهة والارتباك المُخيّم على الأجواء.

مضت السّاعات بطيئة؛ لم يكن لدَيْنا ما نفعَلُه ولم نفعل شيئاً، عدا التجوّل في الشّوارع العمياء وترصّد كلّ ما يُنشَرُ في الصّحف. مساءً، نذهب إلى السّينما لمُشاهدة أفلام أمريكيّة جديدة؛ شاهدنا تُحفَة فورد Ford، *الغارة العجيبة* الذي أحيا بأسلوب حديث، كلّ ما نُحبُّه في أفلام الويسترن. كانت استراحة قصيرة؛ نخرج من الصّالة فنجد أنفُسنا في شارع شان-إيليزيه، نُسرع لاقتناء آخر عدد من *المساء*. كنّا نتساءل كلَّ ليلة قبل النّوم: «ماذا سيكون الغد؟» وسيستيقظُ قلقنا

معنا. لِمَ كان علينا الوصول إلى هذا الوضع؟ بدأ خطّ حياتنا يرتسم بعد ثلاثين سنة، وها هم يُصادرونها: هل ستُعادُ إلينا؟ مُقابل أيّ خسارة؟ لم تكن ظهيرة فوا الهادئة سوى هدنة: كنّا مُتعلّقين بأشياء كثيرة حتّى نستسلم بهذه السّرعة. كان كلٌّ منّا يحتفظ لنفسِه بثورته وقلقه، لكن لا أحد منّا كان مخدوعاً إزاء طمأنينة الآخر. أذكُر نوبات غضب سارتر، خلال خدمته العسكريّة، فظاعة الانضباط العابث والوقت الضّائع؛ اليوم لا ينساقُ إلى الغضب، ولا حتّى للمرارة، لكنّي أعرفُ أنّه لو كان في وسعِه القيام بشيء، فإنّ ذلك سيُكلّفه أكثر من غيره: لقد دفع باهظاً ثمن خضوعه لإكراهات *«سنّ العقل»*؛ قَبِلَ دون تذمّر اللحاق بالجيش: لكن في أعماقه، كان مُتوتّرا حدّ التمزُّق. لم نعد نشُكّ في حتميّة وقوع الحرب. زعم مراسِلو الصّحف الفرنسيّة ببرلين أنّ هتلر الذي وقَّعَ المُعاهدة يوم الجُمُعة ينوي اجتياح بولونيا يوم السّبت الخامسة صباحاً: أخفق وهذا ما يُفسّر لماذا دعا هندرسون إلى برستزغادن. ربّما عزم على التّفاوُض مع الحكومة البولونيّة بواسطة من إيطاليا. لم يثق سارتر بهذا الضّجيج. في المُقابل كان كغيره مُقتنعاً أنّ الحرب لن تدوم طويلاً وأنّ الغلبة ستكون لمصلحة الديمُقراطيّين. كرّرت الصّحافةُ كلام شاشت Shacht[37]: «قد تنتهي الحربُ بقصاصات خبز، لكنّها لا تبدأ بها.» ألمانيا يعوزُها التّموين. الحديد والبنزين: أي كلّ شيء. لم يكن الشّعب راغباً في الإبادة. لن تُقاوِمَ ألمانيا؛ سينهارُ الرّايخ. من هذه النّاحية، للحرب معنى. التقينا بفرناند في الدّوم وسمعنا مُتعاطفين شيوعيّين يقولون في مقهى فلور: إن سمِحَ الاتّحاد السوفيتي لألمانيا ببدء الحرب، قالوا، فإنّها ترمي إلى ثورة عالميّة. بدت لنا هذه القراءة للمُعاهدة طوباويّة. على الأقلّ كنّا نظنّ أنّ محوَ الفاشيّة من الوجود سيُطوّر الاشتراكيّة في فرنسا وفي كامل أوروبا. لهذا لم يعاند سارتر كثيرا حيال مصيره؛ كان يقوم بتطويع مبادئه ليُجبر نفسه على الإذعان. التقيتُ بميرلوپونتي أواخر شهر أوت وعرضتُ عليه وجهة نظرنا: عموماً، الحربُ حلّ مقبول لإيقاف بعض الدّناءة هنا وهناك. سألني بنوع من التهكّم، لماذا قبلتُ بها هذه السّنة في حين أنّي عبّرتُ عن تخوّفي الشّديد منها

37– شاشت Shacht: بنكيّ ورجل اقتصاد ألماني تولّى وزارة الاقتصاد خلال فترة حُكم الرايخ الثالث.

السّنة الماضية. ما جعلَهُ يبتسم، أظنّ، هي النار التي دافعتُ عنها ضدّ الآراء الباردة الرّائجة؛ لكن – كما في حالات عديدة – تراجُعي في موقفي يُشبه تراجُع الجميع تقريباً. فُرِضَت الحربُ تدريجياً طيلة الاثنيْ عشر شهراً الماضية على كلّ الذين، حتّى مُعاهدة مونيخ، يعتقدون أنّهم قادرون على رفضِها. شخصيّاً، السّبب الرّئيس في رضوخي هو إدراكي أنّها واقعة لا محالة ولكي أحافظ على السّلام في قلبي كان عليَّ مُحاولة التغلّب على نفسي بدَلَ مُغالطتها. حاولتُ قدر مُستطاعي – حتّى 11 ماي 1940 – العملُ بهذا المبدأ الديكارتي. ثمّ إنّي أكثر هدوءاً ممّا أزعُم: كنتُ ببساطة خائفة. لستُ خائفة على حياتي؛ لم أفكّر لحظة في الهروب من باريس. كنتُ خائفة على سارتر. سيظلّ في المؤخّرة مع بعض المُعسكرات الجوّية، طمأنني؛ خشيَ الملل أكثر من خشيته للخطر: صدّقتُ نصفَ كلامه فحسب. وخَشِيَ كلانا على مصير بوست: جنود المُشاة من الدّرجة الثّانية، إنّهم هم لحمُ المدافِع؛ ولم يكن إلّا في الواحدة والعشرين. قال أناسٌ إنّ هذه الحرب ستكون مُختلفة عن بقيّة الحروب؛ ربّما. وددنا لو كان في وُسعِنا تخمين ما سيحدُث وما الذي ستؤول إليه الأمور. ما دُمنا معاً نتحدّث، فإنّ الفضول ونوعاً من الحُمّى سينتصران بالتّأكيد على أحزان الفراق المُحدِقَة بنا.

ثمّ ذات صباح، حدث الأمر. أمسكتُ جريدة وأنا في أقصى حالات الوحدة والقلق. بدا لي أكثر واقِعيّة من القصّة التي قد أُحَصّلُها منها. ها هو إذاً. اكتفيتُ باقتضاب التّفاصيل العديمة الجدوى، وجهات نظر خاصّة، وهذر.

1 سبتمبر

العاشرة صباحاً. عرضت الصحيفَة مطالب هتلر؛ لا تعليق؛ لم تظهر طبيعة الأخبار المُقلقة، لم يجرِ الحديث عن الأمل أيضاً. ذهبتُ بها إلى الدّوم مُرتبِكَة، متشكّكَة. أناسٌ قليلون. بالكاد طلبتُ قهوة، هتف نادل: «لقد أعلنوا الحرب على بولونيا.» أحد الزّبائن كان في حوزَتِه *باريس–منتصف النّهار Paris Midi*. تدافَعوا نحوَه، وأيضاً نحوَ كُشك الجرائد؛ لم تصل ڽاري–ميدي بعد. نهضتُ، صعدتُ إلى الفندق. النّاسُ في الشّوارِع لا يعرفون شيئاً حتّى تلك اللّحظة،

كانوا مُبتَسمين كحالِهم قبل دقائق. كان هناك في شارع مين Maine أشخاص يحملون صحيفة پاري-ميدي؛ وكان الناسُ يوقفونهم لقراءة العناوين. وجدتُ سارتر ورافقتُه إلى پاسي حيثُ كان عليه رؤية والِدَته وانتظَرتُه في محطّة الميترو. كانت پاسي خالية، ما من مُترجّل واحد في الشّوارع، لكن كان على الرّصيف طابور سيّارات مُلئت بالحقائب والأطفال؛ كان هناك أيضاً درّاجات ثلاثيّة. لم أفكّر في شيء. كنتُ غافلة. عاد سارتر. لقد فُرِضَت التّعبئة. أعلنت الصُّحُف أنّها ستدخُل حيّز التّنفيذ بدءاً من الغد؛ منحنا ذلك القليل من الوقت. مررنا بالفندق لأخذ المزمار، والأحذية من القبو. خشِيَ سارتر من الوصول متأخّراً إلى مركز التجمُّع وذهبنا في تاكسي إلى ساحة هيبيرت Hébert: ساحة صغيرة بمُحاذاة باب الكنيسة لاشاپيل. كانت خالية. كان هناك عمود أُلصِقَت عليه لافتة: «مركز التجمُّع 4»، وتحت اللافتة عسكَريّان. أُلصِقَت مناشير على الجدران: نداء مُوَسَّع لمُتساكني باريس، مُكوّن بالأزرق والأبيض والأحمر وبخطّ ضئيل أمر بالتّعبئة بدءاً من 2 سبتمبر على السّاعة صفر. اقترب سارتر من العسكَريّين وأراهُما دفتره: كان عليه الرّحيل إلى نانسي. «تعالَ على السّاعة صفر، إن أردتَ قال العسكري. لا يُمكننا تخصيص قطار لك وحدَك.» مَشيْنا إلى مقهى الفلور. كانت صونيا مُذهلة، بمنديلها الأحمر على شعرها. أمّا أنيا سكاپري فكانت ترتدي قُبّعَة أنيقة ذات شريط أبيض؛ امرأة ذات ملامِحَ قاسية تبكي. «الأمر جادّ هذه المرّة»، قال أحد الشّباب. لكنّ الناس ظلّوا مُبتَسمين. لم أكن أُفكّر في شيء حتّى ذلك الوقت لكنّ رأسي يُؤلمني. كان ثمّة قمرٌ مُضيء جذّاب في سماء سان-جرمان-دي-پري، بدا الحيُّ ككنيسة بالرّيف. وفي العُمق خيَّم رعبٌ غامض: لا يُمكن توقُّعُ أيّ شيء، ولا تخيُّل شيء أو الإمساك به.

كنتُ خائفة من اللّيل رغم إحساسي بالتّعب. لم أنَمْ بسبب ضوء القمر في الغرفة. فجأة صرخة كبيرة؛ هرعتُ إلى النافذة: امرأة صرخت؛ تجمُّع خطى على الرّصيف، مصباحٌ كهربائي. نِمتُ.

2 سبتمبر

رنّ الجرس عند الثّالثة. نزلنا على الأقدام إلى الدّوم؛ كان الطّقس لطيفاً

جدّاً. وكانت الروتوندا والدّوم ضعيفي الإضاءة. الدّوم صاخب؛ العديد من المحامِل حاملي الزيّ العسكري؛ مومسان أحاطتا بضابِطيْن ودندنتا بشكل آلي رتيب؛ لم يهتمّ بهما الضّابطان. في الدّاخل صيحات وضحك. مضينا في تاكسي إلى ساحة هيبيرت عبر ليلٍ مُقفر ولطيف؛ كانت السّاحةُ خالية تحت ضوء القمر، لكنّ العسكَريّين كانا هناك كما لو أنهما رواية لكافكا: بدت مُبادرة سارتر حُرّة ومجانيّة مع حتميّة صارمة متأتّية من داخله. استقبله العسكَريّان بودّ وبلامبالاة: «انتقل إلى محطّة الشّرق،» قالا، كما لو كانا يتوجّهان بالخطاب إلى مهووس. سلكنا القناطر الحديديّة، فوق السّكك؛ احمَرّت السّماء، كان ذلك خلّاباً. المحطّة فارغة؛ ثمّة قطار ينطلِقُ السّاعة 6 و24 دقيقة لكنّنا قرّرنا أنّ الرّحلة ستكون في قطار الـ 7 و50 دقيقة. جلسنا في شرفة. أكّد لي سارتر أنّه لن يتعرّض للخطر في مجال الرّصد الجوّي. واصلنا حديثنا رغم السّلاسل التي تفصِلُنا، ثمّ انطلق القطار. عدتُ إلى مونبارناس على القَدَميْن، ذات صباح خريفي جميل؛ كانت رائحة الجزر والكرنب تفوح في شارع سيباستوپول...

عندما خرجتُ من السّينما على السّاعة الخامسة، كان الهواءُ ثقيلاً؛ صمتٌ رهيب خيّمَ على الشّوارع. لمّحت صحيفة (المُتشدّد L'Intransigeant) لمُفاوضات دبلوماسية: قاومت بولونيا، ولاقى الرايخ الخِزي؛ أمل جديد لاح، لا فرح من ورائه، أشدّ وطأة من الفتور. في شارع الأوبرا كان النّاس مُصطفّين في طابور طويل للحصول على أقنعة مُضادّة للغاز. ألصقتْ مكتبة تشونتز، بشارع مونبارناس لافتة كُتِبَ عليها بخطّ اليد: «إلى العائلة الفرنسيّة. على الأبناء المُجنّدين سنة 1941 فما فوق الالتحاق في اليوم التّاسع.»

صعدتُ إلى غرفة فرناند. استقبلني بسحنة حزينة: «ليز إن كان قلبُكِ يحتمل! انتهى اهرنبورغ!» لم يعد اهرنبورغ يأكُل أو ينامُ بسبب المعاهدة السوفيتيّة الألمانيّة: سيُفكّر في الانتحار! هذا مؤلم. خرجنا للعشاء بشارع مونبارناس كان الظّلامُ في الخارج حالكاً؛ ميّزنا اللافتة الكبيرة «ملجأ» على الحائط المُقابل، فتيات يُحببن الأرصفة وبعض الأضواء الزّرقاء. لم يكن المطعَم المُتخصّص في الشّطائر مُموّناً كفاية، ينقُصُه الخُبز والدّقيق المسحوق. أكلتُ قليلاً. أغلقت المقاهي عند الحادية عشرة ذاك المساء ولم

تفتح الملاهي. لا أتحمّل فكرة العَودَة إلى غرفتي؛ سأنام عند فرناند. فرشتُ ملاءة على الكنبة. كنتُ بطيئة النُّعاس لكنّي نمت.

3 سبتمبر

استيقظتُ مع تمام الثّامنة والنّصف، كانت تُمطر. أوّل فكرة راودتني: «صحيح!» لم أكن بالتّحديد حزينة أو بائسة، لم يُخالِجني شجن مُعَيّن: العالم في الخارج هو الذي كان مُريعاً. شغلوا الراديو، لم يتمّ الردّ على مُقترحات فرنسا وإنجلترا، الحرب قائمة في بولونيا. هذا غريب: بعد هذا اليوم، سيأتي يوم آخر وآخر أفظع من هذا لأنّ الحرب قائمة. ما يمنعني من البكاء هو شُعوري بأنّ هناك دموعاً ستُسكَب فيما بعد.

قرأتُ مُذكّرات جيد Gide. الوقتُ يمُرُّ ببطء. الحادية عشرة: خُطوة أخيرة في برلين؛ ستُعرف الإجابة اليوم بالذّات؛ لا أمل؛ لا أتخيّل فرحتي لو قيل لي مثلا: «لن تقع الحرب»، قد لا أسمعُ ذلك.

مُكالمة من جيجي؛ ذهبتُ إلى بيتها على القَدَمَيْن؛ تقلّصَت كلّ المسافات: توجّب عليَّ المشي مسافة كيلومتر، عشر دقائق من الانشغال. كان لرقباء المدينة خوذات زرقاء جديدة مُذهلة وأقنعة مُرعبة؛ كان هناك مدنيّون يرتدونها أيضاً. عدد كبير من محطّات المِترو مُسيّجة بالسلاسل ولوحات تُشير إلى المحطّات القريبة. بدت أضواء السيّارات الزّرقاء أحجاراً كريمة ضخمة. تناولتُ الغداء في الدّوم مع پاردو (زوج جيجي الثاني. ألغت زواجَها بالرّجل الأوّل)، جيجي وإنجليزي ذو عينَيْن زرقاوَيْن جدّاً. راهن پاردو ضدّ جيجي وضدّي على أنّ الحرب لن تقع؛ أيّده الإنجليزي؛ رغم أنّ الشّائعات تقول إنّ إنجلترا قد أعلنت الحرب.

روت لنا جيجي رحلة عودتها من ليموج إلى باريس؛ طابورٌ لا نهاية له من سيّارات التاكسي والسيّارات المُحمّلة بالأمتعة والحشايا؛ سيّارات قليلة في اتّجاه باريس: رجالٌ وحيدون، أناسٌ تمَّ نداؤهم. غطّى بعضُ الرّجال نوافذ الدّوم بستائر زرقاء خشنة. فجأة *باريس المسائيّة*، الثالثة والنّصف: «أعلنت إنجلترا الحرب الحادية عشرة؛ ستُعلنُها فرنسا على السّاعة الخامسة بعد الظّهر.» هزّة عنيفة رغمَ كلّ شيء.

خصومة في ساحة مونبارناس. امرأة نعتت أحدهم بالأجنبي، ضربها؛ احتجَّ عدد من النّاس؛ أمسك شرطي بالرّجل الطويل الشّعر؛ احتجَّ الحشد من جديد؛ بدا الشّرطي حائراً فشتّتَ الناس؛ إجمالاً بدا أنّهم يُوبّخون العدائيّة ضدَّ «الأجنبي».

مساءً، جلستُ مع جيجي في الفلور؛ يقول النّاس إنّهم لا يُصدّقون إمكانيّة وقوع الحرب، لكنّ أفواههم كانت مُكَمَّمَة بالحُزن. أحد مُوظّفي هاشيت Hachette[38] قال إنّ الشاحنات قد صودِرَت وأنّ مكتبات محطّة المِترو وجدت نفسها على الرّصيف. اتّجهنا نحوَ شارع رين Rennes. جميلة هي أضواء السيّارات الزّرقاء والبنفسجيّة في العتمة المُطبقَة. لمحتُ پونز جُنديّاً والهنغاري. أقفر المقهى عند الحادية عشرة. تجمّع الناس حلقات على الرّصيف، لا أحد يرغَبُ في العودة إلى بيته. ذهبتُ إلى بيت جيجي. أعطاني پرادو قرصاً ونمتُ.

4 سبتمبر

اتّصلتُ هاتفيّاً بمعهَد مولبير من مكتب البريد؛ على المارّة الاستظهار بأوراق الهويّة لإجراء مُكالمة. من الصّعب العثور على تاكسي؛ علينا مُراقبة نزول النّاس، أوقفتُ واحدة في محطّة مونبارناس. أخذت المديرة بنفسها قياسَ وجهي وأعطتني قناعاً مُضاداً للغازات وفسّرت لي طريقة استخدامه. غادرتُ مع عُلبتي. وجدتُ جيجي في محطّة سان-لازار وعدتُ في المِترو، كان هناك طابور هائل، تجاوز المِترو محطّات عديدة، كان غريباً. نزلتُ إلى سولفيرينو وذهبتُ إلى الفلور لكتابة الرّسائل. قدِم پرادو وصديقُه من عند هاشيت. روى پرادو قصّة «متطوّعي الموت!»؛ إنّه ابتكار پيركارت، مُطلقِ مقولة «قِفوا أيّها الموتى!»: نادى في الكُسحان والمرضى الذين لن يخسروا شيئاً إن فقدوا حياتَهم كي يُهدوا أنفسهم لأوطانِهم. قرأ علينا رسالة من پيركارت: «عمري اثنان وثلاثون، ذراع واحدة، عينٌ واحدة، ظننتُ أنّ حياتي لا معني لها لكنّكم

38- هاشيت Hachette: إحدى أعرق دور النشر الفرنسية. أسّسها لويس هاشيت سنة 1826.

علّقتموني بالحياة عندما بعَثتُم في داخلي كلمة: الخدمة.» طلب كاتب الرّسالة أيضاً أن تُستَخدَم أنصافُ الشّياطين. مع ذلك أعلن صاحبُ مقهى الفلور أنّه سيُغلق غداً: هذا مُؤسف، كان مَربَطاً صغيراً رائعاً. من المُضحك رؤية النّاس في زيّ عسكري: بروتون في بدلة عسكَريّة؛ في الدّوم ماني كاتز في بذلة حربيّة كأنّه آت من الماضي.

جلسَ الهنغاري قبالتي وقال مُتلعثِماً إنّه سيلتحق بالجيش. سألتُه لماذا وأجاب بحركة لا توحي بشيء. طيّار نصفُ سكران نصف مجنون سأله: «اسمَح لي سيّدي أن أدعُوَك على كأس.» شربا وناقشا مسائل مُتعلّقة بالجحافل الأجنبيّة؛ لم يشأ الهنغاري التورُّط مع شبكات الإجرام وتحدّث الطيّارُ عن مناورات جوّية؛ لم يكن مُصدّقاً لقصص الغاز بل مُنحازاً لفكرة القصف بالهواء السّائل المضغوط؛ نصح بالاحتماء في الملاجئ. تحدّث الجميعُ عن إنذار ليلي؛ لم تكن باريس مُظلمة كما هو شأنُها الآن. سأنام في بيت پرادو. ليلاً، دخلتْ جيجي إلى غرفتي: صفّارات الإنذار. هرعنا إلى النافذة. سارع النّاس إلى المخابئ تحت سماء جميلة مُرَصّعة بالنّجوم. نزلنا إلى مسكن البوّابة، كانت المرأة قد ارتدت قناعَها وصعدنا، إنّه إنذار زائف. الرابعة؛ نمتُ حتّى السّابعة: أيقظني الرّنين. خرج النّاسُ من المخابئ؛ امرأتان في ثياب النّوم تضعان ملابس حول رأسَيْهما بدَل القناع دون شكّ. أحدهم مرّ على درّاجة يرتدي قناعَه صارِخاً: «آه! أيّها البقر!»

5 سبتمبر

أعلنت الصّحيفة أنّ «الالتحام بات وشيكاً على الجبهة». كم كان هذا نظيفاً ومُؤدّباً! حزم پرادو وجيجي حقائبهما. جاءت فتاة مُساعدة ليأخُذَاها معهما؛ كانت مُشوَّشَة الشّعر. زعمت أنّ النّساء لا يضعن المِكياج، كان ذلك صحيحاً إلى حدّ ما. روت أنّ حادثاً جدّ على سكّة حديد أوبري Aubrais: 120 قتيلاً، وعدد من السيّارات المقلوبة وسط الطّريق.

رسالة من سارتر بعث بها من نانسي، 2 سبتمبر مساءً. في الدّوم مرَّ كسلينغ في زيّ عسكري؛ لوّحتْ له فرناند باري – زوجة فوجيتا – «إذاً، نضعُ هذا

ثانية، صغيري المسكين!» كان تابوي Tabouis لا يزال مُتفائلاً في صحيفة *العمل*: لن تَقَع الحرب، مرسوم يخُصُّ الألمان المُقيمين في فرنسا: سنرسلُهم إلى مُعسكَرات الاعتقال.

علّقَت مغازات أونيپري Uniprix: «منازل فرنسيّة. إدارة فرنسيّة. رؤوس أموال فرنسيّة.»

أغلق مقهى فلور. جلستُ في شرفة دوماغو Deux Magots وقرأتُ مُذكّرات جيد لسنة 1914. وجوهٌ شبهُ معروفة في أيّامنا. إلى جانِبي أنياس كاپري، صونيا وصديقتها السّمراء. كُنّ مُتعجّلات لمُغادرة باريس. كانت كاپري تعتزم الرّحيل إلى نيويورك. كان الجميعُ يتحدّث عن إنذار البارحة الزّائف. يُقال إنّ الطّائرات الألمانيّة حلّقت في حدودنا لتستطلع الأجواء. كلّ هذا كان بالكاد مُهمّاً، بالكاد مُستغرَباً. لم نكن نشعُر أنّها الحربُ حقّاً؛ إنّنا في حالة انتظار: ننتظر ماذا؟ فظاعة الحرب الأولى؟ بدا الأمر مزحة، الناس بأقنعتهم، مسحة الجدّية، المقاهي المذعورة. المُراسلون لا يقولون شيئاً: «تجري العمليّاتُ العسكَريّة بشكل طبيعي.» هل ثمّة قتلى؟ كانت الأيّامُ تمضي إلى الكآبة منذ الصّباح حتّى المساء؛ ببطء، ببطء شديد. كانت ساحة سان-جيرمان-دي-پري ميّتة تحت الشّمس، رجال يُكدّسون أكياساً رمليّة؛ رجلٌ يعزف على الناي؛ بائع مُتجوّل يبيعُ الفول السّوداني.

تناولتُ العشاء مع الهنغاري في شرفة بشارع مونبارناس؛ احتسيتُ الكثير من النّبيذ الأحمر ثمّ الأكاڤيت Akavit بحانة الڤايكينغز التي باتت تُشبهُ المدفن. فسَّر لي أنّهُ مُضطَرٌّ ليلتحق بالجيش لأنّ عودتَه إلى هنغاريا مُستحيلة وحصوله على وضع نظامي في فرنسا غيرُ وارد. روى لي أسراراً حول حياتِه الجنسيّة وأخيراً أحسستُ معه بالملل. عدتُ إلى غُرفَتي. كانت الفتياتُ يجبن الجادات مُرتديات أقنعتَهُنّ.

استفقتُ على دويّ انفجارات. خرجتُ إلى السُلّم: «إنّها رشّاشات»، صرخ أحدهم. أُطلقتْ صفّارة الإنذار قبل ساعة. لبستُ ونزلت؛ لا يُسمَعُ شيء وعدتُ إلى النّوم.

6 سبتمبر

قرأتُ الجرائد في مقهى الفرسان الثّلاثة. *ماريان* خالية من الكلمات المُتقاطعة: كلّ الألعاب من هذا النّوع ممنوعة خشية إقحام الرّسائل المُشَفَّرَة في اللّغة. فجأة نزل السّتار المعدني وخرج النّاس: صفّارات إنذار. ظلّ النّاسُ في الطّرقات حلقات هادئة جدّاً.

عدتُ إلى الفندق: واصلت المُدَبِّرة غسل الأواني وقرأتُ من مُذكّرات جيد في غُرفتي، ثمّ بعد انتهاء الإنذار قصدتُ الدّوم. حسب پاري-ميدي ليست هناك معارك حقيقيّة على جبهتنا. قال فرناند إنّ هذه الحرب حرب ارتدادِ طرْف، شبيهة بأيّ حرب خاطفة أخرى لكنّ الفرق هو أنّها فارغة من المُحتَوى. هل سيدوم هذا طويلاً؟

7 سبتمبر

ما زلتُ متعلّقةً بمفترق مونبارناس: شرفاته، مقاهيه نصف الخالية، ملامِح مُوّظّفة الهاتف بالدّوم؛ أشعُر أنّي في عائلتي وهذا يحميني ضدَّ السّأم. قرأتُ جيد وأنا أحتسي قهوة وشخصٌ ذو عَيْنَيْن جاحظتين أراهُ في الدّوم باستمرار قال لي: «ها إنّ أحدهم يقرأ أندريه جيد! هكذا يُمكن التّصديق أنّ الحُمقَ المُطبَق لا وُجود له!» روى لي أنّ زوجَة بروتون قد قامت بفضيحة في شرفة الدّوم صارخة برأس عار: «هذا الجنرال العاهر غاملان Gamelin!» إنّه يُدعى أمادوپ وهو يعرف السّيراليّين من بعيد.

رسالة ثانية من سارتر ما زالت تتسكَّعُ في نانسي. اقتنيتُ ماري-كلير Marie-Claire؛ لم تُلفَظ كلمة حرب مرّة واحدة مع ذلك كان العَدَدُ ملائماً للوضع. في دورة مياه الدّوم، مومس تقوم بمكياجها؛ شرحتْ بغرابة: لا أضعُ «الماسكارا» بسبب الغاز.»

8 سبتمبر

التقيتُ بفرناند في مطعم بشارع ڤاڤان واحتسى معي القهوة. بالأمس رأى

إيرنبرغ ومالرو. كان مالرو يُحاول مُساعدة الأجانب الذين كانوا يُجنّدونهم في ليجيون بالقُوّة؛ تشكّل جيشٌ سلوفاكي؛ 150000 يهودي من أمريكا اقترحوا تشكيل فرقة بحريّة، لكن يبدو أنّ أمريكا ستُرسِّخُ مُعاهدة الحياد ولن يُسمَحَ لهم بالمجيء. أعلنت الصُّحُف «تحسين مواقعنا»، وتحدّثت عن «معارك عنيفة بين الرين Rhin وموزيل Moselle». تحدّث فرناند عن السيطرة على بعض الحصون في سيغفريد Segfried. مررتُ بالفندق حيثُ حدّثتني خادمة الغُرَف عن شاب أنهى للتوّ الخدمة العسكريّة مثل بوست وبأنّه الآن على الخطّ الدفاعي. خِفتُ على بوست. وكنتُ رغم كلّ شيء خائفة على سارتر.

ثمانية أيّام من المُقاومة، لماذا؟ كما لو أنّي أنتظر مُعجِزة، لكن ثمانية أيّام لم تجعلني أتقدّمُ خطوة واحدة؛ هذا ما يجبُ التّفكيرُ فيه. لا أستطيع.

لم أدرِ من أيِّ الجوانب يُمكن الإمساكُ بالحرب، لا شيء ملآن كما قال ليونيل حول المرض: تهديد أبدي. كنتُ أحياناً أتّخذ من وضع الخوف نوبة يجبُ أن أمرّ بها وأختصرها؛ وأحياناً تبدو لي آونة حقيقيّة وأنّ ما عداها هرب. لا أحسّ بشيء وأنا أرى الأماكن حيثُ عشتُ أوقاتاً سعيدة؛ كنتُ سأشعُر بشيء ما لو أنّها القطيعة. عند القطيعة على المرء التخلّي عن العالم الذي لا يزالُ مُتعلّقاً بنا من كلّ ناحية. تمزقٌ مُروّع. لكن ها إنّ العالم مُدمَّر إلى الأبد، ولم يعد هناك سوى وجود خطير. الحزنُ ممنوع وحتّى التمزّق ممنوع. لابدّ من أمل على الأقل.

في ساحة إيدغار كيني. كان الناس يرفعون رؤوسهم ليَمُرّوا في السّماء الرماديّة-الورديّة شرائح لحم رماديّة. جلستُ في الدّوم لأكتب هذا الدّفتر. في الوقت الحاضر، في المقاهي، ينبغي على المرء خلاص استهلاكه حينما تتسنّى المُغادرة في حالة الإنذار.

لدى عودتي إلى غرفتي عند منتصف اللّيل، وجدتُ كلمة: «أنا هنا، أنا في الـ 20 عُمقَ الممر. أولغا.» طرقت على الـ 20 فأجابني صوت أجشّ لرجل؛ ثمّ باستخدام شمعتي (ليس ثمّة كهرباء في الفندق منذ يَومَيْن)، جبتُ الرّواق وأنا أسمَعُ الضّجيج؛ خرجت ذاتُ الشّعر الأحمر من غُرفَتِها ورمقتني بريبة. أخيراً، طرقتُ على الغرفة 17 حيث وجدتُ أولغا غافية.

9 سبتمبر

قالت لي أولغا إنّ بوست في أمان حالِيّاً. حمَل لي البريد رسالة من سارتر بدت لي مُطَمئِنَة. غادرني الخوف، إنّها راحة جسديّة. عندئذ عاودتني بعضُ الذّكريات وتطلّعتُ قليلاً إلى المُستقبل.

ذهبتُ مع أولغا إلى الدّوم. كانت هناك فتاتان مِثلِيَّتان إلى جانبنا وتشاجرت إحداهُما مع شاب: «لا أحدِّثُ الأولاد»، قالت؛ وقال الشابُّ ذو الشّارِبَيْن بنبرة تهديد: «لكنّ الأولاد يملكون آذاناً يسمعون بها ويُمكنهم تكرار ما يسمعون وزنزانة ڤانسان ليست بعيدة.» روت لي أولغا كيف أنّ الحرب حوّلت بوزڤيل: اللاجئات الأنيقات اللاتي يتسكّعنَ في الطّرقات، الموكب اللانهائي للقطارات المليئة بخيول تصهَل وجنود صامتين. بعضُ الزّنوج فقط يُغنّون؛ ثمّة أيضاً قطارات للاجئين: الحمقى، قالت، إنّهم يستحوذون على حليب الأطفال المُرَكَّز. مرَّ فرناند. قال إنّ الأحوال سيِّئة في بولونيا: سيُستَولى على ڤارسوڤيا. أقمتُ في شقّة جيجي الشّاغرة.

10 سبتمبر

مررتُ صباحاً بجدّتي؛ وجدتُها في مُشاحنة مع امرأة طيّبة تُريد إقناعَها بالرّحيل: «نحنُ نُجلي الأطفال وكبار السنّ قبل الجميع»، قالت. وضعتْ جدّتي يدها على بطنِها المُكوّر وبنبرة خبيثة وعنيدة قالت: «لكنّي لستُ طِفلَة.» وصلتها رسالة من أمّي: في سان-جرمان-لي-بيل تمّ إيقاف جاسوس أراد، كما زعموا قلب قطار باريس-تولوز

وجدتُ رسالة من سارتر وإشعاراً برقيّاً من بيانكا دون شكّ؛ لكنّي للحصول على البرقيّة كان عليَّ الاستظهار بالإشعار لدى المخفر الأمر الذي يتطلّبُ شهادة إقامة؛ ثمّ بالإمكان سحب البرقيّة من مركز البريد.

عند الحادية عشرة كنتُ في فراشي بصدد قراءة *الأمّ* لبيرل بوك، كتاب سَمِج، وسمِعتُ في الشّارع جلبة: «أضواء! أضواء!» حاولتُ فهم الحكاية لكنّ الصّراخ عاد: «أطلق عليهم رصاص المُسدّس من النّوافذ إن كنتم تريدون التجسّس فاذهبوا إلى مكان آخر!» وقرّرتُ إطفاء النّور.

ليلاً، عند الرّابعة، جدَّ إنذارٌ قصير. نزلنا إلى الملجأ؛ ألواح على الأرض، وكراس؛ بعض النّزلاء جاؤوا بكراسيِّهم القابلة للطَّيّ. قالت البوّابة إنّ الكراسي على ملك السّادة في الشّقق المُقابلة وأنّنا لا نستطيعُ استخدامها. صعدنا بذريعة جلب مقاعد وتحدّثنا حتّى آخر الإنذار.

في المطعم روى جُندي وهو يصرُخُ بقوّة أنّ جُندِيَّيْن في الثّكنة قد انتحرا شنقاً كي لا يُغادرا، أحدهُما لا يُريد ترك عياله الأربعة.

11 سبتمبر

انطباعٌ بأنّي أعيشُ رفاهيّة كبيرة؛ لم يعد للوقت قيمة. هرعتُ لجلب المُراسلات من بيانكا؛ طلبت منّي المجيء إلى كيمبي Quimper، وذهبتُ. كتبتُ رسائل. استعدتُ الرّغبة في العمل، لكن كان عليَّ الانتظار. في الدّوم كان الشاب ذو الشّاربَيْن يروي ذكرياته خلال الحرب الأخرى: «كان الجُندِيُّ الألمانيُّ الأوّل خاصَّتي ضخماً إلى درجة أنّهم حين عبّؤوه في النقّالة فاضت جُثَّته عليها وكان عليهم الإمساك بساقَيْه. كنتُ مُثاراً إلى درجة أنّي حين جُرحتُ لم يتخثّر دمي.»

اشترينا المسحوق الأزرق الذي كانت أولغا تُذيبُه في الماء والزّيت وحتّى العنبر الشّمسي الخاصَّ بجيجي لتدهن الزّجاج فيما كنتُ مُنهَمِكَة في وضع الأسطوانات وكتابة كمّ هائل من الرّسائل. عند التّاسعة، خرجنا. النّوافذُ زرقاء على نحو رائع؛ ذهبنا إلى الدّوم عبر ظُلُمات مُذهلة، تعثّرنا على الرّصيف.

جلسنا إلى طاولة فرناند؛ كان هناك يوناني وسيمٌ جدّاً، إسبان، شاعرة سرياليّة، شحمُ خنزير بجلد وعَيْنَيْن وأسنان جميلة. كانت مُضطربة لشدّة الغضب لأنّ أحد الأصدقاء قدّمها لشَخصَيْن لا نعرفهُما ثمّ سألها عن أخبار زوجها (الذي هو ليس زوجَها، أكّدتْ)، أجابت بغموض وقال أحدُ الشّخصَيْن: «السيّدَة تحمِلُ مبادئ لا تُعجِبُني.» بدا أنّها عواملُ استفزاز. روت قصّتها عشرين مرّة وبدت مرعوبة. عدد كبير من هؤلاء الأجانب كانوا مُطارَدين وقريباً سيرحَلون. فكّر فرناند في دعوَتِنا جميعاً لاحتساء كأس في بَيْتِه لكنّه خشِيَ الضّجيج والفضيحة.

12 سبتمبر

لا تمرُّ صحيفة سيتا Sita إلّا عند العاشرة؛ تمثال من الجبس يرقُد وسط الشّارع. نفسُ الأخبار دائماً: تقدُّم طفيف على مُستوى جبهتنا، مُقاومة في ڤارسوڤيا. رسالة من سارتر أقلقتني: لم يكن مع الطّيران بل مع المِدفَعيّة؛ لم يستَقبِل منّي شيئاً. خِفتُ من جديد؛ كلُّ شيء مسموم ورهيب. لم تتغيّر أخبار الحرب. البولونيّون يُقاومون؛ المطر يُعطّل تقدّم الألمان. تضييق صارم في ألمانيا ويجري الحديث عن انزعاج كبير. على الجبهة الفرنسيّة ليس هناك سوى تحرُّكات قليلة؛ تكدّس المؤن تَحَسُّباً لأحداث قادمة. عموماً، لم تبدأ الحربُ بالنّسبة إلينا. سنُحاربُ حين تُقصَفُ باريس، عندها سيكون للوقائع وجه آخر. لا يُمكن الآن التّصديق أنّ شيئاً ما سيحدُث لنا، وهذا ما يُفسّر الوضع المُحايد والمُضحك الذي نعيشُه. ستُفتَحُ قاعات السّينما، الحانات، الملاهي حتّى الحادية عشرة ليلاً. كلّ شيء سيعود إلى طبيعته.

قطعتُ اللكسومبورغ، هادئاً كالموت؛ الحوضُ فارغ. كلّ شيء جاثمٌ؛ أكياس رمل حول المجلس الاستشاري. حواجزُ من كراس هشّة تعزِلُ المنطقة القريبة من اللكسومبورغ الصّغير؛ كان هناك عساكرُ يحفرون الأرض؛ وكان هناك أكوامٌ من الأغصان المقطوعة. أتساءلُ ماذا يفعَلون هنا.

الأمسية في السّينما. في فراشي قرأتُ من *صورة امرأة* لهنري جيمس.

15 سبتمبر

صنعنا صناديق كتبٍ وتبغٍ لبوست. قابلنا لوڤيلان (طالب قديم في رووا من الحركة الفرنسيّة Action Française)، وكان يرتدي زيّ ضابط خيّالة مائع، ضارباً بسوطِه على جزمته الجميلة وهو يُحدّثنا. ضابط مثالي، وعلى سارتر وبوست أن يُطيعا شخصاً كهذا، هذا مُضحك حقّاً. كان هناك طابور على البريد؛ من بين المُصطَفّين مُدبّرة المنزل القديم الذي أقام فيه ماركو، كانت تتشاجر مع رجل؛ تتحوّلُ خصومة صغيرة إلى نقاش وطني هذه الأيّام والمُصالِحون المُتطوِّعون يعون جيّداً دورَهم في تجسيد الوِحدَة المُقَدَّرة.

شاهدنا *بيضاء الثّلج* إنّه مُمِلٌّ للغاية.

16 سبتمبر

رسالة من سارتر؛ هو الآن في قرية هادئة بالألزاس، يعمل.

ساعدتُ أولغا على حزم حقائبها، رافقتُها إلى محطّة مونبارناس ورحتُ لأستقلّ القطار في محطّة الشّرق. غرقتُ في الحرب ثانية، وحيدة مُجدَّداً، قطعة من إنسانيّة بائسة. مقهى إيزبلي يعصر القلب كآبة حيثُ كنتُ بانتظار قطار كريسي Crécy: أنا في الخارج وقت الغسق، الناسُ يتحدّثون في الخارج فيما كنتُ في الشّرفة قريباً من النافذة المُضاءة. يجري الحديث عن امرأة تلقّت برقيّة: «مات الزّوجُ في ساحة الشّرف» وتصاعَد الغضب قليلاً؛ في العادة، يأتي رئيس البلديّة ويعلن: «اسمَعي سيّدتي المسكينة، زوجُك جريح وهو في حالة خطيرة»؛ هذا أقلّ بروداً من برقيّة. يُقال إنّ رئيس بلديّة لا أدري أيّ حفرة لديه خمسة عشر برقيّة من هذا النّوع وأنّه لا يجرُؤ على إيصالِها. تحدّثوا عن مرور سعاة البريد، عن قلق النّساء اللاتي ينتظرنهم واللاتي كُنّ يتفقّدن البريد دون توقّف. تساءلوا: «15000 ألمانيّ قُتلوا، كم من الفرنسيّين؟» كانوا يحتسون البورتو والبيرنو وصاح رجلٌ ساخط: «يُمنَع الحِداد وإلّا وضعوك في مُعسكر اعتقال!» تُجيب النّساء أنّ الحداد لا يعني شيئاً. حلَّ اللّيل ومرّت السيّارات. قالت امرأة: «والذين نُحبُّهم ولا نستطيعُ أخذهم...» مرّت القطارات، مليئة بجنود صامتين. كنتُ في شرفة مقهى آخر حيثُ لا يجري الحديثُ إلّا عن جنود الحرب. الحربُ في كلّ مكان، هنا ومن جديد في أعماقي.

عزمتُ أن أكون في كريسي بعد ساعة؛ لكنّ شبكة القطارات مُشوَّشة. وصلتُ على السّاعة السّابعة إلى إيزبلي بعد أن حلُمتُ كثيراً بالبوّابة: أُحسُّ أنّي خارج العالم وصمّمتُ دون فزع القُدرَة على إلغاء ذاتي تماماً. مع ذلك أذكُر أنّها كانت السّعادة. قيل لي في إيزبلي إنّ عليَّ الانتظار ساعة؛ طُردتُ من مقهَيَيْن وفي الثالث ها أنا أكتُب هذا، أحبُّ هذا التوقّف وهذه اللّيلة وسط ضجيج القطارات. لم تكن استراحة؛ هذا هو الصّحيح: أن يكون المرء دون بيت، دون صديق دون هدف، دون أفق، ألم ضئيل في قلب ليلة مأساويّة.

أخذتُ قطاراً صغيراً أسودَ اللّون، ذا سقف داكن وزّعتْ فيه مصابيح زرقاء لا تُضيء شيئاً. ولبثتُ عند البوّابة.

كان القطارُ يلقي عند المُنحَدَرات نوراً مُربَّعاً. في المحطّات الصّغيرة، كان مُوظّف ينادي باسم المحطّة ويُلوِّحُ بمصابيحه. عند خروجي من الرّصيف وجدتُ دولان، متلفّعاً بشال، أخذني بين ذراعَيْه وركبتُ عربَتَه القديمة؛ رافقنا كلبٌ مُزعِج. لم يكن للسيّارة الأضواء النظاميّة وقَطَع دولان كريسي بسحنة متآمر؛ لم يكن الطّقسُ بارداً، دفّأ الغطاءُ الصوفي رُكبَنا وكان وقعُ خطوات الحصان جميلاً في اللّيل؛ لم نكن نرى شيئاً البتّة.

عند مدخَلِ القرية، طلب منّا رجالٌ أوراقَنا. كرّر دولان بنبرته المأساويّة: «هذا رهيب، رهيب!» كان مُشمَئِزّاً من الأشخاص في الخلف خصوصاً من جيرودو وفريق المُراقبين والقنّاصة، ومن جوفي الذي جعل منه جيرودو مهووساً بالسّينما والذي كان يحملُ نظّارتَيْن بعين واحدة. وبما أنّ لديه أفلاماً عديدة شرعَ فيها فقد هتف: «الأحرى أن نكمِل الأفلام التي بدأناها ثمّ لنُشَجِّع الإنتاج السّينمائي.» قال جوفي أيضاً: يجب أن تكون في الراديو أشياء ترفعُ المعنويّات؛ أشياء مرحة، يسهُل فهمُها:

«*حذاء الساتان* لكلوديل، *جان دارك* لبيغي Peguy. لا مؤلّفين أجانب.» تداول باتي طويلاً مع دولان، خططا لجولة في أمريكا ولدى المُحايدين، لكنّ أمريكا لا تُعجِبُ دولان، ثمّ رأى أنّ الأسر سيكون مُجرَّد رحلة اغتياب؛ فضّل محاولة تجريب المسرح المُتجوّل في فرنسا، لكن بدا أنّ المسألة صعبة التحقّق.

دخلنا مدينة فيرول Ferrolles، وها هو شبحٌ داكن، يُضيئه مصباحٌ أزرق، إنّها كامي. رافقتنا وكان صُحبَتَها جُندِيّان يسخران من العربة القديمة. كان هناك جنود في كلّ مكان، منزل السيّدة ج... -أمّ كامي- هو مصحّة تمريض في الآن نفسه؛ كان لها غرفة؛ وحتّى الحمّام كانت تتقاسَمُه مع رقيب في الجيش. في زوايا الطّرقات، كانت هناك كتابات: «المقسَم س X، المقسَم y».

نقل دولان الحصان الضّخم إلى الإسطبل وربطَه حريصاً على ألّا يحجبَه عن النّور؛ تُؤخَذُ احتياطات كبيرة هنا مثلما هو الشّأن في باريس. ثمّ دخلنا قاعة الأكل، حيثُ حدجتنا السيّدة ج بنظرة قاسية، مُستعدّة لإلقاء اللّوم على دولان.

مع ذلك قبّلتني على الخدَّيْن. كانت مُخيفة قليلاً، شعر أحمر، رمادي من الأسفل، عينان جاحظتان، الفم مُتهدّل. الوجهُ منتفخ والصّوت حاسم وقويّ. حول الطّاولة، تشاجرت مع دولان باحتدام من أجل قرص صوصيصون. غير أنّها كانت تدعوه لولو وقبّلته قبل أن تخلُد إلى النّوم. ظلّت كامي معي وحدنا، روت لي أنّ أمّها كانت مُدمنة على الإيثير وكانت تُفجّرُ فضائح في القرية. أصبح الوضعُ مأساويّاً خصوصاً عندما أصيب الأب بالتهاب الدّماغ وراحت تُعالِجُه مخمورة، تسقُط أرضاً فوق القِطَع المعدَنيّة. نُقل الأب أخيراً إلى مصحّة في لانيي حيثُ واكبت كامي احتضارَه مُدّة ثمانية أيّام. أعارتني مدخل مسرحيّتها ومشهدها الأوّل حول أميرة الأورسان؛ قرأتُها في فراشي.

نمتُ ولم أستيقظ قبل الحادية عشرة صباحاً.

17 سبتمبر

حزنُ اليقظة. نور رائع اختَرَق نافذتي المُغلّفة بالأخضر وأحسستُ بأسى رهيب. لكن قديماً، كان أفظع ما في أحزاني هو الاندهاشُ الذي تُسبّبُه لي ثورتي السّاخطة على أمر غامض لا أتبيّنُه. الآن، أقبل هذا بهدوء، مع انطباع بأنّي أعيشُ حالة حميميّة.

قالت لي كامي كلمات من خلف الباب؛ سيذهبون لابتياع المُؤن. رتّبتُ هندامي واعتنيتُ بوجهي ونزلتُ. أُحبُّ هذا البيت. لقد جمّلوا غرفة القُرصان. كان هناك صندوق عتيق مُذهل، وغطاء فراش أحمر محفوف بسُفُن جميلة. حملتْ لي ماريبت القهوة إلى الحديقة على طاولة خشبيّة صغيرة: زهور، شمس. من المطبخِ وصلتني أصواتُ الأواني وغليان الماء: بدا كلُّ شيء سابحاً في البهجة! أنهيتُ قراءة مسرحيّة كامي وكتبتُ رسائل. جنود قبالة الحديقة؛ جنود في كلّ مكان؛ لقد تحوّلت القرية.

عاد دولان بصحبة كامي، رصّفنا المُؤن وأفطرنا في الشّرفة؛ إفطارٌ شهي يرافقه نبيذ رائع. كانت علاقات دولان والسيّدة ج جيّدة. جاءت قريبة شابّة مُشوَّهَة قليلاً، قبّلتْ دولان وسلّمت على الحلقَة وأخبرت بأنّ الروس قد دخلوا بولونيا؛ إنّهم يزعُمون أنّ هذا لا يُلغي حيادَها إزاء الأمم الأخرى؛

واضحٌ أنّهم وقعوا اتّفاقاً مع اليابان وتركيا. قد يعني هذا حرباً ستدوم ثلاث سنوات، خمس سنوات، حرباً طويلة. لم أفكّر بعد في حرب طويلة الأمد. يتحدّثُ دولان عن الحرب الأخرى؛ شارك بها وأمضى ثلاث سنوات بين الخنادق دون أن يُصاب بجرح؛ أكّد على الألم الجسدي والصّقيع. وصف بفنّ مصير المُشاة: غاز، قاذفات لهب، قصف، هجوم الأشخاص المُسلّحين بالخناجر والقنابل اليدويّة. بدا مُعجَباً بما يروي وغضبتُ من ذلك، هذا ما تُسمّيه سيلين «الرّوح البطوليّة والخاملة» لبعض القادة.

نزهة مع كامبي وسط الحقول تحت سماء غائمة جميلة جدّاً؛ مروج بطاطا؛ قرى هادئة ذات أسطُح حمراء: عناقيد مشمش جاف تتدلّى على واجهات البيوت. توقّفنا على قارعة الطّريق بمُحاذاة محطّة صغيرة واحتَسيْنا عصير اللّيمون في شرفة أحد الفنادق. جُندِيّان كانا يحرُسان السِكّة؛ المُلتحي رسّامٌ من كريسي؛ فيما كان الآخر يحمِلُ في يده عصا رقيب المدينة. سيّارات تمرُّ مليئة بالضُبّاط من وقت إلى آخر. قطعنا حقولاً وقرى. كانت أوقاتاً مُثيرة وتذكّرتُ ما قاله سارتر عن أفينيون، الأمر الذي بدا لي صحيحاً للغاية، أي أنّ في وسعنا الاستمتاع بعذوبة كبيرة في الوقت الحالي مشحونة بالتّهديدات؛ لم أنسَ شيئاً من الحرب، الفراق، الموت، المُستقبل الغامض، مع ذلك لا شيء قد يمحو رقّة نور الطّبيعة؛ كما لو كنّا مغمورين بمعان تكفي بحدّ ذاتها، لا تدخُل تاريخَ أيّ شيء، مُنتزَعَة من قصّتها، غير مُبالين بالكامل.

استمعنا إلى الرّاديو لدى عودتنا. الأخبار مُتقلّبة. كانت هناك مُحاولة لطمس خطر التدخّل الروسي. لبثنا مشدوهين وقتاً طويلاً أمام هذا الأفق المشحون المُبهَم. على العشاء تحمّسَ دولان وروى حكايات مُسلّيَة عن جيد وغيّون Ghéon.

18 سبتمبر

نزلتُ عند الحادية عشرة، جلستُ بجوار المدفأة. ملأ دولان صفحات كتابة بشكل دؤوب: أعتقد أنّه كان يعمَلُ على مشاريعِه. قرأتُ الجزء الأوّل من هنري الرّابع لشكسبير التي كنتُ بدأتُها بالإنجليزيّة ولم أُنهها قطّ. ظهرت

أمامي كاميي عند مُنتصَف النّهار دون أن يفطُن إلى وجودها أحد؛ كنّا نستمع إلى مقطوعة لكوپران Couperin، ثمّ الأخبار: ليلة هادئة على مُجمَل الجبهة، لكن بولونيا مُحاصَرَة بين نارَيْن ومُدَمَّرة.

في الخارج، أصوات الجنود العالية؛ كلّ أمر، كلّ صافرة لها رنين كئيب. رافَقَتني كاميي إلى كريسي، تاركة الكلب دون قَيْد، إنّها شابّة ورشيقة. ركبتُ القطار: إنّها الخامسة. تستغرق الرّحلة ساعَتَيْن ونصف الساعة للوصول إلى باريس، إضافة إلى نصف ساعة من الانتظار في إيزبلي. قطارات طويلة مَرّت، فارغة، في اتّجاه الشّرق؛ قطارٌ آخر مليء بالجنود والمدافع: هناك بعيداً، ثمّة أناسٌ آخرون، يستحيل تخيُّل الوضع. محطّة الشّرق سوداء تماماً، مُظلمة أروقة المِترو بأضوائه الزّرقاء الخافتة. غرفتي جنائزيّة بسبب هذه الإضاءة. أقرأ متأخّرة في اللّيل. غداً أذهبُ إلى كاميي.

19 سبتمبر

انتظرتُ كوليت أودري عند شرفة الدّوم. الطّقسُ جميل. أنا مسرورة بتغيير الهواء، بهذا اليوم الخريفي المشرق، بالرّسائل التي تلقّيتُها مساءَ أمس. إنّها السّعادَةُ تقريباً: سعادَةٌ لا مُستقبل لها لكن كم أحبُّ الحياة رغم كلّ شيء.

جاءت كوليت أودري على درّاجة هوائيّة رائعة؛ اشترت هذه الدرّاجة عندما أُعلنَت الحرب، دفعت مُقابِلَها 900 فرنك وهي كلُّ مُدَّخراتها. ذهبتْ إلى سين-إي-واز، ثمّ عادت. تزوّجت ميندير وأختُها الآن مُهتمَّة بزواجها من الجنرال. يبدو أنّ هناك أشياء عديدة يُمكن التمتّع بها بفضل حماية مُهمّة، الحصول على ترخيص لرؤية الزّوج مثلاً: لكن، كيف يحصُل المرء على حماية؟ حدّثتني عن كاتيا لاندو، التي اختُطِفَ زوجُها، ولم يرهُ أحدٌ مُجدَّداً ولأنّها ألمانيّة يهوديّة فقدت صوابها. رأينا رابو خمس دقائق؛ زعم أنّ معنويّات الجنود مُخزِيَة، وأنّهم لا يتحدّثون سوى عن فقء عينٍ حتّى لا يتحوّلوا إلى خطّ المعركة. قال لي ألفريد أخو فرناند بصوت خفيض إنّ فرناند قد أُلقِيَ عليه القبض.

صعِدتُ إلى تسيفا. وجدتُها تبكي؛ بالأمس جاء أشخاصٌ يبحثون عن فرناند، ولم نرهُ مُجدَّدا. قدِمَ بيليجي حزيناً للغاية: أمضيتُ اللّيلة مع فرناند.

بالأمس وهما خارجان من الرّوتوند طلبوا أوراق هويّته؛ كان يحمِلُ ترخيص مُواطِنٍ نمساوي، أُخِذَ ذات مرّة إلى مُعَسكر اعتقال في كولومب Coulombes[39]، أُعطِيَ ورقة تسمَحُ له بالعودة إلى باريس. مع ذلك أخذهُ الشّرطي إلى المخفر ومزّق المُحافظ رخصَتَه بسُعار. ثمَّ نقلوه إلى مركز الولاية حيثُ وجدَ فرناند وسطَ نزرٍ من الإسبان. أُلقِيَ إليهم بقطعة خبز وكبّلوهم في ما يُشبِه القبو المليء بالفحم. تمَّ إيقاف جميع الإسبان حتّى التُجّار المقيمين في فرنسا منذ أشهُر. صباحاً، أُطلِقَ سراحُ بيليجي، لكن كان على المِسكين العودة إلى كولومب وجهّزت له ستيفا الطّعام في وعاء. فيما ظلّ فرناند رهينة لديهم؛ طلبت ستيفا مُساعدة جارتها، مومس جذّابة وشابّة تربطُها علاقة بنائب عن الحزب الاشتراكي. نصحَت ألفريد بالاتّصال بكوليت أودري (كانت تعرف ستيفا وفرناند جيّداً) القادرة دون شكّ على القيام بشيء ما.

تناولتُ غدائي في محلّ الفطائر «البروتونيّة» مع ستيفا؛ كانت خائفة على أمّها العالقة في لوُوْ Lwow؛ هدأتْ قليلاً.

في الدّوم، وجدتُ راوول الذي كنتُ على موعد معه؛ كان مُحتكماً على حِساب الاحتمالات: يُقدّر أنّ حظوظاً كبيرة لإمكانيّة موته في الحرب التي لم يُرسَل إليها بعد؛ كنابا أيضاً، قال لي. حدّثني عن البروباغندا الألمانيّة في فرسا: كي يزرع جنود خطّ سيغريد لافتات في الأرض: «لا نريدُ الشرّ للفرنسيّين؛ لن نُبادِرَ بإطلاق النّار.» قامت أمٌّ ألمانيّة بخطبة في الرّاديو توجَّهت بها إلى الأمّهات الفرنسيّات: إنّه خطأ بريطانيا، ليس جميلاً أن يموت الشّبان الفرنسيّون من أجلها. حدّثني أيضاً عن مقال لماسي Massy: فلسفة ألمانيا هي فلسفة الصّيرورة، هذا ما يُفسّرُ تجاوُزَ الألمان لوعودهم وعدم الوفاء بها. وعن مقال آخر: «الجُندي الألماني ليس ذكيّاً.» فسّر لي أنّ خمسة ملايين رجل أو واحداً هو الأمر ذاتُه لأنّ أحداً لن يُفكّر من أجل المجموعة.

استَقللتُ قطاري: قطارٌ هائل؛ على الشّرفة في الهواء الطّلقِ التي تفتَحُ على شارع مين Maine؛ الصّادم، ليس فقط عدد المُسافرين بل أكداسُ الحقائب المشحونة. كانت الإضاءة ضعيفة ولا تسمَحُ بالقراءة. استسلمتُ للنُّعاس.

39- كولومب Coulombes: مُقاطَعَة فرنسيّة.

فكّرتُ في حياتي التي بدت لي مرضيَّة بشكل عميق. فكّرتُ في السّعادة؛ بالنّسبة إليَّ هي طريقتي الأثيرة للإمساك بالعالم؛ لو تغيّر العالم على نحو لا يعود معه قابلاً للفهم بهذه الطّريقة فإنّ السّعادة تفقِد قيمتها. في جناحي ثمّة سبع نساء طيّبات ورجل؛ الرّجلُ بصحبة امرأتين حملا معهما أمتعة محشُوَّة بأواني الفضّة؛ طفلة مريضة تهذي بحكايات حول الجوسسة وتُشير إلى أيّ ضوء يتألّق. جو ارتباك؛ يُعتَقَدُ أنّ القطار يعجُّ فوق سطحِه وفي أحشائه بمتآمرين مُسَلَّحين بالقنابل. نترصَّد الإشارات: «رأيتُ وميضاً»، قال أحدُهم؛ قال الآخر مُرتعشاً: «أشتمُّ رائحة.» «سمعتُ صوتاً»، قال ثالث. الصّوتُ هو اصطفاق أغلفة الكراسي: ظنّ جيراني أنّ هناك انفجارات. كان للقطار محطّات مُفاجئة رهيبة. ميكانيكيّون مُسنّون تمّت دعوَتهم للعمل هم من يقودونه، الآن، في إحدى مناسبات التوقّف امرأة تجد نفسَها في حالة سيّئة، كانت ترتجف خوفاً، جعلوها تشرب الشّاي بكمّيات كبيرة. كان الجميعُ يتوقَّعُ عمليّة تحويل لوجهة القطار. أحدُهم سقطت على رأسِه حقيبة. أُغمِيَ عليه وحملوه في نقّالة. ليلة طويلة وهادئة دون ضجر؛ طلع الفجر ببطء، تعرّفتُ من جديد على الهدوء البروتاني، الأجراس والقباب الرماديّة.

20 سبتمبر

انتظرتني بيانكا على الرّصيف. رافقتني إلى فندُقي، نزل سان كورنتان، الذي كان فيما مضى أنيقاً جدّاً حيثُ حجزتُ غرفة مُقابل 12 فرنكاً. كانت صغيرة، هذا صحيح؛ كانت تُشبِهُ غرف فُندُق لوپتي-موتون؛ أنا الزّيتونة الوحيدة مع ضابط؛ تُغلِقُ العجوز البروتونيّة بابها على أيّ ساعة وكان من المُمكن الدّخول من الخلف، بعد عبور ما يُشبه مخزن فحم ذا رائحة كريهة جدّاً. لكنّ الفندق جميل وأنا سعيدة بأنّي هنا. يوم سلام ونسيان. الطّقسُ رائع؛ من خلال نباتات شوكيّة ومُستنقَعات، اتّجهنا نحوَ أوديت Odet؛ هناك ضيعات خلّابة، رماديّة مكسوَّة بالورود البيضاء، لكن في الدّاخل حمقى ذوو عيون بيضاء، مرضى، أطفال مَذعورون. حدّثتني بيانكا عن الپروپاغندا الألمانيّة المُعادِية للإنجليز وقالت لي إنّ أناساً كثيرين هنا يُعانون من هذا الأمر. عادت إلى بيتِها للعشاء.

بحثتُ عن مطعم مُناسب من حيثُ الأسعار. أنا فقيرة جدّاً؛ انتهى بي المطافُ في حانة رخيصة حيثُ قدَّموا لي الحساء بالخُبز بينما كان الراديو يُذيعُ معركة عنيفة بين البولونيّين والألمان. عند الثّامنة تفرّغتُ لكتابة الرّسائل في خمّارة إيبي Epée. عند الثّامنة والنّصف سُحِبَت ستائر سميكة زرقاء، طلب منّي تسوية حسابي وأطفؤوا كلَّ شيء تقريباً. كان ذلك موتاً مُبالغاً فيه. ثمّة طاولتان: أنا ورجل جالس مع عاهِرَتَيْن. خلدتُ إلى النّوم.

21 سبتمبر

جولة على ضفاف أوديت الذي كان يفوح طمْياً وطحالب. ثرثرة. مساءً، قرأتُ *الرّأس الذّهبي* ووجدتُه مُدهشاً خصوصاً موت سيبيس Cébès، لكنّها مسرحيّة فاشيّة بل نازيّة. اخترتُ مقهى أقلّ كآبة من مقهى الأمس، رغم أنّ السّتارة المعدنيّة كانت قد نزلت؛ على الأقل، ثمّة إضاءة وطاولتان مشغولتان.

22 سبتمبر

رحلة استكشاف إلى مُقاطعة كونكارنو. المدينة «المُغلقة» العتيقة حبيسة الأسوار من كلّ جانب تتقدّم نحو البحر مثلما يفعَلُ كلّ شيء في سان-مالو؛ من أعلى الأسوار، رأينا المراكب حيثُ تجفُّ شبكٌ زرقاء.

23 سبتمبر

وجدتُ في البريد بطاقة من السيّدة لومار تدعوني إلى پواز Pouèze، يسُرُّني ذلك بعمق. ماركو في قسنطينة وپانييز في ديجون. رأينا جنوداً كنديّين يمُرّون من ساحة السّوق، على متن درّاجات ضخمة؛ تفرّج الجميعُ على موكبهم. في المطعم-الحانة الذي تناولتُ فيه غدائي. أذاعَ الرّاديو أخباراً عن بولونيا؛ بروتونيّات يرتدين قُبّعات بيضاء تحلَّقْنَ حول الآلة راسمين على وجوههنّ القاتمة الدّمار البولوني. ثمّ إنّ هناك خطابات مُوَجَّهة للمُزارعين الفرنسيّين جعلتني أهرب. ذهبنا إلى بيغ-ميل Beg-Meil؛ الشّاطئ مُقفر وجذّاب برماله البيضاء وصخوره؛ أحرقتني المياه المُتجمّدة المُبهِجة.

24 سبتمبر

تجوّلنا من جديد بين البُحيْرات، جميلٌ هذا الصّنوبر، الرّتم الحزين، المياهُ الرماديّة. شربتُ الحليب وأكلتُ الشّطائر. عالمٌ مجنون وثرثار: لاجئون أنيقون في سيّارات جميلة يشتكون نقصَ سُبُل التّرفيه. لم تتغيّر الأوضاع. روسيا وألمانيا اقتسمتا بولونيا؛ على جبهتنا بعضُ المعارك.

25 سبتمبر

لَدَيَّ فضول لمعرفة كيف سأُقضّي أيّامي الثّلاثة بمُفرَدي. لم أجرؤ على حمل حقيبة الجبل؛ في حوزتي فقط صندوق بشع، مع بداية الحمّام، المُنبّه، كتابَان: كانت العُلبَة تتبَعْثَرُ طوال الطّريق. ما يُزعِجني، هو أنّي تقريباً مُفلسة. أقلّتني الحافلة إلى مورغات في ساعَتَيْن. سحرني الميناء الصّغير؛ أنا جائعة، لكنّني لا آكلُ شيئاً من باب التقشُّف ومَشيتُ على طول السّاحل؛ هنا وهناك قرى حيثُ الناس ينظرون إليَّ كأنّي جاسوسة. غمغمَت العجائز بجانبي بلهجتهنّ المحلّية: لا أحد يتكلّمُ الفرنسيّة. ذهبتُ إلى رأس لاشيڤر لكن على بعد 500 متر كانت المنطقة محروسة عسكريّاً. عبر أحد الدّروب وصلتُ إلى رأس دينان. أكلتُ في أحد المخابز خبزاً وشوكولاتة وقطعة كعك سيّئة للغاية.

مُقابل البياض الأخرس للسّماء، والبحر والحجارة، أحبُّ الألوان الشّاحبة لهذا الرّيف؛ البحرُ حاضرٌ في كلِّ مكان، في السّباخ، وبين منازل الغرانيت وطواحين الرّيح. وصلتُ إلى لوكرونان بواسطة الباص، مُصابة بالدُّوار من أثر الشّمس والرّيح، ورأسي يؤلمني، دون شكّ لأنّي لم آكُل شيئاً. تعرّفتُ على ساحتنا والفندق الذي أردتُ العودة إليه: لكن مكانَهُ وجدتُ محل فطائر مُغلق؛ انتقل الفندُق إلى الجهة المُقابلة في بيت على طراز عصر النّهضة. هناك تناولتُ العشاء؛ صالة الطّعام جميلة جدّاً بجُدرانها الخزفيّة وعارضاتها الخشبيّة الكبيرة، إطلالتها على البحيرَة، لكنّها فارغة؛ حزمتِ المُدَبِّرة الأمتِعة، ستُغلقُ غداً، الفندُق لا يُجدي. استقلَلتُ الحافلة نحو دوارنينيز Douarnenez. وجدتُني في المرفأ، الصيّادون في سراويل حمراء، الزّوارق والشّباكُ الزّرقاء.

غروب شمس وقمر ساطِع في آن: كانت الغلبة للقمر. على مرمى البصر فتياتٌ يضحَكْن، وأولادٌ يُغنّون: كان ذلك شبيهاً بمساء سلام وانخرطتُ في البُكاء.

تواصَل اللّيلُ حتّى السّادسة والنّصف صباحاً. سلكتُ طريقاً مُحاذية للسّاحل. ما من مقاهٍ في القُرى، بل مشرب وهو عبارة عن بقالة ذات مصرف دون طاولة. هذه ليست وحشيّة الجبل اللاّإنسانيّة بل خراب بشرِيّ يُدمي القلب ويُجمِّدُه. عدد كبير من الطّائرات حلّقت فوق السّاحل، مراكب كثيرة كانت تجوب البحر. لم يكن في الوسعِ مُصادَفَة أحد غير الأطفال والنّساء والعاجزين؛ الرّجالُ غائبون. مشيتُ 24 كيلومتراً وسبحتُ في البحر البنفسجي والأزرق، على سفوح المُنحَدَرات المُمَزَّقَة. دربٌ قادني إلى قمّة را Raz، حيثُ مكثتُ طويلاً. فكّرتُ في الحياة التي خلَّفتُها ورائي والتي ما من مُستقبل قادر على انتزاعِها منّي. لم يعُد يُخيفُني كوني سأموت.

ثمّة أربعة فنادِق قرب المنارة البحريّة؛ ثلاثة من بينها مُغلَقَة، الرّابعُ يتنفّسُ بمشقّة؛ وضّبوا لي غُرفَة مليئة بالوثائق. الإضاءة بواسطة مصابيح بتروليّة ومع العشاء قرأتُ *مُذكّرات غرامون* التي منحَتني القليل من المتعة. قمتُ بجَولة تحت ضوء القمر؛ رجُلان في زيّ عسكَري بادراني: «أنتِ من المنطقة. - لا. - تتنزّهين؟ - نعم. - في هذه السّاعة؟ الرّؤية مُنعَدِمة. - نرى القمر. - ترَيْن القمر أيضاً من كيمبي أو من لاندرنو.» تصاعَدَت وتيرة الحوار حتّى أصبَحت مُهينة؛ قدّمتُ لهما أوراقي، قرآها بواسطة مصباح جيب؛ اعتذرا بفتور. كانت غُرفَتي في الطّابق الأرضي، تُطلُّ على السّبخَة والبحر وخُيِّلَ إليَّ أنّي أنامُ في العراء تحت النّجوم.

27 سبتمبر

استفقتُ عند السّادسة وسط العتمة، ثمّة شمعة تُضيء في الأسفل وتابعتُ قراءة *مُذكّرات غرامون* في انتظار الباص. البردُ قارس. بزغت الشّمسُ في سماء المروج بينما كنتُ أسيرُ نحو أوديارن Audierne. احتسيْتُ كأساً في (البقالة-المشرب-كشك التّبغ) في انتظار الحافلة. جولة على القَدَمَيْن من پون-آبي إلى سان غينولي عبر التّلال. عودة بالباص إلى كيمپي. بروتونيّات

مُتبرّجات تحت قُبّعاتهنّ على نحو غريب. أخذتُ نحو أونجي قطاراً مُزدَحِماً. حلَّ اللّيل. الرّيفُ مُسطَّح لكنّ القمر جمَّلَه. «كأنّنا في السّينما»، قالت امرأة مُنتَشِيَة. النّاسُ يُناقشون مسألة الزُّبدة البروتونيّة. تستحيلُ القراءة على ضوء المصباح الأزرق، لكنّي أشعُر بصبر لا حدود له، كما لو أنّ الحرب قد منحتني هُدنَة.

وصلتُ على السّاعة الثّانية صباحاً. لدى خروجي ناداني عسكرِيٌّ باسمي؛ تحدّث عن أشياء تخُصُّ الآنسة س... (صديقة السيّدة لومار) التي هاتَفَتْهُ. أخذ حقيبتي وأخذني من ذراعي قائلاً: «يُمكنُ أن أكون والِدَكِ»، وتحوّل بي إلى غرفة حيثُ احتجزني؛ جلب لي الجعة، الموز، وسندويشات؛ سعيدة بهذا الاستقبال، مُستَمتِعَة بوجودي في مدينة مجهولة الثّالثة صباحاً، محبوسة في غرفة بنزل يحرُسُها عسكَريّ مجهول؛ لاح لي ذلك غير معقول. كان مِزاجُه متعكّراً. في البداية طلب منّي البقاء بطريقة غريبة؛ ثمَّ مُنزَعِجة من نظراته المُلِحَّة، بقيتُ واقفة، قال لي: «اجلسي.» سحبتُ كُرسيّاً. «اجلِسي على السّرير.» أخذتُ الكُرسيّ ودعوتُه للشّراب. «يجب أن أشرب في نفس الكأس معك، هذا لا يُضايِقُك؟ حقّاً؟» تحدّثنا برُقِيّ. غادرني قائلاً إنّ عليه إرسال وجبة إفطاري.

28 سبتمبر

كتبتُ رسائل في المقهى الكبير، ساحة التجمّع، قلقة لأنّي لا أملك فِلساً في جيبي. وصلت السيّدة لومار في السيّارة بصحبة ابنتها وسرّتني رؤيتهما إلى حدّ كبير. بقينا معاً ساعة في أونجي التي زُرتُها والتي أعجبَتني تحت شمسها الباردة الرائعة. ثمّ من خلال ريف بشع وصلنا إلى قرية قبيحة، حيثُ المنزل فقط جميل. ثمّة خزانة مليئة بالكُتُب في سندر القمح وقمتُ بأول مُقتنياتي. عرفتُ أنّ پانييز عون هاتف في قيادة عليا، وماركو لا يزالُ في قسنطينة. نمتُ في غرفة الأكل؛ نارٌ كبيرة تشتعل في الموقد وأحسستُ براحة جعلتني أقرأ حتّى الواحدة صباحاً.

29 سبتمبر

أنزلتُ من سندر القمح حزمة كتب كبيرة وقرأتُ كامل اليوم. استسلمت ڤارسوڤيا، وتمَّ توقيع اتّفاق بين الاتّحاد السوفيتي وألمانيا، وأعلنت ألمانيا أنّها ستمنحُ السّلامَ للديمقراطيّات؛ رفضنا نحنُ القيام بذلك، لذا فإنّ المسائل الخطيرة قد بدأت بجدّية. قلتُ هذا لنفسي وأنا أقرأ كُتُباً عن الحرب الأخرى ولا أنجحُ في التّصديق.

30 سبتمبر

أحضرت السيّدة لومار مجموعة كُتُب حول حرب 14-18. قرأتُها وكتاباً لراتنو Rathenau أيضاً، وآخر لكوتسكي Kautsky. اشتعلت النّار. جاكلين لومار ترقُن على الآلة الكاتبة. تُمطِر. مضى وقتٌ طويلٌ لم أشعُر فيه بعُذوبة مُماثلة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

غُرّة أكتوبر

«حملة سلام» هتلر. لا نعلمُ شيئاً عمّا يحدُث أو ما سيحدُث. أعيشُ حياة ديك في القدر. قبلَ كلّ وجبة تأخُذني السيّدة لومار لأختار قنّينة نبيذ عتيق من القبو. أتخمتُ نفسي طعاماً وقراءة.

أكتوبر

يا له من طقسٍ رائع! أقرأ في المراعي، مُستلقِيَة تحت أشعّة الشّمس النّاعمة وشجرة الحور. يُذكّرني ذلك بسنواتي في ليموزان Limousin؛ حبّاتُ تُفّاح كبيرة تتألّق أعلى الأشجار. وفرة خريف سعيد.

3 أكتوبر

نعيشُ وقتاً مُضحكاً. لا أحد يُمكنُه القبول بسلام هتلر؛ لكن أيّ حرب ستندلع؟ ماذا تعني كلمة حرب؟ قبل شهر طُبِعَت الكلمة بأحرف كبيرة على

صفحات الجرائد، كان رُعباً منقوصاً، شيئاً ما يلُفُّه الغموض، لكن ممتلئاً. الآن هي غير موجودة، غير أنّها ليست لا شيء. أحسستُ أنّي مُسترخية وشاردة، أنتظر لا أدري ماذا. بدا أنّ الجميعَ يرقُبون شيئاً ما. ثمَّ إنّ هذا هو اللافت في كُتُب پيير فو Pierre feu، من خلال قصّة حرب 14: انتظار أربع سنوات، موسومة بمذابح لا مُبرّر لها إطلاقاً؛ كما لو كان الوقتُ هو الذي يشتغل ولا أحد سواه.

4 أكتوبر

حتّى هذه الآونة، أنا في عُطلة. الآن عليَّ الإقامة في هذا الوُجود المُسمّى حرباً، وبدت لي كئيبة. مع ذلك اعتراني نوعٌ من الارتباك هذا الصّباح، الرّغبة في الهروب من كلّ هذا الصّمت، أن أفهم شيئاً ملموساً. بعد الأمل الغائم في رسالة سارتر الأخيرة، حول إمكانيّة الذّهاب لرؤيته؛ مع التنقّل يوم الاثنَيْن أو الثّلاثاء. احتَسَيْتُ كأساً في بيت ستيفا وفرناند. ظلَّ في السّجن أربعة أيّام. اتُّهِمَ بـ«الدّعاية لتجنيد الأجانب في ليجيون». أحدُهم قال إنّه روسي أبيض وطلب منه إن كان في استطاعَتِه الذّهاب إلى إسبانيا. «طبعاً، بالتّأكيد، قال فرناند. – لكن ليس في حَوْزَتي جوازُ سفر؟ – نقتربُ من الحُدود ونمشي.» كان الرّجل عميلاً واشياً. أُرسِلَ فرناند إلى المُحافظة ثمَّ إلى المُعسكَر حيثُ أبدى العساكِرُ الرّقباء لطفاً كبيراً إزاءه؛ أحدُهُم قدّم له التّبغ حين قال إنّه حارب في إسبانيا، ثمَّ عندما أضافَ أنَّ صديقَه جنرال، قدّم له عُلبَة إضافيّة. ذُهلَ أصدقاء فرناند، قال، كونَهُم أطلَقوا سراحَهُ بسُرعة وارتابوا منه؛ يُخَيَّلُ إليه أنّ البوليس يرصُد خطواته ولا يجرؤ على رؤية إيرنبرغ. يبدو أنّ مالرو يُريدُ الالتحاق بفَيْلَق الدبّابات، لكن لم يُقبَل بسبب نوبات العصبيّة.

أرسل نيزان إلى دوكلو رسالة استقالة جافّة جدّاً: «أُوَجِّهُ إليك استقالتي من الحِزب الشيوعي P.C الفرنسي. يُفْرَضُ في وضع الجُنديّة عدم الإفصاح أكثر.» تناولتُ العشاء في لاكوپول المليء بالنّاس؛ غزا الجُنود مونبارناس وعجَّت المحال بزبائن جدد وبدا أنّ القدامى كائنات تنتمي إلى ما قبل التّاريخ: طلبتُ كأس نبيذ (مونيخ) من نادل. ضحِك: «انتظري حتّى نجتاز خطّ سيغفريد.» أوحى لي ذلك بشيء رائع، اللّيل تافه وجميل. تقريباً لا أحد

يجلِسُ في شرفات المقاهي، بدأ الطّقسُ يميلُ إلى البرودة الشّديدة؛ كلّ شيء مُقفر كالشّهر الماضي. عدتُ إلى غُرفَتي عبر طُرقات سوداء كالأنفاق.

6 أكتوبر

أيقظتني جيجي لدى عودَتِها عند منتصف اللّيل؛ عادت من كاستل نوڤيل حيثُ كان هناك جمعٌ من النّساء واللاجئين الإسبان. صوتُ إنذار ضعيف؛ هرع النّاسُ إلى النّوافِذ للتقصّي؛ هل هي غارة؟ لا إنّه خطأ تقني. بريد؛ أحد رسائل سارتر فتَحَتْها الرّقابة، إنّها المرّة الأولى. مُؤسِفٌ حقّاً! لقد رحل إلى وجهَة مجهولة يوم 3 أكتوبر، سقطت جميعُ مشاريعي في الماء. قمتُ ببعض الشّراءات مُختنقة بالحسرة. الأسابيعُ الثّلاثة الأخيرة، هي هُدنة خالية من أيّ حقيقة، الآن عرفتُ التوتُّر والخوف؛ ويُثير سُخطي أنّ هذا سيدوم طويلاً. لم يعُد يهمُّني، لم أعُد أهتَمّ، أكتُبُ في هذا الدّفتر كأنّي أملأ جُملة من التّعليمات. اقتنيتُ رواية *الأبله* و*مُذكّرات غرين* من أجل سارتر، لكن *المجلّة الجديدة* لم تعُد تُباعُ ولا تصل إلى الزّبائن إلّا عن طريق الاشتراك.

الإحساسُ بالخوف ونفاد الصّبر من جديد. قرّرتُ اليوم بالذّات الذّهابَ إلى أنونجي عند السّابعة. أنا في مقهى قريب من المحطّة: كم هذا حزين! أردتُ الذّهاب إلى السّينما، تسكّعتُ في الحيّ العسكري إلى جانب فتيات يتحرَّشْن ببعض الجنود، وحانات تعُجُّ بالعسكر. لم تكن السّينما تبُثُّ الأشرطة. عدتُ عبر تلك الطّرقات المُخيفة. إنّها الحربُ من جديد في داخلي وحولي، وقلقٌ لا يدري أين يستَقِرّ.

5 أكتوبر

باريس. قصدتُ مخفر البوليس وقلتُ لهم بصفاقة إنّي أريدُ رؤية خطيبي المُجَنَّد: أجابوا أنّ مطالب كهذه مرفوضة آليّاً وأنّه سيُعاقَب لو أنّي تمكّنتُ من الوصول إليه. قرّرتُ تغيير المخفر والتحلّي بمكر أكبر. قمتُ بصُور فوتوغرافيّة لنفسي في إحدى المغازات وفي الحانة، أكلتُ شريحة لحم الخنزير مع العَدَس؛ صُوَري رهيبة. الأصعبُ هو الحصول على شهادة إقامة.

رفضت السيّدة مارتان منحي شهادة، شارع رين Renne: «لكن هذا غَلَط، أنتِ لا تسكُنين هنا»، بجفاء؛ لاحت الحربُ بأعمدة الشّنق المُخَصَّصة لبوّابي البنايات. ذهبتُ إلى معهد كاميي–سي؛ مبنى شاهق رديء الشّكل: قابلتُ المُديرة، شابّة، نحيفة، أنيقة، تضعُ الصّبائغ، بذقن أزرق تحت المساحيق.

مثّلتْ دور الإنسان المُتَّقِد حيويّة، الرّائع والمُثقّف جدّاً. «أنا شجاعة ما يكفي»، قالت دون حرج. لن يكون لي عملٌ كثير؛ مائتان هو مجموع التّلاميذ في المعهد سيكون من نصيبي عشرون؛ المعهد ضاج بأساتذة لا أحد يدري ماذا يفعلون.

عدتُ إلى شارع أساس Assas؛ بوّابة عمارة جيجي تحيكُ بآلة الخياطة؛ لم تستطع منحي شهادة إقامة لأني لستُ مستأجرة مُباشرة؛ بقيتُ مُسَمَّرَة أمامها. تابعَتِ الخياطة، لا نقول شيئاً تقريباً، دام ذلك طويلاً؛ فجأة نهضتْ من كُرسِيِّها وأعطتني شهادة سارية المفعول من يوم 14 سبتمبر. دسستُ في يدها 50 فرنكاً فرَفَضتْ، غاضبة؛ ثمَّ استسلمَت: «النّصف فقط.» ثمَّ أخذت المبلغ كاملاً. مرّت الأمور بشكل جيّد في المخفر؛ حدّثتُهم عن أخت مريضة بداء العظام عليَّ جلبها من ماروتيي. بدا المُوَظَّفُ عطوفاً، كتب لي ورقة بخطّه المُذهل. في حين أُحبِطَتْ شقراء تريد رؤية زوجها في سين–إي–مارن: «ليس لهذا السّبب. – لكن لأسباب أخرى، لا أستطيع؟ – يجبُ العثور على حجج معقولة.» وعدوني برُخصَة.

يومٌ كئيب. بعدَ الظّهر كان لي موعِدٌ في المارينيان مع آل أودري، لكن المقهى كان قد أغلق من قِبَل السُّلُطات العسكريّة لأنّه ظلَّ مفتوحاً بعد الحادية عشرة ليلاً. جلستُ قبالة الكوليزي. جمهور مُقزّز من دجاج مُترَف وَضُبّاط «الذين يموتون على فُرُشهم» والمسؤولون. إنّه جمهور 1916 حسب رواية *مدفعيّة الخنادق*. تحدّث آل أودري باشمئزاز عن أفلام الپروپاغندا التي بدأت تغزو الأسواق. ليلة ضباب تُنبئ بقدوم الشّتاء، مأساويّة وجميلة. النّكبَةُ في كلِّ مكان من باريس، إنّه احتلال كافٍ، يكفي أن نَعِيَ ذلك.

10 أكتوبر

يعود پاردو اليوم: إنّها اللّيلة الأخيرة لي في شقّة جيجي. انتقلتُ إلى فندُق بشارع ڤاڤان. تُعجِبُني غُرفَتي، ثمّة ستائر حمراء سميكة ويُمكنني مساءً

أن أحظى بالضّوء. عادت ليز أوبلانوف إلى باريس؛ بكت حظّها التَّعِس: لم يكن في مقدورها التّسجيل في السّوربون ما لم تحصُل على بطاقة هويّة، ولا الحصول على بطاقة لو لم تُسجّل، الأغنية نفسُها دائماً؛ لا يتقاضى والِدُها شيئاً ولا تملِكُ أمُّها الحقَّ في العمل. قالت لي باكية: «لماذا ن... يملك جميعَ الحقوق وأنا لا؟»

في الدّوم، جلَسَ أداموف قبالَتي فَزِعاً. هو أيضاً لم يكن ممّن يربَحون شيئاً؛ لدَيْه سِجِلّ حرب وينتظر استدعاءه. هكذا هو الدّوم، مليء بالمُحَطَّمين. زعم فرناند أنّ ألف جُندي في الجبهة قد استوَلَوا على قطار وأنّهم جاؤوا دون إذن رسمي وأنّ أحداً لم يجرُؤ على إيقافِهم.

11 أكتوبر

أريدُ الرّجوعَ إلى العمل. قضّيتُ اليوم في قراءة روايَتي. ثمَّة الكثير لأفعلَه.

12 أكتوبر

أعملُ. مساءً، التقيتُ بماري جيرار في الدّوم. جلسَ بجوارِنا شيخٌ مُضحِك يلبَسُ بِزّة زرقاء ويقرأ: *العلوم والصحّة* كأنّه يُصلّي؛ أرادَ سكرانٌ التحدُّثَ إليه فكادا يتشاجران. التفتَ الثَّمِلُ ناحيتَنا: «كَتِفَاي ضيّقتان، قال. لكن الجبهة ثقيلة. – لا أكترثُ لكَتِفَيْكَ»، قالت ماري. صديقان له اقتلعاهُ من طاولتنا. تناولتُ العشاء في محلّ الشّطائر ومن ثمَّ ذهبنا إلى قبوِ شوبير؛ كان فارغاً، لكن هناك عازف بيانو يعزفُ الجاز وغيَّر ذلك من مزاجِنا. «أتساءلُ أينَ ذهب النّاس!» قالت ماري مُستغرِبَة بحِدَّة، الأمر الذي بعث بعضَ الأولاد على تبادُل الهمس فيما بينَهم. طردونا عند الحادية عشرة، وتنزّهنا على ضفاف السّين.

دوريّاتُ حراسة ليلِيَّة ذوو لفاع عريض وخوذات زرقاء لامعة؛ مُوَجِّهون المصابيح نحو وجوه المارّة، سواء كانوا على أرجُلهم أم على درّاجاتهم الهوائيّة ويوقفون كلَّ الرّجال للتثبُّت من أوراقِهم؛ كانوا يُفتِّشون المراحيض أيضاً.

روت لي ماري قصّة حُبِّها مع لاجئ إسباني عمُرُه اثنَان وعشرون عاماً، جميل كإله، كانت قد التقت به خلسَة في الجبال حيثُ كان يعيشُ نصفَ

عارٍ ومُطارَداً؛ سُكّان القرى يكرَهون اللاجئين: يُزعَمُ أنّهم قتلوا عدداً منهم ضرباً لأنّهم رفضوا الانخراطَ معهم في المُقاوَمَة؛ كان عليهم إذاً، توخّي الحذر الشّديد.

تاهت ذات ليلة، فقَدَت حذاءها ومشتْ خمسة كيلومترات حافيَة القدَمَيْن. لم يكن الإسباني يعرفُ عشرين كلمة فرنسيّة. إنّها لا تُفكّرُ سوى في إيجادِه. كانت مُقتَنِعَة أنّ دالاديي Daladier قد طلب من هتلر إعلان الحرب، كي يتسنّى له القضاء على الجبهة الشّعبيّة. كانت تُؤيِّد الخطاب الانهزامي. في القطار، حاولت إثارة شفقة بعض الجُنود حول مصير جيونو Giono[40]: «لا يجبُ أن تُقال أشياء كهذه لجنود شبّان»، قال لها أحدهُم بقسوة. لم تكن تطلُب أفضل من أن تُقاد إلى السّجن، هكذا يتُوفّر المال. تسلّيتُ معها كثيراً.

13 أكتوبر

عرضتْ عليَّ ماري مُرافقَتها هذا المساء إلى يوكي ديسنوس ووافقتُ. صالة الأكل مليئة بالدّخان، بالنّاس، بكؤوس النّبيذ الأحمر. على الجدران لوحات فوجيتا، من بينها واحدة تظهر فيها يوكي عارية مع أسد: كانت لوحات بالألوان لأنّها طلبت منهُ أن يُثبِتَ لها قُدرَتَه على استخدام لون غير الأبيض؛ لم تَرُق لي الرّسوم. جاءت يوكي ملفوفة في كيمونو ياباني يظهرُ منه ساعِدان ناعِمان وأعلى الرّقبة؛ شقراء وجميلة كفاية. كانت هناك صديقة پاسان Pascin التي غرقت في الروحانيّات وتكلّمت، بعَيْنَيْن مغرورِقَتيْن عن كلِّ ما عانته بسبب الناس وبسبب زوجها، وهو شخص فضائحي ذو وجه طويل فاجِع، ولم يكن يقول خيْراً. ثمّة مُمَثِّلَة فاشِلة، مِثليَّة، تُدخِّن الغليون، امرأتان، شبّانٌ صامتون، وجُنديٌّ في رخصة يُشبِه بوستر كيتون. قرأتْ يوكي رسالة من ديسنوس يروي فيها الحياة الجميلة التي يعيشُها في الجبهة وغَضِبَ الحاضِرون: إنّه غيرُ مُتمرّدٍ ما يكفي! ردَّ الجُندِيُّ بصوت متأثّر. مهزلة حقيقيّة؛ ذاتيّة سفيهة من جهة، ومن جهة أخرى المُقاتل المُنزَعِج من الذّهنيَّة المَدَنيّة.

40- جيونو Giono: (1895–1970) كاتب فرنسي تميَّز عدد كبير من أعمالِه بطابَعه الخاص ذي المنحى الريفي.

ألفاظٌ قذرة: «اللّعنة! هذا خراء!» حريصاً على الفصل بين الكلمات وبأكثر قدرٍ مُمكن من التكلّف. يبدو هذا العالم في حالة هَيَجان شبَقي.

قال الجُنديّ: «لا نهتمُّ لأمر النّساء! قولي هذا لصديقاتك، لسنا في انتظارِهنّ للاستمناء. - قُل لأصدقائك أيضاً أنّنا لسنا في انتظارِهم، قالت امرأة، لكن نحنُ لا نستمني.» غنّوا بازدراء الأناشيد الوطَنيّة للحرب الأخيرة، ثمَّ أغانِي مُعادية للعسكر حتّى الرابعة صباحاً.

16 أكتوبر

استئنافُ الـدّروس. عملتُ ساعَتَيْن في كامي-سي أمام تسعِ فتياتٍ صغيرات عاقلات يرتدين المآزر الزّرقاء. بدا لي ذلك غير حقيقي وغريباً في آن. ثمَّ تحوّلتُ إلى هنري الرابع حيثُ نُقِل معهد فينيلون Fénelon؛ أخذت الفصول شكلاً عصريّاً قبيحاً. ممرّات ضيّقة، عليها لافتات: ملجأ1، ملجأ5، ونساء بالأسود يضعْنَ الأقنعة. كن ينزَعْنَها في الفَصل.

دخلتْ أولغا بالأمس. أطلعتني على أخبار بوست الذي لم يكن يعيشُ حياةً جيّدة.

تحرُّك ألماني على الجبهة الغربيّة - وحمْلَةُ سلامٍ جديدة من هتلر.

17 أكتوبر

يبدو أنّنا سنُحاربُ بجدّية هذه المرّة. هُجوم ألماني وردّ فرنسي، قصف لسواحِل الإيكوس من قِبَل الألمان. ماذا سيفعَل ستالين؟ قرأتُ كلّ هذا في الصُّحُف بلامُبالاة. أنا مُخَدَّرة.

كي أذهبَ إلى هنري الرابع أعبُرُ اللكسومبورغ، الذهبيّ الموحل، ثمَّ أرتشفُ قهوة على الكنتوار في كاپولا. ساعتان ونصف الساعة من الدّروس، قطَعَها تمرين في الاختباء، المُديرة تجوب الأروقة، القبّعة على الرّأس، صافرة في منقارِها الصّغير، وكانت تُطلِقُ صافرات حادَّة مُزعِجة للغاية. النّزول إلى الطّابور الهندي نحو ملجأ مُرتّب كما يجب ومن ثمَّ الجلوس على مقاعِد الحديقة. تمرين ارتداء الأقنعة: «الأساتذة أيضاً»، لكن ليس لدَيَّ قناع.

يضحكُ التّلاميذُ لرؤيتهم بالأقنعة وتُتَمتِم: «هذا ليس مُضحكاً، هيّا!» فِسّرَت أنّه يُمنَعُ الكلامُ أو التحرُّك في المخابئ اقتصاداً للأكسجين.

أمسية مع أولغا في مقهى فلور الذي فتَحَ ثانية. جُهِّزَ بستائر زرقاء سميكة ومقاعِد حمراء، هذا رائع. تعلّمَت المقاهي التّمويه، تُضاءُ كلُّ المصابيح ونَنشَدُّ فوراً إلى ذلك التوهُّج عندما نأتي من الخارج.

18 أكتوبر

رحتُ لاستقبال أختي في محطّة أوسترليتز؛ المَحطّة مُتجهِّمة؛ عدد كبير من الجنود؛ شُرطِيٌّ يقطَعُ طريقَهم ويطلُب منهم أوراق الهويّة والتراخيص. أخذتُ پوبيت إلى الميلك–بار. روتْ لي أنّه في سان–جرمان–لي–بيل يُنتَظَرُ منذ ستّة أسابيع وصول لاجئين وأنّ الطبّال المنادي قد أعلن في الشّوارع: «لا تنسَوا أنّ الألزاس فرنسيّون أيضاً.»

رسالة من سارتر، حيٌّ يقول لي بلُغة مُشفَّرة أنّه في بروماث Brumath.

21 أكتوبر

هذا المساء ذهبتُ مع أختي إلى جوكي Jockey؛ إنّه خالٍ تماماً. الصّالة بديعة جدّاً، أكبر من ذي قبل، بنفس المُعلّقات السينمائيّة القديمة على الجُدران، لكن نظيفة، ومرقص في الوسط. بجانب البيانو، مُغنّية ذات شعر أحمر تتمرَّنُ على الأغاني. اقترب منّا المُدير ليُخبِرَنا أنّه ابتداءً من يوم الاثنَين سيكون هناك عشاء ترافقُه الموسيقى مقابل 25 فرنكاً؛ تناولنا العشاء في كلّ المطاعم والملاهي، إنّها المُعادلة الجديدة. يقول إنّ تصميم الصالة مُقتبَسٌ من منازل الرّقص في إشبيلية. أتذكّر واحداً منها في ألاميدا. كم تغيّرت إسبانيا! إنّها المرّة الأولى التي أشعُرُ فيها أنّ مرور الوقت تاريخي ولا علاج له. إنّه يملؤني شيئاً فشيئاً: أزواج بين عُمُرَيْن، عساكر في لونَ الأزرق البحري دون رقم تسجيل. غنّت ذاتُ الشّعر الأحمر. النّاسُ لا يرقُصون بسبب الحرب. عند الحادية عشرة، يرنُّ المُنبِّه وتعزف الأوركيسترا *انطفاء النّيران*. على الجادة، مجموعة مُترَدِّدين. أقرأ حتّى الواحِدة والنّصف، هرع النّاسُ إلى السُلَّم، امرأة

تصيح. واربتُ بابي لكنّ لهجَة المرأة كانت غيرَ مفهومة مُطلَقاً. أعتقد أنّها النّرويجيّة الجميلة الشّقراء وأنّها تُريدُ حزم أمتِعَتِها؛ صرخت: «جُبناء! جُبَناء!» صعدتْ مُدَبِّرَة النُّزلِ وحدّثتْها بصوتٍ مُنخفض.

23 أكتوبر

تدابيرُ جديدة لجواز عبورٍ جديد. قدّمتُ وثائقي للمَخفَر الخامس عشر، هكذا لن يجدوا لي أثراً.

عند التّاسعة، أذهَبُ مع أختي وجيجي إلى آنيا سكاپري. تلكّأت الحياة في جميع الأماكن، كمسرح دون أضواء، ليلة تمرين. في طاولة ثمّة كاپري في عباءة من الفرْو الأبيض، صونيا في فرو أسود مع ماري إيلين وجرمين مونتيرو التي كانت ترتدي قُبَّعَة صغيرة غريبة ذات رداء أحمر. دينيو أحد «المُلتَحين» القُدامى في بذلة رسميّة، يتناولُ عشاءَه. لودوك في بذلة رسميّة يُقدّم الطلبيات. في طاولة أخرى طوني بصُحبة مجهولة فاتنة. زوجان أنيقان غير معروفين. دينيو يُغنّي *بائعة البنفسج*، هذا سهل للغاية، إنّها تُسبِّبُ لي الضّيق. كاپري جذّابة في فستانها الأسود المُذَهّب، وحذائها الأسود، ذي الكَعْبَيْن المُذَهّبَيْن العاليَيْن كثلاث أيادٍ؛ الكثيرُ من تلك الأغاني ممنوعة، لكن بَقِيَ من بينها أغانٍ رائعة.

يُقال إنّ شيئاً لن يحدُث على الجبهة الفرنسيّة قبل الرّبيع. ويجري الحديثُ عن رُخصَة بعشرة أيّام كلَّ أربعة أشهُر.

25 أكتوبر

أولغا سعيدة لأنّ دروس التّمثيل قد تُستأنَف. تريدُ اقتناء معطف من شارع سان-جرمان، لكن حدث أنّ المعطف الذي أعجبها هو في الأصل معطَفُ جنود سميك وسخرت البائعة منّا. جاءت أختُها من بوزڤيل واستقَرّت في فُندُقنا.

مساء في السّينما فِيلم، *الطّرق Knock*. يقول فرناند إنّ الجرائد مليئة بالشّائعات الكاذبة وإنّ الحرب ستكون طويلة. لا تُحرّكني تلك التنبّؤات. أشتغل على روايتي وأقدّم دروسي، وأعيش الضّحالة: ما من مُستقبل يكتسي حقيقة.

27 أكتوبر

مرّتَيْن في اليوم، تقوم مُديرة فينيلون بتوزيعِ أوراق تُعَيّنُ أسماء المُتطوِّعات، المُنشِّطات اللاتي سيتكفّلن بإغلاق النّوافذ في حالة طوارئ.

يبدو أن دكتاتور سان دومينغ فتَحَ أبوابَه لــ100000 لاجئ وطلب مُثقَّفين. فرناند وستيفا يُفكّران في الذّهاب إلى هناك. تحدّثنا عن منشور «السّلام الفوري» الذي وقَّعَه جيونو، آلان وديبا. أعلنوا أنّ حُسن نواياهُم قد قوبِل بالخديعة. «عندما رأيتُ كلمة سلام، وقَّعتُ دون قراءة البقيّة»، كان آلان سيقول.

في الفندق، الغرفة عدد 7، ثمّة نمساوِيَّة مُخَنّثة في حوزَتِها مدنيّة لذكرٍ، نهدَان، عضو امرأة وعضو رجل، لحية وشعر في الصّدر. في زمن الدّكتور هرشفيلد، كانت مشهورة في ڤيانا؛ شرَحَت أنّها، بعد الدّمج Ansclussـ، كان عليها الرّحيل لأنّ هتلر أعلن: «لا أريدُ أناساً كهؤلاء عندي!» كانت تُعاني مشاكِلَ نفسيّة عميقَة لأنّها تُحبُّ الرّجال الحقيقيّين فيما لا يُحبّها سوى المثليّين. وفي فرنسا نُقِلَتْ إلى مُعَسكَر اعتقال؛ عندما تعرّت لوحِظ بذهول أنّها امرأة. كانت تبكي طوالَ الوقت. أمّا النّرويجيّة التي صرَخت في تلك اللّيلة فهي سكّيرة وكان زوجُها يُعنِّفُها عندما كانت تُفرِطُ في الشّراب كي يُعقّلها.

30 أكتوبر

رافقتني ليز إلى المخفر. انتظرتُ قليلاً وحين تلفَّظتُ باسمي، بدتْ على المُوَظَّف علامات مُبَشِّرة. أصبح جوازي بين يَدَيَّ! تدفّقت السّعادَة إلى أعماقي. إنّه صالح إلى غاية يوم الاثنَيْن. عليَّ التوقّف في نانسي، لكن ستمتَدُّ الفترة إلى خمسة أيّام تامّة لو أنّ الطّبيب منحني شهادة في الوقت المُناسِب. قمتُ بمُقتنياتي، أعددتُ دروسي وعدتُ لألزم الفراشَ وأطلُب طبيباً. انتَظرتُ حتّى الثامنة والنّصف أقرأ؛ لَدَيَّ إحساسٌ بأنّي مريضة حقّاً. وصل: شعرٌ رمادي طويل، نظارات عاجِيّة وسحنة وجاهة. فحصني وللأسف! يعتقد أنّني أعاني مُجرَّد انقباض عضلي. سألني على طريقة فِيلم Knock: «ألم تتسلّقي بواسِطَة حبال ناعمة؟ ألم ترفَعي تقاليد صناديق ثقيلة؟ غريب.» سألني أيضاً بنبرة

حادّة: «ألا يُراوِدكِ إحساسٌ بأنّكِ تجلسين على الحصى؟» راحَ مع ذلكَ يتثبّتُ ما إذا كنتُ مُصابَةً بالتهاب الزّائدة. وخز إصبعي، سحبَ الدّم بواسطة أنبوب وأذابَه في سائل أخضر. وجد 11000 كريّة بيضاء، هذا كثير، لكن لا يكفي للتسبّب في التهاب حادّ في الزّائدة. كشَفَ عنّي وحدّثني بعلم عن مُضاعَفات برد السّاقَيْن، وهو يكشف بنطلونه ليُرِيَني جوارِبَه الطّويلة؛ حدّثني أيضاً عن حبْسَة الدّورة الدّمَويّة لدى الزّنوج والإسكيمو. «عندما يخرُجُ الزّنجي من كوخِه ويضعُ قدَمَه على العُشب النّدي فإنّه يشعُر بانفعال مَعَويّ»، قال لي. وقّع أخيراً شهادة تمنحُني إجازة مَرَضيّة حتّى الاثنَيْن أيضاً. نهضتُ بحيَويّة ورتّبتُ حقيبتي.

31 أكتوبر

السّادسة والنّصف. الدّوم، والروتندا استيقظا بالكاد. محطّة الشّرق، استَقَللتُ القطار الذي سافر فيه سارتر، شهران حتّى الآن، على نفسِ الرّصيف. المكانُ مليء بالجُنود. أصابع جاري كحوافِر حصان، وجهٌ أحمرُ وأحمق؛ الآخرون قرويّون ناشطون عائدون من رُخصة زراعيّة؛ يلعبون الورق؛ قليلاً ما يتكلّمون. قلتُ في نفسي إنّ وجوهَهُم ستتحطّمُ قريباً ولم أشأ تصديق ذلك؛ يجعَلُني هذا الغُموض أعيشُ مناوَرات لا تنتهي. الرّيفُ غارق؛ هذا شاعري وكارثي. البِرَكُ تغرق الغابات والشّجيرات.

وصلتُ إلى نانسي الواحِدَة بعدَ الظّهر. لم يطلُب أحدٌ جواز عبوري؛ سلكتُ شارعاً كبيراً، حقيبتي في يدي. صمتُ أموات، المحال حيّة، محال الحلوَيات طافحة بالحلوى، قطعُ كارميل كبيرة وتبدو جديدة؛ لكن لا نرى أحداً، كما لو كانت مدينة مُهَجَّرَة، إحساسٌ قوِيّ. وصلتُ إلى ساحة ستانيسلاس التي بدت لي دائماً، من خلال *المُقتَلَعون* لـباريس Barrès، جذّابة بفضل قُضبانها الذّهبيّة الغامضة؛ إنّها ساحرة وسط هذا الصّمت المُطبَق، مُقفرة كصحراء تحت هذه السّماء الزّرقاء، مع خلفيّة مُتمَثّلة في أوراق الحديقة الحمراء. تحوّلتُ إلى ساحة أخرى، إلى القيادة العُليا، حيث يتمُّ إرسالي إلى مخفر لا يَزالُ مُقفَلاً. قرّرتُ تناوُل العشاء أوّلاً وتجاوزتُ الحديقة. شاسعة ورائعة الحُمرَة. فجأة

صوتُ صفّارات الإنذار؛ لم يدُبَّ الرّعبُ بين النّاس، على العكس، إنّهم أكثرُ عدداً من أيّ وقت آخر؛ أعتقدُ أنّها عمليّة مألوفة، اعتاد النّاسُ عليها، من بين سُكّانُ نانسي، لكن أثار ذلك غرابتي على الرّغم من كلّ شيء.

أخيراً فهمتُ: وصلتُ في قلب الإنذار والآن نحنُ في نهايته. الآن تعُجُّ المدينة بالنّاس. أكتشفُ الشّارع الرّئيس، المحفوف بمحال أونيپري، قاعات السّينما، الخمّارات؛ تذكّرني بستراسبورغ بصورة أقلّ جمالاً: كلّ المنازل تقريباً مُحَصّنة بأسيِجة خشبيّة: لاحت المدينة كمُخيّم ضخم. صرخَ فيَّ شخصٌ ما: «كلّما رأيتُك ظننتُ أنّي ما زلتُ في الشّارع.» بسبب العمامة الصّفراء، الكَعبَيْن العالِيَيْن وأقراط الأذن. تناولتُ الغداء في حانة، عدتُ إلى المخفر. ثمّة حشد كبير، امرأة تُعاني تخثُّراً وريديّا وكانت تتألّم؛ أخرى تبكي: علمتْ للتوّ بموت ولَدِها. رُفِضت جميعُ تراخيص العبور لميلوز Mulhouse، بأمرٍ من الجنرال. كان الجميعُ يتكلّمون الألمانيّة حتّى الجُنود. بعد نصف ساعة وصلتُ إلى الصفّ الأوّل؛ أخذوا منّي وثائقي؛ حرّك الرّجلُ رأسَه وهو يقرأ: «برومات» وذهب المُلازم؛ سارعتُ إليه. رمقني المُلازِمُ من تحتِ النظّارتَيْن: «أليس لرؤية صديق؟ - أوه لا!» قلتُ من أعماق قلبي. منحني أربعاً وعشرين ساعة. غادرتُ خائبة؛ أربعاً وعشرين ساعة فقط: هل يُمكنُ تمديدها لأجلي؟ سأتنزّه بأسى على ضفاف القنال.

عند السّادسة، وقفتُ على رصيف المحطّة؛ البردُ شديد، ساقَاي تؤلمانني لأنّي مشيتُ طويلاً بكَعْبَيْن عالِيَيْن. نحنُ مجموعة ننتظر القطار، مَدَنيّان وعساكِر. اللّيلُ مُعتِم. نرى أضواء زرقاء ترقُصُ فوق السكّة، زرقاء، حمراء، وبيضاء، لكن ليس بسبب القطار بل مصابيح فقط؛ أحياناً يأتي قطارٌ لكن لم يكن قط قطارنا نحن، السّابعة، السّابعة والنّصف: إنهاكٌ وبرد؛ بدا كلُّ شيء خياليّاً. القطارُ أخيراً؛ ازدَحَم الرُكّاب، امتلأ على آخرِه، مع ذلك وجدتُ رُكناً. امتلأ بالألزاس؛ امرأة سمينة تشخُرُ إلى درجة أنّ كلَّ من في المقطورة انفجروا ضاحِكين؛ لا أحد يتكلّمُ الفرنسيّة. الجميعُ هادئون، كما لو أنّ القطار كان مُتَّجها نحو الجبهة؛ كم هذا مُختلف عن الباريسيّين الفارّين إلى كيمپي حاملين معهم أواني مطابِخِهم! القمَرُ ساطِعٌ في الخارج، الرّيف مُسطَّح ومُتجمِّد. يتوقّفُ القطارُ في كلّ المحطّات وأرصُد السّماء.

تجاوزنا ساربورغ، سافيون، فرُغَ القطار، بقيتُ وحدي مع جُندي. بدأ يُراوِدني انطباعٌ حقيقي بأنّي في مُغامرة. أكثر من خمس محطّات: أصبحت هذه القصّة حقيقة.

برومات. نزلتُ على الرّصيف المُقفر؛ سرتُ خلف النّاس؛ لم يطلُبوا منّي شيئاً عند الخروج. ثمّة جنود لم يستوقفوني.

أضاءَ فندُقٌ قريب من المحطّة؛ ثمَّ عبرتُ تحتَ ضوء القمر ريفاً خالياً. فكّرتُ: «سارتر هنا في مكان ما»، بذهول مُرتاب قليلاً خطر لي ذلك. ها هي حانة الأيل حيثُ يتناول إفطارَه صباحاً. طرقت باب فندق «الأسد الذّهبي». لا شيء يُجيب، لكنَّ مصباحاً وُجِّهَ نحوي؛ دورِيّة. ليس مسموحاً المُكوث خارجاً بعد مُنتصف اللّيل. أطلعتُهم على أوراقي وعرَض جُندِيّان مُرافقتي بودّ؛ إنّهما من باريس. زعزعا نوافذ مطعم «جرادة البحر» لكنّ أحداً لم يفتح. تسكّعنا نصفَ ساعة. أخيراً في مدينة باريس، دخلتُ مُستودَعاً، ثمَّ إلى ساحة خلفِيّة، ثمّ إلى البيت. كُتِبَ على أحد الأبواب: «الزّعيم». طرقتُ وفتَح لي ألزاسي سمين أشقر. أعطاني غُرفة مُتجمّدة. غسلتُ أطرافي مُرتعشة ودخلتُ تحت الأغطية الباردة، بعد ضبط المُنبِّه على الساعة 7.

رنّ المُنبّه. يومٌ رمادي، كلُّ المنازل مُقفَلة، لا أحد في الطُّرُقات. ما عدا بعض الجُنود. صوتُ البوق. لستُ سعيدة بل قلقة: كيفَ أُخبِرُ سارتر بوجودي؟ كيف أحصُل على تمديد؟ أشعُر أنّ التهديدات تُحيطُ بي من كلّ جانب، مصيري مُعَلَّق بنزوات ضابط، بمزاج عسكَريّ. يقظة المدينة تستحق أن تكون فصلاً من رواية. شاحنات توقّفت بمُحاذاة نافذتي: وقعُ خُطوات، أصوات بشريّة، إنّهم يأخذون أناساً. ماذا لو أنّهم أخذوا سارتر اليوم بالذات؟ ركضتُ نحو حانة «الأيل»: طاولات خشبيّة طويلة، كراس من القشّ، موقد خزفي كبير؛ لا يزالُ المحلُّ نصف نائم، النّوافذُ مفتوحة، الطّقسُ بارد ولا أشعُر بأنّي في أمان. بدت المرأتان طيّبتين؛ سألتهما عن عنوان المدرسة وقالتا لي: «القيادة العليا.» كتبتُ كلمات لسارتر: «نسيت غليونَك في حانة الأيل، إنّه في انتظاركَ هناك.» وسلكتُ الطّريق الموحِلة؛ عبرتُ سقيفة، تجاوزتُ أرضاً شاسعة، ورأيتُ مبنى عصريّاً رديء التّصميم، بالحجر الأحمر مع زُجاج

مطليّ بالأزرق. أمامه نزر من الجنود؛ سألتُ أحدهم إن كان في وسعي إرسال كلمة. «ينبغي أن يكون أحد أعوان المكاتب8، قال الجُندي بازدراء، ووعدني بتسليم الرّسالة خلال ثوانٍ. عدتُ إلى «الأيل»، وفي عُمق الطّريق رأيتُ هيئة سارتر؛ عرفتُ وقعَ خُطُواته فوراً، طوله، غليونه؛ لكن كان يحملُ لحية تُشوِّهُ ملامِحَه؛ لم يتلقّ تلغرافي ولم يتوقّع وجودي. المقاهي ممنوعة أمامنا وأخذتُه إلى غرفتي. تحدّثنا ساعة وكان عليه الرّحيل. عدتُ إلى «الأيل»، قال لي إنّ العسكر صارمون وتفاقم قلقي. رجع عند الحادية عشرة حليق الوجه تماماً؛ وحدَهُ هو ومُساعِدُوه مُؤهّلون لارتداء الزّي الأزرق للقوّات الجوّية؛ ما من رقم تسجيل، مثل جنود الجبهة تماماً. عدد كبير من الجنود يرتدون بِزّات كاكي، مع قبّعة وغطاء رأس صوفي ذي شرابة كالذي يَضَعُه البوليس: إنّهم القنّاصة. مَدنيّون قليلون. لكنّ الخمّارة مليئة، دون شكّ بسبب 1 نوفمبر. تناولنا الغداء في طاولة بالعُمق، تقرّر استبدالُ أختي المريضة بابنة عمّ تكفّل سارتر بالبحث عنها. رمقتنا المُدَبِّرتان بعيون ودودة وبدأتُ أشعُر بأنّي مُلاحَقَة.

عندما يُغادرني سارتر، أدخُل فراشي، مُرهَقَة للغاية، نمتُ ثلاث ساعات كحجر. جعلني المُنبّه أقفز من الفراش وجاءت المُدَبِّرَة لتقول لي باللّهجة الألزاسيّة إنّها وعدت امرأة بغُرفتي وهي قادمة من الدّاخل لترى زوجَها؛ يرى المُقيمون أنّ هذا طبيعي ويُشاركون النّاس التآمُر، وحدَهم العساكِر من يجبُ أن يُحذَرَ جانِبُهم. حزمتُ أمتعتي، بحثتُ، عبثاً، عن غرفة في «جرادة البحر» وفي «الأسد الذّهبي». قابلتُ سارتر، تكفَّلَ بإيجاد غرفة لي بينما أذهَبُ إلى المخفر؛ حوّلني العساكرُ إلى البلديّة؛ تحدّث رئيس البلديّة مع ضابِطَيْن ومدنِيَّيْن ضَخمَيْ الجُثّة، لم ينتهِ حوارُهما قط، أخيراً تفحّص أوراقي، لم يفهم شيئاً من طلب التّمديد ومهر الوثيقة كما اتّفق؛ عسكريٌّ دُعِيَ إلى الإنقاذ، انبهَر بمهور باريس، وأعلن أنّ أوراقي صالحة إلى غاية يوم الأحد مساءً. يا لها من راحة! عدتُ إلى مقهى «الأيل» الذي كان يعُجُّ بالجنود آنذاك. جلستُ إلى الكنتوار. صائد طويلُ القامة وسيمٌ كفاية وذو شاربَيْن دنا منّي؛ كانت تفوح منه رائحة الكحول: «كيف؟ ما زلتِ هنا؟ انتظروك في «جرادة البحر» منذ قليل»؛ لم أنتبه، قلتُ: «أنتظرُ شخصاً. - لم لا يكون الشّخصُ أنا؟»، قال الصّائد؛ اقترب أكثر واستشاط غضباً، ظنّ أنّي مُحترفة. «أعرف أنّكِ لم تأت إلى هنا بنِيّة

عدائيّة»، قال. لم أشأ الدّخول معه في خصومة، كان لدَيَّ إحساس بأنّ وضعي ليس نظامياً. صديق له نفَد صبرُه: «إذاً، ستأتي أم لن تأتي؟» سأل غاضباً. همس لي ثالث: «انسَيْ الأمر. - أريد منهم أن ينسَوا الأمر»، قلتُ يائسة حقّاً. مزج الصّائد الثّمل تهديدات بوعود حماية؛ حدَّقَ في عَيْنَيَّ: «أخيراً، أنتِ معنا أم ضدّنا؟ - لا معك ولا ضدّك. - ألزاسيّة أم فرنسيّة؟ - فرنسيّة. - هذا كلّ ما أردتُ معرِفَته»، قال راضياً وعليه ملامِحُ غريبة؛ قدّم لي عِكّازَه، هراوة غليظة، رفضتُها. وصل سارتر؛ حجزتْ لي المرأة التي يستأجِرُ لديْها، لكن من دونه قال: «جاءت زوجتي»، أجابت مصدومة: «لكن، ليس لديكَ زوجة»، وكان عليه تعديل كلامِه: «خطيبتي». تناولنا العشاء في «الأسد الذّهبي» المُزدَحِم، كان هناك امرأة، واضحٌ أنّها جاءت لرؤية زوجها. مُدهِشٌ مزيجُ المغامرة القلقة وسط الصّقيع والعتمة، والتّرف الألزاسي: أصواتٌ عالية، دُخان، حرارة، رائحة المُخلّلات. لفت سارتر انتباهي إلى أنّهم يحترمونه وأنّهم يُحدِّثونه كمَدنيّ لأنّ معه امرأة: يمنحُه ذلك خصوصيّة. افترقنا باكراً: لا ينبغي أن يُشاهَد الجنود في الشّوارع بعد التّاسعة. غُرفتي مُدفّأة قليلاً، لكنّ الأغطية مُتجمِّدَة؛ على الجدار قطعُ قُماش عليها طُرّزَت كلمات بالألمانيّة: ناموا بأمان.

2 نوفمبر

استيقظتُ عند السّادسة لتناوُل الإفطار مع سارتر؛ ضوء يومِضُ من بعيد. خمّارةُ «الأيل» مُظلِمة. غُلّفَت المصابيحُ بالورق وليس ثمّة سوى واحد يضيء؛ الغرفة خالية تقريباً؛ استفاقت المُدَبِّرَتان بمشقّة، وأوقدنا الموقِد؛ لاح الفجرُ. وصل سارتر مُبَكّراً. «إنّه يضحَك ويتكلّمُ اليوم، قالت المرأة، كما لو كانت تتحدّث عن آلة ميكانيكيّة. عادة يقرأ فقط.» أزاحت الكُتُب التي جلبتُها وبتآمُر: «لا قراءة اليوم.» قدّمت لنا قهوة ألزاسيّة رهيبة، أسوأ من القهوة في الفنادق الفقيرة، تحدّثنا ساعة، وغادَر سارتر لجمعِ بعض المعلومات الغامضة، بقيتُ وحدي في الغرفة الكبيرة الفارغة التي تُضاءُ رُوَيْداً. في الخارج موكب جنود يحملون مجارف على الأكتاف؛ إحدى فتيات المنزل شقراء، وضعت على حافّة النّافذة قهوة وكأس روم، ويأتي ضابط مُفترَق المدينة ليحتسيَهما وهو

يحرُس الحركة؛ كان يحمِلُ قُفّازَيْن سميكَيْن من القطن، أنفاسُه تصنَعُ غيمة في الهواء. أقرأ رواية سارتر، مائة صفحة، إنّها المرّة الأولى التي أقرأ فيها حجماً مماثلاً في نفسٍ واحد ووجدتُ التّجربة رائعة. دوّنتُ بعض الملاحظات النّقديّة، خصوصاً حول طبيعة مارسيل. ثمّ ذهبتُ إلى المقهى حيثُ جاء سارتر للقائي على الفطور. جاء مُساعِدان له يبحَثان عنه، وغادرا معاً للبحث عن غرفة. عثرا على واحدة لسارتر ولي، في «الثّور الأسود». النّاسُ هنا يعتنون بالعسكر القائمين على خدمتهم ويجعلونهم يكسِبون العيش وهم لُطفاء معهم أكثر مما هم مع المدنيّين. حُلَّت جميعُ المشاكل إذاً. حوارٌ طويل. يعتقد سارتر أنّنا لن نتقابل وأنّها حرب عصريّة، دون مذابح، كما هو الرّسم الحديث دون موضوع، الموسيقى دون شجن والفيزياء دون مادّة.

3 نوفمبر

هذا التوتّر الذي لم أفلِح بالأمس صباحاً في تحديده بدِقّة: إنّها ذكريات من رياضات الشّتاء خلال العُطَل. نفسُ اللّيالي، نفسُ البرد، نفسُ المجهود المبذول من أجل متعة مُؤجّلة حين ننغمسُ، في الصّباح الباكر، وسط عالم مُتجمّد، نفسُ رائحة الخشب المُبَلَّل داخل أروقة النّزل. الجنود متّكئون بمرافقهم على الكنتوار، مثل مُدَرِّبين يشربون كأساً في شاموا قبل إعطاء الدّروس الأولى؛ آونة رفاهية مُؤقّتة في الفجر الشّتوي. وأنا وحدي مع سارتر نعَمُ بعُطلة في قرية. تمَّحي المشاهد مع انتهاء الفترة الصّباحيّة. لكن خلال السّاعات الأولى تكون قويّة.

جميلَة صالةُ «الثّور الأسود»، ومُزَوَّقة بفراشات مُثَبّتة، رؤوس أيل، وطيور مَحشُوَّة. أقرأ دفتر سارتر (كان يُسجّل في هذا الدّفتر حياتَه يوماً بيوم ويقوم بما يُشبِهُ التّقرير حول حياته الماضية)، بصبر؛ تحدّثنا حولَه عندما جاء. بعد الظّهيرة، رأيتُ في بقالة جُندِيَّيْن أمام قِدْرٍ ضخم، مليء بالخردل؛ أرادا أخذَهُ لكنّ صاحبة المتجر لم تشأ إعارة القِدر. «لن أحمِلَ الخردَل في يدي على أيّ حال»، تذمّر أحدهما؛ وأضاف بعدائيّة: «الألزاس ليسوا تُجّاراً.» نستشعِر هذه الضغينة في كلِّ زاوية. يرفُضُ الناس هنا السّماحَ بإخلائهم لأنّهم يتعاملون

معاملة ألمان. مع ذلك هم هادئون رغم أنّ عشرة كيلومترات فقط تفصِلُهم عن الجبهة.

أريتُ دفتري لسارتر. قال إنّ عليَّ التوسُّعَ أكثر فيما أقولُه عن نفسي. أرغَبُ في ذلك؟ أشعُر أنّي بدأتُ أعثُر على نفسي: قريباً يُصبِحُ لَدَيَّ اثنان وثلاثون، أشعُر أنّي امرأة كاملة، أودُّ معرفة أي النساء هي هذه المرأة. فيمَ أنا «امرأة» مثلاً، متى لا أكون كذلك؟ وعموماً ماذا أطلُب من حياتي، بمَ أفكّر، ما هو موقعي في العالم؟ إن امتلكتُ الوقت فسأعتني بهذا الكُرّاس.

5 نوفمبر

بالأمس، الطّقسُ لطيفٌ جدّاً. اليوم تذوب الثّلوج. انتهزتُ الفرصة كي أزور في القرية بعض الأماكن البديعة. جُندِيّان يلعبان الكُرة في مُفترَق، آخرون يستجمّون على المقاعد العامّة. لا نرى سوى الأزياء؛ كلُّ السيّارات مُمَوَّهَة، أحصنة، شاحنات تمرُّ بين الحين والآخر. مع ذلك فإنّ السِّلمَ يطفو على سطحِ الحرب؛ قريباً القنال، لا يزالُ هناك لافتات زرقاء تشيرُ إلى أنّ الطّريق يُؤدّي إلى وجهة ما ولا تُخبِرُ بأنّ الطّرقات مسدودة. فوق الأسطُح ثمّة زَبَد غير مألوف؛ بدا أنّ الأشجار توجد بغطرسة، لأجل بقائها فحسب.

باحتشامٍ عرفتْ برومات خصوصيّتَها: إنّها ليست مُجرّدَ ثكنة عسكريّة ومع ذلك... ها هو الأوتوبيس القديم للقرية يقودُه سائق يرتدي بذلة عسكَريّة وبدلَ اسمِ القرية، نقرأ على الزّجاج الأمامي «بريد»؛ تصطدم الدّروب الموحلة بالأسلاك الشّائكة.

في «الثّور الأسود»، يُحادِثُني جُندِيٌّ يعمَلُ في مكتب. خاض معي في مواضيع حول ستراسبورغ الفارغة، حيثُ لم يعد هناك سوى بعض الإداريّين؛ مدنيّون يأتون لأخذ أمتعتهم، لكن لا يحقُّ لهم المبيت؛ نفد مخزون التّبغ؛ كلّ شيء ميّت. لكنّ الناس كانوا ينتظرون السّلام في عيد الميلاد. هو أيضاً يعتقد أنّ الحرب «ديبلوماسيّة» حيثُ لن ينشب قتال. اقتربنا من الجبهة كلّما اضمَحلّت الحرب. تُطمئن باريس الوافدين من بوزڤيل أو كيمبي وبرومات تُطمئن باريس.

التحق بي سارتر عند الرّابعة، وقُدِّمت لنا قهوة في الصّالة الخلفيّة، لأنّ المقهى لم يكن مفتوحاً في وجه الجنود بعدُ؛ الجوّ ملائم للحديث، إلى ركن طاولة طويلة مكسُوَّة بغطاء قُماشي مُشَمَّع أزرق وأبيض. من حين إلى آخر، كان أحدُهم يفتَحُ الباب وسرعان ما يُغلِقُه مُعتَذِراً. قلتُ لسارتر إنّي لن أشتغل على نفسي الآن كما تحدّثنا أوّل من أمس. أريدُ إنهاء روايتي. أريدُ العيش بحركيّة لا في جوّ مُحَدَّد. عند الخامسة انتقلنا إلى الصّالة الكبيرة. أكلنا السّجق والبطاطا. تحت سماء صافية، رافقني إلى ساحة المحطّة، ثمّ اختفى في ظلام اللّيل.

قاعةُ الانتظار مُعتِمَة: جنود كثيرون، مدنيّون أيضاً مُكَلَّفون بالطّرود؛ عدد كبير يحملون حقائب على ظهورهم؛ على الرّصيف تضوع روائح نبيذ الكرز المُقَطَّر.

جاء القطار، مُكتَظّاً إلى درجة يصعُب معها فتحُ البوّابات. تقدّمتُ إلى الأمام وتعلّقتُ بعنقود جنود، وحالفني الحظّ في إيجاد ركن. توقّفنا عند جميع المحطّات حتّى بلغنا سافيرن.

سافيرن، التّاسعة، محطّة ضخمة وضاجّة وسوداء. ليس هناك سوى بوفيه في الصّالة الكُبرى، حيث لا يوجَدُ شراب. خرجتُ، وتعلّق طيّارٌ بخطُواتي؛ عبرنا ساحة حالكة السّواد وطرق باب حجرة استقبال في فُندُق، تحدّث مع المُديرة التي بدا أنه يعرِفُها وسمحت لنا بالدّخول؛ في قاعة أكل بائسة، احتَسَيْتُ عصير اللّيمون، قبالة الطيّار الذي راحَ يتفنَّنُ في إغوائي. لكنّهم سرعان ما طردونا. لن يُغادِر المُحتَرِفُ قبل مُنتصف اللّيل وشعُرتُ أنّي مُلاحَقَة. تفوحُ الحرب من قاعة الانتظار؛ طاولات مُلتصقة وُضعت فوقَها طرود تعيسة: حواش، أغطية، أمتعة إجلاء؛ تكدَّسَ المُرَحَّلون على المقاعد داخل غيمة سميكة، وسط حرارة مُدَمِّرة لسخّان تنبعث منه رائحة ثاني أكسيد الكربون. بقيتُ واقفة في ركن ورُحتُ أقرأ؛ ثمَّ خرجتُ. تكوَّمت الحقائب في معبَر سُفلي، جنود يأكُلون جالِسين فوقَ أمتِعَتِهم؛ آخرون يرتاحون على عتبات المدارِج؛ الرّصيفُ مُزدَحِم إلى درجة يستحيلُ معها التحرُّك خُطوة واحدة. ظللتُ واقفة، مثل عارضة أزياء، مُستغرقة في أفكاري، حتّى لم أشعُر بمرور ساعة الانتظار الأخيرة. لأنّها «لا توجد»، كما قال سارتر فإنّها في كلّ مكان.

هذا الرّصيفُ هو الحرب.

قطارٌ ازدَرَدَ كلّ الجنود؛ ثمَّ وصل السّريع. دخلتُ حجرة مُرَفَّهة، ذات مقاعِد مُنَجَّدَة خضراء. «أنتِ وحدَكِ؟ إذاً، نقبلُكِ»، قال عسكري ألزاسي ضخم. جلستُ في زاوية. مدنيٌّ استبدَل غطاء رأسِه الصوفي بقُبَّعَة، قرويّون واثنان من سيڤر Sèvres؛ ذاهبون إلى هناك لقضاء ثلاثة أيّام في مُهمَّة استثنائيّة؛ الألزاسي من الدرجة 10، يعود إلى بيتِه تاركاً ابنَه على ضفاف الران Rhin. مزح بدَمٍ ثقيل حول متعة السّفر مع سيّدة ولمّا لاحظ أنّي أحاولُ القراءة، صعد فوق المقعد وبعَصاه أضاء المصباح الأزرق: أنار أنفي، عَيْنَيَّ وذقني وأمكنني أن أقرأ. ثمَّ عندما أردتُ النّوم لفّني الألزاسي بمعطَفِه، وقدّم لي المدنيُّ مأخوذاً بروح المُنافَسَة وسادة. تمدّدتُ؛ لامست قدَمَاي الألزاسي، سحبتُهما وقال: «لكن أرجوكِ، إنّه تواصُلي الأوّل مع امرأة منذ اثنَيْ عشَر أسبوعاً.» دعانا على شراب المارك الألزاسي، احتَسَيْتُ جُرعَة، إنّه رائع؛ انتهت بتخديري. سمعتُ أقاصيصَهم في نصف نُعاسي. إنّها حكاياتٌ عن مُبادَرات السّلام: كيف أنّ الفرنسيّين والألمان يصطادون على ضِفَّتَيْ الران؛ كيفَ أنّ رشّاشاً ألمانيّا انطلق بصورة غير مُتَوقَّعة، ثمَّ سُرعان ما عُلِّقَت لافتة كُتِبَ عليها: «أيّها الجُنود الفرنسيّون، المعذرة، صفيق أطلَقَ العيارات ولم نشأ استهدافكم.» تحدّثوا عن ستراسبورغ وعن بؤس الإجلاء: أحدُهم بكى وهو عائد من بيتِه حيثُ وجد كلّ شيء مُخَرَّباً. غضب الجنود؛ رَوَوْا أنّه في منزل مُحتَل من قِبَل فيلق، سُلِخَ أرنب بتعليقه بالمسامير على خزانة: يُثيرُهم أنّ أثاثاً جميلاً كهذا يُخرَّب. بدوا مُتعاطفين مع الضُبّاط: خرج القبطانُ بنفسه في تلك اللّيلة ليشتري الكحول لرجالِه. على أيّ حال لا يفهَمُ أهل سيڤر الكثير عن هذه الحرب. ثرثر الألزاسي كما أراد؛ قال مُمازِحاً: «العنزتان والتّيسَيْن: أنتُما تيْسان.» وقهقه.

أمسكَ بِقَدَمَيَّ، نزع حذائي ووضعَ قدَمَيَّ على رُكبَتِه وسألني إن كان هذا يُناسِبُني؛ أجبتُ بتهوّر: «افعَل ما شئتَ بقَدمَيّ»، وفي قلب اللّيل استفقتُ على ضغط رقيق على كاحِلَيَّ. سحبتُ ساقَيّ ولم يُلِحّ.

لدى عودتي إلى باريس، دأبتُ على الكتابة في هذا الدّفتر، لكن دون قناعة.

كنتُ قد أقمتُ في الحرب: أقامت الحربُ في باريس. لم تعد المدينة التي أعرِفُها؛ أوّلاً، صرنا نرى عدداً أكبر من النّساء والشّيوخ والأطفال من الرِّجال الشُّبّان؛ لقد فقدتْ، خصوصاً، عُمقَها الفاتن، أسرارها التي وصفها كايوا Callois سنة أو سنتَيْن إلى الوراء، في دراسة حول *أسطورة المدينة الكبيرة*. كان للنّاسِ المجهولين الذين أصادِفُهم مثلُ مُستَقبلي: انتهاء الحرب؛ حوّلتُ هذه النّظرة عن الدّغل القديم إلى مجالٍ أُسَري، دون طوارئ؛ لم أعد أشعُر أنّي ابنة مدينة بل قَرَوِيّة. كان للطُّرقات البيضاء بريق في اللّيالي الجميلة. مساءً، نسمعُ خلف قُضبان اللكسومبورغ أصواتاً عسكريّة ونعيب بوم.

عاد والِدَاي إلى باريس؛ ظلّت أختي في ليموزان؛ لم تكن قادرة على الرّسم بشارع سانتويْ بسبب البرد والعتمة. ثمّ إنّ ليونيل المريض بحاجة إلى هواء الرّيف؛ جاؤوا مع خالته إلى سان-جرمان-لي-بيل وأقام عند الدّكتور. كنتُ أرى النّساء بوفرة: بيانكا التي تستعِدُّ لاجتياز إجازة الفلسفة، أولغا التي استأنفت العمل مع دولان. عُدنا إلى سالف لقاءاتنا السّنة الماضية. كنّا نرى وُجوهاً جديدة في مقهى فلور: سيمون سينيوري، شابّة، كأنّها تلميذة بالمعهد، قبّعة تُغطّي سواد شعرها القصير؛ حمراء الشّعر لولا، التي كانت منذ زمن تحلم بطاولة، بفمها الثّقيل، وعَيْنيها السّاهِمَتَيْن، دون أن يبدو عليها وعيُها بحجم جمالها. أمّ الرّجال فقد خسفهم وافد جديد واحد، نيكود Nicod، نصفُ يوناني نصف أثيوبي، في توهُّج العشرين؛ كان يرقُص في حفلات الزّنوج، بجاذبيّة وسيادة. عموما ظلّت جماعة الفلور وفيّة لطبيعتها؛ يسُرُّني الالتحام بها، لكن لا رغبة لي في إيجاد حيِّز نفسي داخلها.

انغمَستُ في الاستماع إلى الموسيقى لملء الفراغ في قلبي، وحسب تقاليدي، انكببتُ على دراسة الأمر بهَوَسي المعهود؛ استفدتُ كثيراً: امتزجت النّشوةُ والمعرفة كما كان يحدُث في طفولتي. أحدُهم أعارني آلة تسجيل واستعرتُ أسطوانات حلقة الرّقص؛ أمام هذه الأوقات الصّامتة الحافلة بالموسيقى، شعرتُ بنفسِ النّشوة التي تعتريني إزاء الكُتب الجديدة، يوم العودة؛ أتشوَّقُ للإنصات إلى أصواتها؛ لكن لا يكفي أن تُلامِس مسامِعي، أريد في الآن نفسه أن أفهم وأن أثمل؛ قلبتُ الأسطوانات عشر مرّات متتالية مُحاولة

تحليل كلّ مقطع والقبض على سِحرها. قرأتُ عدداً من الدّراسات حول تاريخ الموسيقى ومُختلف المُلحّنين. ارتدتُ «شانتكليرك Chanteclerc»، شارع سان ميشال؛ أجلسُ على كنبة، أضعُ السمّاعات: وتأتيني النّغمات من خلال صرير مُزعِج، لكنّي أنسى هذا الضّيق لأنّي أختارُ برامِجي بنفسي؛ هكذا كنتُ أسدُّ عدداً كبيراً من الثّغرات في حياتي.

ذهبتُ إلى حفلات عديدة وخصوصاً تابعتُ تلكَ التي تجري في صالة معهد الموسيقى الذي يُديرُه شارل مانش: كان صبوراً جدّاً إلى درجة أنّه كان يُغيّرُ قميصَه بين المقاطِع. أحضر عادة بروڤة كلَّ صباح يوم السّبت ودائماً حصص ما بعد ظهيرة يوم الأحد. هناك نرى مشاهير مثل كوكتو وكوليت، حافية القَدَمَيْن وسط صندَلِها. استمعتُ في الأوبرا إلى ألسيست Alceste لغلوك Gluck. لم نعُد نُكلِّفُ أنفُسنا عناء ارتداء ملابس باهظة لأجل الذّهاب إلى الأوركيسترا وككُلّ المسارح فقد تدنّت الأسعار بشكل ملحوظ: على تذكِرتي شُطِب العدد 33 فرنكاً، ودُوِّنَ مكانَه: 12 فرنكاً.

اهتممتُ خصوصاً بالموسيقى العصريّة - التي تقف بالنّسبة إليَّ عند سترافينسكي؛ وموسيقاري المُفَضّل هو راڤيل الذي قرأتُ مُؤلّفه بما استطعتُ من استفاضة. شغلتني الموسيقى سنتَيْن.

نادِراً ما كنتُ أحتسي كأساً في «الجوكي» مع أولغا. بدءاً من 9 ديسمبر، استُؤنِفَ الرّقص في الملاهي اللّيليّة. غنّت الفتيات النّشيد الوطني (المرسيليّة)؛ كن يرتدين ملابسَ خفيفة زرقاء تُخفي مفاتِنَهُنّ، بيضاء أو حمراء أحياناً أو تنانير قصيرة ذوات ألوان إنجليزيّة.

كان البوليس أحياناً يقوم بعَمَليّة مُداهمة؛ كانوا يضعون خوذات معدَنيّة لامعة، مصباحاً كهربائيّاً مزروعاً في الخاصرة، يتفحّصون أوراق الحرفاء. خلال اللّيل، إنذارات تُوَلْوِل لكن لم أعُد أكترث بها. تجتمع أولغا وأختُها وصديقان لاحتساء الشّاي والثّرثرة؛ لكن أنا، لا أريدُ أن أصبحَ مُتعَبة اليوم الموالي؛ أسُدُّ أُذُنَيّ كي أستطيع النّومَ في سلام وسط هذه الحياة الرّتيبة حدّ التطرّف، فإنّ أقل تسلية تأخذ أبعاداً مُهمّة. أسحبُ من دفتري حكايَتَيْن.

3 ديسمبر

يومٌ جميل في فيرول مع أولغا. وبدَلَ الباص القديم الصّغير، ركِبنا حافلة مُرَفَّهة أخذتنا من إيزبلي إلى كريسي. لكن ها إنّ شُرطِيَّيْن يقفان على المدخل، مُدّعيين أنّهما سيُعيدانِنا إلى باريس: لم يكن لدينا جواز عبور؛ جادلتُ لأنّ أحدهما أخيراً، أخذني إلى رئيسه الذي راح يهذي؛ أطلعتُه على جواز سفري مُتحدّثة بثرثرة، وثمّة امرأة أمُّها مريضة سمحوا لها بمُغادرة المحطّة، لذا سمحوا لنا أيضاً؛ تثبّتوا طويلاً من جواز سفر أولغا لأنّ اسمَها أجنبي، لكن لم يجدوا ما يقولون وغادَرنا مرفوعَيْ الرّأس.

تسلّقنا الدّرب المُنحَدر، كانت الشّمسُ ساطعة فنزعتُ مِعطفي. وصلنا إلى فيرول ورأيتُ وأريتُ أولغا منزل الآنسة ج...؛ أحدهم كان بصدد وضع صفائح لحصانه؛ استدار: إنّه دولان، في بنطلون مُخمَلي، ومئزَر طويل من قُماش الأكياس؛ حيّانا وطلب منّا الذّهاب إلى كامي التي لوَّحت لنا من الطّابق العُلوي. دلفنا؛ ثمّة كنبة جديدة، في عُمق الصّالة، نوعٌ من الحدائق الشّتويّة بأزهار اصطناعيّة وعلى الجُدران صورٌ جميلة لطيور. نزلتْ كامي في رداء حمّام أرجواني جميل، شريط بنفسجي وجواهر في شعرها المضفور؛ تحمِلُ خاتماً بربَرِيّاً في إصبعها وتلبسُ أساور وعقداً. الكلبة الصّغيرة والقطّ يلعبان معاً. جاء دولان وشرِبنا الڤودكا الممزوجة بالپورتو: مزيجٌ رائع. السيّدة ج... أقلّ ترويعاً من المرّة الماضية لكنّ شعرها كان ثُلاثي الألوان: أبيض من الأمام، أحمر من الوسط، وخصلات رماديّة بجانب الرّقبة.

بعد الغداء، اشتغل دولان على ديكور ريتشارد الثّالث الذي كان عليه إعادته؛ قَطَع، ألصق، وصنع برجاً صغيراً من أبراج لندن. رمقَتْهُ السيّدة ج... بنظرة توبيخ: «إيه! لم أكن أظنّ أن صناعة الدّيكور مُعقد لهذه الدّرجة؛ اعتقدتُ أنّ وضع الأثاث يكفي!» في الأثناء نَسَخت أولغا مشهداً من ريتشارد الثالث. حاكت كامي جوارب بنفسجيّة وبيضاء. مرّت فترة الظّهيرة، وزحفنا نحو اللّيل بمصباح كهربائي صغير أزرق أعارتنا إيّاه كامي.

8 ديسمبر

كنتُ أعمل ومرّ رجل يبيع أغراضاً مُشكَّلَة: رأس هتلر على جسد غوريلا، خنزير، فيل؛ إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها هذا النّوع من التّجارة. اقتربت سيسيليا بيرتان (اجتازت إجازة الفلسفة وانقطعت عن دروس المسرح لتعمَلَ مع جوڤي) من طاولتي؛ ترتدي فُستاناً مُخمَلِيّاً أحمر، مع بُقع ورديّة على الخَدَّيْن. «أعتقد، دون علم، أنّي جئتُ هنا لأجدك»، قالت لي. عملتْ أستاذة أدب في معهد الذّكور بسان-كونتن، كانت تشرَحُ شعر هوراس لتلاميذ في الصفّ الثّالث: «عندما أعود إلى بيتي أبكي وأطلب الصّفح من كورنيي!»، قالت لي.

كانت تُعطي دروساً أيضاً للباكالوريا: «بدأتُ بقراءة ڤيرلين بودلير على مسامِعِهم، لم يفهموا شيئاً، لكنّهم أحسّوا أنّي أقرأ بألم داخلي وشدّهم صدقُ إحساسي.» تحصّلت على عُطلة للتقدّم إلى معهد الموسيقى. كتب لها جوڤي ووعدها بأنّه سيعتني بها: لم يفعل شيئاً. شيّدت حول جوڤي أوهامها أكثر من تلك التي بنَتْها لويز بيرون. فسّرت لي أنّه يخاف الحب، لأنّه عندما يقَعُ في الغرام، فإنّه يَهبُ نفسَه بالكامل للمرأة التي أحبّها. «لذلك، لا يستقبلُني سوى في الأروقة أو على درجات السُلّم.»

آه! كم نشقى بعضنا بسبب بعض» كلّ إشارة لا مُبالاة كانت بالنّسبة إليها برهاناً على شغفه العظيم بها؛ تعتقد أنّه غيور: حين يرفَعُ ياقة معطفها أثناء البرد، تُفكّر: «يريد منّي أن أرتدي قناعاً حتّى لا يراني رجل آخر.» تتخيَّلُ أنّه يتعقّبها وأكّدت أنّها لمحَتْه ذات مرّة في مقهى ماهيو. فوّتَت على نفسها درسَها يوم السّبت صباحاً وبعد الظّهر قال لها بقسوة: «لِمَ لم تأتِ هذا الصّباح؟ هيّا ارحَلي، وليَنتَقِم منها قبّل أمامها فتاة جذّابة. كانت عندما تُؤدّي دور هرميون Hermione، وتُردِّد: «آه، لم أحبّك يوماً أيّها القاسي! ماذا فعلتُ إذاً؟» فإنّه يخفي وجهه كي يحجب تأثّره؛ ولم يَثْنِ عليها يوماً. حدّثتني عن وحدته وآلامه التي تُغذّي عبقريّته. في «انفجار عُزلة» وجدَت الأثر في دور «فادر Phèdre»: أثراً عميقاً، دقّقَت. هنّأتْ نفسَها لأنّها لم تهب نفسها لجوڤي الذي لم يطلب منها شيئاً من الأساس. عاشت دون النّظر إلى أيّ أحد في الفُندَق؛ كتبتْ:

«القصائد أوّلاً لتجريد الكلمات من بُعدِها الاجتماعي؛ ثمّ القصص باستخدام تلك الكلمات.» خلال المساء الذي رُفِضت فيه من معهد الموسيقى، ذهبتْ لرؤية جوفي؛ كانت هادئة؛ أخذها من يدَيْها ونظر في عيْنَيْها قائلاً: «أنتِ صاحِبَة دم بارد؟» قالت نعم، وقبَّل يدَيْها بنظرة ساحرة: «نظرة إنسان عثر أخيراً على الشّيء الذي ظلّ طوال حياتِه يبحَثُ عنه.» أضافت: «أنا سعيدة لأنّي فشلت، وإلّا ما كنتُ حظيتُ بهذه النّظرة.» جوفي بحاجة إلى كائن واحد في العالم: سيسيليا؛ غير أنّه يعرفُ نفسَه جيّداً، إنّه يُقدِّر طبيعته الصّعبة التي كانت ستمنَعُه من الارتباط بامرأة؛ لذلك اختار القطيعة. سألتني بعَيْنَيْن حارِقَتَيْن: «ما رأيكِ فِيَّ؟» فتهرّبتُ.

حصل نيزان على رُخصة نهاية شهر نوفمبر، جاء إلى باريس، لكنّني لم أرهُ وتأسّفتُ كثيراً على ذلك. سمِعنا عن أخبارِه؛ كما خمّنّا فإنّ المُعاهدة الألمانيّة السوفيتيّة قلبت كيانَه؛ في كورسيكا لم يُطلِعهُ أيٌّ من أصحابه الشيوعيّين عمّا يُدَبَّر: فكّر أنّهم تعمّدوا إبقاءه على جهله وجرحَه ذلك حدّ الموت. فهِمنا إذاً أسباب استقالته؛ لكن وددنا لو أنّه شرح لنا ما يجيشُ به صَدرُه. كتب لسارتر رسالة لا يقول فيها الشّيء الكثير. ردّ عليه سارتر وتلقّى منه رسالة أخرى بتاريخ 8 ديسمبر: كانت تلك آخر إشارة حياة أُعطِيَت لنا.

«رفيقي الصّغير. أشكُرُكَ على البطاقة التي وجدتُها لدى عودَتي من باريس حيثُ أمكنني الذّهاب. باريس غريبة والنّاسُ الذين رأيتُهم هناك مُهَرِّجون. أنا وأنت من بين ستّة أو سبعة كُتّاب سُذَّج لا هم تحت الرّقابة ولا هُم تحت جناح جيرودو Giroudoux. لا ينظُرون إلينا من دون استهزاء. لنكتُب رواياتنا. راجعتُ نفسي، لكن الإحصائيّات لا تَشغَلُ الرُوّاد كثيراً: لستُ سوى في الدّفتر الثاني. لن يُنشَرَ هذا قبل زمن. الرّوايات نفسُها ممنوعة بطريقة تجلبُ الغثيان ولا يَسعُني الآن شرحُ الأسباب التي دفعتني إلى الاستقالة من الحزب الشيوعي. رأيتُ بِتيدجون، مجروحاً بقسوة، لكن كان بطلاً كما يجب، رأيتُه صلباً، صادقاً ومُلاحَقاً من قِبَل الصّحافة. ربّما احتاج إلى عشر سنوات ليشرَح

لنا ما يحصُل. سيتبارى هو وآرون على الفلسفة. لن نضحَك ونحنُ نُراقبهما بل سنبدو طائشين. لم أمكُث طويلاً في باريس ولم تتسنّ لي رؤية الكاستور الذي وددتُ رؤيتَه. بلِّغها سلامي. اكتُب لي من ناحِيَتِك. إلى اللّقاء.

نيزان»

عرفتُ معلومات عن بوست عن طريق أولغا. لم يكن في خطر لكنّه كان يشتكي من حياتِه الحمقاء إلى أقصى الدّرجات. أمّا سارتر فما زال يرتادُ خمّارات برومات ويَجمَعُ الأرقام. كان يكتب لي يوميّاً تقريباً، لكنّي فقدتُ تلك المراسلات منذ التّشريد. في رسالة إلى پولهان Paulhan (حوّل پولهان الرّسالة إلى أدريان مونيي، الذي أراد نشر جزء منها في لا أدري أيّ نشريّة؛ أرسلتُ نسخة مرقونة إلى سارتر مُلتمِسَة فيها الإذن باستعمالِها؛ رفض.)؛ هكذا وصَف حياتَه:

«يتمثَّل عملي هنا في رَميِ كرة في الهواء وتعقُّبِها بواسِطة منظار؛ يُسَمّى هذا «جمعَ أرقام خاصّة بالأرصاد». بعد ذلك، أهاتِفُ إدارة الرّيح التي تُراسِلُ فيْلَق الطّيران كي يفعَلوا ما يشاؤون بالمعلومات. المدرسَةُ الحديثة تستَخدِمُ المعلومات، الأنظمة القديمة تُلقي بها في سلّة المُهمَلات. كلتا الطّريقَتَيْن سواء ما دمنا لا نُطلِق النّار. هذا العِلمُ المُسالم للغاية (الذي لا أرى غير المهووسين بالتحرّي مُقبِلين عليه، هذا إن كان لا يزالُ في الجيش مِهَن رقيقة وشاعِريّة) يترُك لي الوقت الكافي لإنهاء روايتي. أتمنّى أن تصدُر خلال أشهُر، ولا أرى ما الذي قد تعاتِبُه الرّقابَة عليها عدا نقص «المناعة الأخلاقيّة»؛ لكن طبعاً، لن أُعيدَ كتابَتَها.»

هكذا بدأت الحربُ المُضحِكَة تجُرُّ رداءها؛ في الجبهة وبعيداً عنها، لا حديث سوى عن قتل الوقت والمُضيّ إلى آخر المطاف لمعرفة اسمِ هذا الانتظار: هل كان خوفاً أم أملاً؟ انتهى الثّلاثي الأوّل وعزَمتُ على التّزحلُق خلال عُطلة عيد الميلاد: لِمَ لا؟ المُشكِلَة هي أنّي لا أجد من يُرافِقُني، في حين أنّنا نحتاجُ إلى المُحاكاة على الثّلج، والرّحلات المنفَرِدَة خطِرة. قالت لي بيانكا إنّ كاناپا في نفس وضعي: كنّا بالكاد نعرفُ بعضَنا بعضاً، لكنّنا ذهبنا معاً إلى ميجيف. حجزنا في شاليه إيديال سپور على قمّة جبل أربوا؛ لم يكن في

تلك الفترة يُوَفِّرُ رفاهية كبيرة للمُتزحلقين، ذلك الشّتاء؛ فقط يوم الأحد يكون الطّابور طويلاً لصعود المقصورة المُعَلّقَة لشوربرون؛ بقيّة الأيّام يكون لَدَيَّ انطباعٌ أنّ الثّلجَ لي. ساد التّفاهُم بيني وبين كاناپا، على نحوٍ سلبي: لم نَخُض حواراً واحداً خلال الأيّام العشرة الأولى؛ حتّى ونحنُ جالِسَتَيْن إلى الطّاولة وجهاً لوجه، كنّا نقرأ دون أن تُضايِقَ إحدانا الأخرى.

لم تكن ثرثرة بقيّة الزّبائن أو طريقتهم في القيام بالأشياء تُثير اهتمامها، ولم أنجَح في اكتشاف ما يُعجِبُها.

كُنّا مُتقارِبَتَيْن في التّزحلُق على الثّلج وكُنّا نسيرُ مُتحاذِيَتَيْن في صمت: قُمنا بنُزول مُشَوّق، عبر ثلوج عذراء، من پراريون فوق سان-جيرڤي. يُلائمني الأمر، وكان المكانُ زيادة على ذلك خالياً كلَّ يوم. عندما أعود حوالَيْ الخامسة أجلسُ إلى الطّاولة في الصّالة الكبيرة إلى جوار الرّاديو الذي لم يكن يُنافِسُني عليه أحد؛ أُعالِجُ الأزرار بحثاً عن حفلة مُهمّة: أحياناً كنتُ أنجَح، وأستمتع كثيراً بصَيْدي الوافر. كرّستُ وقتي للموسيقى والثّلج ولكلّ شيء، ونسيتُ أنّ سارتر سيحصُل على إجازة في شهر جانفي.

في باريس، بدأتُ أنتظره. ما يُذْكَر خلال هذا الشّهر هو بروڤات ريتشارد الثّالث على رُكح المسرح.

عُرِضَ ريتشارد الثّالث. ديكور رائع، وملابسُ أخّاذة. ماري إيلين داستي مُذهلة في فُستانها الأسود البديع، ومنديل شعرها الأبيض؛ بلان، وسيم في لباس بيكنغهام الأبيض. دولان وحدَه في بذلة فاتحة وقُبّعَة باسْكِيّة تمنَحُه مظهراً شرّيراً. مثّلت النّساءُ جيّداً وبرز دولان؛ بدا لي الرّجالُ أقلّ حذقاً حتّى بلان نفسُه. جاب مولودجي الصّالة في قميص نوم كالشّبح. سيطَر قليلاً على غضبه وهو يُنظِّمُ المُتفرّجين في الطّابق العُلوي. حياني: «إنّها تُعاني التهاب قصبات»، قال لي بنبرته الدّينيّة المُخادِعَة التي يتّخِذُها كلّما تحدّث عن كامي.

بداية شهر فيفري، انتظرتُ سارتر عند رصيف محطّة الشّرق. مرَّ الأسبوع بين نُزهَة ومُحادثات. كان سارتر مشغولاً جدّاً بما بعدَ الحرب؛ قرّر عدم الانزواء عن الحياة السياسيّة بعد اليوم. مبدؤه الجديد المبني على الأصالة الذي جاهد كي يُطبّقَه يتطلّبُ من الإنسان تحمُّلَ «وضعِه»؛ والطّريقة الوحيدة

للقيام بذلك هي تجاوز الوضع نحو آخر بدخول حراك سياسي: كلّ موقف آخر هو فرار، ادّعاء فارغ، مهزلة أساسُها الدّناءة. يُلاحَظُ أنّ تغَيُّراً جذرِيّاً حدث له ولي أيضاً أنا التي أنحازُ فوراً إلى وجهة نظره؛ لأنّ حرصَنا الأوّل لم يكن قط مُجرَّدَ ترك مسافة بيننا وبين واقعنا من خلال اللّعب والخِدَع والأكاذيب. أمّا عن التوسُّع في هذه النّظريّة فقد فسّرها بعد ذلك ما يجعَلُني أتوقّفُ عن الإلحاح في مُحاولة فهمِها. لم يكن يدري بعدُ - لا مجال ليعرِف مُسبَقاً ولم يشأ إطلاق الأحكام - كيف سيكون شكل انخراطِه في العمل السّياسي؛ لكنّه كان مُقتنعاً بواجبه تجاه الأصغر منه سِناً. لم يكن يرضى أن يشعُروا بعد الحرب بما ظلّ يحمِلُه مُقاتلو 14-18، «الجيل الضّائع» بين أضلُعِهم من مرارة لا تُمحى.

حولَ فكرة الجيل هذه، كانت له حوارات مُتَّقِدَة مع بريس پاران الذي اعتقَدَ فوراً أنّه سيُشار إليه بالبنان في عَصرِه لو أنّه هاجَم أحد مُجايليه، فمثلاً كنّا نكرهُ *جيل* Gilles لدريو Drieu: أحسَّ پاران أنّنا نستهدِفُه بالنّقد. في رسالة لم يبعَث له بها كتب له سارتر: «لا تكمن القضيّة في أنّ دريو يحمِلُ ذهنيّة مُختلفة عنّي تشكّلت في ظروف لم أعرفها. سيكون ذلك ضرباً من الصّبيانيّة. لكن لا ينبغي إخفاء دريو عنّي عندما أرغَبُ في الحُكم عليه وأن ألصق بنفسي «جيله»، بَدَلَ منزلته الخاصّة، قائلاً إنّهما الأمرُ ذاتُه. الشخصُ دريو من جيله، هذا معلوم، وقد عرف بمشاكل جيله. لكن لا يُمكن القول إنّهُ جيلُه. *الجيلُ* وضع، مثل الطّبَقَة أو البلد، وليسَ حُكماً نافذاً.مكتبة .. سُر مَن قرأ

بالنّسبة إلى السّياسة لا نخشى شيئاً، سأذهَبُ وحدي إلى هذه المعركة، لن أسير خلف أحد، ولن أنتظر من يُريدُ السّير في أثري. لكن ما يجدُرُ القيامُ به قبل كلِّ شيء، هو منعُ الشّباب الذين دخلوا هذه الحرب في السنّ التي دخلتْ فيها الحربَ الأخرى من الخُروج بـ «وجدان حزين (لا لأنّ هذا غير جميل في ذاته، لكن لأنّه سيّئ بالنّسبة إليهم.)» هذا لا يتسنّى حسَب اعتقادي، إلّا بمُساعَدة الأكبر سِناً من أولئك الذين كانوا سيُجبِرونهم على خوض هذه الحرب معه.»

15 فيفري

حمَل سارتر ملابِسَه العَسكَريّة من جديد. وصلنا عند التّاسعة والثّلث إلى

المحطّة. ثمّة لافتة ضخمة: عودَةُ المُرَخَّصِ لهم، مُغادرة جميع القطارات عند التاسعة و25 دقيقة. سيلٌ من الرّجال كانوا مُلتصقين بنسائهم، مُتوغّلين في الرّواق المؤدّي إلى الطّابق السُّفلي للمَحطّة؛ أنا هادئة، لكنّني تأثّرتُ لرؤية السّفر يتحوّلُ إلى حدث جماعي. انبجس البُكاء في حُنجُرَتي وأنا أرى الرّجال والنّساء يتصافَحون بصفاقة. ثمّة قطاران مليئان أحدُهما على اليمين والآخر على اليسار؛ غادر الأيمن: إنّه شعبُ النّساء: أمّهات، لكن خُصوصاً زوجات وصاحبات يبتعدن بعيون حمراء، ونظرات مُثبّتة، كانت بعضُهنّ يبكين. بالكاد عشرة شيوخ. فصلٌ غريب بين الأجناس. يُؤخَذ الرّجالُ فيما تعود النّساءُ إلى المدينة، بين المُنتظرات حتّى يرحَلَ القطارُ الثاني، قلّة تبكي؛ بعضُ النّساء تعلَّقْن بأعناق رجالِهنّ؛ تفوح رائحة ليلة ساخِنة وراءهنّ ونقص النّوم والتّعب الصّباحي العصيب. الجنود يتفاكهون: «إذاً، إنّها المياهُ العظيمة!» لكن يبدون مُتّحِدين. عندما أوشك القطارُ على المُغادَرَة، اكتظّت البوّابات بالنّاسِ ولم ألمَح سوى قُبّعَة سارتر في ظُلمَة المقطورة ونظّارتَيْه ويده التي كان يُلوّحُ بها من حين إلى آخر؛ ابتعد أحدُهم عن البوّابة ليسمَح لجُندِيّ بتقبيل امرأتِه وقال: «من أيضاً». اصطفّت النّساءُ وصعدت كلّ منهنّ درجة واحدة. صعدتُ أيضاً ثمّ اختفى سارتر في العُمق كأنّ سرداباً ابتَلَعَه. توتُّرٌ جماعي عنيف: هذا القطارُ الذي رحل للتوّ، إنّه عبارة عن اقتلاع جَسَديٍّ. قُضِيَ الأمر، لقد رحل. نأيتُ أوّلاً وبِسُرعة.

غداة رحيلِه، سقطت ثلوجٌ هوجاء على باريس؛ لم يُجرَف الثّلجُ من الطُّرُقات للنّقصِ في اليد العاملة؛ كنّا نمشي فوق الجليد حتّى في الشّوارِع الكبيرة؛ لنعبُرَ كان علينا تجاوُزَ أكوام الثّلوج التي تسُدُّ الأرصفة؛ كانت الطُّرُقاتُ مُستنقَعات تغرَقُ فيها الأرجُل حتّى الكَعبَيْن. بدا المارّة مرعوبين ومُشفقين: لقد اجتاحت الطّبيعة المدينةَ بقُوّة، لم يعرف الناس كيف يحتوونها، كوارث كبيرة تلوح في الأفق على ما يبدو. جاء بوست في رُخصة أحد تلك الأيّام المُتَجَمّدة. حتّى على الخطّ الأوّل، قال، فإنّ هذه الحرب تبدو شبَحاً: لا نلمَحُ ظلَّ ألماني واحد. كان يُحبُّ رفاقَه، لكنّه كان يضجرُ بشكل لا يُحتَمَل: كان يلعَبُ الورق وينام؛ مرّة من باب اليأسِ نام ستّين ساعةً متواصلة. فكرةُ مواصلةِ سنة أو سنتَيْن في خندَقٍ لا تُطمئنه البتّة. استغرب كثيراً لمّا أخبرتُه أنّ سارتر ينوي خوض غِمار السّياسة بعد انتهاء الحرب.

خرج الشّتاء. لاحت العوائق الأولى. قريباً سيُوَزِّعون علينا بطاقات الخُبز؛ الخُبزُ الفاخرُ ممنوع، تُغلَقُ محال المُرطّبات أبوابها ثلاثة أيّام في الأسبوع؛ لا تُباعُ الشّوكولاتة الجيّدة؛ أُقِرَّت ثلاثة أيّام دون تجوّل؛ في المطاعِم لا نملكُ الحقَّ سوى في طَبَقَيْن أحدُهما فقط باللّحم. لا شيء من هذا كان مُزعِجاً إلى حدّ لا يُحتَمَل. ما زالت الحربُ «مُختبئة».

تمّ توقيعُ مُعاهَدَة السّلام الفنلنديّة-السوفيتيّة في موسكو؛ أعلن هتلر بداية شهر أفريل أنّه سيدخُل باريس يوم 15 جوان؛ لكنّ أحداً لم يُصدِّق تبجُّحَه. رُوِيتْ أشياء رهيبة عن احتلال بولونيا: هُجّر الوطنيّون إلى مُعسكَرات اعتقال، تركهم الألمان يموتون جوعاً. جرى الحديثُ عن قطارات مُصَفَّحَة كانوا يُحبَسون بداخِلِها: ثمّ يفتحون عليهم غازاً قاتلاً كي يجوب المقطورات. كنّا نتردّدُ إزاء تصديق شائعات مُماثلة: نذكُر جيّداً تلك الأكاذيب التي شاعت خلال الحرب الأخرى وكان من الضّروري التنبّه جيّداً لحشو الرّؤوس هذا.

تابعتُ العمل، الذّهاب إلى المعهد، رؤية أصدقائي والاشتياق لنفسي؛ كان قلبي مُضطرباً وأشعُر بثقل الوحدة: لذلك لم أُقاوِم سوى بصورة مُرتخِية مُحاولة ليز اقتحام حياتي. باستمرار عندما أخرُج من الفُندُق، صباحاً السّاعة الثّامنة، تكون في انتظاري أمام الباب بمنديل معقود تحت ذقنها، ودمعة في مُقلَتَيْها: «هربتُ من البيت: أبي يريد قتلي!» غمغمت وهي تبكي. أو أنّ أمّها صفعتها؛ أو أنّ والِدَها ضرب أمّها: كانت تستحقّ المواساة على أيّ حال. أشفقتُ عليها، ورافقتني إلى المعهد عبر اللكسومبورغ الحزين. بعد انتهاء الدّروس وجدتُها مُسَمَّرَة على الجادة وترجَّتني كي أحتسي معها كأساً. اشتكت من جديد؛ درست الكيمياء، كما طلب منها والِدُها؛ كانت الدّروس النّظريّة تجلِبُ لها النُّعاس أمّا الدّروس التّطبيقيّة فتُخيفُها: كانت تكسرُ أنابيب التّجارب وتُؤذي يدَيْها؛ كانت على يقين من أنّها ستفشَل. وصفت لي والِدَيْها وفقرهما، سوءهما وقسوَتهما. كانت من حين إلى آخر تقطَعُ تباكيها لتروي لي بشغف قصص طفولَتِها. سرقت محال في رواق لافيات في سنّ الرّابعة عشرة بصحبة صديقتها تانيا؛ نجحت عديد المرّات؛ ثمَّ ذات يوم وضعت امرأة في حِداد يدها على كتِفَيْها واقتادتها إلى مخفر البوليس؛ بكت ليز وتوسّل

والِدُها للشُّرطة فأخلَوا سبيلَها؛ لكنّها في البيت تلقّت الضّرب المُبرح. «ولم يكن ذلك عدْلاً، لأنّ أمّي عندما تُكَلِّفُني بشراء بعض الأغراض فأسرقها فإنّي أبيعُها إيّاها بأسعار منخفضة!» في نفسِ الفترة أمضت شبابها الأوّل في مُخَيَّم شبابي وأغوَت كولونيلاً في الكشّافة: روسياً أبيض أربعينياً؛ واعدَها في اللّيل وقبّلها بنهم؛ لكنّه كان مُتزوِّجاً وذا سُمعَة جيّدة: لدى عودتهما إلى باريس أهملها ببساطة.

في الواقع، أفهَمُ أنّه كان خائفاً: هذه الطّفلة الضحيّة لا تعوزُها وسائل الدّفاعِ عن نفسِها؛ كان في عَيْنَيْها وجبهتها قسوة تحجُب رقّة شَفَتَيْها. احتَفَظَت من طفولتها بالعناد، السُّعار السّاذج، التطلُّب والارتباك. لامست قلبي حاجتها إليَّ. على مُفَكِّرَتها الشّخصيّة، وسمت بالأحمر الأيّام التي رأتني خلالها، وبالرّمادي تلك التي كنتُ فيها غائبة عنها: الأسود يُشيرُ إلى الأحداث المشؤومة. اعتَدتُ كلَّ أسبوعٍ أن أقضي معها بعض السّاعات ووجدتُها غير مُقتنعة. «حسبتُ أنّ لي وزناً عندَك، قالت لي ذات مرّة. لكنّكِ لا تُخصّصين لي حتّى الجزء المائة والأربعين من حياتِكِ!» فسّرتُ لها أنّ لي عملاً يشغَلُني: أكتُب رواية. «لأجل هذا السّبب ترفُضين لقائي! قالت لي غاضبة. لتروي حكايات لم تَحدُث أصلاً!» حدّثتنا قليلاً عن سارتر وسرَّها وُجودُه في الجبهة: وإلّا ما كنتُ اعتنيْتُ بها أصلاً. قالت يوماً بسُخط: «أتمنّى أن يموت!»

ثمّة أيّامٌ أتطلّعُ فيها إلى الوحدة: الأخبارُ سيّئة، ذابت جبالٌ من الحُزن والقلق فوق رأسي؛ رجوتُ ليز ألّا ترقُبَني عند باب المعهد: جاءت؛ طلبتُ منها أن تترُكني وشأني لأنّ مزاجي لا يَسمَحُ لي بالتّحدُّث: سارت بجانبي وهي تتحدّث نيابة عنّي أيضاً.

أثارت أعصابي وأغضبتني، ضحكتْ ساخِرة من حَنَقي ثمَّ انخَرطت في البُكاء فلِنتُ معها. كانت ضعيفة إلى درجة تجعَلُني مُجرّدة أمامها من كلّ أسلحتي.

تسارَع نسقُ منحِ الرُّخص. عاد سارتر إلى باريس مُنتَصَف شهر أفريل، واستأنفنا إيقاع حواراتنا. لم نتحدّث عن الكُتُب التي قرأناها على مسافة من بعضِنا، وقرأنا معاً بعض الكُتب. أحبّ *أرض الرّجال* لسان إيغزوبيري وقارب

الرّواية من فلسفة هيدغير (تحدّث عن ذلك في: *ما الأدب*). بيّن كيف أنّ حقائق مُختلفة تنكشفُ من خلال تقنيات مُختلفة، كلّ منها تُعبّر بطريقتها عن مُجمَل الواقع، دون أن يكون لإحداها أفضليّة على الأخريات. جعلنا نشهَدُ بالتّفصيل التحوُّل الذي يشعُر به طيّارٌ إزاء السّماء والأرض، جالِساً خلف مقوَد آلتِه؛ كان التّمثيل الأفضل، والملموس والأكثر إقناعاً بأطروحات هيدغير. ضمن نظام أفكار آخر، شُغِفنا باهتمام بُمؤلّفات روشينغ Rausching؛ *قال لي هتلر* وخصوصاً *تطوّر العدميّة* أضاء لنا التّاريخ. النّازيّة. صدر *القصر* بالفرنسيّة. إنّه كتاب مُميَّز تماماً مثل *المُحاكمة*. لامس أيضاً من خلال الحكاية الجذّابة والرّسول الزّائف الذي راهن عليه ك... - قضيّة تُحرقنا من الدّاخل: التواصُل. شدَّ انتباهنا أيضاً البورتريه الذي رسمَه كافكا «لمُساعِدَيْ» ماسح الأراضي: مُنتَبِهَيْن، فَوْضَوِيَّيْن وبارِعَيْن في انتهاز كلِّ فرص النّجاح بحماس التي كانت هزيلة أصلا. تعرَّف سارتر على الشّبه بين مُساعِدَيْه ومُساعِدَيْ ماسِح الأراضي ولابُدَّ أنّنا سنُصادِف آخرين من هذا الصّنف على مدى حياتنا.

ذهبنا إلى السّينما وإلى المسرَح قليلاً. لفَتَ اهتمامي كتابُ كوكتو *الوُحوش المُقَدَّسة*: إنّهُ قريب من موضوع *الضّيفة*؛ تُعنى الحكايةُ أيضاً بزَوْجَيْن متفاهِمَيْن منذ زمن، تربِطُهُما علاقة متينة، يدُبُّ إليهما الخَطَرُ المُفاجئ من خلال الرّغبة في استعادة الشّباب.

صدر *الخيالي* عن دار غاليمار. أبرز فيه سارتر نظريّته «التّقويض» التي تعَمَّقَ فيها. لقد بنى فلسفته بفضل يومِيّاته وكمٍّ من الأفكار والتأمُّلات حول نَفسِه؛ شرح لي الخُطوط العريضة، ذات مساءٍ ونحنُ نتنزّهُ بالقُرب من محطّة الشّمال؛ الطّرقات سوداء ومُبَلّلَة وانطبع لَدَيَّ إحساسٌ عميق بالأسى؛ تمنّيتُ المُطلَق وتعذّبتُ لغيابه حتّى لا أتعرّف في نفسي على ذلك المشروع العقيم الذي وُصِفَ في *الوُجود والعدم*؛ لكن أيَّ خِدعة بائسة، هذا البحثُ العبثي، الذي لا يُغادِرُ البدايات أبداً حيثُ تُبَدَّدُ الحياة! ناقشنا بعض المحاور خلال الأيّام القادمة خصوصاً حول الوضع والحُرّية. أؤيّد من الزّاوية التي عرّف من خلالها سارتر - ليس من باب الإذعان بل تجاوُز المُعطى الأوّل - الأوضاعَ غير المُتكافئة: أيُّ تجاوُز ممكن أمام امرأة مسجونة في «حرملك»؟ حتّى مع

هذا العزل هناك طرق لعَيْشِه، قال سارتر. قاومتُ الفكرة طويلاً ولم أذعِن سوى على أطراف الشَّفتَيْن. كنتُ في العُمق مُحِقَّة. لكن لكي أدافَع عن موقِفي كان حَرِيّاً بي الابتعاد عن منطقة الأخلاق الذاتيّة، أي المثاليّة التي كنتُ أحوم في دائرتها.

تفارقنا من جديد. الأفق يعتِم من يوم إلى آخر. لم تُقرّر الولايات المُتّحدة دخول الحرب. هاجم الألمان اسكنديناڤيا، وفي بداية معركة نارڤيك أعلن يرنو في الرّاديو بنبرة مُنَمَّقَة: «طريق الحديد مقطوع وسيظلّ كذلك.» لم يكن الأمر كذلك قط.

أبحرتْ جُيوش الحُلَفاء. ظلّ هتلر سيّد النّرويج ومناجِمَها.

صباح يوم 10 ماي. اقتنيْتُ صحيفة من مُفترَق ڤاڤان وطويتُها وأنا أنزلُ إلى شارع راسپاي. قفز عنوان بالخطّ العريض إلى عَيْنَيَّ. «هذا الصّباحُ، خلال السّاعات الأولى، اجتاح الألمان هولندا، وهاجموا بلجيكا واللكسومبورغ. الجيوش الفرنسيّة-الإنجليزيّة اجتاحت حدود بلجيكا.»

جلستُ على مقعَدٍ بالشّارع وانخرطتُ في البُكاء. «شوهِدتِ تبكين هذا الصّباح»، قال لي فرناند بعَطْف، منذ حرب إسبانيا وهو ساخط على الفرنسيّين ولم تُواسِه مأساتُهم. اليوم المُوالي قرأتُ الجريدة بقلبٍ يَخفق بشدّة؛ سُرعان ما اقتُحِمت الخطوط؛ جرى الحديثُ عن «ثغرات» وجب سَدُّها. لكن يوم 14 ماي سَمِعنا أنّ جيشَ كوراپ Corap قد ارتخى بالكامِل؛ سبعون ألف رجُلٍ ألقَوا بنادِقَهم وأشاحوا عن العَدُوّ بظهورهم. هل حصلت خيانة؟ ما من تفسير آخر يبدو لي مقبولاً.

كانت الحُدود مُغلَقَة، لكن التّراسُل مع البُلدان المُحايِدة لم يُعَلَّق. تلَقَّيتُ رسالة من أختي. غادر ليونيل ليموزان منذ أسابيعَ للعيش مع أمّه التي تزوَّجت مُجدّداً من رسّام برتغالي بفارو Faro؛ استدعى أختَه لقضاء أسبوعَيْن أو ثلاثة معهما. استَغرَقَ عبورها لإسبانيا ثلاثة أيّام في جناح من الدّرجة الثالثة ووصلت إلى لشبونة مُنهَكة تماماً. جلسَتْ في شرفة مقهى: لم تكن هناك امرأة غيرُها؛ لاحظها النّادِلُ فوراً وسألها وهو يُقدّم لها القهوة: «أنتِ فرنسيّة؟ - نعم. - حسناً، سيّدتي، الألمان اجتاحوا هولندا وبلجيكا للتوّ.» صُدِمت:

عُلِّقَت الأخبارُ على لافتات بلُغة تكادُ تكون غير مفهومة بالنّسبة إليها؛ غير أنّها فهمت ما يكفي وانفَجَرَت باكية. هرع إليها البعض: «إنّها فرنسيّة!» ووجدت نفسَها عالقة في الخارج طيلة فترة الحرب.

ذات مساء، من نهاية شهر ماي، وجدتُ أولغا في حانة كاپولاد؛ كان وجهُها مُتجَهِّما: «أصيب بوست»، قالت لي. تلقّت منه رسالة يُخبِرُها فيها أنّ انفجار قذيفة أصابَه في بطنه؛ كان فاقداً للوَعي حين نُقِلَ إلى بوم Beaume في كابينة خلفيّة. في وضعِه، كان محظوظاً رغم كلِّ شيء: لكن هل سنتمكّن من تصديق ذلك؟ لقد أُبيدَت كتيبة في ظرف أسبوع، قضى أفضل رفاقه نحبَهُم. أصبَح للموت حضور يوميّ، يستحيل التّفكير في أمر آخر. أرسل لي سارتر رسائل مُطمئِنَة، لكنَّه في الجبهة الآن، كلُّ شيء مُحتَمَل.

يحدُثُ الأفظع دائماً. يقترب الألمان من يومٍ إلى آخر. نسمَعُ في الرّاديو صوتَ پول رينو: «إذا قيل لي يوماً إنّ مُعجِزَة فقط قد تُنقِذُ فرنسا فسأقول: «أؤمن بالمُعجِزات لأنّي أؤمن بفرنسا»»؛ هذا يعني سلفاً أنّنا خسِرنا كلَّ شيء. لم تعُد لي القُدرة على العمل، بالكاد كنتُ أقرأ؛ كنتُ أذهَبُ إلى السّينما وأستمِعُ إلى الموسيقى. عرضت الأوبرا *الملكة ميديا* لداريوس ميلهو، بإخراج من دولان وديكور لماسون؛ بدت لي الموسيقى جميلة جدّاً ومُجمَلُ العرض لافتاً؛ إضافة إلى الكورال الغنائي - مُقَنَّعا، مُسَمَّراً في مكانه، حبيساً في ما يُشبِهُ الأكياس - ثمّة كورال صامت؛ كان يُعبِّرُ عن المأساة من خلال حركات أقرب إلى الإيماءات منها إلى الرّقصات: أظُنّ أن بارو هو الذي قاد الكورال ببراعة مُنقَطِعَة النّظير. نسيتُ العالم ساعات قليلة. سُرعان ما عُدتُ إليه. يوم 29 ماي، وأنا أفتَحُ صحيفة *العمل* قرأتُ بالخطّ العريض: «خان الملك ليوپولد» ثمَّ دانكيرك. لم يكذب هتلر إذاً؟ سيدخُل باريس يوم 15 جوان؟ ما العمل؟ انتَقَل سارتر إلى الجنوب بطبيعة الحال: لا أريدُ أن أجد نفسي مُنفَصِلَة عنه. أفكّر في الرّحيل إلى پواز: من هناك أعبُر لالوار بسهولة إن كانت الجيوش كما يُشاعُ مُحتشدة على الجانب الآخر من النّهر. لكن لا أستطيعُ التخلّي عن عملي كأستاذة.

يوم 4 جوان، قُصِفَت منطقة باريس؛ سقط عدد كبير من الضّحايا. والدا

أولغا ترجّياها أن تعود إلى بوزڤيل مع أختِها وأصرَرتُ: سافِرا. غادرت ستيفا بصُحبة فرناند إلى إسبانيا. أرادا دخول البلاد خلسة ومن ثمَّ إلى الولايات المُتَّحدة أو المكسيك (لجآ فعلاً إلى نيويورك). كان عليَّ إجراء امتحانات أقسام الباكالوريا يوم 10 جوان، كنتُ مُثبَّتَة في باريس. جالسة في شرفة الدّوم، تخيّلتُ بقلق مجيء الألمان، ووجودَهم هنا. لا. لا أريدُ أن أكون محبوسة حتّى نهاية الحرب في هذه المدينة التي تحوَّلَت إلى قلعة هائلة؛ لا أريدُ العيشَ حبيسة مُدَّة أشهُر. لكن ماديّاً ومعنَوِيّاً، كنتُ عند ضرورة البقاء هنا: كفَّت الحياةُ عن الرّضوخِ إلى مشيئتي.

انقَلَب كلّ شيء فجأة. حرّرتُ نهاية جوان قصّة عن تلك الأيّام ونسختُها، مُكتَفِيَة كما هو شأنُ دفتر الحرب خاصّتي بالقيامِ ببعض الانقطاعات.

9 جوان 1940 وما يليه

الأحد؛ أخبارُ الأمس سيّئة عند الخامسة: تقهقرٌ من جِهة إيزن Aisne. أمضيتُ الأمسية مع بيانكا في الأوبرا؛ عُرِضَت *أريان وصاحبُ اللّحية الزّرقاء*، كانت الصّالةُ فارغة. خيّم انطباعٌ بأنّه عرضٌ فخري ورمزي في مُواجهة العدُو؛ كانت كلتانا مُتوتّرة والطّقسُ غائم؛ رأيتُ السُلَّم الكبير وبيانكا في فُستانها الأحمر الجميل.

عُدنا مَشْياً ونحنُ نتحدَّثُ عن الهزيمة؛ قالت إنّ في وُسعِنا دائماً قتلَ أنفُسِنا وقلتُ إنّه عموماً عملٌ مُزرٍ. عدتُ إلى الفندق، مُتوتِّرة، متصلِّبَة الحُنجُرة. هذا الأحد يُشبِهُ الخمسة عشرة يوماً التي عِشتُها؛ صباحاً قرأت واستمعتُ إلى الموسيقى في أستوديو شانتكليرك من الواحِدَة إلى الثالثة. ذهبتُ إلى السّينما لإعادة مُشاهدة شبح *للبيع* ومُشاهدة *الزّائر الغريب*. ثمّ توجّهتُ إلى مقهى ماهيو حيثُ كتبتُ لسارتر. دافَعَتْ مُضادّات الطّائرات بضراوة؛ كان هناك سُحبٌ ودُخان أبيض في السّماء وغادَر الزّبائن الجالسون في الشّرفة. شعرتُ بأنّ تقدُّم الألمان تهديد شخصيّ؛ ليست في رأسي سوى فكرة واحدة: ألّا أُقطَعَ عن سارتر، ألّا أُحاصَر كجُرَذ في باريس المُحتَلّة. استمعتُ إلى الموسيقى وعدتُ إلى الفندق عند العاشرة؛ وجدتُ كلمة من بيانكا تقول فيها

إنّها بحثت عنّي طوال اليوم، وإنّها ذهبتُ إلى مقهى الفلور بمعلومات خطيرة لي، وإنّها رُبّما عادت ليلاً. بحثتُ عن تاكسي، دون جدوى، استَقَللتُ المِترو؛ كانت بيانكا في الفلور جالسة بالشّرفة مع بعض الرّفاق؛ مَضَيْنا معاً. قال لي إنّ والِدَها عَلِمَ من أحد معارفه بالقيادة العُليا أنّ تراجُعاً سيكون مُحتَمَلاً جدّاً بعد غد، أنّ الامتحانات قد عُلِّقَت وأنّ الأساتذة سيتمّ تسريحُهم مُؤقّتاً؛ جمَّدَت تلك الأخبار روحي، كان ذلك نهائيّاً، سيدخل الألمان إلى باريس بعدَ يَومَيْن، وليس أمامي غير الرّحيل معها إلى أونجي. قالت لي بيانكا في هذا الشّأن إنّ خطّ ماجينو ستتمّ مُباغَتَته من الخلف وفهمتُ أنّ سارتر سيُؤخَذُ أسيراً زمناً غير محدود، أنّ حياتَه ستكون رهيبة وأنّي لن أكون شيئاً من دونه. أُصِبتُ بنوبة عَصبيّة للمرّة الأولى في حياتي؛ كان الوقتُ الأفظع طيلة الحرب. حزمتُ أمتعتي الضروريّة منها فقط (أخذتُ معي جميع رسائل سارتر. لا أدري أين ولا متى ضاعت منّي). رافقتُ بيانكا إلى فُندقِها، شارع روابي كويار؛ كان هناك بعضٌ من رفاقها بالسوربون وصديقَتان سويسريَّتَان.

تحدَّثنا حتّى الرّابعة صباحاً، كان رائعاً أن يكون حولك أناس وصخب. كنّا لا نزالُ مُؤمنين بالنّصر: المطلوب هو التشبّثُ بباريس والدّفاع عنها حتّى وصول التّعزيزات الأمريكيّة.

استيقظتُ السّابعة صباحاً، 10 جوان؛ حالَفَني الحظّ للعثور على تاكسي، أقلّتني إلى كاميي-سي Camille-Sée؛ بعضُ التّلاميذ جاؤوا يتساءلون عن مصير الباكالوريا. أمرت المُديرةُ بإخلاء المكان. عدتُ إلى الحيّ اللاتيني. قابلتُ تلميذات من هنري IV، ضاحكات؛ كان جوّاً احتفالِيّاً في نظر عديدين، يوم الامتحان الذي لم يُجرَ فيه امتحان وسط الفوضى والمرح؛ مرّوا فرِحين بشارع سوفلو، مُبتَهِجين للغاية. لكنّ شُرُفات المقاهي كانت مُقفِرَة في الشّوارِع وبدأت مواكب السيّارات تمُرّ. كنتُ في وضع مُرَوِّع. في فندُق روابي-كويار احتسيتُ مع السويسريّات شمبانيا رديئة تركتهُ نمساويّة أُرسِلَت إلى مُعَسكَر الاعتقال؛ عزّز ذلك معنَويّاتي قليلاً؛ ثُمَّ تناولتُ الغداء مع بيانكا في مطعم ساڤويار. قال لنا المُدير إنّه سيَرحَلُ مساءً. سيرحَلُ الجميع. حزمت السيّدة عاملة دورة المياه في مقهى ماهيو حقائبَها، أغلَقَ بقّال شارع كلود-برنارد وأقفر الحيّ.

انتظَرْنا والدَ بيانكا في شرفة ماهيو؛ كان ذلك طويلاً ومُضجِراً: قال إنّه سيأتي بين الثانية والخامسة وتساءلنا إن كان سيصلُ في الموعِد، إن لم يكن الخُروج من باريس يُعتبَرُ بالتالي متأخّراً جدّاً؛ كنتُ متعَجِّلَة، خصوصاً للانتهاء من كلِّ هذا. لا أتحمّلُ هذا الوداع اللانهائي. لم تتوقّف مواكبُ السيّارات. النّاسُ يترقَّبون مرور سيّارات التاكسي وكانوا ينقَضّون عليها، لكن خلال وقت وجيز لم تعُد تَمُرُّ مطلقاً. وسطَ النّهار شاهَدتُ للمرّة الأولى طوابير اللاجئين التي سأظلُّ وقتاً طويلاً أراها: عشرات العربات المجرورة بأربعة أو خمسة خيول تحمِلُ أكواماً من التّبن يحميها من جانب غطاءٌ مُشمَّع أخضر؛ الدرّاجات والحقائب على الجانِبَيْن وفي الوسط حشدٌ لا يتحرَّكُ من الناس تحتَ مَطريّات ضخمة؛ كان ذلك مُنجَزاً بصورة أفضل مما في لوحات بروغل؛ بدا كأنّه موكب عُرسٍ وقور وبديع. انخَرطتْ بيانكا في البكاء وترقرق الدَّمعُ في مُقلَتَيَّ أيضاً. الحرارةُ شديدة، والجوُّ ثقيل، بالكادِ نِمنا، كانت عيوننا تُحرقُنا؛ كان الماضي يعود إليَّ، من حين إلى آخر، في شكل وميض مُنعِش.

رجُلٌ يُنظِّفُ أعمِدة الإنارة بهُدوء على الرّصيف المُواجه. كانت حركاتُه تخلُق مُستَقبَلاً يصعُبُ تصديقُه.

أخيراً وصلَت السيّارة. م.ب... يُقلُّ إحدى مُوظّفاته، كانت جالسة في العُمق، وسط كومة الأمتعة. اتّخَذنا أماكننا من الأمام. عندما صعدنا، قالت صاحِبَة الفندق بحماس «الرّوس والإنجليز توجّهوا نحو همبورغ.» جُندِيٌّ قادم من ڤال-دي-غراس هو الذي أذاعَ الخبر؛ عرفتُ منذ ذلك الحين أنّ أخبار دخول روسيا في الحرب قد انتَشَر بقُوّة في باريس (قال لي سارتر لاحقاً إنّ الخبر شاع أيضاً بين صفوف الجيش) الأيّام التالية. صدمني ذلك وصدّقتُه كالحمقاء، لكن سُرعان ما عرفتُ أنّها مُغالَطة بما أن الراديو لم يُعَرِّج على الخبر في أنباء الرابعة والنّصف. مع ذلك تابعنا رحلتنا يحدونا الأمل بأنّنا لم نخسَر كلّ شيء.

باب أورليون، سيّارات كثيرة، لكنّ الحركة لم تزدحم؛ بعض الدرّاجات فحسب وما من أحد يمشي على ساقَيْه: غادرنا قبل اكتظاظ الحُشود. عند كروا-دي-بيرني، كان علينا التوقّف ربعَ ساعة كي نسمَح بمرور شاحنات

مليئة بجنود شبّان مُنهَكين ثمَّ مِلنا نحو دروب صغيرة نحو ضيعَة شيڤروز Chevreuse. الطّقسُ جميل، ونحنُ نمُرُّ أمام ڤيلات مُزهِرة، يُمكن التخَيُّل أنّنا في نزهة عُطلة نهاية الأسبوع. على مشارِف «شارت»، انعطَفْنا وبدأنا نُصادِفُ بعض المُشاحَنات التي تخلُق ازدحاماً في الحركة؛ توقّفنا في طابور سيّارات طويل لا يتحرّكُ أبداً، انتَشَر النّاسُ في الحُقول؛ تحتّم مرور بعض الوقت كي نفهم ما الذي يحصُل؛ جُندي يجري من باب إلى آخر ويُنذِرُ بغارة وشيكة. نزلنا أيضاً وجلسنا للأكل على مقرُبَة من دغل خفيف. ثمَّ مُدّة ساعة سِرنا دون أن نتقدَّم، خلف سلسلة سيّارات، ثمَّ انطلَقْنا. لدى عُبور إحدى القُرى أطلقَ جُندِيّ صافِرَة وصرخ: «إنذار!» «اختبئوا عند مخرج القرية!» لكنّنا اتّجهنا نحو الطّريق. في مُفترق، أعلن جُندِيّ شاب دخول إيطاليا في الحرب: كان ذلك مُتَوَقَّعاً. حلَّ اللّيل. درّاجة مربوطة أمام الأضواء حالت دون إنارتها. توقّفنا في إيليي Illiers، قرية صغيرة جدّاً، حيث حالَفَنا الحظّ في العثور على غُرفَتَيْن في منزل شيخ مريض. احتَسَيْنا النّبيذ في أحد المقاهي؛ كانت النّوافِذُ موصَدَة تقريباً؛ ناقَشَ النّاس مسائل الإنارة والبلديّة، سألونا بارتياب عن الرّكن الذي جئنا منه في باريس. عُدنا للنّوم؛ نامت بيانكا على حاشية في غُرفة والِدِها، وأنا في فراش كبير مع إحدى العاملات. كانت هناك ساعة حائط ضخمة هدّدت بمنعِنا من النّوم، لكنّنا أوقفنا رقّاصَها.

عند الثّامنة، من النّافِذَة، رأيتُ في اليوم التالي سماءً رماديّة، حديقة مُستطيلة مع ريف مُسَطَّح رهيب في الخلفيّة. ركضتُ إلى المقهى لأكتُبَ لسارتر دون أمل. قدَّم الراديو الأخبار؛ بكت امرأة وهي تسمَعُ ما يُذاع وحذوتُ حِذوَها؛ كان من المُستحيل في ذلك الصّباح أن يختلف اثنان حول الهزيمة؛ كانت في كلّ مكان، في نبرة الكلمات والصّوت وفي القرية أيضاً. «إذاً، ضاعَت باريس؟ أُخِذَت باريس؟» سُؤِلْنا. على جدران إيليي راحَ رجُلٌ يُلصِقُ لافتات تخُصُّ الإيطاليّين. كان هناك سيّارات لاجئين في كلِّ زاوية من الشّارع.

استأنفنا المسير عند التّاسعة. كانت الرّحلةُ سهلة؛ تجاوزنا الطّوابير الشّبيهة بتلك التي تركناها في شارع سان ميشال لكن مُفكّكَة قليلاً، التّبنُ مأكول في جزء منه، النّاسُ يمشون على الأقدام؛ بالأمس مساءً رأينا النّاس يأكُلون وسط

الخنادِق، والأحصنة السّائبة تستعِدُّ للنّوم في العراء. كانت مُقاطَعَة مان مليئة بالجنود الإنجليز. وصلنا إلى لاڤال الضاجّة باللاجئين؛ صادَفْنا سيّارة ذات عجلات سوداء فاحمة كانت قد عبرَت إيڤرو المُشتَعِلة، وبدأتُ أرتجف خوفاً على أولغا. عدد كبير من اللاجئين جاؤوا من النّورماندي. كانت السيّارات رابضة إلى جانب كلِّ الأرصفة، السّاحات والأراضي القريبة كانت جميعُها مُزدَحِمَة بالنّاس الجالسين فوق حقائبهم وأغراضِهم، تمدّدت شُرفات المقاهي وشملنا الغزو أيضاً. في المحطّة، يجري الحديثُ عن أنّ القطارات الآتية من باريس قد تاهت في الطّريق؛ عرفتُ أنّ حافلتي التي ستُقلّني إلى أونجي تنطلق عند الخامسة والنّصف. بحثنا عن مطعم. في النّزل الكبير ضحكوا علينا ملء الشِّدقَيْن، لم تبقَ شريحة جومبون واحدة. توجّهنا إلى حانة، ذات جُدران مكسُوَّة بالخَزف، لابُدَّ أنّها كانت في سلام قبل يوَمَيْن بألعاب الورق والجاكيتات المُعلَّقة على النّوافذ؛ كانت تُشبه بوفيه المحطّة بطاولاتها السّوداء حيثُ لا شيء غير لحم العِجل بالجُلبانة؛ أكلنا منه أيضاً. أخذتُ حقائبي، ودّعتُ بيانكا وشكرتُ والِدَها؛ رصّفتُ أمتِعتي في صندوق الودائع، وتوَجَّهتُ إلى البريد لأُجري مكالمة إلى پواز. كان النّاسُ يفوقون التصوُّر وانتَظَرتُ ما يُناهِزُ السّاعَة كي أُجري الاتّصال. لاجئة بائسة دنت من عاملة الهاتف: «هلاّ اتّصلتِ لي؟» انفَجَرَتْ موظّفة الهاتف ضاحِكة. انشغلتُ عن المرأة الطيّبة؛ أطلعتني عن الجهة التي تريد الاتّصال بها وبحثت في الدّليل عن أسماء المُشتركين: لا أحد يتناسبُ مع طلبها؛ لقد غادر، ينبغي أن يكون في الحقول الآن. كنتُ مُرهَقة ومُتوَتِّرَة إلى حدّ جعل قلبي يخفق بشدّة، ارتعش صوتي عندما جاءني صوتُ السيّدة لومار على الهاتف؛ قالت لي إنّ البيت مقلوب رأساً على عقب وأنّه مليء، لكن ستأتي لأخذي من أونجي بعد العشاء. ركبتُ الحافلة، حيثُ كان علَيَّ أن أكون واقفة. التقيتُ بتلميذة من رووان في سفر دائم. تحدّثنا عن الماضي.

في أونجي، الثّامنة مساءً، ساحة المحطّة مليئة بلاجئين لا يعرفون مصيرهم. ما من مكان يأوي إليه النّاس. مجنونة مُتلَفِّعة بغطاء صوفي تدفَعُ عربة الحقائب: كانت تدور في حلقة مُفرغة، بيأس تامّ. كنتُ جالسة في شُرفة، حلَّ اللّيل وتساقَطت الأمطار؛ مرّ الوقت، كنتُ مُنهَكَة جدّاً؛ أخيراً توقّفت

سيّارة؛ كانت بداخِلِها جاكلين لومار وإحدى أخوات زوجها، من أصول ألمانيّة وظلّت طوال الطّريق تلوم الجنود الفرنسيّين لقلّة ذوقهم. أكلتُ قليلاً ونمتُ على سرير غريب دون وسادة؛ غاصت الحَشِيَّة بين أخشاب السّرير وشعُرتُ أنّي في عمق زورق.

لثلاثة أيّام لم أفعَل شيئاً سوى قراءة الرّوايات البوليسيّة. لم تكن السيّدة لومار تُغادِرُ فراشَ زوجِها؛ كانت ترى الكوابيس الرّهيبة كلَّ ليلة، كوابيس عن الحرب. كانت تسهَرُ ولا تغفو أبداً. كانت القرية ضاجّة بالأهل والأصدقاء، كان النّاسُ يُطَبِّقون البيانات بحرصٍ وحذَر.

ذات مساء، رنّ الجَرَسُ حوالَيْ التّاسعة: شوهِدَ مِظَلّيون، طلبوا من السيّدة لومار إخبار العساكر بذلك، على بُعد 5 كيلومترات من هناك بواسطة سيّاراتها؛ عرفنا اليومَ الموالي أنّ المظليين هم مُجرّد أكياس...

أوقفتُ القصّة هنا. رويتُ تقريباً في *دماء الآخرين* ناسية التّجربة لإيلين، كيف مرّت الأيّام المُقبلة. شاحنات تأتي من ألونسون ومن ليغل كلَّ يوم شاقَّةً القرية. بين ضيوف السيّدة لومار الكُثُر، أناسٌ خائفون جدّاً، يريدون الهرب، إنّهم يُرعِبون القرويّين برواياتهم حول الألمان الذين سيقطَعون أيدي الذّكور. لكن لا سبيل لإخراج السيّدة لومار من بيتِها، وكلّ محاولة هرب هي من قبيل العبث؛ شخصيّاً، كنتُ مُقتَنِعَة أنّ سارتر مسجون، وما من سبب يجعَلُني أبقى في بوردو بَدَل پواز؛ ولأنّ معهد كاميي–سي قد نقل نشاطَهُ إلى نانت Nantes فمن الأفضل المُكوث قريباً منها. لا أحد إذاً، يبرَحُ مكانه. رجال يقومون بدَوريّات مسائيّة في الشّوارع. بنادقهم على أكتافهم، لا أحد يعلَمُ لماذا. ذات مساء، صرَخ أحدهم من شاحنة: «إنّهم في مان Mans»، صباح اليوم المُوالي هرب القرويّون بالعربات والشّاحنات والدرّاجات وتشتّتوا بين الحقول؛ ما من أحد يجوب الشّوارع حاملاً بُندُقيّة؛ كانت القرية قاحلة، الأبواب موصدة، والنّوافذ مُقفَلَة. سمعتُ أصوات المدافع والانفجارات: انفَجَرت خزّانات أونجي للبنزين. وسط صمت الشّارع الكبير مرّت شاحنات تعُجّ بالجنود الفرنسيّين. كانوا يُغنّون. نزل أربعة ضُبّاط متأنّقين تائهين من سيّارة. «هل هذا

هو الطّريق المُؤدّي إلى شولي؟» سأل مُلازم جاكلين لومار: «نعم» تردّدوا؛ كانوا في طريقهم إلى لوار لمُحاولة القيام بـ«عمليّة تصدّي» لتعطيل العدُو. شرَحوا لنا: لكن أرادوا معرفة ما إذا كان الألمان قد وصَلوا إلى أونجي أم لا؛ اقتيدوا إلى مركز البريد؛ في الدّاخل كان الهاتف يرِنُّ لكن الباب مُغلَق بالمفتاح. جلبتْ جاكلين فأساً وكسروا القفل. بعد إجراء مكالماتهم نصحونا بالعودة إلى البيت وعدم مُغادرته أبداً. وانطلقوا. مرّ بعضُ الجنود أيضاً في الطّريق من دون خوذات، أو بنادِق مُتكئين على هراوات. ثمَّ مرَّ موكب دبّابات مُشيحة بظهرها عن العدُوّ. ثمَّ لا شيء. أغلب مُتساكني المنزل استقَرّوا الآن في الحديقة. نام السيّد لومار في غرفته التي لم أدخُلها قطّ، وراحت السيّدة لومار لتلتحق به بعد إغلاق جميع الشّبابيك. بقيتُ وحدي خلف نافِذَة أراقبُ الطّريق المعروفة، لكنّ الزّمن تغيَّر. قُذِفَ بي في وقت لا ينتمي إلى حياتي. لم تكن فرنسا ولا ألمانيا: *بلد لا أحد no man's land*. فجأة انفجَر شيء ما تحتَ نوافِذِنا، طارت شبابيكُ المطعَم المُقابل وتشظّت إلى أشلاء صغيرة، صوتٌ قويّ تلفَّظ بكلمات مجهولة، وبرزوا، طويلي القامة جدّاً، شُقراً وذوي وجوه وردّية. كانوا يسيرون على وقعٍ واحد ولا يلتفتون أبداً. دام مرورهم طويلاً. مرّت خلفَهُم الخُيول، الدبّابات، الشّاحنات، المدافِعُ والمطابِخُ المُتنقِّلَة.

استقَرّت كتيبة مُهمّة في القرية. مساءً، وباحتشامٍ دخل القرويّون بيوتَهم؛ فتَحَت المقاهي أبوابَها، لم يقطَع الألمان أيدي الأولاد، كانوا يَدفعون ثمن مُشتَرَياتهم والبيض الذي يشترونه من الضّيعات ويتكلّمون مع النّاس بأدب: كلُّ التُجّار يُقابلونهم بالابتسامَة. شرعوا، فوراً، في دعايَتِهم. كنتُ أقرأ وسطَ الرّوابي عندما تقدّم منّي جُندِيّان؛ رطنا قليلاً بالفرنسيّة: أكّدا لي صداقة الألمان للشّعب الفرنسي؛ اليهود والإنجليز هم من زجّوا بنا في هذا المُستَنقَع. لم يُفاجئني هذا الكلام؛ المُربِكُ هو أن ألتقي بهؤلاء الرّجال الذين يلبَسون الزيَّ العسكَري الأخضر، الذين يُشبهون كلَّ جنود العالم. المساء الثّاني أو الثّالث قفز أحدُهم بكامل ثقله من سور الحديقة؛ وتمتم بالألمانيّة – السيّدة لومار تعرف الألمانيّة – أنّه قد أُعلِنَ عن حظر الجولان، وأنّهُ يُخشى عقاب رئيسِه؛ بدا أنّه شرب قليلاً ومرعوباً بشكل ملحوظ. ظلَّ مُختَبِئاً وقتاً طويلاً قبل أن يرحَل.

لدى يقظتي استغرقتُ في الإنصات إلى برامج الإذاعة حتّى حلول اللّيل. يوم 17 جوان أعلن المُذيعُ أنّ رينو قد استقال، أنّ ليبران كلّف پيتان بتشكيل حكومة جديدة. عند مُنتَصَف النّهار والنّصف صدَحَ صوت جميل في قاعة الأكل: «أهب فرنسا نفسي كي أُخَفِّف آلامَها... بقلب مُنقَبِض أقول لكم اليوم إنّ علينا إيقاف القتال.» پيتان: المسؤول عن مُعاقَبَة ڤردان، السّفير الذي سارع لتهنئة فرنكو بنصره صديق قديم لكاغولار؛ هزّت خطبته الوعظيّة قلبي. غير أنّي أحسستُ بالارتياح لسماع أنّ الدّم الفرنسي لن يُراقَ منه المزيد؛ يا له من عبث مُرعب.

تلك المُهمّات، «عمليّاتُ التصدّي» التي يسقُطُ فيها الرّجال من أجل مهزلة مُقاومة! أسأتُ فهمَ كلامِه: «البحثُ بين الجنود، بعد قتال الشّرف عن وسائل لوضع حدّ للعداوة.» ظننتُ أنّها استسلام عسكري. استغرقتُ أيّاماً كي أفهَم حقيقة الهُدنة. عندما أُذيعت المراسيم يوم 21 جوان، انشغلتُ قبل كلِّ شيء بتلك التي تهمّ المساجين؛ لم تكن واضِحَة، أو لعلّي أردتُ لها أن تكون غامضة؛ كانت تقضي ببقاء الجُنود الفرنسيّين الأسرى بألمانيا إلى غاية انتهاء العداوة؛ لكن الألمان لن يجرّوا إلى ديارِهم مئات آلاف الرّجال ممّن التقطوهم في الشّوارِع؛ سيكونون مُضطَرّين لإطعامِهم: ما الفائدة؟ لا بل إنّ شائعات كثيرة تُساق. جنود مُختبئون في الأقبية خشية السّقوط بين أيدي المُحتلّين؛ كانوا يظهرون فجأة، يرتدون ملابس مدنيّة في قُراهُم وضيْعاتِهم؛ هل تصرّف سارتر كي يعود إلى باريس؟ كيف السّبيل لأعرف؟ لا هاتف ولا بريد، ما من وسيلة لمعرفة ما يجري هناك: الحلُّ الوحيد هو العودَةُ إلى باريس. كان بين النّاس اللاّجئين في پواز هولندي مصحوب بزوجَة شابّة وأمّها التي تملك مصبَغَة قريباً من محطّة ليون: عادوا قبلوا بأخذي معهم. لكن من جديد أُفَضِّلُ نسخَ حكاية العودة، كما كتبتُها آنذاك.

28 جوان وما يليه.

مضت أربعة أيّام لم ألزم خلالها مكاناً واحداً؛ اقتنعتُ أنّ سارتر قد يكون عاد إلى باريس وأنّي على أيّ حال سأسمَعُ عن أنبائه. وأردتُ رؤية باريس

المُحتَلّة، وانزَعَجت. وافق الهولنديّون على العودة وقبلوا بأخذي معهم. استيقظتُ عند الخامسة، ودّعتُ الجميع، كنتُ مُشفِقَة من فكرة الفراغ الذي ينتظرني في باريس، لكن سعيدة في الآن نفسِه لأنّ فُرصَة أتيحَت لي كي أقوم بمُحاولة. استغرق الهولندي ساعة كي يملأ السيّارة. كانت حركاتُه هادئة، أي قاتلة؛ وضَعَ غطاءً على السّطح، وكمّاً من الحقائب في الصّندوق الخلفي؛ كدّست المرأة عدداً من العُلب الصّغيرة، دون أن تنسى قنّينة جُلبانة خضراء، بقيّة عشاء البارحة الذي لم تشأ إهدارَه. اتّخذتُ مع أمّ الزّوجَة ما بقِيَ من مكان شاغر، وجلست المرأةُ بجوار زوجِها؛ كانت تحمِلُ قُبّعَة وسُتْرَة حريريّة بيضاء.

جميعُ الطّرقات مُزدَحِمة بالسيّارات، آثارُ قصفٍ هنا وهناك؛ رأيتُ على حافة الطّريق دبّابة مقلوبة، شاحنة، قبر ألماني حيثُ الخوذَة وُضِعَت فوق الصّليب وعدداً من العربات المُتفَحِّمة. لدى وصولنا إلى فليش، علمتُ أنّنا انطَلَقْنا وليس في خزّاننا سوى 10 ليترات من البنزين، وثق الهولندي في الألماني الذي قال إنّهم يُوَزِّعون البنزين على طول الطّريق. كان بإمكانه الحصول على 25 ليتراً قبل أيّام، لكنَّه كرِهَ الاصطفاف في الطّابور وبَدَل الانتظار نصفَ ساعة اختار الذّهاب. في فليش اتّجه نحو المجلِس القَرَوي، الواقِع على ضفاف الماء. مبنى رائع. هناك رأيتُ أوّل البزّات الرّماديّة في لون الحديد: ألمان بواز كانوا بالأخضر. قمتُ بجولة في المدينة بصُحبَة المرأتَيْن، اقتنينا صحيفة لاسارت La Sarthe وقرأنا ما كُتِبَ عن المراسيم الجديدة. عرفتُها عبر الرّاديو، غير أنّي كنتُ أجهل الفصلَ المُتعلّق بتسليم اللاجئين الألمان. قرأتُ بانتباه الفقرة حولَ المساجين وبدا لي مُؤكّدا أنّهم سيحتفظون فقط بأولئك الذين كانوا أصلاً في ألمانيا. لازمتني هذه الفكرة يَومَيْن وجعلَتني أهتمّ أكثر برحلة العودة هذه.

قال الهولندي إنّنا لن نَحصُل سوى على 5 ليترات، عندَ الثّانية بعدَ مُنتَصَف النّهار؛ كانت الحادية عشرة، قرّر التوجُّه إلى مان Mans؛ «ظنّ» أنّ البنزين كان كافِياً للوُصول. على مسافة 10 كيلومترات من هناك، أوقفونا. ما من بنزين في مان حيثُ ثلاثمائة سيّارة عالقة. فرغ الخزّان، تعطّلنا، لكن حالَفنا الحظّ فوَجدنا خمسة ليترات من البنزين الأحمر كان قد أهمَلَها الإنجليز.

عندَ مُنتَصَف النّهار، توقّفت السيّارة في مان بين ساحَتَيْن: الأولى تضُمُّ مركز القيادَة والأخرى تضُمُّ المُحافظة. أمام قُضبان المُحافظة المُغلَقَة، كان هناك مائتا شخص يتدافَعون، أوان، دنان، حاملين موسى حلاقة في اليد؛ حول تمثال يحمِلُ قُبَّعَة ريش صغير، ومُزرٍ (لوڤاسور Levasseur أظنّ) عدد من السيّارات كانت رابضة، وشاحنات أيضاً تكدّسَت على متنها الحشايا ومواقد الطّبخ؛ لاجئون ينتظرون، يأكلون، يُقاوِمون النُّعاس، قذرون وفي حالة رثّة، مصحوبون بأطفالِهم وأمتِعَتِهم؛ كانوا يتذمّرون؛ يُقال إنّهم ينتظرون منذ ثمانية أيّام مَطرودين بلا نهاية من المُحافَظة إلى مركز القيادة؛ يُشاعُ أيضاً أنّ باريس تنقُّصُها المؤن بجميع أنواعها. ابتسم الهولندي تحت شمس رصاصيّة ابتسامته البلهاء؛ لا يرغَب في الوقوف بالطّابور، لكنّ زوجَتَه، مُؤيّدَة من قِبَلي، أجبرَتْهُ على البقاء هناك. «جائع، جائع»، قالت بنبرة طفوليّة؛ اشتَكَت من رائحة الحَشدِ الكريهة وصنَعَت قُبَّعَة ورقيّة لتحمِيَ جُمجُمة زوجها. يُقال إنّ علينا أوّلاً الحصول على رقم، ومن ثَمَّ الوصل ومن ثَمَّ البنزين يوم يأتي البنزين. عند الثّانية والنّصف فُتِحَت البوّابة الحديديّة، حدث التّهافُت، لكنّ مُوَظّفاً طرد الجميعَ قائلاً إنّ قاطرة ستأتي عند الثّالثة حاملة عشرة آلاف ليتر، وأنّ البنزين سيكون وافِراً. مع ذلك ظلّ البعض دون أن يبرَحوا أماكنهم، حصلوا على وصولات تضمَنُ لهم بعض الليترات من مُستَودَع مُجاور. لكن الهولندي جائع. تحوّلنا إذاً، إلى السّاحة الكُبرى؛ كان الجوُّ شبيهاً بأجواء المعارِض المُغبَرَّة والمسحوقة تحت أشعَّة الشّمس الحارقة. كوكبة من الجُنود الرماديّين، سيّارات ألمانيّة، مئات الشّاحنات وسيّارات اللاجئين؛ غصّت المقاهي بالألمان. كانت مُؤلمة رؤيتُهم متأنّقين، مُهَذّبين، مُزدَهرين فيما فرنسا هي هذا القطيعُ البائس. شاحنات عسكريّة، سيّارات بثّ واتّصال، درّاجات ثلاثيّة؛ مُضخّمات صوت تُذيعُ موسيقى عسكريّة ومراسيم صامَّة للآذان بالفرنسيّة والألمانيّة: إنّه الجحيم.

كان النَّصرُ مرسوماً على جميع الوجوه الألمانيّة؛ كلُّ وجهٍ فرنسي هو الهزيمة الصّارخة. لا شيء يُؤكَلُ في المقاهي. اقتسمنا مؤننا. كان الألمان يدخُلون ويخرُجون مُلقين التّحيّات بضرب كعوب الجِزَم بالأرض؛ كانوا يشرَبون ويضحَكون. أظهَروا كياسة وألقوا المُجاملات. أسقطتُ غرضاً

وسارع أحدُهُم بالتقاطِه نيابة عنّي. ثمَّ جلسنا على حافّة الرّصيف، بجانب السيّارة؛ استمرَّ الغُدُوُّ والرّواح أمامي من مركز القيادة إلى المُحافَظَة، والنّاسُ ماسكون بِدِنان لا تزالُ فارغة؛ بعضُهم جلس فوق الدِّنان في انتظار مُعجِزة: الشّاحِنَة التي تجُرُّ خلفَها صهريجاً ضخماً يحمِلُ عشرة آلاف ليتر من البنزين. مرّت ساعة أو ساعتان. من جديد، تعب الهولندي من الوقوف في الطّابور، عاد خاليَ الوِفاض. وجدنا في بقالة بعض الخُبز وشرائح اللّحم؛ كانت محال المُرطّبات تعُجُّ بألمان يحشون بطونَهم بالحلوى والمُثلَّجات. انتظرنا من جديد. عند الثّامنة، وجد الهولندي 5 ليترات من البنزين. كانت راحة كبرى أن نُغادِرَ القافلة المُحترقة وأن نسير عبر الأرياف. وجدنا ضيعَةً ونمنا فوق القشّ.

استفاقت النّساءُ مُشتكِيات؛ تألّمتْ إحداهُن بالأمس بسبب «عرق النّسا». «الألمان الأوغاد، قالت الصُّغرى بصوت مائع. آه! لو يسقُطون بين أيدينا لثقبناهُم جميعاً» اشتكى الزّوجُ من القشّ الذي وخز رُكبَتَيْه. باعتْنا المُزارِعَة الحليب والبيض بسعر زهيد جدّاً.

من جديد، قافلة السيّارات والطّوابير المُحَمَّلَة بالتّبن والفلّاحين والدرّاجات وبعض المُشاة. في فيرتي-برنارد، كان هناك العديد من اللاجئين الذين أقلَّهم الألمان في شاحناتهم ثمَّ أهملوهم لدى حلول الظّلام؛ كانوا ينتظرون آخرين. الدّلاء الفارغة من جهة والشّائعات ثانية: ليس هناك بنزين. ضِقتُ ذرعاً وقرّرتُ العودَة بطُرُقي الخاصّة. ثمّة قطارٌ مُتّجه نحو باريس من المحطّة؛ كانت ثمّة مقطورات كثيرة شاغرة، لكنّهم لا يدعون أحداً يصعَد. تقضي الأوامرُ بعدم قبول المُسافرين إلى باريس؛ نحو «شارت» فقط، وعلى المُسافِر أن يُثبِتَ انتماءه إليها. قال لي أناس إنّهم حاولوا عديد المرّات لكن عبثاً. تُعاني باريس نقصاً مهولاً في المؤن، كما يُروى، لهذا لا يُسمَحُ للمُهاجرين بدخولها. مع ذلك فإنّ الجرائد والإذاعات كانت تَحُثُّهم على العودة؛ وكانت الشّاحنات الألمانيّة تُقلُّهم إلى ديارِهم؛ ثمّ إنّ فيرتي تمُرُّ بعجز كبير في المؤونة، والنّاسُ هناك مُهَدّدون بالموت.

عُدتُ، يائسة، للجُلوس على مقعد السيّارة، ثمَّ أردتُ شراء شيء آكُله؛ لم أجد سوى قطعة خبز سميكة ومالحة جدّاً ازدَرَدتُها بأسى. لا بنزين من

الآن حتّى ثلاثة أيّام، يُقال. ارتَجَف قلبي. عهدتُ بحقيبتي للهولندي وقرّرتُ الرّحيل بأيّ طريقة؛ 170 كيلومترا تفصِلُني عن باريس عبر طريق مُعَبَّدَة تحت شمس مُماثلة، هذا مُحبِط. بقيتُ جالسة على الرّصيف. كان بحوزتي ألف فرنك، مبلغ كبير لا يُساوي شيئاً؛ بالأمس دفعَ أناسٌ 1500 فرنك مُقابل رحلة في السيّارة وفي هذا اليوم حتّى بهذا المبلغ لا يُمكن إيجادُ وسيلة نقل.

ربط رَجُلان شريطَيْن حول سواعِدِهما وراحوا يوقفون السيّارات التي «يُشتبَهُ» في أنّها تحتوي على أماكن شاغرة، لكنّها لم تكن كذلك فعلاً. أخيراً توقّفت شاحِنَةٌ مُتَّجِهة نحو مانت Mantes: أربعين كيلومترا فقط على باريس، جيّد جدّاً. تحت الغطاء المُشَمَّع، كانت الحرارةُ رهيبة، أناسٌ كثيرون ورائحة بنزين نفّاذة؛ جلستُ في المُؤخّرة فوق حقيبة وكنتُ أهتزُّ مع كلّ رجّة؛ أحسستُ بالخوف ما جعل معدتي تنقبض: تقيّأتُ كلَّ الخُبز الذي ابتلَعتُه، دون أن ينتبه أحد. توقّفنا، تمدّدتُ فوق ربوة خفيفة فيما راح الآخرون يُسكِتون جوعَهم؛ لمس أحد الألمان كتفي وسألني إن كنتُ أريدُ أن آكُل شيئاً. قلتُ لا؛ بعد قليل أيقظني بأدب؛ قالت عجوز إنّ سُوّاقَ الشاحنات قد أغدقوا عليهم لمدّة يومَيْن بالسّجائر والأكل والشمبانيا؛ كانوا حقّاً لُطَفاء، ولم يبدُ أنّهم يُطبّقون أوامر من جهات عُليا بل كانوا راغبين بعفويّة في تقديم الخدمة. لاحت لي قريةُ نوجون–لو–روترو مُدَمَّرَة، بالكادِ تضَرَّرَت شارتر، درو سليمة تقريباً؛ على الطّريق بعضُ الحُفَر التي تسبّبت فيها القذائف؛ تقاطعنا مع شاحنات عسكريّة أخرى؛ صرخ الجُنود: «يعيش! Heil»؛ كانوا جميعا يُعلّقون على بدلاتهم وردات حمراء. في الأثناء تباطأت قافلة اللاجئين. في مانت، حمتُ حول نفسي، مذهولة بالكامل، وصادَفتُ سيّارة الهلال الأحمر تستعدّ للانطلاق. صعدتُ في الوسط بين مُمَرِّضة أنيقة بمبالغة وسيّد وراء المقوَدِ يُدعى م... لا أدري. قالت إنّ الأطبّاء قد هربوا من فرنسا نحو مناطق العالم تاركين المصحّات والمُستشفيات. كانت هناك مُمَرِّضات أخريات اختلفت أعمارُهنّ. وصفنَ حرائق في باريس. احترَقَت سيّارات بعد تصادُم عنيف، الهجرة، نقصُ الإغاثة، الدّفاعُ الضّعيفُ والسّلبي: أغلب الظنّ أنّ الألمان قد ضحكوا لدى رؤيتهم خنادق الإيواء. كُنَّ مُعاديات للإنجليز إلى حدّ بعيد. إحداهُنّ روت أنّها، لثلاثة أيّام، لم تتخفّف من مُسَدَّسِها لأنّ الجنود الفرنسيّين والإنجليز كانوا يُحاصرون سيّارتها: يُريدون

قتلها. قُمنا باستراحة في سان-جرمان؛ كنتُ مُمَزَّقَة إرباً ويُمكنني رؤية وجهي الأسود المُغبرّ في المرآة. احتَسَيْنا كؤوساً في مدينة ميّتة تماماً. كان كلُّ شيء ميّتاً حتّى باريس؛ رأيتُ جسوراً مُدَمَّرة فوق السّين؛ بعيداً عن حُفَرِ القذائف كانت بعضُ المنازل مُسَوّاة بالأرض إضافة إلى الصّمت المُطبَق كأنّه سطحُ القمر. كان هناك طابور أمام الهلال الأحمر بشارع فرنسوا الأوّل: أناسٌ يسألون عن مصير المساجين؛ البعضُ أمام دكاكين القصّابين، لكن عموماً جميعُ المحال مُغلَقَة. يا للغلاء! لم أتوقَّع صحراء كهذه.

شارعُ ڤاڤان. ألقَت صاحِبَة الفندُق جميعَ أغراضي؛ لم أكترث. أعطتني رسالة من سارتر تعود إلى يوم 9 جوان، كان لا يزال مُتفائلاً. اعتَنَيتُ قليلاً بنظافتي وأردتُ الذّهاب إلى البريد لمُحاولة الاتّصال. لمحتُ أبي في شُرفة دومسنيل Dumesnil، وأكلتُ سندويشاً واحتسيْتُ نصفَ قارورة معه؛ كان هناك ألمان لكنَّ المُلاحَظ أنّهم أقلّ اقتراباً من النّاس ممّا هم عليه في ﭙواز. قال لي أبي إنّهم وديعون جدّاً، وأنّ باريس لا تسمَعُ غير الأخبار الألمانيّة، وأنّ العُملات الأجنبيّة قد جُمِّدَت، وأنّهم لن يُحرّروا السّجناء قبل نهاية الحرب، أنّ هناك مُعسكَرات ضخمة يموت سجناؤها جوعاً: في غارش، أنطوني، الخ؛ كانوا يُطعِمونَهم الكلاب الميّتة. ضُمَّت فرنسا المُحتَلَّة إلى ألمانيا أي أنّنا جميعاً رهائن. البريد مُغلَق. مررتُ بأمّي؛ عندما غادَرتُها عند الثّامنة والنّصف، طلبت منّي المجيء بسبب حظر التّجوال. لا أعتقد أنّي تهاوَيتُ إلى منزلة أدنى من التجوّل في الشّوارع الخالية، تحت سماء غائمة، ساخطة، مُحترقة العَينَيْن، أُفكّر في أنّ سارتر كان بصدد الموت جوعاً. كانت المنازل، المحال، أشجارُ اللكسومبورغ قائمة؛ لكن ما من إنسان على وجه الأرض، ولا أدري لماذا نجوتُ. بهذا الشّكل الغريب. نمتُ فريسة يأس قاتل.

30 جوان

هل سيعودون؟ ألن يعودوا؟ سمِعنا حكايات عن جنود جاؤوا بزيّ مدني يوم لم يكن النّاسُ ينتظرون أحداً. في أعماقي تمنّيتُ أن أجد سارتر جالساً في شُرفة الدّوم مُبتَسِماً؛ لكن لا، إنّها نفسُ وِحدَة ﭙواز بل تزيدُ عنها كونَها لا

علاج لها. مع ذلك كانت هناك أسطرُ مُطمئنة في صحيفة *الصّباح Le Matin*. هناك تساؤل عن إمكانيّة اتّصال الجُنود بعائلاتهم في انتظار التّعبئة؛ قلتُ إذاً، إنّ المُعسكَرات تضُمُّ الجنود الذين سيُسرَّحون حسب الرُّتَب. لا أستطيعُ منع نفسي من الأمل. الطّقسُ لطيف. اتّخذتُ مكاني الاعتيادي في الدّوم مُحاذِيَةً الشّرفة الخالية تقريباً. عُلِّقَت قائمة وجبات اليوم، رأيتُ دكاكين تعرض فواكه رائعة والجومبون الطّازج: هذا يُشبه التّرف مُقارنة بمان وشارت. لا أحد يجوب الشّوارع تقريباً؛ شاحِنتان مليئتان بجنود ألمان شُبّان في بزّة رماديّة: رأيتُ هذا المشهَد كثيراً حتّى بات يبدو لي غريباً. آمنتُ *بما بعد* بكلّ ما أوتيتُ من جَلَد: الدّليلُ هو أنّي اقتنيتُ هذا الدّفتر والحِبر لأدوِّن حكاية الأيّام الأخيرة. خلال ثلاثة أسابيع وأنا في لا مكان. حدثتْ وقائع جماعيّة مُخلِّفَة أثراً شخصيّاً؛ أريدُ أن أعودَ إنساناً يحمِلُ ماضياً ولديه تطلُّعات. ربّما نجحتُ في باريس. لو أمكنني تسلّم راتبي لبقيتُ هنا فترة طويلة.

باريس فارغة بصورة عجائبيّة، لم يحدُث هذا في سبتمبر؛ نفسُ السّماء، نفسُ الهواء العَذب، نفسُ الهدوء؛ ثمّة طوابير أمام المحال المفتوحة النادرة وكنّا نرى بعض الألمان؛ لكنّ الفارق في مكان آخر. في سبتمبر شيء ما بدأ بالفعل، كان مُخيفاً، لكن مُهِمّاً. الآن، كلُّ شيء انتهى والوقتُ أمامي جاثم على صدري لا يتحرّكُ أبداً، أريد أن أتعفَّن في مكاني سنوات طويلة. جذريّاً ماتت پاسي وأوتويْ، وسط روائح النّباتات والزّيزفون الذي كان يُنبئ باقتراب العُطلة خلال السّنوات الماضية؛ حتّى البوّابان رحلا.

مررتُ أمام شارع غروناي أمام مُعَسكر اعتقال النّساء. باسم الهدنة يجب إعادة اللاجئين الألمان إلى ألمانيا: ليس ثمّة مرسوم يُرعِبُني أكثر من هذا. عُجتُ إلى الحيّ اللاتيني، إنّه خالٍ لكنّ المقاهي مفتوحة وهناك القليل من الحُرفاء على الشّرفات. تقريباً ليس ثمّة ألماني واحد في هذه النّاحية.

عُدتُ إلى الدّوم؛ كان مأهولاً: النحّاتُ السويسري، زوجة هوغار، المرأة الجميلةُ التي تحمِلُ بنطلونات غريبة وقلنسُوة. أتى الألمان: هذا غريب لكن بصورة مُجَرَّدة فقط. كانوا خاملين كأنّهم سُيّاح؛ لا نشعُر كما هو الشّأنُ في مان بقُوَّتِهم الجماعيّة. بل إنّهم فرديّاً كانوا يُحبطون أيَّ تفكير في الخطر.

أنظُر إليهم ولا أشعُر بشيء حيالَهم. طائرات حلّقَت فوق باريس كامل اليوم، بعلاماتها السّوداء تحت الأجنحة اللامعة. ثلاث أو أربع مومسات فقط في الشّرفة. كنّ يبحَثن عن زبائن ألمان ليس من دون نتيجة.

1 جويلية

الآن، المومسات اجتَحْنَ الواجِهة الأماميّة للمقهى كما لو أنّنا ندخُلُ ماخوراً؛ ثمّة بينَهُنّ امرأة تبكي؛ الأخريات يُواسينها: «لم يكتُب، لكن، لا أحد يكتُب، لا تقلقي.» نفسُ النّغمة في كلّ مكان؛ النّساءُ في المِترو، النّساءُ على عتبات البيوت: «هل عندَكم أخبار؟ - لا، الأرجَح أنّه سجين. - متى نعرفُ القائمات؟» الخ. لا، لن يُطلَق سراحُ أحد قبل السّلم، هذا مُؤَكّد؛ لكنّ الحكايات تستمرّ في الدّوران: «وصل إلى باب باريس عندما أوقفوه. الألمان يُعطونَهم أزياء مدنيّة.» إذاً، المُعجِزة جائزة دائماً؛ إنّها واهية كورَقَة يانصيب، مُزعِجة ولا يُمكنُ مُقاوَمَتها، إنّه هَوَسُ جميع نساء باريس.

أعتقدُ أنّ شكوكاً كهذه يصعُبُ تحَمُّلُها، لكن حتّى هنا، فإنّ الصّبر قائم: ستكون هناك أنباء جديدة بعد ثمانية أيّام ربّما؛ ستكون هناك قائمات ورسائل. سننتظر ثمانية أيّام، لا قيمة للوقت.

قمتُ بجولة واسِعَة في الضّاحية لقتل الوقت؛ عاد النّاسُ إلى بيوتهم. «جاء النّاسُ من مونتوبان: لو كُنّا نعلَمُ لما غادَرنا!» لم أسمَع غير هذا طوال الطّريق. درّاجٌ أوقف مجموعة أشخاص: «هل عادت أمُّك!» وأحاطوا به لمنحِه أخباراً عن البيت والأمّ. الجيرانُ يعرفون بعضهم بعضاً ويتبادَلون التحيّة. كان هناك حدائق كثيرة مليئة بالورود، حقول قمح مَكسُوَّة بالخُشخاش ورائحة اللوتس تفوح على طول المُنحَدَرات: ريف مُزهِر حول الفيلات العابسة. نقرأ على بعض الأبواب: «منزل مأهول» وبوتيرة أكبر: «مسكونة Bewohnt».

أوقفتُ سيّارة كي أعود؛ أقلّتني؛ السائق عائد من آجين Agen؛ قال هو أيضاً: «لو علِمنا!» قَطع 700 كيلومتر على متن درّاجة ناريّة هو وزوجَتُه فاعوَجَّ عمودُها الفِقَري؛ فَسَّر لي كم كانت الرّحلةُ شاقَّة بالنّسبة إليها وبالنّسبة إليه أيضاً: «يُمكنني إخبارِكِ لأنّكِ أكبرُ سنّاً، لكنّني أتعذّبُ سيّدتي، أتعذّبُ! في

الأقاليم المُحتلَّة يمنَعُنا رؤساء البلديّات من الرّحيل، يُقال إنّهم سيوقفوننا في ڤيرزون، لكن في ڤيرزون ليس ثمّة دورِيّات.» سِرنا بُمحاذاة السّين؛ كان النّاسُ يُجذّفون ويسبَحون حول غراند-جات: جوٌّ عطلة، لكنَّه ثقيل. توقَّفَت السيّارةُ بجوار جسر، ألقى إلينا جُندِيٌّ ألماني عُلبَة شوكولاتة. ثمَّة بينهم من كانوا يتحدَّثون بمرح مع فتيات شابّات. وقال لي الرّجُل: «سيُصنَعُ الكثير من الألمان الصّغار هنا!» سمِعتُ هذه الجُملة عشرات المرّات، ولم تكن قط سياق لوْم: «إنّها الطّبيعة، قال الرّجل، لا داعي لنتحدّث اللغة نفسَها كي يَحصُل هذا.» فقط القليل من الخوف والارتباك في صفوف القرَوِيّين، وعندما يتبدّد الخوف، سيحتفظون بذكريات جميلة وسيشعُرون بالامتنان.

وجدتُ ليز. حاولت مُغادَرَة باريس يوم الخميس على متن درّاجة هوائيّة؛ سارت بمُحاذاة سيّارة ألمانيّة ثمَّ وجدَت نفسَها عالقة وسط قافلة شاحنات وطلبوا منها العودَة أدراجَها. ركبتْ إحدى الشّاحنات مع درّاجتها وعادت. أرادت تدريبي على ركوب الدرّاجة. تذمّر والِدَاي من نُدرَة الأكل؛ العشاء دائماً حساء أو معكرونة؛ لم آكُل وجبة جيّدة منذ أيّام. بدا فعلاً أنّ باريس لا تَصِلُها المُؤن. وصف لي أبي قائمة مأكولات في مطعم بساحة غايون: سلطة خيار 08 فرنكات، بيض بالجُبن 12 فرنكاً، مرق السّلطعون 20 فرنكاً، مُعَجّنات 08 فرنكات، توت 18 فرنكاً. ما من طبق آخر. تذكّرتُ العشاء عند ماني وبريبان خلال حصار باريس.

2 جويلية

الجوُّ رمادي، باردٌ قليلاً، كلُّ شيء مُقفر. ثمّة فقط ستّة أشخاص حول بائع الجرائد بالقُرب من المِترو. اقتنيتُ صحيفتَيْن. يا للفراغ! پروپاغندا عاطفيّة لمصلحة الألمان، نبرة مُثيرة للشّفقة والتّضامُن مع الشّعب الفرنسي المسكين. ووُعود: عادت السِّكَكُ الحديديّة تُمارسُ نشاطَها؛ وقريباً يعود البريد للعَمل.

حاولتُ الاتّصال بكامِيي. قالت لي السيّدة ج إنّها خرجت مَشياً على الأقدام مع زينا حاملة حقيبة على ظهرِها؛ ليس لدينا أخبارٌ عنها. خاض جولان أيضاً بعضَ المُغامرات من جانبِه. سأذهَبُ لرؤيته غداً. هتفت أخت بوست: تمّ ترحيلُه إلى أڤينيون، وأخوه سجين.

ذهبتُ إلى السوربون لأسأل عن مُرتّبي ولمّا كنتُ بصدد ملء استمارات، قفز أحد المُتفقّدين من مكانه: «أساتذة فلسفة؟ هذا بالضّبط ما نحنُ في حاجة إليه.» اتّصل بدوري Duruy وكان عليّ الذّهاب في الغد؛ ثماني ساعات عمل في الأسبوع، هذا ليس سيّئاً.

3 جويلية

أخذتُ درساً في ركوب الدرّاجة مع ليز في الأحياء الهادئة حول شارع ڤاڤان. جلستُ فوراً على المقعَد، بل لقد تعلّمتُ القيادَة والدّوران أيضاً. دروسٌ في دوروي.

عند الرّابعة والثّلث تحوّلت إلى ورشة المسرح لأرى دولان. وجدتُ مونمارتر ميّتة تماماً. لم تسمَح لي البوّابة بالدّخول: «السيّد دولان ليس في وضع يسمَحُ له برؤية أحد» ثمَّ عادت مذهولة، قائلة إنّي محظوظة لأنّه في انتظاري. وجدتُه في قميص وميدعة معقودة على مُستوى بطنه، وسط كومة من الأوراق والصُّور المُمَزّقة، فزِعاً تماماً. صافَحني متأثّراً وقال لي إنّه قلق بشأن كامِي. خرج للبحث عن العجوز ج... بفيرول. وفي الأثناء ركِبَتْ كامِي وزينا القطار من محطّة أورسايْ. كان موعِدُهم في تورس لكنَّ دولان لم يتمكّن من الوُصول ولا يعرِف شيئاً عنها. كانت كريسي مُحتَلَّة بالكامل عندما أخذ السيّدة ج... في عربتِه؛ توجّها إلى لُوار، تاها وسَط حشود اللاجئين وظلّا يدوران في حلقة مُفرَغَة ثلاثة عشر يوماً نائمين في السيّارة، لا يأكُلان شيئاً تقريباً وهدفاً للرشاشات كلّما عزما على قطع النّهر. أخذا معهما خادمة قديمة، انتهى بها الأمر مجنونة؛ خرَّفَت ولم يَرَها بعد ذلك قط. أخيراً أمسَك بها الألمان وأجبروها على العودَة. خشِيَ أن يتعرّف على الألمان وحاول التنكّر في هيئة قرَوي. تجاوز موكب مساجين ولوَّحوا له: «دولان!» أزعَجَه ذلك كثيراً.

5 جويلية

في الدّوم لافتة أعلنت أنّ المكان ممنوع على الألمان؛ تساءلتُ لماذا؟ عموماً من المُبهِج عدم رؤية البِزّات العسكَريّة.

ذهبتُ إلى المكتبة الوطنيّة. حصلتُ على بطاقة وشرعتُ في قراءة هيغل، *فينومينولوجيا العقل*؛ حاليّاً لا أفهَمُ شيئاً تقريباً. قرّرتُ الاشتغال على هيغل يومِيّاً منذ الثانية حتّى الخامسة، ليس ثمّة شيء مُريحٌ أكثر من ذلك.

هاتفتُ دولان. وجد كريسي مُخَرَّبَة بالكامل من قِبَل الفرنسيّين. أخطروه بوجود كاميي في أحواز تورس ويُريدُ التحوّل إلى هناك على متن شاحِنة.

لم تعُد فكرة الموت تبدو لي كارثيّة منذ تلك السّنة؛ أُدرِكُ جيّداً أنّه على أيٍّ حال لسنا سوى أموات مع تأجيل التّنفيذ.

7 جويلية

جولة بالدرّاجة في باريس مع ليز. تقاطعتُ مع قافلة مُدَرَّعات مليئة بألمان يلبسون بالأسود وقُبَّعات تُرفرف في الرّيح؛ كان هذا جميلاً وحزيناً. في المكتبة الوطنيّة قرأتُ هيغل الذي ما زلتُ لا أفهَمُه جيّداً. عثرتُ على فقرة رائعة فنَسَختُها كي أضعها تصديراً لروايتي.

توفّرت البطاطا ووُجِد اللّحم في باريس مرّة أخرى وحتّى الزّبدة. صِرنا نأكُل بشكل طبيعي في الدّوم؛ لم نعُد نشعُر أنّنا جياع. ما أرغب فيه حقّاً هو السّينما، لكن لم تكن تعرض سوى الأفلام المُستحيلة.

غريب أمر هذه السّاعة الألمانيّة وحظر التّجوال الذي يبدأ الحادية عشرة. أن نجِدَ أنفُسنا في غُرفة فيما السّماء ما زالت واضِحة. بقيتُ طويلاً عند الشّرفة مُرتابة وحائرة.

11 جويلية

كلمة من سارتر بقلم الرّصاص في ظرف مفتوح يحمِل ختم البريد ومُحافظة باريس. لحظة لم أتعرّف على الكتابة ثمّ تأمّلتُ الرّسالة التي بدت مُسلمة باليد. قال إنّه سيعود ربّما، قبل نهاية الشّهر، لكن يظلُّ الأمر تخميناً؛ طلب منّي الكتابة، لكنّي لم أكن متأكّدة من أنّ الرّسالة ستصل؛ قال إنّه ليس بائساً: لا يمكنه قول المزيد؛ لا أعرف وضعَه حقّاً. رسالة مُهمّة لا تُساوي شيئاً. مع ذلك أشعُر أنّي صرتُ أتنفّسُ بشكل أفضل.

14 جويلية

باريس كئيبة. إنّها تُمطِر. هاتَفتُ دولان لحاجتي الماسّة إلى التكلّم مع إنسان. اندَهشتُ لسماع صوت كامِي، ورحتُ للقائها عند السّادسة. كانت في ملابس البيت، منتَفِخَة لكن بسِحنة مُزدهرة. كان دولان أيضاً في ملابس البيت، بالأسود والسّعادة طافحة على ملامِحِه، السيّدة ج... وڤاندريك. عمِل ڤاندريك مع الجيش البلجيكي؛ روى أنّهم أرسلوا إلى الخطوط الأماميّة، دون أسلِحة. أخذوهم هناك وبعد مرور ثلاثة أيّام طلبوا منهم المُغادرة دون سلاح أيضاً. روت لي كامي مُغامرتها. يوم الثّلاثاء، أرسَلَت حقائبها إلى تورس: من المُحتَمَل أنّها قد ضاعَت، كانت تحتوي على كمٍّ هائل من المخطوطات والمُلاحظات؛ ثمَّ رحلت مع زينا، تحملان حقيبَتَيْ ظهر، وكامي تحمِلُ في يدها حقيبة وضعَت فيها فريدريتش وألبرخت. وصلتا إلى نيڤير على متن القطار. استغرقت الرّحلةُ يومَيْن. عندها أرادتا بلوغ تورس على متن شاحنة؛ كان ذلك صعباً لكنّهما تمكّنتا. كانت تورس فارغة؛ تمَّ زرع الألغام بالجُسور واستَمَرَّ القصف كامل اللّيل. كان الموعِدُ مع دولان قد تخلّف وكان البريدُ مُغلَقاً.

غادرتا المدينة، وجدتا قطاراً في الرّيف دون مَقطورات يتعفَّن هناك منذ يومَيْن؛ صعدتا؛ كان من المُنتَظَر وصول الألمان في تلك اللّيلة والنّاس جميعاً يرتعِشون خوفاً. أخيراً، وجدتْ كامي وزينا مأوى لدى حارس الحواجز الذي أجّر لهما غُرفة؛ مكثَتا هناك مُتنكّرات في زيّ قَرَوي. فرغ القطار تدريجيّاً. وصل كولونيل ذات مساء، قال إنّ الغد ينذر بـ«معركة مدفعيّة خاطفة» وأنّ على الجميع الاحتماء في المخابئ الآمنة. ناموا في كهف وبعد المعركة عادوا إلى بيوتهم. ادَّعتْ كامي أنّها أختُ زوجة حارس الحواجز، أمكنها أن تبعَثَ برسالة إلى دولان؛ عندما علِمَ دولان بوجود الرّسالة أسقط من يده كلَّ الصّناديق وانتابته رعشة قويّة إلى حد جعل السيّدة ج... تظُنُّ أنّه سيُغمى عليه. ثمَّ رجعتْ على متن شاحِنة.

توقّفت الكتابة في الدّفتر من جديد. لم يعُد لَدَيَّ ما أسجّلُه.

أصبَحَت الأزياء الخضراءُ والرماديّة العلامة النازيّة المُرَفرِفَة فوق البرلمان

أشياء مألوفة في نظري. قدّمتُ دروساً في دورويْ وكنتُ في الآن نفسِه أقرأ هيغل في المكتبة الوطنيّة التي أصبحتْ تفتَحُ أبوابها منذ الصّباح. هدّأ هيغل من روعي قليلاً. مثلما حدث لي في العشرين عندما أدمى جاك ابنُ عمّي قلبي فعكَفتُ على قراءة هوميروس «كي أضع الإنسانيّة بأسرِها بيني وبين آلامي الخاصّة»، حاولتُ الانصهار في «دورات العالم» في الوقت الذي كنتُ أجتازُ إحدى دوراتِه. حولي الماضي مُحَنَّط وسط آلاف المؤلّفات. إنّه ينامُ فيما يبدو لي الحاضرُ ماضِياً قادِماً. أنا أُلغي وجودي. غيرُ واردٍ أبداً أن تأخُذَني كلّ هذه الأحلام إلى القبول بالفاشيّة؛ يمكن إن كنّا متفائلين اعتبارها النّقيض الطبيعي لليبراليّة البورجوازيّة، إذاً، مرحلة من مراحِل الغاية التي نصبو لبلوغها: الاشتراكيّة؛ لكن كي نأمَل في تجاوُزِها يوماً، يجب البدء برَفضِها. ما من فلسفة قد تحمِلُني على أن أقبل بها؛ إنّها تتعارض مع المبادئ التي بنيتُ حياتي على أسُسِها. وفي كلّ يوم أتأكّد من صحّة كراهيتي لها. أيّ غثيان، صباحاً، وأنا أقرأ جريدة *الصّباح* وهي تُعَدّدُ أمجادَ ألمانيا الفاضلة؛ تلك الخُطَبُ المُوَبِّخة التي يُحاصِرُني بها غالبونا!

منذ نهاية جويلية ظهرت لوحاتٌ على واجهات بعض المحال: «ممنوع على اليهود» نشرت *الصّباحُ* تغطية خسيسة حول «الغيتو» وطالبتْ بزوالِه. أدانَ راديو ڤيشي «اليهود الجُبناء» الحاقدين على فرنسا؛ ألغى پيتان القانون الذي يمنَعُ نشرَ عداوة اليهود؛ اندَلَعَت مُظاهرات مُعادية للساميّة في ڤيشي، تولوز، مرسيليا، ليون والشان-إيليزي؛ عدد كبير من المصانِع طرَد عُمّالَه «اليهود والأجانب».

أفزعني العُنفُ الذي عطَفَت نحوَه الحملة. هل سيتوقّفُ هذا؟ وددتُ أن أتقاسم مع أحد ما خوفي وخصوصاً سُخطي. وحدَها رسائلُ سارتر الآتية من باكارا واسَتني؛ أكّد أنّ أفكارنا وآمالنا ستنتصر أخيراً. قال أيضاً إنّ هناك حظوظاً لتسريحِه بداية سبتمبر؛ ستُعادُ فئة المُوظّفين إلى ديارِهم وأعمالِهم. من شُرفَة الدّوم أتأمّلُ تمثال بالزاك برودان الذي تسبّب تدشينُه في فضيحة سنَتَيْن إلى الوراء، ولاحَ لي أنّ سارتر سيظهر بخُطى حثيثة وابتسامة على مُحيّاه. في أوقات أخرى كنتُ أُحدّثُ نفسي أنّي لن أراهُ قبل ثلاث أو أربع سنوات وكنتُ

فوراً أتمنّى الغياب عن الوعي. خلال تلك الفترة لم أُفكّر قط في سِلمٍ وشيك؛ القرارُ المُتعَجّلُ يعني دائًما انتصار النازيّة: الأمر الذي نرفُضه بقُوّة ولا يُمكن تصديقُه، ليس بهذه السّرعة على الأقل. سيتدخَّل الاتّحاد السوفيتي وكذلك أمريكا؛ سيُهزَم هتلر يوماً؛ هذا يعني حرباً طويلة الأمد. أي فراقاً طويلاً.

عادت القطارات إلى سالف نشاطها، وجاءت أولغا لرؤيتي، قضّت ستّ ساعات واقفة في المَمر؛ حتّى المراحيض كانت مشغولة حتّى إنّ الأطفال كانوا يستريحون قرب الباب والنّساء العجائز على الأرضيّة مُباشرة. دُكَّت محطّة بوزڤيل. تقطُن عائلة أولغا على مسافة ثلاثين متراً منها. لجأت عند أصدقائها بعيداً عن البيت؛ لدى عودتها وجدت جميعَ نوافذ المنزل مُهَشّمة.

أقامت أولغا أيّاماً في شقّة جدّتي، ثمَّ عادت إلى أهلِها.

مرّت بيانكا بباريس؛ لبثَتْ أسبوعَيْن في ضيعَة بروتونيّة تجمَعُ البازلّاء؛ أنهت الآن عُطلَتها في يون Yonne بصُحبة أمّها وأختها. رتّب والِدُها إجراءات تكليف أحد أصدقائه بإدارة أعماله؛ توقَّعَ الأسوأ؛ بيانكا أيضاً: كان القلق يقرضها قرضاً وأحسّت أنّها وحيدة قُبالتي. تذكّرتُ الأيّام التي كنتُ أميلُ للنظريّة! سنة 1939 عندما كانت بيانكا تحدّثني عن أبناء خالتها من ڤيانا، حدستُ بنوع من الكراهية أنّها لا تعيش قصّتي؛ الآن فهمت؛ كانت في خطر فيما لم أكن مُهدَّدَة قط؛ فشلت الحميميّةُ والألفة التي بيننا في سَدِّ الهُوّة التي بيْننا. لا أحد منّا قاسَ عُمقَ الهُوّة، ربّما من باب السّخاء ما زالت تتجنّب ذلك؛ لكن إن كانت تُقاوم السّقوط في المرارة، لم أستطع أن أنجو من ضيق يُشبِه النّدم.

رحلتْ ومن جديد لم أعد أتحدّث إليها. يعيشُ والِدَاي حالة من التوتّر والجزع. لا يفهَم أبي نزوع جريدة *الصّباح* التي كان يعتبرها الصّحيفة الأكثر وطنيّة، إلى بيع ذِمّتها للألمان؛ كان يكرهُهُم: لم أطق هذا الغُلو يوماً لأنّه يصدمني؛ كنتُ أكرههم من زاوية أنّهم نازيّون؛ هكذا لم أجد نفسي في خلاف مع والِدَيَّ. كنتُ أرى ليز باستمرار؛ كانت تنظر إلى الاحتلال الألماني بلا مبالاة لأنّ فرنسا تضطهِدُها. لقد أنقذت قِسماً كبيراً من وقتي. كانت قويّة، جسورة ومُنظّمة كشاب ذكيّ وكنتُ أستمتع معها. أهدتني درّاجة، قبِلتُها

بوخز في الضّمير لأنّها حصلت عليها بأساليب غير مشروعة. تنزّهنا على تخوم باريس وعندما توقّفت عن إلقاء الدّروس، ابتعدنا. رأيتُ جزيرة فرنسا، غاباتها، قصورها وبُحيْراتها.

رأيتُ كومپيانْي وقد أصبحت أنقاضاً، بوڤي أيضاً، النورماندي أيضاً: بدا لي هذا الخرابُ طبيعيّاً. كنتُ أدوّسُ مُنغَمِسَة تماماً في المجهود العضلي.

تُضحِكُني ليز؛ أحياناً رغم غياب حِسّي الإنساني، أُصابُ بالضّيق؛ كان يُرسِّخُ الأزمة في داخلي. في إيڤرو قبل الدّخول إلى كنيسة قصد زيارتها، غسَلَت يدها في إناء المُباركَة. في لوڤريي كان هناك حوضُ غسيل في قلب المَمرّ المؤدّي إلى قاعة الأكل: لطّخت وجهها برغوة الصّابون، تحت الأنظار المُستغرِبة للنادلة والزّبائن. «لِمَ لا؟» قالت لي بنوع من التحدّي؛ وبما أنّه على كلّ إجابة أن تكون مَبْنِيَّة على براهين مُنتقاة بعناية فائقة، تطلّب الأمرُ دائماً نظاماً فلسفيّاً مُعَقّداً لمنعها من أن تُمَخِّط أنفَها في منديلها. كانت حقّاً تُحبُّ الفلسفة، ثمَّ إنّي قدّمتُ لها بعض الدّروس. كانت شغوفة بديكارت لأنّه ينسف كلَّ المفاهيم ويُعيدُ بناء العالم وفقاً للأدلّة الجليّة. لكنّها لا تنوي قراءته فقرة فقرة ولا حتّى جُملة جُملة؛ كانت تتعثّر مع كلِّ كلمة ما يجعَلُ طريقة عملها مُقرفة. لم أكن أُحبُّ الرّعود لكنّ ليز تجد فيها متعة. اعترَفت لي ضاحكة أنّ الأحداث العائليّة التي اتَّخَذتها ذريعة، السّنة الماضية، كي تنتظرني أسفل الفندق هي أحداث واهية في أغلبها؛ لم أمنحها فقط الحقّ في دخول حياتي لحاجتها آنذاك إلى المُواساة بل لقد باتت تُطالب بهذا الحقّ. عاتبتني بشدّة لأنّي خرجتُ من باريس دون أخذِها معي في شهر جوان. لم تقبل البتّة أنّي أفضّل الوحدة على مُرافقتها؛ عندما كنتُ أقوم بجولات في الضّاحية كما رويتُ في دفتري، كانت تتعقّبني إلى غاية باب أورليون مُكرّرة بعناد: «أُريد الذّهاب معكِ.» أخافَها غضبي؛ لكن عادة ما كان رجائي وتهديدي يتحطّمان مُرتطمَيْن بعنادِها. ونحنُ نعمَلُ أو نتحدّث، مساءً في غُرفتي، كان عليها المُغادرة باكراً بسبب حظر الجولان؛ كنتُ أراقب السّاعة: «داهَمَكِ الوقت»، كنتُ أقول لها بأمل. ذات يوم قالت بهدوء: «لا. لن أذهب» وعلَت نبرة صوتِها: لم يكن مُؤدّباً طردُها، يُمكنها النّوم هنا، الشقّة واسِعة كفاية، ألم أكن قد استضفتُ فيها

أولغا؟ كانت حجّتي الوحيدة هي أنّي لا أرغبُ في مكوثها؛ رفضت الرّضوخَ إلى رغبتي؛ أرى برُعب ساعة حظر الجولان تقترب، أخيراً أُذعِن وأرتّب لها فراشاً في غرفة جدّتي. شجّعها نجاحُها: أعادت الكرّة. هذه المرّة ارتَقَت دموعٌ مسعورة إلى مُقلَتَيَّ؛ لا أعرفُ كيف استطعتُ - لأنّها الأقوى - طردها: لقد توانى عنادُها لحظة دون شكّ؛ لكنّها حاولت التدارُك. لم يلِن قراري. كانت ترِنُّ الجرس دون هوادَة عندما كنتُ أسدُّ أذني. صباحاً، وجدتُها نائمة عند عتبة الباب. الوجهُ شاحب، مُشَوَّش من أثر الدّموع والغُبار. كانت الشقّة في الطّابق الأخير، ما من باب آخر يُشارِكني الرّواق، ونامت هناك دون أن يُزعِجها أحد. تمنّيتُ أن تكون قد تعلّمت الدّرس، لكن لا: كانت لا تُقهَر. استَمَرَّت علاقتنا بين تفاهُم وعِراك.

مرّ شهر أوت، بدأ سبتمبر. تلقّيتُ رسالة من سارتر يوم 15، قال إنّه سيتمّ ترحيلُه إلى ألمانيا؛ وكالعادة قال إنّه جعلني أنهار لسماع الخبر. وجدتُ هذه الفقرة فوق دفتري عندما حاولتُ العودة للكتابة فيه:

«هذه، أنا حزينة. أصبح العالم مأساوياً السنة الماضية وتصالحت معه، لم يكن ذلك أسى. أذكُر جيّداً في سبتمبر كيف أحسستُ أنّي جزء من حدَث جماعي، كنتُ مُهتَمّة بالوقائع. لكن مُنذُ ثمانية أيّام، اختلف الأمر. العالمُ مُشَوَّه. الحُزنُ في داخلي يُشبِه مرضاً خاصّاً؛ سلسلة من جفاء النّوم والكوابيس وآلام الرّأس... أرى دون إمعان بطاقة من ألمانيا ذات حوافّ سوداء، ثمَّ في مكان ما كلمة سيليسي وجُمَلاً سمعتُها من قبل مثل: «إنّهم يموتون جوعاً.»

لا يتحمّلُ قلبي المواصلة؛ النّظر إلى الرفّ يُزعِجُني كثيراً. مع ذلك أردتُ استغلال أيّام سبتمبر الأخيرة والجميلة. اقترحتْ بيانكا التي عادت إلى باريس أن نقوم برحلة على الدرّاجة؛ لم أعُد أنتظر سارتر. أذعنتُ. استقللنا القطار حتّى مدينة بريار؛ تملّكني الفضول لاستكشاف هذه المنطقة؛ القُرى ذات البيوت المُرَشَّقَة بالأبيض النّظيفة وأسطُح القشّ، بدت تقريباً طبيعيّة؛ انتصبتْ وسط مراعٍ شعثاء مُثيرة للشّفقة. رأيتُ غيراند Guérande هادئة داخل أسوارِها العتيقة؛ ساحل موربيهان مُشمساً، الصّنوبر، الرّمال، الصّخور، الخلجان، سماء الخريف، الأشواك، «روشفور-أُون-تير»، منازله الغرانيتيّة الرماديّة المُزَخرَفة

بالزّهور الحمراء. أكلنا جرادَ البحر، الفطائر، الحلْوَيات اللذيذة. لم نُصادِف ألماناً على الطّريق، لكن حدّثونا عنهم كثيراً في الفنادق الصّغيرة. كانوا يأكلون طبقاً من خمس بيضات مع الزّبدة: لم يشاهَد أحدٌ يأكُل بتلك الشّراهة: «آه! إنّهم مُغرَمون!»، قال لنا طفلٌ في مقهى «بران». هذا لم يمنع أني نسيتُهم خلال أسبوعَيْن: شيء ما ممّا كنتُ أُسمّيه عذوبة الحياة عاد للظّهور من جديد. ثمّ قفلنا راجعتين.

الفصل 7

لا، لم ينقلب الوقت، تابعَت الفصول دورانها حول نفسِها: بدأتْ سنة دراسيّة جديدة. بدأتْ بشكل سيّئ. في معهد كاميي-سي - مثل جميع المعاهد - جعلوني أوَقِّعُ ورقة أؤكِّد فيها على شرفي أنّي لا أنتمي إلى الماسونيّة ولا أنّي يهوديّة؛ هذا بغيض، لكن لا أحد رفض القيامَ بذلك: لم يكن هناك خيارٌ آخر أمامي وأمام زملائي.

غادرتُ شقّة جدّتي، أقمتُ من جديد في فُندُق الدّنمارك شارع ڤاڤان. كانت باريس كئيبة. لا بنزين ولا سيّارات في الشّوارع؛ الحافلات النّادِرة كانت تسير بالغاز. كان الجولانُ بالدرّاجات الهوائيّة حصريّاً؛ العديدُ من محطّات المِترو كانت لا تزال مُحَصّنة. تأخّر حظر الجولان حتّى مُنتَصَف اللّيل؛ أغلقت الأماكن العامّة أبوابَها عند الحادية عشرة. لم أعُد أرتادُ السّينما؛ إذ لم تكن تُعرَضُ سوى الأفلام الألمانيّة والأفلام الفرنسيّة الرّديئة. مَنعَ الألمان التّصفيق خلال الأخبار: قرّروا أنّه سلوكٌ مُهين. عدد كبير من القاعات من بينها «ريكس Rex» أصبحت قاعات مُخَصَّصَة للجُنود. كنتُ أتناول وجباتي في مطاعم ما زالت تعرف كيف تتصرّف. لكنّها المجاعةُ في الأسواق والمحال. آخرُ سبتمبر تمَّ إقرارُ بطاقات التّموين دون أن يُصبحَ التزوُّدُ أسهل. وجدتُ على طاولة أهلي خُضر الحربِ الأولى: اللّفت والجزر الأبيض.

إلّا أنّ المدينة أصبحت مأهولة من جديد. لمحتُ ماركو في مطعم الدّوم. استأنف العمل في مركَزه بلويس-لو-غران. قال لي بغرابة: «لديَّ أُذُنا فيليپ پيتان»، أي أنّه يعرف شخصاً يعرف أليبار من بعيد جدّاً. ليس ثمَّة ما يُمكنُ التباهي به، فكّرتُ. سُعِدتُ أكثر برؤية پانييز؛ أُحيل على التّقاعُد من وظيفة

سائق كولونيل وقاد ما يقرُب من ثمان وأربعين ساعة دون نوم. أكّدَ لي، هو أن تلعب لعبة أناس يرجون تحويل فرنسا إلى مُقاطعة عسكريّة ألمانيّة. «ماذا بعد؟» سألتُه. على أيّ حال سيرضخُ ڤيشي لرغبات ألمانيا. يوم 2 أكتوبر، منشور ألماني يطلُب من اليهود التّصريح بهواياتهم وأن يُوقّعوا على ذلك. يوم 19 سنَّ ڤيشي «قانون اليهود»: يُمنَعون من الوظائف العموميّة والمهن الحُرَّة. إنّ خنوعَ الرّجل المنافق الذي تجرّأ على القول: «أكرهُ الأكاذيب التي تُلحِقُ بنا الأذى الكبير» يُثيرُ حنقي بشدّة. كان يَعِظُ بالعودة إلى الأرض – مثلما كان يفعَلُ قديماً صديقُ أبي السيّد جانو في لجنة التّزكية – بحجّة التّجديد الأخلاقي، فيما هم في الحقيقة يطيعون الغالب جاعلين من فرنسا مُجرّد غرفة عُلوِيّة تابعة لألمانيا. الجميعُ يكذبون: الجنرالات، الرّجال المُهمّون الذين عرقَلوا الحرب مُفَضّلين هتلر على الجبهة الشّعبيّة، يُعلِنون اليوم أنّنا هُزِمنا من باب استباق الاحتفال بالنّصر. من هزيمة فرنسا جعل المُناضلون منصّة لشتم الفرنسيّين. احتَجّوا مُدَّعين أنّهم لم يُريدوا سوى مصلحة فرنسا: أيّ فرنسا؟ لقد استَغَلّوا وجود الألمان كي يُمرروا براِمجَهم القديمة إلى الأذهان. «رسائل» الماريشال تُهاجِمُ كلَّ من كان لهم منزلة في نظري، الحريّة أيضاً. في المُقابل ستسود العائلة، الفضيلة هي التي ستَحكُم العالم، يجب الحديثُ بإخلاص عن الربّ في المدارس. أعرفُ هذه الحماقة العظيمة التي أعتَمَت طفولتي: إنّها تُكبّلُ البلد بأسرِه. هتلر والنازيّة، هما عالم غريب أكرهه من بعيد، بنوعٍ من السّكينة. پيتان والثّورة الوطنيّة، أبغضهما بطريقة خاصّة وبغَضَب يستعر كلَّ يوم. تفاصيل ما يحدُث في ڤيشي من صفقات وتنازُلات، لا تهمّني إجمالاً، كانت بالنّسبة إليَّ فضيحة مُخجِلة.

عادت أولغا نهائيّاً إلى باريس واستَقَرّت مع أختِها في فندق بنهج جول شاپلان. لحق بها بوست. قضى فترة نقاهة طويلة في مونپوليي والآن تعافى تماماً. بعد أشهر طويلة برفقة النّساء، كان من النّفيس أن أستعيد علاقاتي الرّجاليّة. كنّا مُتَّفِقين حول كلّ شيء، لكنّه لا يرى أوضَح منّي. كان المُستقبَل محدوداً. حتّى الحاضرُ كان هارباً على الدّوام: مصادِرُنا الوحيدة للحُصول على الأخبار هي الجرائد الألمانيّة. لم يكن لديَّ اتّصالٌ سياسي بأيّ طرف: غادر آرون نحو لندن، سافَر فرناند وستيفا، استقرّت كوليت أودري مع زوجِها

في غرونوبل، كان شقيق بوست سجيناً. من يُخبرني عنه؟ أحسستُ بوحدة ثقيلة. راجت بعضُ الأوراق سِرّاً: *مُحاكمة المُحتَل* لجون تيكسي، *بونتاغرويال Pantagruel*؛ لكنّي أجهَلُ بوُجودهم. ذهبتُ إلى مقرّ *المجلّة الفرنسيّة الجديدة N.R.F*. وتحدّثتُ مع بريس پاران. قال لي إنّ المجلّة ستستأنف نشاطها؛ رفض پولهان إدارتها تحت إمرة الألمان: تكفّل دريو بتسييرها. حدّثني عن «قائمة أوتو» قائمة الكُتُب والنّاشرين والمكتبات التي عليها الانسحابُ فوراً من المشهَد الفكري: هين Haine، توماس مان، فرويد، ستيكل، موروا، مؤلّفات الجنرال ديغول الخ. عرفتُ منه أمراً واحداً مُهمّاً: قُتِلَ نيزان؛ لا يعلَمُ أين تحديداً، ولا كيف، لكن الواقِعَة مُؤكّدة. عبرَت زوجَتُه وأطفالُه إلى أمريكا. تجمّد قلبي. نيزان الذي يكرَه الموت بشدّة: هل أراد أن يموت؟ كتب أفضل كُتُبِه، كان كتاباً رائعاً جدّاً، *المؤامَرة*. بعد فترة قصيرة تهاوَت الأرضُ من تحت قدَميْه؛ راجَع نمط حياتِه، وفيما كان يُفكّر في تجديد أوضاعِه مات. بدا لي غريباً جدّاً أن يُسلَبَ مُستقبلُه في هذا الوقت بالذّات. بعد مرور أيّام علمتُ بذهول أنّهم بصدد سرقة ماضيه أيضاً.

أخبرني سارتر في رسالة أنّ أحد رفاقه الأسرى الشيوعيّين قد أُخلِيَ سبيلُه وأنّه عادَ إلى الوطن، لا أدري لماذا، وكتَب لي عُنوانَه: سرعان ما حصلتُ على موعد مع ب... عن طريق الهاتف. لا أحد يعرِفُ ما يجري في صفوف الشيوعيّين؛ بعضُهم كان ينشُر *خطابات* سرّية، مُعادية للإمبرياليّة، لكنّها تنظُرُ إلى ألمانيا بعينٍ مُحايِدَة؛ ثمّة مناشيرُ تزعُمُ أنّها شيوعيّة، تتحدّثُ عن التّعاوُن. فيما راج حديث عن پروپاغندا يُنظِّمها عدد من بينهم للتّحريض على مُعاداة الألمان. على أيّ حال ما دام سارتر قد كلّفني بزيارة ب... فإنّه مُتّفق معه حول النّقاط الجوهَريّة. كان يحدوني الأمل، إذاً، وأنا أدخل المكتب الفخم لـ ب...، أن أعرف أشياء مُهمّة. استقبلني بحفاوة وأطلعني على معلومات تَخُصُّ سارتر أعادت لي رغبتي في الحياة. كانت أوضاعُ السّجناء قابلة للتحمُّل؛ الأكل قليل، لكن لا يُطلَبُ منهم العمل؛ استغلَّ سارتر هذه المزيّة كي يكتُب. ربط علاقات صداقة كثيرة، وكان حقّاً مُهتَمّاً بحياته: هذا ما كان يقولُه في رسائله، غير أني لم أجرؤ على تصديقه كُليّاً. سألتُ ب... إن كان يعرفُ أشياء عن وضعِه: ماذا في شأنِه؟ هل يُرجى شيء ما؟ ماذا يُخشى؟ حدَّثني برُقِيٍّ عن مذهب ديغول

الذي لا يُلامِسُ سوى العجائز العاطفيّات جدّاً؛ أراد إقناعي بأنّ الخلاص يأتي من الخارج. لم أسأله عن إضافات، إذ لم يكن لديه ما يقولُه. لكنّي قلتُ له إنّ المُعاهدة الألمانيّة–السوفيتيّة قد قوَّضت حماساً حيال الاتّحاد السوفيتي ولا تُشجّعُ على منح الثّقة للحزب الشيوعي. قهقه: وحدَهُم البورجوازيّون الصّغار عديمو الخبرة السياسيّة بإمكانهم جحود مُؤهّلات ستالين. شيوعيّون أحرار أدانوا المُعاهدة. اعترضتُ: ذكرتُ له نيزان. اتّخذ وجهه سحنة غامضة: يجبُ أن يكون المرء خائناً كي ينفصل عن الحزب إثر المُعاهَدة. أجبتُ إنّ نيزان لم يكن خائناً. هزّ كتِفَيْه؛ اثنان فقط استقالا من الحزب، قال بعنجهيّة مقيتة؛ أحدهما مناضلة شابّة يحتفظ بها البوليس لتورُّطِها في قضيّة إجهاض؛ والآخر نيزان، ونحن نعرفُ منذ زمن طويلٍ أنّه يتقاضى مُرتّباً من وزارة الداخليّة. حبس السّخطُ أنفاسي: من قال؟ كيف تأكّد ذلك؟ هذا معروف؟ ألم يستَقِل؟ عبثاً عارضتُه وغادرتُ منزعجة تماماً. مع ذلك أقيس بدِقَّة حجم افترائه؛ رأيتُ في ذلك حالة شاذّة من ب... لا أكثر، نتيجة حصولِه على معلومات مُضلّلة من أشخاص لا يعرفون نيزان. لم أشُكَّ في أنّها حملة تشويه قذرة قادَها ضدَّه أناسٌ يعرفونَه جيّداً.

قدّم لي بريس پاران كاتِبَيْن نجحا بوسائل غريبة في إجلاء بعض الأسرى؛ إمّا أنّ قنواته خاطئة، أو أنّي تقبّلتُ ذلك بريبة: لم يُفضِ مسعايَ إلى شيء. لبثتُ وقتاً لم أتلقَّ فيه أخباراً عن سارتر، لكنّي لم أكن قلقة بشأنِه؛ حواري مع ب... كانت له رمزيّة طمأنتني عليه. قرّرتُ العودة إلى الكتابة: لاح لي أنّها حركة إيمانيّة، حركة أمل. لا شيء يُنبئ بأنّ ألمانيا قد تُغلَب؛ لم يخسَر هتلر أيَّ معركة، قصف هائلٌ عصَف بلندن، ربّما نجح الجيشُ النازي في دخول إنجلترا قريباً؛ لم تُعلِّق الولايات المُتَّحدة، وظلّ الاتّحاد السوفيتي سلبيّاً. إلّا أنّي قمتُ بما يُشبِه الرّهان: ما قيمة السّاعات التي تمضي جزافاً في الكتابة لو انهارَ كلُّ شيء غداً؟ لو استعاد العالم واستعادت حياتي والأدب ما تكتسيه من قيمة فمن المُؤكَّد أنّي كنتُ سأُعاتِبُ نفسي على الأشهر والسّنوات المهدورة فيما لا جدوى منه. اتَّخذتُ مكاناً في الدّوم، إذاً، بعدَ الظّهيرة لأكتُب آخر فصول روايتي؛ راجَعتُ المخطوط برُمَّتِه. لم أفعَل بشغف؛ يُعبِّرُ هذا عن حقبة من حياتي تطوَّرَت ولم يعُد لها وُجود؛ لكن بالتّأكيد كنتُ مُتعجّلة للتخلُّص منه فتعلّقتُ بها بحماس.

تابعتُ قراءة هيغل الذي بدأتُ أفهَمُه الآن؛ كان ثراؤه يُذهِلُني إذا تحدّث عن التّفاصيل؛ غير أنّ عموم النّظام يُصيبُني بالدوار. نعم، كان توّاقاً ليتحطّم من أجل الكَوْني، أن يرى حياته الخاصّة في تصوُّر مبني على نهاية التّاريخ معه. مع كلّ العناية التي كان يوليها لقضيّة الموت: إذاً، كم تبدو تافهة هذه الآونة الضّئيلة في مجرى الكون، الفرد، أنا! لم أنشَغِل بما سيأتي. بما يُحيطُ بي، هنا والآن؟ لكنّ أصغر حركة في عاداتي كانت تُكَذِّبُ هذه المُضارَبَة: الأمل، الغضب، الانتظار، القلق يترسَّخُ في مُواجَهة كلّ تجاوُز؛ لم يكن الهربُ من الكَوْنيِّ سوى فترة من مُغامرتي الشخصيّة. رجعتُ إلى كيركيغارد وأقبَلتُ عليه أقرؤه بشغف؛ كانت الحقيقة التي يُدافع عنها تتحَدَّى الشكَّ بنفس مستوى تحَدّيها للحقيقة الديكارتيّة؛ النّاظم والتاريخ لا حيلة لهما أوفر مما لدى العباقرة إزاء اليقين المعيش: «أنا كائن، أنا موجود، في هذا الوقت، في هذا المكان، أنا» تعرّفتُ في هذا النّزوعِ إلى تردّد الشّباب عندما كنتُ أناوِبُ قراءاتي بين سپينوزا ودوستويفسكي، فكان الأدب يبدو لي ضجيجاً عميقاً حيناً، والميتافيزيقا شرحاً فارغاً للظّواهر حيناً آخر. تعلّمتُ الآن فلسفة تنسَجمُ مع الوجود، تُعطي قيمة لوُجودي على الأرض، يُمكنني تأييدها دون تلكُّؤ. مع ذلك، بسبب الصّعوبات التي أمُرُّ بها، كنتُ أحياناً متأثّرة بحُلم الهدوء اللامُكترث حيثُ الكينونة تُساوي العدم. عموماً ليس ثمّة أمر جديد في المُقارنة بين الكون والفرد. لكن بالنّسبة إليَّ فإنّها تجربة استثنائيّة أصيلة، ملموسة كاكتشاف الوعي لدى الآخر. أفكِّرُ في جعله مِحْوَر روايَتي القادمة.

كلّما تقدَّمتُ في دراسَة هيغل - دون الكفّ عن الإعجاب به - أبدأ أستقلُّ عنه. أعرفُ الآن أنّي مُرتَبِطَة بمُعاصِرِيَّ حتّى النُّخاع؛ لقد اكتَشَفتُ نقيض هذه التبعيّة: المسؤوليّة. أقنعني هيدغير أنّ في داخل كلِّ موجود «حقيقة بشريّة» تكتَمِلُ وتُعبِّرُ عن نفسِها. وعلى العكس، كلٌّ منّا يُوظِّفُها كاملة؛ حسب موقع المُجتمعات التي اختارته لنفسِها في أرض الحُرّية، أو تهوي إلى قرارة العبوديّة، فإنّ الفرد يفهَمُ أنّه إنسان بين البشر، أو نملة في غار نمل: لكن لدينا القدرة على إرساء الاختيار الجماعي الطّعنَ فيه أو تأييدَه. أُبدي كلَّ يوم هذا التّضامُن المُتبادَل. في فرنسا الاحتلال هذه، يكفي أن تتنفَّس كي تُوافِقَ على القمع؛ حتّى الانتحار ما كان لينتَشِلَني مما أنا فيه بل كان سيُرسِّخُ هزيمتي لا

أكثر؛ إنّ خلاصي مُنصَهِرٌ مع البلد بأسرِه. لكنّ هذا الوضع الذي فُرِضَ عليَّ، أسفي وحسرَتي، كشفت لي أنّي قد ساهَمتُ فيها. لا يُلغي الفردُ نفسَه من وجود أنتَجَه: إنّه يُؤثّر فيه وهو يتحمَّلُه، حتّى لو كان جامداً لا يتحرّك أبداً. تغلغلت هذه الأفكار عميقاً في داخلي. المُصيبة هي أنّي لا أرى وسيلة أحظى بفضلِها بنتائج ملموسة. وبَّختُ نفسي على خمولي القديم، لا أجد ما أفعَلُه، سوى العيش والمُتابَعة في انتظار الأفضل.

فتحت المسارِحُ أبوابَها من جديد. تبدأ العُروض عند الثّامنة وتنتهي عند الحادية عشرة، بسبب حظر الجولان. تحوّل دولان إلى مسرح باريس Théatre de Paris؛ اقتبس پلوتوس. تخلّى ماركو عن دورِه؛ عهِدَ دولان لأولغا بدور قصير، لكن طريف وأدَّتهُ ببراعة؛ تيسان ابنَة اللكسومبورغ قامت بإبداع لفت أنظار النُقّاد بعد فترة عند مُنتَصَف نوفمبر، قدَّم دولان عرضاً آخر: *المرأة الصّامتة* لبين جونسون الذي كان ينتمي إلى عالم المسرح. كان عليَّ حضور الافتتاح مع أولغا وواندا. ارتَدَيْتُ ملابسي. خرجتُ من الفندق ووجدتُ في صندوق بريدي كلمة أرسلتها زوجة رفيق سجن لسارتر؛ أخطرتني بعُنوانِها الجديد. شحب وجهي.

كرانكن–ريڤير، ستالاغ XII د.

Kranken–revier ; Stalag XII D

كنتُ قد كففْتُ عن القلق عليه وها هو في المصحّة، ربّما أصيب بالتيفوئيد، وربّما هو يُحتضر الآن. مررتُ إلى المسرح كي أُعلمَهم بألّا يُعَوِّلوا عليَّ هذه الفترة. أكّدت لي تيسان التي تعرف الألمانيّة أنّ سارتر في دار التّمريض. أخذتُ المِترو كي أقابل المرأة التي أعطتني العُنوان؛ كنتُ أرتجف، عينّاي مُلَوَّثَتان برؤى غريبة. فتَحتْ لي المرأة الباب وهالها القلق الذي لاحظته في صوتي وعلى وجهي: نعم، كان سارتر وزوجُها في دار التّمريض سعيدين بنُقلَتِهما؛ كانا يُساعِدان ما يُسمّى بالمُمَرِّضين، كانا أفضل سكناً وأكثر شعوراً بالدّفء مما لو بقيا في الزّنازين. عُدتُ إلى المسرح وحضرتُ نهاية المشهَد الأوّل. الأضواء، الأرائك الحمراء، حُشود في غُدُوٍّ ورواح بين الممرّات، يا للتناقُض مع ما ظلَّ عالِقاً في ذهني من صُوَر: الأسرَةُ الحقيرة، الأجساد

المُعَذّبَة، المُنثَنية تحت وطأة الحُمّى، الجُثث! عالَمان يتعايشان معاً منذ 10 ماي: أحدُهُما مألوف وضاحك تقريباً فيما الآخر مُرعب. كان من المُستحيل التّفكير فيهما معاً؛ والنّقلة القاسية التي ما أنفَكُّ أشعُر بها مروراً من أحدهما إلى الآخر تعتصر قلبي وتُفتّت أعصابي.

أخيراً رسائل مُطمئنة من سارتر. شعرتُ براحة كبيرة. أرسل لي من النَّوعَيْن: الرسميّة، بقلم الرّصاص يحدّها حجم الورق والأسطر العشرون؛ وأخرى طويلة، تُشبِه الرسائل الاعتياديّة. كان رفاقٌ يعمَلون في المدينة يُغامرون بوضعِها مُباشرة في صناديق البريد. كان سعيداً جدّاً بمصيره ومشغولاً للغاية؛ تحدّث مع يهود حول أسرار العُذريّة الزوجيّة؛ كان عازماً على العودَة قريباً إلى باريس. لكن ليس حالاً، لأنّه بصدد إعداد مسرحيّة كتبها بمُناسبة عيد الميلاد. ثمّ بعد ذلك لن يتأخّر. بدا كأنّه هو من يُقرّرُ تاريخَ عودته: هل ينوي الهرب؟ تخيّلتُ مُحاولة الهرب فعلاً شنيعاً وأرعَن: العساكِرُ يُطلقون النّار وتُطلَقُ الكلاب على النّاس؛ انتابني الخوف. لكنّه تحدَّث أيضاً عن مدنيّين سيُخلى سبيلُهم، كما لو أنَّه أحد هؤلاء. دون شكّ، هل كان بصدد تدبير المكائد. قرّرتُ عدم الاضطراب.

استَعدتُ توازُني تقريباً؛ غيرَ أنّ شعور العُزلَة استَمَرَّ معي. يوم 11 نوفمبر، بالشان-إيليزي، تحدى الطّلبةُ الألمان بجرأة جعلتهم يتأثّرون بإغلاق الجامعة. لم تفتَح أبوابها سوى يوم 20 ديسمبر. كانت إجابة موجعة في وجه مهزلة ترسيخ الصّداقة الألمانيّة الفرنسيّة: كان ردّاً على فرنسا. لكنّي لا أعرفُ من بين هؤلاء الشُبّان أحداً قال لا للنازيّة. لا أرى سوى عُزّل مثلي؛ لا أحد من بينهم يملكُ راديو، لا أستطيعُ سماعَ الب بي سي. كيفَ أُغربل الأحداث من الأكاذيب المنشورة في الصّحف؟ كانت جريدة *العمل*، *الأزمنة الحديثة* تصدُر يوميّاً مثل *النّصر والصّباح*. كانت تُفسّرُ بِشرٍّ كبير كيف أنّ جيد Gide، كوكتو، المُدرّسين، اليهود ورصيف *الضّباب* هم الذين استقبلوا الورطة. صحافيّون أحببتُهم من قبل، أيام *البطّة المُقَيّدة* الجميلة – هنري جونسون، غاليتي بواسير – زعموا في صحيفة *اليوم* أنّهم يكفَلون بعض حُرّيات التّفكير؛ لكنّهم كانوا مُضطَرّين لنشر البيانات الألمانيّة وعدداً كبيراً من المقالات الألمانيّة المُغالية:

كان لهذا التّشويه وزن أثقل من قائمة حِيَلِهم الطّويلة. بعضُ أوراق جونسون صدَرَت مسمومة؛ أُدخِلَ إلى السّجن بضعة أسابيع وأُعفِي فريقُه من مواصلة النّشاط. تولّى سواريز رئاسة الجريدة التي ضمّت صوتَها إلى صوت البقيّة. صدرت *المجلّة الفرنسيّة الجديدة N.R.F* خاصّة دريو في شهر ديسمبر. كان آلان مُتَعَنِّتاً لفكرة السّلام بسُخط كبير لم يُفاجئني كثيراً. لكن لِمَ نشر «جيد» مقاطع من مُذكّراته؟ التقيتُ في الدّوم بجون وول Jean wahl، وكان مُستاءً مثلي تماماً. أراحني جدّاً أن يُشاطرني أحدُهم من أصدقائي المُقرّبين حنقي الشّديد.

في المُقابل، كنتُ بعد أيّام على موعد مع مفاجأة سيّئة. دولان، خلال المُناسبات الأخيرة التي كان لنا فيها حديث، حذّرني من الألمان بلهجة جُندي سابق. كنتُ أتناول العشاء في إقامته بمسرح باريس بصحبة كامي. في منتصف العشاء، نطقت بصرامة وبإيمان تام بما تقول بكلمات سمِعَها دولان دون تعليق: بما أنّ النازية انتصرت فلابُدَّ من الانضواء تحت رايتها؛ كانت تلك الفترة هي أوج مجد كامي أو لا يكون أبداً: كيف تجعل من حِقبَتِها سُلّماً وهي تدينُها؟ لقد انخرطت في اللعبة من قلبها آملة أنّ ساعة مجدها قد دقّت. أوقفتُها بحُجّة بدت لي دامغة: الانتهاكات المُعادية لليهود. «أوه! قالت لي، لقد حكم برنشتاين المسرح طويلاً: جاء دورُه.» شرعتُ أنا نفسي أتكلّمُ دون توقّف؛ لبِسَت أفضل أقنعتها، يدان مُرتعشتان، وابتسامة رقيقة مرسومة على الشّفَتَيْن: «مُضطهدين أم لا، الناسُ الذين لديهم شيء ما في بطونهم ينجون دائماً.» في الظّروف الحالية، بدت لي التّفاهَةُ النيتشويّة الرّخيصة غير مُحتَمَلة وكدتُ أغادر الطاولة: امتعاضُ دولان ولُطفُه منعاني؛ لكنّي رحلتُ حالما أنهيتُ عشائي؛ كنتُ غاضبة ومُشفقة؛ لم أرها قبل زمن طويل.

يوم 28 ديسمبر، وأنا أنزلُ من شارعِ سان–جرمان، لمحتُ تجمُّعاً أمام سياج عُلِّقَت عليه لافتة حمراء:

إشعار

حُكِمَ على المُهندِس جاك بونسيرجون، من باريس، بالإعدام من قِبَلِ المحكمة

العسكريّة الألمانيّة من أجل أعمال عُنفٍ ضدَّ أفراد من الجيش الألماني أُطلِق عليه الرّصاص هذا الصّباح.

من هو؟ ماذا فعل؟ لا أعرفُ عنه شيئاً (عرفتُ لاحِقاً أنّ بونسيرجون قد دفَع ثمن خطأ أحد أصدقائه الذين تورّطوا في عمليّة تدافُع غير مقصودة مع ضابط ألماني، شارع هاڤر)؛ لكنّها كانت المرّة الأولى التي يُعلن فيها المُحتَلّون رسميّاً أنّهم قتلوا فرنسيّاً أبى أن يُطأطئ رأسَه. لم يسُدِ التّوافق بين أولئك الذين غيّروا مواقفهم. أيدتْ الصّحافة الباريسيّة سياسة لاڤال الذي طالبه پيتان بالاستقالة والذي استبدَلَه بفلاندان ثمَّ دارلان. تعارَضَ التجمُّع الوطني الشّعبي حول بعض النّقاط مع الحزب الشّعبي الفرنسي لدوريو ومع تعريف بوكار لفرنسا؛ لكنّهم جميعاً آخذوا ڤيشي على خدمة ألمانيا بميوعة منقطعة النّظير. مع ذلك أيّدَت «الكتيبَةُ» «الثّورةَ الوطنيّةَ» بمنع جيد من تقديم مؤتمر في ميشو Michaux. هذه النّزاعات والغموض والخلط لم تكن لها أهمّية في نظر الذين يرفضون التعاوُن بالقطع. كانوا يخلِطون بين التعاوُن والداعين إليه ويتعلّمون مع الأمريْن بنفسِ القدر من الازدراء. شعرتُ بالرّعب عندما صدرت في شهر فيفري أسبوعيّة *أنا في كلّ مكان*؛ بدا أنّ الفريق مُصاب بالبارانويا الجماعيّة. لم يُطالبوا فقط بجلود رجال الجمهوريّة الثّالثة وبإلغاء جميع الاشتراكيّين واليهود فحسب بل أرادوا أيضاً محق كُتّاب الضفّة الأخرى الذين حاوَلوا قدر المُستطاع التعبير دون تنازُل عن مبادئهم. كانوا يُردّدون الإدانات دون توقّف: «ثمّة قانون آخر نطالبُ به، كتب برازيلاش، الوِشاية بالخونة.» ولم يتورَّع عن تطبيق كلامِه.

جاء الشّتاءُ أبرد من الذي سبِقَه؛ أشار المِحرارُ لأيّام وأيّام إلى درجات دون الصّفر. لم تكن غُرفتي مدفّأة بسبب النّقص في الفحم؛ كنتُ أنامُ في بنطلون تَزَلُّج وكنزة صوفيّة خشِنة تحت أغطية مُتجَمِّدَة. كنتُ أرتجف في الحمّام. بسبب السّاعة الألمانيّة، كانت الشّوارِعُ مُظلمة لدى خُروجي. أركُضُ نحو الدّوم طالبة القليل من الحرارة. لم يكن المكانُ ممنوعاً عن الألمان، وفيما كنتُ أرتشف قهوة، كانت «جرذانٌ رماديّة» تضَعُ على الطّاولة المعجون والزّبدَة وتُقدّم للنادل كيساً من الشّاي الأصلي. كنتُ أعملُ كالسّابق في زاوية

بالعُمق، لكن ما من لاجئين مشغولين بقراءة الصُّحُف ولعب الشّطرنج؛ أغلبُ الأجانب اندَثَروا وكلُّ الوجوه التي أعرفُها تقريباً. كان أداموف ينبجس أمام طاولتي من حين إلى آخر، العينان مُتَّسِعتان أكثر فأكثر في سؤال لا ينتهي. «أنت بخير؟» قال لي بكلمات مُتقطِّعة؛ يستَقِرُّ استفهامٌ على وجهي: «هل فكّرت؟ ما هذا الذي بخير أو ليس بخير إذاً؟» كان قديما يُفكّر في علم الاشتقاق والرّموز وكنتُ مُعجَبَة به وقالت لي أولغا التي تعرّفتْ عليه إنّه يروي كمّاً من القصص الأسطوريّة الإيرلنديّة السّاحرة؛ ربّما بهذا الشّكل كان يُعلِّقُ النّساء في شَرَكِه، كنّ حقّاً مُذهلات ومن الطّراز «الرّفيع»؛ للأسف، حاول التعمُّق معي في الحكايات لكنّنا لم ننسجم معاً. تفحّصَ أوراقي: «ما الذي تكتُبينَه؟» سألني ذات مرّة. اعترفتُ له بشجاعة: رواية. – رواية؟ كرّر، رواية حقيقيّة؟ ببداية ووسط ونهاية؟» كان مُندَهِشاً مثل أصدقاء أبي فيما مضى، أمام قصائد ماكس جاكوب، الذي جعلني أقرأ في مُسودّات كُرّاسٍ تلمَذي، *الاعتراف*. أذهلني وأذهَلَهُ لاحقاً.

كنتُ غالباً ما أُقضّي أمسياتي في مقهى فلور: لا أحد من بين جنود الاحتلال كان يطؤه. لم أعُد أرتادُ العُلَب الليليّة، لأنّ الألمان اجتاحوها بالكامل. كان مرقَصُ الزّنوج مُقفَلاً. محرومة من السّينما، كثّفتُ الذّهاب إلى المسرَح. تساءلتُ كيف لم أرَ دولان صُدفة في عرض *البخيل*: كان رائعاً في هذا العرض أكثر من سِواه؛ خصلاتُ الشّعر الرماديّة المُشَوَّشة والوجهُ الفزِع. والصّوتُ المُتكسِّر. كان يُنادي عُلبَتَه الضّائعة بصرَخات عاشق ولهان؛ كان يبدو ساحِراً مسحوراً. لم تُضحِكني مسرحيّة *اليدُ تمرّ* لفيدو. كان أداءً بارداً مُفرَغاً من الرّوح. تحدّثنا طويلاً حول بريتانيكوس Britanicus التي أخرجها كوكتو بمسرح بوف–پاريزيان. كانت العُروض مُختلفة، وبفضل المُمَثّلين الشُّبّان وحماس جون ماري Jean Marais، تحوّل نيرون إلى بطل مُعاصر. أدّى دورَ بريتانيكوس شابٌّ مُبتدئ، ينتظره الكثير ليتعلّمه على ما يبدو: ريدجياني Reggiani. رأيتُه بعد ذلك أثناء تمارين مسرحيّة أندرييف، *أيّامُ حياتنا* التي ظهرت فيها أولغا وأعدّها رولو؛ مُمَثّل شاب آخر سطع نجمُه. تكهّن له الجميعُ بمُستقبل كوميدي پاريديس Parédès. عموماً كنتُ أخرجُ بقلّة. تُسلِيَتي الأولى هي الاستماعُ إلى الموسيقى، القراءة، التحدُّث مع أولغا، بوست، بيانكا وليز.

رغمَ سلوكِها الطفولي إزائي، فقد خرجتْ ليز من عُمر الطّيْش: كانت تمشي وتتحرّكُ بثِقَل، لكنَّ وجهها أصبَح جميلاً جدّاً، تحت شعرِها الأشقَر النّاعِم. كانت مُثيرة وهي تدخُل الفلور. وكانت لافتة حيثُما حلّت بسبب تألُّقِها وطريقتها المُختلفة في التحرُّك. لم تكن مُعتادة على المقاهي. كانت في بداية عهدِها تُصافِحُ النادل وتدعوه بالـ «سيّد». بدأتُ أفهَمُها.

معدومة الجنسيّة، تربَّت دون حنان من قِبَل والِدَيْن غير مُنسَجِمَيْن، ظلّت دائماً تُعاني إحباطاً شاملاً؛ وكَرَدَّةِ فعل، ظنّت أنّها تمتلك نُفوذاً مُطلَقاً على كلِّ شيء وضدَّ النّاسِ جميعاً. كانت علاقتها بالآخر، مبدئيّاً، في خُصومة مَطلَبيّات. يمكنُ أن تكون سَخيّة مع صديقتها تانيا، هي أيضاً معدومة الجنسيّة وفقيرة. لكنّها ترى كلَّ الفرنسيّين على أنّهم أوغاد محظوظون يجبُ استغلالُهم بفُحش: لا أحد يمنَحُها ما يكفيها. سجّلتْ في السوربون، وهي تَستعِدُّ للحُصول على شهائد في الفلسفة، راحت تربِطُ علاقات صداقة؛ بادَرَتِ الفتيات والشُبّان الذين أعجبوها وكانت عادَة تُرهِبُهم: لم يكونوا يُلَبّون مواعيدَها معهم أو بعد لقاء أوّل، كانوا ينفصلون عنها. أخيراً نجحتْ في الاستحواذ على شاب في العشرين، وسيم، أنيق جدّاً، وينتمي إلى عائلة ميسورة؛ كان يَسكُن في إقامة ذُكور واقترح عليها العيش معه: كانت ترغَبُ في مُغادَرة بيت أهلها وانتهزت الفرصة فوراً. ذات صباح، كنتُ في طريقي إلى الدّوم عندما قفزت أمامي: «تعلمين، نمتُ مع أندريه مورو: كان ذلك مُسَلِّياً للغاية!» لكنّها راحت تكرهُه رويداً؛ كان يدّخر أمواله، صحّته ويُمارسُ كلَّ ما يُتاحُ أمامه من عادات وأعراف، كان فرنسيّاً حتّى النُّخاع ومُغرَماً بممارسة الحبّ في جميع الأوقات فيما كان ذلك مُمِلّاً بالنّسبة إليها؛ كانت تتحدّثُ عن علاقاتها الجنسيّة بهمجِيَّة خنازير. حثّتها أمّها على البقاء مع أندريه: إنّه صفقة جميلة، ربّما تزوَّجَتهُ في النهاية. أغضبها هذا التّحالُف؛ لو أعطيتُها المالَ آخر كلَّ شهر، قالت لي، فستسمَحُ لي بالتّنزه معه؛ لكنّي لا أستطيعُ إعطاءها شيئاً واتّهمتني تقريباً بدفعها إلى البغاء. تابعت أيضاً مؤاخذتي على التّعامُل ببُخل مع وقتي: «أنتِ ساعة حائطيّة في ثلّاجة!»، قالت مُتذمِّرة. لم تتّفق مع أولغا البتّة لكن كان لها بعضُ الخصوصيّاتِ مع واندا وكانتا تخرجان معاً أحياناً؛ ذات مساء، ذهبتا لحضور افتتاح مسرحيّة وخلال فترة الاستراحة بين الفُصول

أخرجت ليز من حقيبتها قطعة سوسيسون ضخمة بالثوم والتهمتها دون مُغادرة مقعَدِها، اشمأزّت واندا قليلاً. كانت ليز تُكنّ الود لبوست لكنّها كانت تُغيظنا جميعاً حين يدور الحديث عن سارتر. «سارتركم هذا، يعتقد أنّه عبقريّ فيما هو مُزَيَّف!»، قالت لي. كانت سعيدة لأنّه سجين: «لولا هذا لكُنتم أهملتموني بالتأكيد!»، قالت أيضاً مُبتَسِمة: «لا أكرهُ أن تحصُلَ لكم بعضُ المتاعب.» عداؤها للناس المُندمجين في المُجتَمَع، عداؤها للمُجتمع بأسره يُفسّر جيّداً حُبَّها للكارثة والفضيحة. تحدَّثتُ عن ارتيابها المَرَضي: لم تكن تثق بأحد بل فقط بالتّجربة والمنطق. لم تكن شُجاعَة؛ كانت تهربُ عندما تُحسُّ بالخطر، لكنّي لم أفلح في إقناعِها بأنّها رغم حذرها الشّديد فإنّ رجلاً أقوى منها سيلُفُّ حبالَه حولَها. ذات ظهيرة، اعترض سبيلَها ثلاثة أولاد في شارع مُقفِر بالحيِّ اللاتيني وقرصها أحدُهم من خصرِها؛ لكمَتْه: أحسّت بالفزع وهي طريحة الأرض، تنزِف من أنفِها وسنُّها مكسور. تجنّبت في المقابل أن تصطدم بخصوم ذكور؛ لكن رغم الدّروس فإنّها تميلُ إلى العُنف حالما تشعُرُ أنّها الغالبة لا محالة. إحدى رفيقاتها في الدّراسة، جينڤييڤ نولي، صمّاء تقريباً وحمقاء جدّاً إلى حدّ جعلني أحتار في نيْلِها شهادة الباكالوريا، كانت أحياناً تنتظرني أمام معهد كاميي-سي. كنتُ أرفُض التحدُّث إليها، لكنّها كانت تتقافَزُ أمامي في الشّوارع وممرّات المِترو؛ أمسكتني من معصمي: «آنستي، أريدُ أن أصبح صديقَتَكِ!» طردتُها. بعثَت لي برسائل رسميّة: «ألا نستطيعُ الذّهاب معاً إلى اللوڤر غداً؟ سأكون في مِترو سيڤر العلامة الحمراء عند الثّالثة.» لم أرُدّ. ومُجدّداً لدى خروجي من المعهد كانت ترقّبني. يحدُث أن أكون على موعِد مع ليز وتغضب بشدّة في وجه نولي: «انصرفي من هنا! - من حقّي البقاء هنا!»، قالت الصمّاء؛ غالباً ما كانت تخافُ وتنصرف. ذات مرّة، مُستخدمة أساليب ليز، سارت معنا عُنوَة؛ ارتمت عليها ليز وانهالت عليها ضرباً قبل أن أتدخّل. هربَتْ نولي باكية. في المساء، رنّت جرس بيتِ والِدَيَّ وقدّمت لأمّي باقة ورود؛ أرفقتها بعبارات اعتذار. بعد فترة تلقّيتُ منها رسالة: «آنسة، قاسٍ جدّاً في عائلتي وحَولي أن أكون مُلكاً للجميع. مللتُ هذا، يكفي. سأُكرِّسُ نفسي لكِ وحدَك. مفاتِني أمنحُكِ إيّاها وأعشَقُ مفاتِنَك. انشُري الخَبَر حولَكِ.» لم أعد أعرفُ عنها شيئاً. لكنّ ليز كانت مُنشَغِلَة بالكراهية كي يخطُر

لها ما يُربِكُ عقل صديقَتها؛ كانت عمياء بالكامل حيال الأشياء التي ترى أنّه من الأفضل تجاهُلُها. في المُقابل، كانت تفهَم ما تَوَدُّ فهمَه؛ كانت تملكُ طاقة فكريّة لافتة؛ اهتَمَّ بها أساتِذَتُها في السوربون؛ قرأت أطروحة حول جيلسون وحازت على تقدير كبير. كانت تنزَعِجُ لدى رؤيتي أكتُب لكنّها كانت ترغَبُ في مُحاكاتي؛ بدأتْ بطفولَتِها، عائلتها، قصّة حُبّها مع الكولونيل سكوت، قصّة لها وهج خاص، مُفاجئة ومُشَوِّقَة.

كانت أيضاً تستمتِعُ بالقيام برسوم جذّابة. كانت مواهبها وحيَوِيَّتُها تُبعِدُها في نظري عمّا تقوم به من تصرُّفات مُخزِية. ذات مساء، نهاية شهر مارس، وأنا عائدة من فُندُقي بعد العشاء وجدتُ في صندوق بريدي كلمة من سارتر: «أنا في مقهى الفرسان الثّلاثة.» صعدتُ ركضاً نحوَ شارِع ديلومبر وشارع غيتي، دخلتُ مقطوعَة الأنفاس إلى المقهى المُتوَهِّج باللون الأحمر خلف ستائره السّميكة الزّرقاء: لا أحد. تهاويتُ على مقعد؛ اقترب نادِلٌ يعرِفني ومدّني بورقة. انتَظَر سارتر ساعَتَيْن وخرج ليقوم بنُزهة يُبدِّدَ بها تَوَتُّرَه: سيعود.

لم يحدُث من قبلُ قط أن وَجَدنا مُشكلة في اللّقاء مثل هذه المرّة؛ في ذلك المساء، اليوم الموالي، بعد أيّام، ما انفَكَّ سارتر يُربِكُني: كان قادِماً من عالم سيّئ إلى درجة جعلتهُ يرى العالم الذي ينتمي إليه منذ أشهر رديئاً. وانطَبَع لدى كِلَيْنا أنّنا لا نتكلّمُ اللغة ذاتها. روى لي قصّة هروبِه أوّلاً. كانت الحدود اللكسومبورغيّة قريبة، عدد كبير من المُعتَقَلين نجحوا في عبورها: مُنظّمة تأسّست في المُعَسكَر، تعهّدت بتوفير الوصولات، الملابس، وخطّطت بطرق مُختلفة لإخراجهم من السّجن؛ غامر أعضاءُ المُنظّمة بحياتِهم؛ في المُقابل كلّ الذين قاموا بالمُحاولة لم يَخْشَوا المخاطر؛ أُعيدوا إلى الزّنازين وسُلِّطت عليهم عقوبة خفيفة. في البداية انضمَّ سارتر إلى مجموعة رفاق ينوون الذّهاب إلى اللكسومبورغ سيْراً على الأقدام.

كان يُفكّر في طريقة أخرى منذُ زمن، فجأة أُتيحَت له فرصة الهرب. كان هناك في ستالاغ عدد كبير من المدنيّين، التُقِطوا من الطّرقات والقُرى؛ وعَد الألمان بإعادتهم إلى ديارِهم، وذات يوم قرّروا ذلك. يُبرهن على المدنيّة بالاستظهار ببطاقة الجُندِيّة: إن كان الشّخصُ أصغر أو أكبر من العمل كجُندي

أو حين يكون معفيّاً فإنّ الألمان يُطلقون سراحه. كان يوم تدليس البطاقات؛ فريق من المُتخصّصين نجحوا في صُنعِ أختام مُزَوَّرة رائعة. المُشكلة هي أنّ الألمان ارتابوا وأخضعوا المُتظاهرين بالإعفاء إلى تحقيق صارم؛ غير أنّهم لم يصنَعوا منها قضيّة دولة؛ سُمِعَ أنّهم ينوون تحويل بعض الجنود إلى مُتديّنين: لا يهمُّ إن كان الاختيار سيّئاً. كان الاختبار سريعاً إذاً، وقرار الطّبيب ماكراً جدّاً. السّجين الذي يسبِقُ سارتر كانت تعوزه المكيدة. لدى سؤالِهم إيّاه: «لا معنى لهذه الذّريعة، من السّهل مُعالجة هذا النّوع من الاضطراب، ودون الحاجة إلى التأكّد ركله جُندي وأُعيدَ إلى المُعتقل. جاء دور سارتر، غَيَّبَ حدَقتَه، مُبرِزاً عاهة عينِه الميّتة تقريباً بطريقة مُثيرة للشّفقة: «اختلال توازُن.» أعجَبَت الطّبيب والتحق سارتر بمجموعة المدنيّين. في حالة فشل فإنّ عليه المَشْيَ بعد ثمانية أيّام على الأقدام كما خطّط. على أيّ حال لم يكن ليتَخيَّل أن يدوم حبسُه سنوات. لم يصطدم تفاؤلُه بصخرة الواقع.

لم أتفاجأ بما أنجزه خلال الأشهر التّسعة، ولا بفضولِه المُتَّقِد خلالها. ما شوّش عقلي هو جمودُه الأخلاقي. هل مارستَ التّجارة السّوداء؟ كنتُ أشتري الشّاي من حين إلى آخر: هل هذا كثير، قال. كنتُ مُخطئة بتوقيع الورقة التي تُثبتُ أنّي لستُ يهوديّة ولا ماسونيّة فرنسيّة. كان سارتر دائماً يؤكّد على أفكاره، وعمّا يُنفّره وعما يفضله سواء في تصريحات مُباشرة من خلال تصرّفاته؛ لكنّه لم يكن يُعبِّرُ قط عنها في شكل حِكَم مأثورة؛ يُضايِقُه مبدأ الواجب الغامض. توقّعتُ أن يتضارب مع قناعاته ومشاريعه ومع سُخطِه لكن لم أتوقَّع قط أن أجدَه محشُوّا بالمبادئ. رُوَيْداً فهمتُ الأسباب. شكّل المناهضون للفاشيّة فريقاً في ستالاغ ضدَّ الألمان والمُتعاونين واللاّمُبالين وجمع بينهم عهدٌ ضمني: عدم الرّضوخ، رفض المُصالحة. في منأى عن الآخرين أقسم كلٌّ منهم على التمسُّك بهذه الأمانة. لكنّ الأوضاع في ستالاغ أسهلُ ممّا هي عليه في باريس حيثُ التنفُّسُ يعني التنازُل. لم يستسلِم سارتر أمام الوضعِ المتأزِّم وإزاء حقيقة اعتقالِه؛ لكن في الحياة المدنيّة فإنّ تعنُّتَه هو بمثابة التحزُّب وها هو يتأقلَمُ مع نظامه الجديد شيئاً فشيئاً.

خلال المساء الأوّل فاجأني أيضاً، بطريقة أخرى: إن كان قد عاد إلى

باريس فليس لأجل ملذّات الحُرّية، بل لأتحرّك. كيف؟ سألتُه مذهولة: كنّا مَعزولَيْن وضعيفَيْن جدّاً! سبب إضافي، قال لي، ينبغي كسر جدار العُزلة، والاتّحاد من أجل تنظيم صفوف المُقاومة. بقيتُ مُتشكِّكَة. رأيتُ سارتر من قبل وهو يُوَلّدُ من الكلمات إمكانات غير متوقَّعة، لكن خشيتُ أنّ هذه المرّة هي مُجرّد أوهام.

منح نفسَه راحة قبل كلِّ شيء؛ تجوّل في باريس ورأى أصدقاءه. تعرّف على ليز في ظروف بدت ملائمة لذلك. تلقّت خبر عودَتِه بمزاج مُتعَكّر. واعدني في پاسي، اليوم الذي كان عليه تناوُل الغداء مع عائلته. كان الطّقسُ جميلاً ومشيْنا نحو مونبارناس: لمحتُ ليز من خلال فتحة باب بناية، فعادت إلى الخلف بسُرعة خاطفة. تعقّبتنا طوال مسيرِنا مُختَبِئة بصورة خرقاء وراء أعمدة المِترو. جلسنا في شُرفة مقهى بيار Biard وتسمّرت على الجادة مُترنِّحَة على نحو مُضحِك: ابتَسَم لها سارتر ودعاها للجُلوس؛ ابتَسَمت أخيراً، ووافقت على الانحياز إليه. لكنّها قالت لسارتر إنّه لو لم يُظهِر حفاوة في استقباله لها أو إنّها لم تُعجِبه فقد كانت ستغرزُ دبّوساً كبيراً في يده، كانت قد جلبتهُ معها لهذا الغرض. تضايقتُ جداً لمّا أدركتُ أنّ تهديدها لا قيمة له في نظره.

لكنّنا لم نتفاهم بسهولة. بعد أيّام، كنتُ في انتظار سارتر في الدّوم وسُرعان ما شعرتُ بالقلق: من عادته أن يكون دقيقاً في مواعيدِه أكثر منّي. مرّت ساعة وأكثر. هل تعرّض لأذى؟ لم يكن وضعُه نظامياً، وبدأتُ أشعُر بالتوجُّس. برز تَتْبَعُهُ ليز مطأطئة الرّأس، مُحاوِلَة إخفاء وجهها خلف شعرها: «لا تغضبي منها!»، قال سارتر. استوقفَتْهُ عند باب الدّوم: كان ماركو هناك، روت، سينتهِزُ الفرصة كي يُرهِقَنا ساعات طويلة؛ طلبتْ من سارتر التوجُّه إلى الفرسان الثلاثة حيثُ سألحَقُ به حالَما أتخلّص من ماركو. رافَقَتْهُ وتحدَّثا. وعندما بدأ سارتر يتعجّبُ لتأخُّري، قالت بهدوء: «إنّها لن تأتي. الموعِد في مكان آخر. – لكن لِمَ الكَذِب؟ سأل سارتر مذهولاً. – أردتُ التحدّث معكَ؛ أردتُ معرفة خصمي»، قالت. تطلَّبَ الأمر عملاً مُضنِياً من جهة سارتر كي ينتزع منها الحقيقة. ثمَّ بعد ذلك أذعَنَتْ لوُجوده بيننا بل لقد وطّدتْ معه صداقة وألفة. لو رغب سارتر في تسوية وضعيته فما عليه سوى أن يُسرَّح من المنطقة الحُرّة في

بورغ. لكنّ الجامعة لا ترى ذلك؛ أُسنِدَ إليه مركَزُه في معهد باستور. لاحقاً، سيكون له مع المُتفقّد العام داڤي حوار حول الألمان، ڤيشي والتّعاوُن، حيثُ فهم أحدُهما الآخر من نصف كلمة، ووعَد داڤي سارتر أن يعهد له في العام المُقبل دار المُعلّمين العُليا بمعهد كوندورسيت.

استأنف سارتر الدّروس بعد عيد الفصح وانشغل، إذاً، بالبحث عن علاقات سياسيّة. التقى بزملاء دراسة قُدامى؛ قابل ميرلو پونتي الذي حارب في رُتبة مُلازم بقُوّات المُشاة. كان يُجَهِّزُ أطروحة حول المفهوم؛ كان يعرف مُخرَّجين قُدامى من دار المُعلّمين، من الأساتذة المُجازين في الفلسفة ممن يكرهون الألمان، كوزان ودسانتي، اهتَمّا بالفينومينولوجيا وبالماركسيّة في آن. كان اجتماعنا الأوّل ذات ظهيرة في غرفتي بفندق ميسترال حيثُ سكنّا من جديد. كان من بين الحُضور دسانتي، كوزان وثلاثة أو أربعة أصدقاء، بوست، جون پويون، ميرلوپونتي، سارتر وأنا. اقترح دسانتي بشراسة ضاحكة تنظيم عمليّات فردِيّة: ضدّ دِيا Déat، مثلاً. لكن لا أحد بيننا كان مُؤهّلاً لصنع القنابل أو لإلقائها. نشاطُنا الرّئيس، عدا التّعبئة، يتمثّل حالِيّاً في جمع المعلومات وتوزيعها عبر المناشير والبيانات. سُرعان ما عرفنا أنّ هناك مجموعات مُشابهة لنا. رغم أنّ قادة «الپنتاغون» من اليمين فإنَّ سارتر قد تواصَل معهم. خَلَقَ اتّصالات مع أحد رفاق الشّباب، ألفريد پيرون، أستاذ إنجليزيّة عمِل في الاستخبارات لمصلحة بريطانيا. التقى بكاڤييس الذي أسّس في كليرمون حراكَ «الطّابور الثّاني» الذي كان يتنقّل بين أوڤرنيْ وباريس. رافقتُ سارتر إلى أحد لقاءاته في مقهى *مروج اللّيلَك*: كانت اللقاءات تنتظم دائماً هناك أو في اللكسومبورغ الصّغير. كنّا نعقِدُ اجتماعاتنا في غُرَف الفنادِق، في أروقة المعهد حيثُ للجُدران آذان. كان بوست يتجوّل بآلة ناسخة؛ پويون يتنقّل بمنديل مُحمَّلٍ بالمناشير.

خلاف اللقاءات وعمَلِنا في جمع المعلومات، كان لنا هدف بعيد المدى؛ كنّا نُفكّر في ضرورة إصلاح المُستقبل. لو فازت الديمقراطيّات فإنّ على اليسار البحث عن فلسفة جديدة: يجدُر بنا، من خلال مجموعة أفكار مُنَسَّقَة ومُتَّفَق حولها ومن خلال حوارات عديدة ودراسات أن نبحَث عن وسيلة

تحرُّك ميدانيّة. يتلخَّصُ جوهر برنامَجنا في كلِمَتَيْن - حيثُ المُصالحة تُسبّب المشاكل - سيُبنى عليهما تَحَرُّكنا بالكامل: «الاشتراكيّة والحريّة». مع ذلك مُستشرِفاً احتمال هزيمة، أعلن سارتر في بياننا الأوّل أنّه في صورة انتصرت ألمانيا في الحرب فإنّ مُهمّتنا ستتلخّص في خسرانها السّلام. لن يعود لنا إذاً، سبب واضحٌ للإيمان بالنّصر. جرت «حرب الصّحراء» في مصلحة المحور؛ وصلت الكتائب الألمانيّة بقيادة رومل والكتائب الإيطاليّة إلى مرسى مطروح المصريّة. بسط الإيطاليّون نفوَذهم على اليونان؛ مطرودين من البلقان، لم يعُد الإنجليز يملكون قاعدة واحدة في أوروبا. انتصر المُتعاوِنون. تفاقمت مُمارسات قمع اليهود. في المُقابل، كان مُحَجّراً عليهم إدارة أو تسيير أيّ مُؤسّسة؛ أمرهم ڤيشي بحصر عددهم وأقرَّ للطّلبة نظام الحدِّ من قائمات المقبولين. آلاف اليهود زُجَّ بهم في مُعسكَرات پيثيڤي، وبدأ ترحيلُهم إلى ألمانيا. ولكيْ تُبرّر پروپاغندا الرايخ هذه المُمارسات عرضت في قاعات السّينما بباريس فِيلمَ *اليهودي سوس*. قيل لي إنّ القاعات التي عُرِضُ فيها الشّريط ظلّت فارغة: مثل العديد من الباريسيّين، لم أُشاهِد فِيلماً ألمانياً واحِداً. أردنا الاحتفاظ بالأمل، لكنّ الأفق مُظلم.

رغم ذلك، ضحِكنا من القلب لمّا عرفنا أنّ رودولف هيسي قد نزل بالمظلّة على تراب إنجلترا؛ استمتعنا بجهود الألمان لإخفاء الحقيبة يومَيْن أو ثلاثة أيّام. ثمَّ إنّ إشاعات قد ذاعت: كانت جُيوش الرايخ ستُحاوِلُ النزول على السّواحِل الإنجليزيّة وأنّ المُقاومة ستدحَرُها؛ شوهِد في المُستشفيات جنود ألمان جرحى أو محروقين. على أيّ حال لقد كذب هتلر عندما أعلن السّنة الماضية عن انتصار ساحق على إنجلترا. شهر جوان، هاجم الاتّحاد السوفيتي. خشِيَ الرّأي العام آنذاك أن ينجَح في عمليّة «حرب خاطفة»؛ اقتُحم الجيشُ الأحمر في عُقر دارِه وأُحدِثَت ثغرات في صفوف ستالين، وتمّ الاستيلاء على كييف. واجتيحَت لينينغراد. لكن بالنّظر إلى اتّساعِ البلاد فلن يكون من السّهل أخذُها مثلما أُخذت بولونيا وفرنسا. لو استطاعت الصّمود بضعة أشهر فربّما هزم شتاء روسيا القاسي الجيوش الألمانيّة كما هزم نابوليون من قبل.

في فرنسا، دخول الاتّحاد السوفيتي الحرب أدّى إلى تأسيس رابطة

المُتطوّعين الفرنسيّين بقيادة دِيا، ديلونكِل وجنود قُدامى آخرين؛ لقد وضَّحتُ بشكل مأساوي وضعَ الشيوعيّين. منذ فترة والصّحافةُ تتّهِمُهم بمعاداة الإنجليز وباتّباع تيّار ديغول، لم يكن خافياً أنهم نظّموا مُقاومة سرّية؛ في الوقت الحاضر بعد التحرّي تقرّر أنّهم أعداء الوطن؛ في إقليم باريس تمَّ إيقاف ألف ومائتيْن منهم.

في تلك الفترة بالذّات، بدأت تُزهِرُ على جُدران باريس، وعلى خزف محطّات المِترو، الـV، رمزُ الانتصار الإنجليزي؛ لا أحد في وسعِه كبح انتشارِها، انتقم الألمان عن طريق تداوُل عملة فكتوريا وبإلصاق V في كامل المدينة، خصوصاً على واجِهة غُرفة النُّوّاب وعلى برج إيفل. شعار ديغول وعلامة لورين، أخذتا أيضاً بالانتشار.

عاد سارتر إلى العمل؛ في انتظار تحرير عمله الفلسفي الذي صاغهُ في ألزاس ثمّ في ستالاغ، أنهى *سنّ العقل*. أحد الصحافيّين القُدامى الذين يُكنّ لهم سارتر موَدّة خاصّة، ديلونج، عَرَضَ عليه الإشراف على العمود الأدبي في أسبوعيّة *كوميديا* التي ستصدُر قريباً تحت إدارته؛ قال إنّ هذا المنشور المُكرَّس للأدب والفن سيفلتُ كلّياً عن رقابة الألمان. وافق سارتر. ظهرت في تلك الفترة ترجمة (موبي ديك) ورغب في التحدّث عن هذه الرّواية العظيمة، خصّص لها مقاله النّقدي الأوّل. كان الأخيرَ أيضاً، حيثُ اكتشف سارتر حال صدور العدد الأوّل من *كوميديا*، أنّها ليست بالاستقلاليّة المزعومة التي تمنّاها لها ديلونج، من اختلاف عن بقيّة الصُّحف الأخرى؛ احتَجَّ على الوشايات التي دأبت عليها جريدة *أنا في كلّ مكان*؛ دافع عن الأعمال التي عارضت قِيَم الناشئة وأخلاقويّة ڤيشي. على الأقلّ اتّفق المُثقّفون المقاومون حول مُقاطعة الكتابة في صُحف المنطقة المُحتلَّة.

منذ عودة سارتر، وقلبي ينعَمُ بالسّلام؛ لكن على نحوٍ مُختلف عمّا مضى. لقد غيَّرتني الأحداث؛ ما كان يُسمّيه سارتر «شيزوفرينيا» انهار أمام الوقائع التي كان علَيَّ أن أرزح تحت وطأتها. فهمتُ أخيراً أنّ حياتي ليست قصّة أرويها لنفسي، بل عهد أقطَعُه بيني وبين العالم؛ من ناحية أخرى، لم يعُد التناقُض أو الاختلاف يُشكِّلُ في نظري غياب العدل؛ لا مجال للثّورة ضدّها،

حرِيٌّ بي البحث عن وسيلة لاحتوائها أو تحَمُّلِها؛ أُدرك أنّه رُبّما تكون هناك ساعات حالكة في انتظاري، بل ربّما غرقتُ فيها إلى الأبد: لم تعُد هذه الفكرة كارِثيّة في نظري. تفوّقَ عدم الاكتراث بالغيب على الاستسلام. لم أعرف هذا من قبل. رُحتُ أستغلُّ الرّبيع والصّيف؛ أنهيتُ روايتي؛ وشرعتُ في تسجيل مُلاحظات تخُصُّ كتابي المُقبل.

ذهبنا إلى المسرح بقِلّة، من غير حماس؛ في مسرحيّة *الشّمطاء الأليفة* لم تكُن مارغريت جاموا مُقنِعة ولم ترتَق *الآلة الكاتبة* لكوكتو إلى بقيّة مسرحيّاته من حيثُ الجودة. أهان «لوبرو» كوكتو بوقاحة في صحيفة *أنا في كلّ مكان*، فكسر له ماري وجهه، ما جعلنا نشعُر براحة كبيرة. فرقة مارغاريتيس Les Margaritis – هما عُنصُران قدامى في فرقة «أكتوبر» – عرضا مسرحيّة *شيستَرفولي*، لقد نجح اقتباسُها في إحياء أواخِر ما قبل الحرب: رأينا دينيو مُلتَحِياً في هيئة بائع صُحُف. أخرج بارو *المُستعطِفات* في ملعب رولان غاروس، بموسيقى لهونيغر وديكور للابيس. لبسَ المُمَثّلون أزياء صمّمها داستي ووضعوا أقنعة أيضاً؛ كانت هناك مشهديّة ضخمة. سبقت الدّراما مسرحيّة قصيرة لأوبي – *ثماني مائة متر*– على شرف الرّياضة، كانت عديمة الطّعم لكنّها تُذكّر بمدارِس بارو، كوني، دونيلهو ولوجونتي وبجمالِ جون ماري. خطر لسارتر كتابة مسرحيّة بمُناسبة مُشاهدة *المُتعطِفات*. ستُجسِّدُ أولغا وأولغا الأخرى أدواراً فيها. أحبَّهما بارو وأثناء التّمارين سألتاهُ عن الطّريقة التي تجعَلُ المُمَثّل يقوم بدور حقيقي: «أفضل طريقة هي أن يكتُب أحدُهم مسرحيّة لأجلِكما»، أجاب. وفكّر سارتر: «لمَ لا يكون هذا الشّخصُ أنا؟» في ستالاغ كتَبَ وأخرجَ مسرحيّة *باريونا Bariona*؛ ظاهرُ موضوع هذا اللّغز هو ميلادُ المسيح؛ في الواقع كانت الدّراما تُعالِجُ احتلال الرّومان لفلسطين واهتدى المساجين للمعنى الخفيّ وصفّقوا ليلة عيد الميلاد على نداء المُقاومة ذاك. هذا هو المسرح الحقيقي، فكّر سارتر: نداء لجمهور يربِطُنا به وضع جماعي. هذا الانصهار مُتغلغل في أعماق كلّ الفرنسيّين ويأمَلُ ڤيشي والألمان يوميّاً في حثّهم على اليأس والأسف والإذعان: يمكن إيجاد وسيلة للتحدّث معهم حول الثّورة والحُرية. شرع في البحث عن حبكة حذِرَة وشفّافة في آن واحد.

خلال ذلك الرّبيع ربطنا علاقات صداقة جديدة؛ عرفنا جياكوميتي بفضل ليز؛ منذ وقت لاحظنا، كما قلتُ، وجهه الوسيم، تسريحة شعره، هيئة الرحّالة التي كان يتمتّع بها. عرفتُ أنّه نحات وأنّه سويسري؛ عرفتُ أيضاً أنّ سيارة دهسَتهُ من قبلُ: لهذا السّبب كان يتّكئ على عكّاز ويعرُج. كنّا نراهُ باستمرار بصُحبة نساء جميلات. رأى ليز في الدّوم، حدّثها، استمتع معها وأحسَّ بود ناحيتها. قالت إنّه لم يكن ذكيّاً: سألته إن كان يُحبُّ ديكارت وناوَرَ في الإجابة؛ قرَّرَت، إذاً، أنّه رجُلٌ مُمل؛ لكنّه دعاها على عشاء فاخر في مناسبات عديدة: كانت شابّة، قوّية، نهمة، ولا تنجَحُ أبداً في إسكات جوعِها في مطاعِم الطّلبة حيثُ كانت تأكُل وجباتِها؛ لبّت دعواتِه دون تردُّد؛ مع ذلك كانت تُغادر مع آخر لُقمة تضعُها في فمها. كي يُبطئ من حركتها المُتعجّلة، ابتكر طريقة تتمثّل في طلب طبق ثانٍ. كانت تزدَرِدُه بسعادة كأنّه الطّبق الأوّل؛ كانت كُلّما أنهت غادَرت فوراً. «يا لها من وحش!»، قال بإعجاب؛ ولكي يثأر منها كان يُسدِّدُ لها ضربات خفيفة على رِبلَتَيْها. اشتكت أثناء دعوته لها في مطعم لاپاليت من وجود أناسٍ مُضجرين؛ تثاءبتْ طوال الحوار؛ لاحقاً عرفنا أسماء هؤلاء اللّجوجين: كانت دورامار وبيكاسو. كانت ورشة النحّات تفتَحُ على ساحة وجدَتْها ليز مُناسبة لإخفاء الدرّاجات التي كانت تسرِقُها من أنحاء باريس الأربعة. سألتُها عن رأيِها في أعمال جياكوميتي فضحكت وبنبرة غامضة قالت: «لا أدري: إنّها صغيرة!» أكّدت أنّ منحوتاته ليست أكبر من رأسِ دبّوس. كيف أطلقت حُكمَها؟ كان يعمَلُ بطريقة غريبة، أضافت؛ كلُّ ما كان ينحَتُه في النّهار يُحطّمُه في اللّيل والعكسُ بالعكس. ذات يوم ملأ عربة بمنحوتاته التي في الورشة وألقى بها في نهر السّين.

لا أذكُر ظروف لقائنا الأوّل؛ حدث ذلك في مقهى «عندليب»، على ما أظنّ، سُرعان ما فهِمنا أنّ ليز كانت مُخطئة بشأن ذكاء جياكوميتي؛ كان على العكس طافحاً بالذّكاء ومن الطّراز الأرقى: ذلك الذّكاء الحاسم اللصيق بالواقع، القادر على انتزاع المعنى من الأشياء. لم يكن يُقنِعُه ما يُقال أو الأشياء المجانِبَة للدقّة؛ كان يَنفُذُ مُباشرة إلى الموضوع ويُحاصِره بصبر نادر؛ كان أحياناً يتظاهر بالسعادة ويتصرَّفُ كإنسان سطحي. اهتمَّ بكلّ شيء: كان الفُضول هو طريقته في حُبّ الحياة بشغف. حين دهسَتْهُ سيّارة، فكّر بنوع من الفرح: «هل نموت

بهذا الشّكل؟ ما الذي سيحدُث لي بعد قليل؟» كان الموتُ بالنّسبة إليه تجربة حيّة خاضعة لحُبّ الاستطلاع. أثناء إقامته بالمُستشفى حملت إليه كلُّ دقيقة اكتشافاً غير متوقَّع، وخرج متأسِّفاً تقريباً. كان نهمُه للمعرفة يُثير إعجابي به. كان جياكوميتي يصنَعُ الشخصيّات والديكور والحركة والكلمة ببراعة مُتناهية؛ وكان من بين قلّة يجعلونك تستفيدُ وأنت تصغي إليهم. إنّه يُثري وجودي. كان بينه وبين سارتر حميميّة أعمق: فكلاهُما راهن بكلّ شيء من أجل فنّه، أحدُهما للأدب والآخر للفنّ؛ كان من المُستحيل تخمين الأكثر هَوَساً بينهما بالإبداع. النّجاحُ، المجد، المال، كانت كُلُّها أشياء يسخَرُ منها جياكوميتي: كان فقط مهووساً بالإتقان. ماذا يُريد؟ جذبت انتباهي منحوتاته أوّل مرّة رأيتُها: صحيح أنّ أكبرها لم تكن تتجاوزُ حبّة الفاصوليا. فسّر ذلك خلال حواراتنا العديدة. كان فيما مضى متأثّراً بالسرياليّين؛ أذكُر أنّي قرأتُ اسمَه على لافتة عرض *المجنون*؛ كان، إذاً، يصنَعُ «أغراضاً»، كالتي يُحبّها بروطون وأصدقاؤه ممن لم تكن يصلُهم بالواقِع سوى خيط واهٍ. لكن بدت له هذه الطّريق مسدودة منذُ سَنَتَيْن أو ثلاث؛ شعر بروطون بأنّ كارثة وقَعَت على رأسِه: «الرّأس، جميعُنا نعرفُ ما هو!» كان جياكوميتي بدورِه يُكرّرُ هذه الجُملة تعبيراً عن الفضيحة الفنّية؛ في رأيِه، لا أحد نجح من قبلُ في نحتِ وجه بشريّ ذي قسمات مُقنِعة، وكان لابُدّ دائماً من الانطلاق من الصّفر. الوجهُ، قال لنا، لا يُجزَّأ، إنّه ملامح وتعبير ومعنى؛ فيما المادة الخام، مرمر، برونز أو جبس فهي على العكس مُجزّأة إلى ما لانهاية؛ حاول استغلال تركيبة المادة إلى حدود المُمكن: هكذا توصّل إلى نحت الرؤوس العديمة الحجم تقريباً، حيثُ نجدُ، حسب اعتقاده، وحدة الوجه الإنساني كما تراها العينُ الحيّة. ربّما عثَر ذات يوم على وسيلة أخرى لانتزاع المادة من شتاتها المُذهل في الكون: حاليّاً لم يبتكر غير هذه الطّريقة. اهتَمّ سارتر بعُمق بهذا البحث هو الذي طالما حاول فهم الواقعي في حقيقته المحض؛ إنّ وجهة نظر جياكوميتي تتّحد مع علم الظّواهر بما أنّه يزعُم نحت وجه في وضعٍ مُعيّن، في وجوده الذي يراه الآخر، من مسافة مُحايدة، مُتجاوِزاً بذلك أخطاء المثاليّة الذاتيّة والموضوعيّة المُزَيّفة. لم يُفكّر جياكوميتي يوماً في أنّ الفنّ يقتصر على إضاءة المظاهر؛ في المُقابل، ساقَهُ التكعيبيّون والسرياليّون في تلك الفترة،

مثل العديد من الفنانين، إلى الخلط بين الواقع والخيال: اشتغل خلال وقت طويل لا على إظهار الواقع من خلال نظيره المادي بل على صُنعِ الأشياء. ها هو الآن ينقد لدى الآخرين وعِندَه أيضاً هذا الانحراف. كان يتحدّث عن موندريون الذي اعتبر لوحاته القُماشيّة مُسطَّحة والذي طالما رفض الانخراط في الخيال الثلاثي الأبعاد: «لكن، قال جياكوميتي وعلى وجهِه ابتسامة شرّيرة، عندما يتقاطعُ خطّان فإنّ أحدهما يمُرّ بالضّرورة فوق الآخر: تلك اللّوحاتُ ليست مُسطَّحة!» لا أحد تعمَّقَ في هذا المطبّ مثل مارسيل دوشون، الذي أحبَّه جياكوميتي كثيراً. في البداية، رسم لوحاتٍ – من بينها الشّهيرة، *الزّوجة التي تعرّت أمام عُزّاب*. لكنّ اللوحة لا توجَدُ إلّا بوجود عين تراها وتبعث فيها الحياة؛ أراد ديشون لابتكاراته الصّلابة دون مُساعدة؛ راح ينسَخ بالمرمر قِطَع السُكّر؛ لم يُرضِه ذلك الشّبه؛ صمَّمَ أدوات يوميّة، طبقاً للأصل، رقعة شطرنج مثلاً؛ ثمّ اكتفى باقتناء صحون وكؤوس والتّوقيع عليها. ثمّ انتهى به الأمر مكتوف اليديْن (رويتُ هذه الحكاية كما سردها على مسامِعي جياكوميتي). من جانب جياكوميتي فإنّ هذه المشاكل المُزيّفة لا تُجيب على شيء عميق: همُّه الحقيقي كان الاحتماء من اللانهائي وفراغ الفضاء. طوال حقبة، كان عندما يمشي في الشّوارِع يُضطَرُّ إلى لمس الجُدران بيده كي يُقاوم الهاوية التي كانت تُفتَحُ بالقرب منه. في أوقات أخرى، كان يشعُر أنّ الأشياء عديمة الوزن: كان النّاسُ يطفون فوق الشّوارع والسّاحات. قال بمرح وهو يُشيرُ إلى جُدران ليپ Lipp المُزخرفة بالألوان: «ما من ثقب، ما من فراغ! الامتلاء المُطلق!» لم أكن أملُّ سماعَه. مرّة أخرى تَغُشّ الحياة؛ كان جياكوميتي يلتقط ما تعِد به الحياةُ؛ من قريب، تقفِزُ إلى العَيْنَيْن قسَماتُه التي لم تكن لرجُل عادي. لا يُمكنُ التكهُّن ما إذا كان «يُذعِن للنّحت»، كلّما فشل في السّيطرة على الفضاء؛ لكنّ مُحاولته نفسَها كانت أغلب الوقت أكثر سحراً من نجاحاته.

بلَّغتنا أختي أخبارها عن طريق الصّليب الأحمر، خلال تلك السّنة. كانت تعيشُ بمَشَقّة في فارو Faro، كانت تُقدّمُ دروساً في الفرنسيّة؛ لكنّها تتعَبُ فيما ليونيل يتعافى شيئاً فشيئاً. كانت ستعيشُ بشكل أفضل، لو لم تُخامرها أفكار

شاعريّة عن المخاطر التي تجري. كنّا نُحاول مُواساتها في البطاقات التي كنّا نرسِلُها إليها؛ لكن البعد حاضنة ملائمة للقلق وكانت كوابيس بشعة تُزعِجُها.

لم ترَ أبي الذي مات في شهر جويلية. أُجرِيَت له عمليّة البروستاتا واعتقدنا في البداية أنّه تجاوز مرحلة الخطر. لكنّه ضعُف كثيراً بسبب أشهر سوء التّغذية، وخُصوصاً بسبب الهزيمة والاحتلال: وأودى سُلُّ الشيخوخة بحياته خلال أيّام. تقبّل الموت بلا مبالاة أذهلتني؛ كان دائماً يقول إنّه غيرُ مُهتَمّ بما إذا كان الموتُ سيأتي في هذا اليوم دون الآخر، بما أنّنا لن نفلت من براثِنِه على أيّ حال؛ ثمّ إنّه لم يعُد لديه ما يعيش من أجلِه، في هذا العالم الذي لم يعُد يعني له شيئاً؛ هذا لا يمنع: أنا مُعجَبَة بكونِه عاد إلى العدم بسلام؛ لم يخدَع نفسَه بما أنّه قد طلب منّي إن كنتُ أقدر، من دون التسبّب في ألم لأمّي، أن أُجنِّبَه اقتراب قسّيس من سريره: وافقتُ على رجائه. واكبتُ احتضارَه، هذا العمل الشاق الذي على الحيّ القيام به، مُحاولة القبض على لُغز انتقال الإنسان إلى مكان آخر. لبثتُ معه وحدي طويلاً بعد انتفاضته الأخيرة؛ في البداية كان ميّتاً، لكن حاضِراً: إنّه هو. ثمَّ رأيتُه يبتعد عنّي بسُرعة بالغة: وجدتُني مُنحَنِيَة على جُثّة.

لم يكن صعباً للغاية، إن كنّا بلا حقائب، الأيادي في الجيوب، أن نتخطّى الحُدود المرسومة. قرّر سارتر أن نقضّي العُطلة في المنطقة الحُرّة؛ هناك بإمكانه الحصول على التّسريح؛ لكن خصوصاً كان يرغبُ في إقامة علاقات بين «الاشتراكيّة والحرية» وبين أناسٍ من المنطقة الأخرى. أهدتهُ ليز درّاجة مسروقة، لم يجد سارتر الشّجاعة كي يرفُضها بما أنّها على أيِّ حال لم تكن لتُعيدها إلى صاحِبِها. أعارنا بوست خيمة وبعض المُعدّات الضروريّة. كنّا نملك الحقّ في إرسال طرود من منطقة إلى أخرى؛ شحَنّا الدراجات والأمتعة إلى رُوان Roane، عند قسيس هرب على الأقدام بعد ثمانية أيّام من هروب سارتر واقتطعنا تذكرة إلى منتسو-لي-مين: أمدّونا بعُنوان مقهى حيثُ سيأتي من يمُر لأخذها.

تمَّ إيقاف المُهرّب قبل أيّام، قال المُدير؛ ثمّة دون شكٍّ طريقة لإيجاد غيره. لبثنا فترة بعد الظّهيرة بأكملها في المقهى، نُراقِب غُدُوَّ الناس ورُواحهم،

مُحتفِظَيْن في القلب بإحساس المغامرة الجميل. مساءً، جلسَتْ إلى طاولتنا امرأة تلبَسُ الأسود، في الأربعين من العمر: ستعبُر بنا الرّيف هذه اللّيلة مُقابل سعر معقول. لم نكن نخشى الشيء الكثير، بالنّسبة إليها فإنّ العمليّة جادة لذا كانت حريصة جدّاً. تبعناها بصمتٍ من خلال البراري والغابات ذات الرّائحة الليليّة الرّطبة؛ تمَزّقت جوارِبها بسبب الأسلاك الشائكة وتذمَّرت طويلاً. كانت من حين إلى آخر تُشير لنا بالوقوف وبِتَوَخّي الحذر. فجأة قالت إنّنا قد تجاوزنا الخطّ وتوجّهنا فوراً إلى إحدى القُرى. كان الفُندُق مليئاً بأناسٍ عبروا للتَوّ مثلنا؛ لكن، يا للغِبطة، في اليوم التالي ونحنُ نتنزَّه على الطّريق في انتظار قدوم قطار رُوان! لأنّي حطّمتُ قيداً، أشعُر بفائض من الحُرية. في رُوان قرأنا داخل المقاهي صُحف المنطقة الأخرى: لم تكن أفضلِ من جرائدنا. أخذنا حقائبنا من القسيس ب... الغائب. أمضيتُ وقتاً طويلا أُرتّبها على متن الدرّاجَتَيْن. كنتُ قلقة من هذا الجانب. كان من المُستحيل الحصول على عجلات جديدة، كانت عجلاتُنا قد أُعيدَ إصلاحُها بعد ثقوب عديدة أصابتها. ونُفِخت بشكل غريب؛ الإطارات المطّاطيّة ليست أفضل حالاً. بالكاد خرجنا من المدينة، حين تَسطَّحَت عجلة سارتر الأماميّة. لا أدري كيف خُضتُ المغامرة دون تعلّم إصلاحِ الدرّاجة، لكنّي أجهل. هذه هي الحقيقة الآن. لحُسنِ الحظّ مرّ بالقرب منّا ميكانيكي وعلّمنا كيفيّة التعامُل مع الثّقوب. استأنفنا المسير. مضت سنوات لم يُمارس خلالها سارتر ركوب الدرّاجة مسافات طويلة. بعد أربعين كيلومتراً شعر بالإعياء؛ نمنا في فُندق. دَوّس بشجاعة في اليوم الموالي وعند المساء ضربنا خيمة في المروج، عند باب ماكون: لم تسِر الأمور جيّداً هذه المرّة أيضاً لأنّي مثله لا أتعامل بسهولة مع الخِيام. إلّا أنّنا صِرنا بعد أيّام ننصُب الخيمة ونفُكّها بيسر. كنّا نُخيِّمُ عادة على تُخوم قرية أو مدينة، لأنّنا عند نهاية أيّام الحقول تلك، كان سارتر مُتعطّشاً لاستنشاق دُخان الحانات. حصل على التّسريح من بورغ؛ لدى تفحّص بطاقته المُزَوّرة ذُهِل الضّابط. – لا ينبغي عليك تدليس سِجِلّك. – ماذا إذاً؟ هل عليَّ البقاء في ألمانيا؟ سأل سارتر. – لا مزاح مع السجِل العسكري، قال الضّابط. – أكان عليَّ البقاء سجيناً؟» كرّر سارتر. هزّ الضّابط كتِفَيْه؛ لم يجرؤ على مزيد من التفكير، لكن إيماءاته كانت تدُلُّ صراحة: «لِمَ لا؟» مع ذلك منح سارتر ورقة التّسريح.

تجوّلنا في التّلال الحمراء بليون: كانوا يعرضون أفلاماً أمريكية في السّينما وسارعنا إليها. عبرنا سان-إيتيان حيثُ أراني منزل والِدَيْه القديم ومن ثمَّ نزلنا إلى پويْ Puy. كان سارتر عُموماً يُفضّل الدراجة على المشي لأنّ رتابته تُزعِجُه؛ على متن الدراجة الجهد والإيقاع والسرعة تتغيّر باستمرار حسب مشيئتنا. استمتع بمُحاذاة الساحل، كنتُ أستردُّ أنفاسي وراءه بعيداً.

كان سارتر يُدَوّسُ على الأراضي المنبسطة على نحوٍ أخرق إلى حدٍّ سقوطِهِ مرَّتَيْن أو ثلاثاً في الخنادق المُجاورة للطّريق. «كنتُ أفكّر في شيء آخر»، قال لي. كان مثلي يُحبُّ نزول المُنحدرات. ثمّ إنّ المناظر تتحرّكُ بشكل أسرع مما لو كنّا نمشي. أنا أيضاً بدّلتُ هواياتي الأولى بهذا الشّغف بكلّ سرور.

لكنّ البونَ شاسع بين هذه الرّحلة وسابقاتها، وهو مُتعلّق باستعداداتي الخاصّة: لن أتعقَّب حُلم شيزوفرينيا، بدأتُ أشعُر بحرّية رائعة؛ كان رائعاً أوّلاً أني أسيرُ بجانب سارتر في سلام فوق طُرقات سيڤين. كم خشيتُ خُسران كلّ شيء: وجودَه وكلَّ متعي الأخرى! في معنى ما لقد خسِرتُ كلَّ شيء، ثمَّ استعدتُ كلَّ شيء؛ الآن أرى كلَّ فرحٍ هبة. أحسستُ بالاستقلال أكثر مما عرفتُه في باريس؛ واقِعة ما برهنت لي على ذلك. لدى وُصولنا إلى پويْ تلِفَت العجلة الأماميّة لسارتر نهائيّاً؛ إن لم نجد وسيلة لاستبدالها فهذا يعني صرف النّظر عن رحلتنا التي بدأت بالكاد. ذهب سارتر إلى المدينة واستأمن أحد المقاهي على أمتعتنا. قبل اليوم كنتُ سأمتلئ غضباً لاحتمال أن تفسُد رِحلَتُنا: انتظرتُ بابتسامة على الوجه. هذا لم يمنع قلبي من أن يقفز فرحاً لرؤية سارتر على متن درّاجة مُجهّزة بعجلة أماميّة جديدة ذات لون برتقالي مُتوَهِّج. لم يدرِ أيّ حظّ حالَفَه حتّى يمنحه إيّاها ميكانيكي؛ شرَّعت العجلة أمامنا الآفاق مئات الكيلومترات الأخرى.

حصل سارتر من كافاييس على عُنوان أحد رفاقه القُدامى أيّام دار المُعلّمين العُليا، «كان Khan» الذي انخرط في صفوف المُقاومة منذ زمن. وصلنا عبر طرقات أفعُوانيّة إلى قرية ضائعة وسط غابة كستناء؛ كان «كان» يقضي عُطلته هناكَ مع زوجة جميلة وهادئة وأطفال مرِحين؛ كان يُؤوي بنتاً ذات ضفائر سوداء وعَيْنَيْن زرقاوَيْن. كانت ابنة كافاييس (خانتني الذاكرة، كبرى البنات كانت أيضاً بنت پييركان. لم يُنجِب كافاييس أطفالاً قط).

في مطبخ ذي أرضيّة حمراء، أكلنا وجبة لذيذة وعِنباً في التحلية. جالِسَيْن على الطّحالب، في الغابة، تحدّث پيير كان وسارتر طويلاً. كنتُ أستمع إليهما لكن كان من الصّعب التصديق تحت ضوء الصّيف، بجوار هذا البيت السّعيد أنّ الخطر مُحدِق. ضحكات الأطفال، برودة مياه البُحيرة التي أنعَشَت الجوّ البرّي، والصّداقة، تآلفت جميعُها كي تجعل من التّهديد وهماً. لا، رغم ما تعلّمتُه خلال السَّنَتَيْن الماضِيَتَيْن، كنتُ غير قادرة على توقّع أن يُنتَزَع پيير كان من أهله قريباً؛ سيُسنَد والِدُ البنتِ إلى جِدار وسَيُرمى بالرّصاص.

من أرديش العُليا إلى ضيعة رون Rhône، خلال يوم كامل، ضايقني التحوُّل الذي طرأ على المناظر: فتَر لونُ السّماء الأزرق، جفّت الأرض، وفسحت رائحة السّرخس المجال لروائح الخُزامى، واتّخذت الأرض ألواناً ناريّة: برتقالي، أحمر، بنفسجي. ظهرت أشجار السّرو الأولى ولاحت أولى أشجار الزّيتون: أحسستُ طوال حياتي بإثارة قُصوى عندما أخرُج من قلب الجبل لأطلّ على حوضٍ مُتَوَسِّطي. لامستْ الإطلالَة قلب سارتر أيضاً. وحدَهُ توقُّفُنا للاستراحة في لارجونتيير مثَّل حدثاً في يومِنا. أعرفُ المدينة وأحبّها جدّاً عند تخوم الوسط وميدي Midi. لكنّها كانت حفلة الكتائب؛ حشدٌ من الرّجال الشُبّان والمُسنّين، يعتمرون القُبّعات المُطَرّزة بشارات تحمِلُ شرائط ثلاثيّة الألوان يشربون ويُعربِدون بين الشّوارع الزّرقاء، البيضاء والحمراء. حملنا العطشُ والتّعبُ على التوقُّف؛ أثار فضولنا شيء ما غير بريء.

خيّمنا فوق مونتيليمار؛ صباحاً، عندما أخرجَ درّاجَتَه وركبها كان سارتر لا يزالُ نائماً بعُمق لكن مفتوح العَيْنَيْن ما جعلَهُ ينقلب من فوق المُقْوَد. على طُرقات تريكاستان زوّدتنا الرّيحُ بأجنحة، صعدنا المُنحَدَر دون أن نُدوِّسَ تقريباً؛ نزلنا عبر طريق المدرسة بآرل ثمَّ نحو مرسيليا.

في مرسيليا وجدْنا غُرَفاً مُتواضعة، لكن جميلة جدّاً، تُطلُّ على الميناء القديم. تنزّهنا من جديد كما كنّا نفعَل فيما مضى، وقت كان العالمُ في سلام، وقت كانت الحربُ تهديداً بعيداً. كانت قاعات السّينما بكانبيير تعرضُ أفلاماً أمريكيّة وبينها ما كانت تفتَحُ أبوابها العاشرة صباحاً. يحدُث أن ندخل السّينما ثلاث مرّات في يوم واحد. وجدنا – كما لو كانوا أصدقاء أعزّاء – إدوارد

روبنسون، جيمس كانيي، بيت داڤيس في فِيلمِ *الانتصار على الموت*؛ شاهدنا أيّ شيء لمُجرّد متعة الفرجة على صور أمريكيّة. أنعش الماضي قلبَيْنا. التقى سارتر بدانيال مايير في مرسيليا، وحدّثه عن «اشتراكيّة وحُرّية»: هل كان لديه اقتراحات، مُهمّات لمصلحة مجموعتنا؟ طلب منّا دانييل مايير توجيه رسالة لليون بلوم بمناسبة عيد ميلادِه. غادر سارتر مُحبَطاً. أكلنا بشكل أسوأ من باريس ونحنُ في ميدي أو الوسط؛ كانت الأغذية قائمة أساساً على الطّماطم، وكان سارتر بالكاد يأكُل لأنّه يكرهُها. عندما نزلنا في ﭘوركرول، لم نجد مطعماً واحِداً مفتوحاً، أفطرنا العِنبَ والخُبز والخمر. رحتُ أتنزّه على طريق غران–لنغوستيي، وظلّ سارتر يعمَلُ في المقهى. كتب الجُمَلَ الأولى من دراما الأرتريد Artrides. كلّ ابتكار جديد يتّخذ حلّة أسطوريّة بادئ الأمر، وأظنّ أنّه سيتخلّى قريباً، عن إلكترا وأوريست وعائلتيهما.

دوّن سارتر في قائمته أندريه جيد وألصق بجانب اسمِه عُنواناً مُشَفَّراً: كالوري؟ ڤالوري؟ ينبغي أن يكون المقصود ڤالوريوس. مشَيْنا بالقرب من البحر المُتَوَسّط. سألنا في البلديّة عن إقامة جيد. «السيّد جيد المُصوّر الفوتوغرافي؟» سأل الموظّف: لم يكن يعرِفُ غيره. دقّقت من جديد في الرّسالة غير المفهومة، بحثتُ في خارطة ميشلان عمّا يُشبِه تلك الكلمة ولَمَع ضوء: ڭابريس. بمشقّة سلكنا الطّريق المُتعرّج تحت شمس حارقة لكن من فوق تسنَّت لنا رؤية طوابق الزّيتون المُمتَدَّة حتّى البحر بذات الهيبة التي رأيناها بين ديلف وإيتيا؛ تناولنا غداءنا تحت سقيفة فندق؛ ثمّ رنّ سارتر جرَسَ جيد: فُتِح الباب. متفاجئاً لمَح وجهَ جيد مرسوماً على جسد فتاة صغيرة؛ كانت كاترين جيد وقالت لسارتر إنّ والِدَها قد غادر كابريس وانتقل إلى غراس: نزلنا وتعطّبت إحدى عجلاتي. مكثتُ بجانب نافورة لإصلاحِها. لمّا راح سارتر يبحث عن جيد في فُندُقه، لمح هيئته وعندما وصل إليه كبح فرامِله فجأة ونتج عن ذلك صرير حادّ: «هيلا! هيلا!»، قال جيد بحركة وِدّية. دخلا مقهى. روى لي سارتر أنّ جيد كان يُراقب بقيّة الزّبائن بارتياب وأنّه قد غيَّر مكانه ثلاث مرّات. بالنّسبة إليَّ لم يكن يعرِفُ ما يفعل. «سأتحدّث مع هيربار»، قال دون تفاصيل. «هيربار ربّما...» أخبره سارتر أنّه على موعد مع مالرو في الغد. «حسناً، قال جيد وهما يفترقان. أتمنّى لك مالرو طيّباً.»

استقبَلَ مالرو سارتر في ڤيلا جميلة بسان-جون-كاپفيرات، حيث كان يعيشُ مع جوزيت كلوتيس. أكلا دجاجاً مُحَمّراً على الطّريقة الأمريكيّة، مُقدّماً ببذخ.

استمع مالرو لسارتر بأدب، لكن في الوقت الحالي، ما من تحرُّك بدا له ناجِعاً: كان مُعوِّلاً على الدبّابات الروسيّة، وعلى الطّائرات الأمريكيّة للفوز بالحرب.

من نيس صعِدنا إلى طرق الألپ. عبَرنا مضيق آلوس. وذات صباح مُشمس، قُمنا بالمرحلة التي يُفترَضُ أن تُفضي بنا إلى غرونوبل، عند كولين أودري تناوَلنا غداءنا أعلى المَمر واحتَسَيتُ نبيذاً أبيض: ليس كثيراً لكن ما يكفي تحت تلك الشّمس الحارقة ليلُفَّ رأسي قليلاً. بدأنا في نزول المُنحَدر؛ كان سارتر يسبقني بعشرين متراً؛ فجأة رأيتُ درّاجَيْن، مثلي يشغلان وسطَ الطّريق مائلَيْن إلى اليسار قليلاً؛ كي نتقاطع، خفَّضتُ من سُرعتي وانحزتُ إلى جانب الأرض الشاغرة، في انتظار عودَتِهما إلى يمينهما؛ وجدتُ نفسي معهما وجهاً لوجه؛ كانت فراملي سيّئة، لذلك استحال عليَّ التوقّف؛ ملتُ إلى اليسار أكثر فأكثر وانزلقتُ فوق الحصى المُحاذي للطريق على بُعد سنتيمترات من الهاوية. فكّرتُ في لمحة كالبرق: «نعم! إنّنا نصطدم بالنّاس يميناً!» ثمَّ: «إذاً، هذا هو الموت!» ومِتّ. عندما فتحتُ عَيْنَيَّ كنتُ لا أزالُ واقفة، أخذني سارتر من ذراعي، عرفتُه لكنّها أظلمت داخِلَ رأسي. صعدنا إلى بيت قدّموا لي فيه كأس مارك؛ أحدهم نظّف وجهي فيما ذهب سارتر على درّاجته إلى القرية لإحضار الطّبيب. رفض المجيء. لدى عودَته كنتُ قد استعدتُ مداركي؛ أذكُر أنّنا كنّا في رحلة، أنّنا ذاهبان لزيارة كوليت أودري. طلب سارتر أن نركبَ درّاجَتَيْنا: ليس ثمّة أكثر من خمسة عشر كيلومتراً من المسير في مُنحَدَر سهل. لكن شعُرتُ أنّ خلايا جسدي تتماسُّ بصورة مُؤلمة للغاية. لم أتخيّل نفسي أجلسُ على مقعد الدرّاجة. ركبنا قطاراً قديماً. كان النّاسُ من حولي يرمقونني بنظرات مُتفحِّصة، فزِعين قليلاً. حين ضربتُ جرس كوليت أودري، صرخت بصوت مكتوم، دون أن تتعرّف عليَّ. نظرتُ إلى نفسي في المرآة؛ فقدتُ سِنّاً، عينٌ مُغمَضَة، انتفخ وجهي مرّتيْن وجلدي مخدوش؛ كان من المُستحيل

عليَّ وضع حبّة عنب بين شَفَتَيَّ المُتَوَرِّمَتَيْن. نمتُ دون أكل، آملة أن أستيقظ بوجه طبيعي.

صباحاً، استفقتُ أكثر بشاعة من الأمس؛ وجدتُ الشّجاعة كي أركَب درّاجتي؛ كان هناك عدد كبير من الدرّاجين على طريق شامبري وأغلب من تقاطعتُ معهم إمّا كانوا يُصفّرون أو يضحَكون بجَلَبَة. طيلة الأيّام المُوالية كنتُ كلّما دخلتُ محلّاً التفتت نحوي جميعُ الأنظار. سألتني امرأة بقلق: «حادث؟» ندمتُ طويلاً لأنّي لم أُجِبها: «لا، لقد وُلِدتُ هكذا.» ذات ظهيرة سبقتُ سارتر قليلاً وانتظرتُه عند المُفترق. بادرني رجل ضاحكاً ملء شِدقَيْه: «وتنتظرينه بعد كلّ الذي فعله بكِ!»

بدأ الخريف يُعلن عن مجيئه على طرقات جورا Jura. عندما خرجنا من الفندق صباحاً، كان هناك ضباب كثيف أبيض يُغشّي الرّيف الذي تصاعَدت منه رائحة أوراق ميّتة؛ رُوَيْداً مزّقته أشعّة الشّمس كالنّسيج، نفذت إلينا الحرارة. وأحسستُ بسعادة طفوليّة تُلامِسُ بشرتي. خلال المساء، انكبَّ سارتر من جديد على مسرحيّته ونحنُ في الفندق. لا، لم يتخلَّ عن الأرتريد؛ لقد عثر على طريقة يستخدِمُ بها الحكاية لينفُذَ إلى المغزى الأخلاقي، كي يرفُض النّدم الذي أراد ڤيشي والألمان حقننا به، وكي يتحدّث عن الحرّية. وهو يكتُب المشهد الأوّل، استلهَم الأحداث من مدينة سانتورين التي بدا استقبالها إيّانا كئيباً للغاية: إيمبوريو، جدرانُها العمياء وشمسُها الماحقة.

أشارت علينا كوليت أودري بقرية قريبة من شالون Chālons، حيثُ «سنعبُر» بسهولة. لا أذكُر كم كُنّا، صباحاً، مُتسلّقين الطّريق الكُبرى، ننشُدُ نفس الهدف. بعد الظّهيرة وجدنا أنفُسنا أكثر من عشرين شخصاً، على درّاجات مُتحلّقين حول مُهرِّب. عرفتُ زوجَيْن كنتُ كثيراً ما ألمحهما في الفلور: شاب وسيم أشقر ذو لحية خفيفة ذهبيّة برفقة فتاة جميلة شقراء هي الأخرى، تشيكيّة الأصل.

دروب ضيّقَة تشُقُّ الغابة قادَتنا إلى طريق محفوف بالأسلاك الشائكة؛ انزلقنا تحت الأسلاك وتفرّقنا بأسرع ما يُمكن. أعتقد أنّ الحراسة الألمانيّة كانت ضعيفة ما جعل المهرِّب يتخلّى عن الحذر.

وجدتُ بورغونْيْ جميلة جدّاً، بمزارع عنبها التي لوّنها الخريف؛ لكن لم يكن في حَوزَتِنا فلسٌ واحد، واعتصرنا الجوع إلى غاية أوكسر حيثُ كانت حوالة في انتظارنا؛ هروَلنا حالما تسَلّمناها نحو المطعم: كانوا يُقدّمون طبق الإوَز فقط. عُدنا إلى باريس عبر القطار.

عشتُ أسابيع فرح خالص؛ قمتُ بتجربة ينبغي أن يظلَّ أثَرُها واضِحاً سنتَيْن أو ثلاثاً: لقد لامستُ الموت؛ بالنّظر إلى الرّعب الذي ما انفكَّ يُسبّبه لي فقد ساوى الكثير بالنّسبة إليَّ أن أقترب منه كثيراً. قلتُ لنفسي، «كان هناك احتمال ألّا أستفيق أبداً»، وفجأة بدا أنّ الموت سهل جدّاً؛ فهمتُ آنذاك ما قرأناه فيما مضى من أشعار لوكريس Lucrèce، ما أعرفُه: تحديداً، الموتُ هو لا شيء، نحنُ لا نكون ميّتين أبداً: لا أحد يستطيعُ تحمُّل الموت. ظننتُ أنّي تخلّصتُ نهائيّاً من مخاوِفي. أنهينا عُطلتنا عند السيّدة لومار وعُدنا إلى باريس استعداداً للعودة. تغيّر الجوّ السياسي خلال الصّيف؛ يوم 13 أوت خرج الشيوعيّون في مُظاهرة شغب بالقرب من باب سان–دنيس؛ قُتِل مُحتجّان بالرّصاص يوم 19. يوم 23 أوت قُتِل عسكري ألماني.

يوم 28 أوت لدى خُروجنا من حفلة بمناسبة رحيل رابطة المُتطوِّعين الفرنسيّين نحو الجبهة الروسيّة، أطلق پول كوليت النار على لاڤال ودِيا. كان هناك قطعُ طريق على مُستوى السّكك الحديدية، وضعت الحكومة الفرنسيّة مكافأة بمليون لمصلحة كلّ من يُساعد على إيقاف مُرتكب العمليّة الغادرة. أطلق پيشو حملة واسعة ضدَّ شيوعيّي المنطَقَتَيْن. لم يعُد الألمان يتحدّثون عن صداقة، لقد باتوا يُهدّدون فقط. أصدروا مرسوماً يقضي بعقوبة الموت لكلّ شخص مُقتنع بالپروپاغندا الشيوعيّة؛ نصبوا محكَمة مُتخصّصة للبتِّ في الأحكام المُتعلِّقة بالنّشاطِ المُعادي لألمانيا، ركّزوا نظامَهم للثّأر من منشور 22 أوت: مُقابل كلّ عضو من الرايخ يتمّ قتلُه يُعدَمُ عدد مُعيَّن من الرّهائن. يوم 30 أوت، أعلنوا عن إعدام خمسة شيوعيّين وثلاثة «جواسيس»، منذ ذلك الحين صارت تُشاهَد باستمرار على جُدران باريس لافتات حمراء أو صفراء محفوفة بالأسود، تُشبِه تلك التي أعجبتني قبل عشرة أشهر: الرّهائن المُعدَمون هم عادة إمّا شيوعيّون أو يهود. في أكتوبر قُتِل جُندِيّان ألمانيّان أحدُهما في

نانت والآخر في بوردو. ثمانية وتسعون فرنسيّاً عُلِّقت أسماؤهم على الجدار: سبعة وعشرون من بينهم كانوا مُحتَجَزين إدارياً في مُعسكر شاتبريان. تعليمات أُطلِقَت من لندن تُعلِّقُ العمليّات الفرديّة ضدّ العسكريّين الألمان؛ تضاعف النّشاطُ «الإرهابي» رغم الاضطهاد. أطلق المُتعاونون العنان لسُخطِهم ضدّ المُقاومة؛ طالبت الصّحافة الباريسيّة بالدّم؛ عبّرت عن استيائها لتباطُؤ مُحاكمة ريوم Riom والفساد البوليسي. «لا رحمة على قتلة الوطن»، كتب برازيلاش. ظلّت شراستهم وقِحَة لأنّهم لم يَشُكّوا يوماً في انتصار هتلر. في الاتّحاد السوفيتي أعلن الألمان بداية أكتوبر عن معركة موسكو: تمَّ إيقاف تقدّمهم لكن هجومات الجيش الأحمر المُضادّة باءت بالفشل. سارعت هجومات پيرل هاربور بإقحام أمريكا في الحرب؛ لكنّ اليابانيّين كانوا قد حقّقوا في المُحيط الهادي نجاحات ساحقة: لقد اجتاحوا بورنيو Bornéo، ماليزيا، هونغ كونغ، الفلپين، وشبه جزيرة ملقَة، سوماترا وجاڤا.

بالنسبة إلينا نحن الرافضين لفكرة انتصار الرايخ، والذين لا نَجرُؤ على توقُّع هزيمته، كانت فترة غامضة، لم يعلَق منها في ذاكرتي ما هو واضح. طالما أحسستُ أنه لو عاد السّلام، كم سيكون من الصّعب التحدّث مع شخص لم يعِش أطوارَه (إنّه شعوري الخاص ما عبّرتُ عنه في *المُثقّفون* عندما لاحظتْ آن وهي تُحاوِلُ التحدّث إلى سكرياسين: «كلّ شيء كان أفظع وأكثر قسوة مما تخيّل: المآسي الحقيقيّة، لم تحدُث لي أنا، مع ذلك شوَّهت حياتي.»)، الآن بعد مسافة عشرين سنة أُخفق في أن أحيي الحقيقة بداخلي. بالكاد أنجحُ في النّبش عن بعض الملامح والحوادث.

سياسيّاً وجدنا أنّنا نعيشُ عجزاً مُطبقاً. عندما أنشأ سارتر حركة «اشتراكيّة وحُرّية» أمِل أن تندمج المجموعة مع أخرى أوسَع نطاقاً؛ لكنّ رحلتنا لم تُفضِ إلى شيء ولم تكن عودَتُنا إلى باريس أقلّ خيبة؛ كانت تقريباً جميعُ حركات الساعات الأولى قد تفكّكَت أو انتهت بالخلع؛ نشأت مثل حركتنا بمبادرة فرديّة، جمعت البورجوازيّين والمُثقّفين ممن لا يملكون خبرة في مجال النّشاط السرّي، ولا حتّى في النّشاط العلني؛ كانت المشاكِلُ متأكّدة أكثر مما لو كنّا في المنطقة الحُرّة، وأغلَبُها متعلّق بالتواصُل والوحدة: ظلّت

تلك المُحاولات مُتفرّقة وأدّت بهم العُزلةُ إلى الإحباط وعدم النّجاعة. كان الشيوعيّون يملكون آلة ونظاماً وانضباطاً. يوم قرّروا التدخّل، حصلوا على نتائج مُذهلة. رفض مناضلو اليمين مُسانَدَتَهم؛ لكنّ اليسار غير الشيوعي لم يتأخّر في الانضواء تحت لوائهم؛ ولم يحكُم على المُعاهدة السوفيتيّة الألمانيّة بنفس قسوة 1939: ربّما لم يكن الاتّحاد السوفيتي قادراً على مُقاومة القوّة الألمانيّة إن لم تحظ بهُدنة بأيّ طريقة؛ إن كان اليسارُ يتردّد إلى الآن في تأييد مُناورة ستالين دون تحفُّظ فإنّه لا يجرؤ على إدانته جذريّاً. على أيّ حال فإنّ سارتر يُقدر أنّ اليوم، في فرنسا، تحتّم قيامُ جبهة مُشتركة؛ حاول الاتّصال بشيوعيّين؛ غير أنّه ارتاب من كلّ الفِرق التي نشأت خارج الحزب وخصوصاً «البورجوازيين الصغار المثقفين»؛ قالوا لأحد الأصدقاء إنّ الألمان قد أخلَوا سبيل سارتر لأنّه وافق على تجنيدهم إيّاه في خطّة عُنصر مُحرِّض؛ لا أدري إن كانوا يُصدّقون ادّعاءهم أم لا؛ عموماً لقد بَنَوا بيننا وبينهم جداراً يستحيلُ التغاضي عنه. ضربت عُزلتنا حماسنا وحدثت انشقاقات في صفوفنا؛ يُضافُ إلى ذلك إصابة كوزان الفيلسوف الشاب الأكثر موهبة والأشدّ ثباتاً في المجموعة، بسُل الكِلى وكان عليه الخضوع للعلاج في ميدي؛ حاول سارتر منع هذا الانهيار. وخز ضمير أربكه في شهر جوان. ألقى الغستاپو القبض على عدد كبير من أعضاء «بنتاغون»؛ صديق طفولة سارتر، پيرون، وتمَّ ترحيلُه ومن مجموعة قريبة منّا طالبة فلسفة نابغة كنتُ قد درَّسْتُها، اسمُها إيڤون بيكار. هل سيعودون؟ (لو يعودون). يا للعبث، لو أنّهم ماتوا!

لم يفعلوا شيئاً ذا قيمة بعد. حتّى متى سيظلُّ الحظّ حليفنا؟ لكنّ سارتر قاسَ المخاطر التي تُهدّدُه وأصحابه وحاول عبثاً شرحها لهم، مُعدِّداً مزايا «اشتراكيّة وحرّية». خلال شهر أكتوبر خُضنا حوارات لا تنتهي في هذا الشّأن؛ في الواقع كان يُناقِشُ نفسَه لأنّنا كنّا نُشاطره الرّأي: أن تجد نفسك مسؤولاً، لمُجرّد العناد، عن موت أحدهم، أمر لا يُمكن أن تغفره لنفسِك دون عناء. كان على سارتر التخلّي عن مشروع بدأه في ستالاغ وراح يُربّيه أسابيع طويلة وهو ينفق عليه من صحّته وأعصابِه؛ تخلّى عنه بقلب يكادُ ينفَطِرُ أسفاً. كرّس وقتَه إذاً، لمسرحيّته التي كان قد بدأها: إنّها تُمثّلُ الوسيلة الوحيدة المُتاحة للمُقاومة. كنّا نعمَلُ كثيراً؛ إلى جانب المسرحيّة انهمَكَ سارتر في الاشتغال على دراسة فلسفيّة؛ *التّماس*

و*دفاتر الجنوب* طلبتا منه مقالات نقديّة: قام بذلك. قدّم لبريس پاران مخطوط روايتي الأولى وبدأتُ كتابة أخرى؛ تحدّثتُ فيها عن المقاومة وكنتُ أعرف أنّها لن ترى النور قبل نهاية الاحتلال. لكنّنا قرّرنا العيش كما لو كنّا على يقين من النّصر النهائي. وجدنا الدّعم النفسي بفضل هذا الموقف: لم تكن لتنعَم قلوبنا بالسّلام. الرّهانُ والأمل ليسا المعرفة ولا حتّى الاعتقاد؛ كان خيالي أحياناً يسرح في الرّعب. لو تركّزت النازيّة عشر سنوات، عشرين سنة فمن المؤكّد أنّنا لن نتعايش معها وسيُصيبنا، دون شك، مصيرُ پيرون وإيڤون بيكار. كنتُ أبعد من أن أتخيّل حقيقة المُعسكرات؛ إنّ الترحيل بالنسبة إليَّ هو قبل كلّ شيء الفراق والصّمت؛ لكن، كيف سأقدِرُ على تجمُّلهما؟ حتّى الآن، قلتُ دائماً إنّ السُّبُل متوفّرة أمامنا ضد الألم الأقصى؛ الانتحار؛ فجأة فقدتُه أيضاً.

خلال عشر سنوات، خلال خمس عشرة سنة، سأُفكّرُ في كلّ لحظة بموت سارتر، ولن أجرُؤ على قتل نفسي، وفي ذهني أنّه رُبّما لا يزالُ حيّاً: فكّرتُ في أنّي وقعتُ في هذا الفخ وامتلأتْ حنجُرَتي بالرّهبة. طردتُ هذه التخيُّلات. حاولتُ إقناع نفسي بمواجهة الأصعب وكنتُ أحياناً أنجح. استعدتُ هدوئي، وأغلقتُ على نفسي بوتقة الحاضر؛ لكن فيما كان الحاضر حفلة مشاريع وأمانٍ، فإنّه من دون ذلك غبار. تضاءل الوقت. كانت باريس قبل سنتَيْن تحتلُّ مركز العالم المُشرَع أمام فضولي. فرنسا اليوم ليست أفضل من إقامة محروسة، معزولة عن باقي الأرض. إيطاليا وإسبانيا اللتَيْن طالما أحببناهما أصبحتا اليوم بلدين عَدُوَّين. أسراب في لون اللّيل والنار تحجُب عنّا أمريكا. الصّوتُ الوحيد القادم من وراء الحدود هو صوت البي بي سي. خنقَنا الجهل.

على الأقلّ لم أجد نفسي وحيدة كالسّنة الماضية؛ كنتُ أتشارك أحاسيسي وانتظاراتي وقلقي وثوراتي مع عدد من الوجوه التي كنتُ أشعُر بالألفة حيالَها؛ كانت في كلّ مكان خارج نفسي وداخِلها: إنّها هي التي تتحرّكُ من خلال نبض قلبي، هي التي تُحبُّ وتكره. أدركتُ أنّي ما زلتُ لم أعرف الكراهية بعد، بل فقط، سُخطاً غامضاً في تفاصيله؛ أعرف اليوم ما هو طعمُ الكراهية؛ إنّها تختارُ بعُنف أكثر الناس حميميّة. كانت خطابات پيتان تُزعِجني أكثر من خطابات هتلر؛ أدنتُ كلّ المُتعاونين؛ لكن حيال فئتي التي أنتمي إليها من مُثقّفين

وصحافيّين وكتّاب، أحسستُ بالقرف المؤلم. عندما كان أدباء ورسّامون يذهبون إلى ألمانيا لطمأنة العدُو بأنّنا مُرتبطون به عقلاً. أشعر أنّهم خانوني. طالما اعتبرتُ مقالات دِيا وبرازيلاش، وشاياتهما ودعوتهما للقتل جرائمَ لا تُغتَفَر. الخوف، الغضب، العجز الأعمى: على هذه الخلفيّة تجري حياتي. لكنّ ثمّة قبساً من أمل ولم أكن حتّى ذلك الوقت قد عانيتُ بشكل مُباشر. لم أفقد عزيزاً. عاد سارتر من الأسر؛ صحّته ومزاجُه لم يتعَكّرا: من المُستحيل قضاء ساعات كئيبة بصُحبَته. مع أن حقلنا كان ضيّقاً جدّاً إلّا أنّ شغَفَه كان قادراً على تحريك كلّ جزء صغير منه. باريس، طرقاتها القرويّة، سماؤها الريفيّة المترامية الأطراف، كلّ هؤلاء الناس من حولِنا، وجوههم ومغامراتهم: بقِيَ الكثير لمعرفته ومُشاهدته وفهمه وحُبّه! لم أعُد أعرف لا الأمان ولا أوقات السّعادة القُصوى؛ لكنّني أشعُر بالبهجة كلَّ يوم على حِدة وأقول لنفسي أحياناً إنّ خلف ونظير هذه البهجة الدّؤوبة تكمُن سعادة مُؤجّلة دون شك.

ماديّاً، إنّ الحياة أصعب من الشّتاء الماضي؛ يُضاف إلى ذلك أعبائي أنا وسارتر أنّ ليز قررت الانفصال عن أندريه مورو ورفضت العودة إلى أهلها؛ أقامت في فندق حقير بشارع ديلامبر: ساعدناها. كنّا نُساعِد أيضاً أولغا، واندا وبوست الذين كانوا يرزحون تحت نصف البؤس. حتّى مطاعم الدّرجة د، حيثُ تُقدّم وجبات غريبة تحت مُسمّى لحم الضّأن، كانت هي أيضاً باهظة الثّمن بالنّسبة إلينا. حجزت في فندق ميسترال غرفة مُجهزة بمطبخ؛ جلبتُ قدراً من ورشة أختي، أواني، صحوناً وبالطّبع كنتُ أصنع كلّ أطباقي بنفسي وكان بوست يُشاركنا الطّعام أحياناً.

لم أكن مُغرمة بشؤون المنزل وكي أتصالح معها عمدتُ إلى طريقة: من همومي الغذائيّة، انتقلتُ إلى هوَس رافقني ثلاث سنوات. كنتُ أحتفظ بوصولات الشّراء ولا أُضيّعُ منها واحداً؛ في الشّوارِع، كنتُ أبحثُ في رفوف المحال الزائفة عن عروض التّخفيض: راق لي هذا النّوعُ من البحث عن الكنز؛ يا للصّفقة لو عثرت على لفت أو كرنب؛ أوّل وجبة أكلناها في غُرفتي كانت متمثّلة في مُخلّل اللفت حولتُ قدر المُستطاع تحسين طعمِه بإضافة الحساء. أكّد سارتر أنّ الوجبة لم تكن سيّئة. كان تقريباً يأكُل أيّ

شيء وبالمناسبة زهد في الأكل قليلاً وبيُسر؛ كنتُ أقلّ تسامُحاً. كنتُ أحياناً أتضايَقُ لأنّي أشعُر بالجوع؛ لهذا كنت مُتَحَمِّسَة للغاية كي أجمَعَ المُؤن: بعض عُلب العجين، الخُضر الجافة، رقاقات الشوفان. وجدتُ إحدى صُوَر ألعاب طفولتي المُفضّلة: في قلب الأزمنة صمّمتُ نظام اقتصاد مُحكَم. كنتُ أتأمّلُ كنوزي وأقيّمُ توزيعَها اليومي: عرفتُ سعادة الشُحّ. لم أكن أشكو ضيق الوقت، وأنا أتحدّث مع بوست وليز اللذَيْن كانا يُساعدانني عن طيب خاطر في أعمالي، يحدُث أن أُمضي ساعات في تقشير الفاصوليا الخضراء، في فرز المشمش الجاف المُسَوّس في جزء منه. كنتُ أُوزّعُ الأدوار بحيَويّة لكنّ الكيمياء الغذائيّة أعجبتني. أذكُر بداية ديسمبر، ذات نهاية ظهيرة حيثُ حظر الجولان - المُحدّد عند الثامنة، بعد العمليّة الإجراميّة - حبَسَني في غُرفتي. كنتُ أكتُب؛ في الخارج ساد صمتُ الصّحراء؛ على الفرن يُطبَخُ حساء تنبَعِثُ منه رائحة طيّبة؛ كانت تلك الرائحة وصوت الموقد رفقتي الوحيدة؛ لا أشاطرُ نساء البيوت الوضعَ لكنّي على الأقل عرفتُ سعادتهنّ.

مع ذلك، لم أكن أعيشُ الحياة الجادة كعهدي بها. بالنّظر إلى عُمرنا، وصحّتنا لم أكن أخشى تعكُّراً ناجماً عن حياة التقشُّف؛ لم يكن قرصُ معِدتي سوى تعبير عن نتيجة مفهومة. أقلعتُ عن التبغ بسهولة، لم أكن أُحبُّه؛ كنتُ أشعِلُ سجائر وأنا أعملُ كي أقيس الوقت: لكنّي لا أبتلع الدُّخان. عانى سارتر أكثر منّي جراء هذا الحرمان؛ كان على الأرصفة ومن تحت المقاعد يجمَعُ أعقاب السّجائر ليَحشُو غليونه. لم يُذعِن قط لملء غليونه بالشاي والأعشاب كما يفعَلُ بعضُ المهووسين في مقهى الفلور تلك الأعشاب التي كانت تجعَلُ من أجوائه عبقة بروائح الحشائش المحروقة.

اللباسُ أيضاً كان يُشكِّل مُعضلة؛ السوق السّوداء يزدريها ضميرنا، وكانت فوق ذلك لا تطالُها مُدّخراتُنا؛ وكانت وصولات اللباس تُوَزَّعُ بالتّقتير. حصلتُ على البعض عقِبَ موت والدي ما مكّنني من اقتناء فُستان ومعطف: خبّأتُهما. نساء كثيرات كُنَّ نهاية الخريف يجمَعن بين التنورة والبنطلون لإحساس أكبر بالدّفء؛ قلّدتُهنّ؛ إلّا إذا كنتُ ذاهبة إلى المعهد، فقد كنتُ أخرُج في بدلة تزلُّج وحذاء خشِن.

كان من عادتي الاستمتاع بالاعتناء بزينتي فيما مضى، عندما كان ذلك يمنَحُني سعادة خاصّة، لكنّني لم أعد أريدُ تعقيد حياتي دون طائل ولم أعُد البتّة مُهتَمَّة بذلك؛ إنّ الحفاظ على القليل من اللياقة يتطلّبُ في حدّ ذاتِه جُهداً مُعتَبَراً. لابدّ من وصولات كي أُصلِحَ أحذيتي. اكتفيتُ بالأحذية الخفيفة ذات النعال الخشبية، التي ذاعَ صُنعُها آنذاك؛ يعرِضُ الصانعون خدماتهم مُقابل أسعار فاحشة الغلاء. لو أردنا غسلَ ملابسنا بأنفُسنا فإنّ ذلك يُكلّف مشقة اقتناء البنزين. وبسبب نقص الكهرباء، كان الحلاّقون يعملون بصورة مُتقطِّعة، ما جعل من تسريحة عادة عَملاً مُهمّاً، لحُسن الحظّ كانت العمامات هي الموضة: إنّها قُبَّعَة وتسريحة في آن؛ كنتُ أرتديها من حين إلى آخر للرفاهية ولأنّها تُناسبني أيضاً؛ اعتدتُ عليها. كنتُ أختارُ الأكثر بساطة في كلّ شيء. رُوَيداً، بدأ وجهي يعود إلى طبيعته، زال الانتفاخ وتعافت الخُدوش لكنّي لم أُكلّف نفسي عناء استبدال السنّ المكسور. كان تحت ذقني ثؤلول بشِع لا ينفَكُّ يكبُر ويتقيَّحُ قليلاً: لم أُعالِجه. أزعَجني جدّاً ذات صباح؛ وقفتُ أمام المرآة. وضغطتُ عليه حتّى خرج شيء أبيض اللون؛ ضغطتُ بقُوّة أكبر، ولوهلة شعرتُ أنّي أعيشُ كابوساً خُرافيّاً حيثُ عيون تبرُزُ من وجهي؛ انغرَزَ سنٌّ في لحمي، تلك التي كُسِرَت أثناء السّقوط؛ ظلّت مزروعة هناك أسابيع؛ عندما رويتُ الحادثة لأصحابي ضحكوا بجنون.

كنتُ غير مُهتَمّة بمظهري ولا ألتقي بأناسٍ كثيرين. رحل جياكوميتي إلى سويسرا. كنّا نتناول العشاء من وقت إلى آخر عند پانييز الذي بات لديه طفلان الآن؛ كان يقطُن الطابق الخامس في شارع سان-مشال، شقّة تُطِلُّ على اللكسومبورغ وجُزء كبير من باريس؛ سُرعان ما سحب دفاعه عن ڤيشي؛ كنّا نحمِلُ نفس الأفكار وكانت زوجَتُه ودودَة؛ لكنّ احتشام عشرينها العنيفة عطفت نحو الكآبة؛ كان خلال الفترة الأولى من زواجِه يقول لنا: «أنتما الاثنَيْن تكتُبان؛ أنا نجحتُ في مجال آخر: وبيت وسعادة؛ ليس سيّئاً، هذا أيضاً.» ثمَّ سُرعان ما سيُصَرِّحُ أنّنا نجدُه مُمِلاً وحتّى لا يكذِّبنا راح يُسبّب لنا الملل فعلاً؛ كان يتعَمّدُ التوسُّعَ والإطالة في خوض مواضيع لا تعنينا كثيراً: رعاية الأطفال مثلاً، أو الطّبخ. بعضُ الأشياء كانت أحياناً تنبجسُ من أيّام تفاهمنا لكنّها مُجرَّدُ بروق خاطفة. مع ماركو لم نكن نشعُر بالحميميّة قط؛ جمجمة

صلعاء، وجه شاحب، مؤخّرة ثقيلة، ما انفكّ يلهَثُ بين كرنفالات مونبارناس بحثاً عن الحبّ الكبير العاصف؛ كان يحتسي معنا كأساً من بعيد إلى بعيد. قدّم لنا صعلوكاً شاباً هامِساً في آذاننا بصوتٍ مشحون بالشّهوة: «إنّه صلب، صلبٌ للغاية» أو «إنّه لصّ» وذات مرّة: «هذا قاتل!».

كنّا، بشكل حصريّ تقريباً، نُخالِطُ مجموعتنا التي نُطلق عليها اسمَ «العائلة»، أولغا، واندا، بوست، ليز. كانت تربطُهم فيما بينهم وبنا علاقات مُختلفة، حرصنا على احترام خصوصيّتها. كنتُ أرى بوست باستمرار مع سارتر؛ عدا ذلك فإنّ العلاقات كانت في أغلبها ثنائيّة. عندما كنتُ أتحدّث إلى أولغا وليز في الفلور، عندما يخرُج سارتر مع واندا، عندما تتحدّث ليز وواندا معاً، لا أحد بيننا يخطُر له الجلوس إلى طاولة الاثنيَن الآخرَيْن. كان الناسُ يجدون هذه العادات مُثيرة للضحك أو الغرابة على الأقل؛ بدت لنا الأشياء تسيرُ على طبيعتها دون تدخّل مِنّا؛ حداثة سنّ أفراد «العائلة» هو ما يُفسّر جزءاً من تلك العادات: كلّ ما ظلّ مُنغَلِقاً على خصوصيته مُطالِباً باهتمام كامل؛ لكنّنا جميعاً كان علينا الحفاظ على ذلك - مَيْلاً للقاء الثّنائي؛ قد نُثير إعجاب بعضنا لبعض في المواضيع التافهة، شرط أن تجمعنا بالطّرف الآخر حميميّة حصريّة؛ الخلافات، الألفة، الذكريات، المصالح، كلّها كانت تختلف من شخص إلى آخر؛ عندما نكون ضمن مجموعة في آن واحد فإنّ الحوار - ما عدا الأوقات المُمَيَّزة - يُصبح راقياً. ملهاة جميلة، دون طعم أو حتّى متعة، ليس التواصُل ما نرغَبُ فيه.

هجرنا مونبارناس. دأبنا، إذاً، على تناول الفطور في مقهى الفرسان الثلاثة وكنتُ أحياناً أعملُ هناك وسط جلَبة وأصوات الأواني التي غطّى ضجيجُها على صوت الراديو المُتقطّع. مساءً، كنّا نتواعَدُ في الفلور حيثُ نحتسي القهوة والنبيذ والجعة. بعض الزبائن هاجروا إلى مرسيليا وأنشؤوا، حسب الروايات التي وصلتنا، مصانعَ لِمَعجون الغلال: بيعَت في باريس من هذه الأشياء السوداء المصنوعة بفضلات التمور والتين القادم من إفريقيا. لكن إجمالاً لم تتغيّر قاعِدة الأوفياء كثيراً. كانت صونيا تختال، جميلة وأنيقة وسط حلقة نسائيّة. رأينا من جديد العاشقين الأشقر ين اللذين «عَبَرا» معنا: اسم الشاب جوزان،

كما كَتَب؛ صديقته تشيكيّة إسرائيليّة؛ كانا مُرتَبِطَيْن ولهما نفسُ العمر تقريباً؛ سمراء، ذات بشرة ناعمة كالحليب، بيلا، كانت هي أيضاً إسرائيليّة جذّابة؛ كانت تضحَك طوال الوقت. بين الوافدين الجُدد، لاحظنا شقراء، جميلة جدّاً، خفيفة، تُسمّى جُوال-لو-فوف؛ كانت تجلسُ وحيدة ولا تكلّم أحداً؛ لامستنا عفويّتها المائلة إلى التألّم؛ الصّامت. اهتممنا مثل الماضي بالكائنات الغريبة والمغربيّة التي ترتاد الفلور بحثاً عن مُستقبل؛ راقبنا تصرُّفاتهم، وتساءلنا عن ماضيهم وحاولنا تخمين حظوظهم؛ لم تُقَلِّص الكارثة الجماعية من حجم انشغالاتنا بالناس فرداً فرداً.

بمناسبة عيد الميلاد ذهبنا إلى پواز؛ لم تكن سيّارة السيّدة لومار في حوزتها؛ شحنّا درّاجَتَيْنا في القطار ركبناهما لنقطع العشرين كيلومتراً الفاصلة بين أونجي والقرية. خيَّمَ التقشُّف حتّى على هذا الرّيف. ثمّة مع ذلك ديك رومي للاحتفال ولحم يومي على الغداء. كنّا نطلب نفس الطبق للعشاء: شطائر التفاح، لأنّها تُشبِعنا ثمَّ تسقينا السيّدة لومار نبيذاً قويّاً يدفّئ عروقنا. ثمّ إنّ غُرَفَنا ليست باردة بفضل موقد الخشب المُشتعل. كان ذلك بذخاً يُغني عن الخروج خُطوة. كنّا نعمَل، نقرأ ونتحدّث مع السيّدة لومار التي لم تعد تأتي إلى باريس قط.

كنّا نقرأ لكنّ واجهات المكتبات لا تُثير اهتمامنا كذي قبل؛ ما من روايات إنجليزيّة أو أمريكيّة وبدا أنّه لا جديد على الساحة. في رواية *متى تأتي النهاية* يروي دايموند غيران وهو سجين حرب، ببراعة فائقة ودقّة الاحتضار الطويل لوالِدِه المُصاب بسرطان الشّرج؛ سحرتني هذه القصّة الرهيبة. اهتممتُ كثيراً بمؤلّفات دوميزيل Dumézil حول الأساطير والخرافات وتابعتُ دراسة التاريخ. عدتُ إلى العصور الأولى. رجّني بشكل خاص كتاب حول حضارة الإيتروسكان: وصفتُ لسارتر طقوس الدّفن عندهم، واستلهَم من ذلك الفصل الثاني من مسرحية *الذباب*.

لم يكن المسرحُ يُوَفّر مادة مُغرية. مُنِع استئناف *الوالدان المُريعان*. بعد تدخّل من آلان لوبرو. شاهدنا جوپيتار - كوميديا فظّة، لكنّها نجحت قليلاً بفضل الحضور المُمَيّز لجاكلين بوڤيي، السيّدة پانيول - *والمخدوع الرائع*

لكروملينك؛ أعجبنا *راقص العالم الغربي*، لأنّه منحنا في شبابنا أسطورة الحصول على الأفضل: غير أنه خيَّب آمالنا عندما عُرض في مسرح ماتورين. جانفي من سنة 1942، قدّم ڤيرموريل مسرحيّته الأولى *جان معنا*. أُسنِد دون جان لجُوال-لو-فوف: كانت بدايتها مع المسرح واحتفى بها الصحافيّون؛ ثمَّ أعلنوا أنّ صحّتها تمنعها من حضور التمارين؛ في الفلور قيل إنّها لم تكن في مُستوى الدّور الذي أدّته. رأيناها جالسة إلى طاولتها المُعتادة وحيدة دائماً بسحنة فزِعة وأشفقنا عليها ونحنُ نتخيّلُ إحساسها بالإهانة والخيبة. ربّما تعكّرت صحّتُها أكثر لأنّها كانت مُتداعية تماماً؛ ماتت بعد أشهر جراء سُل رئوي. لم نعرف شيئاً عنها لكن في مصيرها ثمّة شيء غامض يُدمي القلوب.

بيرت تيسان هي التي أدّت دورَ جان دارك؛ رغم قِصَر قامتها ولهجة أهل اللكسومبورغ فقد سحرت الجُمهور. كتب ڤيرموريل مسرحيّة جديدة: كانت تُهاجِمُ الإنجليز الذين بدوْا في صورة «المُحتَل» كوشون وعصابته في صورة المتعاونين معهم؛ كانت المقولات الفخورة التي قذفتهم بها جان وسط تصفيق الجمهور بمثابة إدانة صارخة في وجه ڤيشي والألمان.

وافق دولان، بتأثير من كامبي على إدارة مسرح سارا برنارد، الذي تغيّر اسمُه ليُصبح «مسرح المدينة». أخرج مسرحيّة من تأليفها بادئ الأمر، *أميرة الأورسان* ولم تنجح. من جانب الكوميديا الفرنسيّة صمّم باروه ملي لافتاً، لكن أقرب إلى مهزلة لافورغ منها إلى شكسبير. في مسرح مونبارناس، قدّمت تعاوُنيّة جون داركونت *سيلستين* باقتباس يعوزه الذّوق للأسف.

لمّا خرجنا من *سيلستين* يوم 3 مارس، لمحنا وميضاً في السّماء وسمعنا أصواتاً مألوفة لديَّ: مُضادات طائرات D.C.A وتصاعد عويلُ صفّارات الإنذار. ظلَّ الناسُ جامدين على الأرصفة يُبصِرون السّماء. ماذا يحدُث؟ هل يُلقي الإنجليز القنابل على باريس؟ أهُم الألمان من يقومون بإنذارات خاطئة؟ نِمنا والشّكوكُ تُحاصرنا. في اليوم التالي كان المجدُ للصحافة: أراق الإنجليز الدم الفرنسي. لقد أصابوا مصانع رينو Renault ببيلانكور مُخلِّفين عدداً كبيراً من الضحايا. استغلّت البروپاغندا الألمانيّة الغارة.

أحد رفاق سارتر في السّجن أُعيد إلى الوطن شهر مارس، كوربو، مارس

الصحافة الهاوية، لا شُغل له، تزوّج ابنة واحد من أكبر المُحامين في هاڤر؛ هو الذي صمّم ديكور *بارانويا* ولعب دور پيلات. يتساءل عن مصيره بقلق واضِح؛ شيء ما في وجهه البورجوازي الماكر يُذكّر بابن عمّي جاك. كان يسكُن مع زوجته منزل صهرِه الشاسع ودعانا لقضاء يومَيْن معهما. غادرنا باريس على درّاجَتَيْنا اليوم الأوّل من عُطلة عيد الفصح. عبرنا رووان التي احترقت أحياؤها القديمة وكودبيك المُدَمّرة. عدد كبير من المنازل ضاحية هاڤر لم يبق لها أثر: «سأريكم الأفضل!»، قال لنا السيّد ڤرناديت – صهر كوربو – بنوع من الاعتزاز. منزله ليس بعيداً عن الميناء وليالي القصف، كان في الحجرات الأولى: وصف لنا المشهد المُذهل من نافذته وحبوره عندما يُصابُ هدف مُهم. سألتُه ما إذا كان قد شعر بالخوف: «نحنُ نتعوّد!»، قال لي. أخذنا لرؤية الأنقاض، عدد كبير من القرى المُجاورة دُمِّرت أو ضربها القصفُ الجوّي، في الأسفل، مناطق شاسعة دُمِّرت بالكامل. «هنا، قال لنا، محطّة تكرير النّفط: كما تَرَون، لم يبقَ منها شيء... هناك كانت المخازنُ.» ونحنُ نسمَعُ صوتَه المشحون بالرّضا، يخطُر لنا لوهلة أنّه عُمدة بلدة بصدد القيام بجولة مع ضيوفه ليريهم حدود أملاكه. ثمَّ ذهبنا مع كوربو إلى الحيّ القديم سان فرنسوا: لم يعُد سوى أرض رحبة غزتها الأعشاب. لم يعد لشوارع غاليون وجود ولا الأحواض القديمة وحانات البحّارة، والبيوت ذات الواجهات الخشبيّة التي طالما أحببناها. أذكُر ذلك اليوم من سنة 1933، حيثُ كُنّا جالِسَيْنِ في مقهى مووات وقرّرنا بحُزن ألّا شيء ذا قيمة سيحدث لنا: يا للعجب لو أنّ أحدهم أظهر لنا ما آل إليه الحال سنة 1942 في بِلَّوْرَة! هل كنت تأسّفتُ على فترة السلام والجهل؟ لا، كنتُ مأخوذة بالحقيقة كي أنتحب على الأوهام السّمجة في واقِعها.

بعد العشاء، حيثُ قُدِّمَ لنا اللفت السويدي المُعَدُّ بشكل مُرَفّه، استمعنا إلى البي بي سي وافترقنا عند منتصف الليل. بالكاد نِمتُ حتّى سمعتُ صفّارات الإنذار وبعدها بلحظات صوت انفجارات مُدوِّية؛ بدأت مُضادّات الطائرات ترُدّ. هذه المرّة، أخبرني حدسي أنّ هناك خطراً حقيقيّاً؛ تردّدتُ على مشارف الخوف؛ لكنّي كنتُ منهَكَة وأشعر بالنعاس إلى درجة أنّي طردتُ فكرة البقاء مُستيقظة، أصختُ السّمع بحنجرة مُتيَبِّسة وقلب فارغ. «يحدُث ما يحدُث»، قلت لنفسي؛ ورشقتُ السدّادات في أُذُنَيَّ كما اعتدتُ أن أفعل كلَّ

ليلة. أتعجّب اليوم من هذه اللاّمبالاة؛ دون شكّ، إنّ الإنذارات الزائفة وكلّ الأحداث التي مررتُ بها درّبتني على عدم الاكتراث. الحريُّ بالذّكر هو أنّي كنتُ أنام حتّى الصّباح دون انقطاع. أرانا كوربو طلقات مُضادات الطائرات في الحديقة؛ تأثّرتْ بعضُ المنازل على مسافة مائة متر فقط.

تحدّث سارتر مع كوربو كثيراً حول المُعسكَر، عن الرفاق خصوصاً عن قسيس شاب: الأب پاج، الذي كسب مودَّة سارتر بفضل لُطفِه وانضباطِه وحكمته وهو يُبدي سلوكاً أو يعرض قناعة. قبل ثمانية عشر شهراً، رفض الفرصة الواهية التي قبِلَ بها قساوسة آخرون لتحرير أعناقهم؛ لم يرغَب في أن يمنَحَه الكهنوت امتيازاً. ولم يكن يُخطّط للهرب من الأساس: مكانُه في المعسكر. كان دائماً ينشُد الأصعب: كان كاهناً في حفرة سيڤينيا التي اختارها لوحشيّتها. كان للحرّية بعدٌ في نظره؛ كان يرى أنّ الفاشية وهي تُحوّل الإنسان إلى عبد، تتحدّى مشيئة الله: «إنّ الرب يحترم الحرية إلى درجة أنّه أراد لمخلوقاته أن يكونوا أحراراً بدل أن يكونوا مثاليّين»، قال. قرّبتْهُ هذه القناعة من سارتر وقرّبته أيضاً من جوهر الإنسانيّة.

بعد الحوارات العديدة التي كانت له مع سارتر، بات الأخير شغوفاً بمعرفة المزيد وأكّد أنّ أغلب المسيحيّين في المُعسكر كانوا يحملون إنسانيّة المسيح؛ وُلِدَ عيسى مثل كلّ الرُضَّع وسط القذارة والألم؛ لم تلد العذراء بمعجزة. أيّدهُ سارتر: إنّ أسطورة البعث لن تكتسب روحاً إلّا إذا عُهِدَ إلى المسيح بالبؤس البشري. لم يكن القسُّ پاج معادياً لفكرة إحجام القساوسة عن الزّواج: لكنّه لا يستطيعُ تقبّل فكرة أن يتحوّل نصفُ سُكّان الأرض إلى تابوه مُحرّم بالنّسبة إليه؛ كانت له علاقات نسائيّة أثيريّة لكن رقيقة وحميميّة، لم ترق لمن هم فوقَه. فتح قلبه لسارتر برحابة صدر، أحبّه كثيراً إلى حدّ التصريح بحماس: «إن كان على الربّ أن يُعذِّبَك، فلن أقبل سماءه.» ظلَّ سجيناً حتّى آخر الحرب. حين أُطلِقَ سراحُه جاء إلى باريس. تناولنا أنا وسارتر وهو الغداء في شقّة صغيرة بـ«تيريتر» حيثُ يسكُن كوربو؛ لم يكن مُرتَدِياً ثوب الرّهبنة وكان جذّاباً للغاية. ثمَّ عاد إلى سيڤينا الكئيبة.

عبرنا السين بالزّورق الأقرب؛ بدأت النورماندي تتفتّح وتزداد إشراقاً

وبهجة؛ وصلنا إلى پواز عبر جسر أودمير، ليزيو، فلار، حيثُ أنهينا عُطلتنا. عُدنا في القطار؛ جلبنا البيض واعتادت السيّدة لومار أن ترسل إلينا علبتَيْن أو ثلاثاً كلّ شهر؛ كانت تطعم عدداً من الناس لا أحد يعرفه. المأساة هي بطء وسائل النقل. أوّل طرد حصلتُ عليه كان قِطعاً من لحم الخنزير المُحَمَّر، بدا لي لذيذاً جدّاً؛ لكن من قريب لمحتُ أشياء بيضاء صغيرة تتحرّك. «لا يهمّ!»، قلت. كنتُ قد عزمت على ضرورة أكل اللحم وإلّا أصبنا بفقر الدّم؛ قصصتُ الأجزاء الخارجيّة؛ ونظفت البقيّة جيّداً. باغتتني ليز؛ لكن جوعها يُشبه جوعي ويحمِلُها على اقتراف أيّ عمل مهما كان أخرق. أمّا سارتر فقد حجبْنا عنه الحقيقة. بعد ذلك كثيراً ما كنّا نشتمُّ رائحة كريهة في الطّرود: كنتُ أغسِل الأجزاء المتعفّنة من لحم العجل بالخَل؛ وأطبخها ساعات وأخلط معها بهارات قويّة. كنتُ عادة أنجحُ في عملي؛ كنتُ أنزعج حين يتخلّى سارتر عن صحنه. ذات مرّة كان حاضراً عندما كنتُ مشغولة بقصّ نصف أرنب؛ رمى بها في أقرب حاوية فضلات بالأسفل دون تردّد.

هجرتْ ليز شارع ديلامبر نحو فندق ميسترال؛ كانت تُساعِدني في شؤوني. لم تُعَمّق هذه الألفة علاقتنا: كنتُ أتنقّل بين الضحك والغضب من خلال شجاراتنا ومصالحاتنا؛ سمعنا صفارات الإنذار عديد المرات خلال تلك الثلاثية؛ كانت ليز تطرُق بابي: «أنا خائفة. أريدُ النزول إلى الأمان، تعالَيْ معي!» لم أكن أنهض لأنّ وسط باريس لم يكن مُستهدفاً. «اذهَبي وحدَك، صرختُ عليها. - لا!» أطبقت الباب معاتبة إيّاي على أنانيّتي؛ لم أرضخ قط واعتادت النزول بمفردها نحو محطّة المِترو للاختباء.

كنّا نتلقّى هذه الغارات بأحاسيس مُختلطة؛ كنّا نُكنّ ودّا كبيراً للطيّارين الشُبّان الذين كانوا يقتحمون الحواجز الألمانيّة مقابل حياتهم؛ مع ذلك كان نساء ورجال وأطفال يموتون تحت القنابل وكنّا قلقين أن يُصيبنا نفس المصير غير واثقين أنّنا في أمان. غير أنّ الأمر كان يلوح لنا ونحنُ نسمَع أصوات مُضادّات الطائرات ودَويّ الانفجارات بعيداً. يعني الضجيجُ أنّ المُقاتلات قد نجحَت في شنِّ غارات على ألمانيا: كولونْيْ، رور، همبورغ تضرّرت بجدّية. لو ربحت إنجلترا حرب السّماء فإنّ احتمال انتصار الحُلفاء يُصبحُ ضعيفاً.

لكن في تلك الفترة كان كلّ شيء باهظ الثّمن، حتّى الأمل. قاومتْ إنجلترا ببسالة؛ تفاقمت الأوضاعُ السيّئة داخل فرنسا. عُيِّنَ لاڤال رئيس حكومة، لقد انتصرت أخيراً سياسة التعاون الأعمى. اتّخذت إجراءات صارمة ضدّ اليهود في المنطقة المُحتلّة. تمّ، منذ 2 فيفري، إقرار قانون يمنعُهم من تغيير إقاماتهم والخروج بعد الثامنة. يوم 17 جوان كان عليهم حمل النجمة الصفراء: في باريس أثار الإجراءُ موجةً من التعجُّب أكثر ممّا هو سُخط، لفرط ما كنّا مُقتنعين أنّ هناك أشياء لا يُمكن حدوثها في بلادنا؛ كان التفاؤل يملأ قلوب عدد كبير من الإسرائيليّين، خصوصاً الطبقة الفقيرة، ما جعلهم يتخيّلون بكلّ سذاجة أنّهم سيتجنّبون المآسي بامتثالهم للقانون؛ في الواقع قلة من حاملي النّجمة ستُكتَبُ لهم الحياة. آخرون بنفس البراءة ظنّوا أن في وسعِهم الاحتيال على القانون؛ لم أكن أرى أحداً يحمِلُ النجمة في مونبارناس وسان جرمان-دي-پري. لا صونيا ولا التشيكيّة الجميلة ولا بيلا ولا أيّ من صديقاتهنّ غيّرت عاداتها حتّى بعد 15 جويلة حينُ مُنِعَت عنهم الأماكن العامة. مطاعم، سينما، مكتبات، الخ؛ تابعن المجيء إلى الفلور والثرثرة حتّى موعد إغلاقه. مع أنّ الغستاپو بمُساعدة البوليس الفرنسي كان يعمَدُ إلى المُداهمات باستمرار؛ فُصِل الأطفال عن أمّهاتهم، أرسلوا إلى درانسي وإلى وجهات غير معلومة. يهود ذوو جنسيّة فرنسيّة سُجنوا في مُعَسكَر پيتيڤي ومُعسكَرات أخرى. آخرون رُحِّلوا إلى ألمانيا. عدد كبير فهموا أنّ حياتهم مُهدَّدة؛ فقرّروا التخفّي وعبور الحدود. استطاعَت بيانكا التعرّف على مُهرِّب، هي التي اختبأ والِدُها في المنطقة الحُرّة والتي لم تطأ قدماها السوربون بسبب تحديد قائمات المُرسّمين اليهود؛ قادها، مقابل مبلغ كبير، إلى مولان Moulins، حجز لها في فندق ووعدها بالعودة لأخذها بعد ساعات؛ لم يرجِع قط: كان هذا الضّرب من الخِدَع مُنتشراً آنذاك؛ إلّا أنّها نجحت في الوصول إلى إيكس Aix حيثُ وجدتُ عدداً كبيراً من رفاقها. وضعوا خطّة مُحكَمَة للحُصول على أوراق مُزَوَّرة؛ تحت ذريعة مُعيّنة، كانوا يصلون إلى دفتر تسجيل الطّلبة في الجامعة؛ يُدَوِّنون أسماء طلبة من جنسِهم ومن سِنّهم؛ يكتبون للبلديّة حيثُ يكون الأصليون مُرسّمين ويطلبون وثيقة الميلاد بشراكة سرّية مع بعض المتواطئين. حين تكون وثيقتك في جيبك يكفي شاهدان كي تمنحَك المُحافظة بطاقة هويّة عليها اسمُك الجديد وبصماتك وصورتك.

عرفنا نهاية ماي أنّ پوليتزر قد عُذّب وأُعـدِم رمياً بالرّصاص. أُعدِم فيلدمان شهر جويلية. عدد كبير من الشيوعيّين شملهم نفسُ المصير، وتواتر تعليقُ اللاّفتات الصّفراء والحمراء بنسق مُتسارع على جدران المِترو. شهر جويلية، أعلنت لافتة مختومة من قِبَل أوبيرغ أنّ القمع سيشمَلُ آجلاً أم عاجلاً عائلات الإرهابيّين: الأقرباء الذّكور سيُعدَمون، ستُرَحّل النّساء، وستتمّ تربية الأطفال في الملاجئ؛ مع ذلك لم تهدأ وتيرة العمليّات التخريبيّة. بدأ لاڤال في حملات التهديد والوعظ؛ بدت لنا المُساومة بالسّجناء أمراً مُؤسِفاً: لكنّ العُمّال الفرنسيّين لم ينثَنوا.

قام الألمان بجهود كبيرة لإرساء تعاون ثقافي دون جدوى.

قُنبلة أضرّت بمكتبة «السّاحل الشمالي» التي تمَّ تركيزُها في الحيّ اللاتيني مكان «هاركور Harcourt»

قاطعَ كلّ المُفكّرين الفرنسيّين تقريباً معرض أرنو بريكر الذي انتظم في سُرادق البرتقال LOrangerie. إثر تعيينه وزيراً للتعليم، وبَّخَ آبيل بونار أداء سابقيه. طالب بدخول الجامعة «المعركة»؛ لم يجلب اقتراحُه الترحيب؛ في مَعهَدَيْنا، كنتُ وسارتر نُقدّم دروساً حسب مشيئتنا دون الانضواء تحت أيّ تعليمات. خرج الطّلبة في الحي اللاتيني مُحتجين ضد الوجود الألماني، كانت مُظاهرات جادة نوعاً ما، غيرَ أنّها أغضبت المُغتصبين. انتقدت بعضُ الفئات الشبابيّة بحدّة ما يُسمّى بالـ «ثورة الوطنية»، إلاّ أنّهم في آن واحد دعَوا إلى الوحدة والالتزام الأخلاقي تجاه الوطن؛ شعرٌ طويل على طريقة شباب أوكسفورد، تسريحة غريبة، مطريّة مُعلّقَة على الذّراع والرّقص على موسيقى السوينغ Swing؛ هوسُهم بتقليد الإنجليز وامتلاكهم لزمام الأمور مثّلا نوعاً من المُقاومة. كنّا نرى بعضَهم في الفلور ورغمَ تصنُّعِهم كنّا نجدُهم لطفاء.

اضطهادٌ لليهود، قمعٌ بوليسي، مجاعة: كان الجوُّ في باريس خانقاً. في ڤيشي تضاعفت المهزلة حتّى أصبحت تُثير ضحكنا من وقت إلى آخر، عرفنا بشماتة أنّ تارتوف Tartuffe قد مُنِعت في المنطقة الحُرّة. استمتعنا بالحرج الذي ألقاه جيرو على پيتان باللجوء إليه إثر هروبه.

توخّى الكتّابُ من حولِنا قواعِدَ ضمنيّة. لا ينبغي الكتابة في صحف

ومجلاّت المنطقة المُحتلّة ولا الحديث في راديو-باريس: يُمكننا العمل في صحافة وإذاعة ڤيشي بالمنطقة الحُرّة؛ عموماً سيرتبِطُ ذلك باتّجاه المقالات والبرامج. كان إصدار الكُتب في الضفّة الأخرى مشروعاً؛ هنا، يُطرَحُ السّؤال؛ أخيراً، ربّما أثّر مُحتوى الكتاب حتّى هناك. احتفظ سارتر بـ*سنّ العقل* في دُرجِه لأنّه ما من ناشر كان ليُغامر بنشر رواية كارثيّة كتلك؛ غير أنّه عهد بكتابي لغاليمار. أمّا المسرح فهل علينا حقّاً مُؤاخذة ڤيرموريل لأنّه عرض *جان معنا*؟ لا أحد مؤهّل ليُجيب. دعا سارتر في مسرحيّة *الذّباب* الفرنسيّين للتخلُّص من قيد الحسرة والانطلاق نحوَ الحُرّية وتحدّي النّظام البائد: أراد أن يُسمَع. لم يتردّد إذاً؛ اقترح مسرحيّته على بارو: عموماً لقد كتبها باقتراح منه. لكن كان لابُدّ من الشّجاعة لإعداد مسرحيّة ستقوم مُبتدئتان بأداء الأدوار النسائيّة المُهمّة فيها: راوَغَ بارو.

لذا تحدّث سارتر مع دولان الذي طالما احترم الشّقراء والسّمراء أولغا؛ فقط، كان في أزمة حينَها؛ لم يجنِ شيئاً من عروضِه بمسرحِ المدينة؛ رغم ما يتطلّبُه من جُهد وأموال فإنّ مسرحيّة *الذّباب* ستدُرّ أرباحاً مُجزية: كان عليه إيجاد دعم مالي؛ لا أحد من أصدقائنا كان قادراً على خوض المُغامرة. صدَّقنا حدوث المُعجزات عندما أعلن ميرلو بونتي الذي علِمَ بما يجري من ناحيتنا، أنّ هناك زَوْجَيْن ثرِيَّيْن يتحرّقان شوقاً لرؤية سارتر وتمويل مسرحيّته. تمَّ اللقاء في الفلور. كان الرّجُل ملائماً للاسم العظيم نيرون. بدا أنّه في الخامسة والثلاثين. له وجهٌ شمعي، مائع قليلاً، وذقن ڤيليپ الثاني. أسنان بيضاء وعينان ثاقبتان. كان يرتدي بذلة طويلة ذات ياقة عالية جدّاً، ربطة عنق من الكشمير بعُقدة صغيرة وفق الموضة؛ كان في هيئته شيءٌ ما مُتحرّر يتناقض مع جدّية مظهره؛ خاتم ضخم يتألّق بين أصابعه. بدت لي صديقته ريني مارتينو، السّمراء الجميلة، أنيقة بشكل ينُمّ عن ذوق نادِر في تلك الفترة. كنّا نخرُج دون غطاء على الرّأس، أو كنّا نكتفي بوضع شريط؛ كانت القُبّعات الضّخمة التي أطلقها مصمِّمو الأزياء باهظة الثّمن وغالباً مُضحكة، لكنّها منحت ريني جمالاً ورِقّة. أدار نيرون الحوار. تكلّم بسُلطَة ودقّة. لم تكن الأموال تهمُّه إلّا لكونها تسمَحُ له بلقاء الكتّاب والفنانين. كان شغوفاً بالفلسفة وقال إنّه يعرف هيغل جيّداً وأنّه مُطّلع على فلسفة الظّواهر. يشغلُه مأزق الوقت بشكل خاص. سبق له أن

كتب دراسة حول الخِداع الذي اعتبره تحريفاً لفكرة الوقت؛ يُعاني المُحتالُ حسب رأيِه من «ضيق في المُدّة». قرأ مخطوط *الذّباب* بتأييد كامل، ووضعَ تحت تصرّف دولان المبلغ الذي احتاج إليه لإخراجِها. لم تُعجِبنا غطرسته الأدبيّة؛ لكن ليس في وُسعِنا أن نطلب الكثير من مُنتِج أدبي. افترقنا ونحنُ نفرُك اليَدَيْن.

لمحتُه في الفلور طيلة الأيّام الموالية؛ كان مُستغرقاً في الكتابة؛ قال بطريقة توحي باكتشاف سرٍّ عظيم أنّه عثر على نصوص غير منشورة لهيدغير؛ لكن لم يشأ الإفصاح عن المزيد قبل الانتهاء من إعداد الدراسة حول الموضوع. في المُقابل باح لنا ذات مساء بأسرار عن حياتِه الخاصّة؛ كانت له عشيقتان، إحداهما شقراء والأخرى سمراء، وكان يدعوهُما ريني؛ كلٌّ منهما تجهَلُ وجود الأخرى في حياتِه؛ كان يُغدِقُ عليهما بنفسِ الهدايا ويجعلهما ترتديان بنفس الطّريقة تقريباً وتسكنان شققاً متشابهة جدّاً. وكان يَقطُن شقّة ثالثة في ذات پاسي، دون معرفة المرأتَيْن؛ أخذنا إلى بيته؛ أذكُر الكراسي الإسبانيّة، ذات متكأ حادٍّ يتحدّى السّماء. أرائك فخمة، تُحفاً كريستاليّة، سجّاداً، شُمعدانات؛ على الرّفوف تصطفُّ كتب غالية الثّمن مُغلّفة بالجلد الخالص. كان هذا الدّيكور المهيب مُذهلاً بصفائه وبرودِه البشِع؛ من المُلاحَظ أنّ أحداً لم يكن يجلِسُ على تلك الأرائك والكراسي، ما من عقب سيجارة واحد يُلوّثُ منفضة السّجائر وما من أصابع تصفَّحَت الكُتب.

لم يكن نيرون يُعامل عشيقتيْه بنفس الطّريقة، بطبيعة الحال: لم نعرف غير ريني مارتينو. كانت تسكُن في مونبارناس، شقّة مُرَفَّهة دون فُحش. دعتني إليها بصُحبة أولغا؛ قدّمت لنا المُرطّبات وكحول السّوق السّوداء بوفرة. ادّعت ليز التي عرَّفتُها بها ذات يوم في الفلور، أنّها تعرفها: كانت قبل ثلاثة أشهر فقط مع ثلاثة أطفال في شقة حقيرة بفندق ليز الواقع في شارع ديلامبر. هل تعرّفت على نيرون حديثاً جدّاً؟ رغم ذلك بدا أنّها مُعتادة على حياة التّرف.

دعا دولان نيرون وريني إلى فيرول. ذات يوم جميل من شهر ماي؛ حضرتُ مع سارتر وأولغا. تناولنا الغداء في الحجرة الصّغيرة: لم تكن كاميي معنا. تحدّث نيرون كثيراً عن ثقافته الكَوْنِيّة؛ بل لقد حدَّث المتخصّصين في

المجال عن المسرح الصيني وقدَّم لدولان تفاصيل يجهَلُها؛ حدّثنا عن مسرح شيَّدَه پالاديو في بولوني، أجمل من مسرح ڤانسان. حُدِّدَ موعِدٌ بحضور كاتب عدل، بين دولان، سارتر ونيرون، سيُدفَعُ خلاله مبلغ قيمته مليونٌ نقداً.

صباح الموعِد، كنتُ أعمل في غرفتي عندما رنّ الهاتف؛ كان سارتر: «حدث شيء ما!»، قال لي. ألقى نيرون بنفسِه، عند الفجر في بُحيرة غابة بولوني. التقطه ضابطٌ ألماني؛ وهو في المُستشفى الآن؛ أراد «حذف» نفسِه من الوجود لأنه لا يملِكُ فلساً واحداً.

تعافى بسُرعة واعترف لنا، ليس من دون رضا عن النّفس، بالحقيقة كاملة. روى لنا أنّه يكتُب عن الاحتيال: في الواقع، إنّه يُمارِسُه. كان قبل ستّة أشهر مُوَظّفاً ببنك، لا يملِكُ شهادة جامعيّة؛ لكنّه قرأ وحلُم؛ كان يعرفُ الكثير عن عالم الأعمال. كان طافحاً بالتوازن والبلاغة؛ استولى من البنك على أوراق عليها رأسُ الصّفحة الخاص بها. استغَلَّها ليَطلُب مواعيد من أصحاب رؤوس الأموال الفاسدين عموماً؛ عرض عليهم الاستثمار بفائض فاحش وجعلهم يتعفّفون عن إظهار الفضول: كانت إجمالاً مُضاربات مالية مشبوهة وغير مألوفة: إثر حصولهم على الأرباح الأولى، راحوا يودعون مبالغ مُهمّة لنيرون. كان يدفَعُ لـ أ ما يأخُذه من ب ولـ ب ما يسلُبه لـ ج؛ وكان يترُكُ لنفسه مبالغ تكفلُ له استمرار حفلاته الباذخة. خطّة بهذه البساطة ينبغي أن يُكتَشَف أمرها بسهولة؛ لم يكترث، أراد أن يتذوّق طعم الحياة المُترفة وقد فعل. في حالة وقوعه في المأزق فإنّ الانتحار هو سبيلُه للتخلُّص من كلّ المتاعب دفعة واحدة وكان فعلاً مُقدِماً على الموت دون جزع: في الحقيقة، لم تكن تلك مُحاولته الأولى. أمّا ثقافته فهي كذب. لم يوجد مخطوط هيدغير غير المنشور قط، ولا مسرح پالادو في بولونيْ، والتفاصيل التي قدّمها لدولان عن المسرح الصينيّ، لقد ابتكرَ كلَّ شيء. كان يتحدّث وأنا أصغي إليه فاغرة الفم: حلَّ محلَّ المُستثمر الأدبي النافذ موظّف بسيط في بنك يُعاني الجنون. عندها أخذتنا الشّفقة عليه؛ صدمنا ثراؤه الزائف: كانت مُجرّد عرض مُتقَن. وهو يَشْرَحُ إلمامه بالمواضيع، بدا لنا نيرون أحمق: أيّ خدعة كان عليه هندَستها كي يُغطّي جهله! كنّا نُفضّل هوس الكذب على التحذلق والتعجرف. من المُثير

للحنق فعلاً أن يشتري علاقات فكريّة بالملايين: لكنّنا مُعجَبان بجسارته وذكائه الذي استغلّه لتغيير طعم حياته ولو كذباً. فهمتُ كيف التقت ليز بريني في نُزل من الدّرجة الدُّنيا؛ كان لديها أيضاً بذرة المُغامرة وأورثتني اهتماماً خاصّاً بشخصيّتها. بعد فترة قصيرة، أُلقِيَ القبض على نيرون في فرين Fresnes؛ لكنّ ضحاياه كانوا عموماً مُقتنعين أنهم قد دخلوا صفقة مُثيرة للشّكوك بتصديق نسب عالية جدّاً لا يقبلُها منطق الأعمال: ما من أحد دَفَعَ بالقضيّة إلى ما هو أبعد؛ زيادة على ذلك، أُصيب نيرون بسُلٍّ رئوي؛ سُرعان ما خرج من السجن والتحقَ بالريف لتلقّي العلاج.

ضحك سارتر ودولان من هذا المقلب الجريء الذي وقعا ضحيّتَه؛ مع ذلك تنفّسنا الصّعداء بعد المليون المُتبخّر. «سأُعِدُّ المسرحيّة رغم كلّ شيء»، قال دولان. كنّا على يقين من صدقِه في الوعد؛ لكن كان علينا التحلي بالصّبر. أمّا أنا فقد حدّثني بريس پاران شهر جانفي، عن *دفاع مشروع*؛ فاجأني عندما قال لي: «عموماً، فرنسواز مُختلفة!» فيما منحتُه الذّوق والحاجة إلى التواصُل. لاحظ أنّها لا تملِكُ شخصيّة القاتلة. فكّر أنّ الرواية تستحقُّ النشر، لكن رغب في معرفة رأي پولهان. احتفظ الأخير بالمخطوط طويلاً. شهر جوان، ذهبتُ لرؤيته مع سارتر في بيته قبالة ميدان لوتيس Lutèce؛ كان يوماً جميلاً وشعُرتُ بالانشراح حدَّ التأثُّر. استغرب پولهان وهو يسألني إن كان دولان حقّاً يُشبِه شخصيّة پيير. قرّر أنّ أسلوبي مُحايد جدّاً وطلب بلطف: «هل يُزعِجُك أن تُعيدي كتابة الرواية من أوّلها إلى آخرها؟ - أوه! قلت، هذا مُستحيل: لقد استغرقت كتابتها أربع سنوات! - حسناً! تابع پولهان، في هذه الحالة سننشُرُه كما هو. إنّه كتاب رائع في نهاية المطاف.» لم أكترث ما إذا كان الإطراء في محلّه أم أنّ الرواية اعتُبِرَت من النوع التجاري المطلوب. بل المُهم هو أن يُقبَل كتابي: سيصدُر بداية الصّيف القادم. شعرت بالارتياح أكثر من شعوري بالفرح. أكّدوا لي أنّ العنوان *دفاع مشروع* عنوانٌ غير ملائم أبداً؛ بعد تفكير طويل، اقترحتُ *الضّيفة* فحَظِيَ بالقبول.

أردنا العودة إلى المنطقة الحُرّة لتغيير الهواء؛ كان العُبور نحو الباسك سهلاً كما يُقال؛ أحدُهم أشار علينا بعنوان في سوڤتير. رافقَنا بوست. عند

منتصف النهار صحبَنا دليلٌ على الدرّاجة إلى الطريق الفرعيّ: «ها قد وصلتم»، قال لنا بعد مسافة خمس مائة متر؛ تناولنا الغداء في ناڤارنكس: كان الفندق مليئاً باللاجئين الذين لم يعبروا للتسلية - يهود في أغلبهم - وبدا أنّهم مُلاحَقون. قُمنا بجولة حول الپيريني؛ كانت المناظر أقلّ بريقاً مما هي عليه في الألپ؛ أُحبُّ الأراضي المُنخفضة: سان برتران-دي-كومانج وأحوازها؛ مونتسيغور Montségur، المُرتَفَع العنيد الذي طالما تحدّى به أهل الألپ غزوات الشماليّين. أخذتُ بوست إلى لورد-بوست فذُهِلَت عيناهُ المُحتَجّتان على الدّوام لرؤية «قصر روزار» وعذراواته الشاديات، وكهوفه الفسفوريّة، نعناعه المُعجز؛ لم يأتِ سارتر معنا: تركنا نقوم ببعض النزهات بمُفردنا وظلّ يعملُ؛ هكذا، ذات صباح، صعدتُ مع بوست على الأقدام إلى قمّة ميدي-دي-بيغور: ظلّ سارتر قابعاً وسط الأعشاب عرضة للرياح، وهو يكتُب جاثياً على ركبتيْه؛ التحقنا به بعد كتابته صفحات عديدة مُتجَمِّداً وسعيداً جدّاً. مع ذلك كانت الرحلة مُتعِبَة بسبب صلابة التلال وسوء حالة عجلات الدراجات: كان علينا إصلاحها باستمرار. إضافة إلى ذلك كنّا نأكل قليلاً. كنّا نشتري الفواكِه والطماطم للغداء؛ وعادة نأكل في العشاء حساءً وخُضراً رديئة. كان اللحمُ نادراً جدّاً، حتّى إنّي دوّنتُ يوماً على دفتري: قطعتا لحم فقط للغداء في كلّ طاولة! لم نكن نعثُر بسهولة على أماكن في الفنادق وكنّا ننامُ في الحظائر غالباً. وصلنا إلى فْوا Foix؛ تذكّرنا حوارنا على ضفّة البُحيرة ليلة قبل الحرب: لم نتجهَّز لهذا الـ*ما بعد*. غادرَنا بوست في فْوا، ذهب للقاء أصدقاء في ليون من حيثُ سيعود إلى باريس؛ أحتُجِزَ وهو يقطَعُ الحدود أسبوعَيْن في سجن شالون. عندما خرج كان جائعا جدّاً وازدرد وجبَتَيْن كامِلَتَيْن.

في الپيريني الشرقيّة عرّجنا سالِكَيْن مُنعَطَفات كثيرة نحو لاپروڤانس. صارت الإقامة والأكل مسألة تزداد صعوبة يوماً بعد آخر.

كُنّا على الرّيق مساءً عندما وصلنا إلى داكس وتناولنا على العشاء صحن عدس. اقتطعنا تذاكر لأونجي؛ كان علينا قضاء اللّيلة في بوردو: ليس ثمّة غرفة شاغرة في الفنادق. نِمنا في قاعة الانتظار. دامت الرّحلةُ كامل اليوم تحت حرارة لا تُطاق؛ اشترينا كلّ ما يُباعُ على الرّصيف عند كلّ استراحة: القهوة

الرديئة والبسكويت القاسي. لا أدري كيف استجمعنا قوانا كي نُواصل عشرين كيلومتراً على متن الدراجة. لدى وصولنا إلى پواز، أخذنا حمّاماً ثمّ أسرعنا إلى قاعة الأكل؛ ابتلع سارتر بضعَ ملاعق من الحساء ثمّ شحب لونُه، نهض، ترنّح، تمدّد على مقعد طويل وفقد الوعي. ظلّ نائماً ثلاثة أيّام؛ كنّا نحمِلُ إليه منقوعاً ساخناً وصلصة من حين إلى آخر؛ فتَح عيناً، أفرغ وعاءه بهدوء وعاد إلى النوم ثانية. فكّرت السيّدةُ لومار في إحضار طبيب لكنّه نهض فجأة وقال إن صحّته جيّدة وأنّه قوي. عاد إلى حياته الطبيعيّة. أمّا أنا فقد هزلتُ لفقداني ثمانية كيلوغرامات وامتلأ جسدي بالبثور.

أمضينا شهراً حاولنا خلاله استعادة عافيتنا وتدليل أنفُسنا. تلك الإقامات - التي لم يُمح سحرُها بعد مُضي عشر سنوات - كانت بالنّسبة إلينا أوقاتاً سخيّة؛ كانت فترة سعيدة لأنّها رافقتنا طويلاً. لم يكن البلدُ جميلاً ولا القرى ولا الحدائق في المنازل؛ لا شيء في هذا المبيت الشاسع يُثير الإعجاب ويُدهِشُ الناظر؛ لكن في الريف، مثلما هو الحال في باريس، كانت السيّدة لومار معطاءة كعادتها: كنّا بخَيْر في ظلّها. كانت تشغل في الطابق العُلوي غرفة كبيرة ذات بلاط أحمر اللون وعارضات في السقف وجُدران مُزخرفة بلون أبيض خجول؛ فوضى كبيرة من الملابس والكُتب وأغطية الأسرة، الكراسي والمنضدات والطاولات: واسعة هي أيضاً حيثُ كان لي فيها مكتب للعمل؛ لم أكن أفعلُ شيئاً في غُرفتي غير النّوم (لماذا اخترنا هذا الاحتمال ولم لَمْ نَختَرِ العكس؟ لا أذكر. في الواقع كانت الغُرَفُ مُتشابهة. إن كنتُ أتساءل فلأنّ سارتر كان يرفُض أصغر الامتيازات).

كانت جاكلين لومار تنامُ خلف ستارة قريباً من فراش أمّها. في نفس الطابق كانت تعيشُ عجوز مُحدّبة تبلُغ من العمر اثنَتيْن وثمانين سنة، آوتها السيّدة لومار؛ نلتقي بها في الأروقة، عندما سلكنا الطّريق المُحاذي لمزارع العنب، نزلنا ونهبنا كيلوغرامات من العنب: أنقذت حياتنا.

في مرسيليا، كانت المجاعَةُ أخطر من السنة الماضية؛ أحببنا هذه المدينة بعُمق واستمتعنا بالأفلام الأمريكيّة التي كانت تُعرَض ومكثنا أيّاماً هناك؛ كنّا نأكُل خُبزاً رديئاً مع الثوم المسلوق دون بيض: كانت تلك هي الأكلة المُتوفرة

الوحيدة في البقالات؛ أمّا المُثلّجات فكانت وهماً لأنّها عبارة عن ماء مُتَجمّد ومُلَوّن لا طعم له البتّة. «معجون الفواكه» موجود بوفرة، ذاك الذي تصنَعُه عصابة الفلور. لم يكن قابلاً للأكل تقريباً. فهمتُ عبارة وليام جيمس: «يُعرَفُ طعمُ السُّجُق عند أكله»، قلتُ لسارتر. تُثبتُ ثورة معدتي أنّ عدداً هائلاً من المُنتَجات في السوق غير صالحة للأكل. مثل شارلو، أصبحتُ أرى تهيُّؤات لدى مروري أمام المطاعم حيثُ أكلتُ فيما مضى لحمَ الذّئب مع المُنكِّهات، التونة المقلية وأكلات حقيقيّة أخرى؛ نرى رجالاً ونساء في كامل أناقتهم؛ لم نعد نملك في جيوبنا ما يجعلنا نطأ تلك الأماكن مرّة واحدة.

رغم الجوع الذي بدأ يقلقنا، عزمتُ بعناد على إتمام الرّحلة مع سارتر الذي لم يشأ أن يحرمني من ذلك فأذعن دون احتجاج. زُرنا من جديد منطقة ليغوال وكوڤيرتواراد؛ لاحظنا بأنفُسنا ما تعلّمناه عن هيدغير وسان-إيغزوپيري: كيف أنّ العالم ينكشف بطُرق مُختلفة كُلّما تباينت وسائل تأمّله؛ لا تتطابَقُ منصّة لارزاك التي جُبناها على متن الدراجات مع تلك التي مشيْنا فوقها؛ كانت كلتاهما تملك حقيقتها الخاصة.

قرّرنا أنّنا لسنا في حاجة إلى أحد كي نصل إلى المنطقة المُحتَلَّة: سلكنا نفسَ طريق الذّهاب. ركبنا القطار نحو پو؛ لم تصل الدراجتان مع وصولنا؛ تحتّم علينا انتظارهما يوماً كاملاً؛ لم نكن نملك فِلْساً واحداً: أكلنا الفواكه في ميدي جالِسَيْن على مقعد وفي المساء لا شيء. اليوم التالي في ناڤارنكس لم نجد لا الخُبز ولا الطماطم. قطعنا الحُدود دون مشاكل، وعزمنا على إرسال تلغراف لباريس لطلب الأموال: كنّا في منطقة يُمنَعُ فيها إرسال البرقيّات. أصبَح الوضعُ حرِجاً للغاية. صديقة قديمة لوالِدَيَّ كانت تعيشُ علىٰ بعد عِشرين كيلومتراً على ضفاف نهر لادور L'Adour: ذهبتُ إليها. أقرضوني الأموال ودعتني للغداء: ملأت بطني بالبط والمشمش. لكنّ سارتر رفض المجيء معي..

أميرة روسيّة سكنت الطابق الأرضي، تحمِل دعامة ظهر وتبّانا طويلاً مسنّة جدّاً، متعالية وصمّاء؛ لم تكن تخرجُ من غرفتها قط، وكان يُشاركها كلب أبيض صغير كثيف الفرو، عدائي، غير أنّها تحبّه كثيراً. كانت السيّدة لومار تملك كلبة

ضخمة من فصيلة كلاب الرّعاة نصف مجنونة بسبب ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ قضتها في مقطورة بضائع مع بداية الحرب. كانت تُهاجِم الأطفال والحيوانات بغتة؛ كانت مربوطة، لكن ذات مساء بقرت بطن الكلب الأبيض. انتحبَت الأميرة ساعات طويلة. تتناول المرأتان المُسنّتان وجباتهما في غُرفتَيْهما. كنّا نُفطِرُ ونتناول العشاء مع السيّدة لومار وجاكلين ونحنُ نتحدّث، نحنُ الأربعة إلى ما بعد منتصف اللّيل، عادة في غرفة سارتر. جرسٌ مُلِحٌّ أزعج جلستنا: لم يكن السيّد لومار يُغادِرُ فراشَه منذ بدء الحرب؛ كانت نوبات الكآبة تجعَلُه يتعرَّق؛ عند النداء، تُسارِعُ إليه زوجته وابنته. تمكُثان بجواره لمواساته ساعات في بعض الأحيان. كان يُطالبُ بالظّلامِ ولا يسمَحُ سوى بضوء ضعيف منبعث من مصباح ليلي. يحدُث أيضاً أن يظلَّ واجِماً دون حراك. ما عدا ذلك كان همّه ما يحدث في العالم؛ يقرأ حتّى الكتب؛ أناس من القرية يأتون لطلب المشورة. لم أكن أقترب منه قط. كانت جوزيفين مُسنّة عزباء شمطاء، تخدمه بتفاني العبيد؛ وتُمارسُ القمع على بقيّة العائلة: كانت صاحبة القرار تقريباً؛ كانت تُعاملني وسارتر بريبة. في المُقابل كنّا نحظى بودّ نانيت الثمانينيّة الصلعاء التي كانت فيما مضى تخدم السيّدة لومار؛ كانت تقول لها بتأنيب ضمير وهي تتحدّث عنّا: «إنّهما جيّدان ومن معدن طيّب!» إضافة إلى مهام التمريض، كانت السيّدة لومار وجاكلين تشقَيان من أجل توفير المُؤن، وإرسال الطّرود إلى الأصدقاء في باريس: كانتا بالكاد تنامان ولا ترتاحان أبداً: أمضي مع سارتر اليوم في الكتابة والقراءة؛ كنتُ أحياناً أنجح في إقناع سارتر بالخروج؛ نتنزَّهُ على الدرّاجات أو مشياً على الأقدام: هذا أفضل للتحاوُر. عندما يكون الطّقسُ جميلاً، فإنّنا نُطيلُ الجولة في الضاحية. قرأتُ *أعمدة الحكمة السبعة* مُمَدَّدة على العُشب. تحت شُجيرات التُفّاح ذات الرّوائح التي ألِفتُها في طفولتي.

كنّا نسمَعُ باستمرار إلى البي بي سي وأحياناً إلى الموسيقى. نهاية شهر سبتمبر كتب سارتر لـ*دفاتر الجنوب* مقالاً حولَ رواية اعتبرها النُقّاد حدثاً أدبيّاً مُمَيَّزاً: *الغريب* لألبير كامو. كنّا قد قرأنا بعض الصّفحات الأولى فقط، في مقال بـ*كوميديا* وفوراً لفتَ انتباهنا؛ أعجبتنا نبرة القصّة وسلوك الغريب ورفضُه للعاطفة السائدة. في دراسته، لم يُؤيّد سارتر جمال الرّواية من دون تحفُّظ، لكنَّه غلّب قيمتها على ما دون ذلك.

مضى وقتٌ طويل لم يُلامسنا كاتب فرنسي جديد.

وصفتْ الصّحافة إخفاق عمليّة إنزال في دياپ بكثير من التمجيد، يوم 20 أوت، من قِبَل الإنجليز. مع ذلك ومنذ أكتوبر أصبحنا نقرأ بين أسطُر الصّحف كيف أنّ الأحداث لا تجري كما أراد هتلر. أعلن منذ وقت طويل انتصارات ساحقة لكتائب المحور على جبهة العلمين بمصر وعلى الجبهة الروسيّة بستالينغراد؛ يُقال إنّها تُقاوم، إنّها تُقاتل قتال الأبطال: لقد مرّوا إلى الدّفاع. في الدّاخل، علاقات ضيّقة جمعت بين المُقاومة ولندن؛ تفاقم نسقُ «العمليّات الإرهابيّة»: اتّخذت أعمال الثّأر منحى عنيفاً. ليس في النورماندي فحسب، بل على كامل التّراب المُحتَلّ، عدد كبير من الفرنسيّين المُتّهمين بالتخابُر مع إنجلترا إثر مُغامرة دياپ اعتُقِلوا وأُعدِموا. تهديدات في شكل مناشير حذّرتْ من الدّخول في تعاون مع «العَدُو»؛ يجب الإعلام عن كلِّ عمليّة إنزال مظلّيين وإلّا فإنّ الموت ينتظر المُتكتِّمين. كلفتْ انفجارات القنابل الموقوتة في سينما غارين–پالاس وسينما ريكس، والهجوم بقنبلة يدويّة على المُلحَق الألماني في شارع هوتپول غالياً ودَفَع مُقابلها الدم: أُعدِمَ رمياً بالرّصاص ستّة وأربعون من الرهائن الشيوعيّين في قلعة رومان–ڤيل، سبعون في بوردو. مع ذلك أودت قنبلتان، إحداهما في محطّة مونبارناس والأخرى في محطّة الشرق، بحياة ثلاثة ألمان. في الوقت الحاضر، الأغلبيّة الساحقة بين الفرنسيّين يُنادون بنفاد صبر بهزيمة الألمان. عبَثاً حاولت الپروپاغندا تأليب الرأي العام على الغارات الإنجليزيّة. لقد عانى البلدُ كثيراً مدّة سنتَيْن. لا الرّعبُ ولا الكلام المُنَمَّقُ استطاعا إخماد الضغينة. نداءات لاڤال المُتكرّرة حول «المناوبة»، المساومة بالسّجناء كان لها أثر ضعيف جدّاً ما جعل الألمان يستغلّون العناد لمَصلَحتهم؛ لكنَّ أغلب العُمّال تحت الخدمة الإجباريّة S.T.O حاولوا الهروب؛ من بين الشُبّان، التحق أحد بالمتمرّدين الذين بدؤوا ينضمّون إلى صفوف المُقاومة المُسلَّحة.

فجأة يوم 8 نوفمبر، يا للسعادة التي ملأت قلوبنا! نزلت الكتائبُ الإنجليزيّة على سواحِل إفريقيا الشماليّة؛ وصل جيرو الذي كان يعيشُ الإقامة الجبريّة إلى الجزائر؛ حرّض دارلان بنفسِه فرنسيّي إفريقيا على الألمان. النّشراتُ

الألمانيّة، خُطب ڤيشي، التوبيخُ القلقُ للمُتعاونين، كلُّ ذلك صبّ في سعادَتنا. تخطّى الألمان فوراً خطّ الحدود للـ «دفاع» عن سواحِل المُتوسِّط؛ لكن ماذا يهُم لو أنّ منطقة حُرّة طالتها الحرب. كانت قراءة الصُّحف تُثلِجُ الصّدر. يجري الحديث عن أسطول في تولون، أُجلِيَ حتّى لا يقع بين أيدي الألمان، أنّ تاسيني قد التَحَقَ بالمُتمرّدين، وأنّ دارلان قد قُتِلَ رغم تغييره للمسار. كان ڤيشي والصحافة والراديو يهُزّون أركان فرنسا ضدّ «الخَوَنة»؛ أخبرونا بحنَقٍ أنّ الانسجام لم يكن يُخيّم بين صفوف المُنشَقّين: تعمَّقَ الخلاف بين جيرو وديغول. لا شيء مُهم في ذلك بالنّسبة إلينا. لقد بسطت جيوش الحُلفاء نفوذَها على شمال إفريقيا، هذا ما يعنينا.

تكرار البروباغندا المحموم بأنّ مُحاولات إنجلترا في إيطاليا، وفي فرنسا مصيرُها الفشل، أقنعنا بوشوك سقوط النازيّة.

كانت فِدية هذا النّصر موجَةً واسِعَة من الإيقافات العشوائيّة؛ باتت المنشورات التي تُعلِمُ الفرنسيّين بإعدام الإرهابيّين والرهائن نادرة. ثمّ لم يعُد لها وجود بعد ذلك: لم تعد الغستاپو تُحبّذُ هذا النوع من الدعاية؛ غير أنّ السّجون كانت تعُجُّ بالمُعتَقَلين؛ جرى التعذيب علناً في شوارِع سوسي Saussaie ولوريستون Lauriston. بإيعاز من الألمان حوّل ڤيشي كتائب الخيّالة والمُشاة إلى ميليشيا عهد إليها تحت قيادة دارنو إحباط «عمليّات التخريب الداخليّة» التي أرهبت المناضلين بوحشيّة لم يعرِفوها مع الـ إس إس الألمان. انطلقت قطارات تهجير بكثافة نحو ألمانيا؛ كانت مليئة بالـ «السياسيين» واليهود المُطارَدين في كامل فرنسا؛ لم يعُد يُلتَفَتُ الآن إلى الفرق بين اليهود الأجانب واليهود الفرنسيّين: وجب إلغاؤهم جميعاً. كانت المنطقة الحُرّة قبل القرار ملجأ آمناً لهم. لم يعد لهم مكانٌ يفرّون إليه. كثيرون اختاروا الانتحار. حيّرتنا حتميّة مصائرهم. كانت حيرة نافعة مُقابل الرّعب نفسِه، مثلما عاشَه آلاف الرّجال والنّساء جسداً وقلباً حتّى الموت؛ ظلّت مأساتُهم غريبة عنّا؛ لكنّ الهواء الذي كنّا نتنفَّسُه متعفِّن جرّاء تلك المأساة.

تنزّهنا لآخر مرّة في أحياء مرسيليا العتيقة التي طالما أحببناها؛ انقبض قلبي لدى سماعي أنّ هتلر أمر بقصف جزء كبير منها إثر عمليّة دُبِّرَت في ماخور

يرتادُه الجنود الألمان؛ لم تترُك قُوّات پيتان البوليسيّة سوى ساعات للسُكّان كي يُخلوا المكان؛ عشرون ألف إنسان وجدوا أنفُسهم دون مأوى؛ تمَّ إيواؤهم في مُعسكرات فريجو وكومپيانْيْ. ودُمِّرَت بيوتهم حتّى سُوِّيت بالأرض.

ما سمعناه من أخبار البي بي سي كان مُطمئناً. لقد أُعيد إلينا مُستَقبلُنا؛ ما علينا سوى القليل من الصّبر: كان لدينا فائض من الصّبر. لقد اعتدتُ خشونة العيش؛ أصبحتُ أتحمّل بقلب خفيف الصعوبات الماديّة التي ما انفكّت تتزايَدُ يوماً بعد يوم. في البداية، كان في انتظاري خبر سيّئ لدى عودَتي إلى باريس: أجَّرَتْ صاحبة الفندق غُرفَتي؛ كان من الصّعب العُثور على شقّة مُؤثّثة ومُجهَّزة بمطبخ، وأمضيتُ أيّاماً أبحثُ عن غرفة بين فنادق مونبارناس وسان-جرمان-دي-پري. انتهى بي المطافُ للعثور على ما أريد في شارع دوفين؛ غيرَ أنّه كان حيّاً عشوائيّاً وفقيراً: سرير معدني، خزانة، طاولة، كُرسِيّان خشبيّان وسط جُدران مُقَشَّرة مع إضاءة صفراء رديئة تتدلّى من السّقف؛ يصلُح المطبَخُ أيضاً حمّاماً. كان الفندق مكاناً حقيراً، ذا سُلَّم حجري مُجَمَّد تفوح منه رائحة العفونة وروائحُ أخرى لا اسمَ لها: لكن لم يكن أمامي خيار.

لأنقُل أمتعتي، أجّرتُ عربة مدفوعة باليد. لم أتهاون يوماً عن الاحترام الإنساني، لكن قبل الاحتلال لم أكن لأتخيّل ركوبي في عربة؛ قلّة، آنداك، ما زالوا يكترثون بمظهرهم أمام الناس ولم أكن من بينهم. عبر شوارِع باريس وبِمُساعدة ليز تسَكَّعتُ دون هدف حاملة كتبي وحقائبي. لا أحد بدا له المنظر شُجاعاً، وحتّى في سان-جرمان-دي-پرس لم أتضايق من لقاء أناس يعرفونني: كان الناسُ يتصرّفون وكفى. كانت إحدى مزايا تلك الفترة: كمٌّ هائلٌ من الأشياء والأعراف تبخَّرت؛ لقد أُحيلت الحاجة إلى حقيقتها الأصليّة: رائع؛ أحببتُ، أيضاً، تلك المُواساة التي فُرِضت علينا؛ لم أعرف قط طعمَ المَيْز. قلتُ لنفسي لو أنّ نظاماً اشتراكيّاً، مهما كان زاهداً، تمَّ تركيزُه على قواعِد نزيهة فسأتقلَم معه دون عناء: كنتُ سأشعُر براحة أكبر مما لو كنتُ أعيشُ وسط بيئة بورجوازيّة مُستَبِدَّة؛ تضحية واحدة كانت ستُكلِّفُني الكثير: الإحجام عن القيام بالرّحلات الطويلة التي ما انفكّت تُثري سنواتي؛ رُخَصٌ قديمة أثّثت حياتي، إنّها الوحيدة التي أفتقدُها. أمّا البقيّة فإمّا أنّي ما زلتُ أؤجّلُها أو أنّي تخلّيتُ عنها.

كان الفندُق الذي أُقيمُ فيه أكثر قذارة مما أمِلتُ. في نفس الطابق تعيشُ امرأة من بيْعِ جسدها للرجال، كان لَدَيْها طفل في الرابعة، تصفَعُه بشدّة وكان يبكي طوال الوقت، عندما يأتي الزّبون، كانت تضَعُه في الخارج. كان يبقى جالساً في السُلَّم ساعات، باكِياً بكاءً مكتوماً مُنهكاً ومُرتَعِشاً. عشتُ خلال تلك السّنة، تحتَ طابَقَين. كانت كارثة بمعنى الكلمة. مُستأجرة، امرأة شابّة، كانت تُساعِدُ المالكة على نظافة البناية؛ لا أحد يدخُل غرفتها أبداً من حيثُ تنبعثُ رائحة مُزعجة جعلت الجيران يشتكونها. مُستخدمة نسخة المفاتيح، دخلت المالكة شقّتها دون استئذان: كانت الأرضيّة مُعفَّرة بالفضلات وفي خزانة صَفّفت البراز على الرّفوف مثل كعكات حلَوانيٍّ صغيرة. أحدَثَ ذلك ضجّة. طُرِدَت المرأة فوراً. خرجت باكية تحت وابل من الشتائم.

تحدّثتُ عن الحرص الذي كنتُ أدير به مُؤني التي أجمَعُها؛ كنتُ مُشفقة وغاضبة وأنا أفتَحُ علبة مُعجّنات فألمَحُ الديدان تتحرّكُ داخِلَها: عدد كبير من التُجّار راحوا يسوِّقون بضائعهم منتَهِية الصلاحية. ذات يوم وجدتُ كيس مُعجّناتي مثقوباً: ما بقيَ أكلتُه الفئران؛ قرضتْ خشب الخزانة كي تنفذَ إلى الداخل. اقتنيتُ عُلباً معدنيّة؛ نجحتُ في إنقاذ ثرواتي؛ لكن باستمرار، خلال الليل، كنتُ أستمع إلى ضجّة معدنيّة: لقد هاجَم العَدُو. بدت باريس لُقمة في أفواه الجرذان. كان ذلك مُقلِقاً أكثر من الزيارات القذرة لنُزل لوپتي-موتون. انتهى الأمر بالحَجْرِ في غُرفَتي.

مع ذلك لم أتبيّن حجم التردّي قبل زيارة كوربو؛ جاء إلى باريس مع زوجَتِه ودعوتُهما إلى العشاء؛ أعددتُ الطعام بحرص، وضعتُ بيضَتَيْن في كعكة البطاطا، مع بضع غرامات من الزّبدة في طبق الجزر. عندما دخلا تبادلا نظرات ارتياب جعلتني أُدرِكُ فوراً الفرق بين خربتي ومنزلهما في هاڤر؛ وضعتُ على الوجبات على الطاولة التي أحضرتُها مُتضايِقَة. تحدَّثنا بعد ذلك وأقنعاني عندما فسَّرا ذهولهما.

استمررتُ في العيشِ منغلِقَة على نفسي؛ رغم أنّ «العائلة» ازدادت ثراء بعُضو جديد: بورلا، يهودي، إسباني تابع دروس سارتر ربيع 1941 في معهد باستور. كان من حين إلى آخر يأتي لرؤيته في الفلور و«دوماغو». كان والِدُه

يُدير أعمالاً ضخمة ويعتقد أنّه لا خوف عليه من الألمان لأنّه في حماية قنصل إسبانيا. ثماني عشرة سنة. وجهٌ يراهُ البعضُ دميماً وآخرون جذّاباً؛ تحت الشّعر الفاحِم، المُجَعَّد والطويل، عينان داكنتان، تتألّقان حياةً، وسحنة نعومة وشغف. كان يُعجِبُنا كثيراً. إنّه موجود في العالم بصورة مُضطربة، طفوليّة، خرقاء، ومن دون كلل. كان يقرأ سپينوزا وكانط بحماس، كان ينوي لاحقاً اجتياز شهادة التبريز في الفلسفة. ذات يوم قال له سارتر مُحدّثاً إيّاهُ عن المُستقبل: «ماذا في صورة انتصار الألمان؟ - الانتصار الألماني ليس ضمن حساباتي»، أجاب بصرامة. كان يكتُب القصائد وفكّرنا ونحنُ نقرؤها أنّه سيُصبِحُ شاعراً حقيقيّاً ذات يوم. حاول أن يُفَسِّرَ لي كم هو سهل، كم هو صعب إلقاء كلمات على ورقة بيضاء: «ما يجدُر، هو منح الثقة للفراغ.» صعقتني الوصفة. كنتُ ألقي بالاً لما يقول لأنّه لا يقول شيئاً لم يختبر صحَّتَه.

التقى بليز وتعلّق بها؛ قرّرا العيش معاً، واستَقَرّا في فندُق شارع دوفين. كانا يتشاجران طوال الوقت، غير أنّ علاقتهما كانت متينة. أثّر عليها جيّداً. لم يكن يعترف لنفسِه بأيّ حق، وكان يُعطي كلّ ما يملك: شوكولاتة، سُتراتِه، المال الذي يسلُبه من والِده، ما يُعطيه إيّاه. كان بورلا يحتفظ في دُرجه بلفافات قطع ذهبيّة ومرّتين أو ثلاثاً سرق بورلا واحدة منها: أهدى ليز إذاً وليمة مُشتريات من السوق السوداء: أكلا غلال البحر والمُثلّجات وشرائح اللحم. كان سخاؤه يُثير إعجاب ليز إلى حد جعلها تُحاول تقليدَه. كانت جميلةً رؤيتها تمشي بجانبه شقراءَ، مهيبة وطويلة هو الذي يكادُ يكون أسود وحذِراً من كلٍّ شيء. كان يجدُني عقلانيّة، لكنّه يُحبّني. طلبتْ ليز أن أزورَها. قبّلتُها ومدَّ جبهته قائلا: «وأنا؟ ألن تقبّليني؟» قبّلتُه أيضاً.

جاء الشّتاءُ قاسياً، ولم يكن النّقصُ حاصلاً في الفحم فقط، بل في الكهرباء أيضاً، لذا أُغلِقَت بعضُ محطّات المِترو؛ في السينما أُلغيَت العروض الصباحيّة؛ كان هناك انقطاعات مُتواترة، كنّا خلالها نُضيء الشّموع الصعبةَ المنال في حدّ ذاتِها. كان غير مطروح العملُ وسط الرّطوبة المُتجمِّدة بغرفتي. في الفلور، لم يكن المكانُ بارداً، مصابيحُ الأسيتيلين كانت تحلُّ محلَّ الإضاءة العاديّة عندما تنقطع الكهرباء فجأة. هكذا تعوّدنا على المكوث هناك

كامل أوقات فراغنا. لم نجد في ذلك البديل الباذخ فقط: إنّه التعلُّق بالمكان والإحساس بأمان البيت.

شتاءً، كنتُ أُجاهد كي أصل حالَماً يُفتَحُ المقهى حتّى أحتلَّ مكاناً ساخناً قرب المدفأة. أُحبُّ الأوقات التي تكون فيها الصّالة لا تزالُ فارغة، ويشرع بوبال في تحريك عالمه عاقداً منديلاً حول خصرِه. كان يسكُن فوق المقهى، شقّة يصِلُ إليها عبر سُلّم داخلي يفتَحُ على الطابق الأوّل؛ كان ينزلُ من هناك قبل الثامنة. كانت عيناهُ تُشعّان بلون الدّم وسط وجهه الصّارم: لم تكونا تعودان إلى طبيعتهما قبل ساعَتَيْن أو ثلاث. بصوت حانق، كان يُعطي الأوامر من فرجة مفتوحة قريبة من المصرف لتصعَد إليه القوارير والعُلب؛ كان يُعلق على أحداث الأمس مع النّادِلَيْن جون وباسكال: تسلّم قهوة نتنة احتساها غيرُه في جرعة واحدة دون نقاش؛ قهقه لكن بسُخط: «يُعطونَهم الروث فيزدردونَه!» كان يتصرّف ويستقبل المندوبين التجاريّين بنفس الغلظة. كانت هناك امرأة تمسَحُ الأرضيّة جاثية على رُكبَتَيْها؛ تتمتّعُ بحسّ الافتخار بعملها: «أنا، قالت يوماً لغاسل الأواني، لم أحتجْ إلى الرجال طوال حياتي: جئتُ من تلقاء نفسي.» هدأ بوبال رُوَيْداً، نزعَ مئزَرَه؛ نزلت امرأته الشّقراء، الورديّة والناعمة ووقفت خلف الصرافة. برز الزّبون الأوّل؛ نظرتْ باشتهاء إلى المكتبيّة بشارع بوناپارت، حمراء، قويّة كالفرس، تتحدّث دائماً مع شاب وسيم يطلُب الشاي والمعجون بأسعار باهظة؛ تقنَعُ الأغلبيّة مثلي بالعصير الأسود اللون. سمراء شابّة، صديقة آنيا سكاپري وصونيا اللتين اختفتا مدّة سنتَيْن، جلست يوماً أمام طاولة مُستديرة وطلبت ببساطة: «قهوة بالكريمة.» كانت حفلة ضحك، مشحونة بالتوبيخ. استغربتُ لكون هذه الكلمات الثلاث أصبحت كلمات مُسرفة في الخيال واستغربتُ أكثر كيف أثار ذلك تعَجُّبي. كنتُ أندهش سنة 1938 و1939 حين يُقال لي إنّ الألمان يحتسون الأغصان المطبوخة مُتوهّمين أنّها القهوة: يبدو أنّني أنتمي إلى فئة بعيدة جدّاً عن هؤلاء القوم الذين يجدون متعة في ابتلاع الدود الأبيض: وهأنذي اليوم مُطالَبَة بالقيام بمجهود كبير كي أتذكّر أنّني فيما مضى كان في استطاعتي احتساء كوب عصير برتقال وآكُل طبق بيض شهي.

كان بعضُ المُعتادين على المكان مثلي يجلسون إلى طاولات رُخاميّة للقراءة والعمل: تيري مولنيي، دومينيك أوري، أوليبرتي الذي كان يسكُن قُبالة المقهى في نُزل تاران، أداموف القدمان عاريتان وزرقاوَان داخِل النّعلَيْن. أحد المواظبين الكبار هو مولودجي؛ كان منذ فترة طويلة يكتُب القصائد بمزاجٍ يُشبه الذّكريات؛ أراني إيّاها وشجّعتُه؛ كنتُ في تلك الفترة أعتقد أنّه ما من شيء يستحقُّ العناء أكثر من الكتابة وكان مولودجي دون شكّ كاتباً موهوباً. شرع في كتابة ذكريات طفولته بنفَس روائي. كنتُ من حين إلى آخر أُصلِحُ له بعض أخطاء اللغة والرّسم وكنتُ أُقدّم إليه بعض النصائح لكن بحذر لأنّي أحترم السذاجة الماكرة في أسلوبه. كان بوبال يكرهه لأنّه يشغَل طاولة ساعات طويلة دون تجديد مشروبه. كان من حين إلى آخر يُؤدّي دوراً في أحد الأفلام، لكنّه كان يُوَزِّعُ أموالَه، يُعطي والِدَه وأخاه وأصدقاءه: لم يكن يملكُ فِلساً واحِداً طوال الوقت. تعرّف على لولا في مرسيليا، لولا الجميلة الحمراء، التي طالما أثارت إعجابي بشفَتَيْها الثقيلَتَيْن وعينيها التائهتَيْن؛ كان تقريباً يعيشُ معها: لم تكن هي بدَورِها غنيّة. لم يكن ينتمي إلى «العائلة» ولا تربطُنا به علاقات واضحة، لكنّه كان قريباً منّا؛ صداقة قديمة كانت تربطُه بأولغا، يتّفقُ مع واندا وكان يلتقي بليز التي صارت تجمَعُها علاقة حميمة بلولا. كلَّ يوم مع حوالَيْ العاشرة صباحاً، صحافيّان يجلسان جنباً إلى جنب على مقعد طويل في عمق الصالة يتصفّحان *الصّباح*؛ أحدُهما الأصلَع، كان يكتُب في *العمود Pilori* أمّا الآخر فيكتُب في *الباقة*. كانا يُعلّقان على الأحداث بسحنة مُحبَطَة: «ما ينبغي، قال الأصلع، هو أن يحملوهم في باخرة عملاقة، فتنشطِرُ نصفَيْن في عرض المُحيط. في القطار الذي يحمِلُ الأشياء لن نتمكّن من التخلُّص من تلك الأشواك!» أومأ الآخر برأسِه مُؤيِّداً. لم أكُن أكرهُ الاستماعَ إليهما؛ كان في وَجهَيْهما ومواقفهما شيء تافه، حتّى إنّه لوهلة، بدا لي التعاوُن، الفاشيّة وقمع اليهود مِزحَة مُوَجّهة لتسلية الحمقى. ثمَّ أتداركُ أمري بثورة: يُمكن أن يُلحِقا الضّرر. إنّهما فعلاً بصدد إلحاق الأذى بالآخرين؛ أشار زملاؤهما في *أنا في كلِّ مكان* إلى انسحاب تزارا وواندمان جورج وآخرين وطالبوا بإلقاء القبض عليهم؛ طالبوا أيضاً بترحيل الكاردينال ليبنار الذي دافع دائماً عن مواقفه المُعادِيَة للألمان. إنّها سذاجَتُهم ما يجعَلُ منهما خطيرَيْن.

لا أحد كان يُخالِطُ هذَيْن المُتعاوِنَيْن سوى رجلٍ أسمَرَ ذي شعر مُجعَّد يزعُم أنّه سكرتير لاڤال؛ كان قليل الكلام وكانت عيناهُ دائماً تهرب وبدا لنا أمراً غريباً أن تسمَحَ له مهنته بالاستمتاع ساعات طويلة بحديث المقاهي. ربّما دون أن تُظهِر شيئاً، كانت زيزي دوغوميي تنتمي إلى نفس المُعسكر؛ كانت امرأة عانساً غبيّة بشكل غريب، ترسُم منذ الصّباح وحتّى المساء سانت-تيريز-دي-ليزيو ورسوماً أخرى ترمُز إلى الطُّهر. بادرتني يوماً: كانت ناسِخة؛ سألتْ إن كان لدَيَّ عملٌ لها. جرى الحديثُ عن تعاوُن بينها وبين الغستاپو؛ كانت تصعَدُ باستمرار إلى دورة المياه وتمكُث هناك طويلاً؛ شكّ البعضُ في أنّها تكتُب تقارير لكن حول ماذا؟ حول من؟ يُفترَضُ أنّها تتجسَّسُ على المكالمات الهاتفيّة. صحيح أنّه سنة 1941 كانت لبعض الزّبائن آراء جريئة في كابينة الهاتف ما جعل بوبال يكسِرُ الزّجاج على أصحابِها: أصبح حتّى أقلُّ الناس حذَراً يقيسُ ما يتلفّظ به فمُه؛ لن تُباغِتَ زيزي اليوم ما قد يُمَثِّل وليمة بوليسيّة. ما يبدو لي وقِحاً إلى درجة لا تُصَدَّق هو إخبارُها العلني ودون أقنعة عن شخصيّات ارتَكَبَت ما يستحِقُّ عقوبة الألمان. اختفت سنة 1944 ولم يرَها أحدٌ مُجدّداً قط.

هل ثمَّة ذُباب آخر؟ تمّ عند بداية الاحتلال إيقاف اثنَيْن أو ثلاثة من أوفياء الفلور؛ من وشى بهم؟ لا أحد يعلَم. عموماً، لا أحد حاليّاً تُخامِرُه فكرة المناورة وإن كان بعضُ المُقاومين يُتابعون ارتياد المقهى، فلِيَخلُقوا منها واجهة لا غَيْر. عند الحادية عشرة صباحاً، كان پيير بينار يجلسُ في مكانه المُعتاد بين الباب والسُلَّم وكان يشرَبُ وحيداً؛ بديناً ومُختنِقاً قليلاً، ولا شيء يدُلُّ على أنّه يملك نشاطاً آخر. كان هناك أيضاً شُبّان يشرَبون، يُدخّنون، ويتغزّلون بالإناث ويتثاءبون طوال الوقت، بنوع من الوهن التي اكتَشَفتُ أنّه خدعني: لم أعرف شخصيّاتهم الحقيقيّة إلّا لاحقاً. إجمالاً، كان زبائن الفلور مُعادين للفاشيّة وللتعاوُن ولم يكونوا يُخفون ذلك. يعرِفُ المُحتلّون ذلك بطبيعة الحال، لأنّهم لا يطؤون المكان أبداً. ذات مرّة، دفع ضابطٌ شابٌّ الباب، دلف وجلس يقرأ كتاباً؛ لا أحد ضايقه، لكن لابُدّ أنّه أحسَّ بشيء ما لأنّه سُرعان ما أغلق كتابَه ودفع حسابَه وانصرف.

تمتلئ الصّالة رُوَيْداً؛ ساعة الغداء تكون ملآنة. كان بيكاسو يبتسم لدورا التي كانت تُمسِكُ كلباً ضخماً؛ ليون ڥول فارج صامت، جاك پريڤير يتحدّث؛ كانت الحوارات مُحتَدِمة في طاولات السينمائيّين الذين، منذُ 1939، أصبحوا يلتقون هنا كلّ يوم. التَحَقَ سادة مُسِنّون آخرون من سُكان الحيّ اللاتيني بحفلة الصّخب. أذكُر أحدهم، كان يُعاني من الپروستاتا: آلة تُوَرِّمُ جانباً من بنطلونه. آخر كان يُسمّى الماركي أو الديغولي، كان يلعَبُ الدومينو مع صديقَتَيْن شابَّتَيْن وكان يُنفِقُ عليهما بسخاء كما يُقال؛ مُقَوَّساً وبرأس مُتدلٍّ وفكٍّ مُتهدّل، كان يهمِسُ لجون وپاسكال بالأخبار التي سمِعها للتوّ من البي بي سي. والتي كانت سُرعان ما تتفشّى من طاولة إلى أخرى. مع ذلك، ظلَّ الصحافيّان يُواصِلان الحُلم بصوت مُرتفع، حُلُمَ إبادة اليهود. كنتُ أعود إلى فُندُقي للغداء، وعندما لا أذهبُ إلى المعهد، فإنّي أتّخذُ مكاني في الفلور. أُغادِرُه للعشاء ومن جديد، لا أبرَحُه سوى عند ساعة الإغلاق.

كان لديْنا دائماً صدمة سرور، كلّ مساء، ونحنُ نغوص في الظّلمات الباردة وسط هذا الفضاء الدافئ المُضاء، المكسُوّ بألوان حمراء وزرقاء جميلة. تكون «العائلة» بأسرِها أحياناً في الفلور، لكن مُشَتَّتَة وفقاً لمبادئنا في كامل أرجاء الصالة. مثلاً، يتحدَّثُ سارتر مع واندا في طاولة، ليز في طاولة أخرى مع بورلا، أنا أُجاوِرُ أولغا. مع ذلك، كنّا الوحيدَيْن أنا وسارتر للجُلوس على هذه المقاعِد كلَّ مساء. «عندما يموتان، يجبُ أن نحفِرَ لهما خندَقا تحت هذه الأرضيّة»، كان بورلا يقول بنوع من الضيق.

ذات مساء، وصلنا إلى الفلور، ورأينا وميضاً، وسمعنا صوت انفجار مُدَوٍّ؛ ارتَجَّ الزّجاج وصاحَ الناس: انفَجَرَت قُنبُلة في نُزل كان قد تحوّل إلى إقامة للجنود الألمان، أعلى شارع سان–بينوا. حدثت فوضى عارمة في كل المقاهي: كان ذلك استثنائيّاً: ثمّة عمليّة في الجِوار.

مساءً، بعد الظهيرة، كانت صفّارات الإنذار تُوَلوِلُ أحياناً. يُسارعُ پولار إلى طرد الزّبائن ثمَّ يُقفل الأبواب؛ كان يمنَحُني أنا وسارتر واثنَيْن أو ثلاثة آخرين امتيازاً خاصّاً. نصعَدُ إلى الطابق العُلوي ونلبَثُ هناك حتّى انتهاء الاستنفار. كي نتجنّب هذا الإزعاج ولكي ننجُوَ من الهمس في الأرضيّة، اعتدتُ بعد

الظهيرة أن أصعد مُباشرة إلى الطابق العُلوي؛ كُتّابٌ آخرون قاموا بما أقوم به لنفس الأسباب دون شكّ؛ تسير الأقلامُ فوق الأوراق: بدا كأنّنا في قاعة علم يُخيّمُ عليها الانضباط. بفُضول حميد، طبعاً، عكس ما دأبت عليه زيزي دوغومبي، كنتُ أصيخُ السمع بانتباه إلى المُكالمات الهاتفيّة. حضرتُ يوماً حادثة قطيعة، أدّتها ممَثّلة مُحترفة وبشعة وناضجة. كانت تُناوِب، دون جدوى واضحة بين التكبُّر والقلق والشفقة والسخرية وارتجاف النبرة. مُوازنة بين كلِّ ذلك وكُتَل الشتائم: أكادُ أسمَعُ صمتَ الرجل المنتظر حتّى تقفل الخط من الجانب الآخر. نعرفُ أشياء كثيرة بعضنا عن بعض بفضل رؤية بعضنا بعضاً يوميّاً، حتّى لو لم نكن نتخاطَب. نحنُ مُرتبطون بطريقة أو بأخرى؛ لا نتبادَلُ التحية عادة؛ حتّى لو التقى وفيّان للفلور في مقهى دوماغو، عندها ابتسامة، أو إيماءة من الرأس تكفي للتعبير عن التواطؤ. نادراً ما يحدُث هذا: ثمّة حاجز منيع بين المُؤسّسَتَيْن. زبون، ذكراً كان أم أنثى، حين يخون طرفَهُ الآخر فإنّه يختبئ في دوماغو: على الأقل هذا ما تُخبر به الأسطورة.

رغم المنع والتهديد فقد كنّا نجد في الفلور هدوء سنوات السِّلم؛ لكنَّ الحرب دخلت عاداتنا. قيل لنا يوماً إنّ صوفيا قد أُلقِيَ القبض عليها؛ راحت ضحيّة غيرة امرأة على ما يبدو؛ على أيِّ حال ثمّة من وشى بها؛ طلَبَتْ سُترة وجوارب حريريّة من درانسي: ثمَّ لم تعد تطلب شيئاً مُطلَقاً. اختفت التشيكيّة التي كانت تعيشُ مع جوزيون، وبعد أيّام كانت بيلا تضطجِعُ بين ذِراعَيْ الشاب الذي تُحبُّه عندما طرق الغستاپو بابهما وأخذوها؛ إحدى الصديقات كانت تعيشُ مع ابن عائلة يُريد الزواج بها: أخبر عنها والِدَ زوج المُستقبل. كانت أخبارُنا عن المُعسكَرات شحيحة، لكنّ الصمت الذي لفَّ تلك الشابات الجميلات والمرِحات كان صمتاً مُرعباً للغاية. تابع جوزيون وأصدقاؤه المجيء إلى الفلور والجلوس إلى نفس الطاولة؛ كانوا يتحدّثون فيما بينهم بحماس مسعور أحياناً: ليس ثمّة ما يُشيرُ إلى الهُوَّة السحيقة التي حُفِرت بينهم. هذا ما كنتُ أراهُ غير مُحتَمَل في الغياب الصامت: أن تُصبِحَ لا شيء. مع ذلك فإنّ صُوَر بيلا والتشيكيّة الشقراء لم تُمحَ من ذاكرتي: إنّها تعني الآلاف.

لاح الأمل، لكنّي أعرفُ تماماً أنّ براءة الماضي المُضلِّلة لن تعود.

في پواز، خلال عطلة عيد الميلاد، كنّا نستمع كلَّ يوم إلى إذاعة البي بي سي. إلى أخبار معارك ستالينغراد: يُحاوِلُ جيشُ ڤون پولوس، المُحاصَر فكَّ الحِصار. يوم 4 فيفري قرأنا في الجرائد: «انتهت المُقاومة البطوليّة في ستالينغراد» لم يُخفوا أنّه في كامل ألمانيا، كانت هناك أيّامُ حداد وطنيّة.

تغيَّرت نبرة الصحافة، الراديو، وحتّى خطابات هتلر. لم يعُد ثمّة حديث عن «قِيام أوروبا»؛ أصبحت هناك توصياتٌ بإنقاذِها؛ استُحضِرَت المهالكُ البولشيفيّة والكوارِثُ التي ضربت العالم «لو هُزِمت ألمانيا». بدت الفرضيّة مُدَنَّسَة قبل سنة: عادت تحت كلِّ الأقلام الآن. أعلن هتلر عن تعبئة عامّة في الجبهات وفي الحقول والمصانع الألمانية: أراد مَدَّها حتّى الأراضي المُحتَلَّة. سنَّ لاڤال قانوناً يوم 16 فيفري يقضي بأداء سنَتَيْن من الخدمة الإجباريّة بين صفوف شُبّان الفئة العُمُريّة 1940–1941–1942. لافتات تُحفِّزُهم: «إنّهم يُقدّمون دماءهم. قدّموا العمل لإنقاذ أوروبا من البولشيفيّة.» عدد كبير لم يستَجِب؛ دلّسوا أوراق ثبوتيّتهم واختبؤوا أو التحقوا بالمُقاتلين المُتمرّدين الذين تزايد عددهم بشكل مُهمّ (ساهم الجيشُ المُنشَقّ كثيراً في هذا التزايد).

الخبرُ الغريب الذي نشرتْه الصحافة السويسريّة والإنجليزيّة: «عِصيانُ الجيش في ساڤوا العُليا» كان خبراً مُبالَغاً فيه. إنّما في الواقِع، تشكَّلَت جيوشٌ في مركز ساڤوا وتجهّزوا للتمرّد المُسَلَّح. نادى دِيا في صحيفة العمل «ڤوندي أوروبا»[41] لأنّه مثلما رفضت ڤوندي فيما مضى المُشاركة في الثورة الفرنسيّة فإنّ فرنسا اليوم تتصدّى للـ«ثورة الأوروبيّة». تنظّمت المُقاومة الفكريّة. بداية سنة 1943 اقترح مُثَقَّفون شيوعيّون على سارتر الانضمام إلى الرابطة الوطنية للكُتّاب .C.N.E سألهم إن كانوا يُريدون إضافة خروف آخر إلى صفوفهم، لكنّهم صرّحوا عن جهلهم التام بما كانوا قد أعلنوا عنه في شأنه سنة 1941. شارك، إذاً، في الاجتماع الذي ترأَسَه إلوار وساهَم في *الآداب الفرنسيّة*. لم يكن لديَّ في ذلك الوقت أيّ كتاب منشور ولم أُرافِقه. تحسَّرتُ على ذلك قليلاً، ووددتُ التعرّف على أناسٍ جُدد: حدّثني عنهم سارتر بدِقَّة حتّى انطبع

41- ڤوندي أوروبا: مُقاطعة فرنسيّة أبت المُشاركة في الثورة الفرنسيّة، لم تؤمن بها ولم تُؤيِّدها.

لديَّ أنّي أعرفُهم؛ لم أعُد أغبطُه. شُغفتُ بـ «اشتراكيّة وحرّية» لأنّ الوضع كان يُشبِه ارتجالاً عشوائيّاً؛ لكن حسب روايات سارتر، فإنّ جلسات المركزيّة C.N.E كان فيها شيء ما روتيني ورسمي لا يُغريني بحضورها. أقلَقُ كلّما ذهب إليها، وأقلقُ أكثر أثناء وقت غيابِه؛ لكنّي سعيدة على أيّ حال لأنّنا فرَّجنا عن عُزلَتنا، لشدّة ما أحسستُ دائماً بثقل السلبيّة على كاهل سارتر.

كان كلّ الذين نُخالطُهم مُنحازين إلى مواقفنا. مع ذلك عاتبتنا ماري جيرار ذات يوم لأنّنا لا نرى أبعَد من أنوفنا: «ستكون هزيمة ألمانيا انتصاراً للإمبرياليّة الأنجلو-أمريكيّة»، قالت. كانت تقريباً تعكِسُ آراء الأغلبيّة التروتسكيّة المُفكِّرَة، الذين كانوا على نفس القدر من المسافة الفاصلة بين المُتعاونين وبين المُقاومين؛ إنّهم في الواقع يخشَوْنَ الهيمنة الأمريكيّة أكثر من الطُّغيان والتجبُّر الستاليني. نعتقِدُ أنّه في كلّ الحالات أنهم يجهلون سُلَّم السلطات والقضايا المُستعجلة: ينبغي أوّلاً أن تتطهّر أوروبا من الفاشية. لم نعد نشُكُّ الآن في أنّها ستُسحَقُ في المُستقبل القريب. قصفَت القوّات الملكيّة الجوّية المنشآت الصناعيّة والموانئ، دُمِّرت ريناني، روهر، همبورغ وبرلين. يوم 14 ماي خسِر المِحوَرُ معركة تونس، شيَّد الألمان بحميّة جدار الأطلسي: اعتُبِرَ الإنزالُ وشيكاً لدى المُعَسْكَرَيْن.

انتعش الأدب. أصدر كوينو *پييرو صديقي* الذي بدت لي طرافتُه مدروسة للغاية. في كتاب *أميناداب Aminadab* لبلانشو، لامَسَت بعضُ المقاطِع أعماقي لأنّها أجابت عن انشغالات آنيّة – ذاك المقطع الذي تحدّث فيه عن الجلاّد رغم أنفه: عموماً بدت لي رواية بلانشو مُعارضة لأدب كافكا. باشلار في كتاب *الماء والأحلام* طبّق على التخيُّل طريقة قريبة من التحليل النفسي الوجودي: لا أحد تجرّأ على التطرُّق إلى هذا النوع من الاستكشافات. كان كتاباً مُهمّاً جدّاً بالنسبة إلينا. حدثت ضجّة كبيرة حول آخر كُتُب سان-إيغزوپيري *طيّار حرب*، حيثُ وصف ببراعة كبيرة تجربته في الطّيران الفرنسي إبّان الهزيمة؛ لكنّه ألصق إلى الرواية كلاماً مُمِلاً وطويلاً جدّاً، بنَفَسٍ إنساني ملائم كي يُصفِّق النُقاد للكتاب في پاري-ميدي وفي صحيفة *اليوم والأزمنة الجديدة* وحتّى من قِبَل ماكسانس Maxence. وحدَها *أنا في كلّ مكان* هاجمته بشراسة.

استفاقت السينما الفرنسيّة؛ ظهر مُخرجون جدد. قدّم ديلانوي فِلمَ *ماكاو*، جحيم *اللعبة*، بيكير غوبي *اليد الحمراء*؛ كلوز *القاتل يسكُن 21*؛ داكان *مُسافر توسان* حيثُ نُشاهِدُ مدّة دقائق سيمون سينيوري: تساءلنا لِمَ لمْ تحظ فتاة في مثل جمالِها بدَورٍ مُهم. الفِيلمُ اللافتُ حقاً هو *الليلة الغريبة* الذي صوّرَه هيربيار بسيناريو لشاڤانس والذي حيّر جمهوراً عريضاً. كان ريمو جيّداً في *مجهولو البيت* لكنّ السيناريو أحال على العُنصُريّة بشكل مُزعِج؛ القاتل الذي جسّده مولودجي لم يُشَر إليه علناً على أنه يهودي بل بالتّلميح. في *زائرو المساء* الذي صوّرَه كارني بسيناريو لجاك پريڤير كان هناك أكل وشُرب: صُوَرٌ جميلة وأدب وافر. لم يكن القصرُ يبدو حقيقياً مُشيَّداً حديثاً، بل كحلوى إنجليزيّة: لقد أفسد المنظر. أفضَّلُ من بعيد *أنوار الصّيف* لپريڤير الذي تعاون فيه مع غريميون.

وفي دولان بوَعدِه؛ في الرّبيع أعَدَّ العُدَّة للـ*ذباب* مُعوِّلا في الأداء على أولغا وأولغا الأخرى. سحرني هذا النصُّ الذي أعرفُه عن ظهر قلب، وأنا أراهُ يتجسَّدُ مُتحَوِّلا إلى عرض: انتابتني الرغبة في كتابة مسرحيّة، أنا أيضاً. إلّا أنّ الأشياء لا تجري من تلقاء نفسِها. حدثت فوضى كبيرة قبل أن يُنجِزَ الديكور والأزياء. تحتَلُّ تماثيل جوبيتير وأپولون مكانة كبيرة في الأحداث وقرّر دولان اللجوء إلى خدمات نحّات؛ اختار آدم الهادئ الودود؛ كان لزوجته شعرٌ طويل كثيف ومُجعَّد يلتهم وجهها وجسداً ريّاناً، كانت ترفُل به في فساتين سوداء مُزخرفة بجواهر مُرَصَّعة. كان بيتهما بشارع كريستين، من نوع مُختلف تماماً، جذّاباً كشقّة كامي؛ في صالة الأكل ذات السّقف الأحمر وذات الستائر الباذخة، كان هناك طاولة طويلة ومقاعِد من الخشب الثقيل، مزهريّات نُحاسيّة، أوان خزفيّة مليئة بخضر شمعيّة؛ عناقيد بصل، سنابل ذُرة تتدلّى من دعامات السّقف قريباً من مدفأة ذات موقِد عميق. أطلعنا آدم على ورشته، مطبعة يدويّة عتيقة وكمّ من الأدوات الدقيقة والمُعقَّدة التي كان بواسِطتها ينحَتُ ويحفر في الصّخر. كان هناك أجسامٌ حجريّة ترقُد على الأرض. ابتكر ديكوراً من أجل *الذّباب*، أقنعة، وتماثيل ذات طابع مُتَجهِّم.

كانت اللوحاتُ مُهمّة جدّاً: نساء، أطفال، أناس سيّئون، شعب كامل يجب تحريكه فوق الركح الفسيح لمسرح سارا–برنهارد؛ وجدَ دولان نفسَه أقل

راحة من ورشته المُخصَّصة للتمارين. المُمَثِّل الذي سيُجسِّد أوريست تعوزه الخبرة؛ أولغا أيضاً. دور إلكترا ساحق؛ أدَّته بحرص، لكن لا هي ولا شريكُها تخطّيا العتبة. انتابت دولان نوبات غضب رهيبة: «هذه كوميديا سخيفة!» قال بصوتٍ جاف. بكت أولغا من شدّة الانفعال. هدأ ثمَّ انفَجَر من جديد فتعنّتت: دخل كلاهُما قلباً وروحاً في شجارات كانت في الآن نفسِه مُشاحنات عائليّة وخلافات غراميّة. حضرت رفيقات المدرسة هذه المُصارعة على أمل أن تنهار أولغا. خاب أملُهُنَّ. موهبة أولغا، شُغلُ دولان، انتصرتْ مثابرتهما المُشتركة: خلال التمارين الأخيرة جسّدت دورَها كمُمَثِّلة مُحترفة؛ ملأت الفضاء بمُفرَدِها على الرّكح.

عُرِضت المسرحيّة الافتتاحيّة ذات ظهيرة: عند المساء، يُخشى أن تُمَزِّقَها انقطاعات الكهرباء المُتواترة. كان سارتر في الرّدهة قريباً من التحكُّم، تقدّم منه شاب أسمر: ألبير كامو. كم شعُرتُ بالتأثّر عندما رُفِع السّتار. يستحيلُ الحيادُ عن معنى المسرحيّة؛ انفجرت كلمة حرّية من فم أريست خاطفة مُشتعلة. لم يتلقَّ النُقّادُ الألمان المسرحيّة بحِقد، لكنَّهم تعاملوا معها بصورة لا طعمَ لها عموماً. وأقرب إلى الإعجاب. في *الآداب الفرنسيّة* السرِّيَّة، أثنى ميشال لايريس على *الذّباب* واستخرج الدلالات السياسيّة للمسرحيّة. تخاذل أغلبُ النُقّاد عن التلميح إليها؛ كان تعريجاً مُقتَضباً تحت حُجج أدبيّة بحتة: إنّها مُستَلهَمَة من زمن مسرح جيرودو، إنّها حفلة أفعال مُعَقَّدة ومُمِلَّة. أشادوا بموهبة أولغا: كان نجاحاً باهراً بالنّسبة إليها. في المُقابل هاجموا الإخراج والديكور والأزيـاء. لم يتوافَد الجُمهور. كنّا في شهر جوان وكان على المسارح إغلاق أبوابها. استأنف دولان عرض *الذّباب* في أكتوبر مُناوبة مع عروض أخرى.

أصبح التدريسُ يُضجِرني عكس السّنوات الماضية. أعددتُ طُلابي في معهد كاميي-سي لاجتياز المناظرة بساڤر؛ سمح لي ذلك بمعالجة بعض المواضيع بشكل عميق. لكن بالنسبة إلى الفتيات الكبيرات فلم تكن الفلسفة مناسبة يَقَظَة؛ كان عليَّ تخليصهم من بعض الأفكار التي طالما اعتبَرتُها خاطئة.

ثمَّ إنّ برنامجهنَّ كان مشحوناً إلى درجة أنّهن لا يمتلكن وقتاً لإضاعته. عليَّ سلك الطريق الأقصى. تُثقِلُ هذه الجدّية كاهلي. كانت الدّراسَة أمراً مُربكاً لحياتِهنّ برُمَّتِها: أمّهاتهنّ في حاجة إليهنّ لمُجابهة الإكراهات المادية، خصوصاً في ظلّ عائلة عديدة الأنفار. كانت تلميذاتي يمرَضن بسهولة بسبب سوء التغذية؛ أُصيبتْ أفضَلُ تلميذاتي بالتهاب الفقرات. لم تكن تبتسم قط؛ وافتقرت حواراتنا للحماس. أخيراً، أمضيتُ في التعليم اثنَيْ عشر سنة وبدأتُ أتعب.

مع ذلك لستُ أنا من قرّر مُغادَرتي الجامعة. حاولت أمُّ ليز الغاضبة لأنّ ابنتها فوَّتَت فرصة نفيسة واختارت العيش مع بورلا، استمالتني لإقناع ليز بالعودة إلى حُبِّها الأوّل؛ عندما رفضتُ اتهمتني بتحويل وجهة قاصر. قبل الحرب، لم يكن ليعقُب التهمة أيُّ حدث؛ بدفْعٍ من آبيل بونار سارت الأمور على نحوٍ مُخالف؛ عند نهاية السنة المدرسيّة أخبرتني المُديرة ذاتُ الذقن الأزرق أنّي مطرودة من الجامعة (أُعيدَ إدماجي مع الاستقلال، لكنّي لم أعُد إلى التدريس).

لم أغضب لأنّي قطعتُ مع روتين قديم. المُشكلة الوحيدة هي كسبُ العيش. لا أدري بأيّ واسِطة حظيتُ بمركز «مُنشِّطة إذاعيّة» بالراديو الوطني؛ قلتُ إنّه حسب قانوننا يحِقُّ لنا العمل في الإذاعة: الأمر مُرتَبِط فقط باستعدادنا للعمل. اقترحتُ برنامجاً غير منحاز: إعادة تأليفيّة شفويّة، مُغنّاة لحفلات قديمة من العصور الوُسطى حتّى وقتنا هذا. تمَّ قبوله.

انتهيتُ من *الضّيفة* صيف 1941؛ لكن منذ شهر جانفي من تلك السنة، بدت لي تلك الرواية قطعَةً من الماضي. كنتُ مُتَشَوِّقَة للحديث عن مواضيع الساعة التي تشغَلُني. الأهمّ هي علاقاتي بالآخرين؛ غير أنّي فهمتُ المُعضلة أفضل من الماضي. بطلي الجديد جون بلومار لا يطلُب مثل فرنسواز أن يحتَلَّ صدارة المواضيع في مُواجَهة الآخرين؛ رفض أن يكون شيئاً حاضراً في حياتِهم بقتامة؛ همُّه تجاوُز الكارثة بإقامة علاقات شفّافة وحُرّة.

انطلقتُ من طفولتِه. إنه ابن لأحد الأثرياء من أصحاب المطابع، كان يعيشُ في منزل استوحَيتُه من بيت ليغييون. ثار ضدَّ ما يُمَيِّزه على الآخرين؛

اشتغل عاملاً لدى مُنافس لوالِدِه: هكذا ألغى انعدام العدالة الناجم عن الصّدفة واعتقد أنه بذلك صار بوسعِه التقاطُع مع اختياراته الخاصّة. سُرعان ما فقد هذا الوهم؛ لقِيَ أعزُّ أصدقائه مصرَعَه أثناء نزاع سياسي هو الذي زجّه بداخله: فاقت مسؤوليّته إرادته بكثير. لجأ إذاً، إلى الامتناع عن التّصويت: الحياد السياسي، رفض الالتزام العاطفي. لكنَّ هروبه وصمتَه كان لهما وقع أخطر من الكلام: اقتنع بذلك عبر قصّة جماعيّة وتجربة خاصّة. قاوَم. لم يشعُر بالذّنب لكنَّه لم يُقرّر التحرُّك لأنّ كلَّ تحرُّك هو اختيار وكلّ اختيار كان يبدو له اعتباطيّاً؛ ليس الناس أرقاماً للجمع والطّرح والضّرب؛ إنّهم لا ينضوون تحت أيِّ مُعادَلة رياضيّة لأنّ وجودَهم لا يُمكن قَيْسُه؛ التّضحيةُ بواحد لإنقاذ عشرة هو الموافقة على العبث. أخيراً، حاصرتْهُ الهزيمة وقادَه الاحتلال إلى اتّخاذ قرار: بعيداً عن كلِّ التحاليل والحِسابات، اكتَشَف في نفسِه الرّفضَ والواجِبات الحتميّة.

صرف النّظر عن فكِّ العُقَدِ المُستعصية: حسمَ أمرَه. بعد سنوات من السلام قبِلَ بفكرة العنف؛ نظّم عمليّات رغم الانتقام. لم يمنَحْهُ هذا الالتزامُ السّلام؛ لكنَّه لم يسعَ إليه: وقرّر العيْشَ في القلق (صعقتني فكرة كيركيغارد: إنسان ذو أخلاق أصيلة لا يعرِفُ كيف يكون ذا ضمير؛ إنّه لا ينخرط في لعبة الحُرّية إلّا بـ«الخوف والارتعاش») مع ذلك، فإنّ المرأة التي أُحبّها والتي ماتت بجانبه بسببه، قد حرّرتْهُ من تأنيب الضّمير: في مصائر الآخرين، لستَ سوى أداة، كانت تقول لي؛ لا شيء من الخارج قد تعدّى على الحرّية؛ أنا من أراد موتَها، استخلَص بلومار أخيراً أنّ لكلِّ منّا الحقّ في أن يسلُك طريقَه إن كان يسير خلف أهداف نبيلة.

تحتَلُّ قصّة هذه المُحتضرة، إيلين، حيّزاً مُهمّاً في الرواية. خلال شبابِها مثّلت نقيض بلومار؛ ظنّت أنّها مُنفصلة عن المجموعة جذرِيّاً؛ لم تكن مهمومة سوى بخلاصِها الشخصي. ما تعلَّمَتْهُ خلال مرحلة تطوُّرها هو التضامُن.

ارتكبتُ نفسَ خطأ بداية رواية *الضيفة*، حيثُ وجدتُ نفسي مُضطَرّة إلى استحضار طفولة إيلين؛ استَوحَيتُها من طفولتي الخاصّة. ثمّ قرّرتُ ألّا أُلمّحَ إلى هذا الماضي سوى من خلال إشارات مُقتَضبة. كان عُمُرها في بداية الرواية، ثماني عشرة سنة؛ حاولت تعويض غياب الربّ بمزيد من الاهتمام

بنفسِها: لم تُفلِح؛ وحيدَة، دون شاهد على وُجودِها، بدت لها حياتُها شجرة لا ثمارَ لها؛ لم يُنقذها حبّ رفيق رائع لكن لا هيبَة له من جمودِها. أثار إعجابَها بلومار عندما التَقيا، بسبب القُوّة والمبادئ التي رأتها فيه؛ استجدَت الحُبَّ الذي منحَتْهُ إيّاه؛ لكنّه كان دائماً يتهرّب. بائسة، وغاضبة، أصبَحتْ لا مُبالية بالعالم وبحياتِها؛ الهزيمة والاحتلال، زعمت أنّها تأمّلتهُما من خلال حيادِ التاريخ. الصّداقَةُ والقرف والغضب ساقتها نحوَ هذه الحكمة المُزَيَّفة. وجدتِ العرفانَ في سخاء الرّفقة والنضال - بالمعنى الهيغلي للّفظ - الذي سيُنقِذُ الناس من حياة الطّوارئ. ماتت مُدافِعة عن ذلك؛ لكن عند النقطة التي وصلت إليها؛ لم يعُد الموت قادِراً على إلحاق الأذى بها.

أوليتُ عناية كبيرة لشخصيّة ثالثة، استوحَيتُها من جياكوميتي ومن وصفه لـ «دوشون»: رسّاماً ونحّاتاً، كان مارسيل ماضياً في بحوثه الجماليّة التي كانت نظير بحوث بلومار الأخلاقيّة؛ أراد الوصول إلى ذُروَة الخلق. كانت فيما مضى ميلاً للوحات والتماثيل التي بدت هاربة من الهيمنة البشريّة؛ أراد مارسيل لأعماله أن تصل إلى مجدها بمعزل عن أنظار البقيّة؛ هنا، يتقاطعُ مع إيلين التي اعتقدت فترة أنّها قادرة على الوصول إلى السعادة من دون تواطؤ خارجي. فشل هو أيضاً. وراح ضحيّة هوَسٍ راسِخ. ثمَّ انخرط في الحرب وسُجِن. في ستالاغ، كتب مسرحيّة جسَّدَها رفاقُه، تعلّم حرارة الصّداقة، تغيّرت نظرَتُه إلى الناس والفن، رضخ لكون الخلق يحتاجُ إلى مُشاركة الآخرين.

منحتُ مارسيل زوجة، دِنيز؛ سُرعان ما أبعدتُها. كانت الوحيدة بين أصدقائه التي راهنت على القِيَم الراقية. قادَتْها العداوَةُ التي خلّفتها لدى مارسيل إلى الجنون؛ كانت تجربتي ضعيفة آنذاك، لكنّني حدستُ الخطر الذي يُهدّد امرأة سيّئة لو ارتبطت بمُبدِع نذر حياته للخلق (تناولت هذه النقطة بإسهاب في *المثقّفون*). منعها بنوع من الضّغينة من إرضاء رغباتها الآنية التي كانت تكفي لإرضاء أغلب الناس؛ لم يَمنَحْها وسائلَ الوصولِ إلى إمبراطوريته؛ مطرودَة، مُحبَطة، ذليلة، منتفخة القلب حقداً، غرقت في مُتناقضات لنِ تُساهم سوى في ضياعِها.

لم أشأ أن تُشبِه هذه الرواية سابِقَتَها. غيّرتُ منهجيّتي. تبنّيتُ وجهتَيْ نظر، رأي إيلين، ورأي بلومار اللذين تناوبا من فصل إلى آخر.

كتبتُ قصّة إيلين البطلة بضمير الغائب مُتَّبِعَة نفس القواعِد في *الضيفة*. لكنّي غيَّرتُ النمط بالنّسبة إلى جون بلومار. وضعتُه بالقُرب من سرير إيلين المُحتضرة وراحَ يتذكَّرُ حياتَه؛ تحدّث عن نفسِه، بضمير المُتكلِّم وهو يستحضر الماضي بفخر، وبضمير الغائب وهو يصِفُ من بعيد صورته لدى الآخرين: كانَ في استطاعَتي تتَبُّع خيط ماضيه بحُرّية أكبر من *الضيفة*: تباطأتُ في العودَة إلى الخلف وتسرّعتُ في بناء نسق القصّة، استخدمتُ الاختصار والتضمين والتدوير؛ خصّصتُ حيّزاً ضئيلاً للحوارات. احترمتُ التتابُع الزمني؛ لكن أحياناً كانت الأحداث الراهنة تمنعُ من استدعاء الأيّام الماضية؛ شبكتُ بينها باستخدام الخطّ المائل، الأفكار والأحاسيس التي كانت تُخالِجُ بلومار ليلاً. كي أتجنّب الإزعاج الناجم عن الاجترار ابتكرتُ *التّشويق*: هل سيُعطي بلومار أمر القيام بالعمليّة فجراً، أم لا؟ اجتَمَعت كلُّ أبعاد الوقت في تلك اللّيلة الجنائزيّة: عاشها البطلُ في الحاضر، متسائلاً من خلال ماضيه عن قرار سيُلزِمُه في المُستقبل. هذا البناءُ ملائم للموضوع. أردتُ تسليط الضوء على اللعنة الأصليّة التي تُلاحِقُ كلَّ فرد بسبب ضرورة تعايُشِه مع الآخرين. كانت الأحداثُ لا تهم بلومار كثيراً بقدر ما تشغلُه القيمة التي ما انفكّوا جميعاً يُلاحقونها دون هوادَة؛ جيّد إذاً، أن يختزل اليومُ الأمسَ والغد.

هكذا، صمّمتُ روايتي الثانية على قاعدة فنّية أكثر عُمقاً من الأولى؛ إنّها تُعَبِّرُ عن رؤية أبعد وأكثر واقعيّة عن العلاقات الإنسانيّة. مع ذلك - رغم الاستقبال الحار الذي حظِيَت به سنة 1945 - فإنّ الرأي العام، آراء الناس التي أحترم ذوقَها، نظرتي الخاصّة، جميعُها أكَّدت لي أنّها أدنى قيمة من *الضيفة*. لماذا؟

فسَّر بلانشو في مُؤلَّفه «رواية الأطروحة» بشكل صائب أنّه من الغريب مُؤاخذة عمل أدبي كونَه يُلَمِّح إلى قضيّة ما؛ لكن ثمّة فرق كبير، أضاف، بين صُنع المقاصِد والبرهنة؛ الواقِع غنيٌّ دائماً بالدلالات وإن كانت حتّى لا تَدُلُّ على شيء؛ دورُ الكاتب هو أن يجعَل دلالات الواقع تُرى، بواسطة إعادة خلقه بالكلمات: إنّه يخونُه ويُفقره، إن لم يحترم جانبه الغامض والمُشَوَّش. لم يكن بلانشو يُصنّفُ *الضيفة* ضمن روايات الأطروحة، لأنّ النهاية مفتوحة؛ إنّها

لا تُلَقِّن الدروس؛ على العكس إنّه يُصنّف تحت هذا المُسَمّى *دماء الآخرين* التي تفضي إلى خلاصة قاطعة، مُتشبّعة سواء على صعيد الأفكار أو الحكمة. أوافقه الرأي. لكن العيب الذي يُشير إليه لا ينسحب فقط على الصفحات الأخيرة للرواية: إنّها متأصّلة من الطرف إلى الطرف.

ما يصدمني اليوم، وأنا أُعيدُ قراءتها، كم أنّ شخصيّاتي يعوزُها العُمق. لقد عرَّفْتُهم من خلال مواقف أخلاقيّة لم أُكلِّف نفسي عناء البحث في جذورها. نسبتُ لبلومار بعض أحاسيس الطفولة: هذا لا يُبرّر شعورَه بالذّنب مدى الحياة. أدركتُ ذلك مُبكّراً فافترضتُ أنّه تسبّب عن غير قصد في موت أفضل أصدقائه: لكنّ الحوادث لا تُقرّرُ البتّة مسار حياة بأكمله؛ بالتالي فإنّ بلومار متطابق بصورة دقيقة جدّاً مع ما نسبتُه إليه. لم أكن أعرفُ شيئاً عن النزاعات النقابيّة. العالم الذي قذفتُ به فيه، لا يملِكُ التعقيد الذي يتّسِمُ به عالم مناضل حقيقي. الشخصيّة والتجربة اللتان وهبته إياهما هما مُجرّد تعليمات نظريّة، تفتقر إلى الحقيقة. إيلين تجري في عروقها الدماء لأنّي نفختُ فيها من روحي. كانت الفصول التي كُتِبَت عنها هي أقلّ سوءاً في نظري من البقيّة. بالنّسبة إلى الهجرة الجماعيّة من باريس فقد غلّبتُ الحكاية على النظريّة. أجملُ المقاطع حسب رأيي هي تلك التي صرفتُ فيها النظر عن عنادها؛ هجرتُ الرموز العبثيّة، السراب والعواطف المُزَيَّفة التي طالما تعلّقتُ بها وانتهى بها المطافُ إلى التحرّر من السعادة نفسِها: في هذه المناطق السرديّة، أظهَرتُ حقيقتها دون برهنة. بقِيَ أنّ صورتها التي رسمتُها لها نمطيّة وهشّة. أمّا مارسيل فقد شوهِد دائماً من الخارج من خلال أصدقاء طالما أثار دهشَتَهم: كنتُ إذاً، مُخوَّلَة لوسمِه مُتَّخِذَة منه مسافة؛ أوجدتُ له ملامِح لافتة أكثر من بقيّة الشخصيّات. ندمتُ على التناظُر المُنسّق بين همومه وهموم بلومار. هذه بعضُ المؤاخذات التي سجّلتُها على الرواية: التصميم مُكثّف والمادة فقيرة؛ كلُّ شيء يلتقي بدَل أن يتشتّت في كلِّ مكان كما يحدُث في الحقيقة. حتّى الأصوات التي منحتُها لأبطالي – صوتُ بلومار خصوصاً – فإنّها تُزعِجني؛ مُتوتِّرة، متَعَجِّلة ومشحونة بالمعنى. من جديد، ألامِسُ الآن مسألة المصداقيّة الأدبيّة؛ أردتُ وظننتُني قادرة على الكلام مُباشرة مع الجُمهور، فيما ركّزتُ بداخلي مصّاص دماء واعظاً ومُثيراً للشّفقة؛ تحدّثتُ عن تجربة أصيلة وثرثرتُ حول أماكن

مُشتَرَكة. هكذا تجنّبتُ السذاجة التي نسقُط فيها ونحنُ نُشير إلى آونة مُتَّقِدَة من الحياة، لأنّها لا تُعاد أبداً، غير أنّ الروائي يتعثَّرُ فيها حالَما يُطلق العنان لخيالِه حيالَها؛ لأنّ أصالة الفكرة لا تُحدَّدُ وسط سياق يُرجى تجديدُه من خلال مفتاح أو طريقة مُبتَكَرة مسبوقة: لا تُختَرَعُ الأفكارُ في الصالونات ولا في الروايات (كانت ڤاليري تعتقد أنّها تمتلك أفكاراً فكانت تُسجِّلُها ببخل شديد، وسألت آينشتاين إن كان يحمِل دفتراً لتدوين أفكارِه. «لا، قال آينشتاين – إذاً؟ سألتْ ڤاليري مُندَهِشة، أنت تُسجِّلُها على أكمامِك إذاً؟» ابتَسَم آينشتاين: «أوه! قال، الأفكارُ نادِرَة جدّاً.» وقدّر أنّ في حياتِه خطرت له فكرتان فقط). عملٌ أدبي أطروحي لا يدين شيئاً ولا يُبرهن على شيء سوى على بلاهات.

منذ بدأتُ أُفكّر في محاور *دماء الآخرين* وأنا أستشعِرُ هذا الخطر. سجّلتُ: «كم هي بغيضة تجربة الاجتماعي! كيف يتجنّب المرء السقوط في البنائيّة والوعظ؟» في الواقع، ما أُسمّيه «تجربة الاجتماعي» ليس بغيضاً في حدّ ذاته منذ البداية؛ إنّها الطريقة التي سأُعالِجُ بها الموضوع، ما يجعلها تنزلق نحو «المنهجيّة الصّرفة». وعيتُ هذا العيْب وأنا أقرأ هذه التدوينة: «أريدُ لروايتي القادمة أن تتضمّن العلاقة بالآخر في أعقد تجلّياتها. إنّ إلغاء الآخر هي الصّبيانيّة بعَيْنِها. على الحبكة أن ترتبط أكثر بالمشاكل الاجتماعيّة عكس الرواية الأولى. ينبغي الوصول إلى عمل له بعدٌ اجتماعي (يصعُب العثور عليه).»

تمّ فيما بعدُ تعريف *دماء الآخرين* على أنّها «رواية عن المُقاومة»؛ في الواقع لقد تشكّل في ذهني مُباشرة مع الأحداث بما أنّه يبدو لي صعباً للغاية ابتكار عمل «اجتماعي» يُجسِّد الموضوع الذي أردتُ طرحَه. في أكتوبر عندما بدأت بكتابتها، خامرتني فكرة العمليّة والانتقام. يدُلُّ هذا الفصلُ بين الموضوع العميق للكتاب والوقائع على أنّ *دماء الآخرين* قد صُمِّمَ بطريقة مُختلفة عن *الضّيفة*. في رواية *الضيفة* مُنِحتُ كلَّ شيء مُجمَلاً في شكل تصوُّرات جمعتُها على امتداد سنوات. هذه المرّة أيضاً أنا أنطلق من تجربة شخصيّة، لكنّي أرتكبها بتجرُّد بدَل أن أعيشَها خيالاً. أعرفُ لماذا.

حتّى الحربُ، ترصّدتُ خلالها تدهوُري الخاص؛ تعلّمتُ الكثير عن

العالم وكونّتُ فكرة عن سعادتي: أتحدّث عن الأخلاق مع هذا التطبيق؛ كان عِطراً ذهبيّاً. كانت تجربتي محدودة غير أنّي خُضتُها روحاً وجسداً، لم أكن أُفكِّرُ في مناقشتها؛ اتّخذتُ منها مسافة على أمل جعلِها مُتاحة للآخرين: هذا ما حاولتُ القيامَ به في *الضّيفة*. تغيّر كلُ شيء بدءاً من سنة 1939؛ أصبَح العالمُ فوضى عارمة وتوقّفتُ عن إنجاز أيِّ شيء؛ لم أكن أملكُ إلّا التآمر اللفظي: أدباً مُجرّداً؛ كنتُ أبحَثُ عن أسباب ومُعادلات لتبرير تعرُّضي لما فُرِضَ عليَّ. وجدتُ تلك التي مازلت أومنُ بها؛ اكتشفتُ التضامُن، واجباتي وإمكانيّة القبول بالموت كي يكون للحياة معنى. لكنّني تعلّمتُ هذه الحقائق تقريباً رغماً عنّي؛ استخدمتُ الكلمات حتّى أقبل بها؛ كنتُ أشرَحُ وأقتنع، كنتُ ألقي على نفسي الدّروس: إنّه هذا الدّرسُ الذي اجتهدتُ كي أثبتَه للقارئ دون أن أُدرِكَ أنّها لن تكون بالنضارة التي بدت لي أنا نفسي.

هكذا دخلتُ ما أُسمّيه «المرحلة الأخلاقيّة» من حياتي الأدبيّة التي استَمَرّت بضعَ سنوات. لم أتّخِذ من عفَوِيّتي قاعِدة. وجدتُ نفسي، إذاً، عند ضرورة التساؤل حول مبادئي وأهدافي؛ وبعد تردُّد، خلُصتُ إلى كتابة نصّ حول المسألة.

أنهيتُ *دماء الآخرين* عندما قدَّم لي سارتر في الفلور، بداية سنة 1943، جون غرونيي الذي كان قد تعرّف عليه حديثاً والذي كان يعتزِمُ جمعَ النصوص ذات النزاعات الفكريّة في حِقبَتِنا. تحدّثا واستدار نحوي غرونيي: «وأنتِ سيِّدَتي، سألني، هل أنتِ وجودِيّة؟» أتذكّرُ انزعاجي إلى حدِّ هذه اللحظة. قرأتُ كيركيغارد؛ فيما يَخُصُّ هيدغير جرى الحديثُ عن «الفلسفة الوجوديّة» لكنّني أجهَلُ ماذا يعني أن يكون المرء وُجودِيّاً كما نطق غابرييل مارسيل. ثمَّ إنّ سُؤال غرونيي خدشَ تواضُعي وكبريائي في آن: لا أتمتَّعُ بقدر الأهميّة الذي يَسمَحُ لي بوسمٍ مُعَيّن؛ أمّا أفكاري فأنا على يقين أنّها تعكِسُ الحقيقة لا جانباً مُتعلّقا بقناعة. عرَضَ عليَّ غرونيي المُشاركة في تأليف كتاب يشغَلُه؛ رفضتُ في البداية؛ قلتُ إنّي أعرفُ حدودي فيما يتعلّقُ بالفلسفة؛ لم يكن *الوجود والعدم* قد صدر بعد، لكنّي قرأتُ المخطوط أكثر من مرّة: لا أجد ما تجدُر إضافتُه. أصرَّ غرونيي: يُمكنني اختيار الموضوع الذي يروق لي.

دفعني سارتر: «حاولي إذاً!» حول بعض المسائل التي تطرّقتُ إليها في *دماء الآخرين*، ما زال هناك ما أريدُ قولَه، خُصوصاً في العلاقة بين التجربة الفرديّة والحقيقة الكَونِيّة: ابتكرتُ حكاية من أجل ذلك. تخيّلتُ مدينة تطلُب من أحد سُكّانها المرموقين التضحية بحياة ما: حياة شخص محبوب طبعاً؛ في البداية يرفُض البطل؛ ثمَّ يُحملُ على التفكير في الأمر وسط موجَة شعبيّة؛ يُوافِقُ لكنّه يسقُط في فتور يَجعَلُه لا مُبالياً بكلِّ فرد، بالجميع؛ حاولت المجموعة عبثاً، التماس عونه للنجاة من الخطر المُحدِق بها؛ أحدٌ ما، امرأة ربّما، تنجَحُ في إنعاشِ نزعة الأنانيّة بداخله: هكذا فقط، خالجته إرادة إنقاذ مواطنيه. كانت الصّورة مُجرَّدة ولم تأخُذ المسرحيّة هيئة. لكن بما أنّهم يعرِضون عليَّ فرصة مُعالَجَة المسألة التي تُؤرِّقُني فلمَ لا أستغلُّها؟ بدأتُ بكتابة *بيروس وسينياس* التي أمضيتُ ثلاثة أشهُر في كتابتها والتي أصبحت الآن كتاباً صغيراً.

إن كان الإنسانُ «كائناً قادِماً من بعيد» فلِمَ تعالى حتّى هنا، لا أبعَد؟ كيفَ يُعَرَّفُ مشروع الإنسانيّة؟ تساءلتُ في جزء أوّل. طعنتُ في الأخلاقيّات الحالية في كلِّ التي تصنَعُ الأبديّة؛ ما من أحد قادر وحدَهُ على الارتباط باللانهائي، أو ما يُسَمّى الربّ أو الإنسانيّة؛ برهنتُ على أهمّية فكرة «الظّرف» التي عرَّجَ عليها سارتر في *الوجود والعدم*.

استَنكَرتُ الاغتراب وحذَّرتُ من اتّخاذ الآخر ذريعة؟ فهمتُ أيضاً أنّه في العالم المُقاوِمِ كلُّ مشروع هو وجهة نظر يجبُ - مثل بلومار في *دماء الآخرين* - السّماح لها بالعُنف. تبدو لي هذه الأطروحة النقديّة، عامّة لكن صحيحة. في الجزء الثاني، كان علَيَّ إضفاء قاعدة إيجابيّة على الأخلاق. توسّعتُ أكثرَ في التفاصيل في خاتمة الرّواية التي أنهيتُها للتوّ: الحريّة، أسّستْ كلّ القيم الإنسانيّة، إنّها النهاية الوحيدة القادرة على تبرير تصرُّفات الناس؛ لكنّي انتَسَبتُ إلى نظريّة سارتر: مهما كانت الظّروف، فإنّنا نملِكُ الحرية التي تسمَحُ بتجاوُزِها؛ إن كانت مُقدَّمَة سلفاً فكيف نجعَلُ منها هدفاً؟ ميَّزتُ صنفَيْن من الحُرية: إنّها المسارُ الوجودي نفسُه، عن طيب خاطر، أم عكس ذلك، هي تتبنّى كلَّ ما يأتي من الخارج؛ هذه الحركة الداخليّة غير المرئيّة، إذاً، شاملة في كلِّ منّا. في المُقابل فإنّ الإمكانات الملموسة المُتاحة للناس ليست مُتساوِيَة؛

لا يطالُ البعضُ سوى جزء ضعيف مما تملِكُه الإنسانيّة؛ لا تتعدّى جُهودُهم كونَها تُقَرِّبُهم من القاعِدة التي ينطلق منها المحظوظون: يضيعُ سُمُوُّهم وسط الحشد الهائل تحت مُسَمّى القضايا المُستَعصِية. في الظّروف المثاليّة، يُعَدُّ المشروع تجاوُزاً حقيقيّاً، إنّه يُؤَسِّسُ لمُستقبل جديد؛ النّشاطُ الجيّد هو النّشاطُ الذي يضمن للفرد والآخر وضع التمَيُّز: تحرير الحُرّية. هكذا، حاولت المُصالحة بين أفكار سارتر والنزعة التي طالما دافَعتُ عنها خلال حواراتنا الطّويلة: صمّمْتُ تدَرُّجاً في الأوضاع؛ موضوعيّاً، كان الخلاصُ إذاً، أمراً مُمكِناً؛ على أيّ حال، لن نُفَضِّلَ جهلَه على معرفته، ولا المرض على الصحّة ولا الشّقاء على الرّخاء.

لا أُنكِرُ اهتمامي بتزويد الدّرس الوجودي مُحتوى مادّياً؛ المُزعِجُ هو أنّي في الوقت الذي أظنّني قد هربتُ من الذاتيّة، ألتصِقُ بها مُجدَّداً. لا يحظى الفردُ ببعد إنساني إلّا من خلال الاعتراف بالآخر، فكّرتُ؛ بيد أنّ التعايُش في مقالتي بدا كنوعٍ من الحادِث الذي على كلِّ فرد مُحاولة تخطّيه بنجاح؛ يبدأ الإنسانُ أوّلاً ببناء مشروعِه بمُفرَدِه ثمَّ يطلُب من المجموعة تأييدَه: في الواقع، شغلني المُجتمع منذ ولادتي؛ أنا أقرّرُ من أكون في علاقتي به وبداخِله. تتضاعَفُ ذاتِيّتي بالضّرورة، ويُضافُ إليها مثاليّة تَحُدُّ من قدرتي على التأمّل الحُر. لا يعنيني هذا المقالُ اليوم إلّا لأنّه يُمَثِّلُ مُنعَرَجاً في تطوّر شخصيّتي العِلمِيَّة.

يُذَكِّرُ حوارُ *بيروس وسينياس* بالحوار الذي دار بيني وبين نفسي والذي دوّنتُه في دفتري الخاص، يوم صرتُ في العشرين؛ في كلتا الحالَتيْن صوت يستَفْهِم: «لماذا الاستمرار؟» سنة 1927 اعتُبِرَت أكثَر الانشغالات الأرضيّة غروراً باسم المُطلَق والأبديّة؛ سنة 1943 استحضرتُ القصّة الكونيّة ضدَّ زوال المشاريع الفرديّة: كانت دائماً تدعو إلى اللامبالاة والامتناع. اليوم، الإجابة نفسُها مثل الأمس: أعرِضُ العقل الخامل، العَدَم وكلّ بداهة حتميّة تنطوي عليها مقولة صريحة. إن بدا لي طبيعيّاً الانتساب إلى أفكار كيركيغارد وسارتر وأنّه من الضروري التَحوّل إلى «وجوديّة»، فلأنّ قصّتي في طور الظّهور؛ حملني مزاجي، منذ طفولَتي، على القيام بتأجيل رغباتي وإرادتي؛ من بين المذاهب التي كوَّنَتْني فِكرِيّاً، اخترتُ تلك التي تُرَسِّخُ هذا المبدأ؛ في الثامنة

عشرة كنتُ مُقتنِعَة تماماً أنّ الإنسان والإنسان وحدَه، قادرٌ على أن يُسبغَ معنى على الحياة وأنّه يكفي؛ مع ذلك، لم أغفل عن هذا الفراغ المُدَوِّخ، هذا الظّلام الأعمى الذي برزت منه هذه الأفكار والرغبات: عدتُ إليها.

انتهيتُ من *بيروس وسيناس* في جويلية وقبِلَتْها غاليمار. ستظهرُ *الضيفة* بعد شهر أو شهرَيْن. وفكّرتُ أنّي سأُحقّق تطَوُّراً بفضل *دماء الآخرين*. كنتُ راضية عن نفسي. لن تصدُر روايتي قبل الاستقلال، لكنّي كنتُ متعَجِّلَة. ما يهُمُّني هو أن يفتَحَ المُستقبل أذرُعه يوماً ما: في الوقت الحاضر؛ نحنُ لا نشُكُّ في ذلك بل فكّرنا أنّ انتظارَنا لن يطول. أظهرت السعادة التي ظننتُها ذَبُلت إلى الأبد؛ ربّما هي السّعادَة الأكثر توَهُّجاً.

telegram @soramnqraa

الفصل 8

انتهَت مُناظرة الدّخول إلى ساڤر ووجدتُني مُتفَرِّغة منذ أواخِر شهر جوان. أردتُ مزيداً من التنزّه خلال العُطلة واخترنا هذه المرة الناحية الأكثر تمويناً في فرنسا: الوسط.

ضربتُ موعداً مع سارتر يوم 15 جويلية وأخـذتُ القطار إلى رُوان Roanne: لم يكُن هناك خطّ حدود. اتّخذتُ مُبَكّراً مكاناً، وإلّا كنتُ سأمكثُ على الرّصيف زمناً طويلاً؛ أناس سافروا وُقوفاً على عتبات المقطورات وآخرون ازدَحَموا في دورات المياه؛ في المَحطّات رأيتُ نساءً يبكين بعد أن عجزن عن الصّعود إلى القطار. مُصادفة، كان رفاق الطّريق يتحدّثون عن *الغثيان* ووضعوا الرواية في نفسِ مُستوى *الغريب*؛ ثمَّ جرى حديثٌ حول *الذّباب* روَيْتُ لسارتر في رسالة: «شخصٌ ما قال إنّه من الغريب ألّا تحظى المسرحيّة بالنّجاح، وأنّه لا يرى مُبرّراً لانزعاجكَ من ڤاليري لأنّه لم يُحِبَّها. أمّا هو فلم يتمكّن من إنكار قيمتها.» دوّنتُ في نفسِ الرسالة: «تبدو رُوان فقيرة جدّاً، أفقر من باريس رغم أنّي احتسيْتُ فيها قهوة بالحليب على الإفطار. لكن، أخيراً، مُقابل 25 فرنكاً تناولت طَبَقاً ضخماً من السبانخ اللذيذة، وبطاطا جيّدة ومشمشاً رديئاً. أكلتُ بوفرة لأنّهم يُقدِّمون الأطعِمة لشَخْصَيْن ولأنّ جاري لم يأكُل شيئاً. الوضعُ هنا أفضل مما هو عليه في باريس. مع ذلك لا وُجود لوجبات خلاف السبانخ والسِّلق.»

إن كنتُ قد ضَمَّنتُ كتابي هذه الأسطر فلأنّي وأنا أُعيدُ قراءة رسائل تلك الفترة، لاحظتُ كيف يَصِفُ مُراسِلِيَّ أطعِمَتَهم بحرص؛ حتّى أولغا كانت تفعَل. كان الأكلُ مُشكلة مُحرجة.

تنقّلتُ ثلاثة أسابيع. رأيتُ ليموزان من جديد. أمضيتُ يوماً مع ابنة عمّي جان في ميرينياك، وسَط حضانة أطفال شُقر. تمّت توسِعَة المنزل. غُرفة الغسيل، مخزن الحطب، مخزَنُ المُؤن، تحوّلت جميعُها إلى غُرَف معيشة؛ لم تعُد هناك ستائر أو أغلفة على الجُدران؛ تنتَصِبُ تماثيل العذراء شامِخَة تحت الأشجار وسياجٌ أحاط بالمُتَنَزَّه الجميل. لم أجد من الماضي الشيء الكثير.

شعُرتُ بالقلق حِيال درّاجتي؛ عجلة تَخسَرُ الهواء الذي في داخِلِها كلَّ مائة وخمسين كيلومتراً. كتبتُ لسارتر ووصفتُ له ميكانيكيّاً يُمكن أن يبيعَني إطاراً مطّاطِيّاً جديداً مُقابل مائة وخمسين فرنكاً، كلُّ ذلك بفضل علاقة بعيدة تربِطُه ببوست. عندما نزل على رصيف محطّة أوزيريش، كان يحمِلُ حقيبَتَيْ يد وخرطوماً ملفوفاً كالشّريط. حدّثني عن باريس في شرفة فندق شاڤان المُطِلّ على ڤيزير Vézère؛ أخبرني أنّ دار پاتي قد عيَّنَتْهُ معهم: كان عليه أن يمنَحَهم سيناريوهات مُقابل مكافأة مُهمّة وقارّة. إن سارت الأمور كما يجب، فسيترُك التعليم السنة المُقبلة.

لم نُسافِر هذه المرة بتعَسُّف بل وِفق محطّات متقاربة واستراحات طويلة في الأماكن التي تُعجِبُنا. كانت تُمطرُ وكنّا نحتمي بعباءة الدَرّاجِ المُشَمَّعَة الصّفراء. ما زلتُ أرى سارتر مُحتَمِياً بشجرة، ورأسُه الذي يقطُر ماء خارج المُشمّع؛ كان يَضحَكُ بشجاعة وهو يمسَح زُجاج نظّارَتَيْه المَبَلَّلَتَيْن. يوم وصلنا إلى بوليو Beaulieu كان الوقتُ قد تأخّر، وذهبنا مُباشرة للعشاء، تارِكَيْن درّاجَتَيْنا على الرّصيف، أمام مدخل الفُندُق؛ دوّى الرّعد وبدأت عاصفة هوجاءُ مُفاجئة منعَت سارتر من وضعِ الدرّاجَتَيْن في مكان آمن: ثمَّ إنّ الريح الشديدة قلبَتْهُما، سيْلٌ من الوحل الأصفر حمل حقائبنا، مخطوط مع *وقف التّنفيذ* جرفَه السّيل؛ أمسَكنا به لكنّ الحبر الأسوَد سال على الأوراق ورأيناهُ يتدَفّقُ على الأرض؛ تطلّب الأمرُ عملاً شاقاً لتجفيفِه وتنضيدِ النصّ. غرقت المنازِل؛ ظهيرة اليوم المُوالي كانت المُنظّفاتُ تكنُسُ وتفرُكُ الأرضيّات المُلَوَّثة بالطّمي.

تُشرِقُ الشّمسُ عادة. لم نكن نتعَبُ وكنّا نأكُل إلى أن نُسكِتَ جوعَنا. حين نلمَحُ ضيعَة، كنّا فوراً نتَّجِهُ نحوَها للحُصول على البيض؛ كنّا نجدُ غالباً. لم يَكن الخَدمَة في الفُندُق يجدون غريباً أن نطلُب منهم تحضير أطباق البيض

الذي جلَبْناهُ إضافة إلى وجبة اليوم. عُموماً، لم نجد صعوبة في الإقامة؛ مع ذلك، لم نجد غُرفة شاغرة في لاروش-كانياك؛ أشاروا علَيْنا بضَيْعَة بعيدة، لكن مِضيافَة. تسكّعنا طويلاً في الظّلام؛ عندما وصلنا كان النّاسُ قد أنهَوا تناوُل العشاء؛ كانوا عشَرة تقريباً جالسين حول طاولة، يأكُلون فطيرة بطاطا ضخمة؛ قدّموا لنا قطعة. قال لنا المُزارع بطرفة عيْن دلّت على نوع من التآمُر أنّ مزرَعَتَه كانت مليئة بالأمس، لكن في وسعِنا اليوم النوم براحة: ظاهريّاً، حسِبَنا مثل ضيوف اللّيلة السابقة ممن كانوا لا يتجوّلون لأسباب ذات معنى.

طالَعَتْنا من جديد منحدرات تارن؛ وجدْنا وسط مزارِع العنب فُندُقاً صغيراً تُشرِفُ عليه عجوز لم يكن لديها من الزبائن غيرُنا. أتخَمَتْنا بالجومبون؛ لبِثنا هناك أيّاماً؛ كانت العجوز تتحدّث بحنين عن الزّمن الذي لم تَكن فيه الطّريق موجودة بعد، ولا السّياحة أيضاً، حيثُ كانت تارن لا تزالُ نهراً سِرّياً. زُرنا من جديد «لو Lot»، إسپاليون Ispalion، أنوترانْيْ Entraygnes، إيستينغ Estaing، كونك Conques حيثُ لم نعثُر على غُرفة شاغرة؛ كانوا مُستَعِدّين لاستقبال لاجئين وسمح لنا رئيس البلديّة بالنوم في المدرسة على مصطبيات مُخَصَّصة لهم. تنزّهنا في غابة غريزيني Grésigne. قدّموا لنا في ڤور Vaour الغداء فطائر رائعة قرّرنا تناوُلها للعشاء أيضاً؛ ما من غُرفة واحِدة: لِيَكُن؛ نِمنا في الإسطبل؛ قَرَضنا القُراد طوال الليل لكن لا بأس ما دامت المعدَةُ ليست خاوية.

انتهَتْ رِحلَتُنا في تولوز. تناوَلنا بعض الكؤوس مع دومينيك ديسانتي التي كانت تُقيمُ عند والِدَيْها؛ التَقَيْنا بلوتمان Lautmann؛ كان سارتر بالكاد يعرِفُه ولم يتبادَل معه أحاديث ذات شأن. وصلنا لاحقاً خبرُ إعدامِه. مررنا بپواز نهاية شهر أوت وسبتمبر؛ عِشنا النشوة الخالِصة. غزا الحُلفاء سيسيليا خلال شهر جويلية؛ بداية سبتمبر نزلوا في كالابر وسالِرْن. استِقالَةُ موسوليني ثمَّ ما سمَّتْه الصحافة بـ «خيانة بادوغليو Badoglio»[42] أدخلا اضطراباً على العلاقة الألمانية -الإيطاليّة؛ استَسْلَمت الكتائبُ الإيطاليّة دون شُروط، واحتلّت

42- خيانة بادوغليو Badoglio: قائد عسكري وسياسي إيطالي، شغل منصب رئيس وزراء إيطاليا بين عامي 1943-1944

جيوش رومل المنطقة. اختبأ موسوليني في قمّة غران ساسو وأجلاهُ ببراعة بعضُ المظلّيين الألمان؛ لكن لم يكن لهذا الإنجاز تبعاتٌ سياسيّة؛ وحداتُ ألمانيّة مُهمّة وجدتْ نفسَها عالِقة في إيطاليا. في الشّرق أعلنتِ القوّات الأوروبية أنها قد انسحبت لـ «نُقَلّصَ» الجبهة؛ تكفي رؤية خريطة لنفهَم أيّ اندحارٍ تختَصِرُه هذه الكلمة. اليوم الموعود، عندما نزل الأمريكان والإنجليز على السّواحل الفرنسيّة لم يكن في مقدور الجيوش النازيّة الصّمود أمام ثلاث جبهات معاً. كنّا نسمَعُ البي بي سي، تبادَلْنا التهاني واشتَغَلنا بحماس. بدأتُ روايتي الثالثة التي وقعتُ على عُنوانِها: *كُلّ الرّجال يموتون*، واستمَرَّ سارتر في كتابة مع *وقف التنفيذ*. توقّف عند عودَتنا إلى باريس لكتابة مسرحيّة جديدة. ألّفها مثل الأولى ليُقَدّم خدمة لشابات مُبتدئات. رغبت واندا أخت أولغا هي أيضاً في القيام بالمسرح: تابعتْ دروساً عند دولان الذي عهد لها بدَور صغير في *الذباب*. من جهة أخرى تزوَّجت أولغا السّمراء مارك باربيزات الذي كان يُدير، على تُخوم ليون، مصنع أدوية، وكان ينشُر على نفقته كلّ ثلاثة أشهُر مجلّة مرموقة: *القَوس L'arbalète*؛ كان يطبَعُها بنفسِه باستخدام طابعة يدَويّة. أراد لزوجته أن تتعلّم مهنة التمثيل بإتقان؛ طلب من سارتر أن يكتُب لها ولواندا مسرحيّة سهلة الإخراج يُمكن عرضُها في كامل فرنسا: سيتكفَّلُ بالإنفاق على الجولة. أغوَت سارتر فكرةُ تأسيس الدّراما القصيرة بديكور واحِد وشخصيّتَيْن أو ثلاث فقط. فكّر فوراً في كتابة *جلسة مُغلَقة Huits Clos*، التي سمّاها في البداية *الآخرون* وفعلا تمَّ طبعُها تحت هذا الاسم في *القوس*.

عاهَدتُ نفسي على ألّا أظلَّ سنة أخرى في شارِع دوفين؛ قبل العُطلة بكثير، اتّصَلتُ بمُدير فندق لويزيان شارع السين حيثُ كان يُقيم بعض زبائن الفلور. انتقَلتُ إليه في أكتوبر؛ كان في غُرفَتي أريكة ورفوف، وطاولة ثقيلة وعلى الجِدار عُلّقَت صورة حصان إنجليزي؛ يومَ استَقَررتُ سكب سارتر قارورة حبر على الموكيت وغيّرتها المُديرة بسُرعَة؛ لكنّ الأرضيّة أعجبتني أكثر من السِجّاد. لديّ مطبخ. كنتُ أرى من نافِذَتي كثيراً من الأسطُح.

لم يحدُث من قبلُ أن اقترَبَ مسكَن من أحلامي مثل هذه الغرفة؛ فكّرتُ في المكوث هنا حتّى آخر أيّامي. شغل سارتر من الجانب الآخر للرواق غُرفة

ضيِّقَة أثار فقرُها غرابة زُوّارِه؛ لم يكن يملكُ حتّى الكُتب؛ ما نشتريه من كُتب كنّا نعيره ولا يُعادُ إلينا أبداً. كانت ليز وبورلا تقطُنان الطابق الفوقي، في غُرفة كبيرة ومُستديرة، كنّا نُصادِفُ في الممرّات مولودجي والجميلة لولا؛ كانت شعبيّة ومعروفة في لويزيان لأنّها تغسِلُ وتكوي أربعة أو خمسة قُمصان تنتمي لجماعة الفلور: في تلك الفترة التي لا رغوة فيها للصابون كان لابُدَّ من التفاني لتبدو الملابِسُ بيضاء.

مادّياً، كنّا أقلَّ ضيقاً من السنة الماضية. كما تمَّ الاتّفاق، استمَرَّ سارتر في تقديم الدُّروس بدار المُعلّمين العُليا بكوندورسات ويكتُب السيناريوهات لپاتي Pthé؛ أوّل سيناريو أُنجِز له بعُنوان *بدأت اللعبة*، لم يحظَ بما يكفي من الأصوات المُرَحِّبة بين خُبراء الدّار. عهد له دولان مُناوَبَة مع كامي إلقاء دروس في تاريخ المسرح. صدَرَ له *الوجود والعدم* عن غاليمار، لكنّه راحَ يَشُقُّ طريقه ببطء: بالكاد جرى الحديثُ عنه وبيع منه القليل فقط. أمّا أنا فسَرّني أنّي لم أكن أعمَلُ وفقاً لجَدول أوقاتٍ مَضبوط؛ اكتَفَيْتُ بالذّهاب إلى المكتبة الوطنيّة مرّة أو مرَّتَيْن في الأسبوع؛ بمُساعَدة بوست فرزتُ مراجِع قديمة تضُمُّ الأغاني والنّكات والمونولوچ والرّثاء الحزين واستَخدَمتُ بعضها في المونتاج بالراديو؛ كانت تلك البرامِجُ عديمة الطّعم؛ مع ذلك كنتُ سعيدة بإعدادها.

ساهمتْ هذه التحوُّلات في تطوير حياتي؛ غير أنّ ظَرْفَيْن خصوصاً، جدّداها ببهجة حقيقيّة: صدور *الضّيفة* إضافة إلى عدد مُهم من الصّداقات الجيّدة.

عندما وصلتُ إلى پواز، كانت *الضّيفَة* قد صَـدَرَت؛ لم أتخيَّل جيِّداً مصيرها الذي ينتَظِرُها؛ كان سارتر مُتوَرِّطاً في عملي إلى درجة حالت دونه ودون إضاءة الطّريق لي. أثنى بعضُ الأصدقاء على الرّواية: إنّهم أصدقاءُ في النهاية. «أعترف بأنّي مذهول، قال ماركو بصوتِه الاحتفالي. قرأتُها في جلسة واحدة، كانت مُسلِّية: لكنّها رواية مُوَجَّهَة للعرض في مكتبات المحطّات.» عوَّلتُ كثيراً على إضمار شخصيّة *الضيفة* للشَرّ ولم تُخيِّبني. اخترتُ التواضُع. اشتغَلتُ أربع سنوات على هذا الكِتاب، غامَرتُ كثيراً وهأنذي قد تحرّرتُ منه. يتطلَّبُ التفاؤل أن تكون حياتي سلسلة تطَوُّرٍ مُستمر وأن أحتقر بروحٍ

عالية كتاب المُبتدئة هذا الذي لا أرى فيه سوى قصّة حُبّ طائشة: أحلُم الآن برواية مُتشابكة وكبيرة.

بدأتُ أتحلّى بنوعٍ من الحَذر الصارم؛ إنّه يجعَلُني أتوقَّعُ الخيبة ويقيني السّقوطَ في السذاجة.

نهاية شهر أوت، ذهب سارتر إلى باريس للمُشاركة في اجتماع مُقاومة: انتهت الجلسة العامة للرابطة الوطنيّة للكُتّاب والتأمت بعضُ التحالُفات. انتَظَرتُه في أونجي. من شُرفة مقهى مُقابل للمَحطّة، لمَحتُه يقترب حثيث الخُطى مُلَوِّحا بجريدة: نُشِر أوّل مقال نقدي عن *الضيفة* في *كوميديا*. بقلم مارسيل آرلان. لم يُسعِدني مقال أكثر من هذا المقال؛ تحدّث آرلان عن روايتي بحرارة، رغم بعض الاحترازات وبدا أنّه يأخُذُها مأخَذ الجدّ: هذا ما أعجَبَني أكثر من غيرِه. لا يحدُثُ دائماً أن تتحقَّقَ لنا رغبَةٌ جادة: يُؤَكِّدُ لي هذا المَقالُ الذي كتبَه ناقِدٌ حقيقي، المنشور في صحيفة حقيقيّة، دون ريبٍ، أنّي ألَّفتُ كتاباً حقيقيّاً، وأنّي فجأة صرتُ كاتبة. لم أُنغِّص فرحَتي. لم تكن سعادتي قد ذوَت عندما وصلتُ إلى باريس؛ كان هناك مقالات نقديّة أخرى أغلَبُها مُحتفِية بالكتاب. وصفَ كثيرون ديمومة البيئة التي ضمّنتُها الرواية؛ آرلان نفسُه تأسَّف لأنّ شخوصي كانوا مهووسين بقصص الفِراش؛ صحيح في تلك الفترة أنّ ڤيشي قد منع تارتوف وقَطَع رأسَ امرأة أجهضت؛ كانت بقية النساء عفيفات والفتيات عذراوات، والرّجال أوفياء والأطفال أبرياء؛ مع ذلك فاجأني هذا الهُراء المُضحِك: لم يتوَسّعوا كثيراً في *الضّيفة*! في المُقابل قرأتُ باندهاشٍ ما قاله تيري مولنيي عن فرنسواز، عن تَحَمُّسِها للسّعادة: وجدتُ ملاحظاتِه صحيحة وشعُرتُ بالإطراء؛ يمتلك كتابي الثّقل الكافي ليُعتبَر شيئاً مُحترَماً: من جانب ما، فاتتني بعضُ النّقاط. سُرِرْتُ لأنّه أشار إلى بعض نوايا النص. كتب لي غابرييل مارسيل رسالة ودّية للغاية، بدت لغزاڤيير تجسيداً مِثاليّاً للآخر في بُعدِه الفلسفي. يطلُب منّي رجل مُتَقَدِّم في العُمرِ موعِداً عن طريق ماركو؛ روى لي دراما سياسيّة قاتمة كان قد توَرَّط فيها، كان المخرَج الوحيد، كما في *الضّيفة* يكمُن في صراع قاتل بين ضميرَيْن في جَسَدٍ واحد. اقتنَعتُ إذاً، أنّ المَحَاوِرَ التي خُضتُها لم تتردّد على طول الطّريق. تلَقّيتُ رسائل أخرى؛

واحِدة من كوكتو وواحدة من مورياك على ما أظنّ. جاء رامون فرنانديز للقائي في الفلور رغم أنّه لا يطأه أبداً؛ انحاز إلى مُعسكَر الأعداء وأزعَجني أسلوبُه قليلاً؛ مع ذلك لامَسني. أحببتُ كُتُبَه في شبابي وأحزنني انشِقاقُه. سمِن وربط كاحِلَه بلفافة بيضاء. أذهلني بحكايات عن حياة پروست الجِنسيّة.

سمع ماركو الذي كان يتسلَّلُ من مكان إلى آخر في هذا العالم، حوارات مُؤيِّدة في الصالونات؛ نقلها لي نصفَ مُتحَمِّس نصف حاقد. «لابُدَّ أنّك تُفكّرين في أنّ أصدقاءك لم يُنصفوكِ!»، قال لي. تلقّيتُ أسَفَه برضا كبير. روائي غير محظوظ يعرِفُه سارتر قليلاً، وأخبرني في الطابق العُلوي من الفلور؛ «أنتِ محظوظة، لقد وقعتِ على الموضوع الملائم.» هزّ رأسَه: «نعم، إنّه موضوع مُهم، أنتِ محظوظة حقّاً!» توقَّعتُ ازدراء أداموڤ «إذاً، قلت له، هل رأيتَه؟ إنّها رواية حقيقيّة ببداية ووسط ونهاية: هل وجَدتَها سيّئة؟» هزّ رأسَه وثقُلَت نظراتُه: «ليس إلى هذه الدّرجة. ثمَّة غزاڤير، قال. ثمّة غزاڤير.» بسبب غزاڤير عاملني بعضُ رُوَّاد الفلور باستخفاف؛ وبدَوتُ سيّئة في عيون الكثيرين؛ اشتكَوا إلى أولغا ومولودجي: كنتُ قد تحدّثتُ بصورة صادمة عن حفلات الزّنوج وحيوانيّتِها البديعة. لم يجِدوا في الرواية شيئاً من أساطيرِهم وبدت لهم فرنسواز مُثيرة للحَنَق. أدانني الرجال على وجه الخصوص؛ أمّا النّساء فقد انقَسَمن. بادرتني بعضُهنّ: «هل أطمَعُ في أن نرى بعضنا من وقتٍ إلى آخر؟» أتهرّبُ ويتضايَقْنَ. عبَّر لي شابٌّ وسيم جدّاً، أراهُ باستمرار، عن تأييدِه؛ أهداني عُلبَة سجائر إنجليزيّة، في تلك الفترة، كانت تلك هديّة ثمينة؛ ثمَّ صار يُهديني السّجائر والرّوايات الإنجليزيّة رغم أنّه مُفلِس.

هكذا، أثرتُ الفضول بكتابي، أثرتُ الحنَقَ والمودَّة؛ أناسٌ أحبّوه. وحقَّقْتُ ما وعدتُ به نفسي في سنّ الخامسة عشرة؛ أخيراً جنيتُ ثمار عمل طويل مُقلِق! لم أكن أهَدِّدُ سعادتي بطرحِ أسئلة سرِّية؛ لم أتساءل عن القيمة المُطلقة لروايتي لو قاومتُ الزّمن: وحدَه المُستَقبَلُ يُقرّر ذلك. يكفيني في الوقت الحاضر أني تخطّيتُ أولى العقبات: *الضيفة* موجودة لدى الآخر، بذلك أكون قد دخَلتُ الحياة العامة.

هاجَمتُ سراب الآخر وأشرتُ إلى ذلك في *الضيفة*. كنتُ مُغفَّلَة وأنا

أعكِسُ صورتي على غيري. في سياق حديث عن منشورات غاليمار، وسَمَني صحافيٌّ بـ «روائيّة الدار الجديدة»؛ رنّت الكلمات في رأسي بزَهو؛ هذه المرأة الشابة ذات الوجه الحازم التي بدأت سيرتها ككاتبة كما كنتُ سأغبِطُها لو كانت تحمِل اسماً غير اسمي: إنّها أنا! نجحتُ رغم حداثة تجربتي في أن أتّحدَ مع صورَتي: استفدتُ من تَرَفُّعِها. لو مُنِحتُ جائزة غنكور لتلك السنة لكنتُ قبِلتُها بحُبور كامل. طُرِح الأمر؛ أخبروني في غاليمار أنّ شهر مارس (تأجّل موعد الغونكور من ديسمبر إلى مارس. مُنِحَتْ الرينودو بعد خمسة عشر يوماً) أنّ لَدَيَّ حظوظاً جادّة لأنال الغونكور. قال لي سارتر إنّ الرابطة الوطنيّة للكُتّاب لا ترى اعتراضاً على منحي الجائزة إن حافَظتُ على تَكَتُّمي أمام الصّحافة وبجميع أنواعِها.

ظهيرة الإعلان عن النتيجة، كنتُ في الطابق العُلوي للفلور أعمَل كالعادة؛ لكنّي كنتُ أنتظر بنفاد صبر اتّصالاً هاتِفِيّاً يزُفُّ لي خبر النّتيجة. ارتدَيْتُ فُستاناً جديداً، صمّمتُه في پواز تحت إشراف السيّدة لومار، أزرق اللون؛ غيّرتُ شريط الرأس بتسريحة على الموضة. أغوَتني فكرة أن تُثار ضجّة حولي من وقت إلى آخر وأرهبتني في الآن نفسه. رغم ذلك لم أتأثّر عندما سمِعتُ بأنّ الجائزة آلت إلى ماريوس غروت. بعد أيّام أكّدوا لي أنّي مُؤهّلة للفَوز بجائزة رينودو؛ كنتُ في پواز عندما علِمتُ من الجريدة أنّ الفائز هو الدكتور صوپيران، ولم أتحسَّر مثقال ذرّة هذه المرّة. لم يكن غروراً أو لامُبالاة أن تجاوَزتُ إخفاقي المتكرّر برحابة صدر؛ كانت صداقاتي الطافحة بالمحبّة هي التي ساعدَتْني على عدم إيلاء اهتمام كبير لهذا الجانب.

لم يظلّ الشيء الكثير من صداقاتنا القديمة؛ لقد محاها الزّمن، أو أنّ المسافة والغياب قد حرمانا منها؛ كنّا مُقتَصِرَيْن على «العائلة»؛ كان مُنعرَجاً كبيراً في حياتي، فجأة، عندما اتّسعت دائرة علاقاتنا. شدّنا كتاب *إفريقيا الشّبح* وسنّ *الإنسان* لميشال لايريس بأسلوبه الصادم الغنائيّ والمُحايِد معاً؛ رغِبنا في معرفة الرّجل. قابله سارتر في الرابطة الوطنيّة للكُتّاب وقلتُ إنّ لايريس قد علّق على *الذّباب* في صحيفة *الآداب الفرنسيّة*. في جويلية، خلال غيابي، راح سارتر للعشاء عند عائلة لايريس وفي أكتوبر دعاني معه. نَسِيَ سارتر

رقم البناية وتَسَكَّعنا أكثر من نصف ساعة على رصيف شارع غران–أوغستان قبل أن نطرُقَ الباب الصّحيح. كان حليقَ الرّأس، أنيقاً، وذا حركات مُتكلّفة، أرهبني لايريس قليلاً رغم ابتسامته الودّية؛ لكنّي ارتَحتُ لزات Zette فوراً؛ فتاة صغيرة كانت تُطلّ من عينَيْها الزرقاوَيْن، فيما كان لِصَوْتِها وترحابها حرارة أمومة تقريباً. كانت الشقّة مُؤثّثة ببورجوازية، تَعُجُّ بالكتب واللوحات الحديثة: بيكاسو، ماسون، ميرو ولوحات رائعة لخوان غريس؛ كانت كراسي المكتب مَكسُوّة بأغلفة على طريقة خوان غريس. أمّا النوافِذُ فمُشرَعَة على مناظر المياه والحجارة الخلّابة. كان لايريس يعمَل في مُتحف *الإنسان Musée de l'Homme*. و«زات» تُديرُ رواق صِهرِها كانويلر الذي عرَّفَ بأغلب الرسّامين التكعيبيّين والذي كان يملكُ مجموعة ضخمة من أعمال بيكاسو. كان يعيشُ سِرّاً في شقّة أُعِدَّت للمُقاومين واللاجئين اليهود. كان آل لايريس يعرِفون عدداً كبيراً من المشاهير والمرموقين ورَوَوْا لنا عنهم كمّاً هائلاً من الحكايات. كانت تجمَعُهم بجياكوميتي صداقة حميمة، وحدّثونا عنه طويلاً. وصف لنا لايريس أيضاً الزمن الجميل للسُرياليّة؛ خاض التّجربة بشغف؛ في تلك الفترة، كان يذُرُّ الطّحين على جُمجُمَتِه ويرسُم عليها أشكالا مُختلفة. كان أحد المدعُوّين إلى مأدُبة التأمت بعد الحرب بقليل، في الطابق العُلوي من مروج *الليلك*، على شرف سان–پول–رو؛ من النافذة المفتوحة، ضرخ بملء حُنجُرَتِه: «عاشت ألمانيا!» بعضُ المارة طلبوا منه النّزول لشرح موقفه؛ ففعل، واستفاق في المُستشفى. مزيج من المازوشيّة والتطرّف والمثاليّة جعله يخوض عدّة تجارب حارقة وطائشة رواها بعد انحياز لكن بدهشة خفيفة. كان لينو أحد أصدقاء لايريس؛ لا أدري كيف مرَّ لقاؤنا الأوّل معه؛ حدَثَ ذلك في الفلور وعبّرنا لكينو عن إعجابنا الكبير بـ*أطفال الطّمي*. كان هدفُه الأوّل كتابة دراسة جادّة عن المُستنيرين الذين استهلكوا أعمارَهم في البحث عن المُربّع الدائري والحركة المُتكرّرة: حدّثنا عنهم طويلاً، بإعجاب. اندَهَشنا لمَّا علمنا أنَّه يميلُ إلى الرياضيّات وأنّه يقرأ بورباكي Bourbaki بِيُسر. ثمَّ إنّه كان في عِدّة مجالات ذا إلمام لافت، لم يكن يُذيعُه هنا وهناك بل يُحوّلُه إلى تصوُّرات ومُقاربات ونِكات.

كان الحوارُ معه بهيجاً لأنّه كان مُستمتِعاً بما نقوله له وأكثر بما كان يقوله

لنا: كانت عيناهُ تتألّقان خلف نظّارتَيْه وكان ينفَجرُ بضحك غامض عموماً لكنَّ انبِساطَه كان مُعدِياً. كانت زوجَتُه تنطق بحقائق مُثيرة للضيق أو قليلة اللياقة؛ كانت أحياناً تعبَثُ بعقولنا غير أنّها مُسلِّية إجمالاً.

خلال افتتاحيّة *الذّباب*، وجدَ سارتر كامو ودُوداً. التقَيتُ به في الفلور مع سارتر للمرة الأولى. جرى الحوارُ ليس من دون تردُّد، حول مواضيعَ أدبيّة من بينها *الموقف من الأشياء* لپونج الذي أعجَبَ سارتر وكامو. ساعَدَتنا الأوضاعُ على كسرِ الجليد. كان كامو مهووساً بالمسرح. تحدّث سارتر عن مسرحيّته الجديدة والظّروف التي أراد تبليغَها؛ اقترحَ عليه لعِب دورِ البطل والإخراج. تردَّدَ كامو قليلاً ثمَّ وافق لدى إصرار سارتر. جرت التمارينُ الأولى في غُرفَتي مع واندا، أولغا، باربيزات وشوفار في دور خادِم الغُرف: كان تلميذاً سابقاً لسارتر، كان يكتُب ويُفضِّلُ التمثيل على الكتابة؛ كان يعمَلُ مع دولان. الحماسُ الذي خاض به التّجربة إضافة إلى استعدادِه للعمل، قرّباهُ منّا. كان قد صل للتوّ إلى باريس؛ كان مُتزوّجاً وبقيَت زوجَتُه في شمال إفريقيا؛ كان يصغُرُني بسنوات. شبابُه، واستقلالية شخصيّته جعلا منهُ صديقاً مُقَرَّباً: كلانا تلقّى تكوينهُ خارج مؤسّسة التعليم، بمُفرَدِنا. ليس لدَيْنا بيت قار، ولا ما يُسَمّى بالوسط. مثلنا، انتقل كامو من الذاتيّة إلى التطَوُّع؛ كنّا نعرِفُ، دون تلميح من جانبه أنّ لديْه مسؤوليات مُهمّة صلبَ حركة «كفاح». كان يعشَقُ النجاح والشُّهرة ولم يكن يخفي ذلك: كان تبرُّمُه متصنّعاً؛ كان يُضفي على نفسِه من حين إلى آخر سِمات راستياك بطل بالزاك، لكنّه عموماً لم يكن يأخُذ وجودَه مأخذَ الجد. كان بسيطاً ومرِحاً. ولم تكن بساطته مصدراً لمزحات مُبتَذَلة: كان يُسمّي باسكال، طفل الفلور المدعو باسكال؛ ثمّة في شخصيّته سحرٌ ناجِم عن قدر من الشجاعة والبرود، أعتقد أنّ هذا هو سبب سقوطه في الهمجيّة. ما يُعجِبني فيه خصوصاً ابتسامته في وجه الأشياء والناس، دون أن يغفَل عن مُتعِه وصداقاته وأولويّاتِه ومشاريعِه.

كنّا نلتقي مجموعاتٍ صغيرة، أو معاً، في الفلور وفي مطاعِم متواضعة بالحيّ وأحياناً كنتُ أدعو إلى غُرفتي عائلة لايريس، كامو وعائلة كينو: نصلُ إلى ثمانية حول طاولتي. كان بوست يُساعِدُني على إعداد الوجبات. كنتُ

أَفضَل تموينا من السنة الماضية، بفضل زات التي كانت تُغدِقُ عليَّ باللحم من وقت إلى آخر. كنتُ أضعُ المشمش المُجَفَّف في الوجبات، وأُحضّرَ أطباق لحم العجل وأتصرّف كي أحصل على النبيذ بوفرة. «لا أرى بريق النوع بل الكمّ.»، قال كامو. لم أستقبل أناساً بهذا العدد وشعُرتُ بسعادة غامرة.

كانت لقاءاتنا تشغلني كثيراً وكنّا نوليها اهتماماً لا يكفي تقاربُ أذواقنا وآرائنا وفضولنا لتفسيره؛ إنّه التكافُل العملي ما يُوَحّد بيننا. كنّا نسمَعُ البي بي سي، نتبادل الأنباء ونُعلّق عليها؛ كنّا مُستمتعين للغاية، نقلق معاً، نغضب معاً، نحقد ونأمل معاً؛ عندما كنّا نتحدّث عن المطر والطقس الجميل، كان الحوارُ يتضمّنُ أيضاً انتظاراتنا ومخاوِفَنا؛ يكفي أن نكون حاضرين حتّى نشعُر بالقُوّة. تواعَدنا على أن نبقى أبداً مُتَّحِدين ضدَّ الأنظمة والأفكار السيّئة؛ لقد أزِفَ موعِد هزيمتهم؛ يعود لنا بناء المُستقبل المُشرَع أمامَنا. ربّما سياسيّاً، فكريّاً عموماً: كان علينا أن نزوِّدَ فترة ما بعد الحرب بإيديولوجيا. كنّا نحمِلُ مشاريع مُحدَّدة. كانت غاليمار تستعِدُّ لإطلاق موسوعة مُخَصَّصَة للفلسفة؛ عزمنا على تجريد المرحلة من الأخلاقيّات: اتُّفِق على بيانٍ يُلزِمُ الفريق: كامو، ميرلوپونتي، سارتر وأنا نفسي. قرّر سارتر بعث مجلّة نُديرُها معاً. كنّا قد وصلنا إلى آخر الليل. بزغ الفجر؛ كانت انطلاقة جديدة؛ هذا ما يُفَسّرُ النضارة المُسكِرَة لصداقات الشباب التي كنتُ أشعُر بها رغم سنواتي الست والثلاثين.

كان حظّاً بالنسبة إليَّ أن أدخُل الحياة الأدبيّة في تلك الآونة تحديداً. فقد ساعدتني صداقاتي على معرفة طموحاتي. لم أكن أطمَعُ في تمثال مرمري يبقى بعدي على مرّ العصور لكنّي أيضاً، لن أرضى بالفُتات؛ عرفتُ رغبتي الحقيقيّة عبر السعادة التي كنتُ أشعُر بها كلّما أنجزتُ عملاً.

أثناء العشاء الأوّل الذي أقمتُه في غُرفتي، استحضرتْ زات لايريس وجانين كينو وهما تتنزّهان على الدرّاجات على دروب الرّيف: تحدّثتا عن علاقة فرنسواز وپيير في *الضيفة*، عن موقف الزوجَيْن من غزاڤيير، عن الخيانة، عن الإخلاص، عن الغيرَة والثقة؛ فهِمتُ من خلال حوارهما أنّهما كانتا تتساءلان عن مشاكِل شخصيّة؛ أذكُر ذلك الجيشان بداخلي فيما كنتُ أُنصِتُ إليهما. كلمة من كامو لامستني أيضاً، فقد أعَرتُه نسخة مُنَضَّدة من *دماء*

الآخرين؛ كنّا في مطبخ لايريس، نستَعِدُّ للعشاء حين أخذني جانباً وقال: «إنّها رواية أخويّة»، وفكّرت: «تستحِقُّ الكتابَةُ العناء ما دُمنا بذلك قادرين على خلق أُخُوَّة عبر الكلمات.» اقتحام حيوات غريبة عنّي، وأنا أسمَعُ صوتي الخاص، يمُدُّني بانطباع أنّي أُخاطبهم: هذا ما أقمناه؛ لو أنّها تعدَّدَت داخل آلاف القلوب، فإنّ وجودي المُتجدّد والمُتحوِّل قد نجا من الزوال.

لدَيَّ الآن كتابٌ منشور، وكان من الطبيعي حضور اجتماعات الرابطة الوطنية للكُتّاب؛ ابتعدتُ بسبب شكّ ساورني، جعلني أحترزُ من تلك الدائرة. كان التفاهُم بيني وبين سارتر تامّاً حتّى أنّ حضوري عبثاً ضاعف حضورَه؛ كان غير مناسب وجالباً للأنظار وعديمَ الفائدة. لم أكن أهابُ شرور الآخر بل ضيقي الخاصّ: كان لدَيَّ انطباع بأنّي أُشاركُ في استعراض سِرّي. لم تكن هذه الرقابةُ لتَحصُل لو أنّي رافقتُ سارتر إلى الرابطة منذ اليوم الأوّل؛ كانت شكوكي ستَخفى عنّي لو أنّ الجلسات قد أغوتني: لكنَّ سارتر كان يرى أنّها مُضجِرَة. سُرِرْتُ حين طلب منّي أن أعهَد بـ*دماء الآخرين* إلى منشورات مينوي Minuit (لم تكن الطباعةُ قد بدأت حين جاء الاستقلال). كان بوُدّي لو أنّي «فعلتُ شيئاً»؛ لكنّي اكتَفَيْتُ بمشاركة رمزيّة وبقيتُ في غُرفتي.

كان الأدبُ يُعاني نوعاً من النّعاس، لكنَّ الموسِم المسرحي كان ساخِناً. أخرج بارو في قاعة الكوميديا الفرنسيّة *حذاء الساتان*. صدمتنا أشياءُ كثيرة في هذه الدراما، عندما قرأناها قبل سنوات؛ مع ذلك، أثارت كلوديل إعجابنا حين نجحت في الجمع بين السماء والأرض: أزعَجتنا عندما كتبت «قصيدة للماريشال»؛ غير أنّنا كنّا مأخوذَيْن بالفضول لرؤية معالجة بارو للمسرحيّة. بدأ العرضُ عند السادسة مساءً ودام أكثر من أربعِ ساعات: كان عملاً مُشَوِّقا يحبِسُ الأنفاس. ضايقَتنا ماري-بال في دور المُتحوِّلة الجنسيّة: بدت لي دونا پرواز ذات جمال ذكوري؛ لكنّي اندَهَشْتُ لصوتِها: كان صوتاً إفريقيّاً وأمريكيّاً.

تناولنا الغداء في واحدة من الغُرَف المُطِلَّة على السّاحة. في المقهى تحوّلَ سالاكرو وسارتر بحذر إلى الصّالون لتشغيل الرّاديو: سمِعنا الرّصاص يُصَفِّقُ بينما كانت البي بي سي تُذيعُ خبر انتهاء المعارك، وتحرير باريس بالكامل.

ذهب سارتر وسالاكرو من جديد إلى قاعة الكوميديا الفرنسيّة التي كانت تشغَلُها الرابطة الوطنيّة للمسرح. أمضى اللّيلة واليوم التالي، التي جُبتُ فيهما باريس؛ كان علينا دائماً التزوُّد بشيء ما من هنا أو هناك؛ ربّما كان عليَّ أيضاً تقديم الجزء الأوّل من تقرير سارتر إلى كامو. أذكُر الصّمت الحارق والغريب في الشّوارِع حيثُ الدورِيّاتُ المُصفَّحة تجوب الطّرقات وحيثُ يُصَفِّقُ الرّصاص هنا وهناك. قنّاصٌ عنيد كان يحرُسُ شارِع فور Four تحتَ النار؛ عَبَرْنا مُسرِعين بين عاصِفَتَيْ رصاص. مساءً، تناولتُ للعشاء حبَّتَيْ بطاطا في فندُق شاپلان مع أولغا ووائدا، بوست وليز. درّاجون صرَّحوا أنّ لواء لوكلارك قد وصَل للتوّ إلى ساحة فندُق المدينة. أسرعنا نحوَ مُفترق مونبارناس؛ كان النّاسُ يركُضون، قادمين من كلّ الشّوارِع. دوَّت أصواتُ المدافِع، رنّت كلُّ أجراس باريس، أضاءت كلّ البنايات. أشعلَ أحدُهم نيران الاحتفال على الجادة؛ أمسكنا بعضنا بأيدي بعض؛ غنّينا كما لم نفعَل من قبل. فجأة صوتٌ يُحذّر: «الدبّابات!» برزت دبّابةٌ ألمانيّة من دنفر-روشرو فعُدنا إلى بيوتنا؛ لكنّنا لبِثنا فترة طويلة في ساحة الفندق للتحدّث مع بقيّة الزّبائن. «إن كانوا يعتزمون قصف باريس، فإنّهم سيفعَلون اللّيلة.»، قالت امرأة.

عند السّادسة صباحاً، خرجتُ إلى شارِع راسپايْ ركضاً: كان لواء لوكلارك يمُرُّ في موكب بشارع أورليان وكان هناك حشدٌ كبير على الجانِبَيْن يهتِفون ويُلوّحون بما في حوزَتِهم. في شارع دنفر-روشرو، مجموعة فتيات أيتام يضعْنَ شارات ثُلاثيّة الألوان، لوَّحن بالأعلام؛ صُفِّفت أمام مصحّة ماري-تيريز كراس للأطفال المرضى والجرحى.

كنّا من حين إلى آخر نسمَعُ صوت الرّصاص: قنّاص أسطُح، أحد ما سقط، حملوه، لكن لا أحد انشغل: كانت السّعادَةُ أكبر من كلّ خوف.

جُبتُ باريس مع سارتر طوال النّهار شامتة، رأيتُ النّساء الأنيقات يعانِقْنَ الجُنود؛ علماً يُرفرِفُ على قمّة برج إيفل. أيّ جلبة في قلبي! من النّادِر جدّاً أن نتقاطَعَ مع سعادة طال انتِظارُها: حالفني هذا الحظّ. قابلنا أناساً نعرِفُهم كانوا يمسَحون دموعَهم «الآن بدأت المتاعِب: سنرى ألواناً منها!» لم أؤيِّدهم؛ تسرّبت منهم هذه الحُمّى وهذا الحُبور لأنّهم لم يعرِفوا كيف يُريدونها. لم

نكن أكثر عمى منهم؛ لكن لا شيء سيسلُبني هذه اللّحظات: لا أحد سلبني إيّاها من قبل؛ إنّها تومِضُ في ماضيَّ ببريق لم يخبُ قطّ.

أُقصِيَ أحد أصدقائنا من هذه الحفلة رغماً عنه. ذهبنا إلى آل لايريس؛ تلَقّوا مُكالمة من زني وجون أوبيي؛ كانا يتّصلان جاثين على رُكَبِهم؛ دارت معارِكُ حول البيت: يستحيلُ الخروج. علِقَ بعضُ الجنود الألمان في حدائق اللكسومبورغ وبدا من الصّعب إجلاؤهم. نزل ديغول إلى الشان-إيليزي عند الظّهيرة. شاهدَ سارتر الموكب من شُرفة فندُق اللوڤر. تحوّلتُ بصُحبة أولغا ولايريس إلى قوس النصّر. كان ديغول يمشي على القدميْن وسط حشد من رجال الشّرطة والجنود وعناصر من قُوّات الأمن الداخلي FFI ذوي الأزياء العجيبة مُلتحِمي الأذرع، يضحكون. اختلطنا بالحُشود وهتفنا، لا للموكب العسكري بل للكرنفال الشعبي الفوضوي الجميل. فجأة سمِعتُ ضجيجاً مألوفاً ومُتَوَقَّعاً نوعاً ما: طلقاتٌ ناريّة. هرب النّاسُ ناحية الشارع المُتعامِد وتبعتُهم ممسكة بذراع أولغا؛ انعَطفنا نحو طريق آخر: رصاصٌ صفّر في كلِّ الاتّجاهات؛ البعضُ تمدَّد على الإسفلت. فضّلتُ الرّكض؛ كانت كلُّ البيوت مُغلَقة، لكنّ رجالاً جعلوا بعضَ الأبواب مُمكنة ودخلنا لنحتمي: مخزن أوراق تغليف. استرددنا أنفاسَنا.

عاد الصّمتُ ليسود من جديد فخرجنا. صادفنا سيارات إسعاف ومُمَرِّضين يحمِلون جرحى فوق النقّالات. تساءلتُ بقلق عن مصير آل لايريس وذهبتُ إلى بيتهم؛ عادوا مُتأخّرين سالِمين. وجدنا سارتر على رصيف غران-أوغستان؛ علِقَ في شُرفة مع أعضاء من الرابطة الوطنيّة للمسرح عندما انطلقت الرصاصات الأولى؛ حسِبَتهُم قُوّات الأمن الداخلي ميليشيا فصوّبوا بنادِقَهم نحوَهم: اختبؤوا في عُمقِ الغُرفة. تناولنا العشاء مع جينيت، آل لايريس وأمريكيّ من بين أصدقائهم، پاتريس ڤالبرغ؛ كلّمنا هو أوّلاً ونحنُ نرمُق بدلته بارتياب. روى لنا أطوار دُخولِه إلى درو Dreux وفرسايْ وعاطفة الناسِ هناك. وما اعتراهُ من أحاسيس. غادرنا الطاولة ودندنت طاوِلة في السّماء؛ بدا كأنّها تحومُ حول الأسطُح؛ سمِعنا انفجاراً عنيفاً بالقُرب منّا. في تلك اللّحظة عرفتُ الخوف. طائرة ألمانيّة مُحَمَّلة بالقنابل والحقد تجوب

سماء باريس بعد هزيمة النازيّين لهُو أمر مُرعِب أكثر من كلِّ غارات الحُلفاء. كنّا في الطابق الخامس؛ طلبتُ النّزول إلى الطابق الأرضي. ضحك ڤالبرغ ساخراً من جزعي؛ الآخرون، لا أدري إلى أيّ حدّ كانوا مُطمَئِنّين لكنّهم لم يُعارِضوا. تجمَّعَ أغلبُ المُتساكنين في الساحة. انفجارات جديدة، ارتَجّت لها النّوافِذ. ثمَّ هذا اللّيل. عرفنا اليوم المُوالي أنّ القنابل لم تَسقُط بعيداً: احترق مخزن الخُمور؛ ودُكَّ بالكامل مبنى في شارع مونج.

انتهى الأمر. تحرّرت باريس؛ استعدنا العالم والمُستقبل. قبل الارتماء في أحضانهما أردتُ حوصَلة ما تعلَّمتُه خلال السّنوات الخمس الماضية.

عند بداية الحرب، وصلتني كلمة استحسان من دار غاليمار، من امرأة شابّة وجميلة مُتزوِّجة بأحد كُتّاب الدّار: «ماذا تُريدين؟ قالت، لن تُغَيِّر الحربُ علاقتي بأصغر عُشبة.» أعجبتني هذه الصّراحة وضايقتني في آن واحد: صحيحٌ أنّ حِزَم العُشب لا تعني لي الكثير. سُرعان ما كفّت حيرَتي؛ لم تُغَيِّر الحربُ من علاقتي بكلّ شيء بل غيّرت كلَّ شيء: سماء باريس وقُرى بروتانْيْ، أفواه النّساء وعيون الأطفال. بعد جوان 1940، لم أعُد أتعرّفُ إلى الأشياء ولا إلى النّاس ولا إلى الأوقات أو الأمكنة ولا إلى نفسي. لقد تحرّك الوقتُ الذي ظلّ يُراوِحُ مكانَه عشرة أعوام مُتواصلة، وأخذني معه فجأة: وجدتُني أكثر غربة من الأوقات التي قطعتُ فيها البحار رغم أنّي لم أُغادر شوارع باريس. اعتقدتُ بسذاجة الأطفال أنّ الحقيقة ثابتة: ما زالت نصف مُختَبِئة تحت ركام المعدن الذي استخدَمَتْهُ السّنوات أو التي أذابتها الثّورة في غفلة من الجميع؛ لكنّها توجَدُ إلى حدٍّ كبير: يتصاعَدُ العدلُ والعقلُ من السّلم الذي أُهدِيَ إلينا للتوّ. شُيِّدَت سعادتي على قاعدة صلبة، تحت أبراج راسخة.

يا لسوء التّفاهُم! لم أعِشْ قطعة من الأبديّة فحسب لكن فترة عَرَضيّة؛ ما قبل الحرب. كشفت لي الأرضُ عن وجهها الآخر: لقد خرج العُنف، الحُمق، الكوارِث والرّعب عن السّيطرة. لن يقلب النّصر الوقت ويبعَثْ إلى الحياة نظاماً تشَوَّشَ بصورة عرضيّة؛ لقد انفتحت حقبة جديدة؛ ما بعد الحرب. لن تعود أيّ حزمة عشب في أيّ مرعى تحت أيّ نظرة كما كانت من قبل. كان نصيبي هو الزّوال.

سينقَلِبُ التاريخُ رأساً على عقب، من خلال أوقات مجيدة واستِعارات مهولة للألم العظيم.

مع ذلك، استقبَلتُ نهاية شهر أوت 1944، بثقة. لم يكن النّصرُ عَدُوّاً بما أنّ آمالي قد انتصرت في النّهاية؛ لقد حرمتني الحربُ من مسرّاتي الأروع؛ لِمَ أحببتُ، خلال رحلاتي، التخفّي وراء الأشجار والالتحام معها ومع الحجارة! لقد انتُزِعْتُ من نفسي أكثر عندما فُقِدتُ وسط فوضى الأحداث المُتلاحِقة؛ تجسدّتْ فيَّ باريس وصرتُ أتعرّف على نفسي في كلّ وجه أراه؛ يُثمِلُني حضوري الخاص ويمنَحُني، كما لو أنّ الأمر مُعجزة، حضورَ الآخرين أيضاً. بزغت لي أجنِحة، في المُقابل رحتُ أُحلّقُ فوق حياتي، وفوق الأفق الجماعي: إنّ سعادتي تعكِسُ مغامرة العالم الرائعة التي أراد من ورائها إعادة خلق ذاتِه من جديد. لن أنسى جانبه الظّليل. لكنّ الأخلاقيّة التي تحدّثتُ عنها ساعدتني على مُجابهة المِحنة. التحرُّك ليس من دون الآخرين، المُقاومة، المُوافقة على الموت كي يكون للحياة معنى: أعتقد أنّي أتعلّم السّير في الظّلمات التي ما انفكّ الإنسانُ يشتكي منها، كلّما تعلّقت بهذه المبادئ.

لكن، لا؛ لقد اخترقتْ هذه الاحتجاجات حواجزي، وحطّمتها. من المُستحيل التماثُل لتفاؤلي الأوّل؛ الكارثة، الفشل، الرّعب، أشياء لا تُعَوَّض ولا تُتَجاوَز: أعرفُ أنّ هذا سينسحبُ على بقيّة العُمر. لا يجدُر بي السُّقوط مُجدَّداً في جنون الشيزوفرينيا التي ما انفكّت، خلال السّنوات الماضية، تُوائم العالم حسب برامِجي. ما زلتُ غير مُكترثة بأشياء كثيرة يأخُذها الآخرون مأخَذ الجدّ؛ لكنّ حياتي كفّت عن أن تكون لُعبَة، عرفتُ جذوري، لن أتكاسَلَ أبداً في الهروب من وضعي: حاولتُ تقَبُّلَه. إلّا أنّ للواقِع وزنَه. لحظة، يخطُرُ لي من البشاعة أن أتأقلَم معه. بالتخليّ عن أوهامي وغروري فقدتُ عنادي: إنّه تقريباً أكبر تحوّل حصل لي ولعلّي نادِمة بحُرقة على ذلك.

تساءلت فرنسواز في *الضيفة*: «هل سأُصبحُ امرأة خانِعة؟» إن كنتُ قد جعلتُ منها قاتلة فلأنّي أرفُض الرّضوخ. ها أنا الآن أُذعِنُ رغم الموتى الذين خلَّفتُهم ورائي ورغم سُخطي وثورتي، وها أنا أتصالَحُ مع السّعادة. تلقّيتُ ضرباتٍ عديدة: لم تنجَح أيٌّ منها في تحطيمي. أنا أعيشُ، بل لعلّي لا أحمِلُ

شوائب الماضي أبداً. لا لعدم الاكتراث، يا لعدم الاكتراث! ليس أقلّ أو أكثر من بقيّة الناس: كنتُ أخجل بدَلاً عنهم وها أنا أيضاً أخجَلُ من نفسي. لكنّي لا أحمِلُ عبءَ الضّمير هذا إلّا كوميض البرق أو لعلّي لا أشعُر به مُطلَقاً.

أفزعني الموت منذ وعيتُ أنّي أموت. في وقت كان فيه الجميعُ ينعَمون بالسّلام حيثُ السعادة تبدو مُؤكَّدة ولا شيء يُعَكّر صفوها، يُدوِّخني أحياناً في عمر الخامسة عشرة غياب كلّ شيء، وهو ما سيصيرُ يوماً غيابي عن كلِّ شيء؛ يُخلّف لدَيَّ هذا الانعدامُ قدْراً لا يُحتَمَلُ من الرّعب الذي ما كنتُ لأواجِهَه بدم بارد: لم أكن أرى فيما يُسمّى بالشّجاعة سوى ضرب من الخِفَّة. لاحظتُ، مع ذلك، أنّي لم أظهر جبناً خلال تلك السّنوات أو التي تلتها. عندما مارستُ التزحلُق على الثّلج، عندما حاولتُ السباحة، كان ينقُصني البأس: لم أجرؤ على التقدُّم بسُرعة فوق الثّلج ولم أجرؤ على التوَغُّل في الماء حتّى فقدان الشّعور بقَدَمَيَّ؛ كنتُ أخشى كسر ساق، أن أختنق وأن أُضطَرّ إلى طلب المُساعدة من أحد: لم يكن الموتُ رهاناً. في المُقابل لم أكن أتأخَّرُ عن تسَلُّقِ جبال شديدة الانحدار، وسلكِ طرقات زلِقَة حيثُ الصّخور وزلّات القدم قد تُكلِّفني حياتي؛ صباحاً، عندما أنزلق من عُلُوٍّ شاهق إلى ضفّة سيل جارف، أقول بفضول: انتهى الأمر الآن؛ هذا يحدُث إذاً! كانت لي نفسُ ردّة الفعل عندما سقطتُ من الدرّاجة وأُغمِيَ عليَّ؛ كنتُ أتأمّل بحيادٍ هذه الحادثة غير المُتوقَّعة والطبيعيّة في آن: موتي. حمّسَتني السّرعة في كلتا الحالَتَيْن؛ لا أدري كيف كنتُ سأتصرّفُ لو واجهني خطر حقيقي وأنّ مُخيّلتي ظلَّت تعمَلُ بصورة عاديّة؛ لم تُتَح لي الفرصة كي أقيس مقدار جُبني أو شجاعَتي. لم يمنعني قصفُ باريس وهاڤر من النوم: كان حجمُ التّهديد ضئيلاً. المؤكَّد هو أنّي في الوضعِ الذي خضعتُ له، لم يُمَثِّل الخوفُ عائقاً أمامي. لقد جنّبني تفاؤلي الإفراط في الحذر؛ ثمَّ إنّي لم أرهب الموت بصفته حدثاً ينبثق عن الحياة: إنّه نقطة النّهاية، لكنّه ينتمي إليها؛ خلال المُناسبات التي ظننتُ أنّي أواجِهُه، عشتُ المُغامرة من جانب الحياة: لم أُفكّر في العدم الذي يفتَحُ ذراعَيْه لاستيعابي من الناحية الأخرى. ما رفضتُه بكلِّ قُوّتي هو رعبُ تلك اللّيلة لأنّها ببساطة مُرعِبة. إنّها

كذلك لأنّي على قيدِ الحياة؛ لا أقبَلُ بسهولة كوني زائلة، قابلة للانتهاء، كوني قطرة في المُحيط؛ أحياناً تبدو لي مبادراتي ومُحاولاتي عبثيّة، فتتحوّل السّعادَة إلى خدعة والعالم إلى قناع يُنكِّرُ العدم.

هل سيصُدّ عنّي الموتُ فائض الألم: «أقتُل نفسي بدل الإذعان»، فكّرتُ. رسَّخت الحربُ هذه الصّورة باندِلاعِها؛ أصبحَ الحزنُ احتمالاً يومِيّاً: الموتُ أيضاً. للمرّة الأولى في حياتي أتوَقَّفُ عن مُعارضة نفسي. قلتُ في سِرّي وأنا جالسة على قمّة المصَبّ، في سبتمبر 1939: «حظيتُ بالحياة التي أُحبّها؛ يُمكنها أن تنتهي الآن: كان يُمكن أن يحدُث ذلك.» أرى نفسي مائلة على بوّابة القطار والرّيحُ تصفَعُ وجهي. كنتُ أقول: «ربّما آن الأوانُ لأعالِج الأمر؛ ليَكن.» ولأنّي قبِلتُه من قلبي دون حرج، فهمتُ أنّي في الواقع أتحدّاه؛ سنوات أكثر أو أقلّ لم تكن ذات قيمة في مُواجهة الحرّية وقلّة الاهتمام، ما إن نكُفَّ عن الهرب. جُمل بدت لي خرقاء، اكتشفتُ حقيقتها سرّاً بيني وبين نفسي: يجبُ القبول بالموت حين لا يعود هناك وسيلة لإنقاذ الحياة؛ ليس الموتُ حادثاً معزولاً وعبثيّاً: إنّه يخلق مع الآخر روابط حيّة؛ إذاً، إنّ له معنى وله ما يُبرِّرُه. لاحقاً ظننتُ أنّي خضتُ تجربة الموت وأنّي عرفتُ خواءه؛ توقّفتُ عن الخوف منه وحتّى التفكير فيه.

لكنّني لم أكتفِ بعدم الاكتراث. ذات ليلة صيفيّة، قبل أيّام من افتتاح *الذّباب*، كنتُ أتناوَلُ العشاء مع سارتر وكامي؛ كنّا عائدين من مونمارتر حين باغتنا حظر التّجوال؛ نزلنا في فندق بشارع الجامعة. شربتُ كثيراً كما أفترِضُ: في غُرفتي المفروشة باللون الأحمر، لاح لي الموت. لويتُ يدي وبكيتُ وضربتُ رأسي على الجدار بشدّة كما كنتُ أفعل في سنّ الخامسة عشرة.

ذات ليلة من 1944، حاولتُ ترويض الموت بالكلمات. أسوقُ هنا بعض المُدَوّنات كما جرت تحت ريشتي: كنتُ نائمة في سريري، بطني مُلتصقة بالفراش، ركبتاي وقدَمايَ غائصة في الأرض. ليلاً، تحوّل الصّمتُ إلى حفيف أوراق وخرير مياه وضجّة آتية من طفولتي. التَفَّ الموتُ حولي. القليلُ من الصّبر وسأنزَلِقُ نحو الضفّة الأخرى من العالم، في المنطقة التي لا تعكِسُ النور أبداً. كنتُ وحدي هناك بعيدة عن الآخرين وسط ذلك الصّفاء

الذي قد يُشكّل تحديداً الوجهَ الآخر للموت والذي لم أعرِفهُ إلّا في أحلامي: عبثاً بحثتُ عن وُجودي في الصّحاري والجبال والهضاب؛ لن تنتهي الوحدة أبداً منذ اللحظة التي نُقرّر فيها إبقاء عيوننا مفتوحة. حاولتُ الهرب على بعدٍ يُحيلُ على حياتي ويجعلني ألامسُ وجودي النقي؛ ربّما التقيتُ بالموت على الحافة؛ وربّما حلم الموت الذي اعتقدتُ دائماً أنّه حقيقة.

حاسِمَة، تارِكة نفسي أنزلِق بنوع من الإهمال نحوَ عُمق العدم بينما صوت يَصرُخ فيَّ: «هذه المرّة لن يكون هناك يقظة.» ويظهَرُ أحدُهم ويقول: «أنا ميّتة»، وأنا أحلُم بالموت الذي يحلُم به غيري، في تلك اللّحظة المُعجزة حيثُ تبلُغ الحياةُ ذروة النّقاء والمُكاشفة.

لا يَمَرُّ أسبوع لا ألعب فيه لعبة القلق والشكّ. لكن هذه اللّيلة، يدفَعُ جسدي نحو التخلّي عن النّوم، رافضاً الانقيادَ إلى الحُلم بالموت، ربّما لأنكره، رفضتُ الاستسلام للنُّعاس؛ لم أكن أشعُر بالقلق لأنّ الرّفض كان عنيفاً إلى درجة فقد معها الموتُ قيمته: أُلغِيَ الوقت، وترسّخ وجودي دون مُساعَدة المُستقبل ودون تدَخّل من الآخرين. لكنَّ هذه الشّعلة تتطلّبُ مادّة تتغذّى عليها؛ لحظة، أحرقتُ الذّكريات، وباتت الجُمَلُ المُزدَحِمَة في حُنجُرَتي تكفي لإسعاد قلبي؛ لقد تورّمت الحياةُ وباتت تُضايِقُني: لكن، كيف السّبيلُ للعيش في ليل هذه الغُرفة وسط مدينة مُقفَلة؟ أضأتُ النّور. تمدَّدتُ وكتبتُ هذه الأسطر. كتبتُ مُقدّمة هذا الكتاب الذي هو بياني ضدَّ الموت، هذا الكتاب الذي طالما تمنّيتُ كتابته: لم يصلح عمل هذه السّنوات سوى لمنحي الجسارة والذّريعة لكتابته.»

ربّما ذات لحظة، تعِبَ هذا الموتُ الذي أرهبني طوال حياتي؛ لن أنتبِه إلى ذلك على أيِّ حال.

إثر حادثة أو مرض، سيكون سهلاً على كلّ حال. إذعانٌ يقود إلى آخر. سأكون ميّتة في نظر الآخرين ولن أرى نفسي ميّتة.

«سأموت على فراشي دون شكّ؛ يُخيفني سريري. إنّه زورَق باعِث على الغثيان؛ أبتعد عن الضفّة، مُسَمَّرة دون حراك بالقرب من شخص يتحدّثُ

ويضحك، حيثُ يَمَّحي وجهُه على سطح الماء الذي يبتلِعُني؛ أغوصُ وأنزلِقُ وأرحَل إلى لا مكان، وأنا في فراشي على متن الماء والوقت واللّيل.»

لعِبت الأحلام التي لمّحتُ لها على امتداد هذه الأسطر دوراً كبيراً في تفاوُضي مع الموت. لا أدري كم مرّة تلَقّيتُ رصاصة في القلب وغرقتُ في الرّمال المُتحرّكة. تخدّرتُ ودُختُ ثمَّ أُلغيتُ تماماً: وجدتُ راحة عظيمة في هذا الانعدام الذي بتُّ راضية به. أدركتُ موتي. كما تمنّيتُ خوض الحرب من قبل، أدركتُ حتميّة الفراق؛ طفتُ بالموت وامتلكتُه ثمَّ أهلكتُه بفضل هذا الهوس. اخترقتُ الموت كما تَختَرِقُ أليس Alice المرايا، وحالَما أصبِحُ في الجهة الأخرى، أُبعَثُ من جديد: ابتلَعْتُه بدل أن يُذوِّبني فيه؛ باختصار، لقد عايَشتُه.

قلتُ مُعبّرة عن نفسي: «انتهى الأمر هذه المرّة؛ لن تكون هناك يقظة!» وقال أحدُهم: «أنا ميّتة» هذا الحُضور هو الذي رَوَّض وحش الموت؛ كنتُ ميّتة حين همس الصّوت: «أنا هنا.» ثمَّ استَفَقتُ وقفزت الحقيقةُ أمامي: عندما أموت، لن يقول الصّوتُ شيئاً. بدا لي أنّي لو نجحتُ في أن أكون موجودة لحظة موتي، لو تقاطعتُ معها، فسأُحيّيه وأجعَل له كينونة: ستكون طريقتي كي أنجو. لكن، لا. لن أُمنَح ذلك، فكّرتُ؛ وأبداً لن أجمَع الرعب الذي يُحيلُني عليه في قلق مُجرّد؛ سيَظلُّ، دون علاج، ذاك الخوف المقيت، تلك الأفكار المُظلمة، صورة رتيبة لحاجز أسود، يوقف سلسلة الفضاءات الحبيسة التي تُمَثّلُ السّنوات والتي ستظلُّ بعدها الصّفحَةُ بيضاء إلى الأبد؛ لن ألمَسَه: لن أعرف سوى هذا الطّعم المُزَيّف المُمتَزِج بمادّة الحياة، حياتي. أخشى الشّيخوخة: لا لأنّ وجهي سيتبدّلُ وقوّتي ستذوي، لكن بسبب هذا الطّعم الذي سيثقل ويتعفّنُ مع كلّ لحظة تمُرّ، بسبب الحاجز الأسود الآخذ في الاقتراب دون هوادَة.

ضاعَ الحاجزُ الأسودُ بعيداً؛ لكن حتماً سيأتي الغياب والفقد. كنتُ أجوبُ الرّيف بدرّاجتي أتأمَّلُ الحياة والشّمس. فينقَبِض قلبي. سيوجَدُ كلّ هذا من دوني. عندما كنتُ طفلة، كنتُ أحاولُ الإمساك بأرواح صغيرة لم تتجسَّد بعد وأقول نيابة عنها: أنا؛ الآن، أتخيَّلُ أنّ أحدهم سيُعيرني وَعيَه وسيكون أنا

التي تنظُر بعينَيْه. رأت اميلي برونتي هذا القمر وهذه الهالة الحريريّة الحمراء؛ فكّرتُ: يوماً ما لن أراه. نفسُ القمر في عُمقِ عيوننا، لماذا لسنا قابلين للاختزال بعضنا في بعض؟ سيتطرَّقُ كلٌّ منّا لهذا الموتِ المُشترك كلٌّ على طريقته ووحدَه. من ناحية الحياة، يُمكننا الموتُ معاً؛ لكنّ الموت هو الانزلاق خارج العالم حيثُ كلمة «معاً» لا معنى لها. أكثر ما أتمنّاه في العالم هو أن أموت مع من أُحبّ، لكن هل الموتُ جُثَّة بجانب جُثّة، ليس إلّا خدعة: لا شيء بجانب لا شيء، لن تكون هناك صلة بينهما.

هذه اللّيلة المريضة، أستشعِرُها من خلال أموات ليسوا أمواتي. ثمَّة زازا؛ ما زالت تزورني ليلاً بوجهِها المُصفَرّ تحت منديل رأسِها الوردي. ثمّة نيزان وجِذوي بورلا، بورلا الذي غاص في الغياب والصّمت ويوماً ما أدركنا أنّ علينا تسمِية هذا الغياب موتاً. ثمَّ مضى وقت: لم يَكُفّ عن أن يكون ميّتاً، لن ينتهي من ذلك أبداً. أحياناً كثيرة، أقول في نفسي، ليلاً على وجه الخصوص: «لندفنه ونتوقّف عن التّفكير فيه نهائيّاً!» كم هو ملائم الدّفنُ التقليدي! يختفي الميّت في حُفرة آخذاً معه موتَه أيضاً؛ نُهيل عليه التّراب من فوق. نُولّي الأدبار ونُغادر؛ أو إذا أردنا، نعود من وقت إلى آخر إلى هذا المكان حيثُ قرّرنا أنّه ميّت بداخله: نحنُ نعرِف أين نجِدُه. ثمَّ عادة يموتُ الناس على أسِرَّتِهم، في البيت؛ فيكون غيابُهم هو نقيض حضورهم السّابق: كُرسيُّه فارغ، في هذه السّاعة بالذّات يُفترَضُ أنّه أدار المفتاح في القفل. أُحاوِلُ أن أقول عن بورلا وأنا أجوّل في باريس: إنّه ليس هنا؛ لكن على أيّ حال لن يكون حيثُ أنا الآن؛ عن ماذا غاب؟ عن لا مكان، عن كلّ الأمكنة؛ يجتاحُ غيابُه العالم بأسرِه. رغم أنّ العالم يعُجُّ بالنّاس؛ لم يعد ثمّة مكان لمن فقد مكانَه. يا للفراق! يا للخيانة! كنّا ننكر حياتَه وموته مع كلِّ نبض من قلوبنا. يوماً ما سننتهي تماماً من نسيانِه. يوماً ما سيُصبِحُ هذا الغياب، هذا المنسِي أنا. مع ذلك لا يُمكنني أن أتمنّى الهروب من هذه اللعنة اللاّنهائيّة، ستنصَهِرُ حياتُنا وسط اللاّمُبالاة الكونيّة: يطعَنُ الموتُ في صحّة وجودنا لكنّه هو من يُضفي على الموت معنى؛ عبرَهُ يكتَمِلُ الانفصال المُطلَق، لكنّه أيضاً مفتاح كلِّ تواصل. حاولتُ في *دماء الآخرين* أن أتبيّن أنّ الموت يتحطّم على جِدار الامتلاء بالحياة؛ وأردتُ البرهنة في *پيروس وسينياس* أنّه من دون الموت لن يكون هدفي هو إبراز هول

المسافة التي تفصِلُ بين الأحياء والأموات. سنة 1943، عندما بدأتُ في كتابة *كلّ الرّجال يموتون* تصوَّرتُ أن يكون تَسَكُّعاً طويلاً في فكرة الموت.

سأتحدّثُ عن هذه الرّواية لاحقاً، لأنّها نُشِرَت خلال السّنة الأولى لما بعد الحرب. أريدُ فقط التنويه إلى مسألة قبل كتابة *الضيفة*، لقد تحسَّسْتُ الطّريق سنوات عديدة؛ ما إن بدأتُ كتابتها لم أتوقّف عن الكتابة ما عدا فترات قصيرة شغلتني فيها الأحداثُ بالكامل أو شملتني؛ لم يُمثّل مرور تجربتي إلى الأدب مُشكلاً عويصاً. هذا منتشر أيضاً بين الكُتّاب، لستُ استثناءً: هكذا بدا لي ملائماً تأمُّل الظاهرة عن قرب. لماذا كان «لديَّ ما أقوله» دائماً؟

أوّلا لأنّي أُحسِنُ مهنتي ولأنّي اكتَسَبتُ الثّقة؛ عندما أجيلُ في رأسي فكرة كتاب، فإنّ لديَّ يقيناً بأنّه سيُنشَر: أومن بوجودِه، وهذا يُساعِدني على إيجاده. لكن ثمّة سبباً ضرورياً. ذكرتُه: فقط عندما يطرأ على تجربتي شرخ ما، أتراجَعُ إلى الوراء لتأمُّلِها والحديث عنها. منذ إعلان الحرب كفت الأشياء عن السّير بيُسر؛ تفَشّى الألم في العالم: بات الأدبُ ضروريّاً كالهواء الذي أتنفَّسُه. لم أتخيّل أنّه مُضاد لليأس؛ لكنّي لم أقتصر على هذا السّقف، بعيداً كلّ البعد؛ ما أحسستُ به شخصيّاً هو الغُموض المُثير للشّفقة لوَضْعِنا المُريع والمنتِج للسعادة في آن؛ لاحظتُ أنّي كنتُ غير قادرة على الجمع بين المَلمَحَيْن وتحديد الأصدق بينهما: بقيتُ دائماً على مُستوى أدنى من انتصارات وأسمى من فظائعها. واعِية تماماً بالهُوَّة السحيقة التي تفصِلُ بين الواقع وما أشعُر به، كنتُ في حاجة إلى الكتابة لإنصاف الحقيقة التي تتطابَقُ مع أيِّ نشاطٍ لقَلبي؛ أعتقِدُ أنّ نداء الكتابة يُفَسَّرُ بنفس الطريقة لدى عدد كبير من الكُتّاب؛ ليست النزاهَةُ الأدبيّة ما يتخيّله النّاسُ عادة: ليس الأمرُ نَسخاً للمشاعِر والأفكار التي تخطُرُ لك من لحظة إلى أخرى، تلميحاً للآفاق التي نلمَسُها، تلك التي بالكاد نلمَحُها والموجودَة رغم قصورنا؛ لهذا كي نفهَم شخصيّة مؤلّف من خلال كتاباته، يجبُ أن نشقى. أمّا بالنّسبة إليه فإنّ المُهمّة التي التزم بها قد انتهت، لأنّ كلَّ كتاب من كُتبِه لا يقول سوى القليل، القليل فحسب.

لن يُمسك على الورق أو بجسَدِه، مهما كرّر نفسَهُ ومهما قوَّم مسارَه، الواقِعَ

الغزير الذي يختَرِقُه. غالباً ما تُمَثّلُ جهودُه للاقتراب من الواقع، داخل الكتاب، نوعاً من الجدليّة؛ في حالتي إنّها تبدو جليّة. لم تُرضِني خاتمة *الضّيفة*: ليس القتلُ ما يسمَحُ بتجاوُزِ الصعوبات التي يرفُضها التعايُش. أردتُ بَدَل مُراوَغتِها، التحدُّث عنها بشجاعَة؛ حاولتُ في *دماء الآخرين وبيروس وسينياس* تعريف علاقتنا بالآخر. قرّرتُ أنّنا بصورة ما، نتدَخَّلُ في مصائر الغُرباء وأنّ علينا تحَمُّل هذه المسؤوليّة. غير أنّ هذه الخُلاصة تستدعي نقيضها؛ فقد شعُرتُ بحدّة أنّي مسؤولة وعاجزة في آن. هذا العجزُ هو أحد المحاوِر الرئيسة التي طرحتُها في *كلّ الرّجال يموتون*. أردتُ أيضاً تحوير التّفاؤل الأخلاقي الذي ضمّنتُه كتابَيَّ السّابِقَيْن وأنا أصفُ الموت، لا من باب أنّه علاقة تصِلُ الإنسانَ بكلّ ما حوَلَه، بل بوصْفِه كارثة العُزلة والفراق. هكذا يُفضي بي كلُّ كتاب إلى كتاب جديد، ذاك أنّ العالم انكشَفَ أمامي فائضاً بما في استطاعَتي الشّعور به، الإحاطة به وقولهُ.

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

مكتبة

رميتُ بنفسي في مغامرة محفوفة بالمخاطر عندما بدأتُ بالحديث عن نفسي: نبدأ ولا ننتهي. مضى عهد طويل وأنا أتمنّى سرد وقائع عشريني الأولى على نفسي؛ لم أنسَ قط النداءات التي كنتُ أبعث بها للمرأة التي ستستولي عليَّ بالكامل، جسماً وروحاً: لم يبق منّي شيء، ولا حتّى قبضة رماد؛ ناشدتُها أن تنتزعني من هذا العدم الذي قذفت بي فيه. ربّما لم أكتب كتبي سوى لألبّي هذا النّداء، هذه الصّلاة القديمة. في الخمسين، قرّرتُ أنَّ الوقت قد حان؛ أعرتُ مداركي لطفلة، لشابة مُهمَلَة في عمق الوقت الضّائع، وتائهة معه. جعلتها توجد بالأبيض والأسود على الورق.

لم أبتعد كثيراً في مشروعي. كبيرةً، كففتُ عن الانشغال بالمُستقبل؛ عندما أنهيتُ مُذكّراتي ما من صوتٍ رجع صداه من ماضٍ كي يُشجّعني على مواصلته. كنتُ قد قرّرتُ البدء بشيء آخر. ثمّ هاأنذي أفشل. غيرَ مرئيّة، خلف آخر خطّ، ارتسمت نقطة استفهام لم أنجح في مخاتلة تفكيري حتّى لا ينتبه إليها. الحرّية: لماذا؟ كلّ هذا الهرج، هذه المعركة، هذا الهرب، هذا الانتصار، أيّ معنى قد تضفي عليها مُجتمعة حياتي المتبقّية؟ أوّل عمل هو الانزواء خلف كتبي؛ لكن، لا، إنّها لا تمنحني أيَّ إجابة: كانت هي أسئلة بحدّ ذاتها.

قرّرتُ الكتابة، وكتبتُ، حسناً: لكن ماذا؟ لمَ هذه الكُتب، هذه فقط، فقط هذه بالذات؟ هل أردتُ أكثر أم أقلّ؟ لا شيء مُشتركاً بين الأمل الفارغ اللانهائي لعشريني والعمل المُنجَز. أردتُ في الآن نفسه أكثر بكثير وأقلّ بكثير. رُويداً، اقتنعتُ أنَّ الجزء الأوّل من ذكرياتي يتطلّب في نظري تتِمّة: لا طائل من رواية قصّة عن مهنة الكاتب إن لم أذكر كيف تجسّدت.

من جهة أخرى، ارتبطت حياتي بحياة جون پول سارتر؛ لكنّ قصّته، ينوي روايتها بنفسه، وأفسح له المجال ليفعل كما لا يفعل أحد أفضل منه. لن أبحث في أفكاره، أعماله ولن أتحدّث عنه سوى في حدود تقاطعه مع وجودي. نقّاد، اعتقدوا أنّي أردتُ في مُذكّراتي تلقين الفتيات دروساً؛ أردتُ خصوصاً، التخلّص من دَيْن. على أيّ حال، سيكون هذا التقرير مُجرّداً من كلّ مواعظ. سأكتفي برواية ما كانت عليه حياتي. لن أحكم على شيء، إلا إذا كان في الحقيقة فائدة. لماذا، ولمن قد تصلُح الحقيقة التي حاولتُ تضمينها هذه الصّفحات؟ أجهل ذلك. أتمنّى أن نخوض غمارها معاً بأكبر قدر من البراءة (عمدتُ في هذا الكتاب إلى القيام بحذف بعض المقاطع: لكن لم أجنح قط إلى الكذب. لكن ثمّة احتمال أنّ ذاكرتي في علاقة ببعض الأشياء قد خانتني؛ الأخطاء الصغيرة التي قد ينتبه إليها القارئ لا تقوّض الحقيقة في مُجمَلِها).

telegram @soramnqraa